

بنو إسرائيل

الجزء الثاني
التاريخ

منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الروماني في عام ١٣٥ م



دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزارطة - ت ١٦٣-٤٨٣

٣٨٧ ش قنال السويس - السطحي - ت ٥٩٧٣١٤٦

تأذ الدكتور

بيومي مهران

ر والشرق الأدنى القديم

جامعة الاسكندرية



بنو اسرائيل

الجزء الثانى

التاريخ

منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الرومانى فى عام ١٣٥ م

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفه - الجامعة
٤ شارع ستير - الأزاريطة
الاسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وآله

إهداء

إلى ذكرى أساتذتي الأجلاء - طيب الله ثراهم -:

الأستاذ الدكتور: عبد المنعم أبو بكر.

الأستاذ الدكتور: نجيب ميخائيل.

الأستاذ الدكتور: مصطفى الأسير.

الأستاذ الدكتور: محمد أبوالمحسن عصفور.

الأستاذ الدكتور: رشيد الناضوري.

أهدى هذه الدراسة.

تقديم

كان الحيز المخصص لتاريخ إسرائيل في سلسلة «دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم» هذه، جزءاً واحداً، فضلاً عن جزء آخر للحضارة، غير أن صفحات هذا الجزء التاريخي، إنما قد تجاوزت المائة بعد الألف بكثير، ومن ثم فقد رأينا من الأفضل أن يكون الجزء التاريخي في كتابين.

وها نحن نقدم للقارئ الكريم «الكتاب الثاني» نتابع فيه تاريخ بني إسرائيل بعد أن وقفنا بالقوم في «الكتاب الأول» عند وفاة موسى عليه السلام، على تخوم كنعان، ومن ثم فإننا نتابع في هذا الكتاب الثاني قصة بني إسرائيل منذ دخولهم فلسطين - بقيادة يشوع بن نون، خليفة موسى وفتاه - وحتى نهايتهم - سياسياً وسكانياً - في عام ١٣٥ م، على أيدي الرومان.

هذا ونظراً لأن الكتابين - الأول والثاني - إنما يتحدثان عن تاريخ الإسرائيليين القدم، ومن ثم فهما يكونان وحدة واحدة، ولهذا فقد أثرنا أن نضع مراجعهما في نهاية هذا الكتاب الثاني، على أن يكون الكتاب الثالث والرابع (الحضارة) وحدة مستقلة.

والله نسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل.

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»؛

بولكلى - رمل الإسكندرية في] الثاني عشر من ربيع الأول عام ١٣٩٨ هـ
التاسع عشر من فبراير عام ١٩٧٨ م

دكتور

محمد بيومى مهران

الباب الخامس

سكان فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي

الفصل الأول العناصر السامية

كانت فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد - عندما تدفقت إليها موجات البدو العبرانيين الذين طردوا من مصر - كغيرها من دول الشرق الأدنى القديم، ذات ثقافة راسخة، وسكان قد استقروا منذ أجيال وأجيال، وليس هناك أدنى تأكيد على أن سكان فلسطين السابقين للغزو الإسرائيلي، كانوا من عناصر غير سامية، ذلك لأن بقايا ساكني الكهوف من الألف الثالث قبل الميلاد، تشير إلى أنهم كانوا قومًا من الساميين^(١)، صحيح أن وجود جنس نقى في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه، أمر يتطلب مستوى من الفضيحة لا يعقله عاقل، فيما يرى ول ديورانت^(٢)، ولكنه صحيح كذلك أن سكان فلسطين كانوا في غالبيتهم العظمى - كما سوف نرى - من الساميين الذين أتوا إليها من شبه الجزيرة العربية.

ولعل من الأهمية بمكان أن نصحح هنا خطأ، ربما كان شائعًا إلى حد ما، وهو: أن العرب لم يدخلوا فلسطين إلا في القرن السابع الميلادي مع دخول الإسلام إليها، ذلك لأن الحقائق التاريخية إنما تكذب هذا الزعم تمامًا، فالكنعانيون العرب إنما هم سكان فلسطين الأصلاء، وأن العرب المسلمين الذين دخلوا هذه البلاد العربية في عام ١٥ هـ (٦٣٧ م)^(٣) لم يكونوا نقطة البداية للإقامة العربية في فلسطين، إذ سبقهم إلى هناك أخوة لهم عاشوا في كل مناطق الشرق الأدنى القديم - ومنها فلسطين - قبل

(١) A. Lods, op.cit., p. 56.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٢/٢٢٨ (القاهرة ١٩٦١).

(٣) انظر عن دخول العرب المسلمين إلى فلسطين: محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٤٦-٢٦٣؛ تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم، ١/٢٢٣-٢٣١، الكامل لابن الأثير، ٢/٤٩٨-٥٠١.

مجيء الإسلام بمئات السنين، هذا فضلاً عن أن أعداد المسلمين العرب الذين دخلوا فلسطين مع الإسلام كانت قليلة، كما كانوا يتشابهون مع السكان الأصليين من الناحية الجنسية، ومن ثم فقد رأى العلماء أن السكان العرب في فلسطين - فيما قبل الإسلام - كانوا سكاناً وطنيين، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان^(١).

وهكذا فالفلسطينيون اليوم إنما هم سلالة هؤلاء العرب القدامى، من كنعانيين وآموريين وغيرهم - بجانب قبائل أخرى قديمة - وأنهم قد عاشوا في بلادهم منذ العصور القديمة بدون انقطاع، بل ويمكن تتبع استقرارهم في فلسطين إلى عصور سحيقة، ترجع إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن كان هذا لا يمنع من وجود تسرب من عناصر أخرى إلى الأرومة الفلسطينية وبخاصة في فترة الوجود اليهودي في فلسطين.

وهكذا يمكننا القول أن العرب على أيام الفاروق عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ = ٦٣٤-٦٤٤م) - رضوان الله عليه - لم يأتوا إلى فلسطين بعروبتها وإنما أتوا إليها بالإسلام - دين الله الحنيف - وظل سكانها، كما كانوا من قبل عرباً، حتى تمكن اليهود من إقامة دولتهم في ١٥ مايو ١٩٤٨م (عام ١٢٦٦هـ).

وأما سكان فلسطين فقد كانوا - كما قلنا آنفاً - في غالبيتهم العظمى من الساميين، مع قليل آخر من عناصر غير سامية من الحيثيين والفلسطينيين وغيرهم، ومع ذلك، فمما لا ريب فيه أنه ليست هناك سلالة نقية صافية، كما أنه ليست هناك ثقافة وليدة البيئة وحدها، ولم تتأثر بأخرى، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن فلسطين - أو قل سورية بمعناها الواسع والذي يشمل سورية والأردن وفلسطين ولبنان - كانت أكثر

(١) Henry Catlan, Palestine, The Arabs and Israel, London, 1969, p. 3-7.

وكذا: M. Rodinson, Israel and the Arabs (Penguin Books), 1968, p. 216.

من غيرها تعرضاً لهجرات الشعوب السامية، والآخر هو العناصر غير السامية، وسوف نتحدث عن كل منها في فصل مستقل، كما أننا سنجعل هذا الفصل مقصوداً على العناصر السامية.

العناصر السامية

تتكون العناصر السامية في فلسطين من الأموريين والكنعانيين والآراميين، هذا إلى جانب كوكبة أخرى من القبائل كالأدوميين والمؤابيين والمديانيين واليبوسيين، والقنزيين والقينيين والعمالقة وغيرهم. ولعل من الأفضل هنا قبل أن نتحدث عن العناصر السامية في فلسطين أن نشير إلى أمرين: الواحد يتصل بتعريف الساميين هؤلاء، والآخر يتصل بالموطن الأصلي لهم.

الساميون:

ينسب المؤرخون الساميين إلى «سام بن نوح» عليه السلام، وذلك اعتماداً على رواية التوراة، التي جعلتهم إحدى التقسيمات البشرية الثلاثة، التي ترجع السلالات البشرية على تعدد قبائلها وشعوبها إلى أبناء نوح الثلاثة «سام وحام ويافت»^(١)، وقد استعمل لفظ «سامي» لأول مرة في عام ١٧٨١ م، على يد المستشرق الألماني «أوجست لدوج شلوتر» في مقالته عن «الكلدانيين» وذلك في قوله «من البحر المتوسط إلى الفرات، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوباً، سادت - كما هو معروف - لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعباً واحداً»^(٢) وكان الفينيقيون يتكلمون هذه اللغة التي أود أن أسميها «اللغة السامية»، وقد تولى «أيشهورن» بعد ذلك هذا الاصطلاح، وإن ادعاه لنفسه^(٣).

(١) تكوين ١٠: ١، ٢١.

(٢) سبتينوموسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة،

١٩٦٨، ص ٢٣٩، وكذا: A. L. Schlozer, Von den Chaldaern, 1781, p. 161.

(٣) R.A, Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962, p. XV.

وهكذا بدأ العلماء يستعملون كلمة «الساميين» على أنها تعنى جنساً بشرياً واحداً يرتفع فى نسبه إلى «سام بن نوح»، ويتميز عن غيره بصفات مشتركة بيّنة، وهى لغوية قبل كل شىء، فبين اللغات السامية فى التشابه الكبير من الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات مالا يمكن معه أن ننسب تقاربها إلى حدوث اقتباسات بينها فى العصور التاريخية، وإنما لا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلا بافتراض أصل مشترك بينها^(١).

ولعل السبب فى ذلك أن اللغات السامية إنما تشترك فى وجود فعل ثلاثى كمصدر أساسى، ووجود زمنيين للفعل، هما الماضى والمضارع، وتصريف يتبع نفس الأسلوب، هذا فضلاً عن أننا نجد فى جميع لغات المجموعة السامية تشابهاً بين الكلمات الأساسية كالضمائر الشخصية والأسماء التى تدل على القرابة^(٢) ومن ثم فكلمات الأب والأم والأخ والأخت والعم كلمات مشتركة فى كل هذه اللغات، والكلمات الخاصة بأعضاء جسم الإنسان مثل العين والأنف والرجل والشعر واليد والأذن والرأس، ألفاظ تجدها مشاعة فى كل اللغات السامية^(٣).

هذا فضلاً عن تغير الحركات فى كلمات هذه اللغات، والذى يحدث تغييراً فى المعنى وفى التعابير التى تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين^(٤)، وفى أمور أخرى مشتركة^(٥)، وهكذا كان هناك الكثير من الأدلة

(١) سبتو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٤٤؛ وانظر:

P. Dhorme, Langues et Ecritures Semitiques, Paris, 1930, p. 57-62.

وكذا:

H. Fleisch, Introduction a l'etude des langues semitiques, Paris, 1947, p. 20-22.

(٢) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٦٦/١، (بيروت ١٩٥٨)، تاريخ العرب، ٩/١-١٠.

(٣) محمود حجازى، اللغة العربية عبر القرون، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢.

J. Hastings, ERE, 2, 1934, p. 378.

(٤) جواد على، ٢٢٢/١ وكذا:

E.B., 20, p. 315.

(٥) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ١٧-٢٥، عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤،

اللغوية التي ترسم صورة عامة للملامح المميزة في المجموعة السامية، من حيث هي أسرة لغوية واحدة

ولكن هناك من يعترض على هذه التسمية - أى السامية - على أساس أنها تسمية لغوية، وليست جنسية، وغير جامعة ولا مانعة كذلك، هذا فضلاً عن أنها لا تعتمد على أسس علمية أو عنصرية صحيحة، وإنما بنيت تلك القرابة التي أوردتها التوراة، ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية، وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب العالم في ذلك الزمن عن النسب والأنساب وتوزيع البشر^(١).

وكان من نتائج ذلك أن أصبح العيلاميون ساميين، وذلك حين جعلت التوراة من جدّهم «عيلام» فيما تزعم الابن الأكبر لسام، وفي هذا يقول سفر التكوين: «بنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام»^(٢)، ومع ذلك فهم لا يتكلمون لغة سامية، ثم هناك الكنعانيون الذين جعلتهم التوراة من الحاميين، وهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلتهم التوراة حاميين كذلك، حيث تقول «بنو حام كوش ومصرأيم وفوط وكنعان»^(٣).

ومع ذلك فقد تعمد العبرانيون في توراتهم «إقصاء الكنعانيين عن الانتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية، وقد أرجع الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين، وربما

(١) جواد علي، ٢٢٣/١-٢٢٤؛ وكذا:

G.A. Barton, Semitic and Hamitic Origins. London. 1934, p. 1

(٢) تكوين ١٠: ٢٣

(٣) تكوين ١٠: ٦

كان ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في أفريقية، فقد كتبت التوراة هؤلاء من الحاميين^(١)

وفي الواقع فإن التوراة مضطربة في أصل السبئيين، فهم مرة من الحاميين^(٢) وهم مرة أخرى من الساميين^(٣)، وفرق كبير بين الحاميين والساميين، كما هو معروف، ثم إن سبأ (أو شبأ) تقدمه التوراة - وفي سفر التكوين بالذات - مرة على أنه من ولد «يقتان»^(٤)، ولكنه مرة أخرى من ولد «يقتان»^(٥) والمعروف أن يقتان من ولد «عابر»، ولكن يقتان من ولد إبراهيم الخليل من زوجه «قطورة»^(٦)، وفرق بين الاثنين كبير.

ولعل هذا الاضطراب في نصوص التوراة بشأن السبئيين، هو الذي جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن ما جاء في التوراة بشأنهم، إنما هو من مصادر غير أصيلة لا يمكن الاعتماد عليها، فضلاً عن الثقة بها، فهي مادة كدرة، ليس لها نصيب كبير من صواب^(٧).

ومن هنا كان المصدر الذي اعتمد عليه العلماء - وأعني به التوراة - في تقسيم الشعوب، موضع شك كبير، فكاتب سفر التكوين في التوراة، إنما اعتمد على الأجناس التي يعرفها فحسب، كما أنه كان متأثراً بعواطفه العدائية القديمة نحو مصر وكنعان وبابل، ومن هنا نراه يخرجهم من الساميين ويجعلهم من الحاميين، هذا فضلاً عن أنه يبدو مضطرباً بالنسبة

R.A. Nicholson, op.cit., p. XV.

(١) جواد علي، ٢٢٤/١، وكذا:

(٢) تكوين ١٠: ٧؛ أخبار أيام أول ١: ٩.

(٣) تكوين ١٠: ٢٨

(٤) تكوين ١٩: ٢٨

(٥) تكوين ٢٥: ٣

(٦) تكوين ٢٥: ١ ٢

(٧) W.F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961 p 300.

J Hastings, Dictionary of the Bible, p 490

ثم قارن EB. p 2564 ، وكذا

لآشور وكوش، فإذا أضفنا إلى ذلك أن سفر التكوين - فيما يرى جان ستروك، كما جاء في دائرة المعارف اليهودية^(١) - ليس عملاً موحداً، قام به مؤلف واحد، وإنما هو من عمل مجموعة من كتاب متتاليين، ومن مصادر مختلفة وأنه أخذ صورته الحالية بمرور الزمن، وفي عصور لاحقة لعصر موسى بآمد طويل، لتبين لنا إلى أى مدى كان الاعتماد على روايات سفر التكوين - أول أسفار التوراة - منزلقاً خطراً.

وعلى أى حال، فرغم أن العلم الحديث يعتبر تسمية «السامية» أو الشعوب السامية، تسمية لغوية أكثر منها تسمية جنسية، وذلك خلاف المفهوم القديم الذى أشاعته قصص العبرانيين فى التوراة عن الفصل بين جنس الساميين من نسل سام، وبين جنس الحاميين من نسل حام، ولدى نوح عليه السلام، فإن تعبير «الشعوب السامية» مقبول، على أساس شيوعه، للدلالة على شعوب ربطت بين أهلها روابط التشابه فى الملامح العامة، وروابط التشابه فى تأثيرات البيئة والمناخ، وروابط اللغات، ثم روابط العقائد والتقاليد والتخيلات، نتيجة لتشابه الأسس التى قامت عليها والظروف التى أوحى بها، وينطبق ذلك بأطرافه على شعوب الشرق الأدنى، بدوله العربية فى شبه الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر والدول العربية الأفريقية.

وانطلاقاً من هذا يذهب «موسكاتى» إلى أن الشعوب السامية فى لغتها تؤلف كتلة واحدة، لا باجتماعها فى صعيد جغرافى واحد، والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها فى أصل حضارى تاريخى واحد أيضاً، ومن هنا يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الميدان اللغوى، وأن نتحدث أيضاً عن الساميين، وعن الشعوب والحضارة السامية^(٢).

ومع ذلك فهناك من يرى أن «السامية» ليست جنساً بالمعنى المفهوم

The Jewish Encyclopaedia, 4, N.Y., 1903, p. 6-7.

(١)

(٢) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٤٩.

من الجنس عند علماء الأجناس، أى أنها ليست جنساً له خصائص جنسية، وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى، ويقول العالم الفرنسى «الأب هنرى فليش» «إنه لا ينبغي أن نفهم من استعمال كلمة «السامية» أى شىء أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الأمر على الباحثين، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية»^(١)، وذلك لأن بين الساميين تمايزاً وتبايناً فى الملامح وفى العلامات الفارقة، يجعل إطلاق الجنس عليهم بالمعنى العلمى الحديث من علم الأجناس أو الفروع العلمية الأخرى، نوعاً من الإسراف واللفو، كما أننا نرى تبايناً فى داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية فى الملامح وفى المظاهر الجسمية وفى هذا التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج فى الدماء، وقد وجد بعض علماء الأنثروبولوجيا أن بين اليهود تبايناً فى الصفات وفى الخصائص التى وضعها هذا العلم للجنس^(٢)، والأمر لا يختلف كثيراً عن ذلك بالنسبة إلى الآشوريين والبابليين والعرب فى الجاهلية وغيرهم^(٣).

٢ - الموطن السامى للساميين:

هناك شبه إجماع بين العلماء، على أن هذه الشعوب المتكلمة بلغات سامية، إنما ترجع إلى جماعة سامية أولى، وكان لها وطن واحد، ثم تفرقوا فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وإن اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كبيراً فى هذا الموطن الأول، فهناك من رأى أن أرض بابل «بلاد الرافدين» كان الوطن الأول للساميين، بينما يفضل آخرون أرض أرمينية، على أن هناك فريقاً ثالثاً،

H. Fleisch, op.cit., p. 18.

(١)

(٢) جواد علي، ٢٣٥/١، وكذا:

L.H.D. Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, p. 96F.

E.Pittard, Les Races et l'Histoire, Paris. 1924, p. 432-442.

وكذا:

L.H.D. Buxton, op.cit., p. 99F

(٣) جواد علي، ٢٣٥/١-٢٣٦، وكذا:

إنما يذهب إلى أن ذلك المهدي الأول للساميين إنما كان في أرض أمور - أي بلاد الشام ومنطقة الفرات - بينما رأى فريق رابع أن أفريقية هي ذلك الوطن الأم، على حين ذهب فريق خامس إلى أنه في شبه الجزيرة العربية، وأخيراً توسط بعض الباحثين بين هذه الآراء المتباينة عن الوطن الأول للساميين، فذهب إلى أن منطقة الهلال الخصيب^(١) وأطراف جزيرة العرب هي الوطن الأول للساميين، وقد كان هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة، فقد كان البدو سكان الصحراء يهاجمون الحضر سكان القرى والمدن، والبدو هم الساميون، وكذا كثير من سكان الحضر، ومن هذا التنازع على الحياة تكون تاريخ الساميين في هذه المنطقة في الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال، والتي تمتد فتشمل كل جزيرة العرب^(٢)، هذا وقد ناقشنا هذه الآراء المختلفة في مقالنا عن «الساميين والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي»^(٣).

وعلى أي حال، فإن الغالبية العظمى من العلماء - ومنهم سبرنجر^(٤)،

(١) كان «جيمس هنري برستد» أول من أطلق في عام ١٩١٦م على منطقة غربي آسيا، والمحصورة بين الجبال في الشمال، والصحراء في الجنوب، اسم «الهلال الخصيب»، وعلى ذلك بأنها «تكون شكل نصف دائري على وجه التقريب، يتركز طرفه الغربي في جنوب شرقي البحر المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، وطرفه الآخر عند الخليج الفارسي (العربي)، والأفضل الإسلامي) وخلف ظهر هذا تقوم الجبال المرتفعة، وبذا تقع فلسطين عند نهاية الجزء الغربي، وبلاد بابل في الجزء الشرقي، بينما تكون بلاد آشور جزءاً كبيراً من وسطه، هذا وقد تداول الباحثون هذه التسمية مثنين عليها، فذكر جون سارتر، أنه اسم يليق كل اللياقة. (انظر: برستد، انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٥١؛ جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة: طه باقر، ص ١٤٣، (القاهرة ١٩٦٥)، انظر:

J.H. Breasted, Ancient Times, Boston, 1916.

G. Rodx, op.cit., p. 125.

(٢) جواد علي، ٢٠٩/١، وكذا:

(٣) انظر: مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض، ١٩٧٤، ص ١٤٥-٢٧١.

(٤) A. Spronger, Das Leben und lehre des mohammad, Berlin, 1861, p. 241.

A. Sprenger, Alte Geographie Arabiens, 1978, p. 293.

وكذا:

وإيرهارد شرادر^(١) وهريوت جريمة^(٢) ورپورتسون سمث^(٣) وكارل بروكلمان^(٤) وكنج^(٥) وجون ماير^(٦)، وستانلى كوك^(٧)، ورايت^(٨)، وهوجو فنكلر، وتيلة والأب فنان وجاك دى مورجان وكايتانى^(٩) وديتلف نلسن^(١٠) وفريتز هومل^(١١) وجون فلبى^(١٢)، وسايس^(١٣) وحسن ظاظا^(١٤)، وسبتينو موسكاتى^(١٥) وول ديورانت^(١٦) وغيرهم - يرون أن الموطن الأصلي للساميين إنما هو شبه الجزيرة العربية، ذلك الخزان البشرى الشهير، الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كإقليم طرد، وكصحراء فقيرة ولكنها ولود - بالموجة تعلق الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة^(١٧)، وإلى وادى النيل، عبر البحر الأحمر، أو عن طريق سيناء، والواقع أن بلاد العرب -

(١) E. Shrader, ZDMG, 27, 1873, p. 397, F.

(٢) H.Grimme, Mohammad, Welt Geschichte, Berlin, 1904, p. 6-8.

(٣) R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, London, 1907, p. 178.

(٤) C. Brocklemann, Grndriss der vergleichenden grammatik der semitischen sprachen, Berlin, 1908, p. 2.

(٥) L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, p. 119.

(٦) J.L. Meyers, in CAH, I, 1923, p. 28.

(٧) S.A. Cook, in CAH, I, 1923, p. 192.

(٨) E.Wright, Comparative Grammar of Semitic Languages, p. 8.

(٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٣.

(١٠) D. Niclaen, Handbuch, I, 1927, 47, SS.

(١١) F. Hommel, Ethnologie und Geographie des Altan ORient, 1926, p. 10.

(١٢) A. Grohmann, Arabien, p. 14. وكنا:

(١٣) J.B. Philby, The Background of Islam, p. 9F.

(١٤) A.H. Sayce, A Ssyrian Grammer, 1872, p. 13.

(١٥) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(١٦) S.Moscatti, Histoire et Civilization des peuples Semitiques, p. 32-33.

(١٧) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة: محمد بدران، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٠٩.

(١٨) جمال حمدان، اليهود أثروبولوجيا، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٨.

كانت ولا تزال - فى معظمها أراضى صحراوية، يحيط البحر بأطرافها جميعاً - ما عدا القسم الشمالى - فإذا زاد سكانها، وعجزت عن إمدادهم بالغذاء الضرورى، كان طبعياً أن يرحل الفائض من السكان إلى المناطق الخصبة من منطقة الهلال الخصيب ومصر^(١).

وقد اختلف أصحاب هذه النظرية فى المكان الذى كان الموطن الأول للساميين من الجزيرة العربية^(٢) ففريق رآه فى وسط الجزيرة ولاسيما نجد^(٣) وفريق ثان رآه فى العروض - ولاسيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها - وفريق ثالث رآه فى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية^(٤)، أى أن هذا الفريق من العلماء إنما يرى أن اليمن هى «مهد العرب» منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء، وهى فى نظر بعض المستشرقين أيضاً «مصنع العرب» وذلك لأن بقعتها أمدت الجزيرة بعدد كبير من القبائل قبل الإسلام بأمد طويل، وفى الإسلام ومن اليمن كان «نمرود» وكذلك جميع الساميين^(٥).

وأياً كانت هذه المنطقة من جزيرة العرب، فإن جزيرة العرب هذه كانت موطن الساميين الأول، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير حركات القبائل السامية من البادية إلى أودية الأنهار الخصبة والتي بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ ولم تتوقف على الإطلاق حتى الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى^(٦).

(١) J.B. Philby, op.cit., p. 10. (٢) A. Sprenger, op.cit., p. 241.

(٣) عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ٣٦، وكذا: J. Hastings, op.cit., p. 74.

وكذا: W. Warrell, A Study of Races in Ancient Near East, p. 7, 45, 94.

(٤) J.B. Philby, op.cit., p. 9.

(٥) J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, p. 126.

(٦) عن الأدلة التى تدعم هذا الرأى ومناقشتها بالتفصيل، انظر: محمد يومى مهران، الساميون والآراء التى دارتحول موطنهم الأصلي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٩٧٤، ص ٢٦٣-٢٧١.

وهكذا انطلقت من شبه الجزيرة العربية هجرات ضخمة تتدفق في موجات متتابة تشق طريقها إلى الأراضي الخصبة، ويذهب بعض العلماء إلى أن الفترة بين الموجة والتي تليها تبلغ زهاء ألف عام^(١) ولعل من أشهر هذه الموجات، موجة الآموريين، ثم الكنعانيين - أو الفينيقيين، وأما ثالث الموجات فكانت الموجة الآرامية.

وعوداً على بدء، إلى الشعوب السامية في فلسطين، حتى نتحدث عن كل منها بشيء من التفصيل.

(١) الآموريون

يمثل الآموريون الموجة السامية الأولى التي قدمت إلى سورية من شبه الجزيرة العربية، ولسنا نعرف عن أهل البلاد الأصليين قبل قدوم الآموريين الكثير، بل إن معلوماتنا عنهم شبه نادرة، إن لم تكن معدومة في بعض النواحي، فربما كانت بها جماعات ليست من جنس البحر المتوسط قدمت من مواطنها في الأراضي المرتفعة في أواسط آسيا، أثناء العصر الحجري النحاسي، وفرضت نفسها على سكان البلاد واختلطت بهم على مر الأيام، كما أثبتت ذلك الحفائر في جازر وقرقيش وغيرها من مواقع أخرى، كما في فلسطين^(٢)، وربما كان بها بعض السومريين الهندو - أوربيين.

ولكن الرأي السائد الآن أنهم كانوا دون شك من جنس البحر الأبيض المتوسط والذي يعتبر الساميون فرعاً منه، وقد عاش في هذا الجزء من العالم بين سكانه، بعض الساميين المنتمين في الأصل إلى شبه الجزيرة العربية، ولكنهم كانوا أقلية، قبل أن يقوموا بهجرتهم الكبيرة، خوالى عام ٣٠٠٠ ق.م^(٣)، وعلى أي حال، فلم تكن فلسطين خالية من السكان عند

(١) H. Winckler, The History of Babylonia and Assyria, N.Y., 1907, p. 18-22.

J.A. Montgomery, op.cit., p. 21.

وكذا:

(٢) فيلب حتى، لبنان في التاريخ، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٣-٧٤.

(٣) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٥٩.

قدوم الهجرة السامية الكبرى إليها، بل كان فيها دون شك أقوام ساميون، اختلطوا بسكانها الأصليين الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل، ولكن سرعان ما طغت السامية على غيرها^(١).

ونحن لا نعرف الاسم الذى أطلقه الأموريون على أنفسهم، ولكننا نعرف أن جيرانهم السومريون فى الشرق كانوا يطلقو عليهم اسم «مار-تو» Mar - tu (المارتو)، كما كان يطلق عليهم الأكديون اسم «أمورو» Amuru ويعنى الغرب، وقد أطلق البابليون الاسم كله على سورية، كما سموا البحر المتوسط باسم «بحر أمورو العظيم»، ومن المحتمل أن اسم «أمورو» كان فى الأصل اسماً لقبيلة قوية أو مجموعة من القبائل، ثم عمم الاسم بعد ذلك، وصار اسماً عاماً يطلق على البدو القاطنين فى بادية الشام^(٢)، وأما معنى الاسم فى التوراة، فهو «الواحد الأعلى»، ذلك لأن اسم الأموريين إنما هو اسم عام يعنى «ساكن البلاد الجبلية أو طوال القامة»^(٣).

وكان أول ذكر لأمور فى النصوص المصرية، إنما يرجع إلى عهد «سيتى الأول» (١٣٠٩-١٢٩١ ق.م)، فعلى الجدار الشمالى لمعبد الكرنك، نجد التقرير المقتضب القائل بأن هذا الملك قد ذهب لتخريب بلاد قادش وبلاد «أمور» (أمور)^(٤)، ثم ذكرت بعد ذلك فى نصوص قادش من عهد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م)^(٥)، وفى نقش السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م)^(٦)، وفى حملة أمور الثانية

(١) أحمد فخرى، دراسات فى العالم العربى، ص ١٠٨.

(٢) محمد عبد القادر، الساميون فى العصور القديمة، ص ١١٠.

(٣) عدد ١٣ : ٢٩، تثنى ١ : ٧، ٢٠، يشوع ٦ : ١٠، عامسوس ٩ : ٢، ثم قارن : عدد ١٣ : ٣٢، تثنى ١١ : ٢، وانظر : M.F. Unger, op.cit., p. 45.

(٤) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastics, 2, p. 189.

(٥) A.H. Gardiner, op.cit., p. 189-190.

وكذا : A.H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford 1960.

(٦) W.F. Edgerton and J.A. Wilson, Historical Records of Ramses III, The Tests in Medinet Habu, Chicago. 1936, pls. 27-28, p. 22-23.

من عهد نفس الفرعون^(١)، وأما آخر ذكر لآمور فقد كان فى مرسوم كانوبيس^(٢).

وأما عاصمتهم فقد كانت «مارى»، وهى كلمة سومرية من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أى بلاد الغرب، وهى الآن «تل الحريرى» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الروز» على مبعده ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال»، هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» فى عام ١٩٣٣م، حوالى عشرين ألف لوحة فخارية، مكتوبة بالخط المسمارى من قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك ماري، وهى محفوظة الآن بمتحف اللوفر فى باريس^(٣) وتصور التوراة الأموريين فى سفر التكوين، وكأنهم من سلالة كنعان^(٤)، وهو نوع من الاضطراب المعهود فى التوراة، ذلك لأنهم سوف يكونون طبقاً لذلك من الحاميين، وليسوا من الساميين، كما هو معروف، بل إن هناك من الباحثين المحدثين من يرى فى أرض أمور المهد الأول للساميين ويشمل فى رأيه بلاد الشام ومنطقة الفرات^(٥)، وعلى أى حال، فإن التوراة تصور الآراميين من الأهمية بما يكفى لأن يطلق اسمهم فى بعض الأحيان على كل شعوب أرض كنعان بصفة عامة^(٦).

وأيما ما كان الأمر، فإن الأموريين يظهرون فى التوراة، وكأنهم يحتلون

Ibid, pl. 95, p. 100.

(١)

A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastian, 2, Oxford, 1947, p. 190.

(٢)

M.F. Unger, op.cit., p. 46.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ١١٩/١، وكذا:

(٤) تكوين ١٠: ١٦.

A.T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, 1909.

(٥)

J. Hastings, op.cit., p. 350.

وكذا:

(٦) تكوين ١٥: ١٦، يشوع ٧: ٧، ٢٤، قضاة ٦: ١١، عاموس ٢: ١٠، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 46.

جزءاً من بلاد يهوذا، كما يحتلون كذلك جزءاً من منطقة شرق الأردن^(١)، ذلك لأن الأموريين كانوا منذ عصر إبراهيم (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م) أهم قبيلة في الأرض الجبلية بجنوب فلسطين^(٢)، وكانوا يسكنون في حصون «تامار» - وهي عين جدي، التي تقع على مقربة من حبرون^(٣) - كما أنشأوا مدناً في «تل الحسى» - على مبعدة ٢٥ كيلاً إلى الشرق من غزة - وفي «تل النجيلة» - على مبعدة ١٨ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من غزة - كما بنوا مدينة «شعليم» شرق اللد، وجددوا مدينتي لخيش وجازر، وحصنوا جميع المدن وأحاطوها بأسوار.

هذا فضلاً عن إقامتهم لمملكتين أمورييتين في شرق الأردن، الواحدة، مملكة سيبخون، وتقع بجانب الأردن من أرنون (وادي مؤاب) إلى ييوق (وادي الزرقا) ومن الأردن إلى الصحراء^(٤)، وأما الأخرى: فهي مملكة عوج ملك باشان من ييوق، حتى جبل حرمون (جبل الشيخ)^(٥) وقد هزم العبرانيون هاتين المملكتين^(٦).

(٢) الكنعانيون - الفينيقيون

قدم الكنعانيون إلى فلسطين مع الأموريين - أو في أعقابهم مباشرة - ومن ثم فهم الجماعة السامية الثانية التي لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ فلسطين بعد الأموريين، هذا وتنتمي المجموعتان - الكنعانية والأمورية إلى أصل واحد، وتتحدث بلغتين تتشابهان في الكثير، حتى أدى ذلك التشابه إلى أن يطلق على لغة الأموريين «الكنعانية الشرقية»، تمييزاً لها عن لغة

(١) تكوين ١٤: ٧، ١٩؛ قاموس الكتاب المقدس ١/ ١١٩

(٢) A. Gardiner, op.cit., p. 187.

(٣) تكوين ١٤: ٧؛ أخبار ثان ٢٠: ٢؛ تكوين ١٤: ١٣؛ ثم قارن تكوين ١٣: ١٨.

(٤) قضاة ١١: ٢٢.

M.F. Unger, op.cit., p. 46.

(٥) تثنية ٣: ٤، ١٩؛ وانظر:

(٦) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١١٩

الكنعانيين التي عرفت بـ «الكنعانية العربية أو الفينيقية»، وذلك على أساس أن هاتين اللغتين تنتميان إلى أصل واحد

وتطلق على وثائق العهد القديم اليهودية على السكان السابقين للعبريين في سكنى فلسطين اسم «الأموريين» (العموريين)، بينما يسميهم النص الألوهيمي^(١) «الكنعانيين»، ومن الواضح أن هناك صلة قوية بين هذين الشعبين، فلغتهما لا تختلفان إلا في اختلاف لهجة الواحدة منهما عن الأخرى، بل ربما يبدو أن الأموريين «العموريين» اسم أطلقه العهد القديم على سكان المنطقة الجبلية في فلسطين «هضبة يهوذا»، بينما أطلق اسم الكنعانيين على سكان السهول، بالرغم من أن كليهما شعب واحد، ويؤيد هذا الاحتمال أن الأصل العبري لكلمة كنعان (ك.ن.ع) إنما يعنى انخفض أو منخفض، فالكنعانيون إذن اسم يعنى سكان المنخفض^(٢)، وقد ظل اسم كنعان وأرض كنعان يطلق على ساحل فلسطين وسورية حتى بعد هجرة العبريين الذين قنعوا باحتلال هضبة يهوذا بفلسطين، أما أرض العموريين فهي الجانب السوري المتاخم للصحراء حتى أعالي الفرات^(٣).

هذا وقد اختلف المؤرخون في تاريخ دخول الكنعانيين إلى المنطقة، وفي المواطن التي قدموا منها، وأما عن تاريخ الدخول، فإن «هيرودوت» (حوالي ٤٨٤-٤٣٠ ق.م) إنما يروى - على لسان علماء صور - أنهم قدموا إلى

(١) المصدر الألوهيمي: ويرمز له بالحرف (E) وهو الحرف الأول من كلمة (Elohist)، وربما ألف حوالي عام ٧٧٠ ق.م في إسرائيل، لأنه يستعمل اسم العلم «إلوهيم» علماً على «الله» وقد أدمج مع المصدر اليهودي - والذي يرمز له بالحرف (J) وهو الحرف الأول من كلمة Jahwist وربما ألف حوالي عام ٨٥٠ ق.م في يهوذا - في مجموعة واحدة (JE) حوالي عام ٦٥٠ ق.م، ويقول «لوسيان جوتيه» إن هذين المصدرين القديمين كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الأربعة (وهما المصدر الكهنوتي والمصدر الثنوي)

(٢) G.A. Barton, Semitic and Hamitic Origins London 1934 p 80

(٣) محمد السيد غلاب - الهجرات البشرية الكبرى، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - العدد السادس الرياض ١٩٧٦. ص ٣٠٥

فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، بل لقد أثبتت الحفائر أن هذه الهجرة الكنعانية أقدم من هذا التاريخ بكثير، ذلك لأن مدن أريحا ونيسان ومجدو، أسماء سامية، وأنها كانت موجودة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، هذا فضلا عن أن هناك مدنا أخرى قد كشف عنها، وهي مدن كنعانية ترجع إلى نفس العهد، وربما قبله بنصف قرن، وإن كان هناك من يرجعها إلى عام ٢٥٠٠ ق.م.

وأما عن الموطن الذي قدموا منه، فإن «هيرودوت» يروي - نقلا عن الفينيقيين - أنهم مهاجرون من أريثريا، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربي وساحل الحبشة، أم منطقة الخليج في الشمال الشرقي للهضبة العربية^(١)، وأنهم قد وصلوا أولا إلى بلاد العرب الصخرية^(٢)، شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسورية، وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم «رأس الشمر»، إذ يفهم منها أن الكنعانيين عاشوا رداحا من الدهر في صحراء النقب الجنوبي فلسطين، وأن الفضل يرجع إليهم في تخطيط أهم المدن في تلك المنطقة مثل «بئر سبع» و«أشدود»^(٣).

ويشير الجغرافي الروماني «سترابو» (٦٣-٢١ ق.م) في الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geographica^(٤) - إلى أن مقابر البحرين في الخليج الإسلامي، إنما تتشابه ومقابر الفينيقيين، وأن سكان جزر البحرين يذكرون

(١) ثروت الأسيرطى، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢) انظر عن بلاد العرب الصخرية، كتابنا «دراسات في تاريخ العرب»، ص ٩٦، وكذا:

Diodrus Siculus, II, 48.

W.Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 91.

وكذا:

(٣) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ٥٧-٥٨.

(٤) The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912.

وكذا: The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, London, 1949.

أن أسماء جزائرهم إنما هي أسماء فينيقية، وأن في مدنها هياكل تشبه الهياكل الفينيقية^(١)، هذا فضلاً عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى في عام ١٨٨٩ م تنقياً في مقابر البحرين، وبعث بشيء منها إلى المتحف البريطاني، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم إلى سواحل سورية^(٢)، هذا إلى جانب أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٢-١٨٩٧) إنما كان متأثراً برأى هيرودوت القائل بأن الفينيقيين إنما كانوا يدعون في عهده بأن أسلافهم من البحرين^(٣).

هذا وقد عثر الرحالة «هاري سان جون بريد جرفلي» (١٨٨٥-١٩٦٠) على مثل هذه المقابر في الخرج والأفلاج من أعمال نجد، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين، ثم هاجروا منهما إلى منطقة الخليج العربي (الإسلامي)، كما أن هناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي مثل «صور» على ساحل عمان، و«جبيل» على ساحل الإحساء، و«أرواد» وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق»، هذا فضلاً عن أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين إلى البصرة، سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل السوري، حيث بنوا مدنها هناك^(٤).

وهكذا يرى «أمين الريحاني» أن المؤرخين والأثريين يجمعون على أن الفينيقيين ساميون، كالعرب تماماً، بل إنهم عرب الأصل، نزحوا من الشواطئ العربية الشرقية ومن البحرين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط في

(١) Strabo, 16-2.

(٢) A. Grohmann, Arabian, Muachen, 1963, p. 251.

(٣) G. Bibby, Looking for Dimun, London, 1970, p. 29.

(٤) جواد علي، ٥٢٩/١، عز الدين إسماعيل، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٧، وكذا:

H. St. J. B. Philby, Shaba's Daughters, London, 1939, p. 373.

قديم الزمان^(١)، إلا أن هذه النظرية إنما تحيط بها هوائف الريشة، ذلك لأن شواطئ الخليج العربى البابلية لا تصلح أمواها للتربية الملاحية بالنسبة إلى ندرة الأخشاب هناك، وهى الناحية التى برز فيها الفينيقيون وبرزوا غيرهم.

وأيًا ما كان الأمر، فإن التعبير التوراتى «أرض كنعان» إنما يغطى كل فلسطين غرب الأردن^(٢)، وأن الكنعانيين قوم ساميون وليسوا حاميين كما أراد سفر التكوين أن يجعلهم^(٣)، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية، سواء من شرقها أو شمالها أو حتى من جنوبها، وسكنوا فلسطين، وأقاموا بها حضارة راقية، كذلك فإن جزءاً من الكنعانيين إنما قد انتقلوا إلى الساحل السورى للبحر المتوسط، حيث عرفوا هناك بالفينقيين، وهم بهذا إنما يمثلون - على هذه الصورة - امتداداً كنعانياً نحو الساحل.

وهكذا حتى إذا ما أتى الإسرائيليون إلى فلسطين، كان الكنعانيون مستقرين فيها منذ أجيال وأجيال، وفى العهد القديم فإن القوم الذين سكنوا البلاد - فيما قبل الإسرائيليين - كان يطلق عليهم «الكنعانيون»، دون النظر إلى الاختلافات الجنسية بينهم، وقد تركز هؤلاء الكنعانيون فى عدد من المدن المحصنة، ولكنها لم تكن موزعة على طول البلاد، كما هو المفترض دائماً، وإنما كانت فى معظم الأحيان فى السهول التى هيأتها الطبيعة، بينما كانت هناك أحياناً مدن فى أكثر الجهات القاحلة والجبلية من البلاد، وهذه المدن كانت فى الواقع تلاحاً محاطة بأسوار، ذات منازل متلاصقة بجوار بعضها، ولها مناطق ملحقة بها تزودها بالأرض الزراعية الضرورية^(٤).

وأيًا ما كان الأمر، فقد بقى الكنعانيون فى بلادهم حتى القرن السابع

(١) أمين الريحانى، قلب لبنان، بيروت ١٩٥٨، ص ٤٢٣.

(٢) عدد ٣٤: ٢-١٢، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 171.

(٣) تكوين ١٠: ٦.

M.Nothe, op.cit., p. 141.

(٤)

قبل الميلاد^(١)، حيث يرد ذكرهم في سفر صفنيا^(٢)، رغم المحاولات الإسرائيلية العديدة أحياناً والهمجية أحياناً أخرى، بل وعمليات الإبادة في أغلب الأحيان.

وقد اختلف المؤرخون في أصل كلمة «كنعان»، فهناك من رأى أن الكلمة سامية، وأنهم سموا بالكنعانيين، نسبة إلى جدّهم الأول «كنعان»، على عادة العرب في تسمية قبائلهم، وأن بنى كنعان إنما كانوا يقيمون في أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربى (الإسلامى)، وقد نسبت إليهم وسميت بأرض كنعان، وعند تزويجهم حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذى أعطوه لوطنهم الجديد^(٣)، ومنهم من رأى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامى (خنح - قنع - كنع) إشارة إلى الصفة، ومنها مجازاً، الأرض الخفيضة، على عكس مرتفعات لبنان، فسمى هؤلاء الساميون بالكنعانيين، أى سكان المنخفض، لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التى تحف بشرق البحر المتوسط.

هنا وقد ذهب فريق ثالث إلى أن أصل كلمة «كنعان» إنما هو مشتق من كلمة حورية، هى «كناجى»، وتعنى الصباغة القرمزية التى اشتهروا بها، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، ومنها اشتقت الكلمة الأكديّة، كناخى، أو «كيناخى» - كما فى رسائل العمارنة - وبالفينيقية «كنع» وبالعبرية «كنعان»، وكلها مسميات تدل على الحجرة الأرجوانية، ثم جاء الإغريق واتصلوا بهذه الشعوب السامية وانجروا معها، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتأثرة على الساحل، فأطلقوا عليها اسم «فينكس»^(٤)، وهى كلمة تعنى فى بعض الآراء نوعاً من النخيل ينمو على شواطئ هذه النواحي، ويقابلها عند الرومان Palmyra التى أطلقت

(١) كتب سفر صفنيا فى عهد ملك يهوذا «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) على قول ثقات الشراح، وإن رأى البعض أنه كتب فى الجزء الأخير من عهد «يهوياقيم» (٦٠٩-٥٩٨ ق.م).

(٢) صفنيا ١: ٧-١٠. (٣) عز الدين إسماعيل، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٤) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧.

على مدينة «تمر» أو «تدمر»^(١) في شرق البقاع.

وكلمة «تمر» هي الكلمة السامية التي تقابل كلمة Palm بمعنى النخيل في بعض اللغات الأوربية حتى اليوم، وأن أصحاب هذا الرأي يرجحون أن الفينيقيين إنما نشأوا عند الخليج العربي، في بلاد النخيل، وتحولوا عنه إلى فلسطين يوم أن كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيه من النخيل^(٢)، ولكن هناك من يرى أن «فينكس» كلمة تعني اللون الأحمر كذلك.

وعلى أي حال، فلقد اشتقت من هذه الكلمة، كلمة «فينيقيا» وبالتالي أصبحت ترادف كلمة «كنعان»، وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان، على الأغلب، شيئاً واحداً، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة، والتسمية اليونانية الحديثة في أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الأحمر، والواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطئ شرق البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت في صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها، ومن هنا جاءت نسبتها إلى اللون الأحمر^(٣)، وهكذا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين، وبالإغريقية الفينيقيين، وكلاهما علم على شعب سامي واحد، ينزل بشهول فلسطين الساحلية.

هذا وقد تغير اسم كنعان بتغير العصور، فهو - بادئ ذي بدء - اسم أطلق على الساحل السوري وغرب فلسطين، ثم سرعان ما أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين، وقسم كبير من سورية، وكان هذا أول

(١) تقع تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من حمص، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات، وكانت عاصمة التدمريين (انظر عن تدمر بالتفصيل: محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم ٤٠١/٢-٤١١ (الطبعة الحادية عشرة، الإسكندرية ١٩٩٤).

(٢) عباس العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٢٢.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٨، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٧، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 170-171; W.F. Albright, op.cit., p. 87.

اسم لفلسطين، وجميع الأسماء الأخرى أقل أهمية، وفي وثائق العهد القديم الأول أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد في غرب الأردن، أي مدلول جنسى^(١) هذا وقد كان تعبير «لغة كنعان»^(٢) يطلق بصفة عامة على لغة فلسطين السامية^(٣).

(٣) الآراميون

(١) موطنهم الأصلي وهجراتهم:

يذهب فريق من الباحثين إلى أن الموطن الأصلي للآراميين، إنما كان في الصحراء العربية السورية^(٤)، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى اعتبار منطقة الهلال الخصيب هي الموطن الأول للآراميين، غير أن هناك من يرى أن قيام دولة آرامية اتخذت من دمشق عاصمة لها، وبسطت نفوذها على شمال الشام، وإقليم الجزيرة، إنما كان من وراء هذا الاتجاه^(٥).

ولكن المرجح - كما أشرنا من قبل - أن ذلك الموطن إنما كان في شبه الجزيرة العربية^(٦).

هذا وقد توصل «ب. مورتز» بعد دراسة لأسماء الآراميين إلى أن القوم ما كانوا إلا عرباً، حيث أن هذه الأسماء قد سبق أن عرفت بأنها كلمات عربية، ومن ثم فإن الآراميين عرب بالمعنى الواسع للاصطلاح الذي استعمله «سبرنجر» بصفتهم إحدى المجموعات السامية التي اتجهت إلى الهلال

(١) عدد ٣٤: ٣-١٢.

(٢) إشعياء ١٩: ١٨.

(٣) فليب حتى، المرجع السابق، ص ٨٧؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 171.

M.F. Unger, Israel and the Aramaeans of Damascus, London, 1957, p. 38.

(٤) وكذا: A.Dupont - Sommer, Les Aramees, Paris, 1949, p. 15.

(٥) حسن محمود، حضارة مصر والشرق القديم، العبرانيون، ص ٢٤٦.

(٦) كارل بركليمان، العرب والإمبراطورية العربية، ص ١٣؛ وكذا:

E.G. Kraeling, Aram and Israel, N.Y. 1918, p. 13.

الخصيب، وبدون شك فإن أسماءهم الفعلية لدليل على جنسهم السامي، كما أن هذا يشير إلى النطق البدوي فيما قبل الآرامية المبكرة، قبل انتشار اللغة الآرامية في الهلال الخصيب^(١).

وعلى أى حال، فإن الأراميين إنما يمثلون الموجة الثالثة من موجات الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية، بعد موجة الأراميين والكنعانيين - وكانوا، بادئ ذي بدء، يجوبون أنحاء وادى الجزيرة من ناحية الشمال، ويتحركون إلى الشرق من ناحية العراق، وإلى الغرب من ناحية سورية، حتى بدأ القوم يستقرون في العراق الأوسط.

وهكذا كان الأراميون - قبل أن يستقروا في مواطنهم الجديدة ويكونوا إمارات ودويلات صغيرة - منتشرين في البادية انتشاراً واسعاً، حيث كانوا ينتقلون بين نجد في الجنوب، وحدود الشام في الشمال، ونهر الفرات في الشرق وخليج العقبة في الغرب^(٢).

كانت الجزيرة العربية - كما قلنا آنفاً - تقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجزابة، وكان الأراميون إحدى هذه الموجات التي خرجت من بلاد العرب في فترات من القحط، ربما كانت بالغة الخطورة^(٣)، ثم اندفعت نحو الشمال وهبطت سورية وفلسطين، واستقرت في البقاع والبلدان الخصبة التي تحيط بشبه الجزيرة العربية من الشمال، ثم سرعان ما بدأت القبائل الآرامية تتوغل في العراق وسورية، وإن كان ذلك بدرجة بطيئة، بحيث استغرق هذا التوغل فترة طويلة، حتى تم للقوم الاستقرار في نهايتها في المناطق التي طابت الإقامة لهم فيها^(٤).

(١) Paymond, A. Bowman, in JNES, 7, 1948, p. 66-67.

(٢) مراد كامل ومحمد حمدي البكري، تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٣، جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٤.

(٣) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٣.

(٤) بولس عياد، الأراميون في مصر، القاهرة ١٩٧٥، ص ٧-٨، وكذا:

H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 400.

وأما متى تمت هذه الهجرة الأرامية؟ فليس عند العلماء إجابة يمكن أن تصل إلى حد اليقين، ويؤكد «دوبون - سومير» أنه ليس هناك أى دليل قاطع يبين العصر الذى توغل فيه الآراميون من أراضى الهلال الخصيب أو المنطقة التى خرجوا منها^(١)، وإن رأى أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أنها تمت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٢).

(٢) بدء ظهور الآراميين:

كان الاعتقاد السائد من قبل أن نقش الملك الآشورى «أريك - دين - إيلو» (١٣١٧-١٣٠٦ ق.م)، ثم نقش «تجلات بلاسر الأول» (١١٢٣-١٠٢٦ ق.م) يحتويان على أقدم إشارة إلى الآراميين، ولكن ثبت الآن أن الآراميين يرجعون إلى أزمنة موغلة فى القدم، إذ يذكر نقش للملك «نارام - سن» (٢١٩١-٢٢٥٥ ق.م) - ويرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد - إقليمًا يدعى «أرام» ويبدو من النص أنه كان يقع فى أعالي بلاد الرافدين، وإن كان تفسير هذا النص ليس مؤكدًا على وجه اليقين.

غير أن أرام سرعان ما تذكر من جديد بعد ذلك بقليل، على لوحة وثائق «درهم»^(٣) التجارية التى ترجع إلى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م، وتشير إلى مدينة أو دولة «أرام»، على مقربة من «أشنونا» (تل الأسمر الحالية) فى وادى دجلة الأسفل، وثمة لوحة أخرى من لوحات «درهم» ترجع إلى بضعة سنوات بعد ذلك، وقد جاء فيها «أرام» علمًا للشخص، وقد تكرر هذا الاسم العلم مرة أخرى، حوالى عام ٧٠٠ ق.م، فى نصوص «مارى» وحوالى عام ١٤٠٠ ق.م فى نصوص «أوجاريت».

(١) A. Dupont, Sommer, op.cit., p. 15.

(٢) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١٩١/٥، (الإسكندرية ١٩٦٣).

(٣) يرى «مرسكاثى» أن «درهم» مدينة سومرية قريبة من «نيبور» وكانت تسمى قديمًا «بزرشد جن» بينما يرى الدكتور محمد عبد القادر أن «درهم» أو «دريهم» اسم شخص . (سبتينو موسكاثى، المرجع السابق، ص ١٠٦-١٧٩؛ محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢٠٠).

هذه أقدم ما لدينا من إشارات إلى الأراميين، ويدهى أنها لا تكفى لمعاونتنا على تتبع تاريخهم القديم، ولكنها تكفى لبيان الحاجة إلى تعديل الرأى الذى كان سائداً فى وقت من أن ذلك التاريخ إنما يبدأ فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(١)، كما أشرنا من قبل، ومن الجائز أنه قبل استعمال اصطلاح «الأراميين» فإن هذا الشعب إنما كان يعرف بأسماء قبلية مختلفة، وفى الفترة الآشورية التى تبدأ من عهد «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) كان يوجد أكثر من خمسين اسماً لقبائل آرامية.

٣ - اسم آرام والآراء التى دارت حوله:

اختلفت الآراء حول معنى اسم «أرام» فقد ذهب بعض اللغويين إلى أن أصل الاسم مشتق من كلمة «إن ع ام ون» أى «مخلوقات، أو كما فسرهم أحد العلماء بأنه اسم أو لقب إله، ولكن «كريلنج» يذهب إلى أن اسم «أرام» إنما هو اسم لشعب، وليس اسم منطقة وأن آرام إنما يعنى سكان البلاد المرتفعة أو العالية، وحتى هذه التسمية (أى البلاد المرتفعة) إنما كانت موضع خلاف، فالبعض يرى أنها أطلقت على القوم باعتبارهم من «نجد» والبعض الآخر يذهب إلى أن الاسم لم يطلق عليهم حتى إبان إقامتهم فى منطقة «طور عبيد» ، وأن تعبير سكان البلاد المرتفعة أطلق عليهم لإقامتهم فى أعلى الدجلة والفرات، باعتبار أن هؤلاء كانوا بالنسبة لسكان الوادى (دجلة والفرات) يعيشون فى أماكن مرتفعة^(٢).

ولعل علاقة الأراميين بالأخلامو والكلدانيين^(٣)، إنما كانت سبباً فى التوسع فى مدلول لفظ الأراميين، إذ يطلقها البعض على الشعوب السامية التى تناثرت وتنابت فى منطقة الهلال الخصيب، ويعلمون ذلك بأن بلاد

P. A. Bowman, op.cit., p. 66-7.

(١)

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٨.

(٣) فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص ١٥٧، ١٧٥، ٢٢٨.

الأراميين يقال لها عند اليهود أرام، لأن أرام بن سام هو الذى تبوأها وعمرها بنسله^(١).

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن الذين حملوا اسم «أرام» وأطلقوه على السكان الأراميين فى سورية إنما هم «الحيشيون» الذين كانوا على اتصال بأرامى أعالى الدجلة والفرات، ثم سيطروا على سورية، وفى تلك الأثناء نقلوا الاسم إلى سورية من أعالى الدجلة والفرات، ولعل هذا هو السبب فى أن اسم الأراميين أطلق على «الأخلامو» الذين دخلوا سورية بعد تدهور قوة الحيشيين، ويرجع «كريلنج» أن هذه القبائل لم تحمل اسم «أرام» حتى إقامتهم فى منطقة طور عبيدين، وأن تعبير (أرام النهرين) ظهر حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد^(٢) ولكن «مريل أوبجر» يشير إلى حقيقة عامة، وهى أن الاسم لم يطلقه عليهم الآشوريون عندما سكن الأراميون فى منطقة طور عبيدين، بل يرجع إلى عهد أسبق من ذلك^(٣).

٤ - الأراميون والإخلامو:

هناك من الأدلة ما يشير إلى أن الأراميين قد ذكروا مع الأخلامو، بصورة وثيقة فى شمال بلاد الرافدين^(٤)، وكان تكرار الاسمين معاً مما لفت انتباه العلماء، فهناك نقش للملك الآشورى «أريك - دين - إيلو»، يتحدث

(١) تكوين ١٠: ٢٢، إقليمس يوسف داود، اللمعة الشفهية فى نحو اللغة السريانية، الموضّل ١٨٩٨، ص ٧.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٨، وكذا: Emil G. Kraeling, op.cit., p. 20-22.

(٣) M.F. Unger, op.cit., p. 39.

ثم قارن: تكوين ١٠: ٢٢، أحمد فخري، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١١٦ وما بعدها، وكذا:

Sabatino Moscati, Histoire et Civilisation de Peuples Semitiques, Paris, 1955, p. 164; E.G. Kraeling, op.cit., p. 21-22.

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٥٧.

فيه عن انتصاراته على جماعات «أخلامو»، كما يرد كذلك نفس الاسم في تاريخ خلفائه، حتى إذا ما وصلنا إلى عهد «تجلات بلاسر الأول»، فإننا نجد العاهل الآشوري إنما يعلن أنه قد هزم «الأخلامو الأراميين» الذين جاءوا من الصحراء مغيرين على ضفاف الفرات، وهكذا كان ذكر «الأخلامو» مع «الأراميين» سبباً في أن يظن البعض بأن الأراميين فرع من الأخلامو، وأن كلمة الأخلامو إنما تعني «حلفاء»، لأن أصل الكلمة العربية «خلم» (بكسر فسكون) إنما يعني صديق أو صاحب، وجمعها «أخلام وخلماء»^(١).

غير أن هناك فريقاً من العلماء، إنما يذهب إلى أن كلمة «خلم» لا تعني في هذا الموضع (حليف)، بخاصة، وأن صيغة الجمع «أخلامو» إنما ترجع إلى عصر أحدث^(٢)، هذا فضلاً عن أن هناك أراميين آخرين يحملون اسماً آخر أو أسماء أخرى، كما أن البدو الآسيويين إنما كانوا معروفين للمصريين منذ أيام الأسرة الأولى (حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م) تحت اسم (ستيو) Setiu هذا فضلاً عن أنهم قد ذكروا في النقوش الأكديّة منذ حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م وأنهم قد استقروا على طول الفرات الأوسط في منطقة تدعى Sutium^(٣).

ويفضل (سيتينو موسكاتي) أن يفسر اسم «أخلامو» على أنه إنما كان اسماً يطلق على قبيلة من القبائل البدوية، ثم توسع في استعمال الاسم، وهكذا يمكن اعتبار كلمة أخلامو، إنما تعني المتحالفين، وهنا يندو أن الأراميين إنما كانوا جزءاً من هذا التحالف، الذي تكون من «أريك - دين - إيلو»، وأما بعد أيام «تجلات بلاسر الأول» فإننا نجد في المصادر الآشورية

(١) سيتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٧، ٣٤٤.

(٢) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٢٠.

R.A. Bowman, JNES, 7, p. 67.

(٣)

عدة إشارات أخرى إلى «الأخلامو» و«الأخلامو - الأراميين»، ولكن الاسم البسيط «الأراميين» يزداد وروداً، وأخيراً ينفرد بالاستعمال^(١).

٥ - الأراميون والعبرانيون:

إن العلاقة بين أرامى ما بين النهرين^(٢) وبين العبرانيين - طبقاً لرواية التوراة^(٣) - إنما هي جد وثيقة، وطبقاً لتقاليد الآباء الأوائل التى سجلت فى سفر التكوين، فقد كان يعيش فى «فدان أرام» وميزوبوتاميا وبيت إيل ولابان قوم يدعون الأراميون، ويعتبرون من سلالة «ناحور» (أخى إبراهيم الخليل)^(٤)، وينتسب إلى هؤلاء مجموعة الأراميين الذين أرسل إليهم إبراهيم يطلب زوجة لولده إسحاق^(٥)، كما بعث إسحاق كذلك بابنه يعقوب ليتزوج من هناك - من ابنتى لابان «ليئة وراحيل»، وكذا من جاريتيهما «زلفة وبلهة»^(٦).

وهكذا فمن المجتمع الأرامى فى ميزوبوتاما جاءت النسوة الأراميات، زوجات يعقوب الأربعة، واللاتى يعتبرن، على الأقل طبقاً لتقاليد التوراة، جدات القبائل العبرانية، ومن هنا فإننا نرى كاتباً عبرانياً يعترف بعد ذلك بهذه التقاليد، قائلاً «أراميا تائهاً كان أبى»^(٧)، وهكذا لم يكن هناك فرق كبير بين العبرانيين والأراميين، ومن المحتمل أن العنصرين كانا قد امتزجا

(١) موسكاتى ، المرجع السابق، ص ١٧٧، ٣٤٥.

(٢) المقصود بالنهرين هنا: الفرات ورافده الخابور، وليس الدجلة والفرات . هذا وليس هناك خلاف يذكر بين تعبير «آرام النهرين» و«فدان أرام» ، ذلك لأن التوراة تذكر أن عبد إبراهيم اليعاذر الدمشقى أخذ عشرة جمال وذهب إلى آرام النهرين ، إلى مدينة ناحور (تكوين ٢٤ : ١٠ ، فليب حتى ، المرجع السابق، ص ١٧٦).

(٣) تكوين ٢٤ : ١١ . (٤) تكوين ٧ : ١٠ ، ٢٤ : ٤٠ ، ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٢ .

(٥) تكوين ٢٤ : ٣-٤ . (٦) تكوين ٢٩ : ٢٧-٣٥ ، ٣٠ : ١-٢٤ .

(٧) تثنية ١٦ : ٥ ، وكذا:

عند التخوم بينهما من أول وهلة، وبذا أمكن للقبائل الإسرائيلية الشمالية - مثل نفتالي - أن تتحول بسهولة من قبيلة إسرائيلية إلى سورية أو أرامية^(١).

ولعل هذا هو السبب الذى دفع البعض إلى أن يذهب إلى هناك اتفاق سلام قد عقد بين الأراميين والإسرائيليين منذ أيام يعقوب، ذلك أن جماعة من الأراميين قد استقرت لفترة ما، إلى الجنوب من يوق، وإلى الشرق من جلعاد، ومن هنا كان اللقاء التاريخي الأول بين الإسرائيليين والأراميين، والذي انتهى باتفاق بين الطرفين على إقامة نصب حجري على جبل جلعاد - ويقع غرب الأردن ويشرف على وادي يزرعيل - كحد فاصل بينهما، تعهد الطرفان بعدم انتهاكه لأغراض شريرة، وفي الرواية الشعبية عن هذا الاتفاق كان يعقوب ممثلاً للإسرائيليين - أو بالأحرى للأفرايميين الجلعاديين - كما كان «لابان» خاله وأبو زوجته - ممثلاً للأراميين^(٢).

وتمر الأيام ويصبح العبرانيون أمة، ويقاسون المتاعب من جيرانهم الأراميين، ومن ثم يحاولون قطع الروابط القديمة متجهزين كل فرصة لإبعاد تفسير الاعتراف المنسوب لأبيهم يعقوب^(٣)، الأمر الذي سوف نشير إليه بالتفصيل فيما بعد.

هذا ويستدل من نصوص بلاد النهرين على أن جماعات أرامية قد اجتاحت قسمًا كبيرًا من هذه البلاد، وشمال سورية ووسطها، في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وقد سادت العناصر الأرامية فيها، باستثناء بعض الجيوب القليلة التي كان يسيطر عليها الحيثيون، ولكن الأراميين إنما بلغوا ذروة سلطانتهم السياسية في القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد، نظرًا لضعف الإمبراطوريات الكبرى في ذلك الوقت.

H.R. Hall, op.cit., p. 400.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 159-160.

(٢) تكوين ٣١: ٤٣-٤٥، وكذا:

R.A. Bowman, Arameans, Aramic and The Bible, p. 68.

(٣)

(٦) الدويلات الأرامية:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قوة توسع الأراميين، التي تبرز واضحة في هذه الفترة، لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم، لو لم تصحبها بصفة عامة القدرة على تنظيم دولهم نفسها، ولم ينشئ الأراميون أبداً وحدة سياسية فعالة، وكان العامل الأساسي في ضعفهم انقسامهم إلى ممالك محلية صغيرة، مع كثرة الأجناس المتباينة التي اختلطوا بها، وقد شهدت نهاية القرن العاشر قبل الميلاد نهوض آشور، واستيلائها على الدويلات الأرامية^(١) ولعل من الأفضل هنا أن نقسم الإمارات أو الدويلات الأرامية تقسيماً جغرافياً، فتحدث عن إمارات شمال العراق، ثم شمال سورية ثم وسطها وجنوبها.

(١) في شمال العراق:

غزت القبائل الأرامية الجزء الشمالي من أرض الرافدين، وأسست مجموعة من الدويلات الصغيرة يتكون اسمها من كلمة «بيت» مضافاً إليها اسم الجد الأعلى، لعل أهمها:

١ - دويلة بيت أديني:

ومركزها «تل برسب»، وتقع على الفرات الأعلى، ومكانها الآن «تل الأحمر» وقد سماها «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) «كرشلمنشرد» (قلعة شلمنصر) بعد انتصاره على «أخوني» ملك بيت أديني^(٢)، وكانت دويلة بيت أديني (بيت عاديني) تمثل أقوى ولاية في شمال العراق، وقد شغلت مركزاً استراتيجياً على الطريق فيما بين حران وسورية، ومن ثم فقد كانت تتدخل في إشعال الثورات بين الدويلات الأرامية ضد آشور - كما

(١) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٢) H.Schmotel, Geschichte des alten vorderasien, Leiden, 1957, p. 254.

حدث فى ثورة بيت خالوب عام ٨٨٤ ق.م، وفى ثورة لاق وخيندان وسوخو عام ٨٧٨ ق.م - مما دفع آشور إلى تأديب بيت أدنى وإجبارها على دفع الجزية^(١)، غير أن الأخيرة لم ترعو إلا بعد أن تمكن شلمنصر الثالث من القضاء عليها وضمها إلى الإمبراطورية الآشورية^(٢) - كما أشرنا آنفاً -

٢ - دويلة بيت بخيانى:

ومركزها «جوزانا» (تل حلاف) هذا وقد وجدت ولايات أخرى على طول الفرات ورافده فهناك ضاحية سوخو وولاية خيندان الصغيرة، وإقليم «لاق» الذى به ولاية «بيت خالوب»^(٣).

هذا وقد توسعت إلى الجنوب من ذلك عدة جماعات آرامية فى الجزئين الأوسط والجنوبى من أرض الرافدين، وهنا استولى المغتصب الآرامى «أدد - إيل - أدن» على عرش بابل فى القرن الحادى عشر (حوالى عام ١٠٥٠ ق.م)^(٤).

(ب) فى شمال سورية:

توغل الآراميون فى شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة، منها «جرجوم» وعاصمتها «مقاش» - وهى مرعش الحالية - و«سمأل» فى كليكية، وعاصمتها «سجولى»، و«خاتينا» وعاصمتها «كوتالوا» و«ياخان» وعاصمتها «أرياد»، ثم «يمخد» وعاصمتها «خلبو» (حلب)^(٥)، وفى

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٦. وكذا: E. G. Kraeling, op.cit., p. 54-59.

(٢) Ibid., p. 60-63.

(٣) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٧؛ بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٦، وكذا:

(٤) E.G. Kraeling, op.cit., p. 53.

(٥) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٧-١٧٨، وكذا: H.Schmoke, op.cit., p. 203-247.

G. Roux, op.cit., p. 247-249. وكذا:

(٥) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٩/٣؛ بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٧؛

E. G.Kraeling, op.cit., p. 63-66. وكذا:

«حماء» كشفت حفائر «المنجھولت» طبقة آرامية ترجع إلى حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م^(١).

هذا وقد تعرضت هذه الدويلات للضغط الآشوري عدة مرات، حدث ذلك على أيام آشور ناصربال الثاني (٨٨٤-٨٥٨ ق.م) الذي قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية^(٢)، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقميش وجرجوم وسمأل وبيت أديني - فرصة وفاته، وانتقال العرش الآشوري إلى «شلمنصر الثالث» - فقامت بالثورة ضد آشور، إلا أن العاهل الآشوري الجديد تمكن في عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة وإجبار العصاة على دفع الجزية^(٣) ثم كتب له آخر الأمر - وفي عام ٨٣٢ ق.م - نجحاً بعيد المدى في القضاء نهائياً على الثورة، وتولية أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما اختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جداً، واقتصرت على العمق لأنطاكية، وأصبحت تسمى «أونقي»^(٤).

وفي القرن الثامن قبل الميلاد، عاودت آشور الهجوم، ففي عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت في يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) مدينة «أرفده»، وتدل النقوش المكتشفة في «سوجين» - وتقع على مبعده ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور^(٥).

وكانت دويلة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التي ظلت تكافح من

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨.

E.G. Kraeling, op.cit., p. 66.

(٢)

Ibid., p. 68-71.

(٣)

Ibid., p. 71-72.

(٤)

H.Schmotel, op.cit., p. 262.

(٥) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨، وكذا:

أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق.م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧-٧٢٢ ق.م) في القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة، ثم أقام «إسر حدون» (٦٨١-٦٦٩ ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أى حال، فربما وجد في «شمال» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها في مصادرها، يدلان، فيما يبدو على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل^(١).

(ج) في وسط وجنوب سورية:

تحدثنا التوراة عن سبع ولايات أو دويلات آرامية في سورية وشرق الأردن هي:

١ - دويلة آرام النهرين:

وتقع هذه الإمارة التي تسمى في التوراة^(٢) (فدان آرام) أو نهرين في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التي أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الآرامية^(٣)، وفي هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و«الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية^(٤).

وتعتبر دويلة آرام النهرين أقدم الإمارات الآرامية في سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر - فيما يرى كربلنج - في القرن الثالث عشر ق.م، غير أن رواية التوراة^(٥)، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول - عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب - هذا فضلاً عن أن

(١) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٩، وكذا: A. Dupont-Sommer, op.cit., p. 68.

(٢) تكوين ٢٤: ١٦.

(٣) فليب حتى، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٤٣/١.

(٥) تكوين ٢٤: ١٠، ٢٨: ٢، ٥، ٢٩: ٤-٥.

الاصطلاح إنما استعمل فى رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(١) ، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجح الآن - كما أشرنا من قبل - أنهما الفرات ورافده الخابور، حيث تقع منطقة حاران التى استقر الأراميون فيها فى عصر الآباء الأول، ومن هنا بدأت القوة الأرامية فى الانتشار وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام» التى فى عبر النهر» واستمرت هذه الدولة حتى القرن التاسع قبل الميلاد^(٢).

وكان الأراميون فى فدان آرام قد اتخذوا من «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلفاء، وعلى مبعدة ٤٦٨ كيلا إلى الشمال الشرقى من دمشق - وكان المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التى تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إلهاً لها تحت اسم «تارح»^(٣)، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط «نينوى» فى عام ٦١٢ ق.م، تحت أيدى البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) استطاع الاستيلاء عليها فى عام ٦٠٩ ق.م، والقضاء على بقية الجيش الآشورى، قبل وصول نجدات ملك مصر «نخاو» الثانى (٦١٠-٥٩٥ ق.م) لإنقاذه^(٤).

٢ - دولة آرام دمشق:

وقد تأسست هذه الدولة التى كانت عاصمتها دمشق فى أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى^(٥) وأخريات القرن العاشر على رأى آخر^(٦)، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة للعبرانيين -

(١) Samuel A.B. Mercar, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(٢) E.G.Kraebing, op.cit., p. 21.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢٨١/١. وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 455.

(٤) M.F. Unger, op.cit., p. 455; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 357-358.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٦) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤.

طبقًا للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به - ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى - بالنسبة إلى جيرانها - تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الآشوريين في الشمال، ولأرض العبرانيين في الجنوب، وكانت سورية الداخلية شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطانها في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أفلحوا فى مقاومة ما كان يذله الآشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم^(١).

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهى - على أى حال - قد بدأت أيام «شائل» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م) وإن كان «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) هو الذى استطاع الاستيلاء على المدينة العريقة^(٢)، هذا وقد روت التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م)، الأمر الذى وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن استطاع أخاب أن يصون آخر الأمر حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك فى حلف ضد الآشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه فى حرب ضد آشور فى موقعة قرقار فى عام ٨٥٣ ق.م^(٣)، الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى مكانه من هذه الدراسة.

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٨١؛ مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤؛ أدى شير، تاريخ كلدو وأشور، بيروت ١٩١٢، الجزء الأول، ص ٦٦؛ وكذا:

R.H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N.Y., 1941, p. 687.; JNES, 7, p. 70.

(٢) صموئيل ثان ٨: ٥-٦؛ أخبار أيام أول ١٨: ٥-٦؛ قاموس الكتاب المقدس ١/٣٧٥؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٣) ملوك أول ٢٠: ١-٤٣، ٢٢: ٢-٣٨؛ وكذا: A. Dupont-Sommer, op.cit., p. 35.

وكذا: E.G. Kraeling, op.cit., p. 73, 75. وكذا: A. Lods, op.cit., p. 378.

على أن الصلات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أي حال، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الآشوريين - على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والبدو العبرانيين قد أرهقها كثيراً - إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، أن يستولى عليها في عام ٧٣٣ ق.م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الآشوري كان - وقت أن طلب أحاز ملك يهوذا النجدة منه لإنقاذه من قوات دمشق والسامرة - في شمال سورية، وربما كان مع جيشه في مكان ما في مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن في حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودي ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الآشوري أن يجتاح في عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، ويسقط دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الأراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الآرامية لآشور^(١).

٣ - دويلة آرام صوبة:

وكانت مملكة أرامية قوية، تقع عاصمتها «صوبة» في مكان بلدة «عنجر» في البقاع الجنوبي «زحلة»^(٢)، وإن كنا للأسف - لا نعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزز» وأما مدى اتساعها فقد وصل في عهد ازدهارها إلى حدود حماة في الشمال الغربي^(٣).

(١) ملوك ثان ١٦ : ٥-١٠ بولس عباد، المرجع السابق، ص ١٤ ؛ وكذا:

M.Nothe, op.cit., p. 259F; E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٤٣/١.

وقد وصلت «صوبة» إلى ذروة قوتها في عهد «شاول» ملك إسرائيل والذي كانت العداوة بين الدويلات الآرامية وإسرائيل في أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراة لم توضح لنا علاقة شاول بالدويلات الآرامية، مما دفع «كريلنج» إلى القول بأن علاقة صوبة بالعبرانيين في عهد شاول كانت مبهمة^(١) كما ذهب «ديبون - سومير» بأن ملوك الآراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا تابع لصوبة^(٢).

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة في عنفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)، الذي نجح في أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الآراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاول - وهكذا قامت حروب بين داود و«حدد عزز» ملك صوبة، ساهمت فيها - إلى جانب حدد عزز - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها آراميو ما بين النهرين.

ذلك أن العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التي تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الآراميين في آرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلي الذي أمر به داود تحت قيادة يوآب، ونجح يوآب في هزيمة الآراميين، ويعلم «حدد عزز» ملك صوبة بذلك، ويشترك في حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة في الاضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الآرامية^(٣).

E.G.Kraeling, op.cit., p. 40.

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op.cit., p. 26.

(٢)

M. Noth, op.cit., p. 194-195.

(٣) صموئيل ثان ١٠: ٦-١٤، وكذا:

٤ - إمارة معكة:

وتقع شرق الأردن قرب جبل حرمون^(١)، وامتدت نحو الأردن غرباً، كما امتدت نحو الجنوب والشرق في البرية، وربما كانت «إيل بيت معكة» من بين مدن معكة أو عند حدودها، واشترك المعكيون مع الآراميين والعمونيين في الحرب ضد داود، ولكنه انتصر عليهم^(٢).

٥ - إمارة جشور:

وتقع بين حرمون وباشان، وإلى الشرق من نهر الأردن وبحر الجليل، وإلى الجنوب من معكة في منطقة منسى^(٣)، وكانت جشور على أيام داود مستقلة، ومن ثم فقد هرب إليها ولده «أبشالوم» بعد أن قتل أخاه «أمنون»^(٤).

٦ - إمارة أرام بيت رحوب:

وتقع بصفة عامة في مجاورات جشور، وإذا وحد هذا المكان بالمكان الذي ذكر في التوراة في سفرى العدد والقضاة فإنها تقع قرب معكة ودان^(٥)، وعلى أى حال، فمن المرجح أنها كانت تقع بالغرب من مدخل حماة^(٦).

(١) يشوع ١٢: ١٣٥؛ صموئيل ثان ١٠: ٦، ٨؛ ١: ١؛ أخبار أول ١٩: ٦-٧؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 673.

(٢) صموئيل ثان ١٠: ٦-٨؛ قاموس الكتاب المقدس ٩٠٩/٢؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 673.

(٣) تثنية ٣: ١٤؛ صموئيل ثان ١٥: ٨، ١٣، ٣٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٢٦١/١.

(٥) عدد ١٣: ١٢؛ قضاة ١٨: ٢٨.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٤٣/١؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 77.

٧ - إمارة طوب:

وطوب اسم عبري معناة «طيب»، وتقع شرق الأردن، وربما توحد «بالطيبة» - على مبعد عشرة أميال إلى الجنوب من جدة أو جدار التي تسمى الآن مقيس أو أم قيس - ومن هناك استأجر «حانون» ملك عمون جنوداً لحرب داود، مما دل على أنها كانت وراء حدود بني إسرائيل^(١).

اللغة الأرامية:

استمر الأراميون كشعب، بعد أن قضت الدولة الكبرى عليهم ككيان سياسى، وبقيت لغتهم بعد سقوط دويلاتهم فى الشرق من غير أن تتأثر باللغات الأخرى، وانتشرت هذه اللغة فى دول الشرق الأدنى القديم، بدرجة لم تصل إليها واحدة من أخوانها من اللغات السامية^(٢)، إلا إذا كانت تلك اللغة، هى اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، التى فاقتها بغير حدود.

ولعل من أهم أسباب انتشار اللغة الأرامية أنها كانت لغة التجار الأراميين الرحل، كما أنهما كانت لغة سهلة ببساطة أبجديتها وسهولة نحوها وصرفها، وربما فيها من سهولة ويسر^(٣)، كذلك يلاحظ أن هذه اللغة

(١) صموئيل ثان ١٠: ١٦، قاموس الكتاب المقدس ٥٨١/٢، وكذا: M.F.Unger, op.cit., p. 77.

(٢) قسم العلماء فى عام ١٨٦٩م اللغات السامية إلى مجموعتين، الأولى: وتسمى المجموعة السامية الشمالية، وتشمل اللغات: العبرية والفينيقية والآرامية والآشورية والبابلية والكنعانية، وتسمى الأخرى المجموعة السامية الجنوبية، وتشمل اللغة العربية بلهجاتها والحبشية ولكن هناك من يقسمها إلى ثلاث مجموعات، أولها القسم الشرقى، ويضم اللغات البابلية والآشورية والكلدانية والآرامية، وثانيهما القسم الغربى: ويضم اللغات الكنعانية والأخلامية والفينيقية والبونية والآرامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والمؤابية والأمورية وثالثهما، القسم الجنوبى: ويضم فصيلتين الأولى العربية، ويضم العربية القديمة والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية والعدنانية المضربة أو القرشية الفصحى والثانية وتضم الحبشية أو الأثيوبية والجعزية والتيجرية والنيجرينائية والأمهرية والهررية. (جواد على ١/٢٢٣، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٦٢٦).

(٣) عبد المنعم حسنين، حضارة مصر والشرق الأدنى القديم، الإوانيون القدماء، ص ٤٢٩.

كتبت على أوراق البردى كما كتبت على قوالب طينية، زد على ذلك أن انتشار الأراميين في الشرق قبل سقوط دويلاتهم أو بعده، ثم اشتغالهم في الجندية في بعض الدول وازدياد عددهم المتواصل، إنما قد ساعد على انتشار لغتهم^(١).

ويرى «جيمس هنرى برستد» أن الأبجدية الفينيقية الآرامية قد انتشرت في جميع بلاد آسيا الغربية، ونقلت من الفرات إلى إيران وإلى حدود الهند^(٢)، ومما يدل على انتشارها استخدام الآشوريين والبابليين والفرس والعبرانيين والمصريين لهذه اللغة، حتى اعتبرها البعض لغة دولية، فيما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد^(٣)، وهكذا ظلت اللغة الآرامية سائدة في المنطقة حتى بعد زوال النفوذ السامي وبداية النفوذ «الهندو-أوربي» ذلك أنها قد بقيت لغة رسمية حتى عندما انتقل الحكم إلى الفرس، ولاسيما في عهد «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ ق.م)، في ذلك الجزء من الإمبراطورية الفارسية الذي يقع بين مصر ونهر الفرات، والأمر كذلك بالنسبة إلى عهود السلوقيين والفريثين والساسانيين، وفي دولتي تدمر والبتراء.

بل إن عرب الشمال، إنما أخذوا أبجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الأنباط، وقد أشار العلماء إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من منطقة مدين إلى الحجاز، وإلى تطور الخط العربي عن الخط النبطي^(٤) ومن ثم فإن الكتابة التي تكتب بها اليوم، إنما هي كتابة متطورة عن الخط النبطي، وهذا بدوره متطور عن الخط الآرامي، الذي استعمل في شمال شبه الجزيرة العربية، منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وقد كان

(١) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٥٥؛ موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) J.H. Breasted, Ancient Times, 1916, p. 146.

(٣) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤؛ وكذا:

G. R. Driver, Aramtic Documents of the Fifth Century, p. 19.

(٤) Martin Sprengling, The Alphabet, Its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, p. 52; UIE I, p. 198.

منذ القرن السادس قبل الميلاد خط كثير من دول الشرق الأدنى القديم^(١). هذا وقد استعملت الآرامية في كتابة أجزاء من التوراة (العهد القديم) ذلك أن اليهود إنما بدأوا يتحدثون الآرامية تماماً أثناء السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ ق.م)، ربما لسهولة استخدامها، ولتشابه لهجتها بلهجة اللغة العبرية، حتى أنه كان من أكبر الصعاب في وجه إحياء اللغة العبرية بعد العودة من المنفى، أن جانباً من الشعب هجر فعلاً لغته الأصلية، وحتى أن الآرامية حلت محل العبرية آخر الأمر بعد تنازع البقاء الذي وقع بين اللغتين، وهكذا كان أثر الآرامية واضحاً في أسفار عزرا ونحميا واستير، وأسفار الأنبياء يونا وحمى وزكريا وملاخي ودانيال، وفي غير ذلك مثل سفر الجامعة وبعض المزامير التي أضيفت إلى مزامير داود، فضلاً عن آيات معينة في سفر التكوين (٧: ٣١) وإرميا (١٠: ١١) وعزرا (٤-٦) ودانيال (٣-٦)^(٢).

وعلى أي حال، فلقد أدى توحيد الشرق الأدنى في ظل الإمبراطورية الرومانية، ثم انتشار المسيحية بعد ذلك، إلى انتعاش حالة الآرامية، فمن ناحية استخدمتها دول صغيرة جديدة يسكنها أقوام من العرب (مثل دولة الحضر)^(٣)، ومن ناحية أخرى فإن الآرامية لما كانت لغة السيد المسيح، فقد

(١) عبد الرحمن الأنصاري، لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية، ص ٨٩، فيلب حتى، تاريخ العرب ١٠٨/١-١٠٩، ديتلف نلس، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١، سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٧.

(٢) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٨١، محمد بدر، الكثر في قواعد اللغة العبرية، ص ٣٧، (القاهرة ١٩٢٦).

(٣) قامت دولة الحضر في أرض الرافدين إلى الشمال الغربي من مدينة أشور، وعلى مبعده ١٤٠ كيلو متراً جنوبى غربى الموصل، وفي صحراء سنجار بأرض الجزيرة غرب تكريت، وقد قامت بعثة ألمانية بحفائر في الحضر وأشور (١٩٠٣-١٩١٣) وقد كشفت عن نقوش آرامية ترجع إلى عهد البارثيين (القرن الثاني الميلادى)، وكانت المدينة تحمل الطابع العربى واليونانى والرومانى فى آن واحد. (موسكاتي، المرجع السابق، ص ٣٤٦، سعد زغلول، المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٢، R.Dussaud, Les Arabes en Syrie ayant l'Islam, p. 158.

وانظر: محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ٤٧٣/٢-٤٨٩، (ط ١١) - الإسكندرية ١٩٩٤.

صارت اللغة الرسمية للكنيسة السريانية، وبهذه الصفة عاشت قرونًا بعد ذلك، وانتجت أدبًا دينيًا ضخماً^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «الأراميين» بعد ظهور المسيحية أصبح له مدلول وثني غير مستحب، ومن ثم فقد سُمّي القوم أنفسهم بالاسم اليوناني «سوريين» بالنسبة للشعب، و«سرياني» بالنسبة للغة، تمييزاً لها عن الأراميات الوثنية واليهودية، ويذهب البعض إلى أن هذه التسمية إنما ظهرت بعد المسيح على يد الرسل من هذه الديار، لأنهم كانوا جميعاً من سورية وفلسطين، وذلك لأن المتتصرين الأوائل كانوا شديد التمسك بالدين المسيحي، ومن ثم فقد أحبوا أن يسموا باسم مبشرهم، فتركوا اسمهم القديم، واتخذوا اسم «السريان» ليمتازوا عن بني جنسهم الأراميين الوثنيين، ولذا أصبحت لفظة الأرامي مرادفة للفظه الصابي، والوثني، ولفظة السرياني مرادفة للفظه المسيحي والنصراني.

وهكذا ظهرت اللغة السريانية كلهجة آرامية قديمة في إقليم مدينة «الرها» (أديسا عند الرومان، و«أورفا» الحالية جنوب شرق تركيا) ثم ظهر الخط السرياني المعروف «بالخط السرجيلى» عقب الانشقاق المذهبي المسيحي بين سريان الرهان في عام ٤٨٩م، ثم سرعان ما نشأت لهجتان من السريانية (غربية وتسمى اليعقوبية، وشرقية وتسمى النسطورية)، وعلى أى حال، فقد أصبحت السريانية لغة حية في العلم والفكر في الشرق حتى القرن العاشر الميلادى وإن استمرت لغة الكنائس حتى القرن الثالث عشر الميلادى^(٢).

(١) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) حنين ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٠-١٢١؛ فيليب، حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين،

١٨٤/١-١٨٥؛ القس يعقوب الكلدان، دليل الراغبين في لغة الأراميين، ص ١١؛ إقليمس

يوسف داود، المرجع السابق، ص ١١؛ حسن محمود، المرجع السابق، ص ٣٨٥.

(٤) الآدوميون

ينسب الآدوميون إلى «أدوم»، وهو «عيسو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل»، وتطلق التوراة عليهم عادة «أدوم» فقط^(١)، وهناك من يعتبرهم - بالإضافة إلى المؤابيين والعمونيين - بدواً اشتركوا في الهجرة الآرامية، ولكنهم سبقوا أقربائهم الإسرائيليين في الرحيل من الصحراء، وهكذا فإن أدوم - أو عيسو - إنما ينظر إليه في المصادر المبكرة كأخ أكبر ليعقوب - أو إسرائيل -^(٢) ومن هنا فإن الآدوميين إنما يعتبرون أقرب العناصر دماً ولغة إلى آل يعقوب، إذ لم يكن بين الفريقين أقل فرق، قبل أن يعتنق بنو إسرائيل الموسوية^(٣)، كما أن الأخيرين لم يكونوا من دم عبراني أنقى من الأولين، فهم مزيج من المهاجرين العبرانيين، وسكان المنطقة الأصليين والعرب.

وأما موطن الآدوميين، فقد كان في أقصى جنوب بلاد شرق الأردن، وجنوب وادي الحسا الذي ينساب إلى الطرف الجنوبي من البحر الميت، في الجبال التي تقع شرق الصخرة العظيمة لوادي العربة^(٤)، وتطلق التوراة على هذا الإقليم اسم «سعير» أحياناً^(٥)، ونقرأ في سفر التثنية أن الآدوميين قد طردوا الحوريين منها وسكنوا في مكانهم^(٦)، وهكذا كانت أدوم تقع في نقطة بعيدة لا تتصل بالإسرائيليين بحدود مباشرة، وبالتالي فلم تكن هناك أسباب العدواة بينهما^(٧)، هذا فضلاً عن أن أرضهم - طبقاً لرواية التوراة - قد حرّمها ربُّ إسرائيل على شعب إسرائيل^(٨).

ومع ذلك، فإن الإسرائيليين إنما كانوا يعدون الآدوميين من ألد

(١) عدد ٢٤: ١٨؛ يشوع ١٥: ١؛ صموئيل ثان ٨: ١٤.

A. Lods, op.cit., p. 58.

(٢) تكوين ٢٥: ٢٤-٢٦؛ وكذا:

(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٠٤.

M. Noth, op.cit., p. 154.

(٤)

(٥) تكوين ٣: ٣، ٨: ٣٦؛ يشوع ٢٤: ٤؛ حزقيال ٣٥: ٣، ٧: ١٥.

M.Noth, op.cit., p. 156. (٧)

(٦) تثنية ٢: ١٢.

(٨) تثنية ٢: ٤-٦.

أعدائهم حتى أن المنازعات السياسية بين الفريقين قد استمرت عدة قرون، إلى أن انتهى الأمر بفناء الآدوميين وامتزاجهم باليهود من ناحية، وبالأنباط^(١) من ناحية أخرى^(٢) ولعل السبب في ذلك - فيما أظن - يرجع إلى عوامل نفسية، أكثر منها عوامل سياسية، فالآدوميون يحسبون أن الإسرائيليين قد سرقوا حقهم في البركة أولاً، ثم في البكورية ثانياً^(٣)، هذا إن كانت رواية التوراة بشأنهما صحيحة، ومن هنا أتى موقف الآدوميين من الإسرائيليين أثناء التيه في الصحراء^(٤)، مما أثار عليهم حقد بنى إسرائيل، الأمر الذى تظهر آثاره بوضوح إبان التاريخ اليهودى القديم، ثم يستمر حتى السبي البابلى ليهودا فى عام ٥٨٧ ق.م، حيث يستولى الآدوميون عليها، حتى مدينة حبرون، وفى القرن الخامس قبل الميلاد يستولى النبط على جبل سعين، ويطردوا الآدوميين منه..

وكان الآدوميون يحكمون فى البداية بأمراء يشبهون رؤساء القبائل، ثم استطاعوا بعد ذلك تكوين مملكة ربما كان ملوكها منتخبين^(٥)، وقد جلس على عرشها ثمانية ملوك، قبل أن يستطيع الإسرائيليون تكوين مملكة، وقبل أن يستولى داود على مملكة أدوم^(٦)، وليس إلى أيام موسى، الذى يرى فيه «أونجر» أول ملك لإسرائيل، طبقاً لتفسير خاص لبعض نصوص التوراة^(٧)، الأمر الذى لا نوافق عليه.

وكانت «سالع» عاصمة أدوم، ثم تغير اسمها إلى «البتراء» وهى واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للأنباط - بعد أدوم -

(١) انظر عن الأنباط: محمد يومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الفصل الرابع عشر، الرياض ١٩٧٧، ص ٤٩٢-٥٢٣.

(٢) إسرائيل ولفسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩، ص ١٠٥.

(٣) تكوين ١٩: ٢٥-٣٤، ٢٧: ١-٤٥.

(٤) تثنية ١: ٢-١٤، عدد ٢٠: ١٨-٢١.

M.Noth, op.cit., p. 154.

(٥) تكوين ٣١: ١٥-١٩، ٣٦: ٣١-٣٩، وكذا:

Ibid., p. 185.

(٦)

M.F. Unger, op.cit., p. 286.

(٧) تثنية ٣٢: ٥، خروج ١٨: ١٦-١٩، كذا:

وتقع إلى الشرق من وادى عربية فى منتصف المسافة تقريباً بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعدة ٨٠ كيلاً إلى الجنوب من البحر الميت^(١)، والبتراء - على أى حال - كلمة يونانية تعنى «الصخر»^(٢) ولعلها ترجمة الكلمة العبرية «سلع» التى جاءت فى التوراة^(٣)؛ كما تعنى كذلك «الشق فى الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم باسم «السيق» ولعله لفظ نبطى متوارث، حرفة الناس عن «الشق» فى السبئية القديمة^(٤)، وأياً ما كان الأمر فلقد عرّف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموى» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادى موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس^(٥).

وأما الاسم العربى للبتراء فهو الرقيم، وربما كان هو اسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke، فحرفه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزنة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادى موسى^(٦).

ونقرأ فى التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠-٧٨٢ ق.م) قد خلف أباه «يهواش» (٨٣٧-٨٠٠ ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسمع وقد نجح فى الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها اسم «يقتيل» بمعنى «الخاضع لله»^(٧).

(١) قاموس الكتاب المقدس، ٤: ٥/١-٤٤٦؛ جواد على ٥٢/٣.

(٢) Pliny, 2, p. 447.

(٣) إشعيا ١٦: ١، ٤٢: ١١.

(٤) لانكستر هاردينج، آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، عمان ١٩٦٥، ص ١١٧.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٢/٢١٦، (بيروت ١٩٥٥).

(٦) جرجى زيدان، المرجع السابق، ص ٧٣؛ ياقوت، ٢/٢٤٦.

(٧) ملوك ثان ١٤: ١-٧؛ وكذا: F. Altheim and Ratiuhl, op.cit., p. 283. وكذا:

A.B.W. Kenwedy, Petra, its History and Monuments, London, 1925, p. 78.

A. Lods, op.cit., p. 385-6.

وكذا:

وعلى أى حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت فى
أيدى الرومان فى عام ١٠٥ م (أو ١٠٦ م)، ثم سرعان ما أخذت أهميتها
تتضاءل شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت فى ذمة التاريخ^(١)، إلى أن كشف عنها
«بورخاردت» (١٨٦٣-١٩٣٨) فى عام ١٨١٢ م^(٢).

ولعل من أهم مدن أدوم - بعد البتراء - مدينة «بصرة» - ومكانها الآن
بصيرة الحديثة على مبعدة ٣٢ كيلاً إلى الجنوب الشرقى من البحر الميت،
ثم «تيمان» على مقربة من البتراء، ثم «عصيون جابر» - والتي كان يظن
من قبل أنها كانت عند «عين الغديان» فى قعر وادى العرب، ثم اكتشفها
«نلسون جلوك» فى موقع تل الخليفة، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل
البحر على الطرف الشمالى لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»^(٣).

هذا وقد عرفت بلاد أدوم فى اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدوم»
فهى الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الأدوميين فى القرن الثانى
قبل الميلاد، وذلك حين استولى «يوحنا المكابى» على حبرون وغيرها من
المدن التى كان الأدوميون قد استولوا عليها، ثم أجبرهم بعد ذلك على
الختان واعتناق اليهودية، رغبة منه فى إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين
اليهود، وجباً فى نشر اليهودية بينهم^(٤).

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٢-٣٢٤؛ مكابيين أول ٥: ٢٦-٢٨.

(٢) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, p. 418-434.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١٧١/١؛ جواد على ٦٣٧/١؛ موسكاتى، المرجع السابق، ص ٢٨٠؛
وكنّا: J. Finegan, op.cit., p. 181. وكنّا:

Nelson Glueck, The Other side of the Jordan, New Haven, 1945, p. 50-113.

(٤) إسرائيل ولفسون، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٥) المؤابيون

ينسب المؤابيون - طبقاً لرواية التوراة - إلى مؤاب بن لوط عليه السلام^(١) ويطلق عليه في التوراة أحياناً «مؤاب»^(٢)، وهم من الشعوب التي تتصل بالعبرانيين بصلة من قرابة عن طريق لوط ابن أخى إبراهيم الخليل، عليه السلام، كما أن راعوت جدة داود امرأة مؤابية^(٣).

ويقع إقليم المؤاب شمال وادى الحسا - الذى يفصله عن أدوم، والمعروف فى التوراة بوادى زاد - وقد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق من البحر الميت حتى الصحراء، واتسعت شمالاً حتى وادى الموجب، وهو نهر أرنون فى سفر العدد^(٤)، ويتكون من وادى «وله» الذى يأتى من الشمال الشرقى، ووادى عنقيلة الآتى من الشرق، وسل الصعدة الآتى من الجنوب^(٥).

وكانت مؤاب - مثل أدوم - حصينة قوية، ذات مواقع استراتيجية على الحدود وفى الداخل، ولهذا فقد اضطر الإسرائيليون أثناء التيه أن يكفوا عن الاستمرار فى السير «فى البرية التى قبالة مؤاب إلى شروق الشمس»، حتى وصلوا إلى الجانب الآخر من أرنون^(٦)، هذا وتروى التقاليد الإسرائيلية أن منطقة مؤاب هذه، إنما كانت - بادئ ذى بدء - ملكاً للأيميين فطردهم المؤابيون منها^(٧)، أما عربات مؤاب فهى وادى الأردن بين مصب ييوق والبحر الميت^(٨).

وكانت فرصة مؤاب الوحيدة فى التوسع، هى الاتجاه نحو الشمال، فيما وراء أرنون، ومن هذه المناطق اتصلوا بالإسرائيليين اتصالاً مباشراً، ومنذ

(١) تكوين ١٩: ٣٧. (٢) عدد ٢٢: ٣-٢٤؛ ملوك ثان ١: ١. (٣) راعوت ١: ٤.

(٤) عدد ٣١-١٣-١٤. (٥) قاموس الكتاب المقدس، ٥٧/١.

J. Finegan, op.cit., p. 154.

(٦) عدد ٢١: ١١-١٣؛ وكذا:

(٧) تثنية ٢: ١٠-١١؛ لم قارن: تكوين ١٤: ٥؛ وانظر: قاموس الكتاب المقدس ٩٢٨/٢؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 753.

(٨) قاموس الكتاب المقدس، ٩٢٨/١.

البداية فقد كانت رقعة الأرض شمال أرنون، تبدو كما لو كانت قد شغلت أثناء القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بكل مجالات النفوذ الصغيرة، مثل حشبون، حيث استطاع جيرانهم من قبيلة «جاد» إخضاعها في النهاية.

وعلى أى حال فإن أقدم حالة يمكن أن نفطن إليها هي أن المؤابيين قد تقدموا بعيداً إلى شمال أرنون، على الأقل على طول الجبال التي كانت تمتد حتى حدود البحر الميت الشرقية، مفترضة أن المدن البعيدة إلى الشرق، في وسط رقعة الأرض التي كانت مائزلة مستقلة حتى ذلك الوقت، وهناك تقع قمة بعور - بين حشبون والنهاية الشمالية للبحر الميت - ذلك المزار المشهور لـ «بعل بعور»، حيث الحدود بين مؤاب، وقبيلة جاد العبرانية، وعلى أى حال، فلقد كان أغلب الجزء الجنوبي من وادي الأردن في وقت من الأوقات ملكاً للمؤابيين^(١).

وأما لغة مؤاب، فهي من اللهجات التي كتبت بها التوراة، وهي المعروفة عادة بالعبرانية، والقاربة بين اللغتين - المؤابية والإسرائيلية - مؤكدة، وهي لغة سامية قريبة من العربية كذلك^(٢)، ولكنها أشد شبهاً - في رسمها وقواعدها - باللغة العربية، كما يبدو ذلك واضحاً من النقش الموجود على «الحجر المؤابي»^(٣)، والذي يقدم أقدم نقش تاريخي مكتوب على النمط

(١) M. Noth, op.cit., p. 155-157. (٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٣) كان المبشر الألماني «أب ف.أ. كلاين» أول من اكتشف هذا الحجر في عام ١٨٦٨م عند العاصمة المؤابية «ديون» - ديان الحالية على مبعده ثلاثة أميال شمال نهر أرنون، وشمالاً غربى عراعر - ولكنه فشل في الحصول عليه، وتصادف أن كان الباحث الفرنسي «كليرمونت جانو»، في القدس، فعلم بالأمر، وانطلق مباشرة إلى ديون وأخذ الحجر المؤابي ونقله إلى متحف اللوفر بباريس، والحجر المؤابي عبارة عن قطعة من صخور البازلت الأسود، عرضها قدمان وثلاث بوصات ونصف، وطولها أربعة أقدام، وسمكها نصف بوصة، وعليها ٣٤ سطراً من الكتابة المؤابية، وقد أقامه «ميشع» ملك مؤاب حوالي عام ٨٥٠ ق.م، تخليداً لانتصاره على إسرائيل وشكر الإله «كيموش». ولكن هناك من يرى أنه ربما كتب بعد موت ملك إسرائيل «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م) وربما بعد زوال بيت عمري تماماً على يد «ياهو» (٨٤٢-٧٤٥ ق.م).

ودخول بني إسرائيل في زمن اليأس الذريع. (قاموس الكتاب المقدس ٩٢٩/٢). وكذا: J. Fingean, op.cit., p. 188-189; M.F. Unger, op.cit., p. 755-756; S.A. Cook, op.cit., p. 372; W.F. Albright, ANET, p. 320; W. Keller, op.cit., p. 230-234.

السامى الشمالى القديم^(١).

هذا ونعروف من الحجر المؤابى - وكذا من التوراة^(٢) - أن إله المؤابيين إنما كان يدعى «كيموش»، وأن القوم قد عرفوا - كما عرف غيرهم من الساميين كالكنعانيين والفينيقيين والإسرائيليين - عادة التضحية البشرية بالابن البكر، ذلك أن «ميشع» ملك مؤاب كان قد قام بحملة مظفرة بنجح فيها فى توسيع ملكه، على مدى خط العرض من الطرف الشمالى للبحر الميت، وإخضاع المستعمرات الإسرائيلية فى الهضبة الخصبة شمال عرنون^(٣)، ثم نهب المعبد الإسرائيلى فى «بنو»، ووهب سبعة الآلاف من سكانها إلى الآلهة «عشتار - كيموش»، مما اضطر ملك إسرائيل «يهورام» (٨٤٩-٨٤٢ ق.م) إلى طلب العون من يهوذا وأدوم، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب^(٤)، الأمر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» إلى أن يضحى بولده البكر لإله «كيموش» حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة^(٥).

هذا وقد كشفت آثار كثيرة فى مؤاب، لعل أشهرها ما كان فى «ربة مؤاب وكرك وماديا ومعين وأم رصاص»^(٦) وفى عام ١٩٥٠/١٩٥١م، قامت «المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية فى أورشليم» بحفائر فى «ديون» - عاصمة مؤاب - أتت بنتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المباني والفخار الذى يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربى المبكر، ولكنها فى الغالب لم تكشف شيئاً يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أى حال فلقد

C.S. Clermont-Ganneau, La Stele de Mess, 1887.

G.A. Cooke, TBNSI, 1903, p, 1-14.

(١)

وكذا:

(٢) ملوك ثان ٣: ٩-٢٧.

(٣)

M.Nothe, op.cit., p. 244-245.

S.A. Cooks, CHA III, p. 372.

(٤)

(٥) ملوك ثان، ٢: ٢.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ٩٢٩/٢.

كشفت عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المؤابي بالقرن التاسع قبل الميلاد^(١).

(٦) العمونيون

تروى التقاليد الإسرائيلية في سفر التكوين أن العمونيين إنما ينسبون إلى «بنى عمى» بن لوط^(٢)، وأن المنطقة التي سكنها «سكن الرفائيون فيها قبلا، لكن العمونيين يدعونهم زمزميين، شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين، أبادهم الرب من قدامهم، فطردوهم وسكنوا مكانهم»، وأن منطقتهم هذه قد حرمت على الإسرائيليين^(٣)، كما كانوا - كغيرهم من سكن المنطقة - على عدااء مع الإسرائيليين^(٤)، كما كانوا دائما أعداء لهم قبل السبي البابلي وبعده^(٥).

هذا وقد كان العمونيون في صراع مستمر مع الأموريين إلى الشمال منهم، خاصة على الحدود الشمالية والشرقية، واشتهر «سيحون» الأموري بسلبه قسما كبيرا من أراضيهم^(٦).

وقد استقر العمونيون في الشمال الشرقي من المؤاب، في الإقليم الأعلى من يوق، وكانت عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» التي سميت في العصر الإغريقي «فيلادلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (٢٨٤-٢٤٦ ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة

J. Finegan, op.cit., p. 189-190.

(١)

R.E. Murphy, BASOR, 125, 1952, p. 20-23.

وكذا:

F.V. Winnett, BASOR, 125, 1952, p. 7-20.

وكذا:

A.D. Tushingham, BASOR, 133, 1954, p. 6-126.

وكذا:

(٣) تثنية ٢: ١٩-٢١.

(٢) تكوين ١٩: ٣٨.

(٤) قضاة ١٣: ١٠؛ صموئيل أول ١٠: ١-١٠؛ مزمور ٨٣، ٧؛ تثنية ٢٣: ٣-٧.

M.F. Unger, op.cit., p. 45.

(٥) نحميا ٤: ٣؛ مكابيين أول ٦: ٣٠-٤٣؛ وكذا:

(٦) عدد ٢١: ٢٤؛ تثنية ٢: ٢٧؛ قضاة ١١: ١٣، ٢٤.

المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في اسمها جزء من اسم العمونيين^(١).

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ فترة مبكرة، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملوك قبل أن تبرز فكرة الملكية في إسرائيل، هذا ويدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين من الآراميين على أيام داود^(٢)، وكما حدث في موقعة قرقار في عام ٨٥٣ ق.م، حينما اشترك ملك عمون في حلف يضم اثني عشر ملكاً على رأسهم بنحدد ملك دمشق، ضد شلمنصر الثالث^(٣) يدل هذا التحالف على أنهم كانوا أقوياء.

وأما معبود العمونيين القومي، فهو «ملكوم» وكانوا يقدمون أبناءهم ذبائح له^(٤)، كما عبدوا كذلك كيמוש إله المؤابيين في عهد يفتاح الجلعادي^(٥)، أحد قضاة إسرائيل، هذا وتدل الأسماء العمونية - كما جاءت في التوراة - على أن لغتهم إنما كانت قرية من العبرية^(٦).

(٧) المديانيون

تحدث القرآن الكريم عن أهل مدين، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام^(٧)، في مواطن متفرقة من سورة^(٨)، ووفقاً لما جاء في القرآن الكريم،

(١) M. Noth, op.cit., p. 157-158.

(٢) صموئيل ثان ١٠-١٢.

(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 363. وكذا: M.Noht, op.cit., p. 245-6.

وكذا: J. A. Montgomery, op.cit., p. 27.

(٤) ملوك أول ١١: ١٥، ٢٣. (٥) قضاة ١١: ٢٤. (٦) M.F. Unger, op.cit., p. ٦٦.

(٧) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «المديانيين» في كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» شملت

كل «الفصل الثامن» من الجزء الأول، من هذا الكتاب (الرياض ١٩٨٠)، ص ٢٨٩-٣٠٧.

(٨) انظر: سورة الأعراف والتوبة وهود والحجر والحج والشعراء والقصص والعنكبوت وق وغيرها.

فإن شعيبًا أتى مدين وأصحاب الأيكة، فنهاهم عن عبادة الأوثان، كما أمرهم أن يقيمون الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان^(١)، ذلك لأن آفة مدين إنما كانت آفة كل المدن على مدرجة الطرق، ومن ثم فقد كانت قصتهم في القرآن قصة التجارة المحتكرة، والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطرق، وهكذا كانت رسالة شعيب عليه السلام، رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت لها بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم^(٢).

وقد كان أهل مدين قومًا عربيًا يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قرية من أرض مـ ان في أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط^(٣)، هذا وقد كانت مدين هذه إنما تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء^(٤).

ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، ويبدو أنهم قد توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، متخذين منها مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدًا طويلًا، حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة، وقد ذكر بطليموس الجغرافي موضعًا يقال له «مودينا» على سواحل البحر الأحمر، يرى العلماء أنه موضع مدين، وأنه يتفق وحدود أرض مدين المعروفة في الكتب العربية^(٥).

(١) انظر: سورة الأعراف (٨٥)؛ وهود (٨٤-٨٥)؛ والشعراء (١٨١-١٨٣).

(٢) عباس العقاد، مطلع النور، ص ٩٣-٩٤؛ تفسير روح المعاني، ١٧٦/٨-١٧٧؛ تفسير المنار ٥٢٦/٥٢٥/٨؛ تفسير الطبري ٥٥٤/١٢-٥٥٥.

(٣) ابن كثير ١٨٤/١-١٨٥؛ ياقوت ٧٧/٥-٧٨؛ ١٥٣-١٥٤؛ تفسير المنار ٥٢٤/٨.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٨٥٠/٢.

(٥) جواد علي ٤٥٥/١؛ وكذا :

J. Hastings , op.cit., p. 616; T.K. Cheyne, op.cit., p. 3081; Ptolemy, Geography, VI, 7, 27; El, 3, p. 104.

وأما «يوسبيوس» فيذكر مدينة «مديم» ويقول أنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم من زوجه «قطورة»، وهي تقع وراء المقاطعة العربية في الجنوب في بادية العرب الرحل إلى الشرق من البحر الأحمر^(١)، وأما «الويس موسل» فيذهب إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من مكان العقبة الحالية، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري^(٢)، هذا ويظهر من التوراة أن المدينيين قد غيروا مواضعهم مراراً بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم بين قدم والعمالة والكوشيين والإسماعيليين، ويبدو أنهم استقروا في القرون الأخيرة قبل الميلاد في جنوب وادي العربية، وإلى الشرق والجنوب من العقبة^(٣).

ويرجح بعض الباحثين أن عصر شعيب، إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيباً في القرآن الكريم - كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت - بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى^(٤)، وإذا ما عدنا إلى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م)، وتذكرنا أن لوطاً وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء، لأمكننا القول أن شعيباً وقومه كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بخاصة وأن التوراة تذكر أن مدين إنما كان من ولد الخليل من زوجه «قطورة» الكنعانية^(٥).

على أننا نستطيع من ناحية أخرى أن نقول - حدساً عن غير يقين -

(١) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٦٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨٣-٨٤.

(٣) تكوين ٢٥: ٦، ٢٧: ٢٥، ٢٨: ٢٨، عدد ١٢: ١؛ حيقوق ٣: ٧؛ وكذا:

A. Mosil, op.cit., p. 287.

(٤) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ١٤٩، (القاهرة ١٩٦٦).

(٥) انظر: سورة الحجر (٥١-٧٧) والعنكبوت (٢٦-٣٥) والذاريات (٢٤-٣٧)؛ وانظر: تكوين

١٤: ١-٢٤، ١٨: ١-٣٣، ٢٥: ١-٢؛ أخبار أيام أول ١: ٢٢.

أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إذا ما كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، ذلك لأن رحلة الخروج من مصر، تحت قيادة موسى - وكذا لقائه مع صهره كاهن مدين - إنما كانت في هذا القرن الثالث عشر ق.م^(١).

(٨) اليبوسيون

ينسب اليبوسيون في التقاليد الإسرائيلية إلى «يبوس»، وهو نفس الاسم الذي حملته مدينة «القدس» قبل أن تحمل الاسم العبري «أورشليم»^(٢)، الذي حرفه العبرانيون عن اسمها «شاليم» - الأمر الذي ستناقشه بالتفصيل فيما بعد - واليبوسيون هم أحد الشعوب السبعة التي تزعم التقاليد العبرية في سفر التثنية أن رب إسرائيل قد أعطى أرضهم لشعبه إسرائيل^(٣)، وأنهم - في رأى التوراة - من سكان الجبال^(٤).

وعلى أى حال، فلقد بقى اليبوسيون في مدينتهم «يبوس»، حتى بعد أن استولى عليها داود^(٥)، وقد أخضع سليمان بقية اليبوسيين، وضرب عليهم تسخير العبودية، وفرض عليهم الجزية - فيما تروى التوراة^(٦) - ومع ذلك فقد بقى القوم في بلاد اليهودية حتى عهد ما بعد السبي البابلي^(٧).

(١) ياقوت ٥: ٧٧-٧٨، البكرى ١٢٠/١، مروج الذهب ١١/١، تاريخ ابن خلدون ٤٣/٢، ٨٢؛ العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٨٠.

(٢) يشوع ١٥: ٨، ٦٢: ١٨، ١٦: ٢٨، قضاة ١٩: ١٠، أخبار ثان ١١: ٤، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 556.

(٣) تثنية ١٧: ٢٠، ١٧: ١٧.

M.F. Unger, op.cit., p. 557.

(٤) عدد ١٣: ١٩، يشوع ١١: ٣، وكذا:

(٥) صموئيل ثان ٢٤: ١٦-٢٥. (٦) ملوك أول ٩: ٢٠، ١١.

(٧) عزرا ٩: ١-٢.

واليبوسيون قبيلة كنعانية على رأي^(١)، بل هم بطن من بطون العرب الأوائل، نشأوا في صميم الجزيرة العربية، وترعرعوا في أرجائها، واستوطنوا ديارها، وكان ذلك حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م، ثم نزحوا منها مع من نزح من القبائل الكنعانية^(٢)، غير أن هناك من يرى أن اليبوسيين ليسوا ساميين، اعتماداً على أن الاسم «يبوس» غير سامي، بل لقد ذهب صاحب هذا الرأي إلى أن الجزء الأكبر من سكان فلسطين - فيما قبل العهد الإسرائيلي - غير سامي، وإنما هو من القبائل الحورية^(٣)، وبدهى أن تلك مبالغة غير مقبولة، والأمر كذلك فيما ذهب إليه «صموئيل أبرامسكي» من أن اليبوسيين قوم من أصل حيشي^(٤).

(٩) العماليق

ينسب الأخباريون العماليق^(٥) إلى «عمليق بن لوذ بن سام بن نوح»^(٦)، وهو شقيق طسم، هذا ويبالغ الإخباريون في أهمية العماليق وسعة انتشارهم بدرجة لا يمكن أن يقبلها منطق أو يقرها عقل، فيجعلونهم أمماً كثيرة تفرقت في البلاد، فكان منهم أهل عمان والحجاز والشام ومصر، فضلاً عن أهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق وسعد بن عزان، وأهل نجد وبيد وراجل وغفار وتيماء، هذا إلى جانب شعبة منهم ذهبت إلى صنعاء قبل أن تحمل الأخيرة اسمها هذا، وأخيراً فقد كان منهم الجبابرة بالشام، وهم الكنعانيون، والفراعين بمصر، والأرقم ملك الحجاز بتيماء^(٧).

(١) قاموس الكتاب المقدس ١٠٥٣/٢، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 557.

(٢) عبد الحميد السايح، بيت المقدس، القاهرة ١٩٦٥، ص ٤٩، عارف العارف، قبة الصخرة المشرفة، ص ١٨-٢٦، حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) S. Yeivin, The Speulchers of the Kings of the House of David, JNES, 7, p. 41.

(٤) Samuel Abramsky, Ancient Towns in Israel, Jerusalem, 1963, p. 122.

(٥) انظر كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم»، ص ١٧٦-١٨٣، الرياض، ١٩٧٧ م.

(٦) تاريخ الطبري، ٢٠٧/١، الهمداني، الإكليل ٤١٠/٢، ابن قتيبة، المعارف، ص ١٣.

(٧) الإكليل، ٧٤/١-٧٧، تاريخ الطبري، ٢٠٦/١، نهاية الأرب للقلقشندي، ١٥٠-١٥١،

قاموس الكتاب المقدس، ١١٢/٢، جواد علي، ٣٤٦/١.

ولاشك في أن الاضطراب إنما يبدو واضحًا في روايات الأخباريين هذه، فضلًا عن أثر التوراة الواضح فيها، فهم يرون أن حكام مصر من العماليق^(١) والعماليق، في رأيهم كجرهم من العرب العاربة^(٢) - ولكنهم في نفس الوقت يرون أن أهل مصر من أبناء «مصرًايم بن حام بن نوح»^(٣)، وتلك في الواقع إنما هي رواية التوراة^(٤)، وهكذا فإن المصريين - في نظر المؤرخين المسلمين - ساميون وحاميون في نفس الوقت، والأمر كذلك بالنسبة إلى الكنعانيين، فهم من العماليق، وهم في نفس الوقت، أبناء «حام بن نوح»^(٥) وتلك - مرة أخرى - رواية التوراة^(٦) وإذا كان الحقد الدفين من يهود ضد المصريين والكنعانيين والبابليين، هو الذي دفع بكتابة التوراة إلى إخراج هذه الشعوب جميعًا من الساميين، وجعلها من أبناء حام، فإن النقل عن يهود - والغفلة كذلك - هي التي دفعت بالمؤرخين الإسلاميين إلى هذا الموقف الخاطئ.

وأما عن الانتشار غير المقبول للعماليق، فلعله في أحسن الأحوال، إنما كان لأن العماليق قبائل بدوية، انتشرت هنا وهناك في عديد من الأماكن بشبه الجزيرة العربية، ثم جاء الأخباريون وجعلوهم سكانًا لمناطق لا تقتصر على بلاد العرب وحدها، وإنما شملت غيرها من المناطق المجاورة.

وأما أصل الكلمة «عماليق» أو عمالقة، فمجهول، وإن غلب على

(١) انظر: محمد بيومي مهران، «حركات التحرير في مصر القديمة»، القاهرة ١٩٧٦، دار المعارف، ص ١٣١ - ١٣٤ رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، ص ٩٨، تاريخ الطبري، ٢٣٥/١ - ٢٣٦، ٣٤٢ - ٢٦٣، تفسير القرطبي، ص ٣٤٧٢ (طبعة الشعب)، ابن كثير، قصص الأنبياء، ٣٠٦/١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٠٠/١، ١٤١، ١٦٩، جرجي زيدان، المرجع السابق، ص ٦٠، وكذلك: Josephus, Wars of the Jews, I, p. 19.

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٧/١. (٣) ابن الأثير ٨١/١، تاريخ الطبري ٢٠٦/١.

(٤) تكوين ٦: ١٠. (٥) تاريخ الطبري ٢٠٦/١.

(٦) تكوين ٦: ١٠.

الظن أنهم نحتوه من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهة العقبة أو شمالها، ويسمىهم البابليون «ماليق» أو «مالوق»، فأضاف إليهم اليهود لفظ «عم» أى الشعب أو الأمة، فقالوا «عم ماليق»، أو «عم مالوق»، ثم جاءت العرب فقالت «عماليق» أو «عمالق»، ثم سرعان ما أطلقت الكلمة على طائفة كبيرة من العرب القدامى^(١).

ويكاد يتفق الإخباريون على أن العماليق عرب صرحاء، ومن أقدم العرب زماناً، ولسانهم هو اللسان المضرى التي نطقت به كل العرب البائدة^(٢)، بل ويذهب الطبرى إلى أن عمليقاً وهو أبو العمالق كان أول من تكلم العربية حين ظعنوا من بابل، ومن ثم فقد كان يقال لهم وكذا لجرهم العرب العاربة^(٣).

ومرة أخرى يظهر أثر التوراة فى هذه الرواية، فهى لا تتعارض مع الرواية المشهورة التى تجعل «يعرب بن قحطان» أول الناطقين بالعربية فحسب، وإنما تجعل السريانية أقدم من العربية، وذلك حين جعلتها لغة الناس جميعاً، غير أن القوم قد انحرفوا إلى عبادة الأوثان، خنوعاً، للنمرو بن كوش بن كنعان ابن حام، ملك بابل، وصاحب إبراهيم عليه السلام،، ومن ثم فقد أصبح القوم ذات يوم، وقد بلبل الله ألسنتهم، فلا يفهم الواحد منهم الآخر، إذ «أصبح لبنى سام ثمانية عشر لساناً، ولبنى حام ثمانية عشر لساناً ولبنى يافث ستة وثلاثون لساناً ففهم الله العربية عاداً وعبيل وثمرود وجديس وعمليق وطسم وأميم وبنى يقطن بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح»^(٤).

(١) جرجى زيدان، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣.

El. I, p. 325.

(٢) جواد على، ٣٠٦/١، وكذا:

(٣) تاريخ الطبرى، ٢٠٧/١.

(٤) تاريخ الطبرى، ٢٠٧/١-٢٠٨، البكرى ٢١٩/١، الأخبار الطوال، ص ٢، المحبر، ص ٣٨٢-

٣٨٥، أخبار الزمان للمسعودى، ص ٢٠٤، ٢٠٩، ثم قارن: تاريخ الطبرى، ٢٨٨/١-٢٩٠،

ابن الأثير، ١١٥/١، تاريخ الخميس، ص ٩٥-٩٦.

وهكذا فالرواية إذن لا تجعل شرف السبق فى النطق بالعربية مقصوداً على «عمليق»، وإنما شاركه فيه آخرون، ثم إنها تؤرخ الحادث بعهد «نمرود» صاحب إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم كما هو معروف لا يعده الإخباريون من العرب العاربة، فضلاً عن أن يكون من أقدم العرب زماناً^(١) ومن ثم فكل من ذكرهم الإخباريون على أنهم أصحاب السبق فى النطق بالعربية، تأتى هذه الرواية فتجعلهم لا ينطقون بها إلا على أيام النمرود، صاحب إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م).

وأخيراً، فالرواية تحريف لرواية توراتية، أراد كاتبها أن يقدم لنا تفسيراً لاختلاف اللغات والأجناس^(٢) - كما فعلت الرواية العربية - فقدم لنا تفسيراً ساذجاً غير علمى، ذهب فيه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد رأى أن سلالة الناجين من الطوفان يبنون برجاً بغية الوصول إليه فى علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بنوح زجاج يعلو بضع مئات من الأمتار، فخشى شرهم واحتاط لنفسه فهبط الأرض ولبل ألسنتهم، فتفرقوا شذر مذر، ومن ثم فقد سميت المدينة «بابل»، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ثم بددهم على وجه الأرض^(٣)، أضف إلى ذلك كله أن الرواية العربية إنما هى متأثرة بروايات تذهب إلى أن الموطن الأصلي للساميين إنما كان فى بابل، بل ربما كانت أساساً لنظريات حديثة تنحو هذا النحو^(٤).

وعلى أى حال، فالعماليق - فى نظر التوراة - من أقدم الشعوب التى

(١) انظر: الفصل الرابع من كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، ١١٣/١-١٨٠ وكتابنا «إسرائيل»، ص ١٦٠-٢٣٤ (طبعة ١٩٧٣).

(٢) تكوين ١١: ١-٩.

(٣) عصام حنفى ناصف، محنة التوراة على أيدي اليهود، ص ٤٢، وكذا: سفر التكوين ١١: ١-٩، وكذا: J. Gray, Near Eastern Mythology, p. 104.

(٤) انظر: محمد بيومى مهران، «الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلي»، مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤م، ص ٢٧٥-٢٧١.

سكنت جنوب فلسطين، وقد عدّهم «بلعام» أول الشعوب^(١)، ربما لأنهم كانوا أول من اصطلم بالإسرائيليين أثناء التيه في صحراوات سيناء، ومن ثم فليس صحيحًا ما ذهب إليه البعض - طبقًا لرواية توراتية^(٢) - من أنهم من سلالة «اليعازر ابن عيسو» جد الآدوميين^(٣) وحفيد إبراهيم، ذلك لأن هناك نصًا توراتيًا آخر يجعلهم يقيمون في جنوب غرب البحر الميت على أيام الخليل إبراهيم^(٤) وأنهم كانوا على أيام موسى الكليم منتشرين في كل صحراء التيه حتى حدود مصر، وفي معظم سيناء، وجنوب فلسطين، كما كان هناك، جبل العمالقة في أرض أفرايم^(٥).

وليس هناك من شك في أن الصدام الحقيقي بين اليهود والعمالق إنما بدأ في المرحلة الأولى من التيه^(٦)، ونقرأ في التوراة أن العمالقة قد هاجموا بني إسرائيل المنهكين عند خروجهم من مصر وأسروا جميع مقاتليهم^(٧)، كما نقرأ كذلك في التوراة^(٨) أن العمالق قد أوتوا لمحاربة بني إسرائيل في «رفيديم» حيث ضرب موسى الحجر بعصاه، فانبثقت منه اثنتا عشرة عينًا، ويذهب «يوسف بن متى» المؤرخ اليهودي، إلى أن الإسرائيليين حينما وصلوا إلى «رفيديم» كانوا في حالة يرثى لها من العطش، ومن ثم فقد كان هجوم العمالقة عليهم ناجحًا^(٩).

وعلى أي حال، فإذا كانت «رفيديم»، والتي أطلق الإسرائيليون عليها «مريّة» - وكذا قادش القرية منها - تقعان حول البتراء، فهما إذن في جوار

(٢) تكوين ٢٦: ١٢.

(١) عدد ٢٤: ٢٠.

M.F.Unger, op.cit., p. 45.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٢٦؛ وكذا:

(٥) قضاة ١٢: ١٥.

(٤) تكوين ١٤: ١٧.

(٦) The Jewish Encyclopaedia, I, p. 218; A. Musil, The Northern Hegas, p. 460.

(٨) خروج ١٧: ١٦-٧.

(٧) تثنية ٢٥: ١٧-١٩.

(٩) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٣؛ وكذا:

W. M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 4.

أرض العماليق الذين كانوا يتمكنون في سهولة من أن يهاجموا بنى إسرائيل، متنقلين من معسكر إلى آخر، ومن أن يأسروا مقاتليهم^(١)، غير أن العمالقة قد أعانوا أعداء آخرين لبنى إسرائيل، حتى بعد استقرارهم في فلسطين، ومن ثم فإننا نقرأ في التوراة^(٢) أن العمالقة قد اتحدوا مع «عجلون» ملك مؤاب، الذى انتزع منهم مدينة النخل (أريحا)، كما كانوا كذلك حلفاء لأهل مدين وبنى المشرق «بنى قدم» الذين كانوا يسكنون في سهل يزرعيل، وهكذا استمر العماليق يغزون بنى إسرائيل في فلسطين^(٣)، تقول التوراة: «إذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق، ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوة الحياة، ولا غنماً ولا بقرًا ولا حميراً»^(٤).

وهكذا بدأ الإسرائيليون يفكرون في الانتقام من العماليق، وكان «شاؤل» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م)^(٥) هو أول ملك إسرائيلي يحارب العماليق، ونقرأ في التوراة أن الرب أمر شاؤل أن يحارب العماليق ويبيد كل ممتلكاتهم من ثيران وماشية وجمال وحمير^(٦)، ومن هنا نفهم أن العمالقة إنما كانوا يمتلكون عددًا من القرى والديار، وأنهم قد عنوا بحرث الأرض وزراعتها، فضلًا عن تربية الماشية والأنعام^(٧).

وطبقًا لرواية التوراة^(٨)، فإن شاؤل قد نجح في مهمته وحقق

(١) ألويس موسل، شمال الحجاز، ص ٢٣، (الإسكندرية ١٩٥٢).

(٢) قضاة ٣: ١٢.

(٣) ألويس موسل، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤.

(٤) قضاة ٦: ٣، ٤.

(٥) انظر عن الخلافات في فترة حكم شاؤل، كتابنا «إسرائيل»، ص ٢٩٧، طبعة أولى.

(٦) صموئيل أول ١٥: ٣-٦.

(٧) ألويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٤.

(٨) صموئيل أول ١٥: ٧.

للإسرائيليين - ولأول مرة - نصراً على العماليق، كما يفهم من الرواية نفسها، أن العمالقة إنما كانوا يسيطرون على طرق القوافل فيما بين جنوب فلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية.

وكان هناك طريقان يقعان في أرض العماليق، الواحد عن طريق برزخ السويس، والآخر عن طريق خليج العقبة^(١)، ولما كانت العلاقات التجارية بين مصر وغزة من ناحية، وبين جنوب بلاد العرب من ناحية أخرى، في غاية من الازدهار والنشاط، فقد كانت القوافل التجارية القادمة من غزة إلى العقبة تمر في أرض العماليق، فليس من شك في أنها إنما كانت تعترف بسلطتهم في هذا الجزء من الطريق القادم من غزة متجهاً إلى مصر، والأمر كذلك بالنسبة إلى جزئه الآخر المتجه نحو الجنوب الشرقي، أو أنها على الأقل كانت خاضعة لسلطة العمالقة في هذا الجزء المتاخم لساحل البحر من الطريق^(٢).

وفي أيام داود عليه السلام (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)^(٣) تدق الحرب طبولها من جديد بين بني إسرائيل والعماليق، وطبقاً لرواية التوراة^(٤) فإن العمالقة قد غزوا بني إسرائيل، وضربوا صقلع وأحرقوها بالنار وسبوا نساءها، إلا أن داود قد كتب له نجاحاً بعيد المدى في رد الغزاة، وفي استعادة الغنائم منهم، بل وفي استعادة بعض السبايا - ومنهم امرأته أختينوعم وأيجابل - كما تمكن قائده «يؤاب» من أن يخرجهم من ديارهم الأولى، وإن ظلت بقية منهم تسكن الجزء الجنوبي من جبل سدير، حتى أتى المهاجرون من قبائل

M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 41.

(١)

(٢) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٥.

(٣) انظر: عن الخلافات في فترة حكم داود، كتابنا «إسرائيل»، ص ٤١٧-٤١٨، طبعة ١٩٧٣.

(٤) صموئيل أول ٣٠: ١-٣٠.

شمعون فاحتلوا ديارهم^(١)، ومن ثم أصبحنا لا نجد للعمالة بعد ذلك ذكراً في النصوص.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بعدم ذكر العمالة في جملة قبائل العرب، وهذا (أولاً) لا يدل على أن العمالة لم يكونوا عرباً، و(ثانياً) لأن العبرانيين لم يطلقوا لفظة «عرب» إلا على أعراب البادية، ولا سيما بادية الشام^(٢)، و(ثالثاً) لأن العمالة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها بنو إسرائيل، ومن ثم فقد حملوا لهم حقداً دفيناً، واليهود - كما هو معروف - قد تأثروا بعواطفهم نحو الشعوب التي يكتبون عنها، وأخيراً (رابعاً) فإن العمالة - في نظر اليهود - أقدم من القحطانيين والعدنانيين، سواء بسواء^(٣).

(١٠) القينيون

القينيون: اسم سامى معناه «حداد»، والقين باللغة العربية معناه «الحداد»، وبنو القين: قبيلة من قبائل العرب، والنسبة إليها «قيني»^(٤)، وربما كانوا من المشتغلين بالمعادن في منطقة التعدين بوادي عربية، والعلاقة بينهم وبين المديانيين وثيقة، وإن كانت غير واضحة في التوراة، فأصهار موسى مديانيون رعاة أغنام، على رأى، وبطناً قينياً من البدو الحدادين، على رأى آخر^(٥)، والقينيون ينحدرون من المديانيين، على رأى، وفقط يسكنون في مدين عند خليج العقبة، على رأى آخر^(٦).

وعلى أى حال، فإن النصوص التوراتية إنما تعود بأصول القبائل

(١) أخبار أيام أول، ٤-٣٣.

(٢) J. A. Hatings, A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, p. 77.

(٣) جواد على، المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٢.

Gray, op.cit., p. 108.

(٥) خروج ١٦/٣-٢١ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 627.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٧؛ وكذا:

البدوية جميعاً إلى جد واحد بعينه هو «قاييل» - أو قايين كما تسميه -
انتساباً إلى أولاد حفيده «لامك»، ذريتهم شاملة لجميع الرجل من أقوام^(١)،
هذا فضلاً عن اضطراب التوراة بشأن أصهار موسى هؤلاء: أهم مديانيون أم
قينيون؟ وربما ذلك كله هو الذي دفعنا إلى القول - حدساً من غير يقين -
أن القينيين ربما كانوا بطناً من بطون مدين، وطبقاً لما جاء في التوراة^(٢)،
فإن القينيين كانوا أمة مجاورة للقندومنيين والقنزيين الساكنين في أدوم، وقد
تطلع «بلعام» من مرتفعات بعل في مؤاب، فأبى مساكن القينيين، وشبه
موضعهم بالعش في صخرة^(٣).

أما إذا كانت رواية التوراة - كما جاء في سفر يشوع^(٤) - صحيحة،
فإن القينيين إنما كانوا يعيشون في مكان ما، في الجزء الجنوبي من غرب
الأردن، لأن مدن القينيين - كما في سفر صموئيل الأول^(٥) - إنما تشير
إلى علاقة ما بالأماكن الأخرى المعروفة في الجزء الجنوبي من الجبال، كما
أنهم يشتركون في النجب (النقب) كذلك، هذا فضلاً عن إشارة إلى نجب
القينيين أو جنوب القينيين في سفر صموئيل الأول: (٢٧: ١٠)

ويبدو أن القينيين إنما كانوا مستقرين تماماً حتى فترة متأخرة نسبياً
وفي إشارات في سفر القضاة^(٦) نسمع عن البدو القينيين الذين كانوا
يقيمون لهم خياماً في مكان أو في آخر في الجليل، وإن كان «جابر»
القيني - طبقاً لنص في سفر القضاة - إنما كان منفرداً بنفسه، بعيداً عن
القينيين الآخرين، بل ربما كان هناك عدد آخر من القينيين المتفصلين.

(١) تكوين ٤: ٢٠-٢٢؛ حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى في تورا اليهود، المجلة، يوليو ١٩٧٠،
ص ٩.

(٢) تكوين ١٥: ١٩.

(٣) عدد ٢٢: ٤١، ٢٤: ٢١-٢٢؛ قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٢.

(٤) يشوع ١٥: ٥٦-٥٧. (٥) صموئيل أول ٣٠: ٢.

(٦) قضاة ١٤: ٧، ١١، ٥: ٢٤.

ومن ناحية أخرى، فطبقًا لما جاء في سفر صموئيل الأول^(١)، فإنه حتى عصر «شاؤول» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م.) كان القينيون يعتبرون أنفسهم من البدو، وأقرباء العماليق، ومن هنا فقد استقرت جماعة قينية في منطقة صغيرة، جنوب شرق الحدود بين الأرض الزراعية والمدرجات، بينما أصرت جماعة أخرى على الحياة بأسلوب البدو في المدرجات (أو المنحدرات) وفي البرية^(٢)، فهناك مجموعة قينية في وادي عربة، بل كان هناك قينيون في «يهودا» الجنوبية على أيام دادو (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م.) وسليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م.)^(٣) وفي حالات متصلة، حتى في قلب الأرض الزراعية، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن اسم القبيلة إنما قد يشير إلى أنهم كانوا من حدادى الصحراء، ولكن القينيين المستقرين إنما كانوا بالتأكيد مثل السكان الآخرين^(٤).

وأما عن علاقة القينيين ببني إسرائيل، فإن جملة الآراء لتتوافق على الربط بين بني إسرائيل، ثم بني يهوذا بخاصة، وبين القينيين، بوشائج موثقة أشد التوثيق، فضلًا عن أنهم - طبقًا لنصوص معينة في سفر القضاة^(٥) - إنما حلفاءهم الأقربون، بل إن التوراة لتبدو حريصة على إبراز الترابط الوثيق بين القينيين وبين الإسرائيليين، وبخاصة بني يهوذا، في صورة ربما أثارت دهشة، أو على الأقل، فإنها إنما تدفع بنا إلى تساؤلات، فمثلاً إذا ما استغفرت «دبورة» النبية بني إسرائيل فتصدوا لجيوش «يابين» ملك حاصور، فإن «ياعيل» امرأة حابر القيني هي التى تجهز على قائد تلك الجيوش، فتشدوا بها دبورة في قصيدتها المشهورة، تبارك على النساء يا يعيل امرأة حابر القيني، على النساء فى الخيام تبارك، وحينما دمر شاؤول العماليق، فإنه قد

M. Noth, op.cit., p. 57.

(٢)

(١) صموئيل أول ٦: ١٥.

M. Noth, op.cit., p. 57.

(٤)

(٣) M. Unger, op.cit., p. 627.

(٥) قضاة ١: ١٦، ١٤: ٧، ١١: ٥، ٢٤: ٢٤.

عفا عن القينيين الذين كانوا يعيشون بينهم، بل إن القينيين إنما كانوا أعواناً لبنى يهوذا فى زحفهم على أرض كنعان، ثم سكنوا مع الشعب^(١).

وأما عن علاقة القينيين بإله اليهود «يهوه» فإن «قايين» الجد الأعلى للقينيين، هو الذى حمل - طبقاً لرواية التوراة^(٢) - «علامة يهوه»، بل الأخطر من ذلك كله، الإقرار بأن «الركابيين» وهم من أصول قينية إنما كانوا أشد الأقوام تمسكاً بالتعاليم اليهودية، حين تردت البلاد إلى درك أسفل من وثنية، ظلوا النواة الصلبة للديانة الحققة فى أورشليم، فسلفهم «يهو ناداب بن ركاب» هو الذى صاحب «ياهو» (٨٤٢-٨١٥ ق.م) فى حملته على ذرية «آخاب» فيستولى على الحكم فى دويلة إسرائيل الشمالية، ويظهر «السامرة» من الأوثان^(٣).

وهكذا يمكننا أن نقول أن القينيين ظلوا الشعب الوحيد الذى تعفف عن الانقياد - كما فعل حلفائهم الأقربون من بنى يعقوب - إلى حياة الدعة والاستقرار فظلوا متحسكين أبداً بطريق المعيشة البدوية فى نقائها الأول - سواء أقاموا فى بلادهم على حدود الصحراء الأدومية، أو تنقلوا فى المنطقة الإسرائيلية لإطعام قطعانهم فى مواسم معينة من السنة، أو ليمارسوا الحدادة حرفتهم - فقد كانوا فى ذلك كله إنما يعيشون فى خيام، لا يذرون حبا، ولا يزرعون كرماً^(٤).

(١١) القنزيون

القنزيون قبيلة سامية كانت تعيش فى كنعان منذ أيام إبراهيم الخليل على الأقل، وقد ذكروا فى سفر التكوين^(٥) بين القينيين والقنوديين وهم

(١) قضاة ١: ١٦، ٥، ٢٤؛ حنين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) تكوين ٤: ١٥.

(٣) ملوك ثان، ١٥: ١٠-٢٨؛ إرميا ١: ٣٥-١١؛ حنين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص ١٠.

(٥) تكوين ١٥: ١٩.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 388.

ينسبون إلى القينيين، كما أنهم إنما كانوا مثلهم عمال مهرة في التعدين بمصانع النحاس الغنية في وادي الأردن والعربة، إلا أن هناك من يرى أنهم من الأدوميين اعتماداً على أن التوراة إنما تذكر (قناز) على أنه ابن «اليفاز» بن عيسو^(١) جد الأدوميين هذا فضلاً عن رواية تورانية^(٢) أخرى يظهر فيها «قناز» على أنه أمير من أدوم^(٣) وهناك رأى ثالث يذهب إلى أن القوم إنما كانوا أقرباء الكالبيين ذلك أن «كالب بن يفنة» إنما يوصف في عدة نصوص في التوراة بأنه «قنزى»^(٤) وربما كان «كالب» هذا ينحدر من سلالة «قناز» الأدومي^(٥) هذا وربما سكن القوم في مكان ما في الجزء الجنوبي من كنعان، ويحاول بعض التقاليد اليهودية^(٦) أن تفسر كيف أتى القنزيون إلى حبرون التي يفترض أنها كانت تحت حيازة الكالبيين.

ولعل سائلاً يتساءل: إلى أى مدى كان اتساع منطقة الكالبيين؟ وفي الواقع أن ذلك مالا ندريه على وجه اليقين، فليست هناك أدلة تحدد ذلك بالتأكيد، ولكن - طبقاً لرواية سفر صموئيل الأول^(٧) - فإن هناك كالبيين في «معون» - وهي تل معون الحالية، على مبعدة ١٦ كيلاً إلى الجنوب من حبرون - هذا فضلاً عن أنه - طبقاً لرواية أخرى في سفر صموئيل الأول كذلك^(٨) - فإن قبيلة كالب إنما كان لها نصيب في «النقب»، وهي منطقة عبور محددة تماماً، وتقع في المنحدرات الجنوبية لجبال غرب الأردن، والمنطقة التي كان يشغلها «الكالبيون» كانت على ما يبدو، تمتد نحو الجنوب من حبرون.

(١) تكوين ٢٦: ١١، ١٥.

(٢) تكوين ٣٦: ٤٦.

M.F. Unger, op.cit., p. 627.

(٤) عدد ٣٢: ١٢، يشوع ١٤: ٦، ١٤: ١٥، ١٧: ١٧، وكذا: Martin Noth, op.cit., p. 58.

(٥) M.F. Unger, op.cit., p. 627. (٦) يشوع ١٤: ٦، تثنية ١: ٢٢-٤٥.

(٧) صموئيل أول ٢٥: ١-٣. (٨) صموئيل أول ٣٠: ١٤.

(١٢) الفرزيون

ربما كان الفرزيون قبيلة من الكنعانيين، كانت تسكن العراء في قرى مسورة وربما كانوا - كالفائيين - من أقدم السكان، ومن عنصر غير كنعاني، وقد ورد ذكرهم مراراً في التوراة بين قبائل فلسطين^(١)، وكانوا على أيام يشوع يسكنون المنطقة الجبلية في بقعة أعطيت بعدئذ لإفرايم ومنسى ويهوذا^(٢)، وخلاقاً لما جاء في شريعة موسى عليه السلام، فإنهم لم يعادوا، بل سمح لهم بالتزواج مع غاليهم، فجروهم إلى عبادة الأوثان، وقد وضع عليهم سليمان نير عبودية التسخير^(٣).

(١٣) اليرحمثيليون

ذكرت مدن اليرحمثيلين في التوراة بجانب مدن القينيين^(٤)، وفي سفر صموئيل الأول (١٠: ٢٧) نرى «جنوبى اليرحمثيلين» بجانب «جنوبى القينيين»، وفي قائمة متأخرة يظهر «يرحمثيل» كأخ لكالب^(٥) هذا، ورغم أنه يكاد يكون من المستحيل أن نحدد منطقتهم بدقة، فلعل من الأفضل أن نضع «اليرحمثيلين» في أقصى جنوب جبال اليهودية^(٦).

(١٤) العناقين

تروى التقاليد الإسرائيلية أنهم قد وجدوا في فلسطين بقايا لجنس قديم من العمالقة يعرف باسم «عناقين» أو «عناقيم» وقد وصفوا بالجبابرة، لطول قامتهم وشدة بأسهم في الحرب، وأنهم كانوا يسكنون في جنوب فلسطين فيما بين القدس والخليل، وقد أربهاوا العبرانيين بمجرد رؤيتهم، ومن ثم فقد

(١) تكوين ١٥-٧٠؛ خروج ١٨: ٣؛ يشوع ١: ٩. (٢) يشوع ١٧: ١٥؛ قضاة ١: ٤-٥.

(٣) أخبار الأيام الأول ٢: ٩، ٤٢.

(٤) صموئيل أول ٣٠: ٢٩.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١٠٦١/٢.

(٦) M.Noth, op.cit., p. 57-58.

جبنوا عن محاربتهم، إلى أن طردهم كالب واستولى على حبرون منهم،
والتي يرى البعض أنها نسبت إلى جدهم، «عناق» فسميت «قرية أربع»^(١).

هذا وقد بقى العناقيون في «أشدود» - وتقع في منتصف المسافة بين
غزة وبيافا - وعلى مبعدة ١٨ ميلا إلى الشمال الشرقي لغزة - حتى بعد الغزو
العبراني حيث أعطيت المدينة لسبط يهوذا الذي لم يستطع الاستيلاء
عليها^(٢).

(١٥) الإيميون

الإيميون: هم السكان الأقدمون للمنطقة التي سكنها المؤابيون فيما
بعد، وتقع إلى شرقي الأردن، وقد هزمهم «كدر لعومر» في سهل «قريتايم»
وكانوا - كالعناقيين - طوال القامة، كما كانوا في وقت ما، شعبا كبير
العدد وقويا^(٣)، وعلى أي حال، فهناك في سفر التكوين ما يشير إلى أن كل
منطقة شرق الأردن قد سكنت من قبل بمجموعات من السكان وصفوا في
الغالب، بأنهم مرده طوال الأجسام^(٤).

(١٦) الرفائيون

الرفائيون - ويعنى اسمهم «ظلال الموتى» - عشيرة من الجبابرة سكنوا
قديما في فلسطين شرقي الأردن وغيره، حتى قبل وصول إبراهيم عليه
السلام وعندما دخل العبرانيون كنعان يبدو أن بقية من الرفائيين قد عاشوا
بين الفلسطينيين^(٥)، هذا وربما كان الرفائيون أول من استوطنوا «وادي

(١) يشوع ٢٢: ١١، ١٤: ١٢-١٤، عدد ١٣: ٢٨، قاموس الكتاب المقدس، ٦٤٢/٢.

(٢) يشوع ٢٢: ١١، ١٥: ٤٧، قاموس الكتاب المقدس ٧٧/١.

(٣) تكوين ١٤: ١٥، تثنية ٢: ١١، قاموس الكتاب المقدس ١٤٥/١.

(٤) تكوين ١٤: ٥-٧.

(٥) تكوين ١٤: ٥، ١٥، ٢٠، تثنية ٢: ١١، ٢٠، ١١: ٣، يشوع ١٧: ١٥، صموئيل ثان ٢١:

١٦-٢٠، قاموس الكتاب المقدس ٤٠٧/١.

«لرفائيين» والذي يرحح أنه وادي البقاع حوى عربى أورشليم، بين بيت لحم وأورشليم^(١)

(١٧) الزمزميون

الزمزميون، ويعنى اسمهم «صانعو الضجيج أو الطنين» أو «متزمرين»، وهم شعب أقدم من الكنعانيين، طوال القامة، يسكنون شرق البحر الميت، والأردن، وهم الذين سطا عليهم «كدو لعومر»، وغلبهم ثم جاء العمونيون وأخذوا أرضهم، ثم طردوهم^(٢).

(١٨) الجرجاشيون

وهم قوم تذهب التوراة إلى أنهم إحدى القبائل الكنعانية، التى كانت تعيش فى فلسطين قبل الغزو الإسرائيلى^(٣).

هذا ويعلق المستشرق الفرنسى «أرنست رينان»^(٤) (١٨٣٢-١٨٩٢م) على تلك الشعوب الصغيرة التى جاء ذكرها فى التوراة على أنها كانت تسكن كنعان، بأن هناك ظاهرة شائعة فى طفولة جميع الشعوب تتخيل الإنسانية الفطرية السحيقة القدم، على شكل بشر لهم أجساد خرافية الطول والعرض، ولهم قوة وبأس على مستوى هذه المقاييس الجسمانية الأسطورية^(٥).

(١) صموئيل ثان ٢٣: ١٣؛ يشوع ١٥: ٨، ١٨، ١٦؛ إشعياء ١٧: ٥؛ قاموس الكتاب المقدس ١: ٤٠٧.

(٢) تكوين ١٤: ٥؛ تثنية ٢: ٢٠؛ قاموس الكتاب المقدس ١: ٤٢٣.

(٣) تكوين ١٠: ١٦، تثنية ٧: ١؛ قاموس الكتاب المقدس ١: ٢٥٥.

(٤) Ernest Renan, Histoire et Systeme Compare des Langues Sometique, Paris. (٤) 1855, p. 97F

(٥) حسر ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل. ١٩٧١. ص ١٥

وعلى أى حال ، فربما يوجد فى هذه الأساطير ، ذات الاتجاه المشابه فى بلدان أخرى ، ذكريات غامضة عن جنس أقدم من الأموريين^(١) ، أصحاب أول هجرة سامية كبيرة من شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين .

A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eights Centurey, (١)
London, 1962, p. 53.

الفصل الثانى العناصر غير السامية (١) الحوريون

اختلف المؤرخون فى أصول الحوريين، فذهب فريق إلى أنهم شعب مازال أصله مجهولا، من العسير الجزم بأنه سامى أو هندو-أوربى^(١)، وذهب فريق آخر إلى أن الحوريين إنما هم قوم «هندو-أوربيون»، وأن هناك ظللا من شك حول انتماء القوم إلى «السوباريين» الذين ذكروا إلى جوارهم فى نصوص رأس الشمرا (أوجاريت) والذين ذكروا كذلك فى الألف الثالثة قبل الميلاد، على أنهم شعب كبير، يشغل مساحة واسعة^(٢).

هذا ويجمع العلماء - أو يكادون - على أن الحوريين إنما قد جاءوا من المرتفعات الواقعة بين بحيرة أورمية وجبال زاغروس، وقد غزوا شمال بلاد النهرين، ثم اتجهوا إلى سورية الشمالية، وأسسوا بها مملكة قوية، وربما كان مجيئهم متصلا بالحركات «الهندو-أوربية» العامة التى جاء بجماعات منهم إلى فارس والهند، وأدت إلى وصول الكاشيين إلى بابل، والحيثيين إلى اسيا الصغرى، والهكسوس إلى مصر^(٣).

وعلى أى حال، فلقد نجح الحوريون - أو نجح فريق منهم - فى تأسيس مملكة «ميتانى» التى امتد سلطانها من مرتفعات ميديا إلى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها «اشوكانى»، والتى يظن أن موقعها «الفخارية» على نهر الخابور، شرقى تل حلف وحران، وقد عرفت فى النصوص المصرية باسم «نهارينا»، والتى كانت تمثل فى فترة مبكرة من أيام فرعون مصر العظيم «تحتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م)، حجر العثرة الحقيقى العام أمام

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٢) S.A.B. Mecer, The Tell El-Amarna Tablets, 2, Toronto, 1939, p. 846.

(٣) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٦١، وكنا:

W.F. Albright, The Horites in Palestine, in From the Pyramids to Paul, p. 9-26.

خطة التوسع المصرى، وإن انتهت الأمور بعد حملة مظفرة (حوالى عام ١٤٥٧ ق.م) إلى فترة سلام طويل^(١).

وقد انتشر الحوريون فى سورية المنخفضة الخصيبة، ووصلوا إلى فلسطين، حيث نزلوا البقاع الواسعة بين نهر الحسا وخليج العقبة، وهم الذين حلّ محلهم الأدوميون فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ويبدو أن انتشار الحوريين فى بلاد الشام بلغ درجة دعت الحويين إلى أن يطلقوا اسم «خورو» (خارو) على بلاد كنعان^(٢)، ويبدو أن الحوريين هم بعينهم. - إذا أخذنا بالنص السبعيني لتوراة اليهود - الحويون حكام شكيم، أو على الأقل، فإن هناك فريقاً من الحوريين (أو الخوريين)، كان يعرف بالحويين^(٣) هذا وقد أقام الحوريون فى فلسطين، وطبقاً لنصوص التوراة، فقد كان ذلك فى شكيم، وفى عصر يعقوب (١٧٨٠-١٦٣٣ ق.م) وظل لسلاطنتهم تأثير فى المدينة لعدة أجيال، كما سكن فريق منهم فى «جبعون» ومجاوراتها^(٤)، هذا وربما كان مقرهم الرئيسى فى سطح جبل لبنان، من جبل حرمون إلى مدخل حماة^(٥)، فى هذه المناطق الجبلية الشمالية كانت لهم قرى يملكونها حتى إلى وقت متأخر من عصر داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)^(٦).

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢١١-٢١٢؛ فليب حتى، المرجع السابق، ص ١٦١-

١٦٥، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 194. وكذا:

J. H. Breasted, ARE, 3, No. 485-9; J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 241; R.O. Faulkner, JEA, 32, 1946, p. 39F.

(٢) انظر: لوح إسرائيل، حيث توصف كنعان (على لسان فرعون) «وأصبحت خارو أرملة لمصر» (انظر: A. Gardiner, op.cit., p. 274; J.A. Wislon, ANET, p. 376-8.

(٣) تكوين ٢٣: ١٧-٢٠، ٢٤: ١-٣١؛ قاموس الكتاب المقدس، ٣٢٩/١؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٤) تكوين ٣: ١٨، ٢٤: ٣٤؛ قضاة ٩: ٢٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٢٩/١.

(٥) يشوع ١١: ٣٠؛ قضاة ٣: ٣٠.

(٦) صموئيل ثان ٢٤: ١٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٢٩/١.

(٢) الحيشيون

إن اللفظ السلالى «حيشيون» جاء عن طريق التوراة، حيث يعنى المجموعة البشرية التى وجدها الإسرائيليون تسكن فلسطين حين دخلوا أرض كنعان - أو أرض الميعاد كما يدعونها - وهذا ليس سوى خيط رفيع من سلسلة الأنساب التى تربطهم بالأمة الكبرى «خاتى»، التى سنتعرف عليها الآن، ومع ذلك فإن استخدام كلمة حيشيين ظل سائداً لدى الباحثين، ولم تقم محاولة للتخلص منها^(١).

وتقع «خت» أو «خاتى» إلى شمال وشمال غربى سورية وميزوبوتاميا، وقد ورد ذكرها فى النصوص المصرية - لأول مرة - من عهد «تحتمس الثالث»، حيث الهدايا قد أرسلت من أمير خاتى إلى الفرعون، وحتى عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م)^(٢).

وتقع «خاتوشاش» - العاصمة الحيشية - على السفح الشمالى لأحد المرتفعات، حيث تبدأ الهضبة فى الانخفاض نحو البحر الأسود، ويجرى من هذه السلسلة شمالاً فى مجرى صخرى شديد الانحدار، تياران يتحدان عند نهاية المنحدر بالقرب من قرية «بوغاز كوى» تاركين بينهما تنوعاً مرتفعاً أقيمت عليه أقدم مستعمرة فى «خاتوشاش»^(٣)، على مبعده ١٢٨ كيلا إلى الشرق من «أنقرة»، ونصف هذه المسافة إلى جنوب البحر الأسود، وكان من ثمار حفائر «هوجوفنكلر»، التى بدأها فى عام ١٩٠٦، الكشف فى هذا الحصن الجبلى بالقرب من قرية «بوغاز كوى» عن دار ملكية للمحفوظات

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 231.

(١)

A.H. Gardiner, Onom, I.p. 127.

(٢)

S.A.B. Mercer, op.cit., II, 1939, p. 830-831.

(٣)

O.R. Gurney, The Hittitas, 1969, p. 15.

وكذا:

R.H. Hall, Cah, I, 1929, p. 312.

وكذا:

تضم قرابة عشرة الاف لوح أسفينى، كتبت بلغة - ثبت بعد بحث طويل - أنها من العائلة «الهندو أورية»^(١).

وأما عن علاقة الحيثيين - أو على الأصح خاتى - بفلسطين، فإننى أميل إلى أنها لم تبدأ إلا بعد نهاية دولة خاتى فى آسيا الصغرى على أيدي شعوب البحر، وتفرق سكانها فى جهات مختلفة من سورية وفلسطين، ذلك لأنه قبل حكم العاهل الحيثى «شوبيلو ليوما» (١٣٧٥-١٣٠٥ ق.م)، لم تكن هناك أية دولة حيثية جنوبى جبال طوروس، وأن الدولة السورية التابعة للإمبراطورية الحيثية قد اقتصرت على المنطقة الواقعة شمال قادش على نهر العاصى، وأنه رغم أن الجيوش الحيثية قد وصلت حتى دمشق، فإنها لم تدخل فلسطين نفسها^(٢).

ولعل هذا الاضطراب فى نصوص التوراة مرده إلى أنها تجعل من «حث» ابناً لكتعان بن حام بن نوح، عليه السلام، إذ تقول فى سفر التكوين «وكتعان ولد صيدون بكره وحثا»^(٣)، والاضطراب هنا أن «صيدون» (صيدا) إنما هى مدينة على البحر الأبيض المتوسط، وأن «حثا» إنما هو شعب له دولة فى اسيا الصغرى، هذا فضلاً عن أن الحيثيين شعب غير سامى، بعكس الكتعانيين الساميين.

وعلى أى حال، فإن هذه الإشارة لا تجدد لها صدى من الحقيقة لدى المحدثين من الباحثين، بل إن هناك ما يؤكد أصولاً منغولية كانت مواطنها الأصلية التى هجرتها بقعة «أرمينيا»، حيث يقترب الفرات من هاليس وليكوس، بل إن هناك من يؤكد أن الأرمن المحدثين هم سلالة أولئك الحيثيين الأقدمين.

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 231.

(١)

O.R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1969, p. 58.

(٢)

(٣) تكوين ١٠: ١٥.

(٣) الفلسطينيين

الفلسطينيون: هم برست Prest، «بلستي» Pelesti، ويرى «بونفانت» أن «باليستوى» كلمة يونانية ذات أصل أثولوجى، مشتقة من اسم المكان Palaeste، بالإضافة إلى الزائدة الإليرية Imo التى تستخدم فى تكوين المعنى الأثولوجى (١)، ويذهب «فيليب حتى» إلى أن Paleste إنما هو اسم مكان فى منطقة الليرية وهو «أبيروس» (٢).

وأما الاسم المصرى للفلسطينيين فهو «برست» Prst، وقد وجد فى مدينة هابو- أو حابو- من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م) حيث نجد أن القوم الذين يحملونه من «شعوب البحر» الذين غزوا مصر وسورية من جزرهم، وكانوا متصلين بصفة خاصة بقوم «ثيكر» الذين كانوا يماثلونهم فى المظهر والأسلحة، وكانوا يلبسون لباس الرأس المحلى بالريشة، مسلحين بالحرايب، والدروع المستديرة، والسيوف الطويلة العريضة، والخناجر المثلثة التى كان يستخدمها الشردان (٣).

هذا وقد قام جسدل طويل بن العلماء حول الموطن الأسمى للفلسطينيين، فلقد ذهب «هول» إلى أن التقاليد العبرية إنما تتفق على أن الإسرائيليين قد قدموا من مصر، والفلسطينيين من كفتور، وفى هذا تقول التوراة فى سفر عاموس «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور»، غير أن الفلسطينيين لم يكونوا كفتيين أو مينويين، ذلك لأنهم لم يلبسوا ملابسهم، كما أنهم إنما يختلفون فى أسلحتهم، وفى غطاء رؤوسهم، ومن هنا فإن الفلسطينيين إنما كانوا مختلفين كثيراً فى المظهر عن المينويين أو الكفتيين من كريت (٤).

(١) G. Bonfants, Who Were the Philistines, in AJA. L, 1946, p. 251.

(٢) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٦ (٣) A.Gardiner, Onom, I, p. 201.

(٤) H.R. Hall, CAH, II, 1931, p. 286-7.

ثم يرى «هول» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا - مع الشردان وتورشا من شعوب البحر - من زاوية جنوب غرب آسيا، وهناك ما يدعو إلى الاحتمال بأن القبائل الكارية - ومن بينهم الفلسطينيين - قد احتلوا نهاية شرق كريت، وذلك عند سقوط «كنسوس» وانهيار الحضارة المينوية، ثم يقرر «هول» بعد ذلك أن موطن الفلسطينيين إنما كان حقيقة في ليسيا وكاريا^(١).

ويقرر «بونفانت» - بعد دراسة لغوية لتغير اسم الفلسطينيين - أن الفلسطينيين شعب «هندو - أوربي» أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلاً^(٢).

ويذهب «وينرايت» إلى أن الفلسطينيين من كفتور، ولكنه يرى أن كفتور ليست كريت، ذلك لأن فكرة أن كفتور هي كريت لا تعتمد على شيء أكثر من ترجمات التوراة، التي تتحدث عنها على أنها «جزر كفتور» ثم وجد بعد ذلك أن جزيرة كريت إنما هي جزيرة مناسبة وكبيرة وتصلح للغرض، ورغم ذلك فإن الكلمة العبرية التي ترجمت «جزر» إنما تعني أصلاً «الأرض الساحلية»، وتستعمل مثلاً لشاطئ فلسطين، وهناك أدلة أثرية تجعل الإصرار على الاعتقاد بأن كفتور هي كريت، يجرنا إلى اضطراب لا نهاية له^(٣).

ويرى «وينرايت» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا من كفتور، وأن هناك أدلة على أن «سليسيا - تراشيا» بغرب سليسيا، أعلى وأسفل نهر كاليكادنوس، وأن نفس الوطن كان من «دومين» ثيكر، ودليلنا على ذلك أن الفخار الفلسطيني شبيه بالفخار الميني، وأن هناك أدلة أثرية ولغوية على

(١) H.R. Hall, The Philistine Migration, CAH, II, 1931, p. 287-288.

(٢) G.A. Wainwright, Some Sea - People, in JEA, 47, 1951, p. 78-82.

(٣) Ibid., p. 82.

أن كفتور، إنما كانت بلداً عند نهر (كاليكادنوس) كما يظهر ذلك من ترجمة كفتور بقبادوقيا في الترجمة السبعينية للتوراة (سبتواجيتنا Septna-ginta) (١) مرتين، ذلك لأن المترجمين ربما كانوا في عمل بمملكة «قبادوقيا» العظيمة، والتي كانت تمتد إلى الشاطئ، متضمنة جزيرة إليوسا، إلى الشرق قليلاً من مصب كاليكادنوس، كما أن «كابديروس» - طبقاً لترجمة يونانية - إنما كان لقباً للملك كفتور والتي تعادل هنا «سليسيا» ومن ثم فمن الواضح أن الفلسطينيين كانوا قد احتلوا «سليسيا» الغربية، والأكثر احتمالاً، المنطقة أعلى وأسفل نهر كاليكادنوس في الجزء الشرقي، حيث عاش قوم «ثيكر» وهناك ما يثبت أن غارة الفلسطينيين إنما كانوا من «سليسيا تراشيا» وسواحلها وينتهي «وينرايت» إلى أن مجموعة قبائل (الفلسطينيين و«ثيكرودنين») إنما يكونون مجموعة من القبائل في سليسيا، الفلسطينيون و«ثيكر» في الجزء الغربي من البلاد، بينما (دنين)، في الجزء الشرقي منها (٢).

أما (جيمس هنري برستد)، فالرأى عنده أن أهالي (بلست) - وهم الفلسطينيون - إنما أصلهم من جزيرة كريت (٣).

هذا ويذهب «سير ألن جاردنر» - بعد أن لخص البراهين التي تحاول أن تحدد موطن الفلسطينيين الأصلي إلى أن التقاليد العبرية والإغريقية إنما تتفق على أن الفلسطينيين من جنس أجنبي، وأنهم لا يختتون، ومن ثم فهم قوم يختلفون عن الساميين، وأن هناك قوماً يدعون «الكفتوريون» قد غزوا ساحل فلسطين، وسكنوا القرى حتى غزة، وأن الفلسطينيين هم المقصودون بذلك.

وهناك جدل طويل حول تحديد «كفتور» وتوحيدها بكريت، فهناك

(١) انظر عن الترجمة السبعينية للتوراة كتابنا «إسرائيل»، ص ٤٩-٥٠، (القاهرة ١٩٧٣)

G.A Wainwright, op.cit., p. 82.

(٢)

(٣) J.H. Breasted, A History of Egypt, from the Earliest times to persian Conquest, N.Y., 1946, p. 477.

نظرية تذهب إلى أن Kftiw أو Kftyw إنما هي المعادل لكفتور، أو أنه الاسم المصرى لكريت، ولعل المعارض الرئيسى لهذه الفكرة، إنما هو وينرايت - ومن قبله ميلر - الذى يتمسك بأن كفتيو إنما هي سليسيا وجنوب شرق آسيا الصغرى.

ويرى «جاردنر» أن «كفتور» لو كانت كلمة مصرية فإن وجود النهاية (R) ليست عقبة كؤود للاشتقاق من «كفتيو» بسبب وجود مشابهات كثيرة لذلك، هذا فضلا عن أن البعض قد سلموا بأن «كفتيو» يمكن أن تعادل أو تدل على كل من كريت وشاطئ سليسيا، ويبدو أن ذلك مستحيلا، ومن هنا فإنه - أى «جاردنر» - يرى أنه على العلماء أن يختاروا بين كريت أو شاطئ سليسيا^(١).

ويذهب «جاردنر» بعد ذلك إلى أن هناك من الأدلة القليلة ما يشير إلى أن «بلستى» أو «فلسطينى» رعمسيس الثالث لم يهاجموا مصر من جبهة البحر فحسب، بل تدل الشواهد كذلك على أنهم قد ساروا براً مخترقين آسيا الصغرى قاصدين شمال سورية، والظاهر أنهم فى رحلتهم هذه إنما كانت نساؤهم وأطفالهم يستعملون العربات التى تجرها الثيران المسمنة، التى نراها فى الموقعة البحرية مصورة فى مدينة حابو بطيبة الغربية.

وأخيراً، فإننا لم نجد شيئاً يتعارض مع ما جاء فى النصوص المصرية بمدينة حابو، من أن الفلسطينيين قد بدأوا غزواتهم من جزر البحر المتوسط، كما أننا لم نجد ما يدحض التقاليد العبرية والإغريقية من أن الفلسطينيين قد أتوا إلى فلسطين عن طريق كريت، ولكن فروق التسليح بين المينويين والفلسطينيين، مضافاً إليها «قرص فياستوس» الذى كانوا يلبسونه، قد جعل من المحقق أن كريت ليست الوطن الأول لهم، مهما كانت فترة بقائهم بها فى طريقهم إلى فلسطين ومصر، أما وطنهم الأول فيمكن البحث عنه فى

مكان ما شمال بحر إيجه، وربما كان احتلالهم للجزر إحدى مراحل هجراتهم، وحديثاً أصبح من المألوف مرة أخرى أن يربط «بليستى» بـ «باليستوى» أو «بلاسوى»، لما بين الاسمين من التشابه اللفظي^(١).

أما عن النظرية التي شارك فيها «أولبرايت» فهي مخاطرة أكثر منها رأياً، ذلك أن «وليم أولبرايت» يرى أن الفلسطينيين يتشابهون في كثير من الحالات مع «البلاسجيين»^(٢)، وإن كانت لغتهم لغة لوية، كما رأى أن طروادة الجنوبية كانت مستوطنة بالجماعات البلاسجية ذات الحراب، هذا إلى أن هيرودوت - وهو مواطن من هاليكارناسوس في كارييا - يعيد الإيونيين والإيوليين إلى أصل بلاسجيني، ولدينا عدة أسماء تؤكد نسب الفلسطينيين إلى المنطقة الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى مثل «جليات وأشيش» وكذا جاء بقصة «ون آمون» أسماء ثلاثة من الفلسطينيين - وهم واركاتير، ووارت وماكامار - تؤكد بعد الدراسات المختلفة أن أصل هذه الأسماء من جنوب غرب الأناضول^(٣).

وأما أسفار التوراة، فترى أن الفلسطينيين قد هاجروا من كفتور إلى فلسطين^(٤).

ويرى أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أن كفتور هذه يظن أنها كريت، وقد يكون هذا الرأي صواباً، مادام بعض بلاد الفلسطينيين يطلق عليها اسم «جنوبي الكريتيين» تمييزاً لهم عن يهوذا وكالب، ولئن صح ذلك - وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به - فإننا أمام هجرة سامية راجعة مرتدة من

Ibid., p. 205.

(١)

(٢) البلاسجيون: سكان بلاد اليونان الأصليين غير الهلنيين، وقد ظلت بقاياهم نقية في العصور الكلاسيكية، وكانت لغتهم - فيما يرى هيرودوت - بربرية، أى غير هلينية

(٣) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٣٢٦٧-٣٦٩

(٤) عاموس ٧٠٩، نشية ١٣٢٠١، إرميا ٤٧، صموئيل أول ٢٠، ١٤

كريت، ربما نتيجة ضغط من ناحية الهلنيسين، هذا إلى أن أسماء الفلسطينيين وأسماء مدينتهم تشير إلى أنهم ساميون، ولكن الإسرائيليين يشيرون إلى أنهم قوم لا يختنون، وهو اصطلاح ينأى بهم عن الساميين والمصريين معاً، ورغم ذلك فإننا نراهم يمارسون فوراً عادات الكنعانيين ويتحدثون لغتهم، كما أن معبوداتهم تغلب عليها النزعة السامية، فمن بينها «داجون» إله الجيوب و«آثار جاتس» العسقلوني، و«بلعزيبوب» العقروني^(١).

هذه مختلف وجهات النظر التي ارتأها العلماء عن الموطن الأصلي للفلسطينيين وهي تكاد تتفق جميعاً على أن الفلسطينيين قد أتوا من كريت (كفتور) أثناء غزوهم لفلسطين ومصر، ولكنها لم تكن الموطن الأول لهم، وإنما كانت مجرد استقرار مؤقت في أثناء هجرتهم.

وأما قبل كريت فموضع خلاف بين العلماء، فمنهم من رأى أنهم قادمون من «ليسيا - كايا» ومن رأى أنهم ينتسبون إلى القومية الإليرية، ومن رأى أنهم يتشابهون كثيراً مع البلاسجيين، وأن لغتهم إنما كانت لهجة لوية، ومن رأى أن احتلالهم للجزر إنما كان إحدى هجراتهم، وأما موطنهم فيجب أن يبحث عنه في مكان ما شمال بحر إيجه، ومن رأى أنهم ساميون يمثلون هجرة سامية مرتدة من كريت.

وهكذا تتعدد وجهات النظر، حتى أصبح من العسير علينا إبداء رأى معين، أو تفضيل رأى على آخر، ورغم ذلك كله، فيبدو لى أن الذين يرجعون بهم إلى آسيا الصغرى، أقرب الآراء إلى الاحتمال، ذلك لأن أغلب شعوب البحر ترجع إلى هذه المنطقة، ولأن الأدلة العلمية في صالح هذا الرأى أكثر من غيره.

وأما علاقتهم بمصر، فقد بدأت منذ أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م)، إذ اشتركوا - بصفة رئيسية - في الغزو الذي قام به

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٦، ٣٤٨/٣، ٣٥٠

فى عهدہ، والذى انتهى بهزيمتهم هزيمة منكرة فى معركتين، الواحدة بحرية، والأخرى برية، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين، وجنودهم دون لحى، وبأغطية رأس ذات ريش، وبسيوف طويلة عريضة وخناجر مثلثة، وتروس مستديرة وحرا ب.

هذا، وقد سمح لهم الفرعون - بعد هزيمتهم - بأن يستقروا بصفة دائمة فى ساحل فلسطين، فى المنطقة ما بين يافا وغزة، وكانت أهم مدنها غزة وعسقلان - على مبعدة ١٩ كىلاً شمال غزة - وأشدود وعقرون وجت^(١) وقد احتفظت بأسمائها السامية تحت حكمهم، وكانت جت أبعد مدنها فى الداخل، وكانت سياستهم أن يظلوا قريبين من البحر حتى يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التى تغطيها الكروم فيما وراءه، وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الشمالية وبين الفينيقيين، هذا وقد نظمت مدنها الخمس بشكل ممالك أو دويلات مدن، كل منها تحت إدارة «سيد» ولكنها جميعاً كانت تشكل اتحاداً، ويبدو أن السيادة على هذه المدن إنما كانت لمدينة أشدود^(٢).

وقد احتفظ التاريخ باسمهم على فلسطين، وإن كان ذلك لا يرجع إلى أنهم قد أصبحوا غالبية السكان فيها، أو أنهم قد بسطوا نفوذهم عليها جميعاً، ولكن ربما لأنهم آخر من نزل بها، ولكثرة ترديد التوراة لاسمهم.

هذا وقد احتك الفلسطينيون باليهود الذين كانوا قد وجدوا لهم مكاناً فى أرض كنعان فى ذلك الوقت، ولكن الغلبة كانت دائماً للفلسطينيين، ويرجع المؤرخون ذلك لأسباب عدة، منها (أولاً) أن أرضهم كانت من

(١) أشدود : وتسمى حالياً أسدود، وتقع على مبعدة ١٨ ميلاً إلى الشمال الشرقى من غزة، وفى منتصف المسافة ما بين غزة ويافا، وأما عقرون : فتقع إلى الجنوب من يافا باثنى عشر ميلاً، وأما جت : فيظن أنها فى الموقع الحالى المعروف بـ «تل عراق المنشية»، على مبعدة ستة أميال ونصف ميل إلى الغرب من بيت جبرين.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٧.

أخصب البقاع فى فلسطين الغربية، ومنها (ثانيًا) أن الروابط بين مدنها الخمسة كانت أقوى منها بين المدن الكنعانية، ومنها (ثالثًا) معرفتهم بصهر الحديد واستخدامه فى أسلحة الدفاع والهجوم، وهناك صورة تقدمها التوراة لمحارب فلسطينى مزود بالأسلحة المعدنية فى قصة «جليات»، تقول التوراة: «فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت، طوله ست أذرع وشبر وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابسًا درعًا حشفيًا، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقًا نحاس على رجله، ومزارق نحاس بين كتفيه وقناة رمحه كنول النساجين، وسان رمحه ست مئة شاقل حديد، وحامل الترس كان يمشى قدامه» (١).

ويرى «فيليب حتى» أن ذروة قوة الفلسطينيين إنما كانت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد، فقد كسروا بنى إسرائيل على أيام القضاة، حوالى عام ١٠٥٠ ق.م، وأخذوا منهم «تابوت العهد» وحملوه إلى أشدود، وفى نحو عام ١٠٢٠ ق.م، كانوا يقيمون حاميات فى البلاد المرتفعة نفسها، وكانوا متسلطين فى عهد الملك شاول (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م) على مدن بعيدة فى الداخل مثل «بيت شان» (بيسان) (٢).

وهكذا تسلط الفلسطينيون على الإسرائيليين، وبلغوا قمة تسلطهم فى أخريات عهد شاول، بل لقد عملوا على تجريدهم من أسلحتهم، بل لقد احتكروا صناعة الأسلحة نفسها، حتى لم يوجد - كما تقول التوراة - «صانع فى كل إسرائيل، لأن الفلسطينيين، قالوا: لئلا يعمل العبرانيون سيفًا أو رمحًا» (٣)، وهكذا احتكر الفلسطينيون صناعة الحديد، وكانوا يضطرون الإسرائيليين الذين يريدون تجديد آلاتهم الزراعية القاطعة أن يذهبوا إلى الصناع الفلسطينيين، يقول سفر صموئيل الأول: «كان ينزل كل

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(١) صموئيل أول، ١٧: ٤-٧.

(٣) صموئيل أول ١٢: ١٩.

إسرائيل إلى الفلسطينيين، لكي يحدد كل واحد سكتته ومنجته ومأسه ومعوله»^(١)

وهكذا لعب الفلسطينيون دوراً هاماً، حتى ليرى «فيليب حتى» أنهم رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلة أهم - وهي عصر الحديد - وكان ذلك أهم فضل لهم، وفوق ذلك، فإنه يمكن الاعتقاد بأنهم أعطوا جيرانهم زورثتهم من الفينيقيين ميلاً إلى الأسفار البحرية البعيدة، كان من نتائجه استكشاف البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الأطلسي الشرقي^(٢).

(٤) الشيكرا

الشيكرا: أو ثيكر (Tjekker- Tkr) أحد أقوام البحر الذين هاجموا مصر وسورية في عصر رعمسيس الثالث، وربما كانوا من سكان الجزر الذين جاءوا في الغزوة الكبرى، ذلك لأن التفسير العام - فيما يرى جاردنر - أنهم - وكذا الشردان - قد أمدونا بأدلة أثرية قد توحى بأنهم من القوقاز، وذلك لأن منظر «الشيكرا» يبدو مميزاً لهم عن الفلسطينيين، الذين يلبسون ريشة رأس، ومن قصة «ون أمون»^(٣) نعلم أن الشيكرا إنما كانوا يحكمون بلدة «دور» الواقعة جنوبى الكرم، وقد ذكر فيما بعد على أنهم قراصنة بحر، ثم اختفوا بعد ذلك من مسرح التاريخ، وقد عملت محاولات لتوحيد قوم تيكر بقوم أو مكان ذكره المؤرخون الكلاسيكيون - أو ذكرته التوراة - وهو مدينة «زكلاج»^(٤).

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٠

(١) صموئيل أول ٢٠١٣

(٣) انظر عن قصة «ون أمون» محمد بيومى مهران، مصر ٣٧٩/٣ - ٣٨٠، وكذا: الحضارة المصرية

القديمة، ١٢٧/١ - ١٢٩

J A. Wilson, ANET, p. 25-29. A.H Gardiner Egypt of the Pharaohs, p. 306.

314, A.H Garinder, Late Egyptian Stories. Bruseis. 1932, p. 61-76; A. Er-

man, The Literature of the Ancient Egyptians, London. 1927, p 174-188.

A.H. Gardiner, Onom, I, p. 199-200

(٤)

هذا ويرى «هول» أن «زكارى» «ثيكر» و«وشوش» إنما يعتبرون قبائل كريتية أصيلة، وإن كان حلفاؤهم الفلسطينيون ليسوا كذلك^(١)، وأما «جيمس هنرى برستد» فالرأى عنده أن «ثيكر» إنما هم قوم يونانيو الأصل من جزيرة صقلية^(٢)، وأما «وينرايت» فيذهب إلى أن «ثيكر» قد عاشوا فى «سليسيا - تراشيا»، ولفترة مضت قبل عام ١٥٠٠ ق.م^(٣).

ولعل رأى «وينرايت» أقرب إلى الصواب من غيره، على أساس أن «ثيكر» كالفلسطينيين حلفائهم، والذين يذكرون معهم غالباً - إنما قد أتوا من أسيا الصغرى أصلاً، وإن بقوا لفترة ما فى جزيرة كريت، اشتركوا بعدها فى غزو فلسطين ومصر، ثم استقروا - بعد هزيمتهم - فى فلسطين، إلى الشمال من حلفائهم الفلسطينيين، كما يظهر من قصة «ون أمون» وربما فى مدينة «زكلاج» كما يرى البعض، وإن كان هذا موضع شك إلى حد ما.

H.R. Hall, op.cit., p. 288.

(١)

J.H. Breasted, op.cit., p 477

(٢)

G.A. Wainwright, op.cit., p 77.

(٣)

الباب السادس

الإسرائيليون والاستقرار في فلسطين

الفصل الأول يشوع ودخول كنعان

(١) يشوع:

آل أمير بنى إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - إلى «هوشع بن نون»، من سبط أفرايم، وقد غير موسى اسمه إلى يشوع، هذا وقد ولد «هوشع»، في مصر، وكان في بادئ الأمر خادماً لموسى^(١)، ثم بدأ يظهر في الأفق منذ موقعة «رفيديم» حيث كان موسى قد عينه وقتئذ لقيادة بنى إسرائيل^(٢)، ثم اختير بعد ذلك ممثلاً لسبطه أفرايم، مع الاثنى عشر، الذين أرسلوا ممثلين للأسباط جميعاً - لكي يتجسسوا أرض كنعان، ويتبينوا ما فيها من نقاط ضعف وقوة^(٣)، ثم انتهى الأمر، بأن اختاره موسى، خليفة له وقائداً لبنى إسرائيل من بعده، وقد بارك الكاهن «اليعازر» هذه القيادة، وأقرها الإسرائيلون^(٤).

وهكذا غدا يشوع خليفة لموسى، بل إن التوراة إنما تحاول في سفر يشوع أن تضعه في مكانة لا تقل عن مكانة موسى نفسه^(٥)، فكما كلم الرب موسى من قبل، فقد كلم يشوع من بعد^(٦)، وكما أجرى «يهوه» رب إسرائيل المعجزات على يدى موسى، فإنه قد أثر يشوع بمثلها، فإن كان موسى قد أثر ربه بمعجزة شق بحر سوف في مصر، فقد أثر يشوع بمعجزة

(١) خروج ١٣: ٢٤.

(٢) خروج ١٧: ٩.

(٣) عدد ١: ٤٣ - ٢٩.

(٤) عدد ٢٧: ١٧ - ٢٣، تثنية ١: ٣٨.

(٥) يرى بعض المفسرين المسلمين أن «يشوع» (يوشع بن نون) قد بعث بعد موت موسى نبياً (انظر: تفسير الكشف ٦٢٢/١؛ تفسير الطبرى ١٩٢/١٠؛ تفسير الطبرسى ٧٠/٦؛ تفسير ابن كثير ٧٤/٢)، ويدهى أن هذا من اجتهادات المفسرين، ولكن الذى يلزمننا هنا، هو كلام الله عز وجل وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذى علم عليم وليس في كتاب الله الكريم دليل صريح على نبوة يوشع أو يشوع هذا.

(٦) يشوع ١: ١.

شق الأردن في كنعان^(١)، هذا فضلاً عن معجزة أخرى أكبر من ذلك، يتعطل فيها مسير الأفلاك بإشارة من يشوع، فإذا الشمس تتوقف عن مغيبها عند «جبعون»، وإذا القمر لا يبرز في حينه على وادي إيلون^(٢).

ولعل هذا الإعلاء العجيب من شأن يشوع، في الوقت الذي حاول فيه كتابة التوراة تجريح موسى - في أخريات أيامه - على الأقل - هو الذي دعا البعض إلى أن يتخذ من ذلك برهاناً على أن يهود اليوم، ومن نصوص التوراة نفسها، ليسوا موسويين على الإطلاق، وإنما يشوعيون في الصميم، وإلا فكيف يمكن أن يكون اليهود تباع موسى، وها هي ذى نظرة اليهود الحالية إلى موسى قد تكشف من خلال كتابهم هذا المقدس نفسه^(٣).

(٢) التخطيط لغزو كنعان:

ويبدأ يشوع يمارس سلطاته بعد موسى، فيتجه بناظره إلى كنعان، تلك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، ونقرأ في التوراة^(٤) أن الرب قد ظهر ليشوع وأمره أن يعبر الأردن إلى الأرض الموعودة، وهنا يجب أن نلاحظ أن الموقف لم يكن أبداً، كما صورته «التوراة»، بأن يأخذ الإسرائيليون المنطقة من البرية ولبنان إلى نهر الفرات، وإنما كان عبور الأردن إلى ضفته الغربية فحسب.

ولعل هذا الخلط والتوسع في التحديد إنما كان متأثراً بما كان من وقائع متأخرة، كما أننا نلاحظ شجاعة مفاجئة هبطت على الإسرائيليين، وليس ذلك - بحال من الأحوال - لوعده الرب لهم بامتلاك تلك المنطقة، فذلك أمر قد عرفوه من قبل، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً على أيام موسى نبيهم، إلا أن يشوروا عليه المرة تلو الأخرى.

(١) خروج ١٤: ٢١؛ يشوع ٣، ١٤-١٧

(٢) يشوع ١٠: ١٢-١٤؛ وكذا:

J. Gray, Israel in Near Eastern Mythology, N.Y., 1969, p. III.

(٣) أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٦٥

(٤) يشوع ١: ٢-٤

والرأى عندى، أن ذلك إنما كان نتيجة عوامل اقتصادية واجتماعية، كان نتيجة طول ضياع وتشرد فى صحراء مقفرة، كما كان نتيجة تأجج مشاعر الاستغلال والحسد والطمع فى الأرض الخصبة المثمرة، وربما كان كذلك نتيجة انقراض هؤلاء الذين تخلت عنهم صفات الرجولة الحققة، ونشأة جيل جديد لم يعيش ما عاشه الآباء فى مصر، بل إنه لم يرتبط بمصر بأوى رباط، فلا يعرف عن أرضها الخصبة شيئاً، حتى يطلب العودة إليها.

والخلاصة أن الإسرائيليين الجدد إنما وجدوا أنفسهم يعيشون فى صحراء مقفرة، لا ماء فيها ولا زرع، بينما هم أمام أرض خصبة، بل هى فى نظرهم جنة أحلام تجرى فيها أنهار من «اللبن والعسل»، هذا فى الوقت الذى كانوا يتكاثرون بأعداد كبيرة، دون أن يجدوا ما يسد لها رمقها فى هذه الصحراوات فبقوا إلى حين، متحملين الجوع، ذلك لأن سيناء - كما يقول جوستاف لوبون - كانت بالحقيقة فقيرة جدبة إلى الغاية، لم تصلح لإعاشة أهلها البدو، فضلاً عن الإسرائيليين، فتوجه بنو إسرائيل إلى الشمال، وحاولوا دخول أرض الشعوب الكنعانية الصغيرة، وهم لما دنوا من هذه الأرض بهرهم خصبتها، فاشتعلت نيران الحسد فى قلوبهم^(١).

ثم يذهب «لوبون» بد ذلك إلى أن غزو بنى إسرائيل فلسطين، إنما كان ذلك النوع من القتال بين الزراع والرعاة، وبين الحضريين والبدويين وذلك مع الفارق القائل أن عدد بنى إسرائيل واحتياجهم وبؤسهم فى مصر، وحرمانهم الهائل فى التيه، إنما قد جمع بينهم وأقنطهم، فصاروا كقطيع من الذئاب الهزيلة، التى دفعها الجوع إلى الاقتراب، حتى من المدن^(٢).

ومن هنا لم تكن هزيمة الكنعانيين، إلا مثلاً لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين^(٣)، وهذا شأن البدو دائماً، إذ يقومون

(١) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعتر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٣٥.

بهجوم متوالى على الأرض الزراعية الواقعة على امتداد حدود مراعيهم، وهكذا فما أن بدأت الولايات التي كانت تشغل المناطق المشتهاة تضعف حتى اندفع البدو إليها، إما للسلب والنهب، وإما للإقامة المؤقتة، وفي الغالب كان الاستيطان بها هدفاً نهائياً، وهكذا فعل الإسرائيليون^(١).

ومن ثم فإن ما جاء بالتوراة - كتاب اليهود هذا المقدس - من صبح ذلك الغزو بالصبغة الدينية، وتواريه خلف ستار من قول «تكلم الرب»، و«قال الرب»، و«أقسم الرب»، فذلك نتيجة أضغاث أحلام راودت عقولا مريضة من يهود، يوم أن كتبوا توراتهم - بعد ذلك بقرون طويلة - على ضفاف الفرات، إبان السبي البابلي، فحاولوا حينئذ تبرير تلك الغارات البربرية، وإعطائها أنفاساً من قدسية، بعد أن فقدت حركتهم كل معاني القداسة، وضاعت منها هالة الدين، بعد أن انتقل الكليم - عليه السلام - إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه.

وأيما ما كان الأمر، فإن يشوع - قائد بني إسرائيل الجديد - إنما بدأ يخطط لغزو كنعان، وكانت «أريحا»^(٢) أول المدن الكنعانية التي اتجهت

(١) A. Lods, op.cit., p. 180-181.

(٢) أريحا: ومعناها: مدينة القمر، أو مكان الروائح العظرية، وهي مدينة هامة تقع على مسافة خمسة أميال غربى نهر الأردن. وعلى مبعده ١٧ ميلاً شمال شرقى أورشليم، أما أريحا التي جاء ذكرها فى التوراة فموضعها تل السلطان، على مبعده ميل واحد من مدينة أريحا الحديثة، والتي تدعى الآن «الريحا»، وتلوى أبو العليق التي تقع على مسافة ميل غربى أريحا الحديثة، وقد أثبتت الكشوف التي أجريت فى «تل السلطان» عل أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم. وقد اكتشف هنا فخار من أقدم فخار العالم (انظر: قاموس الكتاب المقدس ١/٥٩). وكان أول من حفر فيها «أرنست سيلين» و«كارل فاترنجر» فى الفترة (١٩٠٧-١٩٠٩ م)، ثم أعاد «جون جارستانج» الحفر فى الفترة (١٩٣٠-١٩٣٦ م)، ثم «مس كاتلين كيتون» منذ عام ١٩٥٢ م. انظر:

E. Sellin and C. Watzinger, Jericho, 1913; J. and J.B.E. Garstang, The Story of Jericho, 1940; K.M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62-82; 1953, p. 18-95; 1954, p. 45-63, 1955, p. 108-117; 1956, p. 67-82 and in Scientific American, 190, 1954, p. 76-82.

صوبها أنظار يهود، فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سرا
قائلا: اذهبا انظرا الأرض وأريحا، فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب
واضطجعا هناك»^(١).

ولعل سائلا يتسائل: وهل من المقبول أن يكون أعوان يشوع - والذي
تكاد التوراة أن تضعه في مكانة موسى - من العاهرات؟ ثم وهل يتفق ذلك
مع مزاعم يهود من أنه فتح مقدس؟ وأن تلك الأرض إنما أخذت بوعد من
الله؟ ولكن: ما حيلتنا وهذا ما تريده نصوص التوراة؟

وعلى أى حال، فإن ملك أريحا - وطبقاً لرواية التوراة - ما أن يعلم أن
هناك اثنين من جواسيس يهود عند امرأة خاطئة، حتى يصدر أمره إليها، أن
«أخرجى الرجلين اللذين أتيا إليك، ودخلا بيتك، لأنهما أتيا يتجسسا
الأرض كلها»^(٢)، ونقرأ في التوراة أن تلك التي فقدت كرامتها وحب
وطنها، إنما تنكر أن الرجلين عندها، بل وتخدع قومها عنهما، ثم تأخذ
المواثيق عليهما أن يكون ثمن خيانتها، ضمان أمان لها ولأسرتها، حين تقع
الطامة، وينزل الخراب بالمدينة الآمنة^(٣).

وأيما ما كان الأمر، فلقد عبر الإسرائيليون الأردن عند النقطة التي
وصفت في سفر يشوع، بأنها «مقابل أريحا»^(٤)، والتي توحد تقليدياً
بالمخاضة الحالية المروفة بـ «المغطس» أو الحجلة - على مبعده ٣ كيلاً إلى
الجنوب من كوبرى اللبى - ويبدو أن العبور تم في الربيع عندما كان النهر
ضحلاً، كما نفهم من بعض نصوص التوراة^(٥)، وإن كان هناك نص آخر،
يقرر أنه في هذا الموقف، إنما «وقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت نداً
واحداً، بعيداً جداً عن أدام المدينة»^(٦)، ومن ثم فقد ذهب القوم إلى الأرض

(٢) يشوع ٢: ٣.

(٤) يشوع ٣: ١٦.

(٦) يشوع ٣: ١٦.

(١) يشوع ٢: ١-٢.

(٣) يشوع ٢: ٤-١٩.

(٥) يشوع ٣: ١٥.

الجافة، وأما مدينة «أدام» هذه، فيمكن أن توحد، «بتل الدامية» - على مبعده خمسة عشر ميلاً أعلى النهر، وعلى مبعده ميل واحد جنوبى اتصال يسوق بالأردن - وهناك يوجد جرف من الحجر الجيري، يكون عند الزلزال شقا في النهر بعده تماماً لفترة من الوقت، وهكذا فإن مثل هذا الحدث إنما يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، الأمر الذى حدث مثيل له فى عام ١٩٣٧م^(١).

وعلى أى حال، فلقد عبر الإسرائيليون الأردن، وعكسروا فى «الجلجال» عند تخم أريحا الشرقى، وهنا يأمر يشوع بأن تنصب الاثني عشر حجراً فى «الجلجال»^(٢)، تذكراً لعبور بنى إسرائيل إلى اليابسة، وإشارة إلى أن ما حدث مع موسى فى بحر سوف، إنما قد حدث مثله مع يشوع فى الأردن.

وهنا تفاجئنا التوراة بما لم نكن نتوقع البتة، ذلك أن سفر يشوع إنما يروى أن صاحبه قد ختن بنى إسرائيل، إذ «كان جميع الشعب الذين ولدوا فى القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختتنوا»^(٣)، ولست أدري كيف كان ذلك كذلك، ونصوص التوراة تفرض الختان على الإسرائيليين، والولد منهم لما يبلغ أياماً ثمانية بعد، بل لقد فرض على المرأة أن تختن الطفل فى اليوم الثامن من مولده، حتى إن كان ذلك اليوم الثامن هو يوم سبت، وفى هذه الحالة فالمفروض عليها أن تقوم وحدها بختان وليدها، لأن الآخرين محظور عليهم القيام بأى عمل فى هذا اليوم^(٤)، ومن هنا، فلعل هذا من نوع الاضطراب المعهود فى التوراة، وتضارب نصوصها بعضها

(١) J. Garstang, Joshus, Judges, The Foundations of Bible History, 1931, p. 136F.

J. Finegan, op.cit., p. 155.

وكذا:

(٢) يشوع ٤: ١٩-٢٤.

(٣) يشوع ٥: ٢-٩.

(٤) تكوين ١٧: ١٠-٢٧، ١٩: ٤، لاويون ١٢: ٣، قاموس الكتاب المقدس ٣٣٧/١، (بيروت

١٩٦٤)، جوزيف لويس، الختان، ترجمة عصام الدين حفى ناصف، القاهرة، ص ٧٢.

بالبعض الآخر، إلا إذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن الختان وهو سنة مصرية - كما أشرنا من قبل - تركها الإسرائيليون بمجرد خروجهم من مصر.

(٣) سقوط أريحا:

وأيما ما كان الأمر، فإن موكب الخراب، قد اتجه - بقيادة يشوع - نحو أرض كنعان بغية غزوها، وكانت أريحا بأسوارها المنيعة تقف عقبة كؤود في سبيل تحقيق هذا الهدف، ولعل اليأس قد بدأ يدب في قلب يشوع، فهو لم ينس أبداً، أن الجيل السابق إنما فضل عبودية مصر - بل وحتى القبور في البرية - على مواجهة أهوال المدن المحصنة، أو الأعداء الجبابرة، وخشى أن يفعل الأبناء ما فعله الآباء من قبل، إذ كان أهون على هؤلاء أن يحاربوا عماليق أو عوج أو سيحون، حين التقوا بهم في الخلاء، ولكن الأمر جد مختلف عند مهاجمة مدينة محصنة تستطيع أن تصمد أمام الحصار الطويل، وكان من المستحيل تركها خلفهم دون إخضاع، كما كان الصمود أمامها حتى تستسلم نوعاً من الانتحار، هذا فضلاً عن أنهم إن ظلوا طويلاً، خارت عزيمة الشعب الإسرائيلي، وزادت قوة الأعداء^(١).

وهنا كان على كاتبى التوراة أن يجدوا حلاً لهذا المأزق، وهكذا نقرأ في سفر يشوع، أنه «لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه، ونظر وإذا برجل واقف قبالة، وسيفه مسلول بيده، فسارع يشوع إليه، وقال له : هل لنا أنت أم لأعدائنا، فقال: كلا بل أنا رئيس جند الرب، الآن أتيت، فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال له : بماذا يكلم سيدى عبده، فقال رئيس جند الرب ليشوع: اخلع نعلك من رجلك، لأن المكان الذى أنت واقف عليه هو مقدس، ففعل يشوع كذلك»^(٢).

(١) ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ترجمة مرقس داود، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٦.

(٢) يشوع ٥: ١٣-١٥.

وهكذا تساوت الرؤوس، فغدا يشوع كموسى تماماً، إذ يطلب منه - كما طلب من موسى - أن اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس، ورغم أن النص صريح على أن الذى رآه يشوع كان رجلاً، وكان يشغل منصب رئيس جند الرب، إلا أن بعضاً من شراح التوراة يصرون على أن الذى تحدث إلى يشوع على عتبة كنعان، لم يكن سوى «يهوه» إله إسرائيل^(١).

ومهما يكن من أمر، فسرعان ما يدور الإسرائيليون حول المدينة مرة كل يوم، مدى سبعة أيام، وفى اليوم السابع يدورون دورتهم السابعة ويضرب الكهنة بالأبواق، وتسقط أسوار أريحا، وتحرق المدينة وكل من فيها وما فيها، «من رجل وامرأة من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير»، ما عدا «الذهب والفضة وآنية النحاس فقد جعلوها فى خزانة بيت الرب»، وأما «راحاب» الزانية التى خانت قومها ووطنها، فقد كافأها الإسرائيليون، بأن أبقوا عليها، هى وبيت أبيها وكل مالها، كما أسكنوها فى وسط إسرائيل، ولم يكتف يشوع بذلك، بل نراه يصب اللعنات على من يعيد بناء أريحا، وإلا «فبكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن سقوط أريحا لم يكن بسبب ضرب كهنة يهود بأبواقهم، ثم الدوران حول المدينة طيلة أيام سبعة، وإنما كان ذلك - فيما يرى الكثير من العلماء - بسبب زلازل وقعت فى المدينة^(٣).

(٤) سقوط عاى:

كانت الضربة الثانية من نصيب «عاى» فأرسل يشوع من يتجسس له عليها، وعندما عاد إليه جواسيسه، «قالوا لا يصعد كل الشعب، بل يصعد

(١) ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ص ٩٨.

(٢) يشوع ٦: ٢٤-٢٦.

J. Finegan, op.cit., p. 158; T.R. Glover, Ancient World, (Penguin Books), (٣) 1968, p. 134.

بحو ألفى رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عاي، ولكن الإسرائيليين هم الذين ضربوا أمام عاي بسبب خيانتهم، وحين أحرق يشوع الخونة سقطت «عاي» عن طريق خدعة وكمين أعده اليهود للمدينة الآمنة، ثم «ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منقلب»^(١).

ومع ذلك فإن بعض الباحثين إنما يرى أن القصة كلها مجرد خيال، ذلك لأنه لم تكن هنا مدينة باسم «عاي» أثناء الغزو الإسرائيلي لفلسطين، حيث أن موقع «عاي» - وتقع مكان التل الحالية على مبعده ٢٠ كيلاً إلى الشمال الغربي من أريحا - قد قامت بالحفر فيه «مدام جوديث ماركيث كروز»^(٢)، فيما بين عامي ١٩٣٣، ١٩٣٥م فكتشفت عن بقايا مدينة هامة من عصر البرونز المبكر، وأن هذه المدينة قد دمرت وهجرت تماماً حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وأنها لم تسكن مرة ثانية، إذا استثنيا فترة قصيرة، فيما بين عامي ١٣٠٠، ١٠٠٠ ق.م، هذا فضلاً عن أن اسم «عاي» هذه، إنما يعنى «الخراب» ومن هنا يرى العلماء أن التفسير المحتمل لرواية التوراة هو الخلط بين عاي وبيت إيل، والمعروف باسم «بيتين» وتقع على مسافة تقل عن ميل ونصف من «عاي»^(٣).

وعلى أى حال، وسواء أكانت هناك حقاً «عاي» أحرقتها يشوع، وقتل من أهلها «اثنى عشر ألف جميع أهل عاي»^(٤)، أم أن الأمر كله مجرد خيال، فلقد امتد هذا المد الإسرائيلي سعيماً، فأحرق بالنار المدن الكنعانية، وقتل أهلها برمتهم، من رجال ونساء وأطفال، بل وفي حمى لا واعيّة، انطلق هذا المد مجنوناً، فلم يسلم من يده شيء، حتى السائمة لم يستبق يشوع من البهائم واحدة، البقر والغنم والحمير أحرقتها يشوع أحياء، كل ما

(١) يشوع ٩، ٣٠٧ - ١٣ - ٢٩

(٢) Judith Marquet - Krauss, Les Fouilles de Ay (et Tell), 1933-1935. 2Vols. 1910

(٣) W. F. Albright, AJA, 40, p. 158 and BASOR, 118, p. 31

(٤) J. Finegan op cit p. 159-160

استولى عليه يشوع دمره تدميراً، وقتله قتلاً، وأحرقه حرقاً، أباد يشوع كل شيء باستثناء المعادن وسبائك الفضة والذهب^(١)

ولعل سائلاً يتساءل: لم فعل يشوع كل هذا الخراب؟ وكيف أجرى دماء القتل أنهاراً؟

والجواب على ذلك، أن هذا القتل - كما تقول نصوص الكتاب المقدس - «فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى» و«زكاة للرب»، وفي الواقع أننا لا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل، والاستمتاع به، ومثل هذه السهولة في تعداد القتلى، إلا في تاريخ الآشوريين، ويقال لنا بعد ذلك «إن الأرض استراحت من الحروب أحياناً، فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً، وقد حكم موسى حكماً سليماً لم تسفك فيه دماء، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني، وهو أن أكثر الناس قتلاً هو الذي يبقى حياً، وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر للمواطف الإنسانية فيها، استولى اليهود على الأرض الموعودة^(٢)، هذا إن كان كل ما في هذه النصوص التوراتية صحيح، وهو أمر تحيط به بواغث الشك وهوائف الريبة من كل جانب.

(٥) جبعون:

ونقرأ في التوراة، أن سكان جبعون - وتقع على مبعدة ١٣ كيلاً إلى الشمال الغربي من أورشليم، وتعرف الآن باسم الجيب^(٣)، وقد بدأت فيها جامعة بنسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦ م^(٤) - نقرأ أن السكان ما أن سمعوا بما حدث من خراب ودمار في أريحا وعائى، حتى خشوا بغية الاصطدام بالغزاة من بنى إسرائيل، وانضموا

(١) أبكار السقاف، المرجع السابق، ص ٣٦٢. (٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 160.

(٤) انظر James B. Pritchard, BA, 19, 1956, p. 65-75, and UMB, 21, 1957.

p. 3-26, 22, 1958, p. 12-24.

تحت لوائهم، بعد أن خدعوهم بأنهم بعيدون عنهم، «فعمل يشوع لهم صلحاً وقطع لهم عهداً لاستحيائهم وحلف لهم رؤساء الجماعة»، ولكنهم سرعان ما يعلمون «أنهم قريون إليهم وأنهم ساكنون في وسطهم»، وهنا قرر بنو إسرائيل أن يحصلوا من الجبعونيين، محتطبي حطب، ومستقى ماء للجماعة ولمذابح الرب»^(١).

وتستطرد رواية التوراة، فتذهب إلى أن «أدوني صادق» ملك أورشليم ما أن يسمع بخضوع جبعون لبني إسرائيل حتى يبعث إلى ملوك حبرون وبرموت ولخيش وعجلون، يطلب منهم أن يقيموا معه حلفاً ضد جبعون التي صالحت الإسرائيليين، وهكذا اجتمع الملوك الخمسة وحاربوا جبعون التي التمسست عون يشوع، فأسرع لنجدتها وضرب الحلف ضربة عظيمة، وبينما هم يولون الأدبار، سلط الله عليهم حجارة من السماء، فمات منهم بسببها أكثر مما ماتوا بالسيف»^(٢).

ويتقدم يشوع بعد ذلك إلى «مقيده» - وربما كانت خربة الخيشم الحالية شمال شرق تل زكريا - فأخذها وضربها بحد السيف، وكذلك فعل بمدينة لبنة^(٣) ولخيش^(٤) وجسازر^(٥) وعجلون^(٦)

(١) يشوع ٩: ٣-١٧. (٢) يشوع ١٠: ١-١١.

(٣) لبنة: وتقع بين مقيدة ولخيش، ويرجح أنها المكان المسمى «تل بورناط» على مبعدة ميلين شمال غرب بيت جبرين، ويظن البعض أنها تل الصافي أو الصافية. (قاموس الكتاب المقدس، ٨١٣/٢).

(٤) لخيش: كان يظن أنها تل الحصى على مبعدة ١٦ ميلا شمال شرق غزة، ولكن ثبت الآن أنها «تل اللور» على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين، وقد بدأت الحفريات فيها عام ١٩٢٣م برعاية ستاركى، ومنذ عام ١٩٣٨م تولاها «شارلس إنج» ولانكستر هاردنج، وقد أثبتت أن المدينة قد سكنت منذ عصر البرونز المبكر. (قاموس الكتاب المقدس ٨١٣/٢)، وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 161-162.

(٥) جازر: وهى تل الجزر الحالية على مبعدة ١٨ ميلا شمال غرب أورشليم وخمسة أميال وثلاثي الميل شرقى عقرون، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا (قاموس الكتاب المقدس ٢٤٢/١)، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 401

(٦) عجلون: وتقع على مبعدة ١٦ ميلا شمال شرق غزة، ويرجح أن مكانها اليوم تل الحسى، والاسم =

وحبرون^(١) و«ديبر»^(٢)، ثم نقرأ بعد ذلك في سفر يشوع عن نصر صاحبه على تحالف ملوك عند مياه «ميروم»، وأنه قد احتل مدينة حاصور - وهي تل القدح في سهل الحولة، على مبعدة خمسة أميال جنوب شرق بحيرة الحولة، وتسعة أميال شمال بحر الجليل^(٣) - لأنها رأس هذه الممالك، ثم أحرقها بالنار، ثم أخذ بعد ذلك كل الملوك الذين حاربوه ومدنهم^(٤).

وهكذا يزعم يشوع أنه ملك كل الأراضي - الجبل، وكل الجنوب وجميع أرض جوشن، والسهل والغور، وجبل إسرائيل وسهلهم من الجبل الأملس الممتد جهة سدير، إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون - ولم تسالم إسرائيل إلا جبعون، وقد قسى الرب قلوب الباقين حتى ييلسهم بنو إسرائيل ويستأصلوهم، وجاء يشوع في ذلك الوقت وفرض للعناقيين من الجبل من بحرون وديبر وعناب، ومن سائر جبل يهوذا وجميع إسرائيل، ولم يبق عناقي إلا في غزة وجت وأشدود^(٥)، وبدهى أن المبالغة واضحة في ذلك.

عجلون. لا يزال في خربة عجلان التي تقع شمال تل الحسي بميلين وقرب أريد في الأردن. (قاموس الكتاب المقدس ٦٠٨/٢).

(١) حبرون: وتقع على مبعدة ١٩ ميلا جنوب غرب أورشليم، ١٣,٥ ميلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هي الآن مدينة «الخليل» وفيها قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب، وقد أقيمت كنيسة في عصر «جستيان» (٥٢٧-٥٦٥ م)، وفي ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير (الحرم الإبراهيمي)، انظر: M.F. Unger, op.cit., p. 465-466.

(٢) دبير: وكان يظن أنها في موقع قرية الظهيرة، على مبعدة ١٢ ميلا جنوب غرب حبرون، ومثل هذه المسافة جنوب شرق لخيش، ولكن المرجح الآن أن مكانها هو «تل بيت مرسيم» على مبعدة ثلاثة أميال شمال غرب شامير، وعلى مبعدة ١٢ ميلا جنوب غرب حبرون. (قاموس الكتاب المقدس ٣٦٨/١).

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 164.

(٤) يشوع ١١ ٢٣.

(٥) محمد عزة دروزة. تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ١١٥.

(٦) الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين: بين الفتح والتسلسل:

لا ريب في أن تقدم الإسرائيليين واستقرارهم في فلسطين لم يكن فتحاً عسكرياً فحسب، وإنما كان تسرباً سلمياً كذلك، فهناك احتمال أن الإسرائيليين قد استخدموا وسائل أخرى غير السيف، لدخول أرض كنعان فربما استأجرهم أحد الملوك الكنعانيين لمساعدته في حملة ضد مدينة مجاورة - الأمر الذي حدث في عصر العمارنة - إذ كان لكل أمير فلسطيني أعوانه العابثين، وربما كانت مثل هذه الأمور هي الأساس التاريخي لروايات المعاهدة مع «جبعون» والتي كان يشوع مجبراً فيها على أن يدافع عنها ضد تحالف المدن الكنعانية - كما أشرنا من قبل - وكالاتفاق الذي كان بين الإسرائيليين وبين بطن «راحاب» في أريحا، وربما وضع بنو إسرائيل أقدامهم بالتدريج في أجزاء أخرى من البلاد بأسلوب البدو، على أنهم حلفاء وحماة الفلاحين^(١).

ولكن المؤرخين الإسرائيليين بالغوا في ذلك، وحسبوها وقائع حربية أهلكوا فيها الحرث والنسل لأعدائهم، كما بالغوا في تجسيم الأفراد الذين اشتركوا فيها، إذ لم يكن هناك فتح بالمعنى الصحيح، على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخاً، ومن تعدد الانتصارات وتقتيل الأهالي وانهيار أسوار أريحا بالنقر على النواكير، ووقف يشوع الشمس إمعاناً في الذبح، أجل لقد فتحت بعض الضياع عنوة، ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل القليلي الذوق، والضعيفي الأهلية للحرب والسيئ السلاح، غير أن استقرار العبرانيين بفلسطين ثم بالتدريج على ما سوف نرى، فالعبريون قضوا زمناً طويلاً ليكون لهم سلطان ضئيل بفلسطين، لا أن يكونوا سادتها^(٢).

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٤.

A. Lods, op.cit., p. 332.

(٢)

ولعل سؤال البدهة الآن : هل صحيح أن يشوع قد استولى على فلسطين؟

يزعم يشوع أنه قد استولى على أملاك الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، حين أخضع ملوك أريحا وعاي وأورشليم وحبرون وبرموت وعجلون وجازر وبيت إيل وحاصور ومجدو وقادش ودور وغيرها من المدن التي ذكرها يشوع في سفره، وزعم أنهم واحد وثلاثون ملكاً^(١)، وما زعمه كذلك من أنه أخذ كل الأرض حسب ما كلم الرب موسى وأعطاه ملكاً لبني إسرائيل^(٢).

غير أن ذلك لم يكن صحيحاً، وذلك لأسباب كثيرة، منها (أولاً) أن يشوع نفسه - وفي نفس سفره - إنما يقول: «وشاخ يشوع... وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك، هذه هي الأرض الباقية، كل دائرة الفلسطينيين، وكل الجشوريين، من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً تحسب للكنعانيين، أقطاب الفلسطينيين الخمسة... من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين...»^(٣).

ومنها (ثانياً) أن سفر يشوع نفسه، إنام يقدم الكثير من الأدلة التي تهدم كل ما قاله عن انتصاراته المزعومة، من ذلك ما جاء في السفر من أنه «لم يطرد بنو إسرائيل الجشوريين والمعكيين، فسكن الجشوري والمعكى في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم»^(٤)، ومنها (ثالثاً)، أن أورشليم إنما ظلت في أيدي اليبوسيين، «ولم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم»^(٥)، بل إن سفر القضاة إنما يشير بعد ذلك إلى أنها «مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا»^(٦)، بل إن التاريخ

(٢) يشوع ١١: ٢٣.

(٤) يشوع ١٣: ١٣.

(٦) قضاة ١٩: ١٢.

(١) يشوع ١٢: ٢-٢٤.

(٣) يشوع ١٣: ١-١٤.

(٥) يشوع ١٥: ٦٣.

ليحدثنا أن الإسرائيليين لم يستطيعوا الاستيلاء على أورشليم، إلا على أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)^(١)، وبعد أكثر من قرنين من الزمان من عهد يشوع.

ومنها (رابعًا) أن بنى أفرايم لم يطردوا الكنعانيين الساكنين في «جازر»^(٢)، والتي لم يتم الاستيلاء عليها، إلا على أيام سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)، وبجيوش مصر^(٣)، ومنها (خامسًا) أن سلسلة القلاع الهامة الواقعة بين «شين» عبر «وادي يزرعيل»^(٤)، وبين سهل ازدرابلون (مجدو) غربًا، لم تقع في أيدي الإسرائيليين، ومنها (سادسًا) أن بنى يوسف قد اشتكوا من ضالة حصتهم وضيق نصيبهم، إذ حشروا في رقعة ضيقة مع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي، والذين لهم مركبات من حديد^(٥).

ومنها (سابعًا) أن سفر القضاة إنما يروى أن «منسى لم يطردوا أهل بيت شان وقراها، ولا أهل تعنك»^(٦) وقراها ولا سكان دور وقراها، ولا سكان بيلعام وقراها، ولا سكان مجدو^(٧) وقراها، فعزم الكنعانيون على السكنى في تلك الأرض، وأن زبولون لم يطردوا سكان قطرون ولا سكان نهلول، فسكن

(١) صموئيل ثان ٥: ٦-٩. (٢) يشوع ١٦: ١٠.

(٣) ملوك أول ٩: ١٦.

(٤) وادي يزرعيل: سهل مثلث في فلسطين الوسطى، بمسيه المؤرخ اليهودي يوسف بن متى «السهل الكبير» ويمتد من البحر المتوسط إلى الأردن، ومن الكرمل وجبال السامرة إلى جبال الجليل، وطوله من الغرب إلى الشرق نحو ٢٥ ميلا، ومن الجنوب إلى الشمال نحو ١٢ ميلا، وتقع فيه مدينة ييسان (بيت شان).

(٥) يشوع ١٧: ١١-١٨ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٦) تعنك: (تاعاناخ، أو تاعاناقا)؛ تقع على مبعدة ٨ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من مجدو، على الطرق لجنوبي من سهل يزرعيل.

(٧) مجدو: تلم المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلا جنوبى شرقى حيفا، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال.

الكنعانيون في وسطه، ومنها (ثامناً) ما يقال عن سبط أشير «فسكن
الأشيريون في وسط الكنعانيين، سكان الأرض، لأنهم لم يردوهم، والأمر
كذلك بالنسبة إلى سبط نفتالي، الذي «سكن في وسط الكنعانيين سكان
الأرض»^(١).

ومنها (تاسعاً) أن بني دان إنما كان نصيبهم ضيقاً، ومن ثم فقد بحثوا
عن إقليم جديد في أقصى الشمال، لأن الأموريين قد حصروهم في الجبل،
ولم يفسحوا لهم المجال للنزول في الوادي^(٢).

ومنها (عاشرًا) أن سفر القضاة إنما يشير إلى أن هناك أرضاً قد تركها
ربُّ إسرائيل، «ليمتحن بها إسرائيل»، وأنها إنما كانت تتكون من أقطاب
الفلسطينيين الخمسة، وجميع الكنعانيين والصيغونيين والحويين سكان جبل
لبنان، من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة، وهكذا سكن إسرائيل في
وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والبيوسيين وتزوجوا منهم
وعبدوا ألهتهم^(٣).

وهكذا يبدو واضحاً أن غزو كنعان إنما كان بعيداً عن التمام على أيام
يشوع، ذلك لأن هناك كثيراً من المدن الحصينة في طول البلاد، لم تخضع
لبني إسرائيل، هذا فضلاً عن مجموعات من القبائل التي لم يستطيع يشوع
إخضاعها، بل إن احتلال كنعان حين تم، إنما تم عن طريق الجهود
الخاصة بكل سبط من الأسباط الاثني عشر في الدفاع عن منطقته، تحت
قيادة قواد من أبنائه المختارين وأن ذلك قد استغرق فترة تزيد عن القرن من
الزمان^(٤).

(١) قضاة ١: ٢٧-٣٣.

(٢) يشوع ١٩: ١٧؛ قضاة ١١: ٣٤.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

L.Epstein, op.cit., p. 33.

O.Roux, op.cit., p. 242.

وكذا:

(٤)

ومن هنا فليس صحيحاً ما جاء فى النصوص القديمة، من أن الغزو قد تم فى جيل واحد، أو فى خمسة أو سبعة أعوام^(١)، وإنما استمر طوال عهد القضاة، وفى أثنائه سقطت لايش^(٢) «لخيش» وشكيم^(٣) فى أيدي الإسرائيليين ولم تنته العملية حتى بداية عصر الملوك الأول، حيث تم الاستيلاء على أورشليم وإخضاع مجدو وتعنك وبيت شان ومنطقة دور، وضم جازر^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الاضطراب فى وصف التوراة لطريقة الغزو، فسفر يشوع يروى أن الغزو إنما قد بدأ بدخول أرض كنعان عن طريق أريحا (مدينة النخل)^(٥)، ولكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى الافتراض من أن الجزء الجنوبي على الأقل من شعب إسرائيل قد دخل كنعان من الجنوب مباشرة، وهذا صحيح بالتأكيد بالنسبة إلى القينيين والقنزيين والبرحمثيين والقبائل شبه البدوية التى أمتصتها يهوذا على أيام داود، وربما كان ذلك صحيحاً كذلك بالنسبة إلى سبط يهوذا، أو بقية سبط شمعون، لأن غزو «حرمون» الذى ينسب إليهم سفر القضاة^(٦)، إنما يصور فى سفر العدد^(٧)، على أنه قد وقع من الجنوب، ولا بد أن هذه الجماعات العبرية قد تحركت ناحية الشمال من قادش، ولا بد أنها قد توقفت بسبب سلسلة القلاع الكنعانية الممتدة من جازر إلى أورشليم^(٨).

ولعل السبب فى هذا الاضطراب، فيما يتصل بأحداث الغزو الواردة فى سفر يشوع، أن السفر إنما كتب على أيام السبي البابلى (٥٨٧-٥٣٩ ق.م) وأن ما يرويه السفر على أنه قد تم فى خمس سنوات، إنما قد استغرق قرنين

(٢) قضاة ١٨.

(١) يشوع ١٤: ١٠-١١.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 229-230.

(٣) قضاة ١٤.

(٥) يشوع ١٦: ٣، تثنية ١١: ٢٩-٣١، ٢٧: ٢-٧.

(٧) عدد ٢١: ١-٢.

(٦) قضاة ١٧: ١.

(٨) A. Lods, op.cit., p. 331.

ونصف من الزمان ليكتمل حدوثه فعلا، وذلك لأن الإخضاع الكامل لكنعان لم يحدث إلا فى عهد سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م).

ولعل فى بعد الشقة ما بين الأحداث وتسجيلها ما يشفع فى هذا الخلط، بل ما يشفع فى المغالاة والتفاخر بما ارتكب من مجازر لم يكن لها من أساس إلا فى أذهان مؤلفيها الذين شهدوا بربرية الآشوريين والبابليين، فخيّل إليهم أن أسلافهم مارسوا نفس اللون من القهر والإذلال^(١)، ذلك لأن هؤلاء البدو الرحل، رغم ممارستهم الحرب باستمرار، لم تصبح الحرب فنا ولا علما عندهم، فكانت تعوزهم التعبئة، وما كان ليكتب لهم فوز إلا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدو المعاصرين، وبنو إسرائيل إذ كانوا جناء خوفا بطبيعتهم، لم يبدو مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعمائهم وأنبيائهم فيهم من حماسة مؤقتة^(٢).

ومن هنا، فكل ما تمتلئ به صفحات سفر يشوع من غزوات، لا تعدو ما اعتاده الرحل أن يمارسوه من غارات قبلية على السكان المستقرين الآمنين فى كنعان، الذين كانوا يعيشون فى تلك الفترة شيعة وأحزابا، لا تربطهم رابطة ولا يجمعهم حلف واحد، فإذا أضفنا إلى ذلك ظروف حروب رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م) ضد شعوب البحر، وانشغال مصر بتلك الحروب، فضلا عن ضياع دولة الحيثيين على أيدي شعوب البحر هؤلاء، هذا فضلا عن أن الآشوريين فى العراق القديم إنما كانوا يمرون بفترة ضعف شبيهة بتلك التى كانت تمر بها مصر على أيام أخريات الأسرة العشرين.

وهكذا كانت الظروف التى كانت تمر بها دول الشرق الأدنى القديم وشعوبه والتخلخل الموجود فى فلسطين وسورية فى أعقاب غزو شعوب البحر، مما أعطى هؤلاء الرحل الهمج فرصة شن بعض الغارات البربرية الناجحة على

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٢. (٢) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٧.

بعض مدن شرق فلسطين، بدرجة تكفى لأن يبدأ يشوع فى تنظيم حياة القوم السياسية والدينية، وأن يقسم المناطق المحتلة بين الأسباط جميعاً، طبقاً لعدد كل منها، وأن يشيد فى «شيلوه»^(١) محراباً مركزياً يتخذ مركزاً للتابوت الذى كان يستخدم كرمز لوحدة القوم السياسية والدينية^(٢).

(١) شيلوه: وتقع شمالى بيت إيل بتسعة أميال، فى منتصف المسافة بين بيتين وشكيم، ويرجع أنها هى المسماة «سيلون» على مبعدة ١٧ ميلاً شمال أورشليم (قاموس الكتاب المقدس ١/٥٣٥)؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 1015.\

Isidore Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 33.

(٢)

الفصل الثانى

عصر القضاة

(١) السمات العامة لعصر القضاة:

لم يكن التنظيم الفيدرالى الذى اتبعه يشوع فى ربط القبائل الإسرائيلية بعضها ببعض الآخر، بقادر على أن يعيش إلا على أيامه فحسب، ومن ثم فقد تبع موته عصر من الفوضى، كان إياه «كل واحد يعمل ما يحسن فى عينيه»^(١).

ومن هنا فقد تفرقت وحدة بنى إسرائيل، ولم تتحد أسباطهم حتى عندما واجههم الخطر من عدوهم الذى لم يخضع بعد، ومن ثم فقد اضطروا إلى أن يلجأوا إلى التغلغل السلمى، وقد قادهم هذا إلى محاكاة ديانة جيرانهم^(٢)، وارتد كثير منهم إلى وثنية الكنعانيين، فعبدوا الأصنام، وفى مقدمتها «بعل وعشتارت»، ومن ثم فقد تنبه لذلك عدد من الزعماء المحليين لبنى إسرائيل، كانوا جميعاً من المحاربين الأشداء، فأخذوا يدافعون عن الكيان المهدد، وهم الذين يسمون فى التاريخ الإسرائيلى بالقضاة^(٣).

ويبدأ عصر القضاة بموت «يشوع بن نون»، وينتهى بقيام الملكية الإسرائيلىة على يد «شاول بن قيس»، وتسجل التوراة أحداث هذا العصر فى السفر السابع منها، والذى يحمل اسم «القضاة»، هذا فضلاً عن بعض إصحاحات من سفر صموئيل الأول - فيما تسميه الطبعة البروتستانتية - وملوك أول - فى الطبعة الكاثوليكية - وتستغرق هذه المرحلة من تاريخ بنى إسرائيل قرابة أربعة قرون ونصف القرن فى بعض الآراء، وثلاثة قرون ونصف^(٤)، إن اعتمدنا على بعض نصوص التوراة^(٥)، وقرنين من الزمان،

I. Epstein, op.cit., p. 33.

(٢)

(١) قضاة ١٧: ٧.

(٣) حسن ظافا، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) أعمال الرسل ١٣: ٢٠؛ شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلىة، القاهرة ١٩٠٤، ص ١٨؛

باروخ سينوزا، المرجع السابق، ص ٢٩٠-٢٩٤.

(٥) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ١٢٢.

فيما يرى بعض الباحثين^(١)، وقرن وثلاثة أرباع القرن في بعض الآراء الأخرى^(٢)، بل إن هناك من يذهب إلى أن عصر القضاة هذا لا يتجاوز القرن الواحد من الزمان^(٣).

وربما كان الرأي الذي يوفق بين الرأيين الأخيرين هو الأقرب إلى الصواب، إذ أنها لا تعدو - فيما نظن - قرابة القرن ونصف القرن، إذ اعتمدنا على الرأي الذي يرجح الخروج في عام ١٢١٦ ق.م (أو ١٢١٤ ق.م) على أيام الملك «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ ق.م)، وقيام ملكية «شاول» في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد (حوالى عام ١٠٢٠ ق.م) آخذين فى الاعتبار فترة التيه فى الصحراء، وعهد يشوع بن نون.

وأيا ما كان الأمر، فلقد بدأ العبرانيون يثبتون أقدامهم فى البلاد عن طريق الاختلاط بالسكان الأصليين بالمصاهرة، كما انضمت إليهم بطون من ذوى قريائهم، وكانت القبيلة أساس نظامهم الاجتماعى القديم، حيث تقص علينا التوراة أن الأرض المفتوحة، إنما كانت تقسم على إحدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثنتى عشرة، بينما وزعت القبيلة الثانية عشرة - وهى قبيلة لاوى - على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه القبائل إنما كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزى فى «شيلوه»^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن بعض العلماء إنما قارن هذا النظام القبلى العبرانى بمجلس «الإمفكتيون» Amphictyony اليونانى،

(١) O.Eissfeldt, The Period of the Judges, in CAH, II, Part 2, 1976, p. 583.

وكذا:

M.B. Bowton, The Early, Period of the Judges in Israel, Cambridge, 1963.

J. Gray, op.cit., p. 112. (٢)

(٣) فيليب حتى ، المرجع السابق، ص ١٩٥ ، محمد عزة دروزة ، المرجع السابق، ص ١٢٣ .

(٤) يشوع ٨: ١، ٨: ١٠-٨، موسكانى، المرجع السابق، ص ١٤٠ .

والذى يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية^(١)، وكانت سلطة الكاهن الأعظم عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزع وجود حكومة «ثيوقراطية»، فإن سلطته لم تكن سياسة، إذ كان يتصدر القوم فى أثناء الأزمات زعماء محليون هم «القضاة»، وقد ظل هؤلاء القضاة يحكمون العبرانيون طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهى فى هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوى الذى تتميز به الحياة السامية فى مراحلها الأقدم عهداً، وكانت سلطة القضاة تعتمد أساساً على رضا الله عنهم وتأيده لهم، ومن ثم فقد سميت هذه الفترة «عصر الرضا الربانى» Chrismatic Age^(٢).

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم اليوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين، أقامهم الرب، ليخلصوهم من يد ناهبيهم، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا لنشهد أكثر من واحد فى وقت واحد، «ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام حتى إذا كانوا من الكهنة»، وكان الواحد منهم يطلق عليه أحياناً لقب ملك أو قاض^(٣)، والحق أنك لا تجد واحداً من القضاة استطاع أن ييسط سلطانه على جميع بنى إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والسيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بتلك القيادة^(٤).

ومن هنا لم تتألف من الغزاة فى يوم من الأيام أمة واحدة متماسكة،

(١) موسكائى، المرجع السابق، ص ١٤٠، وكذا:

Martin Noth, Das System der Zwölf Staemme Israels, 1930, p. 39-60.

وكذا: Merrill F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chciago, 1970, p. 1015.

(٢) سبتينو موسكائى، المرجع السابق، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٤) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٥.

بل ظلوا زمناً طويلاً يؤلفون اثني عشر سبطاً، مستقلين استقلالاً واسعاً أو ضيقاً، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة، بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة، فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء، هو الحكم الفصل في شئون القبيلة، وهو الذي يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى، إذا ألجأتهم إلى هذا التعاون الظروف القاهرة التي لا مفر من التعاون فيها^(١).

وعلى أي حال، فإنه تبين من فحص الروايات الخاصة بهؤلاء القضاة في التوراة، أنها تختلف فيما بينها بدرجة كبيرة، فبينما يبدو بعضها ذو أهمية تاريخية كبيرة مثل شعر انتصار «دبورة» أو قصة «أبيمالك»، ويبدو بعضها الآخر، ذو وصفة أسطورية لا أقل ولا أكثر، وبينما تنتمي قصة شمشون إلى الأدب الشعبي، تبدو وكأنها ذات أصل أسطوري، وأما أبطال هذه القصص فلا يظهرون أبداً كمصلحين دينيين، بل إن شمشون لم يكن حتى زعيماً، كما أن هذه الروايات مستقلة تماماً إحداها عن الأخرى، ولم يعد ممكناً أن تقول بالتأكيد ما هو الترتيب التاريخي للأحداث المسجلة، والظنون المحتملة أن الحادثة المفصلة في قصة «عيشيل» يجب أن توضع في الجيل الثالث بعد موسى، وأن إنجازات «جدعون» إنما كانت في الجيل الرابع^(٢).

ونقرأ في سفر القضاة أنه أعقب موت يشوع فترة زاع فيها بنو إسرائيل من عبادة الواحد القهار، واتجهوا نحو عبادة «بعل وعشتار»، فسلط الرب عليهم من أذلهم، وهنا عادت خراف بيت إسرائيل الضالة إلى ربها تدعوه أن يكشف عنها الغمة، فأقام لهم قضاة كان الرب مع القاضى وخلصهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى، لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب

(١) ول. ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢٧.

A. Lods, op.cit., p. 335.

(٢)

مضايقتهم وزاحمهم، وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آباؤهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها، لم يكفوا عن أفعالهم وطريقتهم القاسية، فحمى غضب الرب على إسرائيل وسلط عليهم أعداءهم ليمتحنهم بهم^(١).

وهكذا تقدم التوراة صورة بشعة لما كان من ارتكاس بنى إسرائيل، وانحرافهم الدينى والخلقى بسرعة عجيبة، الأمر الذى تكرر منهم من قبل مع موسى الكلیم، عليه السلام، والذى ظل طابعهم المميز، بل هو كذلك التعليل التقليدى الذى تقدمه التوراة دائماً وأبداً، حين تحل بنى إسرائيل النوائب، وتقف فى طريقهم العقبات، أو ترفضهم القبائل، أو تشن الأمم عليهم الحروب وذلك نتيجة الطبع الملتوى، والخلق النهاز للفرص، ذلك التعليل هو أن الرب قد غضب عليهم بسبب عصيانهم إياه وإشراكهم به، ولكن رب إسرائيل - ويا للعجب - فإنه سرعان ما يعود فيغفر لبنى إسرائيل ذلتهم، حين يريد بنو إسرائيل ذلك الغفران، مستغلين علاقتهم به. فيحارب عنهم وبهم، حتى يحقق لهم ما يرغبون من نصر، وتلك لعمري، فرية على الله لا يقبلها إلا بنو إسرائيل.

وأيما ما كان الأمر، فإن التوراة إنما تشير فى سفر القضاة إلى أنه كان على بنى إسرائيل أن يقاموا أقطاب الفلسطينيين الخمسة (زعماء مدن غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت)، وجميع الكنعانيين، والصييدونيين المقيمين بجبل لبنان، فضلاً عن الحثيين والآموريين والفرزيين واليبوسيين الذين سكنوا مع بنى إسرائيل، وارتبطوا بهم برباط المصاهرة، واشتركوا معهم فى العبادة، مما يدل على أن سكان كنعان إنما ظلوا محتفظين بمراكزهم وكيانهم خلافاً لما زعمه يشوع من قبل، وأنهم كانوا - مع أهل البلاد المجاورة لكنعان - يترصدون بنى إسرائيل الدوائر، ويجمعون على الوقوف

(١) قضاة ٢: ١٠-٢٣.

منهم موقف البعداء والتجهم، وأنهم كانوا - إلى جانب هذا كله - أصحاب تأثير ديني واجتماعي فيهم^(١).

(٣) قضاة إسرائيل:

حكم العبرانيون في عصر القضاة هذا خمسة عشر قاضيا، كان أولهم «عشئيل» وآخرهم «صموئيل النبي».

١ - عشئيل بن قناز:

كان «كوشان رعشتايم» ملك آرام النهرين، أول من جعله رب^٢ إسرائيل سوط عذاب على شعب إسرائيل، فاستذلهم ثمانى سنوات، استطاع بعدها «عشئيل بن قناز» أخو كالب الأصغر، أن ينقذهم من هذا الهوان، ثم قضى لبني إسرائيل أربعين سنة^(٢).

٢ - إهود بن جيرا البنياميني:

تحدثنا التوراة أنه ما إن يموت «عشئيل بن قناز»، حتى يعود بنو إسرائيل إلى سيرتهم الأولى، فيسلط الرب^٣ عليهم «عجلون» ملك مؤاب، الذى يجمع عليهم بنى عمون وعماليق، ويعبر الأردن، ويحتل «دولة المدينة أريحا»، ويجبر سكانها على دفع الجزية، ثم يستعبدهم «ثمانى عشرة سنة»، ينجح بعدها «إهود بن جيرا البنياميني» فى تخليصهم من «عجلون»، وذلك باغتياله فى حجرة نومه عن طريق خدعة، ثم يستغل الفوضى التى انتشرت بين المؤابيين، فيدمر مملكته فى الجانب الغربى من الأردن بمساعدة البنيامين والأفرايمين الذين استدعاهم بسرعة لنجدته، وبهذا يكون الهدف من القضاة على هجوم المؤاب فى غرب الأردن قد تم، ومن ثم فقد استقر الموقف إلى حين، أو كما تقول التوراة «استراحت الأرض ثمانين سنة»^(٣).

(١) قضاة ٣: ١-٨.

(٢) قضاة ٣: ٧-١١.

(٣) قضاة ٣: ١٢-٣٠، وكذا:

O.Eissfeldt, op.cit., p. 554.

٣ - شعجر بن عناة:

خلف «شعجر» - وأصل اسمه حورى فيما يرى بعض الباحثين - إهود بن جيرا، على إسرائيل، وطبقاً لرواية التوراة، فقد قتل ستمائة فلسطينى بمنساس البقر، وهو أيضاً قد خلص إسرائيل^(١).

٤ - دبورة: النبية القاضية

عاد بنو إسرائيل يعملون الشر من جديد، فباعهم الربُّ بيد «يابين» الملك الكنعانى فى «حاصور»^(٢) - وهى تل القدح على مبعدة أربعة أميال غربى جسر بنات يعقوب^(٣) - وقام «سيسرا» رئيس جيش يابين فى رأى التوراة، وهو أمير مدينة «حروشة الأم» - تل عمار قرب الحارثية على مبعدة ١٦ ميلاً إلى الشمال الغربى من مجدو^(٤) - ومن الممكن أن يكون اسمه Il-lyrian فإذا كان ذلك كذلك، فربما كان عضواً من الطبقة الحاكمة من «شعوب البحر» وربما مارس نوعاً من السيادة على مدن سهل يزرعيل، التى كان الكنعانيون يحتلون جزءاً منها، وتحتل شعوب البحر جزءاً آخر، وربما فى سهل عكو (عكا)^(٥).

وعلى أى حال، فلقد قام «سيسرا» بقطع الاتصال بين القبائل الإسرائيلية فى الشمال، وبقبائل الإقليم الجبلى فى أفرام، وهنا ساد الفرع وتوقف العمل فى الحقول، ولم تجرؤ واحدة من القبائل العبرية على مواجهة خيول الحرب الشرسة لأمرأء الكنعانيين فى معركة، وكانت قبيلة «يساكر»

(١) قضاة ٣: ٣١. (٢) قضاة ٤: ٧-٢٠.

O.Eissfeldt, op.cit., p. 554.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١، وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 554.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٣٠١/١، وكذا:

وكذا:

W. F. Albright, Historical Geography of Palestine, AAOR, 1923, p. p. 1F.

M. Noth, op.cit., p. 150.

(٥)

أكثر القبائل الإسرائيلية تأثراً، وبطريقة مباشرة، بتجدد العداوة مع الكنعانيين، كما كانت كذلك أكثر القبائل معرفة بمزايا العمل الموحد، ولهذا كانت لها القيادة^(١)، وإن كان «مارتن نوث» يرى أن القيادة إنما كانت لقبيلة نفتالى، فى تكوين حلف مضاد للكنعانيين^(٢).

وكانت «دبورة» امرأة نبية، وزوجة لفيدوت، وهى فى نفس الوقت قاضية إسرائيل وقت ذاك^(٣)، فقامت بالدعوة إلى العمل الموحد ضد الكنعانيين وكان «باراق» أول من لبى نداءها، فقد كانت له دوافع شخصية تدفعه إلى الانتقام من سيسرا الذى كان قد أسره ذات مرة^(٤)، وهكذا كان «باراق» وهو رجل نفتالى - من قادش فى نفتالى، وهى قرية قدس الحالية، على مبعدة عشرة أميال شمالي صفد، وأربعة أميال إلى الشمال الغربى من الحولة^(٥) - القائد وبالرغم من أنه لم يكن له مركز رسمى، فإنه قد بدأ المهمة، ووجد له أتباعاً فانضمت إليه قبيلة نفتالى، وكذا القبيلة المجاورة (زبولون)، وقدمتا له عشرة آلاف رجل، وأرسلت كذلك قبيلتا يساكر ومنسى بمتطوعيهما، ونظراً للقربة الوثيقة مع القبيلة الأخيرة، فقد انضمت قبيلتا «بيت يوسف» (أفرايم وبنيامين)^(٦).

ومن ناحية أخرى، فقد وقفت أربعة قبائل (راويين وجاد ودان وأشير بمعزل عن الأحداث، ربما لأن مصالحها لم تهدد، ويصف سفر القضاة ذلك بقوله: «على مساقى راويين أقضية قلب عظيمة، لماذا أقمتين الحظائر لسمع الصغير القطعان، لدى مساقى راويين مباحث قلب عظيمة، جلعاد (جاد) فى عبر الأردن سكن، ودان لما استوطن لدى السفن، وأشير أقام على البحر، وفي فرضه سكن»^(٧).

M.Noah, op.cit., p. 150.

(١) A. Lods, op.cit., p. 337-338.

A. Lods, op.cit., p. 338.

(٢) قضاة ٤ : ١.

A. Lods, op.cit., p. 338-339.

(٣) قضاة ٥ : ١٧-١٥.

(٤)

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٢ : ٧٠٩.

(٦)

(٧) قضاة ٥ : ١٧-١٥.

وهناك مدينة إسرائيلية، لم يستدل عليها بعد، رفضت أن تهب لمساعدة «يهود»، فحلت عليها اللعنة، ومن الجدير بالملاحظة أن قبائل «يهودا» وشمعون ولاوى، لم تستدع للقتال، فقد كانت شمعون ولاوى قد تعرضتا للشتات من قبل، أما «يهودا» فقد كانت فى عزلة، وكأنها ليست من القبائل الإسرائيلية^(١).

وأيا ما كان الأمر، فلقد اجتمعت القوات الإسرائيلية المتخالفة، عند جبل «تابور»^(٢) فى الركن الشمالى الشرقى من سهل يزرعيل، ولكن رعى الحرب إنما قد دارت بعيداً إلى الجنوب بين «تعاك ومجدو، على ضفاف نهر «فيشون»، وأنجز الإسرائيليون نصراً كاملاً على عدوهم الخيف هذا، ثم عزوا نصرهم هذا إلى مساعدة ربهم «يهود» القوية، والذي دخل «باراق» المعركة باسمه، ويبدو أن عاصفة هوجاء ساهمت بدرجة كبيرة فى انتصار الإسرائيليين إذا لم تستطع العربات الحربية أن تقوم بمناوراتها على الأرض الرطبة.

وهكذا أجبر «سيسرا» على الهرب مشياً على الأقدام، بعد أن تحطمت قوة عرباته الحربية، ثم سرعان ما قتل فى خيمة امرأة قينية تقيم فى الجهة المجاورة، ذلك أن «سيسرا» كان واثقاً كل الثقة من عادات البدو فى كرم الضيافة، التى تعتبر العدو ضيفاً لا يمكن الاعتداء عليه، ومن هنا فقد بحث عن ملجأ فى خيمة «ياعيل امرأة حابر القينى»، ولكن كراهية هذه المرأة

A. Lods, op.cit., p. 339.

(١)

(٢) جبل تابور، جبل فى أرض الجليل يسمى الآن «الطور» يشرف على مرج ابن عامر، ويقع على مبعده خمسة أميال ونصف نحو الجنوب الشرقى من الناصرة، وعلى مبعده ١٢ ميلاً شمال جبال جليوع، وقد ساد اعتقاد أنه جبل التجلى، ولذا أقيمت عليه عدة كنائس منذ القرون الأولى للمسيحية، وقبل نهاية القرن السادس بنيت عليه ثلاث كنائس تذكراً للمظال الثلاث التى طلب بطرس أن تقام هناك، ومنذ عهد قريب أقيمت كنيسة فخمة للآتين على قمته. (قاموس الكتاب المقدس ٢١٠/١-٢١١).

القينية لسييرا الذى كانت ترى فيه عدواً لحلفاء قومها، إنما دفعها لأن تحطم جبهته بوتد الخيمة، وهو يشرب من لبن قدمته له بنفسها، وتشى التوراة على عملها الوحشى هذا بقولها: «تبارك على النساء يا غيل امرأة حابره» (١).

٥ - جدعون:

عاد الإسرائيليون يفعلون الشر من جديد، فدفعهم رب إسرائيل ليد المديانيين لسنوات سبع، أذاقهم المديانيون فيها العذاب ألواناً، حتى اضطروا آخر الأمر إلى ترك قراهم ومدنهم، والالتجاء إلى الكهوف والمغاور والحصون، وكان الإسرائيليون إذا ما زرعوا زرعاً، يتزل المديانيون، «ويتلفون غلة الأرض، إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوة الحياة ولا غنماً ولا بقرأ ولا حميراً، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم، ويجيئون كالجراد فى الكثرة، وليس لهم ولا لجمالهم عدد، ودخلوا الأرض لكى يخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين» (٢).

وهنا يصرخ بنو إسرائيل إلى ربهم «يهوه» وكالعادة يرسل رب إسرائيل إلى شعبه إسرائيل رجلاً نبيلاً منهم، هو «جدعون» من سبط منسى، وكان جدعون يدرك أنه من سبط مستضعف، ومن هنا نراه يخاطب ربه «يهوه» حين يطلب منه «أن اذهب بقوتك هذه، وخلّص إسرائيل من كف مديان» فيقول: «بماذا أخلص إسرائيل؟ ما عشيرتى هى الذلة فى منسى، وأنا الأصغر فى بيت أبى»، فيقول له الرب: «إنى أكون معك، وستضرب المديانيين كرجل واحد» (٣).

(١) قضاة ٤: ١٥-٢٤، وكذا:

W.F.A. Albright, The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N.Y., 1963, p.122.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 554.

وكذا:

(٢) قضاة ٦: ٧-١٦.

(٣) قضاة ٦: ٦١.

وكان أول ما عمله جدعون أن «بنى هناك مذبحاً للرب ودعاه «يهوه شلوم» ثم هدم مذبح «البعل» الذي كان أبوه قد بناه من قبل، ولكنه «إذ كان يخاف من بيت أبيه وأهل المدينة أن يعمل ذلك نهائياً فعمله ليلاً، فبكر أهل المدينة في الغد، وإذا بمذبح البعل قد هدم، والسارية التي عنده قد قطعت، والثور الثاني قد أعد على المذبح الذي بنى»، وهنا ثار أهل المدينة، ولم يقبلوا إلا رأس جدعون جزاءً وفاقاً على ما قدمت يداها، ولكن الثورة سرعان ما تخمد، ويرسل جدعون رسله إلى أسباط منسى وأشير وزبولون ونفتالي (١).

ويجمع جدعون الجيوش عند «عين حرود» (٢)، وكان عدد الجيش كبيراً، اثنان وثلاثون ألفاً - فيما تروى التوراة - فطلب الرب منه أن ينقصه، حتى لا يغتر الإسرائيليون، فيظنون أن النصر - إن جاء - فبسبب كثرتهم وقوتهم وتجرى عدة اختبارات كان من نتيجتها أن ترك الجيش وتقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، حتى لارى أن نتيجة التصفية إنما كانت ثلاثمائة رجل من اثنين وثلاثين ألفاً (٣).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم إنما قد صحح هذا الحادث وأرجعه إلى صاحبه الأصلي «طالوت» (شاول في التوراة)، يقول سبحانه وتعالى: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي، إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ

O. Eissfeldt, op.cit., p. 556.

(١) قضاة ٦: ٢٤-١٠؛ وكذا:

(٢) عين حرود: هي عين جالود على الجانب الشمالي الغربي من جبل جلبوع نحو ميل شرقاً للجنوب من نزرعيل، بالقرب من يسان. (قاموس الكتاب المقدس، ١/٣٠٠).

(٣) قضاة ٧: ٣-٨.

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١)

هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن عدد جنود طالوت، إنما كانوا ثمانين ألف مقاتل، بقي على العهد منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، عدة أهل بدر^(٢).

وعلى أى حال، فإن التقاليد الإسرائيلية إنما تصور «جدعون» وقد جرؤ على أن يقابل الخطر على رأس هذه القوة من البقية الباقية من جيشه، فيغزو معسكر المديانيين وبعد كرة ناجحة من السلب والنهب فى الوادى، وقد أرعب هجوم جدعون - الذى كان فيما يبدو قد أعد جيداً - المديانيين كثيراً، لدرجة أنهم قد جروا إلى السهول المفتوحة على ظهور جمالهم، وهربوا إلى الأردن - عبر نهر جالوا - ثم عبروا الأردن إلى ناحية الشرق، كما يبدو كذلك أن نصر جدعون هذا إنما قد وضع حداً للرعب الذى كان يسببه المديانيون للإسرائيليين، أو أنه قد أثار تصميم السكان على الدفاع عن أنفسهم، لأننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن أى هجوم من قبل المديانيين، هذا فضلاً عن أن ذكره إنما قد بقيت فترة طويلة بين بنى إسرائيل، ومن ثم فإننا نقرأ فى سفر إشعياء عن «يوم المديانيين»^(٣) أى يوماً انتصار على المديانيين، والإشارة هنا دون شك إلى نجاح جدعون المذهل، وانتصاره على المديانيين عند «عين حرود» عند السفح الشمالى الغربى من جبل جلبوع^(٤).

(١) سورة البقرة، آية : ٢٤٩، وانظر: تفسير الكشاف، ٢٩٤/١-٢٩٦، تفسير الطبرى ٣٣٨/٥-٣٥٣، تفسير المنار ٢٨٢/٢-٣٨٩، تفسير القرطبي، ص ١٠٥٨-١٠٦٢، تفسير ابن كثير ٤٤٦/١-٤٤٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٣٩/٥، ٣٤٦-٣٤٨، تفسير الكشاف ٢٩٤/١-٤٩٦، تاريخ الطبرى ٢٤٢/١-٢٤٣، تفسير القرطبي، ص ١٠٦٢-١١٦٣، تفسير ابن كثير ٤٤٦/١-٤٤٦، صحيح

البخارى، ٢٢٨/٨، مسند الإمام أحمد ٢٩٠/٤.

V. Noth, op.cit., p. 162.

(٤)

(٣) إشعياء ٩ : ٤.

غير أن فى قصة جدعون هذه - كما تقدمها التوراة - كثيرًا من التناقضات والمبالغات، فالقصة - كما جاءت فى سفر القضاة^(١) - تذهب إلى أن جدعون قد جمع جيشًا جرارًا، تعداده اثنان وثلاثون ألفًا، لمحاربة المديانيين والعمالقة وبنى المشرق، الذين نزلوا فى وادى يزرعيل، لم يبق منهم مع جدعون - بعد اختبارات معينة - إلا مئتان ثلاث، ومع ذلك فمن الغريب أن تفاجئنا التوراة بأن جدعون إنما قد استطاع بمئات الثلاث، أن يقتل من أعدائه فى الكرة الأولى، مائة وعشرين ألفًا من مختطلى السيف، ثم خمسة عشر ألف، فى الكرة الثانية.

وبدهى أنه ليس لدينا من تفسير مقبول لكل ذلك، سوى أنه التناقض والمبالغة المنقطعة النظير، وإلا فخيرٌ بربك أيها القارئ الكريم: كيف استطاع جدعون بجنوده الثلاثمائة - مهما كانت شجاعتهم، ولا نقول مهما كانت أسلحتهم - أن يقتل من جيش المديانيين وحلفائهم من العمالقة وبنى المشرق، مائة وعشرين ألفًا فى الجولة الأولى؟ ثم خبرنى بربك - مرة أخرى - كيف استطاع جدعون بجنوده الثلاثمائة أنفسهم، أن يقتل خمسة عشر ألفًا، فى الجولة الثانية؟ ولا تسأل نفسك: ماذا فعلت هذه الآلاف المؤلفة من المديانيين بجيش جدعون؟

وعلى أى حال، فإننى لا أستطيع أن أتصور ذلك الذى ترويه توراة اليهود حتى فى أضغاث الأحلام، ولك أنت أيها القارئ الكريم، أن تتصور ما تريد وأن تصدق ما تشاء، ثم لك بعد ذلك أن تؤمن، أو لا تؤمن - كيفما تشاء - بأن حديثًا كهذا يمكن أن يكون وحيًا من الله - جل جلاله - فى كتاب من عند الله.

وعودًا على بدء، إلى جدعون وقومه من بنى إسرائيل، فإننا نجد القوم يتظاهرون بحب جدعون، ويلتفنون حوله، حتى أنهم - من شدة نفاقهم

للرجل أن سألوه أن يقيم ملكية وراثية، إذ «قال رجال إسرائيل لجدهون تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك، لأنك خلصتنا من يد مديان»، ولكن جدهون يأبى ذلك مكتفياً بملكية «يهوه» على الإسرائيليين^(١)، وربما رسمت هذه القصة الموجزة بعد أن ظهر الملوك في إسرائيل بفترة طويلة، وربما كانت بطريق غير مباشر ضد نظام الملكية الإسرائيلية القائم وقت ذلك، ولكنها بالتأكيد تعكس الوضع السائد بين بنى إسرائيل على أيام جدهون، وقبل ظهور الملكية على أيام شاول، وأياً ما كان الأمر، فإن جدهون قد مارس سلطته كملك، ومن ثم فقد وجدنا أبناءه يتنازعون على خلافته عند وفاته، وهل ستوزع السلطات عليهم جميعاً؟ أم أن واحداً سوف يرثهما دون الآخرين؟^(٢).

وعلى أى حال، فلقد كان جدهون أول من فكر فى إنشاء محراب ملكى، وذلك حين أقام «أفودا»^(٣) فى مدينته «عفرة» حدث ذلك عندما جمع من الإسرائيليين أقراط الذهب التى جمعوها من المديانيين، وصنع منهما «أفودا» وجعله فى مدينته فى عفرة، وزنى كل إسرائيل وراءه هناك، فكان ذلك لجدهون وبيته فخاً^(٤).

هذا فضلاً عن أنه إنما تزوج من نساء كثيرات، رغبة منه فى رقابة صلات قوية مع عائلات كثيرة من المجتمعات التى كان يرغب فى

(١) قضاة ٨: ٢٢-٢٣.

(٢) قضاة ٩: ٢.

(٣) الأفود: ثوب يشبه الصدر، كان يلبسه رئيس الكهنة الإسرائيلى أثناء خدمته للكهنة، وكان يثبت على الجسم بواسطة شريطين للكتفين من فوق، وحزام من أسفل، وعلى شريطى الكتفين حجر منقوش عليه أسماء أسباط إسرائيل الاثنى عشر، ويتصل بالصدر بسلاسل من ذهب، وكانت الصدرية تحتوى على اثنى عشر حجراً كريماً، فيها وسائل القرعة المقدسة التى تستخدم فى تبين إرادة الله لمن يطلبها. (قاموس الكتاب المقدس، ١/٩٦٦).

(٤) قضاة ٨: ٢٤-٢٧.

استرضائها، وكانت إحدى زوجاته من «شكيم» التي كانت ماتزال مدينة كنعانية، ومن هنا فقد قبلت شكيم - طوعاً لا كرهاً - حكم جدعون، المدافع الشهير عن حقوق السكان المستوطنين من البدو.

وعلى أى حال، فإن البلاد التي حكمها جدعون، وابنه من بعده - باستثناء شكيم - كانت لا تعدو منطقة منسى وإقليم سكوت وفنوئيل فيما وراء الأردن، وكانت أفرام على عدااء معه، وبشر خارج سلطته^(١).

٦ - أيمالك:

كان حب الإسرائيليين لجدعون في حياته نوعاً من مداهنة الأقوياء، وتعلق الحكام، ومن هنا نراهم بعد موت جدعون يتذكرون له ولأهله، «فلقد كان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كان له نساء كثيرات»، وكان أيمالك، ولد جدعون من امرأة من شكيم، وكان بطن «يروبعل» أو «جدعون» الذين يعيشون في عفرة، أصحاب الزعامة على منسى، وقد امتدت هذه الزعامة على دويلة المدينة في شكيم، وكان أيمالك، هو ذلك الابن الطموح الذي كان يرنو إلى هذه الزعامة، وكان قادراً على استغلال كره الحكم الارستقراطي الشكيمي القديم ليحكم بطن منسى فاستعان بأخواله ليكون له الأمر بعد أبيه دون بقية إخوته، وأجابه أخواله إلى مطلبه، وأعطوه مساعدة مالية «سبعون شاقل فضة»، من مال بيت ربهم «بعل برت» استأجر بها عصابة من المغامرين، وقادهم إلى عفرة مدينة أبيهم، وقتل إخوته بنى يربعل - أى بنى جدعون - سبعين رجلاً على حجر واحد^(٢).

ومبلغ علمى أن هذا الحادث إنما هو أقصى وأفظع حادث من نوعه في التاريخ القديم، ذلك لأن التنافس على الملك بين الأخوة أمر قد حدثنا عنه التاريخ كثيرًا، وأن القتل من أجل شهوة الحكم والسلطان أمر عرفناه

(١) قضاة ٨: ١-٣، ٩: ٢١، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 342.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 745.

(٢) قضاة ٨: ٣٠-٣٥، ٩: ٣١، وكذا:

أكثر من بين صفحات التاريخ، ولكن أن يقتل واحد من الراغبين فى الحكم والطامعين فى السلطان، سبعين رجلا من إخوته، وعلى حجر واحد، على حد تعبير التوراة، فذلك ما لم نعرف له مثيلا فى التاريخ.

وأيما ما كان الأمر فلقد نجا أخ له يدعى «يوثام» من المجزوة المروعة، ونادى فى قومه ينذرهم بسوء المصير، ثم فر إلى «بئر» - بين شكيم وأورشليم - وأقام هناك هرباً من أخيه، ثم «اجتمع أهل شكيم وكل سكان القلعة وذهبوا وجعلوا أئيمالك ملكاً عند بلوطة النصب التى فى شكيم»^(١).

وهكذا نصب أئيمالك نفسه ملكاً على شكيم، من قبل الأرستقراطية الشكيمية التى هو نفسه ينتمى إليها من ناحية أمه، ولكنه لم يرد أن يكون مجرد ملك على مدينة كنعانية على الأسلوب الكنعانى القديم، فمد حكمه عن طريق الضغط إلى أسباط منسى وأفرايم، التى كانت تعيش على الجبال حول شكيم، وبذا أصبحت أملاكه خليطاً من الإسرائيليين والكنعانيين، الأمر الذى قضى عليه بعد فترة قصيرة، عندما أراد أن يمد حكمه على القبائل الإسرائيلية كذلك، ومن ثم فقد نقل مقر حكمه إلى «أرومة» - وهى الأرومة الحالية على مبعدة ستة أميال جنوبى شرق شكيم، عند الحدود الأفرايمية وأقام «زبول» كنائب عنه فى شكيم.

وهنا خاب أمل الأرستقراطية الشكيمية التى كانت تتوقع أن يترك لهم الملك الذى رفعوه إلى العرش سلطة الدولة فى أيديهم، ومن ثم فقد عارضوه، ثم اتهموه بالخيانة، وفى السنة الثالثة برز من بين المتمردين رجل كنعانى يدعى «جعل بن عابد» كان كبير الأمل فى أن يأخذ مكانة أئيمالك فى شكيم، ومن ثم فقد أخذ يشير النخوة فى كبرياء الشكيمين، قائلاً: «من هو أئيمالك، ومن هو شكيم حتى نخدمه، أما هو ابن يربعل، وزبولون وكيله، أخدموا رجال حمورابى شكيم فلماذا نخدمه نحن؟ من يجعل هذا الشعب فى يدى، فأعزل أئيمالك؟»

ولكن أييمالك سرعان ما هاجم شكيم على حين غرة، ودمرها وبذر الملح في موقعها، ثم استولى على الحصن الذي كان يكون مدينة منفصلة تسمى «برج شكيم» ثم أحرق معبد الرب بكل من لجأ إليه، غير أن أييمالك إنما قضى نحبه، وهو يحاصر مدينة «تاباص» - وهو طوباس الحالية على مبعده تسعة أميال شمال شرق شكيم - إذ ألقت عليه امرأة بقطعة من رحي فشجت جمجمته، فدعا حارس درعه، وطلب منه أن يقتله، «لئلا يقولوا قتلته امرأة»^(١).

وهكذا يبدو أن محاولة أييمالك، إنما قد انتهت بدون نتائج تاريخية، حتى بات من الصعب تسمية مغامرته هذه، مقدمة للملكية الإسرائيلية فيما بعد، وعلى أي حال، فلقد عادت العلاقات بين شكيم ومنسى بعد موته إلى وضعها القديم، ومع ذلك فإن قصة أييمالك هذه إنما هي دليل على التوتر الموجود بين الأنظمة الإسرائيلية والكنعانية، والتي حاول أن يستفيد منها، ولكنها دمرته في النهاية، وأخيراً، فإن أييمالك - طبقاً للتقاليد - فقد كان الإسرائيلي الأول الذي ينادى بنفسه ملكاً^(٢).

٧ - تولع بن فواة بن دودو:

قام على قضاء إسرائيل بعد أييمالك «تولوع بن فواة بن دودو»، رجل من يساكر، كان ساكناً في «شامير» في جبل أفرام، وقد قضى ليفي إسرائيلي ثلاثاً وعشرين سنة^(٣).

٨ - يائير الجلعادي:

جاء يائير هذا على قضاء إسرائيل بعد «تولع بن فواة بن دودو» وتصفه التوراة بأنه كان له ثلاثون ولداً يركبون على ثلاثين جحشاً، ولهم ثلاثون

(١) قضاة ٩: ٢٨-٢٩، ٣٤-٥٤، وكذا:

A. Lods, op.cit, p. 344; M. Noth, op.cit., p. 125-153; O. Eissfeldt, op.cit., p. 557.

(٢) قضاة ١٠: ١-٢.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 153.

مدينة، منها واحدة ما تزال تدعى «حورت يائير»^(١).

٩ - يفتاح الجلعاوى:

عاد بنو إسرائيل من جديد يعملون الشر، ويعبدون الآلهة الأجنبية، وهو أمر ليس بالجديد ولا بالشاذ بالنسبة لبني إسرائيل، لأن الصراع القائم - والدائم كذلك - بين الطبع الذى تأصل فى بني إسرائيل، والطبع الذى طبعهم عليه أنبيأؤهم وقضائهم، كان دائماً ينتهى بانتصار الطبع، لأن هذا الطبع، إنما يكاد يكون ملازماً لهم من يوم بدء تاريخهم.

وهكذا عاد بنو إسرائيل إلى عبادة الآلهة الأجنبية، فحمى غضب الرب على إسرائيل، وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون، فحطموا ورضضوا بني إسرائيل، ثماني عشرة سنة، جميع بني إسرائيل الذين فى عبر الأردن فى أرض الآموريين الذين فى جلعاد، وعبر بنو عمون الأردن ليحاربوا أيضاً يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم، فتضايق إسرائيل جداً^(٢).

وعلى أى حال، فلم تكن هناك صلات مباشرة بين الإسرائيليين وأقربائهم العمونيين، لأنهم كانوا يعيشون بعيداً عن المناطق الإسرائيلية، ثم بدأ الاتصال بينهما عندما أصبحت بلاد جلعاد القديمة - جنوب يوق - مستعمرة لسبط أفرايم والأهم من ذلك أن العمونيين أصبح لديهم ميل نحو التوسع إلى الشمال الغربى، ومن ثم فقد بدأ النزاع بينهما، ثم سرعان ما عبر العمونيون الأردن لمهاجمة الإسرائيليين هناك، وبدأ الإسرائيليون يستصرخون ربهم ويطلبون عونه وإنقاذهم من محتته العصبية هذه، إلا أنهم لم يجدوا من بينهم من يصلح لقيادتهم فى هذه الأيام القاسية^(٣).

(١) قضاة ١٠: ٣-٥.

M. Noth, op.cit., p. 153.

(٢) قضاة ١٠: ٨-٩، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 157-158.

(٣) قضاة ١٠: ٩، وكذا:

وهكذا اتجهت الأنظار إلى «يفتاح الجلعادي»، وكان - كما تصفه التوراة - «جبار بأس وابن امرأة زانية»^(١)، وقيم في «طوب» مع عصاة من الأفاقيين، بعد أن طرده إخوته الشرعيون، فطلب إليه الإسرائيليون أن يأخذ القيادة في الحرب ضد العمونيين، فرضى يفتاح على شريطة أن يعين رئيساً على القوم، إن قدر له النصر، وجمع يفتاح الحرس الوطني من الجلعاديين عند «المصافة» - وهي رشوني الحالية على مبعدة أميال قليلة شمال غربي جلعاد - حيث يوجد «مذبح روح يهوه»، التي حلت في يفتاح^(٢).

ومن ثم فقد أصبح يفتاح قائداً معترفاً به على رأس الجلعاديين ضد العمونيين بل وقد تمكن من أن يخضعهم وأن يطردهم من جلعاد، وقد كان نصر يفتاح هذا نصراً حاسماً وصل إلى درجة أننا لم نسمع بعد ذلك عن أية مجهودات أخرى من جانب العمونيين لاحتلال أرض جلعاد، حتى أيام شاول، أول ملوك إسرائيل.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى عادة التضحية البشرية من عهد يفتاح هذا، حيث تحدثنا التوراة في سفر القضاة أن يفتاح إنما قد نذر للرب «إن دفعت بني عمون ليدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقاء عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون، يكون للرب وأصعده محرقة»^(٣)، وكما أشرنا من قبل، فإن الرجل عندما عاد من معركته منتصراً، فإن ابنته الوحيدة إنما كانت هي التي هبت للقاء، ومن ثم فقد اضطر أن يفنى بنذره، وأن يقدمها ضحية لإلهه «يهوه»، بعد عودته بشهرين اثنين^(٤).

وعلى أي حال، فإن التوراة إنما تذهب إلى أن الأفرائيمين إنما قد تمردوا على يفتاح لأنه لم يدعهم إلى الاشتراك في الحرب التي خاض

(١) قضاة ١١ : ١.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 158. وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 557.

(٤) قضاة ١١ : ٣٤-٤٠.

(٣) قضاة ١١ : ٣٠-٣١.

غمارها ضد بنى عمون ومن ثم فقد أعلنوا عليها حرباً، كتب له فيها النصر عليهم، بل وتذهب رواية سفر القضاة إلى أنه قد قتل منهم اثنين وأربعين ألفاً، وهكذا أصبح يفتاح حاكماً على البلاد بعد نصره على العمونيين، وبعد نجاحه فى صراعه ضد الأفرايميين - الذين ربما كانوا يطالبون بنوع من الزعامة على سائر أسباط بنى إسرائيل - واستمر يشغل منصب القاضى فى بنى إسرائيل - طوال ست سنين - حتى مماته (١).

١٠ - إيصان:

وقضى لبنى إسرائيل إيصان من «بيت لحم» (٢)، وتروى التوراة أنه «كان له ثلاثون ابناً وثلاثون ابنة» أرسلهن إلى الخارج، وأتى من الخارج بثلاثين ابنة لبنية، وقضى لبنى إسرائيل سبع سنين، ومات ودفن فى بيت لحم (٣).

١١ - إيلون الزبولونى:

وقضى لإسرائيل بعد إيصان عشر سنين، ومات ودفن فى أرض زبولون (٤).

١٢ - عبدون بن هليل الفرعتونى:

وقضى لإسرائيل بعد إيلون، وكان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً،

M. Noth, op.cit., p. 158.

(١) قضاة ١: ١، ١٢-١٧، وكذا:

(٢) بيت لحم: وتقع على مبعدة ٨ كيلاً إلى الجنوب من أورشليم، وكانت مدفن راحيل أم يوسف وبنيامين، وفيها مسكن نعى ويوعز وراعوث ومسقط رأس داود، ومدفن آل يواب، ثم فيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء والمولودة فى الناصرة إنما كانت هناك للاكتئاب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورية «هيلانة» فى حوالى عام ٣٣٠م. كنيسة هناك، فوق المغارة التى يظن أن المسيح قد ولد فيها، وهى أقدم كنيسة مسيحية فى العالم (انظر: تكوين ٣٥: ١٩، راعوث ١: ١٩، صموئيل أول ١٧: ١٢، صموئيل ثان ٢: ٢٢، متى ٢: ١٥، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٠٥-٢٠٦، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 140-141.

(٤) قضاة ١٢: ١١-١٢.

(٣) قضاة ١٢: ٨-١٠.

يركبون على سبعين جحشاً، وقضى لإسرائيل ثمانى سنين، ثم مات ودفن
فى «فرعتون»^(١) فى أرض أفرايم فى جبل العمالق^(٢).

١٣ - شمشون:

عاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عيني الرب، فدفعهم الرب ليد
الفلسطينيين أربعين سنة^(٣)، وقد برز خلال هذه المرحلة «شمشون بن
متوح» من سبط دان، من «صرعه» - وتقع على الضفة الشمالية من وادى
سورق (وادى الصرار) على مبعده ١٤ ميلاً غرب القدس^(٤) - وصار قاضياً
على إسرائيل عشرين سنة^(٥).

ويبدو أن شمشون البطل المارد - كما يقول جيمس فريزر - كان ذا
شخصية غريبة بين قضاة بنى إسرائيل الكبار، وقد ذكر الكتاب المقدس أن
شمشون كان يشغل منصب القاضى فى بنى إسرائيل طيلة عشرين عاماً،
ولكنه لم يذكر شيئاً عن أحكامه القضائية التى أصدرها وفقاً لشخصيته
القضائية، وإذ كان لنا أن نصدر حكماً على فحوى أحكام شمشون من
خلال طبيعة أفعاله، فإنه يحق لنا أن نتشكك إذا كان هذا الرجل يعد مفخرة
فى تاريخ القضاء الإسرائيلى ذلك أن موهبته كانت كثيراً ما تتمثل فى
إحداث الشغب، والعراك وفى إحراق مؤن الذرة التى يخبئونها الناس، وفى
كثرة التردد على بيوت الدعارة، أى أن شمشون كان يبدو فى شخصية
الطليق الفاجر الخليع، أكثر مما كان يبدو فى شخصية القاضى الكفء
الصارم^(٦).

(١) فرعتون: وهى فرعانة الحالية، على مبعده سبعة أميال ونصف الميل جنوبيغربي شكيم (نابلس).
(انظر: قاموس الكتاب المقدس ٦٧٦/٣).

(٢) قضاة ١٢: ١٣-١٥.

(٣) قضاة ١٣: ١. (٤) قاموس الكتاب المقدس ٥٤٢/٢. (٥) قضاة ١٥: ٣١.

(٦) جيمس فريزر، القولكلور فى المهد القديم، الجزء الثانى، ترجمة نبيلة إبراهيم، القاهرة،
١٩٧٤م، ص ١٣.

ومن ثم فنحن لن نعالج قائمة جافة من الأحكام القانونية، وإنما مغامرات مسلية غير لائقة في الحرب والحب، ذلك أننا إذا قبلنا الحكايات التي دوت في سفر القضاة عن هذا الطائش الفاجر - ونحن ملتزمون بها دون شك، لأننا لا نملك غيرها - فإننا نجد أنه لم يقم قط بحرب نظامية، كما لم يقم بعصيان وطني مسلح ضد الفلسطينيين الذين استذلوا قومه، وإنما كان يقوم بمجرد هجوم مفاجئ عليهم بوصفه الفارس المتجول، ثم يضربهم بفك حمار، أو بأي سلاح آخر يقع في يده، وحتى في هذه الغارات التي كانت تقوم على السلب والنهب إذ أنه لم يتورع في أن يسلب ضحاياه من ملابسهم، ومن المحتمل من ثروتهم كذلك، فإن فكرة تخليص قومه من العبودية - كما يتضح من كل الشواهد - آخر ما يتراءى له، وباختصار فإن قصته من بدايتها حتى نهايتها إنما هي قصة مغامر مخادع، تحركه ثورات عاطفية جامحة، ولا يكثر بشيء سوى إرضاء نزواته الوقتية^(١).

وإذا ما رجعنا إلى قصته - كما تقدمها التوراة في الإصحاحات من الثالث عشر إلى السادس عشر من سفر القضاة - لرأينا فيها الكثير من المبالغة والخيال فضلاً عما تقدمه عن شخصية صاحبها، وما فيها من عورات، إلى جانب الكثير من الأساطير التي تدور حول قوته الخارقة، فهو مرة يهجم على أسد فيشقه كشق الجدى، وليس في يده شيء^(٢)، وهو مرة أخرى يحرق محاصيل الفلسطينيين بأن يطلق عليها ثلاثمائة ثعلب (ابن آوى)، ربطت بالمشاعل في أذيالها، فتحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون^(٣)، وهو مرة ثالثة يهجم على الفلسطينيين فيقتل منهم ألف رجل معظم من فك حمار ميت^(٤).

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٣-١٤. (٢) قضاة ١٤: ٥-٦.

(٣) قضاة ١٥: ٤-٥. (٤) قضاة ١٥: ٥-١٧.

وهو مرة رابعة يدخل عند امرأة زانية فى غزة، ويعرف بذلك أهل المدينة من قومها، فيعدون كميناً لقتله عند باب المدينة، ولكن شمشون يقوم فى نصف الليل، فيأخذ «مصراعى باب المدينة والقائمتين وقلعهما مع العارضة ووضعهما على كفتيه، وصعد بهما إلى رأس الجبل الذى فى مقابل حبرون»^(١).

ونقرأ فى الإصحاح السادس عشر من سفر القضاة، عن قصة شمشون ودليته، وكيف وقع فى حبها وأسلم لها زمام قيادته، حتى قادتة آخر الأمر إلى السجن بعد أن قصت شعره الذى يكمن فيه سر قوته، إذ «لم يعلو رأسه موسى، لأنه نذير الله من بطن أمه، فإن حلق شعره تفارقه قوته، ويصبح كأحد الناس» غير أنه سرعان ما يستعيد قوته بعد أن نبت شعره، فيقتل من الفلسطينيين ثلاثة آلاف قد اجتمعوا فى بيت إلههم «داجون»^(٢).

وهكذا تبدو روايات التوراة عن شمشون، وكأنها من نوع القصص الشعبى، أو الفولكلور البدوى، وحتى فى هذا فهى ليست أصيلة، وإنما هى تقليد لأساطير شرقية، وأخرى غربية، فملا نرى أن العبريين إنما كانوا يعتقدون أن قوة شمشون المهولة إنما كانت تكمن فى شعره، وأن مجرد حلق خصلات شعره الطويلة الشعشاء التى كانت تتدلى على كفتيه - ولم تخلق منذ نعومة أظافره - إنما كان كافياً لأن يسلبه قوته الخارقة للعادة، ومن ثم يصبح عاجزاً عن القيام بأعماله البطولية، وهذا الاعتقاد فى أن بعض الأحياء من الرجال والنساء، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقدون فى امتلاكهم لقوة خارقة للعادة مثل شمشون، ينتشر فى جهات كثيرة من أنحاء العالم، كما فى جزيرة «أمبوين» من جزر الهند الشرقية وغيرها^(٣).

(١) قضاة ١٦: ١-٣.

(٢) قضاة ١٦: ٤-٣٠.

(٣) انظر: جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ١٦-٣٠.

وأيا ما كان الأمر، فالذى يقرأ قصة شمشون - كما ترويها التوراة - ليرى أموراً تدعو إلى العجب والتساؤل، إن لم يكن الاستنكار كذلك، فرغم أن شمشون كان بطلاً قومياً لليهود، مهمه الأولى الحفاظ على الكيان القومى لبنى قومه، فإنه يتزوج من امرأة فلسطينية من «تمنة» - وهى تبنة الحالية على مبعدة ثلاثة أميال جنوبى غربى بيت شمس. وفى ذلك مخالفة لمركزه كزعيم قومى، فضلاً عن مخالفته الصريحة لنصوص التوراة التى تحرم الزواج من غير الإسرائيليات، هذا إلى جانب أن فى ذلك عصياناً لوالديه اللذين رفضا هذا الزواج، ثم اضطررا إلى قبوله على غير رغبة منهما.

ثم هو نذير الرب من البطن إلى يوم موته، ومع ذلك فهو - طبقاً لرواية التوراة - إنما يقضى أجمل أوقاته بين أحضان الغوانى من نساء غزة الوثنيات وحين تتعرض حياته للخطر من جراء ذلك، فإذا به ينتقل إلى أحضان امرأة أخرى - فى وادى سورك تدعى دليلة تكون نهايته على يديها.

وهو مكرس لتحرير قومه اليهود من نير الفلسطينيين، ولكنه لا يخوض المعارك من أجل ذلك، وإنما كانت مغامراته كلها من أجل النساء، فقصة الأسد الذى أخذه بين يديه ففسخه وقتله، إنما كانت وهو فى الطريق إلى المرأة التى فى تمنة، مع ما فى ذلك من مخالفة لربه يهوه، ثم يقضى أوقاته معها فى الألفاظ والأحاجى، ثم يحرق محاصيل الفلسطينيين حين تؤخذ منه تلك المرأة غصباً، فيثور قومه اليهود على فعلته هذه، خوفاً من أن يأخذ الفلسطينيون بثأرهم منهم، فإذا بهم يوثقونه بحبلين ويسلمونه للفلسطينيين فتصوره التوراة، وكأن روح الرب قد حلت به فيقتل منهم ألف رجل، معظم من فك حمار ميت، وهو يقضى الليل إلى منتصفه عند امرأة زانية من غزة، وعند يحيط قومها به بغية التخلص منه فإذا به وقد أظهر كل قوته، وهو النذير الذى وضع سر قوته فى شعر رأسه، ولكنه لا يستطيع كتمان سره فيبوح به لدليله، وهو بين أحضانها فتكون نهايته المحزنة.

وهكذا انتهت حياة شمشون دون أن يغير من الأمر شيئاً، فلقد استمر الفلسطينيون أصحاب الكلمة العليا في البلاد، بفضل تفوقهم في السلاح وبراعتهم في استخدام الحديد، وفي صنع أسلحة الدفاع والهجوم، وهكذا أجبر الإسرائيليون على الخضوع للفلسطينيين، الذين تعودوا على الحياة الجبلية في مواطنهم الأصلية، ثم اقتفى الفلسطينيون آثار الإسرائيليين إلى المناطق القليلة الحصينة، التي لم يتمكن الكنعانيون - وكذا المصريون - من الوصول إليها.

ولقد كان لعظمة الأسلحة الفلسطينية - بما فيها من عجالات وتروس ضخمة مستديرة، وسيوف عظيمة ورماح ضخمة - التفوق على الأسلحة المتواضعة للساميين، مما كان له الأثر الواضح في إخضاع فلسطين، وتبين قصة «جالوت» (جليات) التأثير الشائع بين الإسرائيليين لمدى الأسلحة الضخمة لهؤلاء الذين أخضعوهم، وربما كان لامتلاك الأسلحة الأثر الطبيعي في النصر الكامل للفلسطينيين.

ومع ذلك لم يبذل الفلسطينيون أية محاولات للعمل على تأسيس مستعمرات فلسطينية في المرتفعات، وكانت «جت» أبعد مستعمراتهم في داخل البلاد على المنحدر الغربي، باستثناء اللد وزكلاج، وربما كان ذلك بسبب العداء الخطير للسكان العبرانيين المستقرين في الداخل، وربما لأن الغزاة الفلسطينيين فضلوا أن يؤسسوا مدنهم في أماكن قريبة من البحر، والتي يمكنهم عن طريقها أن يسيطروا على الطرق البحرية وتلال الكروم، ثم الأراضي المرتفعة الداخلية^(١).

١٤ - عالي الكاهن:

وفي حوالي عام ١٠٥٠ ق.م، أصبح عالي الكاهن قاضياً لإسرائيل في

R. Hall, op.cit., p. 115-116.

(١)

O. Eissfeldt, op.cit., p. 558, 570-71.

وكذا:

«شيلوه»، ولمدة ٤٠ سنة^(١)، لم يستطع بنو إسرائيل أثناءها أن يوقفوا قوة الفلسطينيين، ومن هنا اضطر الإسرائيليون أن يناضلوا من أجل حريتهم ومن أجل عقيدتهم، وبدأت القبائل تضطر لحسم الخلافات الداخلية، وأن تتحد كجبهة داخلية، وقد أدى هذا النضال، وأدى نجاحهم فيه، إلى قيام الملكية الإسرائيلية في فلسطين، بعد أيام عالي الكاهن، وفي أثناء حياة صموئيل النبي.

كانت أولى المعارك الكبيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين في «أفيق» - ومكانها الآن تل المخمر الحديثة، قرب رأس العين، وعلى مبعدة ١٥ كيلو متراً شرق حيفا - والتي أدت إلى الغزو الفلسطيني لأواسط الأرض، وهي المنطقة التي كان يشغلها سبطا أفرايم وبنيامين، ذلك أن الإسرائيليين إنما كانوا قد جمعوا قواتهم في «أفيق» في المجرى الأعلى لنهر العوج، الذي ينساب نحو البحر المتوسط شمالي يافا.

وتقع أفيق على الحدود الشمالية للمناطق الإسرائيلية، وهو مكان موافى للهرب في أى هجوم على جبال وسط فلسطين، التي ترتفع بالقرب من شرق أفيق، حيث استقرت القبائل الإسرائيلية الرئيسية فيها، ومثل هذا الهجوم من الواضح أنه كان هدفهم، ذلك لأن الفلسطينيين بالتأكيد هم الذين أخذوا زمام المبادرة، وقد أتموا - ومعهم جماعات من شعوب البحر الأخرى - السيادة على السهل الساحلى، الذى كانت تحتله دويلات المدن الكنعانية، ومن ثم فقد كانوا مضطرين لإخضاع القبائل الإسرائيلية، إذا ما رغبوا فى بسط سيادتهم على كل البلاد، وفي مواجهة هذا الخطر تجمع الإسرائيليون فى مكان يدعى «إينزير» Ebenezer على حافة الجبال فى مواجهة أفيق.

(١) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1953, p.104-108.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 571.

وكذا:

ومن المستحيل القول بالتأكيد، من اشترك فعلياً من الجانب الإسرائيلي، فربما كان المشتركون الأساسيون قوة الحرس الوطنى من قبيلة أفرايم، التى كانت أكثر القبائل تهديداً من أفيق، ولكن القبائل الإسرائيلية المجاورة فى جبال فلسطين الوسطى، لا بد وأنها قد ساهمت بقدر ما، كما ساهمت بعض القبائل الأخرى لمواجهة هذا الخطر^(١).

وقد بدا للإسرائيليين فى هلعهم أن النصر ضد هذا العدو الذى لا يقهر، لن يتحقق إلا عن طريق عون خارق للعبادة، ومن هنا فقد أحضروا معهم «التابوت» المقدس من «شيلوه»، ليضمنوا وجود ربهم بينهم^(٢)، ولعل وجود التابوت بين معسكر الإسرائيليين، يعنى أن كل تحالف للقبائل الإسرائيلية إنما كان موجوداً هنا ضد الفلسطينيين، وعلى قدر ما نعرف من القصة، فقد كانت المرة الأولى التى يتقدم فيها التحالف القبلى الإسرائيلى للدفاع عن إسرائيل، ولعل السبب فى ذلك أنها المرة الأولى التى يتعرض فيها الوجود الإسرائيلى ذاته للتهديد بقوة الفلسطينيين.

وفى الحقيقة فلقد كانت هناك معركتان ضد الفلسطينيين، وعندما فشلت الفرق الإسرائيلية التى اشتركت فى الدفاع عند «حجر المعونة» قريباً من المصفاة، فإنها سرعان ما استدعت كل تحالف القبائل الإسرائيلية استعداداً للجولة الثانية وجاءوا معهم هذه المرة بيتابوت عهد الرب، إذ «أرسل الشعب إلى شيلوه، وحملوا من هناك تابوت عهد الرب الجنود الجالس على الكروبيم، وكان هناك ابنا عالى حفى وفينحاس مع تابوت عهد الله»، وكان الهدف من وراء ذلك أن يعمل «يهوه» صاحب التابوت فى صفهم، وخاف الفلسطينيون من «هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات البرية»^(٣)

وهنا نادى مناد من الفلسطينيين، أن «تشددوا وكونوا رجالاً أيها

M. Noth, op.cit., p. 165-166.

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 571. وكنا:

(٣) صموئيل أول ٤ : ٤، ٨.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 14.

الفلسطينيون، لئلا تستعبدوا للعبيرانيين، كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالاً وحاربوا^(١)، وحارب الفلسطينيون بشجاعة الرجال، وكتب لهم النصر على أعدائهم الإسرائيليين، وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ تابوت الله، ومات ابنا عالي، حفنى وفينحاس، مما أثار فى نفوس بنى إسرائيل عظيم التشاؤم والذعر، وجعلهم يمزقون ثيابهم وينوحون فى كل بيت، ولما وصل الخبر إلى عالي الكاهن، «سقط عن الكرسي إلى الراء، إلى جانب الباب، فانكسرت رقبته ومات، لأنه كان رجلاً شيخاً وثقيلاً، وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة»^(٢).

وكانت نتيجة هذه الهزيمة مروعة، حتى أن النبی إرميا يقول - بعد أربعة قرون - «إن معبد شيلوه الذى كان مقر التابوت إنما قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦-٥٨٠ ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد»^(٣)، وفى كل الاحتمالات، فإن هذا الدمار، إنما قد قام به الفلسطينيون بعد انتصارهم فى «ابنزير» الذى أعطاهم الحيرة فى الهبوط إلى «شيلوه»، وبعد أن وقع التابوت نفسه فى أيديهم، فإنهم قد دمروا المعبد الذى كان مقراً له، وهاجر كهنة شيلوه إلى «نوب»^(٤) ويظن أنها على جبل المكبر، أى جعل سكويس، الذى يقع إلى الشمال الشرقى من القدس^(٥).

وهكذا دمر الفلسطينيون المعبد الرئيسى الذى كان يجمع القبائل الإسرائيلية جميعاً، كما أنهم أخضعوا قبائل بنى إسرائيل نفسها

(١) صموئيل أول ٩:٤.

(٢) صموئيل أول ١٨، ١١:٤.

(٣) إرميا ١٢:٧، ١٤، ٢٦، ٦، ١٩، وكذا:

W.F.Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 103F, 202.

M. Noth, op.cit., p. 166;

(٤)

H. Kjaer, in JPOS, Io, 1930, p. 87F.

وكذا:

(٥) قاموس الكتاب المقدس، ٩٨١/٢، (بيروت ١٩٦٧).

لسلطانهم^(١)، وأقاموا الثكنات العسكرية فى المناطق العبرانية، والنصب فى «جبعة بنيامين»^(٢) - وهى تل الفول التى تقع على مبعدة خمسة كيلو مترات شمالى أورشليم - وعلى أى حال فسواء أكانت هذه النصب تشير إلى حاكم، أو أنها فى أكثر الاحتمالات، إنما تشير إلى نصب تذكارى للنصر، فلقد أكد الفلسطينيون سيادتهم على أكثر مناطق إسرائيل أهمية^(٣).

وأيما ما كان الأمر، فلا بد أن الفلسطينيين قد احتلوا الجبال الرئيسية فى غرب الأردن، ونزعوا سلاح إسرائيل، حين منعوهم من صناعة أسلحة جديدة، وذلك عن طريق منع الإسرائيليين من العمل فى المعادن، حتى يجبروهم على الذهاب إلى الفلسطينيين لطلب ما يحتاجون من الأدوات الخاصة حتى بالاستعمالات الزراعية والسلمية الأخرى، وهكذا قوى الفلسطينيون امتيازاتهم السياسية عن طريق تفوقهم فى السلاح، وضعف أعدائهم فيه، بل منعه عنهم، هذا فضلا عن القضاء على فكرة الثورة بين الإسرائيليين^(٤).

M.Noeth, op.cit., p. 166-167.

(١)

H. Kjeaar, The Excavation of Shilo, in JPOS, Io, 1930, p. 50.

وكذا:

(٢) صموئيل أول ١٠: ١٣، ٥: ٣.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 572.

(٣)

A. Lods, op.cit., p. 350.

وكذا:

O.Essfeldt, op.cit., p. 571.

(٤) صموئيل أول ١٣: ١٩-٢٢، وكذا:

وكذا:

G.E.Wright, Isamuel 13: 19-22, in Biblical Archaeologist, 6, 1943, p. 33F.

الباب السابع

الملكية الإسرائيلية

الفصل الأول

قيام الملكية الإسرائيلية

يرى «شتاده» أن إسرائيل لم يقدر لها يوماً أن تبسط سلطانها على الضفة الغربية من الأردن، ذلك لأن الشاطئ - فيما عدا شقة ضئيلة - ظل في أيدي الكنعانيين، الذين كانوا في فترة الخروج من مصر شعباً منظماً، ناجحاً مسيطراً على التجارة، بل إن التأثير الثقافي والمادى لمدن عكا وصور وصيدا، على الأقاليم الداخلية، بلغ حداً يعوق دون انتصااص الكنعانيين بواسطة المهاجرين الإسرائيليين، ويعوق بالتالى تكوين حلف من أسباط إسرائيل وقبائلهم في الشمال^(١).

ومن هنا فقد كان الكنعانيون في ناحية، والفلسطينيون في ناحية أخرى، يضعفون بنى إسرائيل بين شقى الرعى، كذلك كان المديانيون والمؤابيون والعمونيون والآراميون لا يكفون عن الإغارة على حدود إسرائيل، وكانت الفرقة حينئذ تمزق إسرائيل من الداخل، وفي ختام الألف الثانية قبل الميلاد كانت إسرائيل في اضمحلال يكاد يكون تاماً^(٢).

ومن هنا كان لابد أن يتطلع بنو إسرائيل إلى الوحدة وأن يعتصموا بها، وإلا ذهبت ربحهم وطردهوا من فلسطين، كان يحب القضاء على القوضى الضارية أطنابها بين بنى إسرائيل وتحقيق الوحدة، كان غير مجد للتفكير فى الحفاظ على البلاد من غارات الشعوب المجاورة، طالما كان كل سبط مكتفياً بالحفاظ على كيانه، ويصد أعداءه وقتياً، دون أن يبالى بحالة الأسباط المجاورة، فضلاً عن حالة البلاد بصفة عامة، كان يجب أن تكون إسرائيل شعباً واحداً تحفزه غيرة مشتركة نحو استقلاله واستقامته^(٣).

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٤٧، وانظر:

B. Stads, Geschichte des Volkes Israel, Berlin, 1887.

(٢) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤١، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 570.

(٣) ف. ب. ماير، حياة صموئيل النبى، ترجمة القس مرقس دارد، القاهرة ١٩٦٧، ص ٦٥.

وهكذا تجمعت العوامل الضرورية لقيام الملكية الإسرائيلية، والتي كان منها (أولا) ضغط الفلسطينيين على الإسرائيليين والذي كان واحداً من أقوى العامل لتجميع قوى بنى إسرائيل، وإنشاء مملكة، وتنصيب ملك عليهم ومن ثم فقد اهتبل الإسرائيليون فرصة اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا لهم مملكة، وربما كان الأصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الإسرائيلى من أساسه، إنما كان هو السبب فى قيام الملكية الإسرائيلية.

ومنها (ثانياً) أن الإسرائيليين إنما كانوا يعيشون بين أقوام يحكمون بملوك، فالآدوميون والعمونيون والمؤابيون كان لهم ملوك، والفلسطينيون كان لهم أقطاب أشبه بالملوك، كما كان للفينيقيين ممالك مدن، مما دفع بنى إسرائيل إلى المطالبة بملك يحارب حروبهم، ويكون لهم قاضياً كذلك.

ومنها (ثالثاً) أن الكهنوت الإسرائيلى إنما كان قد تسلمته أياد ضعيفة منذ أيام «فينحاس»، وما يؤيد هذا أن «عالى» لم يكن من بيت «اليعازر» الابن الأكبر لسيدنا هارون عليه السلام، والذي يجب أن تستمر الخلافة فى نسله، بل من بيت الابن الأصغر «إشعار».

ومنها (رابعاً) أن ولدى «عالى»، «حبنى» و«فينحاس»، لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقذر أنواع العبادة الوثنية وسط غابات وكروم «شيلوه»، ذلك أن الطقوس الشهوانية الدنسة، إنما كانت تمارس فى الأعياد الوثنية منذ القدم، ولكنها لم تكن تدنس الكهنة من نسل هارون، غير أن هذين الشابين إنما قد تسفلا جداً، حتى أنهما - رغم أنهما كانا متزوجين - لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتى كن يترددن على المعبد المقدس، للقيام بالخدمات التى كانت تتطلب عملاً يليق بالنساء^(١)، وسمع «عالى» بكل ما فعله بنوه بجميع بنى إسرائيل، وبأنهم كانوا يضاجعون

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢، ٣٥.

النساء المجتمعات فى خيمة الاجتماع^(١)، ولكنه بدلا من إعلان الغضب الشديد، والتهديد العنيف اكتفى بهذا التوبيخ اللطيف، «فقال: لماذا تعملون هذه الأمور، لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب، لا يبنى، لأنه ليس حسنا الخبر الذى أسمع، تجعلون شعب الرب يتعدون»^(٢).

ومنها (خامسا) أن الإسرائيليين ربما كانوا على علم بمحاولات سابقة عن قيام ملكية إسرائيلية، كما حدث على أيام جدعون وولده أبيمالك، ومنها (سادسا) أن هناك نصا فى التوراة يجعل الحكم فى إسرائيل ملكيا، إذ جاء فى سفر التثنية، متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت اجعل على ملكا كجميع الأمم الذين حولي، فإنك تجعل عليك ملكا، الذى يختاره الرب إلهك، من وسط إخوتك تجعل عليك ملكا، لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخاك^(٣)، ومن ثم فالملكية الإسرائيلية إذن هى: هبة من «يهوه» رب إسرائيل لشعبه إسرائيل^(٤).

ومنها (سابعا) التهديد العمونى لحدود إسرائيل الشرقية، ولعل هذا السبب بجانب التهديد الفلسطينى وتدميره الكثير من المدن الإسرائيلية - إنما كان السبب المباشر لقيام الملكية الإسرائيلية، ذلك لأن الملأ من شيوخ إسرائيل إنما كانوا فى خوف شديد، من أن يتفوق القوم مرة أخرى بعد موت «صموئيل النبى»، بخاصة وأن ولديه «يوئيل وأيبا» اللذين كانا قد اختارهما لمساعدته فى أقصى حدود المملكة من الجنوب فشلا فشلا ذريعا فى مهمتهما، «فلم يسلكا فى طريقه، بل مالا وراء المكسب وأخذوا رشوة

(١) صموئيل أول ٢: ٢٢.

(٢) صموئيل أول ٢: ٢٣-٢٤.

(٣) تثنية ١٧: ١٤-١٥.

(٤) S. Mowinckel, General Oriental and Specific Israelite Elements in the Israelite Conception of the Sacral Kingdom, 1959, p. 66.

وعوجاً للقضاء^(١)، وهكذا أدى التهديد الخارجى، والاضطراب الداخلى، إلى أن يضطر شيوخ إسرائيل إلى الاجتماع، والمطالبة بتتويج ملك على شعب إسرائيل.

وعلى أى حال، فإن تأسيس الملكية الإسرائيلية، إنما يعد بداية تاريخ الأمة الإسرائيلية، حيث أخذت صفات قومية واضحة تتكون لديهم احتفظوا بها وبفرديتهم، وقد ساعدتهم على الاتحاد والتعاون، وزادت من تصرفهم فى شعورهم القومى، ذلك لأن عصر القضاة كان قد مضى، ولم يصبح بعد للإسرائيليين إلا شبه ظل من سلطان ضئيل فى فلسطين، ولم تستطع فيه واحدة من القبائل، إلا أن تدافع بمشقة على ما استولت عليه من قطعة أرض صغيرة.

هذا فضلا عن أنه لم يكن واحد من هؤلاء القضاة بقادر على أن يسطر سلطانه على كل بنى إسرائيل، وإنما كان يتسلم قيادة زمرة واحدة عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة، ذلك لأن مهمة القاضى إنما كانت تنتهى بانتهاء الضائقة الخاصة التى استدعت وجودها، ولم تدم إلا فى حالتين أو ثلاث حالات، إذا دعت إلى بقائها أعمال بارزة قام بها القاضى، كما حدث فى حالتى دبورة وجدعون.

ومع ذلك، فإن هذه الملكية الإسرائيلية الجديدة لم تستقر إلا على أسس مقتبسة من الخارج، فضلا عن أن الإسرائيليين إنما قد ظلوا محتفظين بالنظام القبلى فيما يختص بالشئون الإدارية، كما يبدو أن الإسرائيليين كانوا مكرهين بحكم الظروف على أن يتجهوا هذا الاتجاه، فلقد صورت لنا التوراة قبائلهم مترددة بين الحرية القديمة وبين الزعامة الجديدة، كانت تعز عليها حرية البدو القديمة، ويدفعها الخوف من العدو بالرضى بالأمر الواقع، يظهر

(١) صموئيل أول ٨: ١-٣.

هذا واضحًا من تحذيرات النبي صموئيل من الأضرار التي تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد.

هذا فضلًا عن أن هذه الملكية الإسرائيلية تكاد لا تملك شيئًا - باستثناء الاسم - مع الحكم الملكي للمدينة الكنعانية وفرسانها الشجعان الذين يمتطون العربات الحربية، كما أن نظام الحكومة الفلسطينية المؤسس على جيش محترف، وعلى نظام الجيوش المرتزقة، والذي أثبت فاعليته كعامل هام في الصراع ضد الإسرائيليين، لا يمكن تقليده في ليلة واحدة^(١).

كان صموئيل النبي، هو الذي اتخذ الخطوة الأولى لقيام الملكية في إسرائيل، كان نبيًا كبقية الأنبياء الجوالين الذين عهدناهم من قبل، والذين كانوا يحملون لقب «الرائي»، قبل أن يظهر لقب «النبي»^(٢)، ولكنه كان يمتاز عن تقدموه بشخصيته ومظهره^(٣)، به بدأت فكرة النبوة في بني إسرائيل^(٤) في التبلور بشكل واضح، كما تتحدد صفات النبي في مفهومهم، وهي صفات زعامة سياسية ودينية امتدادًا للقضاة، وإن كانت لا تسعى إلى تسلم مقاليد الحكم رسميًا، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبي^(٥)، ومن هنا فلم تكن عند «صموئيل» النية في إقامة ملك مستقل حقيقة، بل كان كل ما يريجه أن يكون قائدًا حربيًا وزعيمًا وسندًا لكل الشعب يخلصهم من

(١) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 179.

(٢) صموئيل أول ٩: ٩، وانظر: م. ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة حسن ظاظا، بيروت، ١٩٦٧، ص ٩-١٨.

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، ص ٢٥٥.

(٤) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «تطور فكرة النبوة عند بني إسرائيل» وذلك في كتابه «النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل»، الإسكندرية، ١٩٧٨ م.

(٥) حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة ١٩٧١، ص ٤٠.

الفلسطينيين، ثم بعد ذلك يخضع لصموئيل طوال حياته^(١).

وهكذا كان «صموئيل» هو الوسيلة لقيام الملكية في إسرائيل، ورغم ذلك نراه يتردد كثيراً في إجابة شيوخ إسرائيل إلى ما يطلبونه، بل «لقد ساء الأمر في عيني صموئيل»، وهنا تحدثنا التوراة أن الرب إنما خاطبه قائلاً: «اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك، بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم»^(٢).

وأندر صموئيل الملاً من قومه بغضب الرب، إن هو رضى فملك عليهم ملكاً، ذلك أنه كان منتظراً أن تظهر في ملوك إسرائيل كل مظاهر البذخ والإسراف التي كانت تقترب بها حياة الملوك السابقين، فضلاً عن المجاورين لهم من الأمم التي لها ملوك، كان منتظراً أن يسخروا الشباب لصنع الأسلحة وحملها، والاشتباك في الحروب، وخدمة العرش، وكان منتظراً كذلك أن يسخروا بنيتهم لفلاحة أراضيهم، وأن يأخذوا من بناتهم وزوجاتهم «عطارات وطباخات، وخبازات»، وكان منتظراً أن تفرض الضرائب الثقيلة على الحقول والكروم وحتى البهائم والغنم^(٣).

ولكن احتجاج صموئيل كان عديم الجدوى، فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل، وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب، ويقضى لنا ملكنا، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا^(٤) واضطر صموئيل أن يخضع لإرادة شعب إسرائيل وأن يتكلم به في أذني رب إسرائيل، فقال الرب: اسمع لصوتهم، وملك عليهم ملكاً، فقال صموئيل لرجال إسرائيل: اذهبوا كل واحد إلى مدينته^(٥)، ثم سرعان ما ينتهي الأمر إلى اختيار «شاؤل بن قيس» من سبط بنيامين، ملكاً على إسرائيل، كما سوف نرى في الفصل التالي.

(١) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 424.

(٢) صموئيل أول ٨: ٦-٧. (٣) صموئيل أول ٨: ١٠-١٥.

(٤) صموئيل أول ٨: ١٩-٢٠. (٥) صموئيل أول ٨: ٢١-٢٢.

الفصل الثانى

شاؤل (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م.)

(١) اختيار شاؤل ملكاً:

يحكى الإصحاحان التاسع والعاشر من سفر صموئيل الأول: قصة اختيار «شاؤل بن قيس بن أيثيل بن صرور بن بكورة بن أفيج»، من سبط بنيامين ملكاً على إسرائيل، من قبل النبى صموئيل.

وقد وصف «شاؤل» فى التوراة بأنه «شاب وحسن، ولم يكن فى بنى إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب، وقد كان أن ضلت «أتن» أبيه، فأرسل معه غلامه ليبحث عنها، فلما بعدا عن خيام قبيلته بنيامين وأرضها، ودخلا فى أرض «سوف» فيما وراء حدود بنيامين، أيقنا أنهما ضلّا الطريق، وطلب شاؤل من تابعه وفتاه أن يعودا، «لئلا يترك أبى الأتن ويهتم بنا» ولكن تابعه إنما أشار عليه أن يتقدما إلى صموئيل ليسألاه أن يدلّهما على الطريق^(١).

وهنا كان اللقاء الأول بين شاؤل وصموئيل، فى مكان غير مسمى فى مجاورات «جبعة»، حيث مسح صموئيل الرأى باسم «يهوه» شاؤل رئيساً على ميراثه إسرائيل، ثم استدعى صموئيل الشعب فى «المصفاة» - على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الشرقى من أورشليم - حيث أعلن اختيار الربّ لـشاؤل، ووافق المجتمعون على هذا الاختيار، إلا ما كان من أمر «بنى بليعال» الذين ازدروه، «وقالوا: كيف يخلصنا هذا فاحتقروه، ولم يقدموا له هدية فكان كأصم»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد تعرض

(١) صموئيل أول ٩: ١-١٠.

(٢) صموئيل أول ١٠: ١١-٢٧.

لقصة اختيار «شاول» (طالوت في القرآن الكريم) ملكاً على بني إسرائيل، حيث يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا، فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ، وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (١).

وفي الواقع فإن اختيار شخص بالذات ليكون ملكاً على إسرائيل ليس أمراً سهلاً، ذلك لأن اختياره من إحدى القبائل القوية إنما كان فيه ما فيه من مساس بقدر القبائل الأخرى، وقد يشير حرباً أهلية، هذا إلى أن المعارك الأخيرة - والتي دارت رحى الحرب فيها بين الإسرائيليين والفلسطينيين - إنما قد حطمت من قوة «أفرايم» إلى حد كبير - وهي القبيلة التي كانت

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٦-٢٤٨؛ وانظر: تفسير الطبري ٢٩١/٥-٣٣٨، (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٧)؛ تفسير روح المعاني ١٦٦/٢-١٦٨؛ في ظلال القرآن ٢٦٦/٢-٢٦٩، (بيروت ١٩٧٢)؛ تفسير القرطبي، ص ١٠٥٨-١٠٥١، (دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير الكشاف ٣٧٩-٣٧٨/٦، (دار الكاتب العربي، بيروت)؛ تفسير الفخر الرازي، ١٨١/٦-١٩٢٥، (المطبعة البهية، القاهرة ١٩٣٨)؛ تفسير الطبرسي، ٢٧٥/٣-٢٧٩، (دار الكاتب العربي، بيروت)؛ تفسير الفخر الرازي، ١٨١/٦-١٩٢، (المطبعة البهية، القاهرة ١٩٣٨)؛ تفسير الطبرسي، ٢٧٥/٣-٢٨٤، (بيروت ١٩٦١)؛ تفسير القاسمي، ٦٤٧-٦٤١/٣، (طبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٧)؛ تفسير وجدي، ص ٥٠-٥١، (دار الشعب، القاهرة ١٩٦١)؛ تفسير الجلالين، ص ٤٣-٤٤، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير المنار، ٣٧٢-٣٧٢/٢، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣)؛ تفسير ابن كثير ٤٤٣/١-٤٤٦، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١).

سنادتها حتى تلك الفترة لا نزاع عليها - هذا فضلا عن أن اختيار واحد من بين أبناء القبائل الأرستقراطية إنما كان أمراً لا يقبله الآخرون بسهولة^(١).

ومن هنا كان اختيار «شاول» موقفاً، فبالإضافة إلى مميزاته الجسمانية - وكذا العلمية، كما جاء في القرآن الكريم - فقد كان من سبط «بنيامين» أضعف الأسباط الإسرائيلية، مما لا يسبب له حقداً من الأسباط الأخرى^(٢) ذلك أن التوراة إنما تتحدث - في الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادى والعشرين من سفر القضاة - عن حرب استعر آوارها بين سبط بنيامين والأسباط الأخرى، مما أدى إلى قتل جميع أبناء بنيامين أو يكاد، ثم قدمت الأسباط على ما فعلت، فأباحت لهم الزواج، وسمحت البقية الباقية منهم بالعودة إلى مناطقهم الأولى، ورغم ما فى القصة من مبالغات لا يقبلها عقل، وربما اصطنعت لتضيق سبطاً من الأسباط، وتقضى عليه بالفناء، ورغم ما فيها من تضارب قد يجعلها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة التاريخية^(٣)، فالذى لا شك فيه أن سبط بنيامين إنما كان واحداً من الأسباط الضعيفة فى بنى إسرائيل، هذا فضلا عن أن خيامه إنما كانت تقع بين أفرايم ويهوذا، أى أنها تقع فى مكان وسط إلى حد ما بين القبائل الشمالية والجنوبية.

وهكذا يبدو واضحاً أنه ليس صحيحاً ما ذهب إليه الحاخام الدكتور «أيشتين» من أن اختيار «شاول» ملكاً على إسرائيل، إنما كان نتيجة رضى عام من بنى إسرائيل، كما أنه إنما يعتبر أول ملك دستورى فى التاريخ^(٤)، ذلك لأن الأحداث التاريخية لا تتفق وما ذهب إليه «أيشتين»، فالإسرائيليون لم يختاروا شاول، وإنما كان ذلك من صموئيل النبى، اعتماداً على سلطته

(١) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 179.

(٢) W. Keller, op.cit., p. 179.

(٣) انظر كتابنا: إسرائيل، ص ١٣٢-١٣٤، (القاهرة ١٩٧٣).

(٤) I. Epstein, op.cit., p. 35.

الكهنوتية حيث فرضه على الشعب كممثل معتمد لرب إسرائيل، هذا فضلا عن القوم لم يقبلوه جميعاً، فلقد رفضه «بنو بليعال» - كما رأينا من قبل - بل إنهم، على حد تعبير التوراة «قد احتقروه ولم يقدموا له هدية»، كما أن اختياره كان تجنباً للحرب الأهلية التي كان من الممكن أن تنشب بين القبائل القوية، لو وقع الاختيار على واحد من أبناء الواحدة دون الأخرى، ومن هنا كان اختياره من أضعف أسباط بني إسرائيل.

وأما أن «شاول» كان أول ملك دستوري في التاريخ، فمبلغ علمي أن الأمر لم يكن كذلك، ذلك أننا لو تذكرنا أن اختياره إنما كان قد تم في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد - أى قبيل الألف الأولى بأعوام قلائل - وتذكرنا فى الوقت نفسه أن هناك مبادئ ديمقراطية، قد بدأت فى العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، وربما بما فيهم النساء كذلك^(١).

هذا فضلا عن أن مصر الفرعونية، إنما قد عرفت منذ النصف الثانى من الألف الثالثة قبل الميلاد، أنماطا من الديمقراطية ومن العدالة الاجتماعية، هبطت كثيرا بالملكية المصرية من عليائها، حتى أصبح الملك يوصف، بأنه ليس أكثر من «ابن امرأة من تاستى، طفل من خن نخن»^(٢) مرة، وبأنه «ابن الإنسان» مرة أخرى، لإقناع القوم بأن حاكمهم ليس من بيوت الإمارة والملك، وإنما هو من الشعب، وريب الشعب، وصديق الشعب^(٣).

(١) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، ص ٢٥٢؛ محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ١٧٨-١٧٩، وكذا:

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, JNES, II, 1943, p. 165, no. 35.

(٢) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, p. 120.

(٣) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، ص ٢٠٢، (الإسكندرية ١٩٦٦)، أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، ص ١٢٠.

بل إننا نرى في هذا العصر - عصر الثورة الاجتماعية الأولى في مصر
الفراعنة - واحدا من الناس، يتهم الفرعون الجالس على العرش وقت ذاك،
بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التي عمت البلاد، ثم سرعان ما يبلغ به
العنف أشده، فيتمنى للفرعون أن يذوق من البؤس ما يذوق غيره من الناس
فيقول: «ليتك تذوق هذا البؤس بنفسك»^(١) ومع ذلك فلم ينزل الملك
عقابه بهذا الناقد الجريء؛ وإنما كان رده أنه حاول حماية شعبه بالوقوف في
وجه الأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد، وهكذا سمحت روح
الديمقراطية في مصر في ذلك العصر، بأن يتقدم رجل من العامة بمثل هذا
النقد القاسي للملك^(٢).

وهكذا كان القوم في مصر يعتقدون في عصر الثورة الاجتماعية
الأولى، أن يكون الجالس على العرش رجلا يخدم مصالح الدولة ويرعى
شئونها، ويعمل على وحدتها، رجلا يمتلي قلبه بحب رعاياه، والرغبة في
العمل من أجل مصالحهم، ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب،
وأصبحت تحس بإحساسه، وتهتم به وتتفانى في خدمته^(٣).

وهكذا ففي الواقع أننا لو تذكرنا ذلك كله، لتبين لنا أن ما ادعاه
الحاخام «أيشتين» من تمجيد لقومه اليهود، إنما كان ادعاء عريضا إلى حد
كبير.

هذا وقد اختلف العلماء في فترة حكم شاول، فهناك من يرى أنها
إنما كانت في الفترة (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م)^(٤)، ومن يرى أنها في الفترة
(١٠٣٠-١٠٤ ق.م)، ومن يرى أنها في الفترة (١٠٢٥-١٠١٣ ق.م)،

J. A. Wilson, ANET, p. 415.

(١)

J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 115-116.

(٢)

(٣) محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 575.

(٤)

W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 120.

وكذا:

ومن يرى أنها فى الفترة (١٠٠٠-٩٨٥ ق.م)، ومن يرى أنها فى الفترة (١٠٢٠-١٠٠٤ ق.م) (١).

(٢) شاول والعمونيون :

وأيا ما كان الأمر، فإن أول عمل مارسه شاول، إنما كان زحفه على «ناحاش» ملك عمون، ذلك لأن الملك العمونى إنما كان قد زحف على «ياييش جلعاد» (٢) فى شرق الأردن، حيث كان يقيم هناك فريق من بنى إسرائيل، ولعل السبب فى ذلك أن ظروف إسرائيل وقشذ قد شجعت جيرانها على توسيع حدودهم على حسابها، ومن ثم فقد اهتبل العمونيون الفرصة، واحتلوا أرض جلعاد القديمة، جنوب ييوق، ثم تخطوها شمالا حيث احتلوا مدينة «ياييش» وربما كانت قاعدة من قبيلة منسى، فى الأرض التى تحتلها الآن عجلون الواقعة فى منطقة وادى ياييش، بنفس الإسم الذى كان يحمله اسم المدينة القديمة (٣).

ونقرأ فى التوراة أن أهالى ياييش كانوا من الضعف بدرجة لا يستطيعون معها الدفاع عن أنفسهم، وحين طلبوا من ملك عمون أن يؤمنهم على

(١) Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959, p. 81.

I. Epstein, op.cit., p. 35. وكذا:

W. Keller, op.cit., p. 181. وكذا:

وانظر: فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) ياييش جلعاد : ومكانها الآن «تل أبو خرز» شمال وادى «ييش» ، على مبعدة خمسة كيلو مترات شرق الأردن، وقد وضعها «زليسن جلوك» على مبعدة عشرة أميال إلى الجنوب الشرقى من «بيت شان» ورأى «روينسون» أنها فى مكان خرائب الدير فى وادى «ييش» ، وقد أطلق عليها المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» عاصمة جلعاد. (قاموس الكتاب المقدس، ١٠٤٣/٢) ، وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 572.

M.F. Unger, op.cit., p. 546. وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 572. (٣)

M. Noth, op.cit., p. 167. وكذا:

أنفسهم، في مقابل أن يكونوا له عبيدا، رفض طلبهم بازدراء، إلا أن يوافقوا على تقوير كل عين يمنية لهم؛ وجعل ذلك عارا على جميع إسرائيل وهنا طلبوا مهلة سبعة أيام يبحثون فيها طلب النجدة من القبائل الإسرائيلية^(١)، والأمـر هنا في غاية الغرابة، إذ كيف يتركهم «ناحاش» حتى ترسل لهم النجدة من إسرائيل ؟ أكان ذلك نتيجة استخفاف «ناحاش» بإسرائيل ونجـدتها ؟ أم أنه وليد خيال كاتبى التوراة ؟ لسنا ندرى على وجه التحقيق.

وعلى أى حال، فالحادث - كما تقدمه التوراة - يصور على الأقل الموقف في شرق الأردن، فهو إنما يدل على أن العمونيين - رغم أنهم كانوا شعبا صغيرا - إنما كانوا مطمئنين إلى غلبتهم على الإسرائيليين، وهو يدل كذلك على عجز المستوطنين من سبطى منسى وإفرايم بـشرق الأرض، وهو يدل أخيرا على أن قوة الإسرائيليين قد شلتها تماما يد الفلسطينيين، وإن كانت تدل كذلك على أن نفوذ الفلسطينيين لم يمتد حتى بلاد شرق الأردن.

وتستطرد التوراة في روايتها، فتذهب إلى أن شاول ما أن يسمع بمحنة الأهالى في شرق الأردن - وبخاصة في يابيش جلعاد - حتى يستنفر إسرائيل، التى لبث نداء وجمعت جيشا كبيرا في «بازاق» - وهى خربة أبزق أو بزقة على مقربة من جازر، أو إبرق على مقربة من ترزة - على الطريق الهابط من شكيم إلى «بيت شان» فى مواجهة يابيش على وجه التقريب، وعند نقطة يمكن الوصول منها إلى وادى الأردن مباشرة، ثم تقدم إلى أبعد من عجلون، إذ كان «بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف» ورجال يهوذا ثلاثين ألفا^(٢).

وزحف شاول بهذه الجموع الغفيرة إلى جلعاد، وأحرز نصرا باهرا،

(١) صموئيل أول ١١: ١-٣.

(٢) صموئيل أول ١١: ٤-١١.

وخلص يابيش، غير أن هذه الرواية التوراتية إنما تقف في وجهها عقبات : إذ أنه من الصعوبة بمكان القيام بهذه الحملة الضخمة - والتي تضم ثلاثمائة وثلاثين ألفاً من المحاربين - في وقت كانت فيه السيادة الكاملة على كل البلاد - بما فيها مدينة شاول نفسه - للفلسطينيين، ولهذا فمن الصعب جداً أن يسمح الفلسطينيون للإسرائيليين بأن يجمعوا قوتهم، وأن يكونوا أمة متحدة^(١)، هذا فضلاً عن أن الفلسطينيين كانوا قد نزعوا من قبل سلاح القبائل الإسرائيلية جمعاء^(٢).

ولعل هذا هو الذي دفع «مارتن نوث» - أستاذ كرسي العهد القديم في جامعة بون - أن يحاول تقديم تفسير لذلك، ومن ثم نراه يذهب إلى أنه ربما لم تكن هناك حاميات فلسطينية، وبالتالي لا توجد إجراءات فعلية للسيادة الفلسطينية على الحدود الشرقية لجبال غرب الأردن، وكذا في بلاد شرق الأردن حيث وقع الحادث، ومن ثم فإن نزع السلاح لم ينفذ هناك فعلاً، هذا فضلاً عن أن الفلسطينيين ربما لم يكونوا مهتمين بالمنازعات التي كانت تقع بين شعوب فلسطين الأخرى، بل ربما كانوا راغبين في وقوع هذه المنازعات، بدليل أن قوة العمونيين لم تلق منهم ترحيباً حين ازدادت عن حدها^(٣).

(٣) تنويع شاول :

ونقرأ في التوراة أن المعركة مع العمونيين ما إن تنتهي، حتى يسرع صموئيل النبي، فيستدعي القبائل الإسرائيلية إلى مذيح الجلجال القديم لتنويع شاول ملكاً، لقد نودي به من قبل ملكاً في «المصفاة» وكان يجب أن يتوج في «الجلجال» - على مبعدة ميل وثلاث شرقى أريحا -، «فذهب كل

A. Lods, op.cit., p. 354.

(١)

G. Roth, op.cit., p. 145.

(٢) صموئيل أول ١٢ : ١٩-٢٣، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 170.

(٣)

الشعب إلى الجلجال وملكوا هناك شاول أمام الرب»^(١)، أى فى المعبد، ومع أن التتويج إنما قد تم فى المعبد، وفى جو من التكريس الدينى، فقد كانت إسرائيل تتصرف كشعب، ولم تعد كتحالف مقدس للقبائل^(٢).

وأما اختيار «مذبح الجلجال» مكاناً لاجتماع القبائل، فلأن هذا المذبح - بعد اختفاء المذبح السابق الذى انتهى بفقد التابوت وتدمير شيلوه - إنما كان المكان الصالح لعدة أسباب منها (أولاً) أنه المحراب القديم المشهور على الحدود بين أفرايم وبنيامين، ومنها (ثانياً) أنه دون شك مزار قبائل إسرائيل الوسطى، وربما سبق له أن قام بدور المحراب الإسرائيلى المركزى لفترة ما، ومنها (ثالثاً) أن موقعه إنما كان موقعاً وسطاً نسبياً بين القبائل الإسرائيلىة ومنها (رابعاً) أنه كان خارج المنطقة التى كان يتحكم فيه الفلسطينيون، ذلك لأن الفلسطينيين بينما كانوا يحتفظون بموقع المذبح الإتحاذى السابق فى شيلوه تحت الرقابة الدائمة، ويحتلون وسط فلسطين، ربما لم يكن وادى الأردن ومذبح الجلجال، محتلاً بحاميات فلسطينية دائمة، ومن ثم فإن ما حدث هناك بشأن تتويج شاول ملكاً، ربما لم يكن معروفاً للفلسطينيين بطريق مباشر أو غير مباشر^(٣).

وهكذا كان اختيار «الجلجال» مكاناً لتتويج شاول ملكاً على إسرائيل، اختياراً موفقاً، كما كانت لحظة انتصاره على العمونيين، هى اللحظة التى اختارها صموئيل ليتنازل عن وظيفته كقاض، وبذلك كان آخر القضاة وأول الأنبياء^(٤)، ومنذ تلك اللحظة، وببداية ملكية شاول، بدأ بنو إسرائيل يؤلفون أمة، فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة عن التاريخ الحقيقى الذى كان لهم فى العالم^(٥).

M. Noth, op.cit., p. 170.

(٢)

(١) صموئيل أول ١١: ١٥.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 170-171.

(٤) ليس من شك فى أن المقصود هنا أول الأنبياء فى فترة الاستيطان فى فلسطين، وليس قبلها بالتأكيد.

(٥) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٦.

ومع ذلك فإن اختيار ملك على هذه الصورية أمر حذر منه رب إسرائيل شعبه إسرائيل، وحاول الحد من رغبتهم في تنصيب ملك عليهم، ولكنهم أصروا على ما يطلبون، فلم يسعه إلا التسليم بذلك منذراً متوعداً، حتى لنراه في سفر هوشع، إنما يبرأ من تنصيب ملك عليهم، قائلاً: «هم أقاموا ملوك وليس منى، أقاموا رؤساء ولم أعرف»^(١)، ثم يسخر منهم بعد ذلك - وفي نفس السفر - بقوله: «فأين ملكك حتى يخلصك في جميع مدنك وقضائك حيث قلت: أعني ملكاً ورؤساء، أنا أعطيتك ملكاً بغضبي، وأخذته بسخطي»^(٢).

والأمر بهذه الصورة بالغ الواضح، ذلك أن إله إسرائيل رأى أنه يكفي أن يكون هو ملكاً على إسرائيل، وأنهم ليسوا في حاجة إلى أن يكونوا كغيرهم من الشعوب ولكنهم آثروا إغضابه، فأعطاهم ملكاً بغضبه، وبذلك حلت عليهم نقمته، ولعل قيمة هذه القصة لا تظهر إلا بمقارنتها بما أورده «هوشع» (٧٥٠-٧٢٢ ق.م) ومدرسته، فيما بعد بالنسبة للملكية الإسرائيلية ومركزها في إسرائيل، ومسحة العداء التي تتم بها بالنسبة إلى «رب الجنود» الذي سلبت منه إحدى صفاته لتمنح لرجل من الناس^(٣).

ولعل تجربة الملوك الشماليين في السامرة في نصف القرن الأخير من تاريخ إسرائيل، هو الذي يبرر هذا العداء السافر، إذا كان لإسرائيل - وكذا في يهوذا - في بعض الأحيان، ملوك جد فاسدون، ومن ناحية أخرى فإن القرن الثامن قبل الميلاد، إنما يتميز بأنبياء قدموا أفكاراً جديدة تتصل بمطالب «يهوه»، وقد أعلنت هذه الأفكار أن يهوه لا يهتم كثيراً بعظمة إسرائيل - أو حتى بوجودها ذاته - وأن ما ينشده حقاً إنما هو العدالة والرحمة، هذا فضلاً عن أنه طلب أن يشقوا به وحده؛ وليس في خيول

(١) هوشع ٨: ٤.

(٢) هوشع ١٢: ١٠-١١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٥٧.

الحرب وفي التحالف الأجنبي، ولكن الملكية بطبيعتها إنما وجدت لتعلى من شأن الدولة، عن طريق الحرب وفنون السياسة، ومن ثم فليس من الغريب أن نجد عند «هوشع» إدانة لمبدأ الملكية نفسه، «من أيام جبعة أخطأت إسرائيل»، ووفقاً لما جاء في سفره، فإن إسرائيل لن تتحرر من «الدعارة» - أى من عدم الثقة فى ربها حتى اليوم الذى لا يكون لها فيه ملوك^(١).

(٤) شاول والفلسطينيون:

كان انتصار شاول على العمونيين ذا أثر طيب فى نفوس الإسرائيليين البائسين، ومن ثم فقد بدأوا يعودون إلى أنفسهم، ويتصرفون بثبات نوعاً ما، والأمر كذلك بالنسبة إلى شاول الذى أثبت جدارته فى المعركة، بدرجة قضت على كل الشكوك التى كانت تحيط به.

وهكذا بدأ بنو إسرائيل يستعدون للصراع ضد الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد منذ انتصارهم فى موقعة «أفيق»، منذ أكثر من نصف قرن، استطاعوا فيه أن يجردوا الإسرائيليين من السلاح، حتى لنقرأ فى التوراة أنه «لا يوجد صانع فى كل أرض إسرائيل، لأن الفلسطينيين قالوا لكلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً»^(٢)، وبذا أصبحت صناعة المعادن ممنوعة فى إسرائيل، كما أقام الفلسطينيون القلاع فى أماكن مختلفة من البلاد للسيطرة عليها تماماً، وكان أهمها تلك التى عند «بيت شان» للسيطرة على الطريق الموصل بين نهر الأردن ووادى يزرعيل، والتى عند «مخماس» و«جبعة» بين جبل أفرام وأورشليم، والتى فى جنوب القدس، عند بيت لحم، هذا فضلاً عن تعيين موظفين من الفلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على الشعب المهزوم، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة^(٣).

A. Lods, op.cit., p. 356.

(١) هوشع ٢: ٤، ١٠: ٩-١٣، وكذا:

(٢) صموئيل أول ١٣: ١١.

H. R. Hall, op.cit., p. 423.

(٣)

وبدأت الاحتكاكات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، حين «ضرب يوناثان نصب الفلسطينيين الذي في جبعة»^(١)، مما أدى إلى تدميرها، وكان هذا التصرف بداية للتمرد العلني من جانب إسرائيل، ونفخ شاول في البوق ليستدعى مواطنيه لمؤازرته، وجمع الفلسطينيون بسرعة كل ما تسمح به التعبئة العامة لقواتهم في جبال غرب الأردن، ونقرأ في التوراة أن جيشهم «كان ثلاثون ألف مركبة، وستة آلاف فارس، ومشاة كحبات الرمل»^(٢)، وعسكرت هذه القوات في مخماس شرق «بيت أون»، على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الشرقي من «جبعة»، حيث عسكر الإسرائيليون.

وسرعان ما أدرك الإسرائيليون خطورة الموقف، فضاقت بهم الأرض بما رحبت، وملاً الفزع قلوبهم، حتى «اختبأ الشعب في المقابر والغياض والصخور والصحروح والآبار، وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد، وكان شاول بعد في الجلجال، وكل الشعب ارتعد وراءه»^(٣).

وبدأ الفلسطينيون يرسلون الطلائع من جيوشهم لمراقبة ما يحيط بهم، ففرقة توجهت في طريق عفرة - وهي الطيبة على مبعدة أربعة أميال شرقي بيتين - إلى أرض شوغال، وأخرى توجهت في طريق «بيت حورون»^(٤)، وثالثة توجهت في طريق التخيم المشرف على «وادي صبوعيم» - وهو وادي أبو ضباع الحالي، شرقي مخماس^(٥) - إلى البرية^(٦).

وتردد شاول في الهجوم على الفلسطينيين، ولكن ولده «يوناثان» قام -

(١) صموئيل أول ١٢: ٣. (٢) صموئيل أول ١٣: ٥.

(٣) صموئيل أول ١٣: ٦-٧.

(٤) بيت حورون: اسم عبري معناه «بيت الرحب» أو «بيت الشارع»، ويطلق الاسم على قريتين على مبعدة ١٢ ميلاً شمال أورشلیم، وكانتا تدعيان بيت حورن العليا وبيت حورن السفلى، مما يقابل تسميتها الحالية «بيت عور الفوقية وبيت عور التحتية». (يوشع ١٠: ١٠-١١، ٦: ٣-٥؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٢/١).

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٥٣٨/٢. (٦) صموئيل أول ١٣/١٧-١٨.

ومن ورائه حامل سلاحه - بهجوم مفاجئ على محلة الفلسطينيين، بدون علم أييه، «وقتلنا عشرين رجلاً منهم»، مما أثار الرعب بين الفلسطينيين^(١)، ولست أدري كيف حدث ذلك، والتوراة نفسها تحدثنا عن الرعب الذي ملأ قلوب إسرائيل، حين ظهرت قوات الفلسطينيين، وفريق اختباء بين المقابر والفياض والصخور وغيرها، وفريق ولى مدبراً نحو شرق الأردن، بل إن الشعب كله إنما قد ارتعد من وراء شاول، وهو ما يزال بعد في الجلجال، بل إن التوراة إنما تصف حال إسرائيل، حين ظهر «ناتان» نفسه، بأن قال الفلسطينيين: «ها هو ذا العبرانيون، خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها»^(٢).

وانطلاقاً من هذا كله، فإن الإسرائيليين - وهم في حالهم هذا - ما كانوا بقادرين على أن يقدموا نماذج للعمل الفدائي، حتى تجيء التوراة، فتناقض نفسها، وتخلع على يوناتان - وكذا خادمه - بطولة خارقة للعادة، فتجعلهما يقتحمان على الأعداء مواقعهم، ثم يقتلون منهم عشرين رجلاً.

وأيما ما كان الأمر، وعلى فرض أن مغامرة يوناتان إنما كانت كذلك حقاً، فقد بات من المتفق عليه، أن المعركة الحاسمة ضد الفلسطينيين قد أصبحت وشيكة الوقوع، ذلك لأن شاول - وكذا قومه اليهود - لم يعد لديهم أدنى ريب، في أن الفلسطينيين لابد وأن يقوموا بجولة حاسمة لاستعادة مراكزهم المفقودة، وأن القرار الحاسم لابد وأن يتخذ سريعاً.

ورغم ذلك، بل ورغم أن الحراس الإسرائيليين قد أرسلوا بتقاريرهم معلنين أن معسكر الفلسطينيين تسوده الفوضى، فإن شاول لم يرغب في اتخاذ قراره، دون مشورة يهوه، ولكن شعائر الاستشارة طالت بين الأخذ والردّ مما زاد في هياج الجنود، فاضطر شاول إلى أن يقطع مشورته، وأن يطبق على الفلسطينيين، بعد أن يأمر رجاله بالأكل خبزاً حتى المساء، ثم تنتهي رواية التوراة بنصر للإسرائيليين على الفلسطينيين.

وهنا يلقي الإسرائيليون الجوعى بأنفسهم على الماشية التي غنموها من الفلسطينيين، وبدأوا يأكلون منها، دون أن يذبحوا للرب أولاً، وفي هذا ما فيه من خرق شنيع للعرف القومى، مما اضطر شاول إلى أن يدحرج حجراً كبيراً ليذبح القوم عليه قراينهم، ثم بنى مذبحاً للرب^(١)، بل وتستطرد الرواية التوراتية، فتجعل شاول يحارب كل من حوله من الأعداء، «مؤاب وبنى عمون وآدم وملوك صوبية والفلسطينيين؛ وحيثما توجه غلب وفعل ببأس وضرب عماليق، وأنقذ إسرائيل من يد ناهبيه»^(٢).

وبدأ الفلسطينيون يفكرون فى استعادة ما فقدوه من سيادة على الإسرائيليين، معتمدين فى ذلك على تفوقهم العسكرى الضخم، ومن هنا بدأ التفكير فى القيام بهجوم مضاد فى العام التالى، فى الربيع بعد نهاية موسم الأمطار كما هو العرف بالنسبة إلى الحملات الواسعة النطاق.

ينقرأ فى التوراة أن الفريقين كانا قد استعدا للجولة القادمة^(٣)، وهنا برز «جليات» (جالوت فى القرآن الكريم)^(٤) قائد الفلسطينيين، ويوسف فى التوراة بأن «طوله ست أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس ولباساً درعاً خرشفيًا، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقا نحاس على رجله، ومزراق نحاس بين كتفيه، وقناة زمحه كتول النساجين، وسان رمح» ستة مئة شاقل حديد، وحامل الترس كان يمشى قدامه»^(٥).

ونادى جليات فى ساحة الوغى : هل من مبارز؟، «اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إلى؛ فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً، وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدمونا»^(٦)، وظل جليات الفلسطينى يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً، دون أن يجرؤ واحد من بنى

(٢) صموئيل أول ١٤ : ٤٧-٤٨.

(٤) انظر: سورة البقرة، آية : ٢٤٩-٢٥١.

(٦) صموئيل أول ١٧ : ٨-٩.

(١) صموئيل أول ١٤ : ١٥-٣٥.

(٣) صموئيل أول ١٧ : ١-٤.

(٥) صموئيل أول ١٧ : ٤-٧.

إسرائيل على منازلته، بل إنهم كانوا حين يرونه يفرون من وجهه، حتى نادى منادى إسرائيل: إن من يقتل هذا الرجل، يغنيه الملك غنى جزيلًا، ويعطيه بنته، ويجعل بيت أبيه حرًا في إسرائيل» (١).

ويخرج «داود بن يسي البيت لحمى» - وهو ما يزال بعد غلامًا - لمنازلة «جليات» ويتغلب عليه بسبب سخرية جليات به، وعدم تأهبه لمنازلته (٢)،
(١) صموئيل ١٧: ٢٥.

(٢) يروى تاريخ النبوة الشريف، حادثة يشبه ذلك تمامًا، فبينما كان المسلمون محاصرين في غزوة الأحزاب (غزوة الخندق = سنة ٥ هـ / سنة ٦٢٧ م)، وقد جاءتهم جنود من فوقهم ومن أسفلهم، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، وزلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا، وبدأ فريق من المنافقين يستأذنون النبي في العودة إلى بيوتهم لأنها عورة، وما هي بعورة، ولكنهم يريدون فرارًا من المعركة، في هذا الجو المليء بالخوف والفرع، إذ بعمر بن عبدود العامري - وكان أشجع قريش - ويحسب نفسه كفؤًا لألف رجل - يقتحم الخندق بجواده - ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب بن مرداس وهبيرة بن أبي وهب - إلى صفوف المسلمين - وهو مقنع بالحديد، ثم ينادى: من يبارز؟ فلا يتقدم أحد غير الإمام علي بن أبي طالب قائلاً: أنا لها يا نبي الله، فقال رسول الله ﷺ: اجلس: إنه عمرو، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ ثم جعل يؤنبهم، ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلى رجلاً؟ فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: إنه عمرو. ثم نادى الثالثة، فقام علي - كرم الله وجهه ورضي الله عنه - فقال: يا رسول الله أنا، فقال النبي ﷺ: إنه عمرو، فقال علي: وإن كان عمرًا فأذن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه، فقال له عمرو: من أنت؟ علي بن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فاستصغره الفارس الرهيب ورحم شبابه، وقال: والله ما أحب أن أقتلك لأن أباك كان نديمي، فأجابه علي: ولكني والله أحب أن أقتلك، فاغتاط عمر بن عبدود، فنبهه علي بن أبي طالب، أنه وإن كان قد احتقر ضعف خصمه، فإنه لم يرحلًا في ركوب فرسه أمام خصم مترجل، فقفز عمرو عن فرسه، فعقره لثلا يستعين به في القتال ولا في الفرار، ثم لطم وجهه بقبضته، وقد جن جنونه أمام سخرية خصم صغير مثل هذا، ثم وثب على غريمه فضربه ضربة شديدة، ثم أصابته في جبينه إصابة خفيفة، بعد أن خرقت ترسه، غير أن عليًا تراجع كالبرق وباغت عدوه بوثبة فجائية، ففقد هذا الأخير توازنه، واستدار ليجابه، ولم يفلت على الفرصة، فضرب عدوه ضربة بارعة، جعلت السيف يخرص بأكمله في صدر عمرو، بعد أن قطع أوداجه، وصار الدم غزيرًا من الجرح العميق، فترنح العملاق ساعة وهو يشن كالسكير، ثم خر كالبنيان، شاهقًا شهقة الموت بين يدي بطل الإسلام، سيدنا وجدنا الإمام

«فتمكن داود من الفلسطينيين بالمقلاع والحجر، وضرب الفلسطينيين وقتله، ولم يكن سيف بيد داود»، وأثار قتل جليات الرعب في نفوس الفلسطينيين فهربوا، ولحق بهم بنو إسرائيل حتى أبواب «عقرون» وفتكوا بهم ونهبوا معسكرهم، وحمل داود رأس جليات الجبار، وأتى به إلى أورشليم^(١).

والى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: «ولما برزوا لجالوت وجنوده، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»^(٢).

وهكذا - ومنذ ذلك الحادث الخطير - أخذ داود يملأ أعين الناس

على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وكرم الله وجهه - ثم أقبل على رسول الله ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هلا سلبت درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها ، فقال على : ضربته فائقاني بسوائه ، فاستحييت ابن عمى أن أسلبه . (انظر: سورة الأحزاب، آية : ٢٧-٩ ؛ تفسير القرطبي ، ص ٥٢٤٤-٥٢١٠ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية ، ٢٠٢/٢-٢٠٧ ؛ عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ، ص ٢١٢-٢١٣ ؛ محمد محمد أبو شهبه، السيرة النبوية ، ٢٢٣/٢-٢٢٤ ؛ إيتين دينيه وسليمان إبراهيم، محمد رسول الله، ص ٢٥٦-٢٦٠ ؛ مولانا محمد علي : حياة محمد ورسالاته، ص ١٦٧-١٦٩ ؛ ابن هشام، سيرة النبي، ص ٢٢٤-٢٢٦ ؛ تاريخ الطبري، ٥٧٣/٢-٥٧٤ ؛ الواقدي، كتاب المغازي، ٤٧٠/٢-٤٧٢ ؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٤٥/١ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٩/٧ ؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٣٣٤-٣٣٥ .

(١) صموئيل أول ١٧ : ٢٠-٥٤ .

(٢) سورة البقرة، آية : ٢٥٠-٢٥١ ؛ وانظر: تفسير الكشاف ٢٩٦/١ ؛ تفسير الطبري ٣٥٤/٥-٣٧٦ ؛ تفسير الطبرسي ٢٨٩/٢-٢٩٢ ؛ تفسير روح المعاني ١٧٢/٢-١٧٤ ؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٢٢٩/١-٢٣٠ ؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣١٨/١-٣١٩ ؛ تفسير النسفي ١٦٦/١ ؛ محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، ٣٨٢/٢-٣٨٣ ؛ تفسير المنار ٣٨٩/٢-٣٩٤ ؛ تفسير القرطبي، ١٠٦٤-١٠٦٩ ؛ تفسير ابن كثير ٤٤٧/١-٤٤٨ .

وآذانهم وقلوبهم، ثم يصبح ذا مكانة عالية بين قومه اليهود، مما أثار عليه حقد شاول وأخذ يسعى إلى قتله، بينما هو في مسيس الحاجة إليه، وإلى أمثاله من الشجعان من الرجال، ولم تشفع له صداقته لولده «يوناثان» ولا إصهاره للملك، بل إن الحقد المرير الذي أحس به داود من جانب الملك، إنما يكاد يورده موارد التلف، مما دفعه إلى أن يغدو طريداً في البلاد المتاخمة لمدينة «حبرون»، حيث جمع فرقة لم تستطع أن تحميه من مطاردة شاول، فاضطر آخر الأمر إلى أن يلجأ إلى أعدائه الفلسطينيين - إلى «أنخيش» ملك جت - ثم اصطنع الجنون خوفاً على حياته^(١).

(٥) معركة جبل جلبوع ونهاية شاول:

انتهز الفلسطينيون فرصة الخلافات بين الإسرائيليين، وجمعوا قواتهم مرة أخرى في «أفيق» ولكنهم هذه المرة لم يهاجموا جبال وسط فلسطين من هناك مباشرة، وإنما تقدموا نحو الشمال، عن طريق السهل الساحلي إلى سهل يزرعيل فمدينة يزرعيل - وهي زرعين الحالية بين جبلي جلبوع والدحي - ولعل في هذا ما يشير إلى أن عناصر شعوب البحر الأخرى في السهول الساحلية الشمالية، وفي سهل يزرعيل، قد انضمت إليهم، وبهذه الطريقة هاجم الفلسطينيون شاول في نقطة مكشوفة داخل حدوده، حيث أنها منطقة من مناطق الاستقرار الإسرائيلي غير المنيعة إلى حد ما جغرافياً، وفي نفس الوقت فإنها محاطة بمناطق كنعانية، ولذلك فإن قبائل الجليل إنما كانت مرتبطة بقبائل وسط وجنوب فلسطين، بجسر ضيق من المنطقة الإسرائيلية...

وهكذا نجح الفلسطينيون في أن يمنعوا شاول من أن يجمع قواته كلها، وفي الحقيقة - وطبقاً لرواية التوراة^(٢) - «فإن رجال إسرائيل الذين

(١) صموئيل أول ٢١: ١-١٥، نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٦٠، وانظر: تفسير الطبري،

٣٥٦/٥-٣٥٧.

(٢) صموئيل أول ٢١: ٧.

عبروا الوادى والذين فى عبر الأردن؛ وكذا قبائل تلال الجليل، وبلاد شرق الأردن، لم تشترك فى المعركة ضد الفلسطينيين.

وأيا ما كان الأمر، فلقد انطلق شاول بجيوشه، من قبائل وسط وجنوب فلسطين، من «العين التى فى يزرعيل» وربما بجوار «عين حرود»؛ جنوب شرق مدينة يزرعيل، عند سفح جبل جلبوع، حيث قام من قبل «جدعون» بهجومه الشهير على معسكر المديانيين، وكان الموقف لا أمل فيه منذ البداية، بل إن شاول كان قد يأس من النصر قبل أن يبدأ القتال، وهناك تقاليد خاصة فى الإصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل^(١)، تروى أن شاول قد وصل به اليأس قبل بدء المعركة، إلى حد الاختفاء عند امرأة «عرافة» فى «عين دور» على مبعدة ستة أميال إلى الجنوب الشرقى من الناصرة - ليسأل روح «صموئيل النبى» عن مصيره، وكانت الإجابة أن حياته - وكذا مملكته - قد ضاعت^(٢).

ودارت المعركة على «جبل جلبوع»، وانتهت سريعاً بهزيمة ساحقة للإسرائيليين، وفقدوا ولدا شاول حياتهما، مع جانب كبير من الجيوش الإسرائيلية، وانتحر شاول حياً، حتى لا يقع فى أيدي الفلسطينيين، ومثل الفلسطينيون بجثة شاول وولديه، وأخذت دروعه إلى معبد «فينوس» الفلسطينى ودق جسمه على أسوار بت شان (بيسان)، وبات مقدراً ألا تدفن جثة شاول وولديه، لولا أن انتشلها بضع نفر من أهل يابيش جلعاد من على الأسوار التى علقت عليه «وجاءوا بها إلى يابيش جلعاد وأحرقوها هناك، وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الآثلة فى يابيش وصاموا سبعة أيام»^(٣).

(١) صموئيل أول ٢٨: ٣-٢٥.

(٢) جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ٤٣-٥١، وكذا:

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 177-178.

(٣) صموئيل أول ٣١: ٨-١٢.

وأجبرت الأقلية الإسرائيلية التي كانت تسكن بيسان ومدن سهل
يزرعيل الأخرى على الهجرة منها، وسقط وسط فلسطين تحت السيادة
الفلسطينية مرة أخرى، وأصبحنا لا نسمع شيئاً عن حروب معها في المرحلة
التالية من التاريخ^(١) وهكذا كان انتصار الفلسطينيين على الإسرائيليين
كاملاً، واحتل الفلسطينيون كل منطقة القبائل الإسرائيلية، والتي شملت
هذه المرة الجليل وبلاد شرق الأردن، وبدأت مشكلة السيادة على فلسطين،
كما لو كانت قد استقرت لصالح الفلسطينيين هذه المرة، وفي كل
المرات^(٢).

(٦) شاول والملكية الإسرائيلية:

وهكذا كانت الملكية الإسرائيلية الأولى فشلاً ذريعاً، لأنها تطور من
حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، وكان الملك ضعيف الإرادة، حاد الطباع،
ينحيا كأي شيخ بدوي من شيوخ القبائل البدوية، وقد كان من المنتظر أن
تكون تلك الشخصية التي وقع عليها اختيار صموئيل - أي شاول - جديرة
بأن تكسب إعجاب الناس وولاء الجماهير، بما لها من مميزات طبيعية، فقد
كان شاول بجسمه الفارع الذي ينبض بالهبة، وشهامته وجسارته وقيادته
الماهرة، وشجاعته الباسلة في ميدان لحروب، أهلاً لذلك كله، غير أن هذا
الجندي الشعبي الجسور إنما كان يخفي من وراء مظهره الرائع، نقاط
ضعف خطيرة في شخصيته، فقد كان ينزع إلى الشك والغيرة، كما كان
صفراوي المزاج، ضعيف الإرادة، متردداً في اتخاذ قراراته، وكان فوق هذا
كله، مصاباً باكتئاب ألح على فكره، الذي لم يكن منظماً على الإطلاق،
وكان يصل به في بعض الأحيان إلى مشارف الجنون^(٣).

R. H. Hall, op.cit., p. 359.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 178.

(٢)

(٣) جيمس فرنر، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤.

وعلى أى حال، فلم تكن مملكة شاول - أو الملكية الإسرائيلية الأولى - تتجاوز مضارب قبيلته بنيامين، ورغم ذلك، فليس هناك من ريب فى أن بنى إسرائيل إنما قد بدأوا بشاول يؤلفون أمة، بل إن تاريخ مملكة إسرائيل الموحدة إنما يبدأ بشاول هذا.

هذا، ويمكن أن يقال أن «شاول» إنما كان مهيباً بطبيعته، وبتكوينه العقلى وظروفه الاجتماعية، إلى النجاح فى ظروف عصر القضاة، والفشل فى أحوال عصر الملوك، فقد كان شخصية محاربة متهورة طاغية، حظها من الروح الدبلوماسية قليل، وهذا هو السر فى مصيره المحزن، فقد وفق توفيقاً رائعاً فى توحيد القبائل تقريباً تحت زعامته ضد الفلسطينيين - وربما كان الأصح ضد العمونيين - وقادها إلى النصر، فكوفئ على ذلك بالملكية، ولكن عجزه على السيطرة على الفئات المتعارضة داخل مملكته منعه من توطيد انتصاراته، فضلاً عن سلطته، وأدى إلى سقوطه، وكان نزاعه مع داود - زوج ابنته وقاتل جليات بطل الفلسطينيين - من أهم عوامل سقوطه، فانصداع ما بينه وبين داود أبعد عنه تأييد طبقة الكهنة القوية^(١).

وعلى أى حال، فإن شاول فى إدارته لمملكته، لم يحرص على فرض ضرائب جديدة من أجل جيوشه، كما أنه استمر يعيش من عمله فى حقله الخاص، ولم يتخذ لنفسه قصرًا أو بلاطًا مترقًا، وكان فى أول كل شهر، وعند مشرق كل قمر جديد، يقيم مأدبة فى منزله يدعو إليها ضباطه، ويجلس فى صدارتها على مقعد، مستنداً إلى الحائط، وإلى يمينه حربته، كما أنه اعتاد أن يعقد مجلساً للحرب فى ظلال الشجرة المقدسة فى «جبعة»، ومن المحتمل أن قواته كانت تتكون من محاربى قبيلة بنيامين، وقد عين ابن عمه الكبير «أبئير» قائداً لها، وكان يوزع الكروم والحقول المستولى

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٢.

عليها من العدو على شيوخ بنيامين، وظل حكمه في مظاهر كثيرة ملكياً قبلياً، ولكنه كان أكثر تقدماً مما كان عليه أيام جدعون وبنفتاح، وقد جمع حوله - إلى جانب قبيلته بنيامين - الرجال الأشداء من كل قبيلة، ومن بين هؤلاء الرجال، كان «داود» الذي ينتمى إلى قبيلة «يهوذا»^(١).

وفي أخريات أيامه خيم عليه الاضطراب العقلي، إذ كانت تتابه نوبات من الصرع، تتغير من الانهيار إلى الغضب الأحمق، حيث هب له أن الخونة في كل مكان، وربما كان الكهنة من وراء ذلك كله، لأنه قبض على صولجان الملك، بعد أن كانت أعنة الحكم في أيديهم، فأتصروا به وزعموا له، أن الرب كاشفهم بأنه قد سخط عليه لتقصيره في الإيقاع بالأسرى، ومازالوا به حتى ألقوا في روعه أن الجان قد ركبتة، ورتبوا في ذلك أنه لا محيص عن أن يهدئ من جأشها بالاستماع إلى دقات الطبول^(٢).

ورغم ذلك كله، فإن «شاول» إنما كان أقوى مما يبدو في هذه الروايات التي إما أنها تعكس الهوى اليهودي لصالح منافسه وخليفته داود، وإما الانحياز ضد الحكم الملكي، وتأكيد نفوذ صموئيل النبي^(٣).

ولعل من المناسب هنا، أن نشير إلى الحقيقة الجديرة بالاعتبار، التي تثبت مدى تأثير الإسرائيليين بنجاح ملكهم الأول، لدرجة أنه لم يكن هناك أى تفكير لإلغاء نظام الملكية^(٤)، كما نشير كذلك إلى قلعة شاول التي اكتشف «وليم فوكسويل أو لبرايت» بقاياها في عام ١٩٢٢/١٩٢٣ م، في «تل الفول» على مبعده ٥ كيلاً إلى الشمال من القدس، والتي لم يبق منها في الواقع، إلا جزء صغير، يتكون من برج في أحد الأركان، وجزء من

(١) صموئيل أول ١٤: ٥٠-٥٢، ٢٢: ١٧، صموئيل ثان ٤: ٢-٢، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 356-357.

(٢) عصام الدين حنفى ناصف، محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٤٤.

(٣) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 356.

A. Lods, op.cit., p. 359.

(٤)

الاستحكام المستقوف المجاور له، وقد أمكن تأريخه بواسطة الفخار الذي وجد،
بعصر «شاول» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م.) (١).

الفصل الثالث

داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)

(١) صورة داود فى التوراة

ليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التى تقدمها التوراة عن داود ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جليات الجبار بمقلعه دون سيف فى يده^(١)، وبذا يصبح مطارداً من الفلسطينيين يوماً ما، ولكنه سرعان ما يشترك معهم فى محاربة عدوهم يوماً آخر، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيه اليهود^(٢)، وهو يعمل حامل سلاح شاول الإسرائيلى يوماً ما، ثم حارساً لـ «أخيش» الفلسطينى يوماً آخر^(٣).

وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم، وهو عدو شاول اللدود، ثم هو فى نفس الوقت زوج ابنته، وحبيب ولده يوناثان، وكثير من فتيات إسرائيل^(٤)، وهو يعمل مغنياً فى بلاط شاول، لأنه يجيد الضرب على القيثارة، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه فى نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك، وقاتل أعدائه^(٥).

وهو قاس غليظ القلب - كما كان الناس فى وقته، وكما كانت قبيلته - وهى صورة مستحبة فى أذهان اليهود، خلعوها على إلههم «يهوه» من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه فى نفس الوقت، كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه ليبالغ حتى فى القسوة، حين يأمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم وشرهم بالمنشار^(٦).

(١) صموئيل أول ١٧: ٥٠. (٢) صموئيل أول ٢٩: ٢-١٢.

(٣) صموئيل أول ٣٨: ١-٧. (٤) صموئيل أول ١٨: ١-٧.

(٥) صموئيل أول ١٦: ٢١-٢٣. (٦) صموئيل ثان ١٢: ٢٩-٣١.

وعندما يطلب منه شاول مائة غلفة من الفلسطينيين مهراً لابنته «ميكال» إذا به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين ويقدم غلفهم مهراً لابنته شاول هذه (١)، وحين يوصى ولده سليمان - وهو على فراش الموت - بأن «يحدر بالدم إلى الهاوية» (٢)، شيبة «شمعى بن جبراء» الذي لعنه منذ سنين طويلة.

وهو يأخذ النساء من أزواجهن غصباً، مستغلاً في ذلك جاهه وسلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أبنير» قائد جيوش شاول - أن يأتي له بابنة شاول (ميكال) والتي كان قد خطبها من أبيها، ودفع مهرها رؤوس مائتين من الفلسطينيين - من زوجها «فلطيشيل بن لايش» الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها، وهو يكي حتى «بحوريم» ولم يرجع من ورائها، إلا بأمر من أبنير، وخوف منه (٣).

ثم هو يأخذ «بتشبع» امرأة قائده «أوريا الحثي» من زوجها، ويأتي بها إلى نسائه، فيضطجع معها وهي مطهرة من طمشتها، وحين تحس المرأة بأن ثمرة اللقاء إنما بدأت تتحرك في أحشائها، يرسل إلى زوجها فيستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل ظن الناس أنه من زوجها، ولما رفض الرجل أن يدخل إلى فراش زوجته الدافئ، بينما أخوة له يقتلون ويقتلون في ساحة الوغى وأصر على أن ينام على عتبة بيت الملك مع النائمين، وألا يضاجع امرأته أبداً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، أو أن يسمح له الملك بأن يعود إلى حومة الوغى ليأخذ مكانه بين رجاله وجنوده هناك، فإذا به يرسل بالرجل إلى الصف الأول، مع أمر واضح صريح أن «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت»، وحين يتم له ذلك، يضم المرأة إلى حريمه، ثم هو بعد ذلك، يقبل في ذلة زجر (ناتان)

(٢) ملوك أول ٢: ٩.

(١) صموئيل أول ١٨: ٢٥-٢٧.

(٣) صموئيل ثان ٣: ١٢-١٦.

على فعلته هذه، ولكنه مع ذلك يحتفظ بـ «بتشبع» الجميلة^(١).

وهو يعفو عن «شاول» مئات المرات، ولا يسلبه إلا درعه، حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته، وهو يعفو عن «مفنبوشث» وهو حفيد شاول، وقد يكون من المطالبين بعرشه، وعرش عمه وجده من قبله - بل ويعينه على أمره^(٢)، وهو يعفو عن ولده «أبشالوم»، بعد أن قبض عليه في ثورة مسلحة، وبعد أن دنس عرضه على ملأ من القوم^(٣)، بل إنه ليغفو عن «شاول» الذي كان يسعى لقلته، بعد أن تمكن منه مرات، وفي أمان مطلق ومناعة تامة^(٤).

ومن ثم يذهب «ول ديورانت» - طبقاً لأوصاف التوراة هذه لداود - إلى أن ذلك إنما هو وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوى على جميع بقايا الهمجية، وعلى كل معوقات الحضارة^(٥).

ويدهى أن ذلك ليس رأينا، وإنما هو رأى توراة اليهود، ذلك لأن داود - فيما نعتقد ونؤمن به - الإيمان كل الإيمان - هو نبي الله الكريم، قبل أن يكون ملك اليهود القدير، ومن ثم فنحن لا نرضى للنبي الكريم، إلا ما ارتضاه له رب العزة في القرآن الكريم، فلقد «آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء»^(٦) «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدر في السرد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير»^(٧)، «واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»، إنا سخرنا الجبال معه

(١) صموئيل ثان ١١: ٢-٣٩، ١٢: ١-١٢. (٢) صموئيل ثان ٤: ٤-٥.

(٣) صموئيل ثان ١٦: ٣٣، ١٨: ٣٣. (٤) صموئيل أول ٢٤: ٢-٢٢.

(٥) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣١-٣٣٢؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٦٢-٣٧٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ٣٥١؛ وانظر: تفسير الطبري ٣٧١/٥-٣٧٢؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور

٣١٩/١؛ تفسير النسفي ١٦٦/١؛ تفسير الطبرسي ٢٩١/٢-٢٩٢؛ الجواهر في تفسير القرآن

الكريم ٢٢٩/١؛ تفسير روح المعاني ١٧٣/٢-١٧٤؛ تفسير القرطبي، ص ١٠٦٦-١٠٦٧؛

تفسير ابن كثير ٤٤٧/١؛ تفسير المنار ٣٨٩/٢.

(٧) سورة سبأ، آية: ١٠-١١؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٥٣٤٦-٥٣٥٠.

يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهْ أَوَابٌ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ^(١)، «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا»^(٢)، «وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ، نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَابٌ»^(٣) «وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٤).

هذا هو رأى الإسلام فى داود، عليه السلام - كما جاء به القرآن الكريم - وليس هناك من ريب، فى أنه ليس لمسلم بعد رأى الإسلام رأى، ولكننا نقدم الصورة الأولى، ليعرف القارئ الكريم، رأى التوراة - كتاب اليهود المقدس - حتى فى أنبياء اليهود وملوكهم، ولأننا ندرس حياة داود الملك، وليس داود النبىء، ذلك لأننا نقوم هنا بدراسة تاريخية، وليست دراسة دينية، نعتمد على التوراة، كمصدر لها فى الدرجة الأولى، ومع ذلك، فإننا نتفق معها فى الكثير، ولكننا نختلف معها فى الكثير كذلك، وبخاصة فيما يتعلق بالذات العلية، وبالأنبياء وعصمتهم - الأمر الذى سوف تناقشه بالتفصيل فى الجزء الثالث من كتابنا هذا «إسرائيل»^(٥) - فضلا عن الحقائق التاريخية، ذلك لأن من كتبوا التوراة - كما أشرنا من قبل - كانوا بشرًا مثلنا، وهم كمؤرخين - لا يختلف عن نظائريهم من معاصريهم فى الشرق، ويدهى أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه.

(٢) داود فيما قبل الملكية:

تروى التوراة أن داود إنما كان حامل سلاح شاول، وأنه قد التحق

(١) سورة ص، آية: ١٧-١٢٠ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٥٦٠٢-٥٦٠٨، تفسير ابن كثير ٤٩/٧-٥١.

(٢) سورة ص، آية: ٣٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٥٥.

(٤) سورة النمل، آية: ١٥.

(٥) محمد بيومى مهران، إسرائيل، ١٦٢/٣-٢١٨، (ط ١٩٧٩).

ببلاطه بفضل مهارته الموسيقية، كى يزيح عنه الهم والأسى، وهو إلى جانب ذلك كان طلق اللسان فصيحاً، خفيف الروح، شجاعاً بل مقاتلاً جباراً، وداود هذا، ابن «يسى البيت لحمى» أرسله الله حين غضب على شاول ليمسحه، مختاراً إياه من بين أولاد «يسى» جميعاً، وكان أشقر مع حلاوة العينين، وحسن المنظر^(١)، وأصغر أخوته الستة على رأى، والسبعة على رأى آخر^(٢)، ولهذا فقد كلّف بالعناية بأغنام أبيه، وقد أظهر فى القيام بهذه المهمة إخلاصاً نادراً، وشجاعة فائقة، فقد قتل أسداً ودباً هاجما القطيع^(٣).

وقد بدأ نجمه يسطع بين قبائل إسرائيل منذ أن قتل جالوت، فقرت به عين الملك ووعدته بأن يزوجه ابنته الكبرى «ميرب»، ولكنه زوجها إلى «عديشيل المحولى»، ولما أحبته أختها «ميكال» وعده بها، على أن يمهره إياها مائة غلفة من الفلسطينيين^(٤)، ولكن يبدو أن الشعبية التى اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الإصهار إليه، أو لأنه - فيما يرى البعض - قد شارك فى مؤامرة، مع صموئيل النبى الذى كان قد أشار أنه المنتصر المقدر له الملك^(٥)، وأيا ما كان الأمر، فلقد بدأ شاول يخاف داود، «وصار شاول عدواً لداود كل الأيام»^(٦).

وهكذا اضطر داود للفرار معرضاً حياته للخطر، ولكنه لم يذهب إلى موطنه فى «بيت لحم» على مبعده ٨ كيلاً جنوب أورشليم - وإنما ذهب إلى «صموئيل» فى الرامة (رام الله)، ومن هناك إلى «نوب»، حيث يعيش «أخيمالك»، الكاهن، الذى دفع حياته - وكذا مدينته بما فيها من رجال ونساء وأطفال وماشية - ثمناً لإيوائه داود^(٧).

(١) صموئيل أول ١٦: ١-٢٣.

(٢) صموئيل أول ١٦: ١٠-١١، ١٧: ١٢، أخبار أيام أول ٢: ١٥.

(٣) صموئيل أول ١٧: ٣٤-٣٦. (٤) صموئيل أول ١٨: ٧-٢٩.

(٥) H.R. Hall, op.cit., p. 425-426. (٦) صموئيل أول ١٨: ٢٩.

(٧) صموئيل أول ١٩: ١-٢٢: ٢٣.

وانتجحه داود بعد ذلك إلى الفلسطينيين - أعداء قومه اليهود - فهرب إلى «أخيش» ملك جت، ولكن يبدو أنه هناك لم يأمن مكر أعدائه، فخشى على حياته، وبالتالي فقد اصطنع الجنون^(١)، ثم هرب إلى (مغارة عد لام) على مقربة من بيت لحم - وجمع حوله أربعمئة من المغامرین، وأودع أباه وأمه عند ملك مؤاب، أرض جدته راعوث^(٢).

وطبقاً لنصيحة النبي جاد، عاد داود إلى أرض يهوذا، وهناك سرعان ما كبرت دائرة أتباعه، وفي نفس الوقت فإنه قد بدأ في إقامة علاقات طيبة مع القبائل التي كانت تسكن جنوب يهوذا، ووفقاً لما جاء في سفر صموئيل^(٣)، الأول، فإنه قد تزوج من (أخينوعم) من مدينة يزرعيل - والتي ربما كانت خربة ترامة في سهل دبله - ومن المحتمل أنها كانت مكاناً قينياً، إلى الجنوب الشرقي من حبرون.

وهناك من برية يهوذا (يشمون = الخراب) التقى داود بامراته الجميلة «أبيجايل» زوجة «نابال» من معون - تل معون الحالية، على مبعدة عشرة أميال جنوب حبرون - وربما كان نابال هذا قينياً كذلك، وقد استطاعت «أبيجايل» أن تخفف من غضب داود، بسبب سوء تصرف زوجها معه، ثم لم تمض سوى عشرة أيام حتى كان نابال قد لفظ أنفاسه الأخيرة، ثم تزوجت امرأته من داود بعد ذلك^(٤).

وأخيراً استقر المقام بـداود عند «أخيش» ملك جت، حيث قدم له داود خدماته، وخدمات رجاله، طبقاً للنظام الحربي الفلسطيني الذي كان يستخدم الجنود المرتزقة، وأعطاه «أخيش» مدينة (صقلع) - وهي تل الخويلقة، على مبعدة عشرة أميال شرقي تل الشريعة، جنوب شرق غزة، بين

(٢) صموئيل أول ٢٢: ١-٥.

(١) صموئيل أول ٢١: ١٥-١٠.

(٣) صموئيل أول ٢٥: ٤٣.

(٤) صموئيل أول ٢٥: ٢-٤٣؛ جيمس فرينر، المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

ديبر وشر سبع - والإقليم المجاور لها، في مقابل أن يقدم له خدماته الحربية، حين يحتاج إليهما^(١).

وكان ذلك بالتأكيد مخاطرة من داود، أن يرتدى في أحضان الفلسطينيين في وقت كان الصراع على أشده بين الإسرائيليين والفلسطينيين، هذا فضلاً عن أن داود قد انشغل في هذه الفترة التي طالت إلى سنة وأربعة أشهر، بحملات السلب والنهب في البلاد المجاورة، «وضعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجزريين والعمالقة، لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر»^(٢).

وعلى أي حال، فلقد كان هذا هو أسلوب داود البسيط والمؤكد للهروب من شاول، إلا أن هذا إنما كان بالنسبة إلى القبائل الإسرائيلية خطوة مرتبطة بالخيانة لقضيتهم، وإن اعتبرها داود ليست طريقاً لتحويل التحالف إلى الفلسطينيين، بل وسيلة لهدف خاص به، «وصدق أخيش داود قائلاً: قد سار مكروهاً لدى شعبه إسرائيل فيكون لي عبداً إلى الأبد»^(٣).

واستمر داود في تقوية علاقاته بشيوخ القبائل اليهودية الجنوبية، وقام مع رجاله بكل حملات السلب والنهب في الأقاليم المجاورة، وأرسل الهدايا من الغنائم إلى شيوخ الأماكن المختلفة التي كانت تحتلها القبائل الجنوبية^(٤).

ولم يكن «أخيش» أمير جت في حاجة إلى أن يعرف كل هذا، لأنه بقي معتقداً أن داود قد قطع ما بينه وبين شاول - بل والإسرائيليين - إلى الأبد، ولكن الفلسطينيين لم يثقوا بـداود على الإطلاق، ومن هنا فلقد أضرب الحكام الفلسطينيون جميعاً - ربما باستثناء أخيش - على ألا يسمحوا لداود

(٢) صموئيل أول ٢٧: ٧-٨.

(٤) صموئيل أول ٣٠: ٢٦-٣١.

(١) صموئيل أول ٢٧: ١-٦.

(٣) صموئيل أول ٢٧: ٩.

- وكذا رجاله - بالاشتراك في المعركة الحاسمة ضد شاول^(١)، ورغم أنه كان من الطبيعي أن داود إنما كان مضطراً إلى المساهمة في هذا القتال، فقد كان يشكون فيه، ومن ثم فقد كانوا خائفين من أن يخونهم حين تدور رحى الحرب، وهكذا اضطر أخيش أن يعيده مرة أخرى إلى «صقلع» وبالتالي فلم يقدر لداود أن يقوم بدور نشط في جانب الفلسطينيين ضد شاول والقبائل الإسرائيلية في معركة جبل جلبوع^(٢).

(٣) اختيار داود ملكاً على إسرائيل:

سرت الأنبياء في كل أرجاء البلاد، كما تسرى النار في الهشيم، بأن شاول قد مات، وأن ولديه لقيا نفس المصير، وأن الإسرائيليين قد هزموا شر هزيمة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام ١٠٠٠ ق.م)، وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت نير الفلسطينيين.

هذا وقد أدى موت شاول إلى قيام صراع مرير بين القبائل الإسرائيلية على السلطة، أو بالأحرى بين داود - الذي كان يتطلع إلى خلافة شاول، بخاصة وأن صموئيل النبي إنما كان قد مسح أثناء حياته خليفة لشاول، وإن لم يناد به ملكاً على إسرائيل - وبين «إشبعل» بن شاول، الذي اعتبر نفسه الخليفة الشرعي لوالده بعد وفاته، ويسانده في ذلك «أبنير» قائد جيش شاول، وأحد أمراء بيته^(٣).

وكان الفلسطينيون - وقد سيطروا على البلاد من وراء هؤلاء وأولئك - يهتمهم في الدرجة الأولى أن يبقى بنو إسرائيل على فرقتهم وضعفهم، ويبدو أن ما حدث لم يثر دهشة داود كثيراً، فقد كان قد أعد للأمر عدته، ومن

(١) صموئيل أول ٢٩: ٢-١١.

H.R. Hall, CAH, II, Cambridge, 1965, p. 426.

(٢)

M.Noah, op.cit., p. 180-181.

وكذا:

M. Noth, The History of Israel, 1965, p. 181.

(٣)

هنا فإتنا نراه ما أن يسمع بموت شاول - وكذا ولده يوناثان - حتى يحزن لموتهما حزناً عميقاً، فيرثيهما رثاء حارثاً، بواحدة من أعظم المراثي في كل الآداب^(١) ثم يتحول إلى خبرون بكل أتباعه وحاشيته، ويستقر هناك.

وكانت «خبرون» الكالبية، لا تشكل المركز الطبيعي لجبال الجنوب الفلسطيني فحسب، ولكن كذلك إنما كان يقع في مجاورتها مباشرة، وعلى مبعدة ميل ونصف ميل، «معبد الشجرة المقدسة» في «عمرا» (رامه الخليل)، والتي ربما كانت المركز الديني الرئيسي لكل قبائل الجنوب الفلسطيني، والتي يبدو أنها قد اتحدت حول هذا في تحالف من ست قبائل (يهوذا وكالب وعنيئيل ونايين وبرحمئيل وشمعون)، مكونة مجموعة منفصلة - داخل وبجانب التحالف الإسرائيلي للقبائل الاثني عشر الرئيسية - لها حياتها الخاصة التي أعطتها مركزاً خاصاً، وإن لم يكن في عزلة عن الجميع، وهذه حقيقة أصبحت لها الآن أهمية تاريخية، ذلك لأن داود إنما قد حولها إلى واقع، هذا فضلاً عن أن داود نفسه إنما كان يهودياً، كما أنه بزواجه من امرأته «أخينوعم» و«أيجابل» القينيتين، إنما قد أصبحت له قرابة بالمصاهرة من القينيين، كما أنه قد نجح أثناء إقامته في «صقلع» من عقد صلات مع القبائل الجنوبية، أثمر غرسها الآن^(٢).

وهكذا أتى رجال يهوذا إلى داود، وهناك في «خبرون» أو في «عمرا» مسحوه ملكاً على بيت يهوذا^(٣)، وليس هناك من شك في أن داود نفسه، إنما قد قام بدور هام في إغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة، فقد كان لتأثيره الشخصي أثر كبير، ما في ذلك من شك، كما أنه كحامل لدرع شاول قد جعل منه شخصاً محبوباً لكل من حوله، وهو بالنسبة للقبائل

(١) صموئيل ثان ١: ٩-٢٧.

M. Noth, op.cit., p. 182.

(٢)

(٣) صموئيل ثان ٢: ٤.

الجنوبية رجل من دائرتهم، وقد برهن بنفسه - بعد انفصاله عن شاول - أنه بالتأكيد رجل من القبائل الجنوبية، وإن كان نظام الملكية قد انتهى سريعاً بالعار، فإن هذا البنيامي شاول، إنما هو الملام لفشله، وسوف يكون على داود اليهودي أن يستغل مركزه، بطريقة أفضل، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسي في الموقف دون شك، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه^(١).

وأيما ما كان الأمر، فلقد مسح داود في المركز الديني في «مرا» ملكاً، بعد اختياره من قبل رجال يهوذا، وأن هذا الاختيار لم يتم على أساس ديني كالتعيين عن طريق نبي، وإنما كان تصرفاً سياسياً صرفاً، وكانت شخصيته وعلاقاته وحاشيته الحربية، هي الأساس في تنصيبه ملكاً على كل بيت يهوذا، هذا فضلاً عن أن رجال الدين إنما كانوا موالين له، كما أن اختيار صموئيل النبي له من قبل، قد لاقى قبولاً حسناً من أغلبية الشعب^(٢).

وأما في الشمال، حيث أدت كارثة جبل جلبوع إلى أن تعود البلاد ثانية تحت السيادة الفلسطينية، فقد عمل أبير، الذي نجا من الكارثة، على نقل المقر الملكي إلى «محانيم» - وهي خربة منحنة شمالي عجلون بميلين ونصف ميل - حيث ذكرى أعمال شاول الجريئة منذ سنوات مضت ما تزال باقية هناك، وأقام إشبعل بن شاول الوحيد الباقي على قيد الحياة، ملكاً على إسرائيل^(٣).

وهكذا نودي بـ «إشبعل» - أو إشبوشث، كما تغير الاسم في صموئيل ثان^(٤) - ملكاً في شرق الأردن، في أبعد مكان يمكن أن تصل إليه أيدي الفلسطينيين في محانيم، عاصمة منطقة أفرام، في أرض جلعاد جنوب ييوق، وكان هذا عملاً تعسفياً صرفاً، كما كانت ملكية

H. R. Hall, op.cit., p. 427.

(٢)

M. Noth, op.cit., p. 182-183. (١)

(٤) صموئيل ثان ٢ : ٩ .

M. Noth, op.cit., p. 18 (٣)

«إيشبوشث» (إيشبعل) بدون أساس ديني كلية، ولكن القبائل الإسرائيلية المرتبكة - والمهزومة كذلك - قد وافقت على هذا التعيين، فقد كانوا يعرفون عن نظام الملكية من القبائل المحيطة بهم، أنه نظام وراثي، كما أنه لا يوجد مرشح آخر مناسب، غير إيشبعل، ابن شاول الوحيد الباقي على قيد الحياة.

وعلى أي حال، فلقد شملت ملكية إيشبعل مناطق غير محددة، لقبائل الجبال في شرق الأردن وفي الجليل والسامرة، كما جاءت في سفر صموئيل ثان^(١) هذا وقد أطلق إيشبعل على نفسه - كما فعل أبوه من قبل - لقب «ملك إسرائيل» وادعى أنه يحكم كل القبائل الإسرائيلية، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت عن القبائل الأخرى، فإن التصور السياسي لإسرائيل تحت حكم إيشبعل، إنما يشمل فقط الجزء الأكبر من القبائل، باستثناء القبائل الجنوبية^(٢).

وأما الفلسطينيون فقد كانوا يرقبون الموقف عن كثب، وكان يهمهم في الدرجة الأولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تمامًا، وربما رأوا في قيام هاتين المملكتين الإسرائيليتين تحقيقًا لأغراضهم، فما كان الفلسطينيون بكارهين أن يروا أعداءهم ضعافًا عن طريق الانقسام الداخلي، بل ربما كان الفلسطينيون أنفسهم هم الذين أقاموا هاتين المملكتين الإسرائيليتين تابعتين لهما، الواحدة في حبرون، وعلى رأسها داود، والأخرى: في الشمال، وعلى رأسها إيشبعل^(٣) وربما كانت هذه المملكة الأخيرة تحت السيادة الفلسطينية^(٤).

وأما مملكة داود، فليس هناك من شك في أنهم إنما كانوا ياركون

(١) صموئيل ثان ٢: ٨.

M. Noth, op.cit., p. 183-184.

(٢)

Kathleen, M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London, 1970, p. 240. (٣)

The Jewish Encyclopaedia, N.Y., 1903, p. 452.

(٤)

قيامها، ذلك لأن داود كان ما يزال تابعاً لهم، فهو كمستأجر لـ «صقلع» إنما كان مجبراً على أن يقدم لهم خدماته الحربية، مع رجاله من المرتزقة، ومن هنا فإن الفلسطينيين لم يكن لهم أى اعتراض على قيام رجال يهوذا بانتخاب تابعهم ملكاً عليهم، وسواء وثق الفلسطينيون بداود، أم لم يشقوا به، فهم على أية حال، قد جلبوا لأنفسهم كسباً بإقامة مملكة يهوذا منفصلة ومتضمنة انشقاقاً بين الإسرائيليين، وهو يؤدي بالتأكيد إلى إضعاف إسرائيل، كما أنه فى الوقت نفسه إنما يقضى على تحالف القبائل الاثني عشر، كوحدة سياسية وحربية، لأن القبائل الجنوبية إنما كانت تعمل على عدم استمرار هذا التحالف، ومن هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجرى من أحداث^(١)، ذلك لأنهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر، كما كانوا قانعين بترك مواليهم من بنى إسرائيل يحطم بعضهم البعض الآخر^(٢).

(٤) داود وتوحيد إسرائيل:

كان طموح داود أعظم من أن تكفيه منطقة ضئيلة فى أقصى جنوب فلسطين، كالتى اعترفت بسلطانه، فبدأ يرنو بناظره نحو الشمال، الذى استقل تحت حكم إشبعل الضعيف، وكان الصدام بين الحزبين المتنافسين - فى الشمال والجنوب - أمراً لا مفر منه^(٣).

وهكذا بدأ داود يعد عدته - سياسياً وعسكرياً - ومن ثم فإنه لا يكتفى بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية، ولكنه يمدّها إلى شرق الأردن، وبدون انتظار أو إنذار، فإنه قد تزوج من ابنة ملك «جشور» الآرامى، لأن مملكته كانت مجاورة ليايش جلعاد، حيث لجأ إشبعل وتحصن هناك، كما أنه دخل فى حلف مع ملك عمون، ليطبق كماشته على إشبعل.

M. Noth, op.cit., p. 183.

H.R. Hall, op.cit., p. 427.

C. Roth, op.cit., p. 17.

(١)

(٢)

(٣)

ونقرأ فى التوراة أن داود إنما قد بدأ بعد ذلك يتفاوض مع رجال عدوه، ويدفعهم إلى خيانتته عن طريق الإغراء، تقول التوراة: «فأرسل داود رسلاً إلى يايش جلعاد، يقول لهم: مباركون أنتم من الرب، إذ قد فعلتم هذا المعروف بسيدكم شاول فدفعتموه، والآن ليصنع الرب معكم إحساناً وحقاً وأنا أيضاً أفعل معكم هذا الخير، لأنكم فعلتم هذا الأمر، والآن فلتشدد أيديكم وكونوا ذوى بأس، لأنه قد مات سيدكم شاول، وإياى مسح ببيت يهوذا ملكاً عليهم»^(١)، فداود هنا يثنى على أعدائه لأنهم فعلوا خيراً مع رئيسهم شاول، الذى كان عدو داود اللدود، وهو يعدهم بأنه سيعيد لهم هذا المعروف، غير أنه لا ينسى أن يعرض عليهم مشروع مؤازرته فى مسحه ملكاً على يهوذا، إذا أرادوا أن يحفظ لهم معروفهم^(٢).

ومن ثم فقد وجد داود فيما بعد أصدقاء مخلصين من أمثال «برزلاى» الجلعادى، و«شوبى بن ناحاش» العمونى، وبالتالي فقد أصبح الموقف العام فى يهوذا ضد إسرائيل، بل وقد استفادت يهوذا نفسها من المشاكل الإسرائيلية^(٣)، ثم ما لبثت يهوذا وإسرائيل - تحت حكم داود وإيشبعل - أن غرقتا فى اشتباكات عسكرية فى منطقة الحدود، وعندما قرر «أبنير» غزو مملكة داود الصغيرة، ثم ضمها لمملكة إسرائيل، فإنه هزم فى «جبعون» على يد «يوآب»، وهو واحد من حاشية داود، والذى يقوم بقيادة جيشه^(٤).

وهناك على مبعدة سبعة أميال إلى الشمال من أورشليم، اكتشفت البعثات الأمريكية فى عام ١٩٥٦، آثار أسوار مدينة «جبعون»، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية فى تلك الأيام الخوالى، من بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وطبقاً لما جاء فى التوراة، فلقد حدث قتال عنيف

(١) صموئيل ثان ٢: ٨.

(٢) إسماعيل راجى الفاروق، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٤-٤٥.

(٣) S.A. Cook, CAH, II, 1931, p. 373.

(٤) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 188.

فى هذه البقعة يدأ بيد، بين أعوان المتنافسين^(١)، وقتل «أبنير» أخا يوبأ «عسائيل»، ومن ثم فقد أصبح هم «يوبأ» بعد ذلك أن يأخذ بشأره من أبنير^(٢)

وجاء فرصة داود حين دب النزاع بين أبنير، وسيده إيشبعل، بسبب «رصفة» سرية شاول^(٣)، وبدأ أبنير يتآمر ضد سيده، وذلك حين أرسل إلى داود يعرض عليه أن ينضم إليه - ومنعه القبائل التى تحت حكم إيشبعل - واستعد داود لاستقبال «أبنير» وإن اشترط أن يحضر معه «ميكال» ابنة شاول، لتكون له زوجة، وكان هذا الأمر بالنسبة لأبنير بمثابة وضع حد نهائى لعلاقته بإيشبعل، ونقل ولائه إلى داود، ووفى أبنير بهذا الشرط، وتفاوض مع داود فى حبرون ووصل إلى شروطه معه، ولكن الخطة لم تنفذ، إذ قتل أبنير بيد يوبأ عند مدخل حبرون، بحجة الثأر منه لأخيه «عسائيل»، ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ كان يوبأ يخشى على مركزه من أى اتصال بين أبنير وداود.

وسرعان ما قتل «إيشبعل» بيد أخوين من رجاله - هما بعنة وركاب - وناسب اغتيال إيشبعل أهداف داود تمامًا، ولكن حضور القاتلين إليه فى حبرون، ومعهما رأس إيشبعل، لكى يتلقيا الجزاء والثناء، إنما قد أقلق داود كثيرًا، فإذا كان قتل أبنير قد أثار الشكوك من قبل، فإنه يبدو واضحًا الآن أن داود إنما يحاول أن يشق طريقه بالجريمة، ومن ثم فقد أمر داود أن يقتل الرجلان فى الحال، وأن تدفن رأس إيشبعل فى مقبرة أبنير فى حبرون^(٤)، وبعد مقتل إيشبعل أصبح «مفيبوشث» بن «يوناثان» بن شاول - ذلك

(١) صموئيل ثان ١٣-١٢، وكذا.

J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, p. 62-75, UMB, 21, 1957. p. 3-26.

W. Keller, op.cit., p. 188

وكذا:

(٣) صموئيل ثان ٣-٦-١١

(٢) صموئيل ثان ٢-١٣-١

M. Noth, op.cit., p. 180

(٤) صموئيل ثان ٣-١-١٣، وكذا

الأعرج الصغير - إنما هو الآن الذكر الوحيد الباقي من نسل شاول^(١).

وهكذا تخلص داود من معارضييه، وخلص له حكم إسرائيل وحده، ودانت له الأسباط جميعاً، وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك، إلى حبرون، فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل، كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون، ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا^(٢).

وأما متى كانت سنوات حكم داود هذه؟ فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فهناك من يجعلها في الفترة (١٠١٠ - ٩٥٥ ق.م)^(٣)، ومن يجعلها في الفترة (١٠٠٤ - ٩٦٢ ق.م)^(٤)، ومن يجعلها في الفترة (٩٨٥ - ٩٦٣ ق.م)^(٥)، ومن يجعلها في الفترة (١٠١٢ - ٩٧٢ ق.م)^(٦)، ومن يجعلها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)^(٧)، وهكذا.

(٥) داود والفلسطينيون

كان الفلسطينيون ينظرون إلى التطورات الجديدة بقلق شديد، إذ أن فيها قلباً لكل الموازين القديمة، فقد كانوا يعتبرون كلا من إيشبعل وداود من مواليتهم، وبخاصة فقد كان داود قبل ذلك، قانعاً بدائرة ملكه الصغيرة

The Jewish Encyclopaedia, 4, p. 451.

(١)

(٢) صموئيل ثان ٥: ٣-٥.

G. Roux, op.cit., p. 454.

(٣)

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959, p. 81.

(٥)

Isidore Epstein, Judaism, 1970, p. 35.

(٦)

W.F. Albright, op.cit., p. 120-122.

(٧)

وسوف نتبع في هذا الكتاب التواريخ التي قدمها لنا «وليم فوكسويل أولبرايت»، في كتابه:

The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N.Y., 1963.

فى حبرون، تاركًا لهم حرية الإغارة على القبائل الشمالية فى أى وقت يشاءون، ومن هنا فإن الفلسطينيين لم يتقبلوا عن رضى اتحاد قوى اليهودية وإسرائيل، تحت قيادة داود - البطل الجديد وتابعهم القديم - وهكذا بدأوا يفكرون فى مقاومة هذه الوحدة، التى كان من الواضح أنها تهدد لسيطرتهم على فلسطين^(١).

ونقرأ فى التوراة : «وسمع الفلسطينيون أنهم مسحوا داود ملكًا على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، واحتلوا وادى الرفائيين»، ويرجح أنه وادى البقاع جنوب غربى أورشليم، وذلك لأن منطقة أورشليم هى التى تفصل المناطق التى تحتلها إسرائيل، عن تلك التى تحتلها يهودا، وبهذا قطعوا اتصال داود بالأسباط الشمالية، أو على الأقل، عملوا على منع جميع جيوش المملكتين، حتى اضطر داود - فيما يرى الدكتور ماير - إلى الالتجاء، برجاله وأتباعه الستمائة، إلى الحصن الذى لا بد أن يكون هو «مغارة عدلام» الشهيرة^(٢).

وشرع داود يستعد لملاقاة الفلسطينيين بفرقته من الجنود المحترفين، وربما قام بهجوم مفاجئ، قرب «مذبح بعل فراصيم» على «جبل فراصيم» - قرب وادى جبعون، وربما مكانه الآن رأس السنادر - فقد أتى داود من الجنوب من حبرون، وربما اقترب من سهل رفائيم، فى الطريق الأصغر، ولهذا لم يتلفتوا إليه، وقد نجح فى قهر الفلسطينيين تمامًا وهزيمتهم باستخدام وسائلهم الخاصة، فقد كان قائدًا من المرتزقة الذين كانوا يعملون مع الفلسطينيين، وكان يعرف أسلوبهم فى الحرب، فلم يواجههم - كما فعل شاول - بالجانب الأكبر من قواته، وإنما بفرقة من المرتزقة، التى ربما كانت قد عززت وتطورت أثناء حكم الملك على يهودا، وكانت لديها الفهم

M. Noth, op.cit., p. 187.

(١)

(٢) ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٠٩.

المحترف لفن الحرب، وهكذا هزم داود الفلسطينيين بهذا الجهاز السريع الحركة، وبمهارته المنقطعة النظير^(١).

ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية، بعد أن قدروا - نتيجة الجولة السابقة - القوة والمهارة الحربية لعدوهم، الذى كان تابعاً لهم منذ سنين عدداً، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهة، ومن ثم فسرعان ما ظهر مرة ثانية فى وادى رفائيم، وهزمهم داود مرة أخرى، فى مكان تصفه التوراة هذه المرة بأنه «مقابل أشجار البكا»^(٢)، وربما أطبق داود هذه المرة بقواته على الفلسطينيين من جانب دولة إسرائيل - من الشمال - وبلا شك فقد كان ذلك فجأة، كما حدث من قبل، وعلى أى حال - وطبقاً لرواية التوراة - فقد قام داود «بضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر»^(٣)، وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنها «من جبعون إلى جازر»^(٤)، مقتفياً أثرهم حتى حدود بلادهم»^(٥).

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه وأكثرهم أهمية، كما كتب له نجاحاً بعيد المدى فى طردهم من المناطق الإسرائيلية، بل إننا لنسمع عن قتال دقت طبوله عند «جت» - وهى واحدة من المدن الخمسة الرئيسية فى الاتحاد الفلسطينى - ومن ناحية أخرى، فقد احتفظ داود بمدينة «صقلع»، وأورثها لولده من بعده، بل وقد أصبحت مدينة «جت» مدينة إسرائيلية تحت حكم داود^(٦).

M. Noth, op.cit., p. 187-188.

(١)

(٢) صموئيل ثان ٢٣: ٥.

(٣) صموئيل ثان ٢٥: ٥.

(٤) أخبار أيام أول ١٦: ١٤.

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 188-189.

(٥)

Adolphe Lods, Israel, From its Beinnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 360.

(٦)

ومع ذلك كله، ورغم انتصارات داود على الفلسطينيين - والتي حدثنا عنها التوراة في سفر صموئيل الثاني^(١) - والتي، وإن لم تجعل الفلسطينيين تابعين لداود سياسياً، فقد أجبرتهم على الاعتراف بسيادته على الجزء الأكبر من البلاد، ومع ذلك كله، فقد بقي الفلسطينيون في إقليمهم الصغير، القوة الوحيدة التي لم يقدر لداود أن يخضعها إن عاجلاً أو آجلاً^(٢).

ولعل السبب الرئيسى فى فشل داود فى إخضاع الفلسطينيين لنفوذه، إنما كان مصر؛ ذلك لأن مصر - رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف فى هذه الآونة - فلقد أعطت الفلسطينيين من تأييدها، ما يمنع داود من ضمهم أبداً إلى نفوذه، بل إن السهل الساحلى الفلسطينى لم يصبح أبداً جزءاً من الأملاك الإسرائيلية، هذا فضلاً عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة فى القرن الثامن والسابع قبل الميلاد^(٣).

(٦) داود ومؤاب

بدأ داود يقو بحملات ضد كل أعداء إسرائيل القدامى، ومع أن مملكة مؤاب قد قدمت الكثير من كرم الضيافة لوالدى داود، اللذين أودعهما هناك عندما هرب من غضب شاول، ورغم أن «راعوث» جدة داود - إنما كانت مؤابية كذلك، ورغم أن التوراة لم تذكر أية أسباب خاصة للحرب مع مؤاب، إلا أن مؤاب إنما كانت أول قوة هوجمت وهزمت، وذبح أكثر سكانها، وأخضع الثلث الباقي للسبى والإذلال^(٤)، وهكذا أصبحت مؤاب ولاية تابعة لداود، وكما تقول التوراة: «وأصبح المؤابيون عبيداً لداود يقدمون هدايا»، وإن استمر النظام الملكى فيها، مع الاعتراف بالتبعية لداود^(٥).

(١) صموئيل ثان ٥: ١٧-٢٥.

M. Noth, op.cit., p. 194.

(٢)

K.M. Kenyon, op.cit., p. 244.

(٣)

H.R. Hall, op.cit., p. 430.

(٤) صموئيل ثان ٨: ٢، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 194.

(٥)

(٧) داود والعمونيون والآراميون

ونقرأ في التوراة عن حروب ضد الآراميين^(١)، وطبقاً لما جاء في سفر صموئيل الثاني^(٢)، فقد اندفع الآموريون إلى هذه الحرب، بسبب تهوور العمونيين، وبسبب عدم الاكتراث بالموقف الجديد في إسرائيل.

وللعمونيين إنما كانوا ما يزالون يخططون للتوسع على حساب الإسرائيليين في شرق الأردن، بالرغم من هزيمتهم على أيام شاول، وكان السبب المباشر لهذا الصدام هو إساءة العمونيين لرسول داود، الذين كانوا في مهمة ودية بمناسبة تيسير السلطة في عمون، حيث قام «حانون» ملك عمون «وحلق أنصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط إلى أستاههم، ثم أطلقهم»^(٣).

وأدرك العمونيون أن الحرب أصبحت أمراً لا مفر منه، ومن هنا بدأوا يطلبون معونة جيرانهم الآراميين في «آرام بيت رحوب» و«آرام صوبية»، وفي «معكة وطوب»، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال والمعدات، لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلي الذي أمر به داود تحت قيادة «يوآب بن صروية»، ونجح يُوآب في هزيمة هؤلاء الآراميين، ثم «رجع عن بني عمون، وأتى إلى أورشليم»^(٤).

ويعلم «هدد عزر» ملك صوبية بذلك، ويستدعى «آرام الذي في عبر النهر» إلى حيلام - والتي ربما كانت عليم أو علمة في سهل حوران - ويتقدم قائده «شوباك» لملاقاة جيش إسرائيل، وينجح داود - الذي يبدو أنه كان على رأس جيشه هذه المرة - في إحراز النصر^(٥).

(١) صموئيل ثان ٨: ٣-٨.

(٢) صموئيل ثان ١٠-٢٣.

(٣) صموئيل ثان ١٠: ١-٥.

M. Noth, op.cit., p. 194-195.

(٤) صموئيل ثان ١: ٦-١٤، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 195.

(٥)

وفى العام التالى يصدر داود أمره إلى قائده «يؤاب» بأن يدمر أرض العمونيين، وأن يحاصر عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» - وتقع عند منبع يوق، على مبعده ٣٥ كيلا إلى الشرق من الأردن - وأخيراً أسرع داود بنفسه، بناد على طلب قائده، ليكون موجوداً عند الاستيلاء على قلعة المدينة، حيث عاقب العمونيين بقسوة، وطبقاً لرواية التوراة، فإن داود أمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم، وشرعهم بالمنشار، بعد أن وضعهم تحت نوارج وفؤوس من حديد، ثم وضع التاج العمونى - بما فيه من ذهب وأحجار كريمة على رأسه، وبعبارة أخرى، فقد جعل نفسه ملكاً على عمون^(١).

(٨) داود وآدوم

اتجه داود بعد ذلك إلى الجنوب - إلى آدوم - وكما نعلم من روايات التوراة - فإن مملكة آدوم لم تقم بأى عمل ضد داود بخاصة، والإسرائيليين بعامة، ومع ذلك فقد كانت - دائماً وأبداً - مكروهة من إسرائيل، وهكذا ودون أن نعرف السبب - كما كان الأمر بالنسبة إلى مؤاب - فقد هوجمت آدوم وأقيمت فيها مذبحه مروعة للذكور من أبنائها^(٢)، وطبقاً لرواية سفر الملوك الأول، «فإن يوأب وكل إسرائيل أقاموا فى آدوم ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى آدوم»^(٣).

ونقرأ فى التوراة - كما جاء فى سفر صموئيل الثانى^(٤) - أن داود قد هزم آدوم فى «وادي الملح» - والذي يظن أنه السنجة جنوبى بحر لوط - ويبدو أن ملك آدوم «حداد الثانى» - وهو الملك الثامن من هذه السلسلة - قد قتل فى هذه الموقعة، ولكن ولده (هدهد) - والذي ربما كانت أمه

M.Noeth, op.cit., p. 195.

(١) صموئيل ثان ١٢: ٢٦-٣١؛ وكذا:

H.R. Hall, op.cit., p. 431.

(٢)

(٣) ملوك أول ١١: ١٥-١٦.

(٤) صموئيل ثان ٨: ١٣.

مصرية - قد استطاع الهروب إلى مصر، حيث تزوج هناك من أميرة مصرية، «أنخت تحفنيس الملكة»، وعاش هناك ضيقاً على فرعون إلى أن مات داود، حيث بدأ الأمل يعاوده في استعادة حقه الشرعى فى عرش أدوم^(١).

وأما داود فقد استطاع أن ينظم أدوم كولاية تحت إمرة حكامه، وأن هذه الولاية البعيدة كانت مع ذلك مهمة بالنسبة إلى داود، فهى تمكنه من الوصول إلى خليج العقبة، ومن ثم إلى البحر الأحمر، هذا فضلاً عن أنها إنما تحتوى على كثير من الرواسب المعدنية على حدود وادى العرب^(٢)، ومن هناك كانت أدوم ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة إلى داود، ذلك لأن الصحراء الحربية، والتي تمتد من نهاية جنوب البحر الميت، وحتى خليج العقبة، إنما كانت غنية بمعدنى النحاس والحديد^(٣)، وهكذا فإن داود سرعان ما استغل ذلك، «وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب وللوصل، ونحاساً كثيراً بلا وزن»^(٤).

(٩) دولة داود ومدى اتساعها

لا ريب فى أن داود - عليه السلام - إنما قد كتب له نجاحاً بعيد المدى فى أن يخلص قومه الإسرائيليين من النير الفلسطينى، وفى أن يحقق لهم الاستقلال التام، بل وأن يوجد لنفسه نفوذاً فى مؤاب وأدوم وعمون، وفى أن تقدم له الهدايا - وليس الجزى - من آرامى دمشق، هذا فضلاً عما كتب له من نجاح فى إقامة علاقات المودة مع «ترعى» ملك حماة، نكاية فى عدوهما المشترك «حدد عزرا» ملك الآراميين فى صوبة.

(١) ملوك أول ١١ : ١٤-٢٢، وكذا:

H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 431;

W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 65.

وكذا:

M.Nothe, op.cit., p. 196.

(٢)

W. Keller, op.cit., p. 188.

(٣)

(٤) أخبار أيام أول ٢٢ : ٤٤، وانظر: سورة سبأ، آية : ١٠-١١.

ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيراً في تقدير سعة مملكة داود، فنطلق عليها وصف «إمبراطورية» - كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين الأوربيين^(١) أو نبالغ في حدودها - كما فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين - فنجعلها تمتد من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن دمشق إلى الخليج العربي^(٢).

ومن ثم فربما كان ما حدده الحاخام الدكتور «إبشتين» ليس فيه من المبالغة الكثير، إذ رأى أنها إنما كانت تمتد من فينيقيا في الغرب إلى حدود الصحراء العربية في الشرق، ومن نهر العاص (الأورنت) في الشمال إلى رأس خليج العقبة في الجنوب^(٣)، ذلك لأن التوراة نفسها إنما تذهب إلى أن مملكة إسرائيل إنما كانت في أقصى اتساع لها «من دان إلى بحر سبع»^(٤)، ومن ثم فالتوراة - كتاب اليهود المقدس، والتي اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل - إنما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» والتي تقع عند سفح جبل حرمون، عند تل القاضي، حيث منابع الأردن، على مبعده ثلاثة أميال غربي بانياس^(٥) - ومن الجنوب «بحر سبع» الحالية، ولم تشر التوراة إلى حدود لإسرائيل من الغرب أو الشرق.

هذا فضلاً عن أن «فينيقيا» كانت - وبخاصة على أيام «حيرام» (أحيرام ملك صور ٩٨٠-٩٣٩ ق.م)^(٦)، سند الإسرائيليين الرئيسى في الاقتصاد والفن والعمارة - مستقلة، ولم تذكر التوراة نفسها أن «حيرام»

(١) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, p.583.

(٢) علي إمام عطية، الصهيونية العالمية وأرض الميعاد، ص ٦٣.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 35.

(٤) قضاة ٢٠ : ١ ؛ صموئيل أول ٣ : ٢٠ ؛ صموئيل ثان ٢٣ : ٢ ؛ أخبار أيام ثان ٢١ : ٣١ ؛ وكنا :

M.F. Unger, op.cit., p. 236.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٢٥٦/١-٢٥٧.

(٦) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، ص ٧١.

كان خاضعاً لداود أبداً، بل إن الذى يفهم من التوراة أن داود إنما قد حاول جاداً أن يوطد علاقاته الودية بحماه فى أقصى الشمال، فضلاً عن الفلسطينيين فى الغرب، وأن السيطرة العبرية على أيام داود، لم تكتمل أبداً باستيلاء الإسرائيليين على كل فلسطين، وحتى الجزية فلم تكن - فيما يبدو - ترسل إلى القدس.

أضف إلى ذلك أن الرؤساء الفلسطينيين الجنوبيين إنما كانوا قد وضعوا أنفسهم - راغبين لا مكروهين - تحت حماية فراعين مصر الشماليين فى «تانيس» والذين يبدو أنهم كانوا يتبعون سياسة نشطة فى فلسطين فى تلك الأيام، ومن ثم يصبح هذا هو التفسير الصحيح لحقيقة أن «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (حوالى ٩٤٥-٧٣٠ ق.م.) عندما غزا «يهوذا» بعد موت سليمان، فإنه قد سجل كل المدن التى استولى عليها، ولم يذكر من بينها هذه المدن الفلسطينية، ومن هذا يتضح أن هذه المدن كانت تحت الحكم المصرى، وفى عهد سليمان، فإن فرعون إنما كان يعتبر مدينة «جازر» من ممتلكاته، يمكنه أن يحرقها ويدمرها بدون اعتراض من العبرانيين^(١)، بل إن فرعون كنس التوراة نفسها - إنما قدم هذه المدينة مهراً لابنته امرأة سليمان^(٢).

ومن هنا رأينا «هربرت ويلز» (١٨٦٦-١٩٤٦ ق.م.) يقرر أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوماً ما - ولن تقع - فى قبضة العبرانيين، هذا فضلاً عن أن ما وطمه ملك داود، وهياً له شيئاً من الاتساع، أن أمور مصر كانت فى عهده مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور آشور مرتبكة كذلك، وقد منح هذا كله لداود شيئاً من الحرية والنشاط والتبسط وممارسة السيادة^(٣).

وأياً ما كان الأمر، فإن حكم داود يمثل فترة الرخاء الوحيدة التى قدر

(٢) ملوك أول ٩: ١٦.

(١) H. R. Hall, op.cit., p. 431.

H.G. Wells, The Outline of History, 1965, p. 279.

(٣)

للسعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر، وهي تقوم على مخالفة وثيقة الأواصر مع مدينة «صور» الفينيقية، التي يلوح أن ملكها «حيرام» (٩٨٠-٩٣٦ ق.م) كان رجلاً قد أوتى نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على المغامرة، وكان ينبغي أن يكفل التجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية، وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر، بيد أن مصر كانت في تلك الفترة في حالة بالغة من الفوضى.

ولعل عقبات أخرى حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق، فذلك ليس موضوع دراستنا الآن، ومهما يكن من أمر، فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود - وكذا ولده سليمان - أوثق العلاقات، وعند ذلك أنشئت برعاية حيرام، أسوار أورشليم وقصرها ومعبداتها، وفي مقابل ذلك، بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب^(١)، بخاصة وأن داود قد سيطر تماماً على طرق القوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية^(٢)، والتي كانت تمر في مملكته من النهاية الشمالية لخليج العقبة على الجانب الشرقي لوادي عربة، وحتى غوطة دمشق، ثم ترتبط بالطرق المؤدية إلى شمال سورية فآسيا الصغرى، وتلك التي تمر بالصحراء الغربية إلى ميزوبوتاميا، مما كان له أكبر الأثر في حالة دولة داود الاقتصادية، بل إن هناك من يذهب إلى أن حروب داود إنما كانت تهدف إلى هذا الغرض، على الرغم من أن المصادر المتبقية من عهده لا تعطى أهمية لذلك^(٣).

(١) Herbert George Wells, A Short History of the World, p. 76.

(٢) انظر عن هذه الطرق في بلاد العرب: محمد بيومي مهران، «دراسات في تاريخ العرب القديم»، ص ١٢٣-١٣٦ (الرياض ١٩٧٧).

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(١٠) الأدب العبراني في عهد داود:

نمى الأدب اليهودي كثيراً في عهد داود، كما بدأ الكهنة ورجال الدين يسجلون العقائد الإسرائيلية، وقد اعتمد كتاب العهد القديم (التوراة) على هذه المصادر جميعاً، فضلاً عن الحوليات الملكية، وبهذا فقد صور لنا هذا العصر في صور حية واقعية، على أنه من الجدير بالملاحظة هنا أن هذه الكتابات اليهودية لا تتحدث عن داود الملك، وإنما تتحدث عن داود الإنسان، وهي في هذا لم ترتفع إلى مستوى داود النبي، الأمر الذي صورته القرآن الكريم في جلاء ووضوح، وإن حاولت في بعض الأحيان أن تتخلص من السقوط المريع الذي وصلت إليه بشأن النبي الأواب، فوصفته بما يتفق ومكان النبوة السامى إلى حد ما، كما نرى في بعض آيات قليلة من أسفار صموئيل الثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الثانى وإشعيا وهوشع^(١).

وعلى أى حال فهي - فيما يرى بعض الباحثين - صورة لما يستطيع أن يكتبه الإنسان المعاصر^(٢)، كما أنها تمثل أول محاولة عندهم لكتابة التاريخ، وأيا ما كان أمر هذه الكتابة، فإن الشعر قد نمى على أيام داود، وكان داود نفسه يقرض الشعر، وقد بلغ من تضلعه في الشعر والموسيقى أن الأجيال اللاحقة قد نسبت له وضع عدد من المزامير، التي بلغ من قيمتها الإنسانية العامة، وأهميتها الدائمة، أنها لا تزال تستخدم كمصدر روحى، وكوسيلة لرفع القوى الروحية^(٣).

(١١) التنظيمات الإدارية والدينية والعسكرية في عهد داود

لا ريب في أن مملكة إسرائيل على أيام داود، إنما كانت تحتاج إلى

(١) صموئيل ثان ٨: ١٥، ٢٢: ٢١، ملوك أول ١١: ٣٨، ١٥: ٣، ١٠: ١٣، ملوك ثان ١٨: ٣؛

أخبار أيام ثان ٢٨: ٤-٥؛ إشعيا ٥٥: ٣-٤؛ هوشع ٣: ٥.

(٢) انظر: الإصحاحات من ٩ إلى ٢٠ من صفر صموئيل الثانى.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

عدد من الموظفين، أكبر عما كان الأمر عليه على أيام سلفه «شاول»، ومع ذلك فإن الهيئة الإدارية في بلاط أورشليم، إنما كانت أقل تأثيراً بالنسبة إلى غيرها في الدول المجاورة، فدولة إسرائيل الحديثة العهد، كانت ماتزال في درجة من البداوة والفقر، مما يجعلها أقل من أن تصل إلى مستوى جيرانها، وإن حاولت أن تقلد ما عند الدول العريقة من نظم إدارية، وعلى سبيل المثال، فإن «المذكر» Mazkir والكاتب، إنما حاولت بهما إسرائيل تقليد بلاط الفراعين العظام ذلك لأن هناك ما يشير إلى أنهما إنما يشبهان اثنين من الموظفين في البلاط المصري^(١).

وعلى أى حال، فإن مسجل داود - أو رئيس ديوانه - لابد وأنه كان موظفاً هاماً يوحى بالاحترام، وكانت وظيفته تدوين الحوادث الهامة، وحفظ الحوليات الملكية^(٢)، التي كانت دون شك، أساس كل الإشارات الحقيقية في التوراة للنظام الإدارى والبناء الاجتماعى فى عهد داود، ومن بينها الإشارة إلى التعداد القومى الكبير^(٣)، الذى سار على الخطة التى اتبعت فى ماري، فضلاً عن المعلومات التى وصلتنا عن حرس داود، والتى كان مكوناً من الكريتيين والفلسطينيين^(٤).

وليس هناك من ريب فى أن مدون الأخبار هذا، إنما كان أول من يدون الاسم الجديد لمليكه، ذلك أن داود - فيما يرى بعض الباحثين - لم يكن فى كل الاحتمالات يدعى «داود» على الإطلاق، وقد كان هذا الاكتشاف مدهشاً، وقد قام به حديثاً علماء حيرتهم عبارة فى نصوص معينة من قصر «مارى» على الفرات، فقد ظهرت فجأة الكلمة «دافيدم» - Davidi- um مكررة فيه، وهى تعنى «وال» أو «قائد جيش»، ومن ثم فهى ليست

O.Eissfeldt, op.cit., p. 584-585.

(١)

(٢) صموئيل ثان ٢ : ١٦، موك ثان ١٨ : ١٨، ٣٧.

(٣) صموئيل ثان : إصحاح ٢٤

(٤) صموئيل ثان ٨ : ١٨، ١٥ : ١٨، ٢٠ : ٧.

«اسم علم»، ولكنها «لقب» وقد أصبح فيما بعد اسم العلم «قيصر» لقباً، ومن قيصر هذا حصلنا على «كايزر» و«شيزار».

وفي حالة داود، فيبدو أن أسلوب الاشتاق سار في طريق عكسي، فلقبه العسكري - والذي من المحتمل أنه يرجع إلى عهد سابق أيام أن كان Con-dottiere - قد تحول إلى «اسم علم» له، ومن ثم فقد أصبح «دافيدم» هو (دافيد David) (داود) وأنه قد لصق به إلى يومنا هذا^(١).

وعلى أي حال، فرغم أننا لا نعرف الكثير عن الشؤون الإدارية في إسرائيل على أيام داود، فليس هناك من شك في أن داود إنما كان مسئولاً عن بعض التغييرات الأساسية في شؤون الإدارة، والدليل على ذلك من قائمة الموظفين الكبار، والتي جاء في التوراة - كما رواها سفر صموئيل الثاني^(٢) - وكان كل منهم يدير هيئة من الهيئات الحكومية، يساعده في ذلك دون شك هيئة من الموظفين الصغار، ومن الواضح أن هذا التنظيم قد أصبح تدريجياً، ذلك لأن المقارنة بين القائمة التي قدمتها لنا التوراة في سفر صموئيل الثاني^(٣) - والتي ترجع على أية حال، إلى الجزء الأخير من عهد داود - وتلك التي قدمتها لنا التوراة كذلك - في سفر الملوك الأول^(٤) - عن موظفي عهد سليمان الكبار - تظهر المقارنة بوضوح تلك الزيادة المستمرة في عدد الموظفين الرئيسيين^(٥).

وأما في الشؤون الدينية، فقد بدأ داود يعمل على ضم رجال الكهنوت

W. Soden, WO, I, 3, 1948, p. 197.

(١)

W. Keller, op.cit., p. 192.

وكذا:

M.Nothe, op.cit., p. 179.

وكذا:

(٢) صموئيل ثان ٨: ١٦-١٨، ٢٠: ٢٣-٢٦

(٣) صموئيل ثان ٢٠: ٢٢-٢٦

(٤) ملوك أول ٤: ٢-٦

M. Nothe, op.cit., p. 271.

(٥)

إلى بلاطه، فبدأ بملء وظائف الكهنوت الشاغرة، بعد مذبحة (نوب) - على جبل المكبر، شرقي القدس - حيث قتل شاول كل نساء المدينة ورجالها وأطفالها وماشيتها، لإيوائها داود^(١) - بواسطة مرشحيه هو، وبخاصة من أبنائه، وهكذا تمكن داود من أن يمنع احتمال التدخل الديني في سلطانه^(٢).

وإذا كان الإله في المزمور (٧: ٩٥) يعنى حقيقة الملك - كما يرى بعض الباحثين - فإن الملك إذن يتحدث كإله بطريقة تختلف تماماً عن العادات والتقاليد الإسرائيلية القديمة^(٣)، ويبدو أن داود قد حفظ في ذاكرته كل تنظيمات الطقوس الدينية لعبادة (يهوه)، خاصة بشكل موسيقى كبير، وأنه في هذه التنظيمات كذلك قد اتبع التأثير الأجنبي إلى حد كبير^(٤).

وعلى أى حال، فقد كان داود في تنظيمه لمملكته يستوحى المثل الشرقية العظمى من الممالك المجاورة له، ولكن من الطبيعي أن دولة داود إنما كان يغلب عليها الطابع العسكرى، أكثر مما يغلب على مصر وبابل، وكانت هناك شخصيات حربية مرموقة، مثل قائد الجيش (يؤاب بن صروبة)، ورئيس فرقة الجنود المرتزقة (بنايا هو بن يهويا داع).

ومع ذلك فعلى أن نتذكر أن مملكة داود، إنما كانت تبدو في نظر المصريين والبابليين، كما لو كانت مملكة بربرية للغاية، ونظامها تقليد عقيم للإمبراطوريات الكبرى العظيمة في مصر والعراق القديم، وربما لم يكن

(١) سموئيل أول ٢٢: ١٨-٢٣.

H.R. Hall, op.cit., p. 429.

(٢)

O. Eisseldt, op.cit., p. 585.

(٣)

وكذا:

S. Mowinckel, General Oriental and Specific Israelite Elements in the Israelite Conceptions of the Sacred Kingdom, in Suppl. to Numen, IV, 1959, p. 283.F.

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1953, p. 125F. (٤)

O. Eissfeldt, op.cit., p. 585.

وكذا:

التعليم معروفاً وقت ذاك في إسرائيل، ورغم أن بها - كما قلنا آنفاً - بعض الكتابة، ولكننا لا نعرف أى الحروف قد استعملت، ذلك لأننا لا ندرى إن كانت الأبجدية الفينيقية هى التى استعملت فى فلسطين الجنوبية، أم الآرامية، وإن كان من المحتمل أن المسمارية كانت ماتزال هى وسيلة المراسلات الأجنبية^(١)، وأن داود إنما كان عنده كاتب بابلى يدعى «شوشا»^(٢).

وكان الجيش الإسرائيلى على أيام داود، يتكون من عنصرين أساسيين: هما السبا والجيوريم:

(أ) السبا: SABA، أى أفراد الحرس الملكى، وهم جماعة من رجال القبائل الأقوياء، كانوا يستدعون بصوت النفير، ويرفع الأعلام، أو إشعال النار على التلال، وهى قوات بدون زى موحد، كان تجميعها ووضعها تحت السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة^(٣)، وكان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة فى شرق الأردن، وكانوا يحملون معهم «تابوت العهد» إلى أرض المعركة، ومن الواضح أن داود إنما كان ينظر إلى «تابوت العهد» هذا، بأهمية كبيرة، لأنه يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جمعاء^(٤).

(ب) الجيوريم: Gibborim، وهى القوات الدائمة، وقد تكونت نواتها من ستمائة مقاتل، كانوا قد تجمعوا حول داود عندما نفاه شاول - أو بالأحرى عندما هرب منه - وكانوا يسمون «رجال داود الأقوياء»، وإن لم يكونوا جميعاً من الإسرائيليين، بل كان معظمهم فى الحقيقة من شعوب أجنبية^(٥)، وعلى أى حال، فقد كانوا ينتمون إلى داود شخصياً، وليس إلى

H.R. Hall, op.cit., p. 429.

(١)

(٢) أخبار أيام ثان ١٨-١٦.

A. Lods, op.cit., p. 362.

(٣) صموئيل ثان ١٩: ٨-١٠، ملوك أول ٢٢: ١٧، وكنا:

M. Noth, op.cit., p. 198.

(٤)

A. Lods, op.cit., p. 362.

(٥)

القبائل الإسرائيلية، وكانوا سلاحه فى خطواته الأولى نحو العرش الإسرائيلى وقد أحرز بهم انتصارات هامة، كاتتصاره الحاسم على الفلسطينيين، وكاحتلال «دولة المدينة أورشليم»^(١).

هذا وقد كان جيش إسرائيل وقت ذاك مقسماً إلى عدة فرق، فرقة من ألف، وأخرى من مائة، وثالثة من خمسين جندياً، وكانت كل فرقة تحت إمرة قائد خاص، أما اللواء الضارب فهو الذى يكون الحرس الملكى لداود^(٢).

وكان داود مضطراً للحصول على مصادر مالية لإطعام جنده، ودفع أجورهم، ولتغطية مصاريف البلاط، وبخاصة نفقات أبناء الملك الذين كانوا يعيشون فى ترف زائد^(٣)، ويبدو أن داود قد حصل على ذلك من الحروب الناجحة التى كان يتبعها السلب والنهب، وفرض الجزية على المقهورين، وكان «أدورام» مسئولاً عن جمع الجزية، ولا يبدو أنه فى أثناء الاضطرابات التى صاحبت أخريات أيام داود، أن اشتكى الإسرائيليون من دفع الضرائب، وهى فريضة لا تطاق فى نظر البدو^(٤).

(١٢) ورثة العرش والخلافات العائلية

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش فى دولة إسرائيل الجديدة، ولكن بما لا شك فيه أن الابن الأكبر فى إسرائيل كان صاحب الحق فى ذلك، إلا أن مكانة الأم، وتحييز الملك، واختيار الشعب، وموافقة يهوه الصريحة، قد تكون سبباً فى اختيار أحد إخوته الصغار^(٥).

وربما كانت فكرة داود عندما طلب من قبل «ميكال» لتكون له

M. Noth, op.cit., p. 198.

(١)

(٢) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) صموئيل ثان ١٥ : ١، ملوك أول ١ : ٥.

A. Lods, op.cit., p. 363.

(٤)

A. Lods, op.cit., p. 364.

(٥)

زوجة، إنما كان ينبغي من ذلك، أن الابن الأكبر من هذا الزواج - وهو في الوقت نفسه حفيد شاول - إنما سوف تكون له الأفضلية على بقية إخوته، من علات ميكال، وربما يستطيع كذلك هذا الابن المرتقب أن يجذب إليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاول، ولكننا نقرأ في التوراة أنه «لم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها»^(١)، وهكذا ضاع الأمل في أن يكون خليفة داود، هو في نفس الوقت حفيد شاول.

وأما بالنسبة لبقية أبناء داود، فطبقاً للقانون الإسرائيلي، كما قرره التوراة في سفر التثنية^(٢) - فإن للابن الأكبر نصيب الأسد من ميراث أبيه، بصرف النظر عن مكانة الأم بين علاتها من زوجات الأب، ومن هنا كان من الطبيعي أن يخلف داود على عرش إسرائيل أكبر ولده، ولكن هنا في حالة داود - مؤسس الملكية والبيت المالك - فإن الابن الأكبر، الذي ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة، ربما كانت له أفضلية خاصة، ولكن أبناء داود أنفسهم ما كانوا يعيرون المظهر الأخير أية أهمية خاصة، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعاً خلفاء محتملين للعرش، طبقاً لترتيب أعمارهم^(٣).

وهناك في التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا في خيرون، أثناء فترة ملكية داود على يهوذا، يقول سفر صموئيل الثاني: «وكان بكرة أمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلاب من أبيجايل امرأة نابال الكرمل، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت ثلماي ملك جشور والرابع أدونيا ابن حجيث، والخامس شفيا ابن أبيطال، والسادس يشرعام من عجلة»^(٤).

ولكن بما أنه كان لداود زوجتان، على الأقل، تعتبران أقدم من الأخريات (أخينوعم وأبيجال)، وطبقاً لرواية التوراة - في صموئيل الأول^(٥)

(٢) تثنية ٢١: ١٥-١٧.

(٤) صموئيل ثان ٣: ٢-٥.

(١) صموئيل ثان ٦: ٢٢.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 200.

(٥) صموئيل أول ٢٥: ٤٢-٤٣.

- فربما كان البعض من هؤلاء الأبناء أكبر قليلا من الآخرين، وأن القائمة السابقة إنما كانت إضافة لإحصاء أبناء داود، الذين ولدوا في أورشليم^(١) وهم - طبقًا لإحدى روايات التوراة - «شموع وشوباب وناثان وسليمان ويحار واليشوع ونافج ويافيع وأليشمع واليداع، واليفلطة»^(٢).

وهكذا وبالرغم مما قام به داود من جهود في سبيل إعلاء قومه اليهود، فإن حياته - أو النصف الثاني من فترة حكمه على الأقل - قد حفلت بالمآسي، وامتلأت بالصراعات الأليمة بين المطالبين بوراثة العرش من بنيه، ومن هنا كانت دسائس الحريم الملكي، إذ كانت كل واحدة من نسائه الكثيرات ترنو إلى أن يكتب لولدها التوفيق في الوصول إلى عرش إسرائيل، دون غيره، من أبناء داود، ومن هنا نمت الغيرة القاتلة بين الأمراء الشبان، تركيها عاطفة الشباب القوية أحيانًا والهوجاء أحيانًا أخرى.

ويوصف أمنون صراحة - في سفر صموئيل الثاني^(٣) - بأنه ابن داود البكر، من زوجه الأولى «أخينوعم» اليزرعيلية، وهكذا اعتبر أمنون نفسه - كما اعتبره أخوته كذلك - ولي العهد، أو الملك القادم، ولعل الذي كتب قصة الوصول إلى العرش في التوراة كان يشير إلى ذلك، بل إنه ليبدو واضحًا أن هذا هو السبب الوحيد الذي دفعه إلى أن يروى في سفر صموئيل الثاني^(٤) قصة اغتيال «أبشالوم» لأمنون بمثل هذا التفصيل، كجزء من قصة اعتلاء العرش.

وعلى أي حال، فإن أمنون لم يكن حكيماً بما فيه الكفاية، لأن يمد أبشالوم بحجة يعتمد عليها في قتله، وذلك بالاعتداء على أخته غير الشقيقة «تامار» ومن هنا بدأت أحداث قصة أبشالوم، حيث استطاع أن يثار لعرض شقيقته المثلوم، كما استطاع كذلك أن ينجح في إبعاد أمنون منافسه على

(١) M. Noth, op.cit., p. 200.

(٢) صموئيل الثاني ٥: ٣-١٦.

(٣) صموئيل الثاني ٣: ٢.

(٤) صموئيل ثان : لإصحاح ١٣-١٤.

العرش، ووفقاً لرواية التوراة^(١)، فإن «كيلاب» هو الابن الثانى لداود، ومن ثم فقد أصبح صاحب الحق فى العرش، ولكنه سرعان ما يختفى لسبب لا ندره على وجه التحقيق، ومن ثم فقد أصبح أبشالوم - الابن الثالث - هو وريث داود الأول، ولكنه بدوره سرعان ما يختفى فى ثورة دامية، سوف نناقشها حالا، فتصبح ولاية العرش من حق الابن الرابع «أدونيا»، ولكنه لم يصل إلى العرش أبداً، حيث يكون ذلك من نصيب الابن العاشر «سليمان»، كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

(١٣) ثورة أبشالوم

بدأ أبشالوم يعد العدة لاعتلاء عرش أبيه، وكان أول ما فعله أن حصل - بمساعدة يوب - على عفو أبيه المطلق، على قتله لأخيه «أمنون»، وربما كان ذلك العفو من داود بسبب عاطفته نحو بنيه بصفة عامة، وأبشالوم بصفة خاصة، ومن ثم فقد قام «يوب» بالعمل على عودة أبشالوم من «جشور» حيث كان مختبئاً هناك عند أخواله، فذهب يوب إلى جشور، وأتى بولى العهد إلى أورشليم.

وبدا أبشالوم يث الدعوة لنفسه بين قومه اليهود، وسرعان ما نجح فى اكتساب عطف وتأيد القبائل الإسرائيلية، وبخاصة يهوذا قبيلة أبيه، وحين استوثق من النجاح ذهب إلى «حبرون»، بإذن من أبيه، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره إبان إقامته فى «جشور»، وهناك فى تلك المدينة اليهودية الملكية القديمة، أعلن عصيانه ونادى بنفسه ملكاً^(٢).

وفى الواقع أننا لا ندرى تماماً الأسباب التى جعلت داود وقت ذاك غير مرغوب فيه من بنى قومه اليهود، لدرجة أن أبشالوم لم يجد صعوبة فى تنصيب نفسه ملكاً، بل إن ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت إلى صفوفها

(١) صموئيل ثان ٣: ٣.

(٢) صموئيل ثان ٣: ٢٩، ١٤: ١-٣، ١٥: ٧-١٠.

«أخيتوفل» وهو واحد من أخلص مستشاري داود، كما أن مشورته كانت تعد جزءاً من كلمة «يهوه»^(١).

وانطلاقاً من هذا، فربما كانت القبائل الإسرائيلية غير راضية عن اتساع أملاك داود، التي بدأت تمتد إلى ما وراء مناطقها، ذلك لأن ضم إسرائيل لعديد من المدن المستقلة ذات المستوى المتقدم حضارياً، والتي تملك صناعات هامة، هذا فضلاً عن سيطرتها على أراضي كبيرة وغنية، تمر خلالها طرق القوافل كل ذلك أدى إلى رخاء مفاجئ في إسرائيل، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط وكبار الموظفين وقادة الجيش والتجار، بينما كان معظم الناس يعملون جنوداً في الجيش ويتحملون العبء الأكبر من الواجبات التي فرضتها عليهم حروب داود، دون أن يجنوا ثمار هذه الحروب، مما جعلهم يحسون بعيوب هذه السياسة، وبمرور الوقت وتراكم هذه العيوب بدأ الناس يتبرمون بحكومة داود ويتقبلون دعاوى أبشالوم ضد أبيه^(٢)، وأما أخيتوفل، فربما الذي دفعه إلى تيار المؤامرة ضد داود، أنه كان جده «بتشبع» الجميلة، وصاحبة القصة المشهورة^(٣).

وعلى أي حال، فليس من الضروري أن نفترض أنه في بداية ثورة أبشالوم في يهوذا - في مدينة مولده حبرون - أن السبب الأساسي لهذه الثورة، إنما كان ذلك التوتر القائم بين إسرائيل ويهوذا، على الرغم من أن ذلك التوتر إنما ظل قائماً أبداً، وأنه قد لعب دوراً هاماً في هذه الثورة، بخاصة وأن يهوذا إنما بدأت تحس أن داود يفضل إسرائيل عليها^(٤)، ومن

(١) ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٦٢.

O.Eissfeldt, op.cit., p. 585-6.

(٢)

وكذا:

A. Alt, Die Stattenbildung der Israeliten in Palästina München, 1953, p. 56F.

(٣) ف.ب. ماير، المرجع السابق، ص ٢٦٢، وانظر: صموئيل ثان ١١: ٢-١٢: ١٢.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 586.

(٤)

ثم فربما استطعنا أن نضيف إلى أسباب الثورة الرئيسية، ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلية ضد سياسته المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود^(١).

ومع ذلك، فإن وجهة النظر الخاصة بثورة أبشالوم، مازالت تنتظر مزيداً من الوضوح، ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكرى» - عن سبط بنيامين^(٢) - بعد انتصار داود على أبشالوم - كما سوف نشير فيما بعد إنما قد استمدت قوتها الدافعة من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب، ورغم أن داود قد نجح في القضاء على كليهما، وأن القضاء على الثانية كان أسرع من القضاء على الأولى، فالذى لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل، ربما كانت سوف تتغير كثيراً بسبب هاتين الثورتين، لولا وجود شخصية داود القوية^(٣)، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل هو نفسه الذى قضى على الدولة^(٤).

وأياً ما كان الأمر، فإن ثورة أبشالوم هذه إنما كانت جد خطيرة، لدرجة أن داود لم يجد بجواره إلا جنوده المرتزقة، وحتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «محنائيم» تحت حماية التابوت مع مرتزقته، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في أورشليم.

وهكذا استطاع أبشالوم أن يستولى على أورشليم، وأن يغتصب عرش أبيه، بل إنه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرضه، بمشورة أخيتوفل، على مرأى من عامة الناس، «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل»^(٥).

(١) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 158.

(٢) صموئيل ثان ٢٠: ١-٢٢. (٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 586.

(٤) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤١. (٥) صموئيل ثان ١٦: ٢٢.

غير أن بنى إسرائيل إنما بدأوا بعد ذلك يعودون تدريجيًا إلى داود والانضمام إلى جيشه، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من «حبرون»، وعلى رأسهم الكاهنان صادوق وأيثثار، هذا فضلًا عما كان لغرور أبشالوم وأخطائه الكثيرة، وإصغائه للحمقى من المقربين له، من أثر سىء فى نفوس الناس.

وقد حاول أبشالوم أن يمنع عودة أبيه إلى أورشليم، فجمع أنصاره قبل تفاقم الأمر، وزحف بهم إلى شرق الأردن، حيث كان أبوه فى أرض جلعاد، وقد اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار، ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن التوراة قد أطلقت على أتباع داود اسم «الشعب»، وعلى أتباع أبشالوم اسم «إسرائيل»، وعلى أى حال، فلقد بدأ القتال فى «وعر أفرام»، قرب محنايم على الأرجح، حيث أثبت مرتزقة داود أنهم أعلى كعبًا من رجال القبائل الإسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم، ودارت الدائرة على أبشالوم، «فانكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود، وكانت مقتلة عظيمة فى ذلك اليوم» قتل عشرون ألف، وكان القتال هناك منتشرًا على وجه الأرض، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب، على الذين أكلهم السيف فى ذلك اليوم^(١)، وقتل أبشالوم أثناء هربه، على الرغم من أوامر داود الصريحة لجنوده بعدم قتله، مما أدى إلى حزن داود المرير على ولده، حتى «صعد إلى عليّة الباب، وكان يبكى ويقول هكذا هو يتمشى: يا ابنى أبشالوم، يا ابنى يا ابنى أبشالوم، يا ليتنى مت عوضًا عنك، يا أبشالوم ابنى يا ابنى»^(٢)، وهكذا لم يعد أمام القبائل الإسرائيلية سوى المناداة بـداود ملكًا عليها مرة ثانية.

(١) صموئيل ثان ١٨: ٦-٨.

(٢) صموئيل ثان ١٨: ٣٣.

(١٤) ثورة شبع بن بكرى

عاد داود مرة أخرى ملكاً على إسرائيل ويهوذا، غير أن هذه الأحداث التى مرت بها البلاد أثناء ثورة أبشالوم إنما كانت سبباً فى تفجير ثورة كامنة فى النفوس، وقد لعب داود نفسه، ولأول مرة - الدور الأول فى تفجيرها، ذلك أنه أثناء إقامته فى مخنايم كان قد طلب من قبائل يهوذا أن تعيده إلى عرش يهوذا، كفرد منها، وحين فعل اليهوديون ذلك، وعبر الملك إلى الجلجال، على مقربة من أريحا، ظهر ممثلوا قبائل إسرائيل، وأنبوا داود لعدم استعدادهم للاشتراك فى إحضاره إلى الجلجال، حيث أنهم يمثلون غالبية القبائل الإسرائيلية^(١).

وكانت نتيجة ذلك الموقف الحرج، أن ظهرت بوادر تمرد من قبائل إسرائيل يتزعمه رجل بنيامى من سبط شاول يدعى «شبع بن بكرى»، ثم سرعان ما ضرب «شبع» هذا بالبوق، وقال: «ليس لنا قسم فى داود، ولا نصيب فى ابن يسى كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل، فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود، إلى وراء شبع بن بكرى»^(٢).

وأما رجال يهوذا، فقد «لازموا داود ملكهم من الأردن إلى أورشليم، وكان أول واجبات داود بعد عودته إلى عاصمته أورشليم، أن يستدعى قواته من المرتزقة ومن حرس يهوذا، لإخضاع تمرد إسرائيل بقوة السلاح، وكتب لداود نجاحاً بعيد المدى فى مهمته هذه، بفضل جهود قائده «يوآب» ذلك الرجل الذى كان يخشى على مركزه من اختيار «عماسا» لجميع قبائل يهوذا فى الجلجال، إذ يبدو أن «يوآب» إنما قد فهم من هذا الاختيار أن داود إنما يريد أن يحل «عماسا» فى مكانه فى قيادة الجيش، ربما لأنه لم ينس له قتله لولده أبشالوم - رغم أوامره الصريحة بعدم قتله - ومن ثم فقد انتهز «يوآب» الفرصة فقتل «عماسا»^(٣) - كما قتل أبنيه من قبل.

(١) صموئيل ثان ١٩: ٩-٤٣.

(٢) صموئيل ثان ٢٠: ١-٢.

M. Noth, op.cit., p. 201-2.

(٣)

وبدأ «يؤاب» فى مطاردة «شبع بن بكرى»، ثم حاصره فى «آيل بيت معكة»^(١) وطال الحصار حتى طلبت امرأة من المحاصرين أن تقدم لهم رأس شبع هذا فى مقابل فك الحصار، ومن ثم فقد «أتت المرأة إلى جميع الشعب بحكمها، فقطعوا رأس شبع بن بكرى وألقوه إلى يؤاب، فضرب بالبوق فانصرفوا عن المدينة، كل واحد إلى خيمته، وأما يؤاب فرجع إلى أورشليم إلى الملك».

غير أن هذا الصدام الذى كان بين مملكتى يهوذا وإسرائيل، الذى ظهر على أيام داود، وانتهى بالقضاء على شبع بن بكرى البنيامى، إنما كان فالاً سيئاً بالنسبة للمستقبل^(٢)، وهكذا يبدو واضحاً أن ثورة أبشالوم إنما قد فجرت الخلافات العميقة بين إسرائيل ويهوذا، بل أنه نتيجة لذلك، إنما بدأ الأمل يعاود «مفيبوشث» - حفيد شاول - فى استعادة عرش جده، وطبقاً لرواية التوراة، فإن حفيد شاول هذا، إنما أعلن للقبائل الإسرائيلية: «اليوم يرد لى بيت إسرائيل مملكة أبى»^(٣).

ولعل هذا هو السبب الذى جعل داود - طبقاً لرواية التوراة - ينتهز فرصة المجاعة التى انتشرت فى إسرائيل «ثلاث سنين، سنة بعد سنة»، وما أعقب ذلك من اضطراب للأمن، فيقضى على رهط شاول الأذنين، ويشنق منهم فى أول أيام حصاد الشعير سبعة^(٤).

(١) آيل بيت معكة: مدينة خصية فى نفتالى، بمعنى «مرج بيت الظلم» أو «مرج بيت شخص يسمى معكة»، ومكانها الآن «تل آيل»، أو «تل القمح» وهى قرية غرب الأردن على ربوة تشرف على الوادى، على مبعدة ١٣ ميلاً شمال بحيرة الحولة، مقابل دان. (قاموس الكتاب المقدس، ١/١).

M. Noth, op.cit., p. 202.

(٢) صموئيل ثان ١٩: ٢-٢٠، ٤، وكذا:

(٣) صموئيل ثان ١٦: ٣.

(٤) صموئيل ثان ١: ٢١-٩.

(١٥) التعداد العام ونتائجه:

ونقرأ في التوراة أن رب إسرائيل قد غضب على شعبه إسرائيل، «فأهاج عليهم داود قائلاً: امض واحصر إسرائيل ويهوذا، فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذى عنده: طف فى جميع إسرائيل، من دان إلى بئر سبع، وعدوا الشعب فأعلم عدد الشعب»، ويقوم «يوآب» بالمهمة التى تستغرق ستة أشهر وعشرين يوماً، وكان إسرائيل ثمان مئة ألف بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل^(١).

وهنا يرسل «يهوه» رب إسرائيل النبی جاد، وطبقاً لرواية التوراة، فإن جاد النبی إنما يخیر داود - بأمر من يهوه - بين «سبع سنى جوع فى أرضك، أم تهرب ثلاثة أشهر بين أعدائك، أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك»^(٢)، ويترك داود الخيرة لربه، «الذى يجعل وباء فى إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع، سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم^(٣) الرب عن الشر، وقال للملاك المهلك للشعب كفى، الآن رويدك»^(٤).

ولعل من الغريب المدهش أن التوراة لا تقدم لنا هنا - كما قدمت سبباً للجوع بسبب الدماء التى أسالها شاول أنهاراً عندما قتل الجبعونيين^(٥) - سبباً مقنعاً لغضب يهوه على شعبه، وإن أشارت أن ذلك إنما كان بسبب خطايا داود حيث يقول داود ملتئماً عفوره يهوه ورحمته بشعبه : «ها أنا

(١) صموئيل ثان ١: ٢٤-١٧. (٢) صموئيل ثان ٢٤: ١٢.

(٣) من الغريب المؤلم أن التوراة كثيراً ما تصور يهوه (الله) ليس معصوماً، وأنه كثيراً ما يقع فى الخطأ ثم سرعان ما يندم على خطئه، فهناك مثلاً ندمه على اختيار شاول ملكاً (صموئيل أول ١٥: ١١)، ثم ندمه على خلق الإنسان - وهو أشنع ما وقع فيه من أخطاء - (تكوين ٩: ٦؛ إرمياء ١٨: ٧-١٠؛ يونان ٣: ٩-١٠؛ عاموس ٧: ١-٦؛ رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ترجمة عمر الدسوقي، ٢٥٣/١-٢٥٤).

(٤) صموئيل ثان ٢٤: ١٥-١٦. (٥) صموئيل ثان ٢١: ١-٩.

أخطأت، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟، فلتكن يدك على، وعلى بيت أبى»^(١).

ثم تعود التوراة فى سفر أخبار الأيام^(٢)، فتروى نفس الرواية، ولكنها - هذه المرة - إنما تقدم لنا أرقاماً لبنى إسرائيل وبنى يهوذا، تختلف عما قدمته فى المرة الأولى، فتذهب إلى أن «إسرائيل كان ألف ألف ومئة ألف رجل مستلى السيف، ويهوذا أربع مئة وسبعين ألف رجل مستلى السيف»^(٣). هذا بخلاف سبطى لاوى وبنيامين^(٤)، والتعارض هنا بين نصوص التوراة، ليس أمراً جديداً علينا، فنظائره كثيرة.

وعلى أى حال، فإن التوراة إنما تجعل التعداد الذى قام به داود - بأمر من يهوه - سبباً فى البلايا التى حاقت بإسرائيل من قبل ربها، وإن كنا لا ندرى لم يغضب رب إسرائيل من قيام ملك إسرائيل بهذا التعداد، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة: أقلها وباء يروح ضحيته «سبعون ألف رجل».

(١٦) ثورة أدونيا:

تختتم التوراة حياة داود بثورة يقوم بها ولده الرابع «أدونيا بن حجيث» إذ يبدو أن شيخوخة داود وضعفه كائناً سبباً فى أن ينقسم رجال بلاطه إلى حزبين، الواحد: يؤيد أدونيا، والآخر يناصر سليمان - الابن العاشر لداود - وذلك بفضل المساعى التى بذلتها «بتشيع» الجميلة، والأثيرة عند داود.

ويبدو أن «أدونيا» إنما قد أحس بالخطر الذى يهدده من زوج أبيه وحزبها، فقرر إعلان نفسه ملكاً على إسرائيل، قبل وفاة أبيه داود، معتمداً فى ذلك على حقه الواضح فى وراثة العرش، بصفته أكبر الأبناء سناً، بعد

(١) صموئيل ٢٤: ١٧.

(٢) أخبار الأيام الأول ٢١: ٥-٦.

(٣) أخبار أيام أول ٢١: ٥.

(٤) أخبار أيام أول ٢١: ٦.

مقتل أبشالوم - الابن الثالث لداود، وعلى تعصيد ومساندة رجال داود القدامى - وعلى رأسهم يوآب قائد الجيش، وأبياتار الكاهن من المعبد الملكي في أورشليم - وعلى موافقة ضمنية من والده نفسه، ومن هنا «ترفع قائلاً: أنا ملك، وعد لنفسه عجالات وفرساناً، وخمسين رجلاً يجرون أمامه، ولم يغضبه أبوه قط، قائلاً: لماذا فعلت هكذا»، ثم ذبح بقرًا وغنماً، ودعا جميع إخوته وجميع رجال يهوذا، وكان على رأس المدعوين يوآب قائد الجيش، وأبياتار الكاهن، ولكنه لم يدع إلى وليمته هذه «ناتان النبي» فضلاً عن «بناياهو» رئيس فرقة الجنود المرتزقة، وسليمان^(١).

وهنا بدأ الحزب المعارض - وعلى رأسه ناتان النبي، وبناياهو قائد الجنود المرتزقة ومنافس يوآب قائد الجيش، هذا فضلاً عن اثنين من بطانة داود، وصادوق الكاهن الآخر من المعبد الملكي - يخطط لإبعاد أدونيا عن عرش أبيه، وهكذا انقسم رجال البلاط الملكي والجيش ورجال الدين في مملكة داود إلى فريقين، كل منهما يسعى لتولية أمير من أبناء داود على عرش إسرائيل، ونجح الحزب المعارض لأدونيا في الحصول على قرار حاسم من الملك المسن لإبعاده، واستخذوا في ذلك «بتشيع» إحدى زوجات الملك، وانتقلت ورائة العرش من أدونيا إلى سليمان، وسمع أدونيا بما جرى، فذعر وانطلق إلى المذبح، حيث أخذ بقرونه، ولم يقبل أن ينفصل عنه، إلا إذا أمنه سليمان على حياته^(٢).

(١٧) وفاة داود عليه السلام

وتنتهي أيام داود، النبي الأواب، في هذه الدنيا، ويتنقل عليه السلام، إلى جوار ربه راضياً، مرضئاً عنه من ربه الكريم، واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود، وفي الواقع فإن دفن النبي الأواب في مدينة أورشليم

(١) ملوك أول ١: ٥-١٠.

(٢) ملوك أول ١: ٤٩-٥٣.

(مدينة داود) لأمر غريب، ذلك لأن هناك عبارة طالما تكررت في التوراة، وهي أن فلاناً قد «انضم إلى قومه» أو «انضم إلى آبائه»^(١)، وربما لا تعدو أن تكون إشارة عامة إلى العقيدة الإسرائيلية التي ترى : أن الموتى من أسرة ما، يجب أن يدفنوا في مكان واحد، ليقوا كما كانوا على قيد الحياة^(٢).

ومع ذلك، فهناك آيات خاصة لا تفصح فقط عن الرغبة في الدفن في مقبرة الأسرة، وتعتبر ذلك ميزة خاصة^(٣)، وفي الوقت نفسه، إنمنا يعتبر الدفن بعيداً عن الأسلاف لعنة وكرثة كذلك^(٤)، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم»، وهو الحريص على التقاليد وبخاصة فيما يتعلق منها بأمور العبادة والدين، ويستطيع أى قارئ للتوراة أن يقدم الكثير من الأدلة على ذلك، بل إن داود لينقل عظام شاول - وكذا ولده يونانان - من يابيش جلعاد، ليدفن «في أرض بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه»^(٥).

ورغم ذلك، فإن داود نفسه الذى كان مخلصاً للعادات والتقاليد إلى هذا الحد، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم، وإنما في مقبرة جديدة في مدينة القدس، كما أشرنا آنفاً، وربما يقال أن ذلك ربما قد حدث بدون رغبة منه، أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه، ولكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر إنما كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة^(٦)، وأن داود الذى أعطى تعليماته النهائية لولده

(١) تكوين ٢٥ : ٨، قضاة ٢ : ١.

(٢) S. Yeivin, The Sepulchers of the Kings of the House of David, in , JNES, 7, (٢) 1948, p. 30.

(٣) قضاة ٨ : ٣٢، صموئيل ثان ١٩ : ٣٧-٣٨.

(٤) إرمياء ٨ : ١ وما بعدها، ١٨ : ٢٢ وما بعدها.

(٥) صموئيل ثان ٢١ : ١١-١٤.

(٦) تكوين ٤٩ : ٢٩ وما بعدها.

وخليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه^(١).

ويذهب بعض العلماء إلى أن السبب في دفن داود في القدس - وليس في بيت لحم - والأمر كذلك بالنسبة إلى خلفائه المباشرين، الاثنى عشر - طبقاً لرواية التوراة في سفر الملوك - هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر، أو الثاني عشر قبل الميلاد، وحتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الأقل، كان العرف السائد في كل حوض شرق البحر الأبيض المتوسط، هو أن يدفن الملوك في قصورهم، أو على مقربة منها، وليس داخل أسوار مدنها فحسب^(٢).

وهكذا كان فراعين مصر، منذ أوائل القرن الحادى عشر على الأقل، وحتى النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد - أى في أثناء الجزء الأكبر من العهد الملكى الإسرائيلى - كانوا يدفنون في عاصمتهم «تانيس» في فناء المعبد الكبير، وعلى مقربة من القصر الذى كانوا فيه يقيمون، وفي «جبيل» ليس بعيداً عن إسرائيل - اكتشفت مقبرة ملكها «حيرام» داخل فناء القلعة على مقربة من الشاطئ، وفي «بابل» كان من المعتاد أن يدفن الموتى داخل المنازل، وحتى في فلسطين نفسها - قبيل أو أثناء عصر القضاة - كان ملوك دويلات المدن الصغيرة - كقاعدة عامة - يدفنون في قصورهم، ومن هنا فقد عثر في «مجدو» في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد - في القصر المركزى على قبر مقبب، وعلى أساس الآثار التى اكتشفت اعتقد المتقبن أنها مقبرة ملوك مجدو في ذلك العصر^(٣).

S. Yeivin, op.cit., p. 31.

(١)

S. Yeivin, op.cit., p. 36-37.

(٢)

Ibid, p. 37-38.

(٣)

الفصل الرابع

سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)

(١) السياسة الداخلية

ورث سليمان داود بعد تدبير محكم من أمه «بتشبع» جاء تفصيلاته في سفر الملوك الأول^(١)، ومع ذلك فمن المستحيل أن تؤكد إلى أى حد كان الدور النشط الذى قامت به زوج النبی الأواب، وأم النبی الحكيم، فى الحصول على عرش إسرائيل لولدها، وإلى أى مدى نجحت فى استخدام «ناتان» - والذى كان من الواضح أنه زعيم الحزب المعارض لأدونيا منافس سليمان على عرش داود، ومن المستحيل كذلك - فيما يرى بعض الباحثين - أن نقرر أن ما قيل لداود، إنما كان هو الحق كل الحق، وعلى أى حال، وطبقاً لما جاء فى رواية التوراة، فإن من بين ما قيل لداود «أن ولده أدونيا قد نصب نفسه ملكاً، بينما هو قد وعد «بتشبع» بأن يكون خليفته على عرش إسرائيل، ولدها سليمان، وهنا يتساءل ناتان النبی: «أأنت قلت أدونيا يملك بعدى، وهو يجلس على كرسى؟»، ولا ندرى تماماً، هل فوجئ داود بذلك؟ أم أن تأثير المحيطين به - وعلى رأسهم بتشبع وناتان هو الذى دفعه إلى أن يقول لزوجته: «إن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى عوضاً عني.. فخرت بتشبع على وجهها إلى الأرض وسجدت للملك، وقالت: ليحيى سيدى الملك داود إلى الأبد»^(٢).

وهكذا حققت بتشبع وحزبها ما كانت نفوسهم تصبو إليه، ونطق داود أخيراً بقراره، وعين سليمان ملكاً بدلاً عنه، وجعل «صادوق» الكاهن يمسحه بدون تأخير، وهكذا «نزل صادوق الكاهن وناتان النبی وبنياهو بن يهو ياداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا

(١) ملوك أول ١: ١-٤٨.

(٢) ملوك أول ١: ٥-٣١.

إلى «جيهون» (وهو ينبوع أو مجرى فى ضواحي أورشليم) فأخذ صادوق الكاهن قرن الذهب من الخيمة، ومسح سليمان، وضربوا بالبوق، وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان، وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون بالناي، ويفرحون فرحاً عظيماً، حتى انشقت الأرض من أصواتهم^(١).

وهكذا حلت السلطة المخولة لداود مشكلة الخلافة بضرية واحدة، وضاع أمل أدونيا إلى الأبد، وأصبح سليمان ملكاً فى أورشليم، وحاكماً مع والده، ويمكن أن يعزى اختيار سليمان إلى كفاءته الشخصية، فهو لم يكن أبداً أكبر أبناء داود الكثيرين، كما أنه لم يكن حتى أكبر الأبناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود لعرش يهوذا أو إسرائيل الموحدة، وأياً ما كان الأمر، فلقد خلف سليمان أباه دون أية صعوبات أو ثورات داخلية.

وببدأ سليمان عهده بالقضاء على كل منافسيه والتخلص من مؤامراتهم، وما قد يحيكون له من دسائس، وطبقاً لرواية التوراة^(٢)، فإن ربه «يهوه» لم يغضب مما فعله، بل أحبه، ووهبه حكمة، لم يهبها لأحد من قبله ولا من بعده وبدأ سليمان بقتل أخيه «أدونيا»، صاحب الحق الشرعى فى العرش، ومن الغريب أن سليمان فيما تروى التوراة - قد آمنه على نفسه من قبل^(٣). ولكنها لم تشر إلى ثورة، أو حتى تمرد قام به أدونيا ليكون القتل جزاء وفاقاً لما صنع، وكل ما أشارت إليه أن أدونيا إنما لجأ إلى «بتشبع» أم سليمان لتكون شفيعته لدى ولدها، لكى يهبه «أيشج» الشونمية، سرية أبيه داود، لتكون امرأة له، فإذا بسليمان يثور ثورة عنيفة، وكأن رجاء أدونيا هذا، إنما هو مؤامرة تهدد عرش سليمان، وجريمة يستحق من أجلها القتل، ومن ثم فقد أرسل سليمان بنياهو فبطش به فمات^(٤) وإن كان البعض يذهب

(١) ملوك أول ١: ٢٢-٤١.

(٢) ملوك أول ٢: ١٢-١٣.

(٣) ملوك أول ١: ٤٢-٥٢.

(٤) ملوك أول ٢: ٣-٢٥.

إلى أن سليمان إنما قد رأى في هذه الخطوة، برهاناً على أن أخاه يتطلع إلى العرش، لأن العادة في إسرائيل وقت ذاك أن ينتقل حريم الملك إلى خليفته، ومن ثم فقد أعدم سليمان أخاه أدونيا

وبدأ سليمان بعد ذلك يتجه إلى رجال البلاط من عهد أبيه وكان أولهم يوب قائد جيش داود، الذي طالما نصحه ألا يتركه يذهب إلى شول (يموت) في سلام، لأنه قد أراق من قبل دماء أبنيرو وعماسا في وقت السلم، ولأنه قد «خضب منطقته التي على حقويه ونعليه» بالدماء^(١)، ولم يجرؤ داود على معاقبته لاقترافه هذه الجرائم، لأنها كانت نافعة في تحقيق أهدافه، ولكن لابد للدم البرئ من الثأر له، لأن نتيجته ستكون خطيرة، حيث سيطالب يهو به حساب عنه ذات يوم، كما انتقم من قبل من آل شاول لقتل الجبعونيين، وبهذا ألقى داود المسؤولية على ولده سليمان، لإيجاد وسيلة للتخلص من خدام البيت الملكي القديم، ومع شناعة ما سوف يحدث، فقد بدا منطقياً، كما أوصاه كذلك بقتل شمعي بن جيرا البنيامي، الذي تابع داود بلعنته أثناء ثورة أبشالوم، ولكنه عفا عنه في لحظة كان الكرم فيها هو السياسة^(٢).

ونفذ سليمان نصائح أبيه داود، فقتل «يوب» قائد جيش داود، وهو بجانب المذبح في خيمة الرب، ثم قتل «أبيشار» الكاهن حتى لا يقف في وجهه إذا ما عن له أن يخالف شريعة يهو، ثم جعل سليمان جلاده، وقائد الجنود المرتزقة «بنياهو» على الجيش، في مكان يوب، كما جعل «صادوق» الكاهن في مكان «أبيشار»، وكان (شمعي بن جيرا) آخر رجال داود الذين كان سليمان يخشى بأسهم، فحدد إقامته - بادئ ذي بدء - في أورشليم، ثم اتهمه بأنه قد ترك مكان إقامته المحدد له بدون إذن منه، ومن ثم فقد أمر

(١) ملوك أول ٢ ٥

A. Lods, op.cit., p 366

(٢)

«بناياهو»، «فخرج فبطش به فمات، وثبت الملك بيد سليمان»، وهكذا أوفى سليمان بوصية أبيه، ومن ثم فقد قدر له أن «يحدر بالدم إلى الهاوية شيبة شمعى»^(١).

ولست أدري أكان ذلك حقًا من وصايا النبي الأواب، وأن سليمان الحكيم قد أراق حقًا كل هذه الدماء، أم أن كتبه سجلات سليمان قد كتبوا فيها ما كتبوا لتبرير مذابح خيل إليهم أنها قد حدثت فعلا، أم أن الأمر كله لا يعدو تحريفًا توراتيًا، وهنا فهو ليس ذا خطر، فنظائره كثيرة.

واجته سليمان بعد ذلك إلى تدعيم عرشه في الداخل، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة، وتجميل العاصمة، ومن ثم فقد أقام سليمان كثيرًا من الحصون، كما رم القديم منها، ووضع حاميات في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ليرهب بها الثائرين والغازين على السواء.

وعمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون والعشائر، التي كانت تطالب بضمان حياتها حياة كريمة، ذلك لأن الملك الجديد إنما يعرف تمامًا أن أخطر المشاكل التي واجهت أبيه داود من قبل، إنما كانت طموح بعض القبائل إلى التمتع بنوع من الحكم الديمقراطي الذي يضمن للشعب ابداء رأيه، فيما يتخذه الملك من قرارات، قد تؤذى الشعب جوعًا وعريًا ومرضًا، ولا شك أن هذه الرغبة إنما تتعارض كثيرًا مع رغبة سليمان في الحكم المطلق، ومن ثم فقد ركز كل جهوده في تفتيت أي تحالف قد يقوم بين هذه القبائل، كما مزق الحدود بينها ليخلق مشكلة دائمية تفرق بين هذه القبائل، وتلهيها عن الانتباه إلى ما يرتكب من مخالفات الشريعة، وهكذا قسم سليمان مملكته إلى اثنتي عشرة محافظة، على كل واحدة منها محافظ يتولى جمع الضرائب التي يحتاج إليها الملك،

(١) ملوك أول ٢: ٨-٩، ٢٦-٢٧، ٤٦

كما فرض على كل محافظة إعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهراً في السنة^(١) ذلك لأن سليمان إنما كان في حاجة إلى تزويد الجنود - وكذا الخيول - الموجودة في الحصون التي أقامها بالمؤن والعلف، فضلاً عن إعاشة القصر، الذي أصبحت متطلباته أكبر بكثير مما كانت على أيام شاول وداود^(٢).

وأيًا ما كان الأمر، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة - باستثناء أربع أو خمس حالات - ليست متطابقة مع حدود القبائل الإسرائيلية، مما يتفق وهدف سليمان من تخطيط البناء الحكومي الإقليمي المستقل^(٣)، وإن كان هناك من يرى أن سليمان إنما كان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بين القبائل الإسرائيلية، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً، ولكنه أفلس في هذا وأفلست بلاد اليهودية معه^(٤).

وعلى أي حال، فلقد كان على كل منطقة من المناطق الجديدة «مشرقاً» أو «وكيلاً»، عليه دون شك أن يوزع المسؤولية الخاصة بالمؤونة بين الملاك المختلفين، وأن يراقب وصولها في الوقت المحدد، وأن يجمعها في مدن «الصوامع» ثم يسلمها في أورشليم في الشهر المعين، وكان على رأس هذا النظام موظفًا أعلى كان يسمى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود، وإنما ظهرت - لأول مرة، بين الموظفين الكبار في عهد سليمان، ومن هنا كان الصدام بحرية القبائل الإسرائيلية، وذلك عن طريق التصرف في إنتاج زراعتهم وتاج مواشيهم بطريقتهم الخاصة، أو على حسب هواهم^(٥).

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٧؛ أندريه إيمار وجانين، بوابة الشرق واليونان القديمة

(مترجم)، ص ٢٦٦، (بيروت ١٩٦٤)؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

(٢) صموئيل ثان ٩: ٩، ١٣: ٢٣، ١٦: ١ وما بعدها، ٢٥: ١٩ وما بعدها، وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

A. Lods, op.cit., p. 371.

(٣)

(٤) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

M. Noth, the History of Israel, p. 212-213.

(٥)

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت، مثل دور ومجدو وتعنك وبيت شان - قد ضمت إلى مملكة إسرائيل، أما منطقة يهوذا - أو على الأقل الإقليم الجبلي منها - فلا يبدو أنها كانت تكون جزءاً من أى إقليم من الأقاليم الاثني عشر، مما يدل على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها، وتساعد هذه الحقيقة على تفسير الكراهية المتزايدة التي نمت في قبائل الشمال ضد ملك أورشليم، والتي اندلعت بقوة، للمرة الأولى أثناء حكم سليمان، عندما فرضت السخرة على رجال إسرائيل، من أجل تحصين العاصمة، وقد أحمّد التمرد، وأجبر زعيمه «يربعام» على الهروب إلى مصر^(١)، على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن «يهوذا» لا بد وأنها قد كلفت بعمل آخر، لأنه من غير المقبول أن تترك بدون أى التزام مالى نحو الدولة^(٢).

(٢) السياسة الخارجية

كان سليمان مختلفاً عن أبيه داود، ولعل الفرق بينهما يكمن في أن داود كان محارباً، بينما كان سليمان يتعدى عن الحروب، قدر ما وسعه هذا الابتعاد، فهو لم يكن محارباً كداود، ولم تكن عنده خبرة بالحروب أو حياة المعسكرات منذ صباه، ولم تكن لديه الرغبة لمزاولة مثل هذه الأمور، بل إنه كان إذا ما أحاطت به المصاعب من كل جانب، إنما يحاول أن يتجنبها بالطرق الدبلوماسية والتي ورثها عن أبيه كذلك، وإن كان مع ذلك قد أدرك جيداً أنه من الضروري أن يكون له جيش قوى يحمى مملكته^(٣).

A. Lods, op.cit., p. 371-372.

(١)

O. Eissfeldt, CAH, II, Part 2, 1975, p. 591.

(٢)

W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1953, p. 140F. وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 589.

وعلى أى حال فلقد أدرك سليمان بتفكيره السليم، أن مملكته الصغيرة لن تعيش إلا بالتفاهم مع جيرانها، وقد قضت عليه هذه السياسة أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الأمراء والملوك، ومن ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيتيين^(١). ثم ساعدته الظروف بأن كانت أحوال مصر وآشور فى أوائل عهده مرتبكة إلى حد كبير، فتعم فترة بالسلطان الذى وصل إلى حد أن يصاهر فرعون مصر، وأن تكون الأميرة المصرية السيدة الأولى فى مملكته، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها^(٢).

ويعلق «هوبرت ويلز» على هذا الزواج بقوله: كان من الجائز أن يتنازل فرعون مصر، فيقبل فى حريمه أميرة بابلية، ولكنه يرفض رفضاً تاماً أن يسمح لأميرة مصرية، لها ما لها من قداسة، أن تصبح زوجة لملك بابل - وهو أمر سبق لنا مناقشته من قبل - فما بالك بملك صغير كسليمان استطاع أن يتزوج من أميرة مصرية، إن هذا يدل دلالة واضحة على تدهور مهابة مصر ونفوذها فى هذه الأثناء^(٣).

وعلى أى حال، فإننا نقرأ فى التوراة: أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة، وأعطاهما مهراً لابنته امرأة سليمان»^(٤)، ونطالع هذه الأمور، وكأنما هى تاريخ حقيقى، ولكننا لا نلتقى بما يؤكد ما من الجانب المصرى، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه، وإن خصر فى حدود ضيقة نسبياً، إلا أنه يكفى للتشكيك فى أى الفراعين هو المقصود هنا، هذا إلى أن الاسم «تخبنيس» Tahpeness لا يستطيع مطابقته على نظيره بالهيريوغليفية^(٥).

(١) ملوك أول ١١: ٢-١.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

(٢) ملوك أول ١١: ٢، وكذا:

H. G. Wells, The Outline of History, p. 280.

(٣)

(٤) ملوك أول ٩: ١٦.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 329.

(٥)

وأيا ما كان الأمر، فهناك من يقترح الملك «سى آمنون»^(١)، ومن يذهب إلى أن صهر سليمان، إنما كان الفرعون «بسوسنس الثاني»^(٢)، ومن يرى أنه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين^(٣) (١٠٨٧-٩٤٥ ق.م.)، أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة^(٤)، بل إن هناك من العلماء من يرى أن صهر سليمان، إنما كان «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين^(٥) (٩٤٥-٧٣٠ ق.م.)^(٦).

وعلى أى حال، فأيا كان فرعون مصر هذا، الذى تنسب التوراة إليه مصاهرة سليمان، عليه السلام، فالذى لا شك فيه، أن الملك الإسرائيلى - فيما يرى سيسل روث - قد استطاع أن يقوى مركزه عن طريق التحالف مع مصر، بل إنه استطاع كذلك أن يضيف إلى مملكته إقليم جازر - القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية فى الشرق الأدنى القديم، وهكذا اكتسبت المملكة الإسرائيلية موطئ قدم على البحر الأبيض المتوسط^(٧).

(١) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٨٩، وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 588; A. Malamat, Aspects of the foreign Policies of David and Solomon, JNES, 22, 1963, p. 1F.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٢١١، وكذا:

W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, p. 66.

(٣) من المقروض أن آخر ملوك هذه الأسرة هو بسوسنس الثاني، ولكن هناك من يشير إلى بسوسنس ثالث، انظر: A. H. Gardiner, op.cit., p. 447، وكذا:

H. Gauthier, Le Livre des rois d'Egypte, III, p. 301.

A. Lods, op.cit., p. 368., (٤)

J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 529., †W.O.E. Oesterley, (٥) Egypt and Israel, In the Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 226.

A.H. Gardiner, op.cit., p. 448. (٦)

C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 21. (٧)

(٣) التنظيمات العسكرية

يذهب المؤرخون إلى أن سليمان لا يمكن أن يقارن بأبيه داود من الناحية العسكرية، غير أن هذا لا ينفي أبداً جهوده في النواحي العسكرية، ذلك أن خليفة داود، المحارب الشجاع، إنما قد أدرك جيداً ضرورة تكوين جيش قوى للدفاع عن دولته، فضلاً عن تجارتها، ومن ثم فإن المصادر التاريخية إنما تنسب إليه وحده استعمال «العربات الحربية» في جيش إسرائيل.

ونقرأ في التوراة^(١) أن داود عندما هزم مملكة «آرام صوبية» قد استولى على مئات الخيول، غير أن داود لم يكن يملك عربة واحدة، بل إنه رأى أن استعمال «العجلة الحربية» في جيشه أمر ضروري، على الرغم من أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الآراميين، هذا فضلاً عن أن المصريين إنما كانوا قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين^(٢)، وكذا فعل الكنعانيون.

وهكذا ما أن ورث سليمان ملك أبيه داود، حتى أدخل هذا السلاح في جيشه، بل إنه إنما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية في هذا الجيش، وربما كان السبب المباشر في ذلك، أن الآراميين في دمشق إنما قد كتب لهم نجاحاً بعيد المدى في استرداد نفوذهم المفقود بعد موت داود مباشرة، ومن ثم فقد أصبحت دولة «آرام دمشق» - نتيجة استخدامها لهذا السلاح - إنما تمثل تهديداً مباشراً لإسرائيل^(٣).

وطبقاً لما جاء في التوراة^(٤)، فإن سليمان إنما كان يملك ما بين

(١) صموئيل ثان ٨: ٤-٥.

(٢) انظر: كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة، ص ١٤٠-١٤٣، ١٩٧-١٩٨، (الإسكندرية ١٩٧٦).

(٣) O.Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part 2, Cambridge, 1975, p. 583-589.

(٤) ملوك أول ٥-١١.

١٤٠٠، ٤٠٠٠ حصاناً^(١)، وأما عن مباني الشكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية - طبقاً لما جاء في سفر الملوك الأول^(٢) - فقد اكتشف في «مجدو» وغيرها اسطبلات للخيول، وحظائر للعربات مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً^(٣).

هذا وقد كان قائد العربة الحربية يتلقى تدريبات طويلة شاقة، ويظل في الخدمة طالما كان قادراً على أداء وظيفته، أو على الأقل لعدة سنوات، ومن ثم فإنه يصبح جندياً محترفاً، وعندما زاد عدد العربات أصبح من الضروري استخدام عدد لا بأس به من الجنود المرتزقة، ذلك لأن عدداً قليلاً من الإسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنوداً محترفين، وليس هذا يعني - بحال من الأحوال - أن هؤلاء الإسرائيليين المجندين بالجيش، ولا يعملون في سلاح العربات الحربية، قد أعفوا من القيام بالمهام العسكرية، بل على العكس من ذلك، كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة في الجيش، فإنه إنما يكلف بالعمل في بناء التحصينات والحظائر الخاصة بالعربات، فضلاً عن العمل في مشاريع سليمان البنائية الأخرى، ومن ثم فلعل من الأفضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر باسم «السخرة» Corvée خدمة الأعمال العامة لبناء وصيانة التحصينات الدفاعية وخدمة الجيش^(٤).

O. Eissfeldt, op.cit., p. 589.

(١)

W.F. Albright, op.cit., p. 135F.

وكذا:

(٢) ملوك أول ١٩: ٩، ١٠: ١٦.

W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, p. 127, 223;

(٣)

Y. Yadin, New Light on Solomon's Megiddo, BA, 23, 1960, p. 62F.

وكذا:

وكذا:

C. Watzinger, Denkmaler Palastines, I, Lepizeg, 1933, p. 67F, Figs. 80-81.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٤)

وهناك رواية فى التوراة، على الرغم من أنها تشير إلى أحداث تمت بعد موت سليمان، بحوالى عشرين عاماً، إلا أنها تمكننا من معرفة طبيعة هذه الخدمة فى الأعمال العامة، ذلك أن سفر الملوك الأول^(١) يروى أن «بعشا» (٩٠٠-٨٧٧ ق.م) بعد أن بدأ يحكم إسرائيل من «ترصة» - وهى ترزة فى مكان تل الفارعة الحالية، على مبعدة ١١ كيلاً شمال شرق شكيم - بنى حصناً على حدود مملكته الجنوبية عند «الرامة» وهى تل الرامة الحالية على مبعدة ستة كيلو مترات شمالي أورشليم - لاتخاذها مركزاً عسكرياً، لتهديد يهوذا، غير أنه ترك هذا الحصن شاغراً، بسبب هجوم الآراميين على منطقته، وعندئذ استدعى «أسا» (٩١٥-٩١٣ ق.م) ملك يهوذا، كل جيشه لاستخدام الأحجار والأخشاب التى فى حصن بعشا فى حصونه التى أقامها فى «جبعة» - على مبعدة ثلاثة كيلو مترات شرقى الرامة - بغية الدفاع عن مملكته يهوذا، ضد أى هجوم يمكن أن تقوم به إسرائيل ضدها^(٢).

وكان الرجال المكلفون بالخدمة العامة فى عهد سليمان، يستدعون طبقاً لكشوف ثابتة، لتحديد الأعمال التى يمكنهم القيام بها فى المجال الزراعى والصناعى وكانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الاستدعاء فى وسائل كسب عيشهم^(٣) وإذا كانت رواية التوراة عن السخرة صحيحة، فإن الشخص المسئول عن السخرة هذه، إنما كان «أدونيرام» والذى كان يقوم بنفس العمل على أيام داود^(٤)، كما أشرنا من قبل.

وليس هناك أدلة واضحة ومؤكدة على أن سليمان قد فرض السخرة على كل مملكته، وأن يهوذا - التى كان لها مركز خاص عند بيت داود -

(١) ملوك أول ١٥: ١٦-٢٢.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٢)

(٣) ملوك أول ٤: ٦، ٤: ٢٧-٣٠، ١١: ٢٠، ٣: ٣، ١: ١٨.

(٤) ملوك أول ٤: ٦، ٥: ١٤، ١٢: ١٨.

قد أعفيت منها، وعلى أى حال، فإن التقاليد الخاصة بانقسام مملكة إسرائيل بعد موت سليمان - كما سوف نرى فيما بعد بالتفصيل - تشير إلى أن إسرائيل - وليست يهوذا - هي التى تحملت العبء الأكبر من هذه الخدمة العامة^(١).

(٤) النشاط التجارى

امتاز عهد سليمان بنشاط تجارى عظيم، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه يمكن أن يطلق على سليمان «الملك التاجر»، فقد احتلت التجارة من اهتمامه وتديره مكاناً كبيراً، بل إن فصائل العربات التى أنشأها سليمان - كما أشرنا من قبل - إنما جعلها فى خدمة التجارة، عندما لا تكون فى خدمة الدفاع عن الحدود^(٢).

هذا وقد ساعد على نجاح التجارة فى عهد سليمان، سيطرته التامة على الطرق التجارية فى سورية وفلسطين، والتى كانت قائمة منذ عهد أبيه، وليس هناك من شك فى أن سليمان إنما قد احتفظ بحقوقه كاملة على طرق القوافل، التى كانت تمر عبر أراضى «آرامى دمشق»، فضلاً عن تلك التى كانت تمر عبر أراضى الآدوميين^(٣).

ومن هنا نراه يهتم بتحسين المراكز التى كانت تسيطر على الطرق التجارية الهامة التى كانت تمر بمملكته، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وأفريقيا، كما استغل سليمان شمالاً وجنوباً، علاقاته الودية من ناحية، ومهارته السياسية من ناحية أخرى، فضلاً عن أن حدوده الجنوبية كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة بمصر، هذا إلى أن تحالفه مع «حiram» ملك صور، وهو فى نفس الوقت أقوى الأمراء الفينقيين، قد حمى مواصلات سليمان مع

O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

(١)

O. Eissfeldt, op.cit., p. 196.

(٢)

Ibid, p. 587.

(٣)

المدن الفينيقية وهكذا تمكنت القوافل التجارية من السفر بصفة دائمة من أراضي مصر إلى بلاد النهرين، ومن فينيقيا إلى الجزيرة العربية في أمان وسلام^(١)، وبذا نجح سليمان في احتكار مصدر الثروة العائد من التجارة.

ولعل الذي دفع سليمان إلى الاتجاه إلى التجارة، أن كتعان كانت بلدًا زراعية خاليًا من الصناعة، مما اضطره إلى أن يحضر الصناعات من صور، والنجارين من بيلوس، عندما أراد بناء معبده، كما أن التاجر الفلسطيني لا يملك سلعة للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه في موقع يمكن أن يتصرف منه كوسيط، وقد أدرك سليمان هذه الحقيقة فاشتغل بتجارة الخيول^(٢).

ولم تفلت تجارة المرور التي كانت من قبل حرة من يد سليمان، ومن ثم فقد احتكرها وفرض عليها إتاوة، محتجًا ببعض الطرق التي عبدها وزودها ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية^(٣)، والمحملة بالتوابل من تلك البلاد، خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر بأراضي مملكة سليمان^(٤).

ونقرأ في التوراة - في سفرى الملوك الأول والأخبار الثانى^(٥) - أن

H. R. Hall, op.cit., p. 433.

(١)

A. Lods, op.cit., p. 370.

(٢)

(٣) أهم طريق القوافل هذه طريقان، الواحد: الطريق الجنوبي الشمالى، ويبدأ من عدن وقتنا في بلاد اليمن وحضرموت ثم مأرب إلى بخران فالطائف ثم مكة ويثرب وخيبر والملا ومدائن صالح، وهنا ينفصل، فيتجه فرع منه إلى نيماء صوب العراق، ويستمر الفرع الآخر إلى البتراء فغزة ثم الشام ومصر، وأما الطريق الثانى: فهو طريق: جرها - البتراء، ويبدأ من الهقوف، ثم إلى شمال اليمامة في موقع مدينة الرياض الحالى، ثم يتجه غرباً إلى بريدة ثم حائل فتيماء ثم البتراء،... وهكذا. (انظر: محمد يومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الرياض ١٩٧٧، ص ١٢٣-١٣٦.

(٤) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٧، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٥) ملوك أول ١٠: ٢٦-٢٩، أخبار أيام ثان ١: ١٤-١٧.

سليمان كان شغوفاً بالخيل، رغم أن رب إسرائيل كان - طبقاً لما جاء في التوراة^(١) - كذلك - قد حذر ملوك إسرائيل من الخيل والنساء والذهب، غير أن سليمان إنما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب»، وإن «كانت النصر من الرب»^(٢)، وسواء أكان ولع سليمان بالخيل لأنها أداة حرب، أم لأنها وسيلة كسب، وسواء أكانت زوجه المصرية، أو أن بعضاً من رجاله قد أشاروا عليه بالانتجار في الخيل، فالمعروف أن الخيل على أيام سليمان كانت سلعة تجارية تستحق الاهتمام، وأن إسرائيل في تلك الفترة إنما كانت تكاد تحتكرها تماماً، ذلك لأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى، كانت تمر بمملكة سليمان^(٣).

وكانت مصر المصدر الرئيسي للخيل والمركبات، ونقرأ في التوراة: «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر، وجماعة تجار الملك أخذوا جليبة بثمان، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من الفضة والفرس بمئة وخمسين»^(٤)، أي أن قيمة الحصان إنما كانت تساوي ربع قيمة العربية، وربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع هناك في مصر بامتياز خاص عن طريق حميه الفرعون، ولأن صناع المركبات المصريين إنما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات السريعة ذات العجلتين الخاصة بالصيد والحرب، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من سورية، وهذا يفسر لنا الفرق بين سعر المركبة والفرس، وطبقاً لنص التوراة الأنف الذكر، وكما أشرنا آنفاً، فإن المركبة الواحدة تعادل أربعة خيول^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى مصدر آخر للخيول، هو «Koa»

(٢) سفر الأمثال ٢١ : ٣١

(١) تثنية ١٧ : ١٤ - ٢٠

(٣) Werner Keller. The Bible as History, p 207

(٤) Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(٥)

(٤) ملوك أول ١٠ : ٢٨ - ٢٩

١ H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y , 1939, p. 355.

وكذا:

W.F Albright, Archaeology and the Religion, Baltimore, 1953, p. 153

وكذا:

وهو اسم لدولة في «سيلسيا» كانت تقع في السهل الخصب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بتربية الخيول، ويذكر «هيرودوت» أن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا^(١)، وأما سوق هذه التجارة، فقد كانت عند ملوك الآراميين والحيثيين^(٢).

ويبدو أن سليمان قد أقام حظائر للخيول في جهات متعددة من مملكته، وقد ألفت بعثات الحفائر الأمريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر، فلقد عثر المكتشفون هناك على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائماً تتنظم حول فناء دائري مبلط بملاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الاسطبلات محتفظاً بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقى ظاهرة.

ولعل مما يثير الدهشة فخامة تلك الاسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة، والعناية غير العادية التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات، والتي يمكن الحكم عن طريقها، بأن الخيول إنما كانت - وفي أحسن ظروفها - مرغوباً فيها في تلك الأيام، وعلى أي حال، فلقد كان يعتنى بها أكثر مما يعتنى بالإنسان وعندما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين - كما أشرنا من قبل - لكل اسطبل ٤٥٠ حصاناً، ولكل حظيرة، ١٥ غربة، هذا وقد اكتشفت نظائر لهذه الاسطبلات في بيت شان وحاصور وتعنك، وكذا في أورشليم^(٣).

(١) Werner Keller, op.cit., p. 207. وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 1036.

(٢) ملوك أول ٢٩: ١١.

(٣) W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 124; M. Burows, What mean these Stones, New Haven, 1941, p. 127F; W. Keller, op.cit., p. 195; C. Watzinger, op.cit., p. 67F, 87F.

وأما تاريخ هذه الاسطبلات، فلا يمكن تحديده على وجه اليقين، وعلى أى حال، فهناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه الاسطبلات إنما هى من عمل فرسان الملك «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م)، أكثر منها من عمل الملك سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)، إلا أن أكثر الدراسات فى تاريخ مدينة «مجدو»^(٢)، إنما تضع الطبقة الرابعة التى وجدت بها هذه الاسطبلات جزئياً على الأقل، فى عهد الملك سليمان، وأن بقايا هذه المباني المشهورة إنما ترجع حقيقة إلى عهد سليمان^(٣).

(٥) سليمان وملكة سبا

لم يكن نشاط سليمان التجارى مقصوراً على تجارة الخيول هذه فحسب، وإنما امتد كذلك إلى التجارة مع دولة سبا، كما تشير إلى ذلك قصة ملكة سبا التى تحدثت عنها التوراة^(٤) والإنجيل^(٥) والقرآن العظيم^(٦)، وقد اختلفت الكتب المقدسة الثلاثة فى سردها للقصة، تبعاً للغرض من السرد نفسه، وإن اتفقت جميعها على عدم ذكر اسم ملكة سبا هذه، أو الأرض التى كانت تقيم فيها، إلا إذا أردنا بكلمة «سبا» هنا، تلك الدولة التى قامت فى الركن الجنوبي الغربى من شبه الجزيرة العربية.

(١) J. W. Crowfoot, PEQ, 1940, p. 143-147.

(٢) مجدو : تل المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلاً من بحيرة طبرية، وعلى مبعده عشرين ميلاً جنوبى شرقى حيفا، فى الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال. (قاموس الكتاب المقدس ١٢/٨٤٠-٨٤١).

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 181; W.F. Albright, op.cit., p. 124; AJA. 44, 1940, p.646-550; R.M. Engberg, BA, 4, 1941, p. 12F; G.E.Wright, BA., 13, 1950, p.44.

(٤) ملوك أول ١٠ : ١-١٣، أخبار أيام ثان ٩ : ١-١٢.

(٥) متى ١٢ : ٤٢.

(٦) سورة النمل، آية : ٢٠-٤٤.

وقد ذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصص التوراة إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان، إنما هي أسطورة من الأساطير، دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته^(١)، ولو تريت بعض هؤلاء النقاد بعض الشيء لما وقعوا في هذا المأزق، نتيجة الأحكام المتسرفة، وربما خيل لهؤلاء المتحذلقين من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمهيص كله في الإنكار، إنه خبر قد يسهل إنكاره بغير حجة، وكأن المنكر لا يطالب بحجة، ولا يعاب على النفي الجزاف، والحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، لا يتفق ومنهج البحث العلمى، فضلاً عن تعارضه مع إيماننا بما جاء فى كتب السماء.

على أن فريقاً آخر، إنما يرى أن هذه القصة لا يمكن فهمها فهماً جيداً، إلا إذا قدرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون فى شمال بلاد العرب^(٢)، ولعل أصحاب هذا رأى ممن يذهبون إلى أن السبئيين، إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب - فى بلاد الجوف أو قريباً منها - وليس إلى جنوبها^(٣) وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ فى بلاد العرب الجنوبية، إلا حوالى عام ٨٠٠ ق.م^(٤)، أى بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن من الزمان.

(١) J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, p. 843.

(٢) فريتزهولم، التاريخ العربى القديم، ص ٦٣ (مترجم).

(٣) انظر عن السبئيين والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلي: كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص ٣٦٥-٣٧٠، (الرياض ١٩٧٧).

(٤) يرى بعض الباحثين أن بداية عصر مملكة سبأ إنما كان حوالى عام ٨٠٠ ق.م ويرى آخرون أنه كان حوالى عام ٧٥٠ ق.م، بينما يرى فريق ثالث - وهذا ما نميل إليه ونرجحه - أنه كان فى القرن العاشر ق.م، هذا ويجعله فريق رابع فى القرن التاسع قبل الميلاد. (انظر: محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، ص ٢٧١-٢٧٣؛ وكذا: جواد على، ٢٦٩/٢؛ وكذا: A. Grohmann, Arabian, p. 122; H. Z. Bowen and W.F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, p. 37; BASOR, 137, 1955, p. 38.

ومن ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان - عليه السلام - لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن، وإنما كانت ملكة على مملكة صغيرة في أعالي شبه الجزيرة العربية، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، ويستدلون على ذلك بأدلة منها (أولا) العثور على أسماء ملكات عربية - مثل زيببة وشمس^(١) ويشعى (ياتى) وتلخونو (تعلخونو) وتاريو (نبوءة)^(٢) وبائلة (با إيلو) وغيرهن - وعلى أسماء ملوك وأمراء عرب - مثل يشع أمر^(٣) وكرب إيلو^(٤) وغيرها - في النصوص الآشورية^(٥)، في حين أن العلماء لم يعثروا على اسم أية ملكة في النصوص العربية الجنوبية.

ومنها (ثانيًا) صعوبة تصور زيارة ملكة عربية من الجنوب لسليمان، وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه، مع أن بلاط أورشليم يجب ألا يكون شيئًا بالقياس إلى بلاط ملوك سبأ، ومن ثم فيجب ألا تكون هذه الملكة - في نظر هذه الجماعة من علماء التوراة - إلا ملكة على مملكة عربية صغيرة، لم تكن بعيدة عن عاصمة دولة سليمان في فلسطين، فقد

(١) N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, AJSJL, 58, 1941, p. 4.

وكنّا: A. L. Oppenheim, ANET, 1966, p. 288.

وكنّا: A. Musil, The Northern Hegaz, N.Y., 1926, p. 477.

(٢) A. Musil, Arabia Deserta, N.Y., 1938, p. 480.

وكنّا: D.D. Luckenbill, ARAB, 1927, 2, p. 518.

وكنّا: A.L. Oppenheim, ANET, p. 291.

وكنّا: D. Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958, p. 4.

(٣) A.L. Oppenheim, ANET, p. 284.

وكنّا: A.G. Zie, The Inscriptions of sargon, II, part I, 1959, p. 5.

(٤) BASOR, 137, 1955, p. 10.

وكنّا: EB, p. 785.

(٥) عن علاقات العرب بالآشوريين. انظر: محمد يومى مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور

القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،

العدد السادس، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٩٧-٤٣٠.

تكون في جبل شمر - وتقع بين الحافة الجنوبية للنفوذ الكبير وبين وادي الرمة، وتتكون من سلسلتى جبال أجا وسلمى - وقد تكون في «نجد» أو في الحجاز^(١).

وليس من شك في أن في هذا الرأي بعضاً من صواب، ورغم أن هناك بعض الباحثين من يرى في تعجب ملكة سبأ ودهشتها البالغة من العظمة والفخامة والرفاهية في بلاط سليمان مما أثار دهشتها، أمراً غير حقيقى^(٢)، فإننا لا نوافق الموافقين والمخالفين فيما عقده من مقارنة بين بلاط سليمان وبلاط ملوك سبأ، لأن الأول - فيما نرى - إنما كان يمثل معجزة نبي، أكثر منه صورة لعظمة ملك، والذي يقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن القصة - كما جاءت في سورة النمل، والتي سوف نردها هنا بنصها كاملاً فيما بعد - ليعرف تماماً، أن الملك سليمان ما كان في استطاعته - مثلاً - أن يفعل بعرشها ما فعل، وإنما الذي يستطيع ذلك، إنما هو سليمان النبي، ذلك لأن ما حدث إنما كان معجزة للنبي الكريم، الهدف منها معرفة تلك الملكة «أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون» وصدق الله العظيم حيث يقول - على لسان سليمان عليه السلام - عن هذا العرش «فلما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غنى كريم».

ولنقرأ هذه الآيات - والتي نتحدث عن القصة كلها - يقول سبحانه وتعالى: «وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدى أم كان من الغائبين،

(١) جواد علي، ٦٣٦/١، ٢٦٢/٢٠، عبد الفتاح شعاع، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، ٨٩-٨٣/٢، (القاهرة ١٩٦٠)، وكذا:

J. A. Montgomery Arabia and the Bible, p. 181.

E. Dhorms, Revue Biblique, p. 105.

وكذا:

R. Dussaud, Les Arabas en Syrie avant l'Islam, p. 10.

وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

(٢)

لأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ إِذْ هَبْ بَكْتَائِي هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرُوا بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَمَدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا أَتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ، قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ، قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونِ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ، قَالَتْ رَبُّ إِنِّي ظَلَمْتُ

نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين^(١).

ولعلنا نستطيع - من خلال الآيات الكريمة الآتفة الذكر - أن نضيف إلى حجج المنادين بأن ملكة سبأ هذه، ربما كانت عربية شمالية، أكثر منها عربية جنوبية، إن الذى يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان لم يكن يعرف عنها شيئاً، سواء من ناحية دولتها أو ديانتها - ومن هنا فإنه يقول للهدد : «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين»، وليس من المقبول أن يكون سليمان وهو ملك عظيم - كما هو نبي كريم - لا يعرف شيئاً عن مملكة سبأ المشهورة فى اليمن، بخاصة وأن هناك علاقات تجارية بين سبأ وفلسطين، كما أن الأخيرة - مقر دولة سليمان - إنما كانت تقع فى نهاية طريق القوافل، التى كان السبئيون يقومون بها، أو يشرفون عليها، كما كانت «عصيون جابر» نقطة بداية أسطول سليمان التجارى، محطة هامة فى طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وادى عربة وشرق الأردن حتى سورية وهو طريق ذو أهمية خاصة لسليمان^(٢).

وعلى أى حال، فإن المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» إنما يذهب إلى أن ملكة سبأ هذه إنما هى ملكة أثيوبية، زاعماً أن «سبأ» Saba، هو اسم عاصمة الأحباش، وأن اسم هذه الملكة هو Maukalis، ومن ثم تكون ملكة سبأ حبشية الجنس، وليست ملكة عربية^(٣).

(١) سورة النمل، آية : ٢٠-٤٤، وانظر: تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩-٢١٠، تفسير القرطبي،

١٧٦/١٣-٢١٣، تفسير أبى السعود ١٢٧/٤-١٣٤، تفسير الطبرى ١٤٣/١٩-١٧٠، تفسير

ابن كثير ٣٦٠/٣-٣٦٦، تفسير الطبرى ٢٠٨/١٩-٢٣٠، تفسير العلى القدير لتفسير ابن

كثير ٣٢/٣-٢٤٠، فى ظلال القرآن ٢٦٤٣١/١٩-٢٦٤٣، تفسير الكشاف ١٤٢/٣-١٥٤،

تفسير البيضاوى ١٧٢/٢-١٧٨، تاريخ الطبرى ٤٨٩/١-٤٩٥، ابن كثير، قصص الأنبياء

٢٣٢/١-٢٣٦، البداية والنهاية ٢٤١٨/٢، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٢٣٤/١-٢٣٨.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(٢)

EL, I, p. 720.

(٣)

وأما الروايات الحبشية نفسها، فتذهب إلى أن «منيلك» أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر قبل الميلاد، إنما كان ابناً لبطللة الشمس «بلقيس» (أو مكيدا أو مقيدة)، وبطل القمر سليمان الحكيم، ومن ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من بين ألقابهم لقب أسد يهوذا، (أو الأسد الخارج من سبط يهوذا)^(١)، حتى نهاية دولتهم في التاسع من ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥/٣/٣١) على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل، فمملكة «أكسوم» إنما قامت في القرن الأول قبل الميلاد - وليس في القرن العاشر ق.م - كما أن ملكة سبأ، إنما هي ملكة عربية، تحكم دولة عربية - في شمال الجزيرة العربية أو في جنوبها، على اختلاف في الرأي - ومن ثم فليس هناك من شك في أن تلك أسطورة نشأت بعد هجرة اليهود إلى الحبشة - سواء أكانت تلك الهجرة في القرن السادس قبل الميلاد، أو في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد - حتى أن «ليتمان» قد قرأ في بعض نقوش الملك الحبشى «عيزانا» عبارة «ملك صهيون»، ورغم أن هذا الرجل - الذى اعتلى العرش حوالى ٣٢٥ م - قد اعتنق النصرانية، فربما كانت هناك حركة تجرى للتبشير باليهودية - فضلاً عن المسيحية - أو بمذهب يجمع بين الديانتين^(٢).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، في تفسير تلك الروايات التى تذهب إلى أن ملكة سبأ إنما كانت حبشية، وليست عربية، أقدمه هنا بحذر،

(١) الحيمى الحسن بن أحمد، سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٥٨؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ٣٧٨/٣-٣٨٥؛ وكذا:

J.B. Conelbeaux, Histoire de L'Abyssinie, I, p. 108.

وكذا:

E.A.W. Budge , A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, I, London, 1928, p. 193.

A. Kammerer, Essais L' Histoire Antique d'Abyssinie, Paris, 1926, p. 68. (٢)

وأعتمد فيه على فرضين، لا أرجح الواحد على الآخر، أما الفرض الأول، فهو أن تلك الروايات ربما كانت نتيجة انتشار آراء التوراة المضطربة حول أصل السبئيين - فهم في رأيها مرة من الساميين^(١) وهم مرة أخرى من الحاميين^(٢)، ثم إن سبأ مرة من ولد يقطان^(٣)، ومرة أخرى من ولد يقشان^(٤) - ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين - اعتماداً على هذا الاضطراب - إلى أن هذا دليلاً على انتشار السبئيين في آسيا (اليمن) وفي أفريقية (إرتريا والحبشة)^(٥)، وأما الفرض الثاني، فربما كانت نفس تلك الآراء متأثرة بالرأى الذى ينادى بأن مملكة أكسوم^(٦) نفسها، إنما أقامها العرب الجنوبيون^(٧).

وتذهب الروايات العربية إلى أن مملكة سبأ هذه، إنما كانت تسمى «بلقيس» - أو كما يقول أهل الأنساب بلقمة أو يلقمة^(٨) - ويرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري - طيب الله ثراه - أن أحد الاسمين - وربما كان يلقمة - نتيجة خطأ فى النقل عن الآخر، وربما كان اسم الإله «الموقاه»

(١) تكوين ١٠ : ٢٨ . (٢) تكوين ١٠ : ٧ ، أخبار أيام أول ١ : ٩ .

(٣) تكوين ١٩ : ٢٨ .

(٤) تكوين ٢٥ : ١ - ٣ ، وانظر :

W. F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, p. 300.

J. Hastings, op.cit., p. 40.

(٥)

EB., p. 2564.

وكذا :

(٦) تزعم الأساطير الحبشية القديمة أن «أنوبيس» - أبا الأثيوبيين - هو والد الملك «أكسوماى» الذى حكم البلاد من مكان لا ندره على وجه التحقيق، وأنه هو الذى أسس مدينة أكسوم - والتي تقع

على مبعدة ١٨٧ كيلاً من ساحل البحر الأحمر. انظر : E. A. W. Budge , op.cit., p. 129.

(٧) جواد علي ٤٥٢/٣ ، جورج فضل حوراني، العرب والملاحة فى المحيط الهندي، ترجمه وزاد عليه

السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٨٥ وكذا :

F. Altheim and R. Steihl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, I, p. 114.

(٨) تاريخ الطبرى ٤٨٩/١ - ٤٩٠ ، ابن الأثير ١٣٠/١ - ٢٢٨ ، ابن كثير، البداية والنهاية،

٢٠/٢ - ٢٤ ، البكرى ٢٣٩٨/٤ .

(بمعنى إيل قوى، أى الله قوى) يدخل فى تركيبه، أما اسم «بلقيس» - الذى تكرر ذكره فى كتب المؤرخين المسلمين - فلم يرد على الإطلاق بعد الأسماء السبئية، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية، التى نقلته عن اليونانية، ومعناه «أمة» أو «جارية»^(١).

وأما أستاذنا للدكتور حسن ظاظا، فالرأى عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقيناً «بلقيس»، وربما كانت هذه صفة تنطق فى العبرية، وفى الآشورية «بلجاش» أو «قلجاش»، ومعناه العشيقة أو المرأة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودى الذى لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنبية^(٢)، بخاصة - وأن الأمر - كما نصوره المراجع اليهودية - قد زاد بصورة ملفتة للنظر فى تلك الفترة، إذ تصور التوراة الملك سليمان نفسه وقد فاق كل أقرانه، فتزوج - كما أشرنا من قبل - من المصريين والمؤايبات والعمونيات والآدوميات والصيدونيات والحيثيات، وغيرهن من الأمم التى حرم رب إسرائيل على شعبه إسرائيل أن يتصلوا بها، وقد «التصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراى»^(٣).

وأيًا كان اسم هذه الملكة التى زارت سليمان، وأيًا كان السبب فى تسميتها بهذا الاسم أو ذاك - كما ترى الكتابات العربية والعبرية واليونانية والحبشية - فإن التوراة تذهب إلى أن ملكة سبأ، إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان، وأن الملكة حينما تأكدت من حكمته وعظمة ملكه، سرعان ما قدست إله إسرائيل، الذى جعل سليمان ملكاً تجرى على يديه الحكمة وفصل الخطاب، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد، ثم انتهى الأمر بأن تبادل الملكان الهدايا^(٤).

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٧٣. (٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٣) ملوك أول ١١: ٤-١. (٤) ملوك أول ١: ١٠-١٣.

غير أن بعض الباحثين، إنما يرى أن الهدف لم يكن كذلك، وإنما كان على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى الطرفين، كان توثيق العلاقات التجارية وتسهيل التعاون التجارى بينهما، ويذهب البعض إلى أن هذه الملكة لم تكن هي الحاكم الفعلى لبلادها، ولكنها هي التى قامت بالزيارة، ومن ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هي التى رغبت فى القيام بأعمال تجارية مع سليمان، وربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية والإشراف عليها^(١).

على أن «إدوارد جلازر» و«إيرهارد شرادو»، إنما يذهبان إلى أن الملك سليمان هو الذى دعا ملكة سبأ لزيارته والإقامة فترة من الزمان فى مكان ما من هضاب أدوم، لمشاهدة عمال الملك وهم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك.

وعلى كل حال، فلقد كانت إسرائيل فى نهاية طريق البخور، وكان وكلاء سليمان (تجار الملك) يقومون بالاجراءات الجمركية - إن صح هذا التعبير - على البضائع الثمينة، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار فى رحلتها إلى مصر وفينيقيا وسورية، عبر مملكة سليمان، ومن ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ^(٢)، وهكذا «فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطيابها وذهباً كثيراً جداً، وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبيها»^(٣).

ويدهى أن هناك الكثير لدى ملكة سبأ لتقوله لسليمان، فهى كرئيسة

(١) W.F. Albright, *Achaeology and the Religion of Israel*, p. 124.

وكذا: K.M. Kenyon, *Excavation in Jemsalem*, 1962, in *PEQ*, 95, 1963, p. 7F.

O. Eissfeldt, *op.cit.*, p. 593.

(٢) جواد على ٢٦٣/٢، وكذا:

J. Hastings, *op.cit.*, p. 843.

وكذا:

W. Keller, *op.cit.*, p. 213-214.

وكذا:

(٣) ملوك ثان ١٠: ٢.

لدولة لها تجارة خارجية ترتبط بدولة أخرى لأسباب جغرافية، يمكنها أن تناقش الكثير من الأمور مع ملك تلك الدولة، وليس ذلك بالأمر الشاذ أو الغريب فنحن في أيامنا هذه نرسل المتخصصين إلى البلاد الأخرى، وهم يحملون في حقائبهم الدبلوماسية الهدايا التي تظهر الاحترام اللائق برئيس الدولة، كما فعلت ملكة سبأ^(١)، ومن هنا - ومع احتمال المبالغة في الرواية التوراتية - فإننا لا نرى في زيارة ملكة سبأ لسليمان أمراً مستحيلاً، أو تصرفاً شاذاً يستوجب الاستنكار، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين^(٢).

والرأى عندي أن الزيارة لم تكن بهذه الصورة التي قدمناها من قبل، وإنما كان الأمر يتصل بدعوة النبي سليمان، أكثر منه بتجارة الملك سليمان، وإذا رجعنا إلى آي الذكر الحكيم، لرأينا الأمر كذلك، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِيَ بَسُلْطَانٌ مَبِينٌ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَتَهَدُّونَ، أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ»^(٣).

وتجتمع الملكة العربية الملأ من قومها وتعرض عليهم الأمر، تطلب منهم

W.Keller, op.cit., p. 214-215.

(١)

(٢) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) سورة النمل، آية : ٢٠-٣١.

الرأى والمشورة فى هذه الأزمة التى أتت إليها من حيث لا تحتسب، «يا أيها الملاً أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون»^(١) ويأتيها الجواب سريعاً من المؤتمرين: «قالوا نحن أولو قوة وأولو بأسٍ شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين»^(٢)، وليس هناك من شك فى أن هذه الآيات الكريمة إنما تدل بوضوح على أنها صاحبة السلطان الفعلى فى مملكتها، بعكس ما ذهب إليه بعض الباحثين^(٣)، كما أشرنا من قبل.

وهنا تلجأ الملكة إلى إعمال الحيلة والتدبير، وتضع النبى الكريم موضع الاختيار لتصل إلى رأى تطمئن إليه بشأنه، وهل هو من الهداة المرشدين؟ أم من الطغاة الطامعين؟ ومن ثم فإنها إنما تبعث برسل من عندها إلى صاحب هذه الرسالة التى يطلب منها - وكذا من قومها - «ألا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين»، كما أنها فى الوقت نفسه، إنما طلبت من رسلها أن يقفوا على ملك سليمان، ثم يعودوا إليها بتقرير واف عن حقيقة سليمان - وقوته فى ملكه، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة، وهل يمكنه أن يهدد أمنها وأمن قومها، إن لم تخضع لأمره، وذلك لتكون على بينة من أمرها، فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدايا رفضها، وقال: «فما آتانى الله خير مما أتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون».

وهنا تتأكد الملكة أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار، يطلب لها ولقومها الهداية إلى سواء السبيل، وليس رجلاً غرته قوته، فأراد أن يجعل من دولتها جزءاً من مملكته، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبى الكريم، ويستعد سليمان لاستقبال الملكة العظيمة، ويعد لها أمراً يخرج عن قدرة الملك، ولكنه يتصل بعمل النبى، يخرج عن قدرة البشر العاديين، ويدخل فى عداد

(١) سورة النمل، آية : ٢٢.

(٢) سورة النمل، آية : ٢٣.

O.Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(٣)

معجزات، تلك الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله الكرام البررة، «قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنني عليه لقوى أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين»^(١) ثم مفاجأة أخرى، «قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبه لجة وكشفت عن ساقها، قال إنه صرح ممرد من قوارير»^(٢).

وهنا كانت الملكة العربية قد رأت كل ما يعد عنها أية رية في أنها أمام نبي الله الكريم، سليمان عليه السلام، وليس كما كانت تظن - باديء ذي بدء - أنها أمام ملك يطمع في دولتها، أو يبغي الاستيلاء عليها، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون، فتصرفت سيدة سبأ، تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طوال العصور، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل ملوك العراق مع الخليل، أو فراعين مصر مع الكليم، كما لم يقدر عليه من قبل جبابرة قريش، وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب، مع المصطفى - ﷺ - أو قل إنما هي رحمة الله التي أرادت لها الهداية والرشاد، ومن ثم فقد أنهت الأمر كله، بأن «قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»^(٣).

هذه عجالة، نلخص بها قصة سليمان وملكة سبأ - كما أوردها ربي جل جلاله في القرآن الكريم - ومن أسف أن بعض المفسرين والمؤرخين

(٢) سورة النمل، آية : ٤٤ .

(١) سورة النمل، آية : ٣٨-٤٢ .

(٣) سورة النمل، آية : ٤٤ .

الإسلاميين، قد عالجوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة، فأضافوا إليها - ما شاء لهم الخيال أن يضيفوا - فذهب بعضهم إلى أن «بلقيس» إنما هي «بلقمة» ابنة «ليشرع ابن الحارث بن صيفى بن يشجب بن يعرب بن قحطان»^(١)، وذهب البعض الآخر إلى أنها «بلقيس» (تلقمة أو بلعمة) بنت السيرح، وهو الهدهاد بن شرحبيل، وأنها حكمت اليمن مائة وعشرين سنة^(٢).

ومن عجب أن بعض الإخباريين إنما ذهب به الخيال إلى أن يرى أن أم «بلقيس» هذه إنما كانت «جنية» بنت ملك الجن، واسمها «رواحة» بنت السكر، أو «بلقمة» بنت عمر بن عمير الجنى^(٣)، وأما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجن وخطب ابنة ملكهم، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الخرافات، التي لا أدري - علم الله - من أين أتى بها أصحابها؟، على أن أسوأ ما فى الأمر، وأشدّه خطورة أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لروايتهم هذه، سنداً من شرعية، أو نصيباً من صواب، فينسبون إلى سيد الأولين والآخرين، مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ، - عن طريق أبى هريرة - أحاديث تؤكد مزاعمهم هذه^(٤)، أو قل أكاذيبهم الساذجة هذه.

وليت الأمر يقتصر على ذلك، وإنما يقدمون لنا كل دنىء عن القوم، فالملك السبئى يعتدى على الأعراض، ولا تقوته عروس إلا ويفتضحها قبل

(١) تاريخ الطبرى، ١/ ٤٨٩، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ١/ ٢٣٠، وانظر: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم النيسابورى، المعروف بالثعلبى، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، ص ٢٧٨، (القاهرة - طبعة الحلبي).

(٢) ابن الأثير، ١/ ٢٣١، أحمد بن يعقوب بن جعفر، تاريخ يعقوبى، ١/ ١٥٨، (بيروت ١٩٦٠)، الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٣) تفسير القرطبى، ص ٤٨٩٨-٤٨٢٧، الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٧٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢١١، قصص الأنبياء، ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

(٤) ابن الأثير، ١/ ٢٣١-٢٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢١١، قصص الأنبياء، ٢/ ٢٩١، الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

زوجها، وبلقيس - وهى ابنة عمه فيما يزعمون - لا تنجو من هذا الإذلال، إلا بعد أن تشور على قومها، مؤنبه إياهم على قبولهم هذا الصغار، وتلك الدناءة: «أما فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته، ثم تعد له رجلين يقتلانه فى اللحظة التى يهيم بها»^(١).

ويبلغ الخيال بمؤرخينا أشده، حين يزعمون أن «بلقيس» إنما كانت عريضة الملك، إذ «كان لها اثنا عشر ألف قيل، تحت يد كل قيل مئة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، فى كل جيش سبعون ألف مبارز ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة»، وصدق عز الدين بن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ = ١١٦٠-١٢٣٢م)، حيث يقول: «وما أظن الساعة راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب، حتى يعرف مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم، شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونسأؤهم، هذا العدد»^(٢).

ومن عجب، فإن الإخباريين إنما يجعلون أمر بلقيس كله بيد سليمان حتى فى الأمور الشخصية، فهى حين ترفض الزواج من أحد رعاياها، يزوجه سليمان من «ذى تبع»^(٣) ملك همدان، بحجة أن ذلك لا يكون فى الإسلام، وكان الملوك فيما قبل الإسلام - أو قبل عصر سليمان وكذا بعده - ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم، وكان التاريخ لا يعرف زواجاً بين الأمراء وغير الأمراء، ومع ذلك، فإن سليمان لم يزوجه بواحد من رعاياها، أو حتى من عظماء قومهما، وإنما زوجها من ملك همدان - الذى لا

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس، ص ٢٧٦، (القاهرة ١٣٠٢هـ)، ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١/٢٢٣-٢٣٤، (بيروت ١٩٦٥).

(٣) انظر عن لقب «تبع» والآراء التى دارت حوله، كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم، ص ٣٤٠-٣٤١، الرياض، ١٩٧٧.

يعرف التاريخ عنه شيئاً - وليت الذين كتبوا ذلك كله، يعرفون أن قبيلة همدان لم تصبح لها المكانة الأولى بين قبائل اليمن، ولم يحمل شيوخها لقب «ملك» متحدین بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين^(١) إلا منذ أيام «نصرم يهنعم» (ناصر يها من)، وشقيقه «صدق يهب»، حوالي عام ٢٠٠ ق.م^(٢)، وأن «بلقيس» هذه، وقد عاصرت سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)، إنما كانت تعيش في القرن العاشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور ملوك في همدان، بما يقرب من سبعة قرون ونصف القرن من الزمان، وعلى أي حال، فإن هناك رواية إخبارية، إنما تذهب إلى أن الزوج الذي ارتضته «بلقيس» إنما كان هو سليمان نفسه، ثم أضافت رواية ثانية أنه إنما جعل الجن تحت إمرتها، وعلى رأسهم «زوبعة» أمير جن اليمن^(٣).

(٦) النشاط البحري

بدأ سليمان بعد ذلك يتجه بنشاطه التجاري نحو البحر، ليتجر مع البلاد الواقعة على الأبحر، وليستورد ما يحتاج إليه هو بصفة خاصة، ورجال البلاط بصفة عامة من مواد الترف والسلع القيمة النادرة، ولكن قومه العبرانيين لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل، كما أنهم لم يكونوا على خبرة، أيًا كانت بشئون بناء السفن وملاحتها، ومن هنا فقد بدأ سليمان يعمل على تأمين الطرق عبر وادي عربة، ثم الاتفاق مع «حيرام» ملك صور، على إنشاء أسطول من السفن في ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية.

وفي الواقع فإن التوراة إنما ركزت كثيراً على تجارة سليمان البحرية، أكثر من تجارته البرية، ولقد أثبتت الحفريات مما يؤكد كثيراً من النصوص

(١) A. Jamme, Sabaeen Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1961, p. 278.

(٢) J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 142.

(٣) تاريخ الطبري ٤٩٤/١-٤٩٥، ابن الأثير، ٢٣٧/١، الثعلبي، المرجع السابق، ص ٢٨٩-٢٧٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٤/٢، تفسير القرطبي، ص ٤٩٢٦، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)، ابن دريد، الاشتقاق، ٣١١/٢، (القاهرة ١٩٥٨).

الخاصة بهذه التجارة البحرية^(١). ونقرأ في الملوك الأول: «وقد عمل سليمان سفناً في عصيون جابر، التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض آدوم»^(٢)، هذا وقد كشف في «تل الخليفة» مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس الممزوج بالحديد، وقطع من حبال غليظة، وكتل من القار لضم السفن، وأخرى من الصمغ لطلائها، وكان من الممكن أن يقطع الخشب اللازم للألواح من غابات البلوط التي كانت توجد في آدوم في ذلك الوقت^(٣)، ومع ذلك، ورغم وجود غابات كثيرة من النخيل في مجاورات هذا المكان، إلا أنه لا توجد الأخشاب الملائمة لأغراض البناء، ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصوري الأخشاب التي حملها ثمانية الآلاف من الرجال، بنى بها أسطولاً من عشر سفن، وقد عرفنا الكثير عن هذا الأسطول، حتى أسماء ربانية من الفينيقيين^(٤).

وهكذا استغل سليمان مهارته السياسية، وتحالفه مع ملك صور، في أن ينشئ هذا الأسطول بالخبرة الفينيقية، كما كان يديره فينيقيون كذلك، ونقرأ في التوراة أن حيرام «قد أرسل في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان»^(٥)، ونقرأ كذلك عن أسطول منفصل لحيرام، أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير» وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب^(٦)، هذا وقد اكتشفت قرب «تل أبيب» Tel-Aviv أوستراكا، ترجع إلى ما بين عامي ٩٠٠، ٨٠٠ ق.م، وعليها نص يقول: «ذهب أوفير من أجل بيت حورن»^(٧) أما

(١) O.Eissfeldt, op.cit., p. 593. (٢) ملوك أول ٩: ٢٦.

(٣) جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص ٢٤. (٤) W. Keller, op.cit., p. 201.

(٥) ملوك أول ٩: ٢٧. (٦) ملوك أول ١٠: ١١-١٢.

(٧) Syria, XXVI, 1949, p. 157; B. Mailer, Two Hebrew Ostraca From TellQu-sile, JNES, Io, 1950, p. 265F.

ولكن: أين تقع أوفير؟

لقد قام جدل طويل بين العلماء حول «أوفير» هذه، وهناك دائماً من يزعم أنه قد وجدها في أفريقية، فهناك «كارل ماوخ»، والذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام ١٨٦٤م، على حدود روديسيا الجنوبية وموزمبيق في شرق أفريقية، وهناك «ستنبرج»، الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاماً - وعلى مبعده أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول - محلات للتعددين من عصر ما قبل المسيحية، ظن أنها كانت تتصل بمعبد المدينة، وفي عام ١٩١٠م، سور الرحالة الدكتور «كارل بطرس» نقوشاً من هذا الموقع يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية^(١).

ويقترح «وليم أولبرايت» أنها في الصومال، ويتفق هذا مع رواية التوراة - كما جاءت في سفر الملوك الأول - عن طول الوقت الذي يلزم للوصول إلى أوفير، حيث تروى «فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات»^(٢) ثم يقترح «أولبرايت» بعد ذلك أن الأسطول ربما كان يبحر من «عصيون جابر» في نوفمبر أو في ديسمبر من السنة الأولى، ويعود في مايو أو يونيو من السنة الثالثة، وبهذا يتجنب الجو الحار، قدر استطاعته، وأن الرحلة في هذه الحالة لا تأخذ أكثر من ثمانية عشر شهراً، فضلاً عن ذلك فإن طبيعة السلع (الذهب والفضة والعاج والقروء) تشير إلى أفريقية كمكان من الواضح أنه الأصل^(٣).

وهناك من يحاول أن يوحد أوفير ببلاد «بونت»^(٤) - وصحة الاسم فيما يرى سير ألن جاردنر «بويني»^(٥) - والتي يرى كثير من العلماء^(٦)

(١). قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٣/١، (بيروت ١٩٦٤).

(٢). W. Keller, op.cit., p. 201-202. (٣) ملوك أول ١٠: ٢٢.

(٤). W. Keller, op.cit., p. 434.

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 37.

(٥)

(٦) انظر الآراء المختلفة عن موقع «بونت»: محمد بيومي مهران، «العرب وعلاقاتهم الدولية في

أنها إنما تقع على الساحلين - الأسيوى والأفريقى البحر الأحمر، بالقرب من بوغاز باب المندب، أى الصومال وأرتيريا فى ناحية، وجنوب بلاد العرب فى الناحية الأخرى^(١).

على أن هناك رأياً قوياً يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية^(٢)، وإن اختلفت الآراء فى هذا المكان من جنوب بلاد العرب، فذهب فريق إلى أنها فى الجنوب الغربى (فى اليمن)، متضمناً الساحل الأفريقى المجاور^(٣) وذهب فريق آخر إلى أنها فى الجنوب الشرقى، متضمناً الخليج العربى وخليج عمان^(٤) وفى الوقت الذى يتجه فيه فريق ثالث من العلماء، إلى أنها إنما تقع فى العويفرة^(٥) القريبة من قرية «الفاو»^(٦)

=

المصور القديمة، ص ٣٠٧-٣٠٩، (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض، ١٩٧٦).

(١) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٣٣؛ دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٤٠؛ محمد مبروك نافع، عصر ما قبل الإسلام، ص ٥٢-٥٣؛ وكذا:

E. Naville, Le Commerce de L'Ancienne Egypte avec les Nations Voisines, Geneve, 1911, p. 7; P.K. Hitti, op.cit., p. 3; J. Wilson, op.cit., p. 176; M. Hilzheimer, ZAS, LXVIII, 1932, p. 112F.

A. Lods, op.cit., p. 370; S.A. Cook, CAH, III, p. 357. (٢)

M. F. Unger, op.cit., p. 81; J. Hastings, op.cit., p. 669; M. Noth, op.cit., p. 215. (٣)

J. Hastings, op.cit., p. 669; E. Glaser, Die Abessinier in Arabian und Africa, (٤) 1895, p. 368-373.

B. Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, N.Y., 1932, p. 163 (٥)

(٦) قرية الفاو: تقع على مبعدة ٧٠٠ كيلو متراً إلى جنوب الرياض، ٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة الخماسين، وحوالى ٥٠ كيلو متراً إلى جنوب المنطقة التى يتداخل ويتقاطع فيها وادى الدواسر مع جبال طويق، عند فوهة مجرى قناة «الفاو»، وتشرف عليها الحافة الغربية الشمالية للربع المخابى وكانت الفاو قديماً على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والخليج العربى، ماراً بمنطقة اليمامة، وعلى طريق التجارة بين جنوب الجزيرة وشمالها. (عبد الرحمن الأنصارى، مجلة كلية الآداب، المجلد الثالث، ص ٢٧؛ الرياض، ١٩٧٤؛ وكذا انظر: نشرة معرض الفاو عام ١٢٩٣هـ/١٩٧٣م؛ وكذا:

J.B. Philby, Two Notes From Central Arabia, GJ, 1949, p. 113.

السعودية، وأن الاسم القديم إنما هو «عفر»، وقد عرف بالنقل إلى اللغتين العبرية واليونانية، ومن ثم فقد أصبحت «أوفير» وأخيراً فهناك فريق رابع يرى أنها إنما تقع في المنطقة ما بين مدينة «القنفذة» و«عتود»^(١) في المملكة العربية السعودية.

وهناك اتجاه ثالث يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع في الهند، اعتماداً على أن كثيراً من أسماء بعض السلع التي كانت تأتي من «أوفير» إنما هي دخيلة في اللغة العبرية من بعض لغات أخرى مثل السنسكريتية^(٢).

بل لقد وصل الأمر بالبعض إلى أن يرى أن أوفير، إنما تقع في ولاية «الأمازون» البرازيلية في أمريكا الجنوبية، ثم يحاول هذا البعض أن يدعم زعمه هذا، بأنه توجد حتى اليوم في ولاية الأمازون أمكنة كثيرة حافظت على أسماء عبرانية وفينيقية، كما أن السلع التي نقلتها سفن سليمان وخليفته الصوري حيرام من أوفير إلى أورشليم وصور وصيدا، يوجد نماذج كثيرة منها هناك، كما أن أسماءها ليست عبرية وفينيقية وإنما هي من صميم لغة سكان الأمازون الأصليين، فضلاً عن اسم «سوليموس» - Soli-moes الذي يحمله أحد فروع الأمازون، إنما هو اسم الملك سليمان نفسه وقد أطلقه على النهر الكبير أحد أفراد الأسطول تيمناً بالملك العظيم^(٣)، وهكذا يصل الخيال بالبعض إلى هذا الحد، إلى أن تكون «أوفير» في أمريكا الجنوبية.

هذا وهناك من يرى أن أوفير إنما تقع في «عسير»، ومن يرى أنها في أرض «مدين»، ورجح كثيرون أنها على سواحل جزيرة العرب الغربية أو

B. Moritz, Arabia, Hannover, 1923, p. 110.

(١)

J. Finegan, op.cit., p. 181.

(٢)

E. Renan, Histoire du Peuple D'Israel, Paris, 1887, p. 122.

وكناء،

(٣) الأب إميل أدو، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٤-٢٥.

الجنوبية، على أساس أن هذه الأماكن إنما هي أقرب إلى الوصف الوارد في التوراة من غيرها^(١)، هذا وقد ذكر «الهمداني» (م ٩٥١/٣٤٠) في معادن اليمامة موضعاً سماه «الحفير»، فقال «ومعدن الحفير بناحية عماية، وهو معدن ذهب غزير»، ووجود الذهب بغزارة في الحفير إنما ينطبق على وصف أوفير إلى حد كبير، إلا أن هذا الموضع بعيد عن البحر، ولكن من يدري؟ فلعل كتبة التوراة لم يكونوا على معرفة بموقع أوفير، وإنما سمعوا بذهبه الذي يتاجر به العرب الجنوبيون، من الموانئ الساحلية، فأرسل سليمان سفنه إلى موضع يبعه في سواحل جزيرة العرب لشرائه، ومن هنا ظن كتاب التوراة أن أوفير على ساحل البحر، والحفير كما يبدو اسم قريب جداً من أوفير^(٢).

وأخيراً فهناك من يرى أن أوفير، معناه «الأرض الحمراء» (أي الحمراء بلون الذهب)، وأنها لم تكن علماً على بلد معين، وإنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقية وغرب الهند^(٣).

ويقدم الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر، دراسة علمية جادة عن موقع أوفير، يناقش فيها كل النظريات المختلفة يخلص منها إلى أن الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية هو مكان أوفير^(٤)، فقد كانت يبلاد العرب موطناً للذهب، الأمر الذي شاع بين الكتاب القدامى من الأغارقة حتى أنهم يذهبون إلى أنه إنما كان يستخرج في مواضع معينة منها، خالصاً

(١) جواد علي ٦٣٩/١، وكذا انظر:

B.F. Burton, The Gold Mines of Midian, Sikzze, II, p. 347; J.A. Montgomery, op.cit., p. 38; B. Moritz, Arabian, p. 7.

(٢) جواد علي ٦٢٩/١-٦٤٠، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٥٣.

(٣) J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, Antiquity, 15, 1941, p. 361-364; J. Hornell, Naval Activity in the Days of Solomon and Ramses III, Antiquity 21, 1947, p. 239-240.

(٤) السيد يعقوب بكر، أوفير، ص ١١٦، ١٩٠ (من كتاب فضلو حوائى، العرب والملاحة في المحيط الهندي، القاهرة ١٩٥٨).

نقيًا لا يعالج بالنار، لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته، ولهذا قيل له Apyron، ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن العبرانيين إنما قد أخذوا لفظ «أوفير» من كلمة «أبيرون» هذه^(١).

وقد عثر في «مهد الذهب» والذي يقع إلى الشمال من المدينة المنورة، على أدوات استعمالها القدامى في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه مثل رحي وأدوات تنظيف ومدقات ومصاييح، فضلاً عما تركه القوم من آثار في حفر للعروق التي يتكون منها الذهب، مما يدل على أن الموقع إنما كان منجمًا للذهب في عصور ما قبل الإسلام، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان^(٢).

وهكذا كان من الطبيعي أن يطلب سليمان الذهب في بلاد العرب، وليس في مكان قصي كالهند وأفريقيا، وكان من الطبيعي كذلك أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، لأنه أقرب أجزائها إليه، وبخاصة في «بيشه» وفي «خنكان»، وفي المنطقة ما بين القنفذة ومرسى حليج، فضلاً عن وادي تثليث على مقربة من حمضة، وعلى مبعدة ٢٩٣ كيلاً من نجران^(٣)، وربما قد حدث ذلك بعد اتصال سليمان بملكه سبأ - إن كانت قد حكمت في العربية الجنوبية - وبعد أن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وكان أمام سليمان للوصول إلى ذهب بلاد العرب طريقان، طريق البر عبر الصحراء، وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه أثر الطريق

(١) J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, 1934, p. 39.

(٢) جواد علي ١٩٣/١.

وكذا: R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, p. 20, 23.

(٣) B. Moritz, Arabien, Hanover, 1923, p. 110.

K.S. Twitchell, Saudi Arabia with an Account of Development of its Natural Resources, Princeton, 1943, p. 77.

البحرى، رغم أن قومه أهل زراعة ورعى لم يتمرسوا بالبحار، ذلك لأن طريق البر جدد شاق، وقد تزيد نفقاته عن طريق البحر، بما يفرضه السبئيون المحتكرون لطريق الصحراء من أجور ومكوس، وثمة سبب آخر دعا سليمان إلى اختيار طريق البحر، هو أنه ربما أراد أن يشرك معه حليفه حيرام ملك صور، تودداً ورغبة في الانتفاع بمهارة الفينيقيين فى الملاحة، وربما كان حيرام نفسه هو الذى ألح عليه فى ذلك.

وعلى أى حال، فلقد كان الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية، هو المصدر الذى يستقى منه سليمان الذهب، والذهب أهم السلع التى كانت تجلب من أوفير، فأوفير إذن فى الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية، ثم يلى الذهب فى الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل والحجارة الكريمة، وهما سلع عربية كذلك، هذا فضلاً عن أن التوراة^(١)، إنما تعد «أوفير» من أبناء يقطان (قحطان فى جنوب الجزيرة العربية)، وتضعه بين سبأ وحويلة، و«أوفير بن يقطان» هذا - أى شعب أوفير القحطاني - هو الشعب الذى يسكن أرض أوفير، فليس هناك «أوفيران» أوفير فى الجزيرة العربية، وأوفير فى مكان آخر، كما يزعم البعض^(٢).

وأما الفضة والعاج والقروود والطواويس، فالفضة كانت دائماً غالية فى الجزيرة العربية، ولهذا رأى بعض الباحثين أنها مقحمة فى النص^(٣)، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج، إما من أفريقية القرية، وهو الأرجح، وإما من الهند البعيدة، وأما القروود فهى مستوردة كذلك، إلا إذا كان المراد النسائيس، كما يقول «مونتجمرى»^(٤)،

(١) تكوين ١٠: ٢٩.

(٢) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٤.

(٣) T.A. Richard, Man and Metals, vol. I, N.Y., 1932, p. 267.

(٤) J.A. Montgomery, op.cit., p. 39.

وهي ماتزال ترى في مرتفعات اليمن وحضرموت، وعندئذ فهي سلعة عربية، وكذلك «الطيوب» التي يجعلها «جلازر» مكان القروود سلعة عربية كذلك، بل هي السلعة التي كان يتهاافت عليها الشرق، والغرب وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب، يتبقى بعد ذلك «الطواويس»، وهي سلعة هندية في الأصل، فلا بد أن أوفير كانت تستوردها من الهند، وإذا صح ما يقوله «نيبور» من أن المراد «العبيد» كانت السلعة مستوردة أيضاً، ولكن من أفريقية^(١).

أضف إلى ذلك أن هناك ما يثبت أن الاتصال البحري بين شمال البحر الأحمر، والهند لم يتم إلا في عصر قريب من القرن الأول الميلادي، أو على الأقل في عصر لا يعد كثيراً عن القرن الأول، وفي هذا زعزعة للنظرية الهندية^(٢)، وكذا لنظرية جلازر (والتي تذهب إلى أن أوفير التوراة، إنما هي الساحل العربي من الخليج الفارسي، من الشمال حتى رأس مصندم)^(٣)، ثم إن هذا يثبت كذلك أن السفن قبل القرن الأولي كانت تستطيع عبور باب المندب إلى عدن، وفي هذا زعزعة لرأي «موريتز»^(٤) الذي يرى أن السفن في عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب، وإذن فإن سفن سليمان كانت تستطيع حمل سلع أوفير من ميناء عربي قبل باب المندب، كميناء «مخا» أو بعده كميناء عدن، ثم إن انتساب العاج والقروود والطواويس في العبرية إلى أصول هندية، ليس دليلاً على أن السلع كانت تستورد من الهند نفسها، فقد كان باب الاستيراد مفتوحاً

(١) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) CHI, I, p. 212; E. Renan, op.cit., p. 119-122; J. Hornell, Antiquity, 15, 1941, p. 244, Antiquity, 21, 1947, p. 72-73.

(٣) E. Glaser, Skizzen der Geschichte und geographie Arabiens, 2, Berlin, 1890, p. 368-373.

B. Moritz, Arabian, p. 86-9.

(٤)

كذلك لا يصح الاستدلال على أن أوفير في بلد ما، بورود أسماء مشابهة لأوفير في هذا البلد، فكثيراً ما يكون التشابه اللفظي عارضاً^(١).

ويناقش الدكتور يعقوب بكر بعد ذلك الاعتراضات التي وجهت إلى هذه النظرية، ومنها أن ذهب بلاد العرب كان قليلاً بالقياس إلى المقادير الهائلة التي كانت تصل منه إلى سليمان، وأن السنوات الثلاثة التي كانت تستغرقها رحلة أوفير، يستحيل معها أن تكون أوفير في مكان قريب من عصيون جابر. فهذان الاعتراضان يقومان على أساس التسليم بقصة أوفير حرفاً حرفاً، ولكن ألا تجوز المبالغة في هذا المجال الأدبي، ولا سيما أن الأمر يتعلق بسليمان الذي سارت بذكره الركبان، والذي كان يحتاج فعلاً إلى ذهب كثير لتزيين الهيكل وقصر الملك، ثم ألا يمكن أن يكون الغرض من المبالغة إظهار حملات أوفير، وكأنها أبهى من حملات الفراعنة إلى «بونت» أو بمنزلتها على الأقل.

وأما عن ذكر السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها الرحلة إلى أوفير، فهي أولاً قد وردت في المصادر المتأخرة، ثم هي مبالغة أيضاً، فقد يجوز أن يكون المعنى أن سليمان كان يبعث بسفنه مرة كل ثلاث سنين، وعندئذ لا تكون الإشارة إلى زمن الرحلة، ولكن إلى المدة الفاصلة بين كل رحلة وأخرى^(٢). أضف إلى ذلك أن وجهة نظر «وليم أولبرايت» التي سبق أن قدمناها بشأن الرحلة ربما كانت تتصل برحلة أخرى، غير رحلة أوفير، ذلك لأن «ستانلى كوك» يرى أن سليمان وحيرام قد امتلكا أسطول «ترشيش»، والذي يمكن الحكم عليه من اسمه أنه قد ذهب إلى ترشيش في أسبانيا، وأما أسطول الفينيقيين فقد أبحر من عصيون جابر في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير^(٣) (من جنوب الجزيرة العربية)، وهكذا يبدو أن رحلة

(١) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٤٨-١٦٠.

S. A. Cook, op.cit., p. 367.

(٣)

السنوات الثلاث ربما لا تتصل بأوفير، ولكنهما تتصل بأسطول «ترشيش»^(١) إلى أسبانيا، وإن كان ذلك سيجرنا إلى متاعب أخرى، علماً بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام من ناحية، وبين قبرص وأسبانيا من ناحية أخرى^(٢).

(٧) النشاط الصناعي:

لم تكن «عصيون جابر» ميناءً تجارياً فحسب، ولكنها كانت كذلك مركزاً صناعياً، وكان يظن من قبل أنها تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربية^(٣) وقد اكتشفتها بعثة أمريكية - برئاسة نلسون جلوك - في موقع «تل الخليفة»، على مبعده ٥٠٠ متراً على ساحل البحر، على الطرف الشمالي من خليج العقبة، بالقرب من ميناء «إيلات»، وفي منتصف الطريق بين مدينة العقبة والطرف الشرقي من خليج العقبة، و«أم الرشراش» على الطرف الغربي^(٤)، هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن المدينة قد عرفت بعد ذلك باسم Berencie^(٥).

(١) توشيش، يذهب بعض الباحثين إلى أنها في سردينيا، ويذهب آخرون إلى أنها ترطيسوس في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق أو لعلها «قرطاجنة» المدينة الواقعة في شمال أفريقيا. (قاموس الكتاب المقدس، ٢١٥/١-٢١٦؛ وكذا:

Frederic Thieberger, King Solomon, London, 1957, p. 206; M.F. Unger, ٢٠٦, op.cit., p. 1070-1071.

(٢) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ص ٧٤.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ص ٦٣٧، (بيروت ١٩٦٨).

(٤) Nelson Glueck, The Other Side of the Jordan, New Haven, 1940, p. 50-113; وكذا:

F. Thieberger, op.cit., p. 206; J. Hornell, Antiquity, 21, 1947, p. 66; W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1963, p. 44, 127-128;

وانظر: قاموس الكتاب المقدس، ٦٣١/٢، (بيروت ١٩٦٧)؛ وكذا:

K.M. Kenyon, op.cit., p. 257.

J. Hastings, op.cit., p. 253.

(٥)

وكان اختيار موقع «عصيون جابر» اختياراً موفقاً، فى مكان لم يسكن من قبل، بين تلال أدوم من الشرق، وتلال فلسطين من الغرب، حيث يمكن الإفادة إلى أقصى الحدود من الريح التى تهب من الشمال، حيث تبلغ غاية سرعتها فى وسط وادى العربى، وذلك للانتفاع بها فى تأجيج النار اللازمة للتكرار، هذا فضلاً عن أن «أدوم» وكل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة غنية بالنحاس والحديد^(١)، ونقرأ فى التوراة عن «أرض حجارتها حديد، وفى جبالها تحفر نحاساً»^(٢)، ومن هنا كانت عصيون جابر - بجانب وادى عربى والنقب - مركزاً لصهر النحاس والحديد فى عهد سليمان، الذى وصفه «نلسون جلوك» بأنه «ملك النحاس العظيم»، بل ربما كان واحداً من أعظم مصدري النحاس فى العالم القديم^(٣).

وقد اكتشف «سير فلندرز بترى» فى (جمعة) معامل لاستخراج الحديد، أصغر كثير من تلك التى فى عصيون جابر، ويبدو أن داود كان قد نازع الفلسطينيين حقهم فى احتكار الحديد، وأخذ عنهم طريقتهم السرية فى صهره كضمن لهزيمتهم، ومن ثم فإن مخزونات النحاس والحديد قد استخرجت وصهرت فى عهد سليمان بدرجة كبيرة، وعلى أى حال، فإنه لم يعثر حتى الآن فى أى مكان آخر فى العالم القديم على ما يضاهى معامل تنقية النحاس فى «عصيون جابر» ولعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد والبناء ما وجد منها فى الطبقة (ط) التى تحوى مخلفات أقدم الفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع، هذا ويبدو أن (القينيين) هم الذين

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ٢٨٠، وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 181; O. Eissfeldt, op.cit., p. 584.

(٢) ثنية ٨ : ٩ .

(٣) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1953, p. 133F.

NGM, 85, 1944, p. 233-236; N. Glueck, op.cit, p. 89E.

وكذا:

علموا الأدوميين أتباع سليمان فنون استخراج المعادن^(١) وصنعها، وهم الذين استخدموا معادن وادي العربية أولاً^(٢).

ويرى بعض الباحثين أن مناجم النحاس هذه، لم يكن يتبع فيها أى نظام للتهوية، وكان يعوزها الماء اللازم للإبقاء على حياة الرجال الذين كانوا يشقون فى هذه الحرارة المميتة، وكانوا يتساقطون كالذباب تحت أعين الملاحظين، ولم يكن لموتهم ثمن ما، إذ كانت قيمة حياة الإنسان ضئيلة فى مناجم سليمان، كما أن مناجم النحاس هذه إنما كانت هى المكان الذى ينفى إليه العبيد من أجل الديون الأميرية، كما كانت تنفى إليه الرهائن والعصاة، الذين كان عددهم يتزايد يوماً بعد يوم^(٣).

كانت مشروعات سليمان التجارية والصناعية احتكاراً ملكياً بدون شك، كما أنها قد حققت أرباحاً طائلة لسليمان ما فى ذلك من ريب كذلك، وتحدث التوراة فى سفر الملوك^(٤) - بإعجاب عن ثروة سليمان، وفى الحقيقة أن سليمان قد حقق من تجارته وصناعته ثراء واسعاً، وأن فريقاً من قومه العبرانيين إنما قد شاركوه فى هذا الجاه العريض، غير أن وجهة النظر العبرانية، بصفة عامة عن هذا العصر، بصفة عامة، إنما كانت تعارض النشاط التجارى بمداه الواسع معارضة شديدة، وكانوا ينظرون برية إلى ما قام به سليمان من مشروعات، وإن كانوا قد انساقوا قليلاً - فيما يبدو - وراء الريح.

هذا وكان سليمان قد تعاقد مع حيرام على أن يدفع له ثمن المواد

(١) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكى إسكندر ومحمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١،

ص ١٢٨؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٧؛ وكذا: W. Keller, op.cit., p. 198-199

(٢) A.H. Sayce, in HDB, II, p. 834.

(٣) انظر: Hellmut Andics, Histoire de L'Antisemitisme.

(٤) ملوك أول ١٠: ١٤-٢٣.

وأجر العمال زيتًا وقمحًا، وليس ذهبًا من أوفير، وأخيرًا جاء الوقت الذى كان فى حاجة إلى ١٢٠ مثقالًا (تالنت) من الذهب من حليفه الصورى، ومن ثم فقد اضطر أن يتنازل له عن عشرين مدينة فى الجليل^(١). ومن هنا ربما قد نعرف قيمة الأهمية التى يجب إضافتها إلى الفقرة التى تصف الثروات الطائلة التى تمتع بها الإسرائيليون أثناء عهد سليمان^(٢). حيث نقرأ فى التوراة: «وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة»^(٣).

وفى الواقع فإن سليمان لكى يغطى المصروفات الباهظة التى كان يتطلبها البلاط الملكى الذى فاق بلاط شاول وداود بدرجة كبيرة، فضلًا عن النفقات التى كانت تحتاجها أعمال الملك وإدارات الدولة. التى حاول سليمان أن يجعلها كذلك على مستوى أكبر مما كانت عليه فى زمن داود فإنه اضطر أن يتنازل - كما أشرنا آنفًا - لحليفه الصورى إلى جزء من الجليل، وهى منطقة ظلت فترة تعتبر منطقة إسرائيلية، وكان يقيم فيها سبط أشير على الحدود بين فينيقيا وإسرائيل، واضطر كذلك أن يفرض على رعاياه نوعًا من الضرائب، ألقى على شعبه عبئًا ثقيلًا على أى تقدير، وزاد من ثقله واستنكار الشعب له، أن الضرائب من أى نوع لم تكن تتطرق إلى تفكيرهم إلا قبل ذلك بزمان قصير^(٤)، وفى الواقع أنه بلغ من شدة هذه الضرائب أن البلاد - رغم مظاهر الرخاء، وتطور التجارة التى جاءت بالثروة لإسرائيل - كانت تسير نحو أزمة اقتصادية؛ ذلك لأن الثروة الجديدة إنما كانت من نصيب طبقة صغيرة من الشعب تتكون من موظفى البلاط والضباط والتجار، أما معظم الناس فلم يحصلوا على شىء، بل إنهم هم الذين حملوا على أكتفاهم التبعات الثقالة، وهكذا بدا الاختلاف واضحًا بين الفقراء والأغنياء،

(١) ملوك أول ٩: ١٠-١٤.

(٢) A. Lods., op.cit., p. 371.

(٣) ملوك أول ١٠: ٢٧.

(٤) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٤٤؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 587

وبدأت العوامل الاقتصادية تلعب دوراً هاماً فى التمهيد للأزمة السياسية التى تلت موت سليمان، وكانت أحد عوامل الانقسام بين القبائل الإسرائيلية، كما كانت موضع لوم حاد من بعض أنبياء إسرائيل - مثل عاموس وإشعياء - بعد ذلك بقرنين^(١).

(٨) مملكة إسرائيل فى عهد سليمان:

يجمع المؤرخون - أويكادون - على أن المملكة التى ورثها سليمان عن أبيه داود - عليهما السلام - أكبر بكثير من تلك التى ورثها سليمان لمن أتوا بعده^(٢) من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل، وذلك لأن الأمور فى الخارج لم تكن تسير فى نفس المجرى الذى اتخذته فى الداخل^(٣).

وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود، ذلك أن يوباب، قائد جيش داود كان قد اجتاح أدوم قبل ذلك بنصف قرن، وقتل كل ذكورها بحد السيف، وقد استطاع «هدد» - وهو طفل أدومى من الأسرة المالكة - أن يهرب إلى أرض الكنانة، وحين اشتد ساعده وجد رضا فى عين فرعون، الذى زوجه من «تحنيس» (تحنيس) أخت زوجه الملكة، ثم عاد «هدد» إلى أدوم بغير موافقة فرعون وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة^(٤).

وتصور التوراة هذه الأحداث فى الآيات التالية: «وأقام الرب خصماً

J. Morgenstern, Amos studies, III, in HUCA 15, 1940, p. 59F; O. Eissfeldt, (١) op.cit., p. 603.

(٢) انظر: سورة ص، آية : ٣٥ حيث يقول سبحانه وتعالى - على لسان سليمان عليه السلام - : «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

(٣) H.R. Hall, op.cit., p. 433; M. Noth, op.cit., p. 250-6; C. Roth, op.cit., p. 23; A. Lods, op.cit., p. 368.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 329.

(٤)

لسليمان هدد الأدمي، كان من نسل الملك في أدوم، وحدث لما كان داود في أدوم عند صعود يوب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر في أدوم، لأن يوب، وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر في أدوم، أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه، ليأتوا إلى مصر، وكان هدد غلامًا صغيرًا، وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران، وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر، إلى فرعون ملك مصر، فأعطاه بيتًا وعين له طعام وأعطاه أرضًا، فوجد هدد نفسه نعمة في عيني فرعون جدًا، وزوجه أخت امرأته، أخت تحفيس الملكة، فولدت له أخت تحفيس : «جنوب» ابنه، وفطمته تحفيس في وسط بيت فرعون، وكان جنوب في بيت فرعون بين بني فرعون، فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع أبائه، وبأن يوب رئيس الجيش قد مات، فقال هدد لفرعون: أطلقني إلى أرضي، فقال له فرعون: ماذا أعوزك عندي حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك؟ فقال: لا شيء، وإنما أطلقني^(١).

وهكذا عاد الأمير الأدمي إلى بلاده بعد موت داود - ودون موافقة من فرعون الذي ربما كان لا يريد أن يفسد العلاقات الودية بينه وبين صهره سليمان، - إن صحت رواية سفر الملوك الأول - وأيا ما كان الأمر، فلقد أصبح «هدد» العدو اللدود لسليمان مدى الحياة. هذا ويبدو أن موت داود ثم قائد جيشه «يوب» الذي قتله سليمان في بداية حكمه، على أنه واحد من أعدائه كما أشرنا من قبل، إنما كان سببًا، لا في عودة «هدد» إلى وطنه فحسب، بل وفي نجاحه كذلك في استعادة مملكته المسلوبة جزئيًا، ونقرأ في التوراة أنه: «قد أصبح ملكًا على أدوم»^(٢)، وربما قد حدث هذا في فترة مبكرة من عهد سليمان؛ ومع ذلك وطبقًا لرواية أخرى في سفر الملوك

(١) ملوك أول ١١: ١٤-٢٢.

(٢) ملوك أول ١١: ٢٥.

الأول^(١) - فقد كان لسليمان مدخل إلى خليج العقبة وميناء عسيون جابر، أى عبر الجزء الأساسى الهام من أدوم، وربما أمكننا أن نفترض أن سليمان قد عقد اتفاقاً على ذلك مع «هدد» بتوسط من فرعون، ولكنه قبل سيادة «هدد» على جبال سعير، وهكذا لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم، كما أنه من الواضح أنه لم يتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته عليها مرة أخرى^(٢).

ونقرأ فى التوراة كذلك: «أن الله أقام لسليمان خصماً آخر، هو «رزون ابن اليداع» (رصين)، الذى هرب من عند سيده «هدد عزرا» ملك صوبية، وأقام مملكة فى دمشق، وكان خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان مع «هدد»^(٣). ومرة أخرى لم يعر سليمان الأمر ما يستحقه من الاهتمام، ولم يتخذ الخطوات الضرورية لاستعادة سلطته فى منطقة آرام، ولا نعرف متى حدث هذا على وجه اليقين، وإن كان من المظنون أن ذلك إنما كان فى أوائل عهده، وهكذا نمت المملكة الآرامية فى دمشق، ثم تطورت بعد فترة قصيرة، حتى غدت أقوى سلطة فى سورية وفلسطين لفترة ما، وكانت النتيجة الحتمية لذلك كله، أن ما أوجده داود من نفوذ فى دمشق قد ضاع الآن^(٤).

وربما مما زاد خطورة الأمر على إسرائيل، أن مصر إنما قد بدأت حالتها فى الانتعاش؛ وبالتالى فقد عادت سيطرتها - الاسمية على الأقل - على فلسطين، فهناك ما يشير إلى حملة ضد الفلسطينيين وشعوب البحر فى جنوب غرب كنعان، فقد عثر فى «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الأول» و«سيامون» (سى أمون) جنوب معبد أمون الرئيسى

(١) ملوك أول ٢٦: ٩.

A. Lods, op.cit., p. 368; M. Noth, op.cit., p. 206.

(٢)

M. Noth, op.cit., p. 206.

(٤)

(٣) ملوك أول ١١: ٢٣-٢٥.

يصور فيه الأخير وهو يضرب عدواً راکعاً أمامه وقابضاً في يده على فأس للحرب مزدوجة، من ذلك النوع الذى كان يتخذه الإيجيون من أسلحة الحرب^(١)، هذا فضلاً عن أن هناك ما يشير إلى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينيين فى جنوب غرب كنعان، وأن أسدود قد غزيت، وأن هناك آثاراً فى «تل فرعة» لنفس الفرعون^(٢)، بل إن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن «سيامون» إنما قد فكر فى غزو إسرائيل نفسها^(٣).

وسواء أصبح هذا، أم لم يصبح، فإن سليمان - كما أشرنا من قبل - إنما كان قد لجأ إلى صهره ملك مصر، لكى يعطيه منفذاً على البحر الأبيض المتوسط الذى كان يتنازع السيادة على موانئه الفينيقيون الساميون والفلسطينيون الهندو أورييون، ومن ثم - كما أشرنا من قبل - فقد خرج الجيش المصرى واستولى على «جازر» التى قدمها فرعون مهراً لابنته امرأة سليمان^(٤)، وربما كان ذلك أحد الأسباب التى دفعت المؤرخ الأمريكى الكبير «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥-١٩٣٥ م) إلى أن يذهب إلى أن سليمان إنما كان والياً تحت النفوذ المصرى^(٥)، وسواء أصبح هذا أم لم يصبح، فمما لا شك فيه - فيما يرى المؤرخ اليهودى سيسل روث^(٦) - أن التحالف مع مصر هو الذى مكن دولة سليمان من أن يكون لها موطن قدم على البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذى لم يتح لها بغير معونة فرعون.

أضف إلى ذلك كله، أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيراً، ونجحوا فى استعادة بعض البقاع التى كانت خاضعة لأبيه، وانكمش ملك سليمان فى

(١) P. Montet, Osrkon II, p. 36, pl. I.

(٢) A. Malamat, JNES, 22, 1963, p. 12, No. 48-9.

(٣) Ibid., p. 13, 16F.

(٤) ملوك أول ١٦:٩.

(٥) J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 529.

(٦) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 21.

آخريات عهده، فأصبح في غرب الأردن فقط، وعادت حدود إسرائيل إلى ما قبل عهد داود - إلى عهد شاول^(١)، وأصبح الفلسطينيون في غزة وما بعدها في نجوة من سلطانه، هذا فضلاً عن أن ممالك وملوك شعوب شرق الأردن إنما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيداً عن قبضة سليمان، مما يدل على أن الممالك والشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الأردن وسورية الآرامية تفلتت من سيادته، كما تفلت الفلسطينيون منها كذلك^(٢).

وأخيراً، فلعلنا لا ننسى ما أشرنا إليه من قبل، من أن سليمان قد اضطر نتيجة ظروف اقتصادية معينة، أن يتنازل لملك صور عن عشرين مدينة في الجليل^(٣)، وهذا يدل على أنه حتى فلسطين لم تخلص كلها للإسرائيليين، ولم تدن جميعها بالطاعة لهم، حتى في أيام سليمان، وهي أيام المجد التي كان بها بنو إسرائيل يعتزون.

ويشرح هيربرت ويلز كيف لعب الخيال فصور مملكة سليمان في صورة تفوق الواقع بكثير، وأنه لمن الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور، فسليمان لم يكن في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً، يحكم في مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى «شيشنق الأول» - أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥-٧٣٠ ق.م) - على أورشليم، وأخذ معظم ما فيها من كنوز^(٤).

وسواء أكانت هذه الحملة - فيما يرى سيسل روث^(٥)، وأدولف لودز^(٦)، وهول^(٧) - بسبب استنجد «يربعام» زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر،

(١) H.R. Hall, op.cit., p. 435.

(٢) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) ملوك أول ٩: ١١.

(٤) H.G. Wells, A Short History of the World, 1965, p. 76-77.

A. Lods, op.cit., p. 374-375.

(٦)

C. Roth, op.cit., p. 31. (٥)

H.R. Hall, op.cit., p. 436-437. (٧)

ضد بيت سليمان، أو أنها كانت لإعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية^(١)، فإن التدخل المصري - كما سوف نفصل ذلك فيما بعد - في إسرائيل ولم تمض على موت النبي الكريم سنوات، ثم احتلال العديد من المدن، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره الملكي^(٢)، لدليل واضح على مدى الضعف الذي وصلت إليه دولة سليمان بعد موته، بل إن الثورة نفسها^(٣)، لتشير إلى خضوع «يهودا» - والتي أصبحت من نصيب بيت سليمان - لمصر، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر^(٤).

وأما الدويلة الأخرى - أي إسرائيل - فقد أصبحت تحت النفوذ المصري، ولعل هذا كله إنما جعل كثيراً من النقاد يقف موقف المستريب إزاء مجد سليمان - كما جاءت به رواية التوراة - وهم يقولون إن الكبرياء القومي لدى الكتاب المتأخرين من اليهود، هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة، فضلاً عن المبالغة فيها^(٥).

على أن الغريب من الأمر حقاً، أن تنافس المصادر العربية المصادر اليهودية في الحديث عن اتساع ملك سليمان، بل إنها - في أغلب الأحيان - إنما تزعم لهذه الدولة ما لم تزعمه المصادر اليهودية نفسها، ومن ثم نرى بعض المؤرخين العرب يذهبون إلى أن ملك سليمان إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً في إيران، حيث اتخذ من «إصطخر» - التي ينسبون إليه أو إلى جنه أمر بناءها - مقراً لحكمه^(٦).

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 329-380. (٢) أخبار أيام ثان ١٢: ١٨.

(٣) H.G. Wells, op.cit., p. 77. (٤) ملوك أول ١٤: ٢٥-٢٧.

(٥) S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٥٨/٣-٥٦٩، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)، علي إمام عطية، الصهيونية العالمية وأرض الميعاد، ص ٧١-٧٢؛ وانظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢١١/١، (بيروت ١٩٥٥).

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعرفون أن المدينة لم يبدأ
الفرس في بنائها إلا حوالي عام ٥٢٠ ق.م، على أيام الملك الفارسي «دارا
الأول» (٥٢٢-٤٨٦ ق.م)، ولكن البناء لم يتم إلا في عهد «أرتخششتا
الأول» حوالي عام ٤٦٠ ق.م^(١)، فإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام إنما
كان يحكم في الفترة (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)، لتبين لنا أن المدينة إنما بدئ في
بنائها بعد وفاة النبي الكريم بحوالي أربعة قرون.

والحق، أنني لا أدري لم تربط المصادر العربية بين هذا الملك الواسع
وبين نبوة سليمان عليه السلام، وكأن مكانة النبي الكريم، لا تكون إلا
بسلطان يفوق كل سلطان، حتى ذهب الخيال ببعض مؤرخينا أن يجعلوا من
سليمان واحداً من أربعة (نمرود وبختنصر وذى القرنين وسليمان) ملكوا
الدنيا بأسرها^(٢)، بل إن سليمان - فيما يزعمون - كان «لا يسمع بملك
في ناحية من الأرض إلا أتاه» حتى يذله^(٣)، ونسوا أن سليمان لم يكن
جباراً في الأرض وإنما كان هادياً ومبشراً ونذيراً، ونسوا كذلك أن النبوة
أشرف من ملك الدنيا وما فيها، كما نسوا - أو تناسوا - أن من هو أفضل
من سليمان، لم يكن يملك هذا الملك الواسع العريض الذي زعموه
لسليمان، بل إن سلطان الإسلام، حتى انتقال سيد الأولين والآخرين -
محمد رسول الله ﷺ - إلى جوار ربّه الكريم، لم يكن يتجاوز تخوم شبه
الجزيرة العربية.

على أن هذا كله، لا يمكن أن يجعلنا - بحال من الأحوال - نوافق
على ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن القصص والأساطير إنما تنسب إلى

(١) أحمد فخرى، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢٢٩، وانظر: آرثر كريستس، إيران في عهد
الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧، ص ٨٠.

(٢) تاريخ الطبري ١/٢٢٣-٢٢٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/٩٤، ابن كثير، البداية
والنهاية، ١/١٤٨.

(٣) الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، ١/٤٨٧، (القاهرة ١٩٦٠).

سليمان - عليه السلام - قوة وحكمة خارقتين، مما جعل اسم سليمان مرادفاً خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة، وحتى الجن (وهي كلمة آرامية بمعنى مخبأ) كان يأتمر بأمره في البر والجو، ويرى «هريوت ويلز» أن قصة سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس (التوراة) إنما قد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي، بل والإسلامي، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة^(١).

وهنا فإنني أعتقد أن الأمر جد خطير، فإنه إنما يتعلق بالنبى سليمان - وليس بالملك سليمان، فضلاً عن الكتب المقدسة نفسها، ومن ثم فالرأى عندى - أو قل هو الإيمان كل الإيمان - أن نلتزم جانب الأدب مع أنبياء الله ورسله الكرام - عليهم السلام - الأمر الذى لم نحد عنه قيد أنملة طوال صفحات هذا الكتاب، بل وكل كلمة نكتبها، ومن ثم فعلينا ألا نتورط فتنساق - دون أن ندري - فى تيار كتاب التوراة، أو فى تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافاً على واحد من المصطفين الأخيار - وأعنى به سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام.

وانطلاقاً من هذا كله، فإننا سوف نقدم شهرة سليمان بالحكمة، وإتجار الجن بأمره، كما قدمه ربى جلّ جلاله فى القرآن الكريم، وليس كما قدمتها عقول مريضة من يهود، لقد جاء فى القرآن الكريم - إلى جانب ما جاء عن قصته مع ملكة سبأ - قوله تعالى: «ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافضين»^(٢)، وقوله تعالى: «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر

H.G. Wells, The Outline of Histry, p. 287.

(١)

وانظر الترجمة العربية (معالم تاريخ الإنسانية ٢/٢٩٤-٢٩٥).

(٢) سورة الأنبياء، آية : ٨١-٨٢.

وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ. اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ^(١)، وقوله تعالى: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ. وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ^(٢)».

(٩) مباني سليمان:

يرى بعض الباحثين أن سليمان، رغم أنه كان يلقب عن جدارة بلقب «الملك التاجر» فإن الروايات التي وصلتنا، عن مبانيه - إنما تضعه في مرتبة البنائين المشهورين كذلك، ومن ثم فقد نسبت إليه مباني كثيرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى إن بعض تلك المباني إنما كانت تقع بعيداً جداً عن منطقة نفوذه^(٣)، وقد نافست المصادر العربية المصادر اليهودية في نسبة مباني كثيرة إلى سليمان، حتى إن ياقوت الحموي يقول: إن الناس كانوا إذا ما رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى جن سليمان^(٤).

ومع ذلك، فليس هناك من شك في أن سليمان - عليه السلام - إنما قد بذل جهداً كبيراً في البناء، وقد ذكرنا من قبل تشييده لكثير من الشكنات لفصائل عجلاته الحربية، والتي أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و«مدن الفرسان»، هذا فضلاً عن «مدن المخازن»^(٥) التي كانت - فيما يبدو - قد أقيمت للمؤن والعلف التي تحتاجها المعسكرات والمحطات التي أقيمت

(١) سورة سبأ، آية: ١٢-١٣.

(٢) سورة النمل، آية: ١٦-١٧.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 594.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ١٧، (بيروت ١٩٥٧).

(٥) ملوك أول ٩: ١٩.

على الطرق التجارية، وذلك «مدن المخازن التي بناها سليمان في حماه»^(١) إنما قد خدمت الهدفين، وبالتالي فربما أمكن القول: «أن الأماكن المحصنة التي أقيمت في مجاورات مجدو وتدمر وحماة وأورشليم، إنما كانت «مدن مخازن»^(٢).

هذا وقد كشف عن بقايا بعض مبان لسليمان في مدينة «حاصور»^(٣) الواقعة على مبعدة خمسة كيلو مترات جنوب غربي بحيرة الحولة وتسمى الآن «تل قدح»^(٤) - كما كشفت الحفائر كذلك عن بقايا مبان لسليمان لم تشر إليها التوراة، كما في «عصيون جابر»، إذ أن، هناك ما يشير إلى أن الحصن الذي اكتشفه «نلسون جلوك» في تلك المدينة إنما يرجع إلى أيام سليمان، والأمر كذلك بالنسبة إلى ما اكتشف في «قادش برنيع» - والتي يرى البعض أنها ربما كانت «خربة القضييرات»^(٥)، وإن رجح آخرون إنها «عين قديس» على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من «بئر سبع»^(٦).

ونقرأ في التوراة أن سليمان قد «بنى جازر وبيت حورن السفلى»، وبعلة وتدمر في البسرية في الأرض»^(٧)، أما «جازر» فهي المدينة الكنعانية الواقعة على مبعدة ١٨ ميلا إلى الشمال الغربي من أورشليم، ١٧ ميلا جنوبي شرق حيفا، وطبقاً لما جاء في سفر الملوك، وكما أشرنا من قبل، فقد استولى عليها فرعون وقدمها مهراً لابنته امرأة سليمان، ويبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك^(٨).

(١) أخبار أيام ثان ٨ : ٤. (٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 595.

(٣) ملوك أول ٩ : ١٥. (٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 595.

(٥) W. F. Albright, Recent Discoveries in Bible Land, N.Y., p. 86F.; B. Rothenberg, Cades Barne, in Bible et Terre Sainte 32, p. 4F; O. Eissfeldt, op.cit., p. 595.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٧٠٩-٧٠٨/٢. (٧) ملوك أول ٧٠٩-٧٠٨/٢.

(٨) ملوك أول ٩ : ١٥-١٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٤٢/١؛ وكذا:

M. F. Unger, op.cit., p. 401.

وأما «بيت حورن السفلى» فتقع على مبعدة ١٢ ميلا إلى الشمال من أورشليم؛ تسمى حاليا «بيت عور السفلى» وهي أقدم من عصر سليمان، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصن المدينة، ولكنه لم يبنها^(١)، وأما «بعله» فهي مدينة في منطقة قبيلة دان، لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق، ويرجح أن سليمان لم يبنها، وإنما قام بتحسينها^(٢) كذلك.

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية وتتصل بنشاطه التجارى الواسع، ذلك أن التوراة إنما تشير في سفرى الملوك الأول وأخبار الأيام الثانى إلى أن سليمان قد بنى تدمر^(٣)، والأمر كذلك بالنسبة إلى المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»^(٤)، وليس من شك فى أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة إنما ظهرت - للمرة الأولى - فى التاريخ، على أيام الملك الآشورى «تجلات بلاسر الأول» (١١١٦-١٠٩٠ ق.م) فى صورة «تدمر أمور»^(٥)، أى قبل أن يولد النبىء الكريم، وبفترة تسبق ما دون فى التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون^(٦).

ومن هنا فإن العلماء يذهبون إلى أن الرواية التوراتية التى جاء فى الملوك الأول والأخبار الثانى بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر، إما أنها أرادت تعظيم مملكة سليمان كمعادة الروايات اليهودية - وكأن مكانة النبىء الكريم لا تأتى إلا ببناء المدن واتساع الملك، وليست برسالة السماوية - ومن ثم فقد

(١) ملوك أول ٩: ١٧؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٢/١.

(٢) ملوك أول ١١: ١٨؛ قاموس الكتاب المقدس ١٨٢/١.

(٣) ملوك أول ٩: ١٨؛ أخبار الأيام الثانى ٨: ٤.

(٤) E. Dhorme, Palmyra dans les Textes Assyriens, RB, 1924, p. 106; EI, II, p. 1020.

(٥) EB, 17, p. 161; EI, III, p. 1020; E. Dhorme, op.cit., p. 106; D.D. Zuckenbill,

ARAB, I, 1927, 287, 308.

(٦) انظر من تاريخ كتابة أسفار التوراة كتابنا «إسرائيل»، ص ٣٣-٣٤، (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣).

نسبت إليه بناء هذه المدينة، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل^(١). وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامارا» (تمر) التي بناها سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال^(٢)، ويقع إلى الجنوب الشرقي من «يهودا»^(٣)، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر»^(٤) على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان ليست هي «تامارا»، وإنما «تدمر» والتي كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة في مجاوراتها، فيما بين عامي ٣٠٠، ٢٠٠ قبل الميلاد^(٥)، والأمر كذلك بالنسبة إلى الروايات العربية، والتي أتت إلى المسلمين عن طريق مسلمة أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق، فضلا عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أثارت دهشتهم، ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام^(٦).

هذا وقد ناقش الأستاذ «إيسفيلت» الموضوع حديثاً (عام ١٩٧٥ م)

(١) جواد علي ٧٧/٣، فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٢، وكذا:

EB, p. 4886; J. Hastings, op.cit., p. 889.

(٢) حزقيال ٤٧: ١٩.

(٣) جواد علي ٧٧/٣، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

(٤) تدمر: هو النطق الآرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها التمر والنخيل، وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة تدمر وربما كان لها صلة بكلمة تدمورتا السريانية، ومعناها يعجب من، وأما الاسم اليوناني للمدينة فهو بالميرا Palmyra وهي ترجمة لكلمة (تامار) تمر، وتعني مدينة النخل. (حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٥، فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٣، وكذا: EI, III, p. 1020.

J. Hastings, op.cit., p. 889; F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 344.

(٦) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٢؛ جواد علي ٧٨/٣؛ الألوسي، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ -

٢١٠؛ ياقوت، ١٧/٢ - ١٩؛ البكري ٣٠٦/١ - ٣٠٧؛ ابن بلهيد، صحيح الأخبار عما في بلاد

العرب من الآثار، القاهرة ١٩٥١، ٦/٢ - ٧ ثم قارن: المسعودي، مروج الذهب، ٢٤٤/٢ -

٢٤٥، (بيروت ١٩٧٢).

ورأى أن «تدمر» المشار إليها فى نصوص التوراة، إنما هى «تمر» وتقع فى أو بالقرب من «عين الريس» على مبعدة خمسة كيلو مترات إلى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت^(١)، وليست تدمر التى تقع على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من «حمص»، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من دمشق، فى منتصف المسافة بين دمشق والفرات^(٢)، وعلى أى حال، فإن بناء «تمر» إنما كان جزءاً من مشروع أكبر، الهدف منه خدمة الأغراض التجارية، التى كانت دولة سليمان ميداناً لها^(٣).

هذا ومن البدهى أن أورشليم عاصمة دولة إسرائيل، إنما كان لها نصيبها الأكبر من المباني التى شيدت على أيام سليمان فى مختلف أنحاء دولته، وطبقاً لما جاء فى التوراة، فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها، وإن كان بناء هيكل سليمان وقصره، إنما هو أعظم إنجازات الملك المعمارية^(٤)، الأمر الذى سوف تناقشه بالتفصيل فى الفصل التالى.

O.Eissfeldt, Solomon's Buildings, in CAH, II, Part II, Cambridge, 1975, p. (١) 592-593.

EB., 17, p. 161.

(٢)

O.Eissfeldt, op.cit., p. 592-593.

(٣) ملوك أول ٩ . ١٥ ؛ وكذا:

Ibid., p. 595-601.

(٤)

الفصل الخامس

القدس

(١) موقع القدس وطبوغرافيتها

تقع القدس على خط عرض ٣١° ٤٦' ٤٥" شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٥° ١٣' ٢٥" شرق جرينتش، وعلى مبعدة أربعة عشر ميلا إلى الغرب من البحر الميت، وثلاثة وثلاثين ميلا إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وخمسة أميال إلى الشمال الشرقي من «بيت لحم»^(١)، وهي هضبة غير مستوية تماما، يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠، ٢٤٦٩ قدما، وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠ صيفا، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء، كما أن التفاوت فى الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوى متوسط، ورطوبتها متوسطة أيضا، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس يبعد تعتمد أساسا على تجميع مياه الأمطار فى صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض^(٢).

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد فى حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقعا استراتيجيا قويا جدا، واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم ما يزالون على مسافة طويلة^(٣).

هذا وقد اشتهرت المدينة بعدة جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور)

M. F. Unger, op.cit., p. 576.

(١)

(٢) حسن ظا، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١١-١٢.

ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهًا لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار، هو وادي «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أي جبل التسويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونه المقدس في تسويج ملوكهم من بني إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قربانًا ليهوه رب إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها في تطهير الهيكل، وإعادة تكريسها إذا دنس، وهي عادة وثنية كانت منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما ثاني الجبال فهو «جبل بطن الهواء»، وهو امتداد جبل الزيتون في الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس ويفصله عنها «وادي سلوان» الذي يتصل في هذه النقطة نفسها بـ وادي قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويزعمون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنيات وأنه المقصود في رواية التوراة في سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون»، والذي سمّاه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود»، ويقع في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكرا» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس)، والذي يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقي المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربي من «وادي فوكين» ثم «جبل النبي صموئيل» ويقع شمال غربي المدينة، على بعد قريب من غربي قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا».

هذا، ويبدو أن هناك جبلا كان في قديم الزمان، يقوم بين جبل

سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» فى كتابه «حرب اليهود - الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أى بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريسا الأول، (٤١-٤٤ م) من أسرة هيرودوس الكبير فقدم ما بين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة»^(١).

هذا وتحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعده ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتي كشف «وليم أولبرايت» فيها عن بقايا قلعة شاول، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣ م، والتي لم يبق منها فى الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج فى أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له^(٢)، ثم هناك تل الكابوس على مبعده ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من المدينة المقدسة، وتل النصبة على مبعده اثنين من الكيلومترات جنوبى «البيرة» فى قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودى بشاول ملكاً على إسرائيل^(٣) ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وادي الصوينت» شمالاً، وفارة جنوباً، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربى جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات» وإلى غرب قرية «عرطوف» وأخيراً فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع فى جبال القدس غربى قرية «بلعين»، وعلى مقربة من قرية «شلتا»^(٤).

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٢-١٥، عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٣-١٥.

(٢) W. F. Albright, The Archaeology of Palastine, (Penguin Books), 1949, p. 120-121.

(٣) صموئيل أول ١٠: ١١-١١: ٢٧.

(٤) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥.

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادى قدرون: وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، ويفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون فى هذا الوادى، اعتماداً على روايتين فى التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهو شافط وأحاكمهم هناك»، وتقول الثانية: «تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهو شافط، لأنى هناك أجلس لأحكم جميع الأمم من كل ناحية»^(١).

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبي الشرقى من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب اسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجيء العبرانيين «وادى هنم» نسبة إلى قبيلة «هنم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنم» - أى هذا الوادى - وكانت قبيلة «هنم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» بذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيروبيون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبي الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى التعامرة ووادى النار ووادى مكلك والوادى الكبير^(٢).

(١) يوثيل ٣: ٢، ١٣؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهي المدينة الوحيدة في العالم أجمع، التي يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت وما تزال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ففيها كان هيكلهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقاً لرواية إنجيل لوقا - قد حج إليها في صباه مع أبويه (مريم العذراء ويوسف خطيبها)، ولما كان في الثانية عشرة من عمره، بقي فيها حيناً من الدهر يتعلم ويسأل ويعظ^(١) ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت «هيلانة» أم الإمبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) - الذي لم يعترف بالمسيحية كديانة فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية في عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأت جماعة أخرى أنه بقي وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت في عام ٣٢٦م كنيسة القيامة، فسعى إليها الحجيج من كل حذب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن في مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء^(٢).

ويقدسها المسلمون^(٣) لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصصها بالعديد

(١) لوقا، ٢: ٤١-٥٢.

(٢) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، غلاب حتى، المرجع السابق، ص ٢٨٧، ثم قارن: Sozomenus, BK, I, Ch.4; Eusebius, Bk, IX, Ch. 9, 2.

(٣) انظر التكميلات: محمد بيومي مهران، القدس حتى عصر داود، مؤخر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن القدس - التاريخ والحضارة في الفترة (٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦م).

من الأنبياء ابتداء من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبلتين^(١)، وثالث الحرمين الشريفين^(٢)، ولأن بها مسرى جدنا النبي الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾^(٣).

ويروى أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ - قال: «فضلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدى بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة»^(٤)، وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا^(٥).

(١) انظر: سورة البقرة، آية: ١٤٢-١٤٤؛ وكذا: تفسير الطبرى ١٢٩/٣-١٨٤؛ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١-٣٨٠؛ تفسير القرطبي، ص ٥٣١-٥٥٠؛ تفسير المنار ٧/٢، ١٢-١٣؛ صحيح البخارى ٢٧-٢٥/٦، (دار الشعب ١٣٧٨هـ)؛ صحيح مسلم ١٦٠/٢-١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)؛ مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥-٢٤٧، (القاهرة، طبعة الحلبي)؛ الهيثمى، مجمع الزوائد ١٢/٢؛ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/١٤٣، ١٤٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢-٣٧٧؛ ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ص ٥٥٠، طبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢)، الزركشى، كتاب إعلام الساجد، ص ٢٨٧؛ عبد اللطيف مشتهرى، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣-٣٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥-١٢٧؛ تفسير القرطبي، ص ٣٨١٩-٢٨٢٨؛ عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١-٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)؛ ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ٣٩٦/١-٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١-١٠٨؛ صحيح البخارى ٦٩/٥، ١٠٤/٦؛ صحيح مسلم ٣٧٧/١-٤٠٢؛ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٥٩/٧-١٧٢؛ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ١٣٤-١٤٧، (القاهرة ١٩٦٥)؛ محمد محمد أبو شهبه، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ٤٢١/١-٤٤٥؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١١٠-١٢٤.

(٤) أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩؛ محمد محمود الفحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ٩٧٠، ص ٢٢.

(٥) صحيح البخارى ٧٦/٢-٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ)، تفسير القرطبي، ص ٣٨٢٧-٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبي، أو قام فيه ملك»^(١).

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلي لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامي، وأقدم النقوش التي ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصري يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(٢)، على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليوم» Ursalimum^(٣)، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦-١٦٥٠ ق.م)^(٤) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum، على رأى آخر^(٥).

ونقرأ فى رسائل العمارنة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) وولده إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م) فى رسالة من «عبد نخيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على ما يبدو، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها: «لا أبى ولا أمى وضعانى فى هذا المكان، بل يد الملك القوية وضعتنى فى بيت آبائى»^(٦)، وبقيت المدينة كذلك، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التى انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها

(١) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٩٧٨-١٨٤٠ ق.م) أو بعده بقليل وربما قبله بقليل.

(٣) M.F. Unger, op.cit., p. 576.

(٤) انظر: كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٤، ١١٦.

(٥) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ٢٣٥؛ وكذا:

J.A. wilson, ANET, 1966, p. 329; W. Ward, Egypt and the East Mediterranean, in the second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

S.A.B. Mercer, op.cit., II, L. 286-289; W.F. Albright, ANET, p. 487-489. (٦)

«يوس»^(١)، حتى جاء داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة دادو»^(٢)، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً للاهوت أجنبي. وربما - وهو الأرجح لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «يوروشاليم» أو «أوروشالم»، بإضافة لاحقة عبرية، كي تصبح عبرية النطق.

وأيما ما كان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق على المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو في ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - وما يزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذي أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة في التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التي فرضتها السلطات الحاكمة في القضاء على الأسماء القديمة التي لها جذور عميقة في الوعي الشعبي^(٣).

وعلى أى حال، فلقد دعت المدينة في النقوش الآشورية باسم «أورساليوم» Ursalimum، وفي النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليم» Hierosolyma^(٤)، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الهامة في تاريخ العالم - ومن الأسماء التي أطلقتها التوراة اسم «أريئيل» (إشعيا ٢٩ : ١) ومدينة العدل (إشعيا ١ : ٢٦) والمدينة (مزمور ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمور ١٨ : ١) ومدينة الحق (زكريا ٨ : ٢) ومدينة القدس (إشعيا ٨ : ٢ ؛ نحميا ١١ : ١) وجبل القدس (إشعيا ٢٧ : ١) والمدينة المقدسة (متى ٤ : ٥)، وأما أسماؤها

(١) قضاة ١٩ : ١٠-١١.

(٢) صموئيل ثان ٥ : ٩.

M.F. Unger, op.cit., p. 576.

(٣) S. Yeivin, JNES, 7, 1948, p. 40. (٤)

العربية فهي بيت المقدس والمقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ ق.م) في تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، وسماها «قديس» مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي «سالومون مولك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس»، محرفاً في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا»^(١).

وأما معنى «أورشليم» فمختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثني لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون «أورشليم»، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه»، وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعاً (يرأه - شلم) أي (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائد رهبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضاً أن (يرو) يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام»^(٢).

وأياً ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان وتحدث مذبحة هادريان (١٣٧-١٣٨ م) الرهبة في عام ١٣٥ م، حتى تكون ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كاييتولينا»،

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٨، قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي.

وفي العام الخامس عشر من هجرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه (١٣ - ٢٢هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) ذلك، ويأتى إلى القدس في عام ١٥هـ / ٦٣٦م فيدخل المدينة التي يسلمها له البطريرك اليوناني «صفر نيوس» ويمنح أهلها النصراني الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود^(١)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريرك أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلى بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصراني من كنيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وإنما صلى في مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه^(٢).

(١) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استصدار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهد لنصارى القدس ألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم. (حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٦٠٧/٣ - ٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)، الواقدي، فتوح البلدان، ٢٦/٢، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٦٧؛ محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ٧-٥/٣، (القاهرة ١٣٧٠هـ)؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ١٨٨/١، (القاهرة ١٩٦٧)؛ محمد حسين هيكل، الفاروق عمر ٢٤٦/١ - ٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)؛ ك؛ على محمد علي، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ١٢-٤/١، (القاهرة ١٩٧٠)؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٧٣-١٧٥.

(٤) القدس فيما قبل عهد داود:

لاريب فى أن سكان القدس قبل الغزو الإسرائيلى لكنعان إنما كانوا من الكنعانيين، وربما أمكن القول أنهم كانوا من الرعاء المتواضعين، الذين كانوا يقطنون فى خيام أو فى أكواخ حول «ينبوع العذراء»، وأنهم لم يكونوا فى بادئ أمرهم فى حاجة إلى دفاع طبيعى أو صناعى، ولكنهم بمرور الوقت، سرعان ما اضطروهم الظروف إلى تشييد مكان بأعلى التل فوق ينبوع العذراء، وكان بمثابة موقع دفاعى على الأودية المنحدرة من كل الجهات باستثناء الجهة الشمالية التى حفروا فيها خندقًا يمتد عبر التل من فوق «قدرون»، إلى «التيروبويون» وقد كشف عنه فى يناير ١٩٢٤م «ستيوارت ماكاليستر» أثناء الحفريات التى قام بها، بالاشتراك مع بعثة «مؤسسة الحفائر الفلسطينية» و«صحيفة الديلى تلجراف»، ويدل الفخار الذى عثر عليه هناك، أنه لا يمكن أن يؤرخ بعد عام ٢٢٠٠ ق.م، وربما أقدم من ذلك بكثير^(١).

وفى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م، اتسعت المدينة بدرجة قليلة عابرة الخندق فى أحد الأماكن بحوالى عشرين قدمًا، وبمرور الوقت امتلأ الخندق، ولم يعد للصور متانته الكبيرة، إذا قورن بأسوار المدن الأخرى التى بنيت حولها فى نفس الفترة^(٢)، وإن كانت الاكتشافات الحديثة إنما قد أثبتت أن مدينة «يوتس» التى استولى عليها داود إنما كانت أكبر بكثير مما كان يظن من قبل وأنها كانت محاطة بسور كبير وسميك جدًا، وأن كل ما فعله داود أنه قام بترميمه وإكماله^(٣).

وفى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، بنى سور آخر بسماك ٢٠ بوصة، وبأبراج

R.A.S. Macalister, the Topography of Jerusalem, CAH, III, 1965, p. 342-343. (١)

R.A.S. Macalister, op.cit., p. 343. (٢)

O. Eissfeldt, op.cit., p. 581. (٣)

حفرياته المشار إليها آنفاً، وقد كانت المدينة المصورة صغيرة جداً، إذ كان طولها من الشمال إلى الجنوب لا يتجاوز ١٢٥٠ قدماً، وعرضها ٤٠٠ قدماً، وفي داخل هذه المساحة كانت المنازل تحشر في هذا الفضاء الضيق^(١)، كما كانت الشوارع ضيقة ومنحنية، وكان الاهتمام بتحسين الأحوال الصحية ينظر إليه على أنه أقل أهمية بالنسبة للفضاء الذي يمكن الانتفاع به اقتصادياً، عندما يكون من الضروري إيواء كل السكان في داخل السور الحصين^(٢).

ونقدم لنا التوراة من هذه الفترة شخصية «ملكى صادق»^(٣)، والذي وصف بأنه «ملك شاليم» (والتي يفترض أنها أورشليم) وأنه «كان كاهناً لله العلى»، وأنه قد بارك الخليل، عليه السلام، وقال مبارك من الله العلى، مالك السماوات والأرض»^(٤) مما يدل على أن المدينة إنما كانت مباركة من الله العلى منذ هذه الأزمنة العتيقة، التي تعود إلى ما قبل عصر إبراهيم الخليل، غير أن التوراة لم تقدم لنا أية معلومات طبوغرافية عن المدينة يمكن الاستفادة منها^(٥).

(١) أثبتت حفائر «كاثلين كنيون» أن مدينة يوس أكبر بكثير مما يظن «ماكاليستر» وغيره. انظر: K.M. Kenyon, Excavations in Jerusalem, 1961-1962, PEO, 94, 1962, p. 72, p. 95, 1963, p. 7F.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 343-344.

(٣) اسم ملكى صادق مكون في اللغة الفينيقية من مقطعين : «ملك» و«صادق» أو عظيم ومقدس، وقد بقى اسم صادق في تاريخ أورشليم، ففي أيام داود وسليمان نجد طائفة من الكهنة تحمله وتسمى طائفة الصدوقيين، وهم مميزون عن اللاويين، كما أن اسم ملكى صادق كان يشكل جزءاً من اسم حكام أورشليم من الكهنة، مما يدل على أهمية المدينة الدينية قبل العهد اليهودي لأن عجز الكلمة يعنى الصدق والصلاح والاستقامة، وفي عهد يشوع كان ملك أورشليم يدعى أدونى صادق. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٠).

(٤) تكوين ١٤ : ٨-٢٠.

R.A.S. Macalister, op.cit., p. 344.

(٥)

هذا وتقدم لنا الوثائق المعاصرة من عهد (عبد خيبا) أمير (أوشاميم) (أوروسالم = أورشليم) من قبل الفرعون إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م) صورة للظروف السياسية والاجتماعية، ومنها نعرف أن أورشليم إنما كانت في تلك الفترة مدينة كنعانية تخضع للسيادة المصرية، التي كانت تشمل في ذلك الوقت كل سورية وفلسطين، وأنها قد تعرضت لغزو الخابيرو، ومن ثم فإننا نرى (عيد خيبا) يكتب للفرعون بأن «أرض الملك قد سقطت في أيدي الخابيري»^(١)، ثم يطلب منه في رسالة أخرى أن يرسل رماة الأقواس لتخليص أرض الملك من الخابيري هؤلاء^(٢)، ثم تتوالى بعد ذلك رسائل أمير أورشليم إلى فرعون، وكلها تقريراً، تفيض بالولاء والخضوع من ناحية، وبالشكوى والفرع من جيرانه ومن الخابيري، فضلاً عن الاستغاثة بفرعون، من ناحية أخرى.

ونقرأ في رسالة من «عيد خيبا» إلى فرعون: «إلى الملك مولاي، هكذا يقول عبد خيبا خادملك، على قدمي الملك سبع مرات، وسبع مرات أبحثو، انظر العمل الذي اقترفه ميكليكي وشواردانا ضد أرض مولاي الملك، لقد سقطت أرض الملك في أيدي الخابيري، فليرسل لي الملك رماة أقواسه، لاسترجاع أرض الملك للملك...»^(٣)، وفي رسائل أخرى يكرر أمير أورشاميم (أورشليم) شكواه، متمنياً أن يقابل سيده الفرعون، وأن يموت هو وإخوته عنده^(٤)، وعندما يهمل فرعون الرد على مولاه في أورشليم، يكتب إليه: «إذا توانى الفرعون عن إرسال نجدة، فإن كل ممتلكاته سوف تقع فريسة في أيدي قبائل الخابيري»^(٥).

(١) S.A.R. Mercer, op.cit., II, p. 727; J.A. Knudtzon and O. Weber, Die El Amarna Tafeln, II, Leipzig, 1915, p. 877.

(٢) انظر: S.A.B. Mercer, op.cit., II, L. 19-28.

(٣) J.A. Knudtzon, op.cit., p. 877; S.A.B. Mercer, op.cit., II, p. 721.

(٤) S.A.B. Mercer, op.cit., p. 286-288.

(٥) S.A.B., Mercer, op.cit., II, p. 721.

وفي عصر القضاة نرى أورشليم مستقلة عن اليهود في أيدي أصحابها اليبوسيين، ذلك لأن يشوع لم يستطع الاستيلاء عليها، والانتصار على مليكها أدوني صادق، ومن ثم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا في أورشليم^(١)، بل إنه ليشار بعد ذلك في سفر القضاة إلى أورشليم، على أنها مدينة غريبة، حيث لا يوجد أحد من بنى إسرائيل هنا^(٢) بل إن التاريخ ليحدثنا أن الإسرائيليين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، إلا على أيام داود، وبعد أكثر من قرنين من وصول الإسرائيليين إلى كنعان.

(٥) القدس على أيام داود:

استقر الأمر لداود، وأصبح ملك إسرائيل دون منازع، وهنا نراه يفكر في ترك الجنوب إلى نقطة حصينة أكثر توسطًا من حيث الموقع، وقد كان حتى ذلك الوقت مازال مقيمًا في حبرون - وهي مدينة الخليل، على مبعدة ٣٠ كيلا إلى الجنوب الغربي من أورشليم - وكان في إمكانه أن يجعل منها عاصمة لدولته الجديدة، ولكنه لم يفعل، لأسباب منها (أولا) أن حبرون قد تشكل مركزًا طبيعيًا بالنسبة إلى مملكة يهوذا، ولكنها لن تكون كذلك بالنسبة إلى مملكة إسرائيل ويهوذا معًا، فهي في نقطة بعيدة إلى الجنوب، ومنها (ثانيًا) أن داود إنما كان ملكًا ليهوذا في حبرون، وقبائل إسرائيل لن ترضى أن يحكمها ملك يهوذا، وإنما داود الذي اختاروه بأنفسهم ملكًا على إسرائيل^(٣)، ومن هنا فإن الإبقاء على حبرون كعاصمة للمملكة الجديدة سوف يجر على داود خطر الظهور أمام جماهير الأمة اليهودية في صورة ملك قبلي، يحاول أن يفرض على إسرائيل حكمًا أجنبيًا يهوديًا، كما سوف

(١) يشوع ١٥: ٦٣.

(٢) قضاة ١٩: ١٣.

M.Noah, op.cit., p. 189-190.

(٣)

يقال وقتئذ، ومنها (ثالثًا) كان عليه أن يتجنب ما وقع فيه شاول من قبل، حين اختار موطنه «جبعة» كعاصمة لمملكته^(١).

وأما اختيار مدينة في بنيامين أو أفرايم، فإن ذلك سوف يجر عليه غضب اليهوديين، الذين كانوا أول من اختاروه ملكًا، وهم في نفس الوقت رهطه الأدنيين، ومن هنا فإنهم لن يتسامحوا معه إذا انتقل إلى واحدة من قبائل مملكة إسرائيل^(٢).

وانطلاقًا من هذا كله، فإن داود لم يجعل من موطنه ومسقط رأسه في «بيت لحم» عاصمة لدولته الجديدة، كما أنه لم يختار هذه العاصمة في «حبرون» حتى لا يغضب قبائل إسرائيل، ولا في واحدة من مناطق قبائل إسرائيل، حتى لا يغضب قومه من سبط يهوذا.

وهكذا فكر داود - رغبة منه في الاستقرار، وفي إرضاء القبائل الشمالية التي قابلت اعتلاء العرش بشيء قليل أو كثير من الفتور والتردد - في أن يتخذ «أورشليم» عاصمة لمملكته، وذلك لأسباب كثيرة، منها (أولاً) أن أورشليم إنما هي في نظر قبائل الشمال والجنوب منطقة محايدة، ولم تشارك في الحروب التي اندلعت لهيبها بين القبائل الإسرائيلية - أو قل بين مملكة إيشبعل الإسرائيلية، ومملكة داود اليهودية^(٣) - ردحًا من الزمن، ومنها (ثانيًا) أن أهل أورشليم لم يكونوا يهوديين أو إسرائيليين، وإنما كانوا ييوسيين كنعانيين - وليسوا ييوسيين حوريين أو حيشيين كما زعم بعض الباحثين^(٤) - ومن ثم فكان لابد من الإبقاء على سكان أورشليم الييوسيين فيها، بل وإبقائهم على دينهم وشعائهم الكنعانية الصرفة، حتى ما كان منها مخالفًا

(١) ف.ب. ماير، حياة داود، ص ٢٠٩، وانظر: قضاة ١٩: ٢١.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 361.

(٣) صموئيل ثان ٢: ١٣-٢٣. وكذا: W.Keller, op.cit., p. 188; S.A. Cook, p. 373.

(٤) S. Abramsky, op.cit., p. 122; S. Yeivim, op.cit., p. 41.

لدين يهو وطقوسه^(١)، ومنها (ثالثًا) أن أورشليم إنما كانت قرية من ديار يهوذا سبط داود، ومنها (رابعًا) أن المدينة المقدسة لم تكن حصنًا صغيرًا، وإنما كانت واحدة من أقدم المدن الملكية في البلاد، كانت مدينة وعرة المسالك للقادم من نهر الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة حتى أن اليبوسيين إنما كانوا يفاخرون بأن الأعمى والأعرج^(٢) في إمكانهما الدفاع عنها^(٣)، وأخيرًا (خامسًا) فإن أورشليم إنما كانت بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية (كنعانية) قديمة، يبدو أنهم أكثر ميلًا إلى المسألة من أهل الشمال^(٤).

وهكذا بدأ داود يستعد للاستيلاء على أورشليم، ولسوء الحظر فإن تقدير الأسلاب قد واجهته كل أنواع مصاعب المادة النصية، ومن ثم فإن ترتيب الأحداث جد غامض، ولكن الفحص الطبوغرافى للموقع والحفريات الأثرية الحديثة، جعلت من الممكن تمييز طبيعة وامتداد جدران ييوس

(١) إسماعيل الفاروقى، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢) اختلف الباحثون فى تفسير العميان والعرج، فذهب البعض إلى أن اليبوسيين أغلقوا أبواب المدينة عند ظهور داود ورجاله واحتموا بالاستحكامات، تاركين لداود العرج والعميان ليعيقوا تقدمه، معتمدين على قوة حصونهم، وذهب «باجل يادين»، إلى رأى آخر، فلقد اعتمد على الألواح الحثية المسمارية التى عثر عليها فى «بوغار كوى» والتى تشير إلى احتفالات سليمان التى أقسم فيها الجند الحثيون يمين الولاء له وللبلاد، وكان الكاهن يقوم فيها بشعارات رمزية يبيت بها الخوف والرعب لمن يفشى السر أو يخون، وذلك لصهر الشمع أمام استعراض الجند، قائلا «كل من يخنث بهذا القسم، ليته يذوب أو يصهر مثل هذا الشمع»، وتعرض إحدى هذه الوثائق منظرًا لرجل أصم وامرأة عمياء، ثم تقول: «انظر هناك امرأة عمياء ورجل أصم كل من يفعل أذى بالملك والملكة، ليت القسم يأخذ بخنقه، ويصيره أعمى وأصم ويبيده ومعه زوجته وأطفاله وأقاربه، ومن ثم فربما فعل اليبوسيون كذلك، فربما أوقفوا العرج والأعمى، ثم قاموا بمثل تلك الطقوس لإخافة جند داود، وقد أتت هذه العملية بنتائجها حتى اضطر داود أن يعلن عن جائزة ثمينة لمن يقوم بعمل بطولى. (عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨).

(٣) صموئيل ثان : ٥-٦.

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٧.

القديمة وكيف حافظ داود على قوة الحصون بعد الاستيلاء عليها، ومع ذلك فإننا لا نعرف الكثير عن الوسائل التي اتبعها داود في الاستيلاء على يوس^(١).

وعلى أى حال، فرغم أن النص الوارد في سفر صموئيل الثاني (٥: ٦-٩) لا يعطى تفاصيل واضحة عن الغزو، فإنه يبدو من وصف المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» أن «يؤاب» - قائد جيش داود - إنما تأثر بنداء داود المتضمن مكافأة سخية لمن يدخل المدينة أولاً ويقتل اليوسيين، ومن ثم فقد أسرع إلى قيادة رجاله إلى داخل المدينة عن طريق قناة مائية تجرى تحت الأرض، وتصل إلى وسط المدينة، وربما قد حفرها سكان البلاد من اليوسيين تحت جبل صهيون لتوصيل الماء إلى الداخل.

وقد نجح «شارل وارن» في الكشف عن هذه القناة، وهي على هيئة سرداب يبلغ طوله خمسين قدماً، يبدأ من ينبوع - الذي يعرف الآن بينبوع العذراء في وادي قدرون - إلى كهف سفلى، وفي نهاية هذا الكهف حفرة رأسية تندفع منها الماء لتصل إلى مسطح من الحجر، تستقى منه نساء المدينة، وهناك سرداب آخر يمتد بانحدار من ذلك المكان إلى أن يصل إلى داخل أسوار القلعة حتى يتوفر الماء في زمن الحصار، ولعل قوات داود قد اكتشفت مدخل الكهف وتتبع مجراه حتى وصلت إلى القلعة واحتلتها^(٢).

ويتشكك «ستيوارت ماكاليستر» في القصة، ويرى أن أحد الخونة ربما قد أفشى سر «ينبوع العذراء» والذي خلفه، لجند داود أو لداود نفسه، وإن كان ليس من الضروري افتراض مثل هذا الشخص، لأن ينبوع معروف تماماً بل إنه لمن المستحيل في بلد صغير كفلسطين أن يبقى الأمر سرا، بخاصة وأنه يتعلق بشيء هام كوجود الماء^(٣).

O. Eissfeldt, op.cit., p. 581.

(١)

J. Finegan, op.cit., p. 178.

(٢) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٧٩، وكذا:

R.A. Stewart Macalister, op.cit., p. 343.

(٣)

على أن هناك فريقًا من العلماء إنما يرى أن الاستيلاء على المدينة قد تم بطريق آخر، ذلك لأن بعض علماء اللغة العبرية إنما يرجحون أن الكلمة المترجمة «قناة» أو «ينبوع» في الإمكان استبدالها بكلمة «خطاف» ولعل المهاجمين قد تسلقوا جدران القلعة بواسطة الحبال والخطاطيف واستولوا عليها^(١)، على أن هناك رأيًا ثالثًا يذهب إلى أن المهاجمين قد استطاعوا أن يصلوا إلى المدخل العلوى للنفق، ومن ثم فقد تمكنوا من قطع المياه عن المدينة وبالتالي فقد نجحوا في الاستيلاء على أورشليم.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد كتب لداود وجنوده نجحًا بعيد المدى في تحقيق النصر على اليبوسيين، والاستيلاء على مدينتهم «يبوس» (أوروسالم)، وبذا قضى على آخر أرض مسدودة المسالك في البلاد الأجنبية، كما نجح في القضاء على آخر حصن معاد له يقف حائلًا بين قبائل إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية^(٢)، وسرعان ما غير داود اسم المدينة إلى «مدينة داود» وأصبح داود حاكمًا لأورشليم بوصفه الخليفة الشرعى لحاكم المدينة اليبوسى السابق، ومن اللافت للنظر أن المدينة المحتلة لم يسكنها يهوديون أو إسرائيليون، وإنما بقى فيها سكانها الأصليون كما كانوا، وإن انتقل إليها الملك وحاشيته وآل بيته، فضلًا عن المرتزقة من جنوده^(٣).

وسرعان ما أعلن داود أن أورشليم هى قاعدة الملك، وعاصمة الدولة ولما كان داود، على طريقة أمراء بنى إسرائيل ورؤسائهم فى العصور القديمة - فضلًا عن الحكام القدامى فى مجاورات إسرائيل - يستمدون سلطانهم فى الحكم من «الله»، فقد جعل «صهيون» مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعًا، ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث

(١) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨.

M.Nothe, op.cit., p. 191.

(٣)

تسمية أكثر سحراً في أذهان فقراء اليهود وبسطائهم من «الصهيونية»، وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته، وأبهة سليمان وبهاء عظمته، وفخامته على عرشه الأسطوري العجيب، فاختروها اسماً وشعاراً^(١).

ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيراً في المدينة التي استولى عليها داود، صحيح أنها المدينة التي يقدسها أصحاب الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام - ولكنه صحيح كذلك أن أهميتها في تاريخ العالم ليس له أدنى علاقة بموقعها، فهي لا تقع على مجرى مائى عظيم مثل بابل، وعواصم مصر المتتابعة، وليست على البحر مثل صيدا وصور أو قرطاجنة، بل حتى لا يمكن الوصول إليها من البحر، مثل أثينا وروما، وذلك لأن طرقها إنما تتعرج بين الممرات الجبلية الوعرة، كما أنها ليست مثل دمشق مركزاً لللتقى طرق قوافل التجارة، وفي الحقيقة فإنه لا يمر بها إلا طريق هام واحد، ذلك الذى يبدأ من بئر سبع إلى حبرون ثم نابلس، فالجليل، ومع ذلك فإن أهمية هذا الطريق محلية صرفة، إذ أنه لا يربط بين الأسواق في مختلف الأقطار.

وهكذا لم تجعل العوامل الطبيعية من أورشليم مركزاً تجارياً هاماً، ولا يمكن أن تكون كذلك، إلا فترة قصيرة أثناء عهد المملكة اللاتينية (١٠٩٩/٧/١٥ - ١١٨٧/١٠/٢ م)، كما أن مجاوراتها لم تكن ذات جاذبية اقتصادية، فالسفوح الجبلية الوعرة قاحلة، حتى وإن قورنت بالجهات الأخرى من البلاد، ذات الخصوبة القليلة القيمة، فهناك نقص خطيرة في المياه، كما أن الأودية العميقة المحيطة بالموقع تجعل الرحلات عبر البلاد مجهدة وغير محتملة، وإن كان هذا كله لا يجعلنا ننسى أن أهم مقومات موقع المدينة في فلسطين القديمة (الماء والدفاع) كانت متوفرة^(٢)، ولعل

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) R.A.S., Macalister, op.cit., p. 333-334; M.F. Unger, op.cit., p. 567.

هذا - بجانب دوافع داود الخاصة - والتي سبق أن أشرنا إليها - هو الذي جعلها عاصمة فلسطين على أيام داود وسليمان، ولم يتح لها ذلك من بعد أو من قبل.

وعلى أى حال، فإننا نقرأ فى التوراة أن داود قد عمل ثغرة فى أسوار المدينة وأنها بقيت على حالتها هذه حتى أيام ولده وخليفته سليمان^(١)، ومما يجعلنا نصدق نص التوراة هذا، أن الثغرة إنما قد اكتشفت فى حفريات عام ١٩٠٤م وقد وجد أنها سدت بفواصل من المحتمل أنه استخدم كسياج وقى، ولكنها بقيت هكذا حتى العصر الرومانى، وإن كانت قد فقدت بعد ذلك وظيفتها الدفاعية^(٢).

ولعل أهم ما يميز عصر داود بالنسبة إلى أورشليم أنها أصبحت مكاناً مقدساً بالنسبة إلى اليهود، فلقد كان الشيء الوحيد الذى ينقص العاصمة الجديدة هو أن يكون لها مكانة دينية، صحيح أن أورشليم الكنعانية كانت لها أماكنها المقدسة، والتي كانت - طبقاً لعادة هذا العصر - قد اقتبستهما الطقوس اليهودية، ومن ثم فقد أصبحت أماكن العبادة الكنعانية هذه، أماكن مقدسة ليهوه إله اليهود، ومن ثم فقد بدأ داود يفكر فى نقل «تابوت العهد» إليها، ذلك التابوت الذى لم يحفظ حتى ذلك الوقت فى معبد دينى، وإنما فى خيمة تذكّر الإسرائيليين بالتيه فى الصحراء، وتبقى على العقيدة الخالصة لتعاليم موسى دون أن تمس.

(١) ملوك أول ١١ : ٣٧؛ هذا ويشير - سفر الأخبار الثانى (٢٢ : ٥) إلى أن سليمان بنى السور المتهدم وأعلاه إلى الأبراج، فضلاً عن سور آخر، كما حصن القلعة وعمل أبراساً، وملأ الوادى الأوسط ليصل الحافة الشرقية بالغربية، وملأ الوادى الضيق المستعرض الذى يعتقد أنه كان يحد المدينة من الشمال، هذا وقد أوضحت الاكتشافات الحديثة احتمال أن تكون الشرفات التى ملئت بالحجارة قد تأثرت بهجوم داود على المدينة، خصوصاً إذا صح أن الهجوم كان من الجانب الشرقى، وكان متحداً مع الحصول على مورد المياه. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٥٥-٥٦؛ وكذا:

J. Siomon, Jerusalem in the Old Testament, Leiden, 1952, p. 132F.

R.A.S. Macalister, op.cit., p. 345-346.

(٢)

ومع ذلك فقد حدث تطور واضح فى العقيدة الموسوية، وفى سيناء، كان الربُّ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فحسب، ولكنه أصبح الآن إله إسرائيل، ونظراً لأن إسرائيل كان شعباً بدوياً لا وطن له، فإن سلطانه لم يكن إقليميًّا (جغرافياً)، بل كان شخصيًّا، أى على القبيلة ككيان قائم بذاته، وعلى الأفراد الذين يكونون هذه القبيلة، ثم أصبح للإسرائيليين بلد خاص بهم، وتلك كانت - رغم فقرها - جديرة بالاعتبار، فمن الناحية النظرية، على الأقل، اتحدت القبائل الاثنى عشر، وعن طريق هذا الاتحاد تم العمل المشترك الذى هزموا به ممالك معترفاً بها، وأبقوا على استقلالهم، وكان ذلك كله من عمل «يهوه» ربَّ القبائل الاثنى عشر، ومع نمو شعب إسرائيل زاد اعتقادهم فى ربَّ إسرائيل كذلك، ومن ثم فقد أصبح «يهوه» إلهًا قوميًّا، وأصبحت الفكرة (الروح) التى ستؤدى فى الوقت المناسب إلى جعل أورشليم المكان الذى يجب التعبد فيه على قدم وساق^(١).

وينتهز داود الفرصة فى البحث عن الثابت، والذى كان فى كنف بيت يوسف فترة طويلة، ولكنه وقع فى أيدي الفلسطينيين عندما انهزم الإسرائيليون فى «أفيق»^(٢)، ويروى المزمور (١١٢) أن الملك أقسم أن لا ينام حتى يستعيده^(٣)، ثم وجد أخيراً فى «قرية يعاريم»^(٤) - ويرجح أنها قرية العنب التى تسمى أيضاً أبو جوش، على مبعده تسعة أميال غربى القدس^(٥) - صندوقاً منقوشاً أكد أنه نفس «تابوت شيلوه» الذى استرجع من بلاد الفلسطينيين، ثم سقط بطريقة غير مفهومة فى غياهب النسيان^(٦)، ربما لأنه

Sir Leonard Woolay, op.cit., p. 499.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 166-167.

(٢) صموئيل أول ٤ : ١١، وكذا:

(٣) مزمور ١١٢ : ١-٨.

(٤) صموئيل أول ٦ : ٢١، ٧ : ٢.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٧٢٩/٢.

A. Lods, op.cit., p. 362.

(٦)

كان قد فقد مكانته بعد أن سلبه الفلسطينيون، ومن ثم فقد أصبح يعيش حوله عدد ضئيل من الكهنة أو الحفاظ الذين لا مكانة لهم^(١).

وأراد داود أن ينقل التابوت في احتفال عظيم إلى قلعة صهيون، حيث أعدت هناك خيمة لاستقباله، وقد شارك داود بنفسه في هذا الاحتفال، حتى أنه حين أراد أن يعرب عن ابتهاجه بعودة التابوت إلى حاضرة ملكه، فنضى عنه ثيابه وجعل يرقص في الطرقات، بطريقة أثارت استياء زوجه «ميكال» ابنة مسيح الله شاول، فأنبته لهذا المسلك فأغلظ لها في الرد^(٢).

وهكذا نجح داود في أن يجعل من «أورشليم» ليس مركزاً للحياة السياسية فحسب، بل مركزاً للحياة الدينية كذلك، ذلك لأن «تابوت العهد» إنما هو الأثر الرمزي الرئيسي لتحالف القبائل الإسرائيلية الاثني عشر، ثم ربط داود ذلك كله، بالتقاليد الودية التي ربطت القبائل بعضها ببعض الآخر، مستغلاً ذلك كله لمصلحته الشخصية ومصلحة عرشه، وفي الحقيقة أن المركز الديني العظيم الذي شغلته أورشليم في التاريخ العالمى إنما يبدأ من ذلك الوقت، بل وينسب إلى نفس ذلك العمل، وأن داود - حدساً عن غير يقين - قد أقام التابوت في مذبح المدينة، والذي ربما كان على قمة التل الدائرى المشرف على المدينة من الشمال، حيث شيد سليمان فيما بعد مبانيه، وعلى أى حال، فإن جبل صهيون، الذى جاء ذكره فى الكتاب المقدس، إنما هو غير الذى نعرفه الآن، وأنه إنما يقع إلى الشرق من الجبل الحالى الذى يحمل نفس الاسم، وفى هذا المكان كان منزل داود، وكذلك

(١) إسماعيل راجى الفاروقى، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٦، صموئيل ٦-٧.

(٢) صموئيل ثان ٦: ١٢-١٣؛ عصام الدين حفى ناصف، محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٤٤، وكذا:

Leroy Waterman, The Treasures of Solmon's Private Chapel, JNES, 6, 1947, p. 126.

أقيم المعبد، وكان من نتائج حفريات عام ١٩٦١ م، أن المدنة القديمة إنما كانت تمتد على المنحدرات الشرقية في اتجاه نحال قدرون، وأما الكهنة الذين كانوا يقومون بالخدمة في مذبح المدينة، فقد كانوا موظفين ملكيين، بل إن بعضاً منهم إنما كان من أبناء داود نفسه^(١).

وقد أظهر الكتبة كثيراً من الرضى بعملهم الجديد، ذلك لأن شاول إنما قد نفاهم من قبل في قرية يعاريم، ربما لأنه كان يشك في ولائهم له ومن ثم فقد كانت دعوة داود لهم بالعودة مع التابوت، والنزول في العاصمة الجديدة، إنما رفعت من شأنهم كثيراً، ونتيجة لذلك فلقد أصبح الكهان من أكثر المؤيدين للملكية، بعد أن كانوا أعداءها، بل إن داود إنما قام بخطوة أخطر من هذه، وذلك حين جعل من الكهنة رجال دولة رسميين، وعينهم في مجلس الدولة الأعلى، ودعاهم إلى حكم البلاد معه، أو بالأحرى إلى تدعيم حكمه بالوسائل التي يستطيعون تسخيرها لهذا الهدف^(٢).

وعلى أى حال، فإنه من المتفق عليه أن التابوت إنما كان قد أقيم في الأزمنة السابقة في واحد أو آخر من المعابد المحلية، وأن القبائل الإسرائيلية قد كرسّت الآن محراب أورشليم كمركز ديني لها، وأن جبل صهيون - وهو اسم قمة التل الذي كان فيه مكان العبادة في أورشليم - قد أصبح عقيدة في فكر إسرائيل الديني^(٣).

(٦) القدس على أيام سليمان:

لا ريب في أن الامتداد العظيم لمدينة القدس، إنما يرجع إلى عهد سليمان، الذي مكنه حكمه السلمي نسبياً من تنفيذ المشروعات الهامة التي كانت تراود أحلام والده العظيم، سيدنا داود عليه السلام.

(١) صموئيل ثان ٨: ١٧-٨، ٢٠: ٢٥-٢٦، عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٥٦-٥٧، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 191.

(٢) إسماعيل الفاروقى، المرجع السابق، ص ٤٧.

M. Noth, op.cit., p. 191.

(٣)

ولعل من الأهمية بكان الإشارة هنا إلى أننا، إن كنا نقرأ في التوراة أن داود قد بنى، وربما أصلح سور مدينة داود^(١) (القدس)، فإننا نقرأ كذلك أن سليمان قد بنى سوراً حول أورشليم^(٢)، وإن كنا لا نملك تخطيطاً مفصلاً عنه، كما نملك عن سور نحميا الذى حفظ لنا فى سفره، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقدم من الإشارات الواردة فى أسفار الملوك وأخبار الأيام، فكرة عن الأبواب الموجودة فى الجانب الشرقى وهى: (١) باب بنيامين: ويسمى كذلك الباب الأعلى، ويقع ناحية الشمال (٢) باب أفرائيم: ويطلق على المشهد الشمالى (٣) باب الزواية، ويقع على مبعده ٤٠٠ ذراعاً من باب أفرائيم (٤) باب الوادى: ويقع فى جنوب المدينة، وربما قد أخذ اسمه من اتجاهه نحو وادى هنوم (٥) باب الخيل: ويتجه نحو الشرق ويطل على قدرون، وربما كان على مقربة من القصر الملكى^(٣).

هذا وليس من شك كذلك فى أن بناء القصر الملكى والمعبد (هيكل سليمان) إنما يشير إلى أول عصر له أهمية كبرى فى تاريخ المدينة المقدسة، ومن ثم فلعل من الأفضل أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هيكل سليمان وقصره الملكى.

(أ) هيكل سليمان: تقدم لنا التوراة معلومات مفصلة إلى حد ما عن معبد سليمان، وإن كانت ليست مفيدة فى كل الأحيان، وعلى أى حال، فإنه من غير المحتمل أن المعبد قد أقيم على مكان لبعض ما سبقه من أماكن العبادة فى «يوس» الكنعانية، كما أن المعلومات التى عرفناها على وجه

(١) صموئيل ثان ٩: ٥.

(٢) ملوك أول ١: ٢، ١٥: ٩.

(٣) ملوك ثان ١١: ١٦، ١٤: ١٣، ١٥: ٣٥؛ أخبار أيام ثان ٢٦: ٩؛ إرميا ٢٠: ٢، ٣١، ٤٠؛

حزقيال ٩: ٢؛ نحميا ٢: ٣، ٢٣: ٢٨؛ زكريا ١٤: ١٠؛ وكذا:

R.A.S. Macolister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, 1965, p. 350.

التحقيق عن التاريخ السابق للموقع جد طفيفة، فهناك «بيدر» (أو جرن) في أقرب نطاق، اشتراه داود كموقع لبناء المعبد، وطبقاً لرواية التوراة، فإن ذلك الموقع إنما كان على «جبل المريا»^(١) في بيدر «أرناان اليبوسى»^(٢)، والاسم غامض تماماً وليس من المؤكد أنه نفس المكان المفترض، وهناك نظريات كثيرة تشير جدلاً حول موقع المعبد، ولكنها فشلت في أن تجد لها تأييداً إلا في رؤوس مؤلفيها.

ومع ذلك فإن الإجماع منعقد - بناء على عنعنات، شفوية، يقال أنها متصلة متواترة - على أن مكان البناء إنما هو الهضبة المسطحة التي تتوج جبل «موريا» والذي كان مكاناً كنعانياً قحاً في أيدي اليبوسيين، رغم الضغط الإسرائيلي المتكرر، حتى جاء داود فوجده ملكاً لفلاح فلسطيني يوسى^(٣) اسمه «أرونا»، وقد جعله جرنًا له فاشتراه منه، والظاهر أن اليبوسيين كانوا قد تعودوا على رذالات النهب والاعتصاب الإسرائيلي، مما جعل أرونا يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن الجرن، وكان قد عرض عليه - أن يأخذه بلامقابل، فرفض داود واشتراه منه - وكذا البقر - بخمسين شاقلاً^(٤).

(١) جاء اسم «المريا» في التوراة على أنه المكان الذي قدم فيه إبراهيم ولده إسحاق قرباناً لله، والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير في هذه القضية بين الباحثين، بل بين اليهود أنفسهم، فاليهود السامريون يرون أن الحادث إنما كان على جبل جرزيم القريب من نابلس حيث قام أقدم هيكل لبني إسرائيل، حتى جاء داود فأبطله وعطّله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، هذا فضلاً عن أن الديح - كما أثبتنا من قبل - إسماعيل، وأن الحادث كان بمكة المكرمة (تكوين ٢٢: ١٢ - حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٤).

(٢) يقرأ الاسم في سفر صموئيل الثاني (٢٤: ١٦-٢٤) «أرونة».

(٣) من عجب أن هناك بعض الروايات التي تنسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، وأن داود أراد أن يختصبه منه فنهاه ربه عن ذلك، فاشتراه بتسعة قناطير من الذهب. (السمهودى، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ٣٤٣/١، القاهرة ١٣٢٦ هـ-)، والشمس جد مغالاً فيه، بل إن رواية التوراة - رغم مبالغتها - جعلته - هو والبقر - بخمسين شاقلاً فقط، (صموئيل ثان ٢٤: ٢٤).

(٤) صموئيل ثان ٢٤: ١٦-٣٤، حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.

وعلى أى حال - فلقد كانت بلاد اليهود جميعاً - حتى أورشليم نفسها - لم يكن فيها، على ما يبدو، قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد، وكان الآهلون يقربون القرابين لربهم «يهوه» فى هياكل محلية، أو فى هياكل ساذجة فوق التلال^(١)، ونقرأ فى التوراة أن داود كان أول من فكر فى إقامة بيت لرب إسرائيل، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولا حسناً من الرب الذى كان يدخر هذا العمل لولده سليمان^(٢)، إلا أن هناك من يرى أن الهدف من إقامة بيت الرب، لم يكن لأن «تابوت الله ساكن داخل الشقق» - على حد تعبير التوراة - وإنما كان لتوحيد الطقوس الدينية بين اليهود جميعاً، وذلك عن طريق إقامة معراب وحيد يحل محل المحارب الأخرى، التى كانت قد انتشرت فى جميع البلاد منذ تدمير «معبد شيلوه»، ومن ثم فقد أصبحت هذه المحارب أماكن شرعية للعبادة^(٣).

ولكن القوم سرعان ما خالطتهم الوثنية فى دينهم، ومن ثم فقد خيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحارب فى الأماكن الأخرى^(٤)، وقصر العبادة والذبائح الحيوانية على معبد أورشليم دون غيره، وربما كانت هذه حركة سياسية فى الأصل تسعى من وراء ذلك كله إلى رفع مكانة المعبد والكهانة التى تقوم بالخدمة فيه^(٥).

وهكذا يبدو أن سليمان عند إنشائه المعبد، إنما كان متأثراً بعوامل سياسية ودينية، فلقد أراد أن يهرأ أنظار الأمم المجاورة عن قوة وثراء دولته التى

(١) ملوك أول ٣: ٢٠ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٢) صموئيل ثان ٧: ١-١٧.

(٣) I. Epstein, Judaism, p. 36.

(٤) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٧٤.

(٥) C. Roth, op.cit., p. 22.

يرعاها «يهوه»، وأن يخلد ثراء أسرته، وأن يسيغ امتيازاً دينياً خاصاً على عاصمته أورشليم، وذلك بأن يشيد لتابوت العهد مكاناً لا يدانيه مثيل في بهائه وفخامته، ومع ذلك فقد خابت آمال سليمان لأن جاذبية المعبد لم تكن نتيجة ما يدل عليه من ثراء. وإنما يقدر ما له من قدسية في الإيمان الشعبي، كما أن تكاليفه الباهظة لم تكن في نظر قبائل إسرائيل، إلا زيادة في الجبايات والضرائب، وأخيراً فإن روعة المعبد وفخامته، كان فيهما من الإساءة، أكثر مما لهما من الجاذبية في نظر هؤلاء البدو الإسرائيليين الذين جبلوا على تقاليد بسيطة في عبادة يهوه الأصلية^(١).

وعلى أى حال، فإن داود قبل أن ينتقل إلى جوار ربه - راضياً مرضياً عنه - أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان في إقامة الهيكل، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان اليهود في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسرى أن الاعتماد على الفينيقيين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجمع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب أرز لم يكن له عدد، لأن الصيغونيين والصوريين أتوا بخشب كثير لداود»^(٢) ثم يضيف داود مخاطباً ولده سليمان: «ها أنذا في مذلتى هيات لبيت الرب، ذهباً مئة ألف وزنة، وفضة ألف ألف وزنة، ونحاساً وحديداً بلا وزن لأنه كثير، وقد هيات خشباً وحجارة، فتزيد عليها وعندك كثيرون من عاملى الشغل، نحاتين وبنائين وكل حكيم في كل عمل، الذهب والفضة والنحاس والحديد ليس لها عدد، قم واعمل وليكن الرب معك»^(٣). أما الأعمال التى لا تحتاج إلى مهارة فقد حشد لها،

(٢) أخبار أيام أول ٢٢: ٢-٤.

(١) A. Lods, op.cit., p. 414.

(٣) أخبار أيام أول ٢٢: ١٤-١٦.

«مئة وثلاثة وخمسين ألفاً وست مئة، فجعل منهم سبعين ألف حمال،
وثمانين ألف قطاع على الجبل، وثلاثة آلاف وست مئة وكلاء لتشغيل
الشعب». وفي الواقع، فإن الهيكل حسب أوصافه التي وردت إلينا بناء
صغير، مما يدعونا إلى التساؤل: هل كانت كل مواد البناء التي أعدها داود،
وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين، مخصصة للهيكل وحده؟ أم أن
الأمر - على ما يذكر لويس براون - غير ذلك، وأن الهيكل لم يظفر من
ذلك إلا بالنذر الأقل، بينما الجانب الأكبر قد خصص لمبان أخرى أقل
اتصالاً بتمجيد الرب، منها القصر الملكي لسليمان، وقصر زوجه ابنة فرعون،
والصروح البديعة والفيلات الأنيقة التي أعدها لنسائه الكثيرات جداً، والأبنية
الحكومية المختلفة، وحتى المعابد الوثنية التي أقيمت خصيصاً لمن رفضن
التهود من النساء الأجنبية اللاتي أحبهن سليمان^(١).

وأيًا كان الأمر - وطبقاً لرواية التوراة - ففي ربيع السنة الرابعة من عهد
سليمان (حوالي عام ٩٥٦ ق.م)^(٢) وضع الحجر الأساسي للمشروع الذي
استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام. ليكون قصراً فخماً ليهوه
مدى أربعة قرون، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً،

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٨؛ أخبار أيام ثان ٢: ١٧-١٨.

(٢) يتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنهم يختلفون في
تحديد هذه الفترة من هذا القرن، فهناك من يرى أنها في الفترة من ٩٧٤-٩٣٢ ق.م (فضلو
حوراني، المرجع السابق، ص ٢٤)؛ ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٢-٩٣٦ ق.م) (حسن ظاظا،
الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)؛ ومن يرى أنها في الفترة من ٩٧٠-٩٣٢ ق.م، ومن يرى أنها
في الفترة من ٩٦٣-٩٢٣ ق.م (فيليب حشي، المرجع السابق، ص ٢٠٥)؛ ومن يرى أنها في
الفترة (٩٦١-٩٢٣ ق.م) (موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤٣؛ وكذا: W. Heaston,
op.cit., p. 172. ومن يرى أنها في الفترة من ٩٧١-٩٣١ ق.م (I. Epstein, op.cit., p. 36)،
ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٠-٩٣٢ ق.م) (W.F. Albright, The Biblical Period
from Abraham to Ezra, p. 120-122)، ومن يرى أنها في الفترة من (٩٦٣-٩٢٩ ق.م)
(Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., Chicago, 1959, p. 81).

ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه، وكان جناح واحد من أجنحته وهو «بيت وعر لبنان»، أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله، وتصفه التوراة بأن «طوله ستون ذراعاً، وسمكه ثلاثون ذراعاً». ويرسل سليمان إلى صديقه «حيرام» الصوري بأن يقطعوا له الأرز من لبنان، على أن يعطيه «عشرين ألف كر حنطة طعاماً لبيته، وعشرين كرزيت رز»^(١)، هذا فضلاً عن الأيدي العاملة لتجهيز هذا الخشب والحجارة، لأن الإسرائيليين لم يكونوا مهرة في أعمال البناء، على حين كان الفينيقيون بنائين من الطراز الممتاز في العمارة والفنون.

لم يقدم لنا موقع المعبد نفسه أى دليل يمكن الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة في هذا المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد^(٢)، غير أن المعلومات التي توفرها التوراة في سفر حزقيال (٤٠-٤٤) من وصف للمعبد الجديد، تجعل في الإمكان استعادة تخطيطه بشكل مؤكد، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى^(٣).

وعلى أى حال، فإن المعلومات التي توفرها التوراة في الملوك الأول (٦) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد الرافدين، على الرغم من أن الكاتب يشيد بإعجاب على المساعدة الفينيقية، وعلى الإسراف والبذخ^(٤)، وعلى أى حال، فيمكن القول - اعتماداً على استخدام المعمارين والبنائين

(١) ملوك أول ٦: ١-٢، ٧: ٢، ٥: ٦-١١، وانظر: تاريخ الطبرى ١/٥٠٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦١.

(٢) انظر:

P.L. Graber, Reconstruction Solomon's Temple, BA, 14, 1951, p. 2F; J.L.

Myres, King Solomon's Temple and Other Buildings and Works of Art, PEQ 80, 1948, p. 14F.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 598.

(٣).

(٤) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

الفينيقيين، ومن بقايا أجزاء قصر سليمان - أنه قد اتبع النظام الفينيقي، الأمر الذي نادى به من قبل المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»^(١) (٣٧- ٩٨ أو ١٠٠ م)، وكذا المؤرخان Menander و Dios اللذان استخدما حوليات صور كمصدر لهما، ومن ثم فيمكن الاعتماد عليهما، ثم ربط يوسف اليهودي بعد ذلك بين صداقة سليمان لخليفه «حيرام» ملك صور، وبين اقتباسه لنماذج المباني، خاصة فيما يتعلق بالمعبد، ولكن هذا التخمين لا يساعدنا في إعادة التصميم، إذ أنه لا توجد أية بقايا أثرية لمعابد حيرام، وحتى إذا كانت هناك بعض البقايا التي يمكن العثور عليها، فإنها لم تكشف بعد، وكل الذي نعرفه من «يوسف اليهودي» أن حيرام قد بنى معابد، ولم يذكر لنا أى شيء عن مظهر هذه المعابد وشكلها^(٢).

ولكن يبدو أن معبد سليمان إنما هو فينيقي الطراز فعلا، ومما يدل على أن الفينيقيين هم الذين قاموا بالعمل في عمارة سليمان، العثور على جزأين من تاج عمود - سابق للأيونى Proto-Ionic، وأحيانا يسمى Proto-Aeotic في أورشليم، في القمة الشرقية للحافة الشرقية للمدينة المقدسة، ومعهما حجارة منحوتة مبعثرة كانت على الأرجح تشكل حائطاً يشبه ذلك الذى كان مقاما في «السامرة»، التى كشف فيها عن تيجان شبيهة بذلك، وغالبا أنها صنعت على الطراز الفينيقي، كما وجدت أمثلة لها في مجدو وبيت شان، حيث توجد مبان من عهد سليمان^(٣).

وفي عام ١٩٣٦ م، اكتشف معبد في «تل تعنات» في سهل العمق بشمال سورية، يتطابق بصفة عامة مع معبد سليمان، فهو - مثله - يتكون

Josphus, Antiquities of the Jews, VIII, 5, 3.

(١)

O. Eissfeldt, op.cit., p. 598.

(٢)

(٣) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٦٨-٧٠.

من مدخل وصالة يوجد أمامها عمودان، ومحراب مرتفع^(١)، ومن الواضح أن هذا المعبد الذى يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، كان يتضمن الشكل المعتاد للمعبد فى سورية فى بداية الألف الأول قبل الميلاد، وطبقاً لذلك، فإنه يجب أن نفترض أن المعبد الفينيقي الذى يفترض أن سليمان قد سار على منواله فى بناء معبده - وكذا معبد سليمان نفسه - قد أتبع هذا الشكل المعتاد، والأمر كذلك بالنسبة إلى معبد «شيلوه»، ويؤكد هذا الافتراض أن هناك مبعدين «مصريين - كنعانيين» فى بيت شان، ويرجعان إلى الفترة ما بين القرنين ١٤، ١٢ ق.م، كانا لهما نفس المحراب^(٢)، هذا فضلاً عن أن هناك كثيراً من المعابد التى ترجع إلى العصور الهلنستية والرومانية لها محراب من هذا النوع، وهى فى الواقع لا توجد فى سورية وفلسطين فحسب، ولكنها توجد أيضاً بعيداً فى الشرق والغرب، ومن الواضح أن عدداً من مظاهر العبادة الدينية التى انتشرت فى العالم المتحضر عن طريق سورية وفلسطين، قد تضمنت هذه الخاصية فى تصميم المعبد^(٣).

وعلى أى حال، فإن سليمان إنما كان مضطراً إلى أن يتطلع إلى نماذج لمبده خارج بلاده، فهو لم تكن لديه فى إسرائيل، إلا تقاليد وطنية قليلة ما كانت لتفيده كثيراً، ومع ما كان ينظر إليه بريبة تجاه الفن المصرى والبابلى، إلا أن ما كان يتميز به كل من الطابعين من زخرفة ونظام، أمر له حقيقته المعترف بها، وربما يرجع السبب فى التأثير المصرى المباشر هو مصاهرة سليمان للبلاط المصرى، وإن كان الأمر بالنسبة إلى التأثير البابلى أصعب من أن يفسر.

W.F.Albright, Archaeology and the Religion of Israel , p. 140-142; C.W. Mc (١)

Ewan, The Syriaan Expedition of the Oriental Institute, AJA, 1937, p. 8F.

A. Rowe, The Topography and History of Beth-shan, Philadelphie, 1930, p. (٢)

19, 24, pls., 24, 56; O.Eissfeldt, op.cit., p. 599.

W.F. Albright, op.cit., p. 105-202; O. Eissfeldt, op.cit., p. 599.

(٣)

وعلى أى حال، فلقد كان للطابعين المصرى والبابلى أثر كبير على الفينيقيين الذين اختلطت قدرتهم بفنون المصريين من ناحية، والبابليين من ناحية أخرى، وطالما تحدثت التقاليد الإسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأكيد، كما أن من فينيقيا أتت أشجار الأرز التى قام عليها «بيت وعر لبنان» ومن المحتمل أن استخدام الفينيقيين للأعمدة الخشبية كان يؤدى ما تقوم به الأعمدة الحجرية عند المصريين، ومن ناحية أخرى، فإن مصر وبابل قد استخدمتا - كفينيقييا تماماً - أشجار الأرز كحوائط وأسقف أو عوارض من الداخل، كما أنه من المشكوك فيه أن البحر البرونزى المدعم باثنى عشر ثوراً هو تجديد للرمزية البابلية، ولكنه ربما بنى على أنماط فينيقية، إلا أن وجود المذبح فى مواجهة المدخل هو أسلوب بابلى، وكان يشيد فى بابل من الآجر، بينما كانت الحجارة أكثر ملائمة فى فلسطين^(١)، هذا إلى أن التوسع فى استخدام «الكروبيم»^(٢) والتخيل ذو أصل بابلى كذلك.

(١) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 348-9; K.M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 247.

(٢) الكروبيم: جمع مفردة «كروب»، وهم ملائكة فيما يرى البعض، ومخلوقات على رأى آخر لأنهم لا يقومون بعمل الملائكة من حمل رسالة الله، وإنما يقومون بوظائف أخرى، منها أنها تظلل تابوت العهد بتمثالين لها، ومنها تزين بصورها ستائر الخيمة التى كان موسى يتخذها هيكلًا، والحجاب الذى كان يفصل بين القدس وقدس الأقداس حيث يوجد التابوت، ومنها أنها تحمل الزب أو عرشه، ومنها أنها تزين بصورها المحفورة هيكل أورشليم، ومنها أنها تحرس شجرة الحياة، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها تشبه تماثيل أبى الهول المجنحة فى مصر وفينيقيا والثيران المجنحة فى بابل وأشور، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها بالتأكيد تأثير قادم من الكنعانيين الفينيقيين، وإن كان هذا لا يمنع من القول أن أشكالها المركبة من جسم أسد ورأس إنسان إنما هو تأثير مصرى أكثر من واضح. (قاموس الكتاب المقدس، ٧٧٩/٢، موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٠، ٢٨٦-٢٩٧، وكذا:

T.K. Cheyns, Charub, EB, I, 1899, Col. 741-743; W.F. Albright, op.cit., p. 148-216; O. Eissfeldt, op.cit., p. 600-601.

هذا ويقدم لنا سفر الملوك وصفاً للعمارة الداخلية وزخرفتها بالبرونز، أكثر وضوحاً من وصفه للمعبد من الخارج، وفي كلا الحالين فإن التأثير الخارجى فى العمل يبدو واضحاً، وعلى ذلك فإن حشو الأخشاب فى الجدران يذكر فى تقرير يتطابق بصفة عامة مع ما تعودده القوم فى سورية فى تغطية الجدران الداخلية لمبنى القصر والمعبد^(١)، أما تأثيرات الزينة على الحشوى وعلى الأعمال المنحوتة والمطعمة والتي وضعت على الأبواب، فإنها تطابق تلك التى استخدمت فى كل أنواع الفنون والمنتجات الصناعية خاصة فى أعمال الحفر على العاج الذى اكتشف فى غرب آسيا، وفى مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، والتي جاءت تحت تأثير الفينيقيين والسوريين، وقد ظهر ذلك بوضوح فى مصر وبابل وسورية وإيجيه^(٢)، وينطبق ذلك على الأعمال البرونزية والتعشيقات التى زخرف بها عمال حيرام الصورى معبد سليمان، وقد عثر على عدد من الأحواض البرونزية ذات العجلات فى قبرص حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وهى تشبه تلك التى عملها حيرام لسليمان^(٣).

وأخيراً فإنه لا يقل أهمية فيما يتعلق بالنماذج الأجنبية التى أثرت فى معبد سليمان تماثيل الكروبيم Cherubim وطبقاً لرواية سفر الملوك الأول، فإن «الكروبيين» إنما يقف فى المحراب، وقد صنع من خشب الزيتون، وغشى بالذهب وكان ارتفاع الواحد عشرة أذرع^(٤)، وفى هذه الحالة فإنه يمكن القول أن هذا التأثير من الكنعانيين الفينيقيين، ونظراً لأن أشكال «الكروبيم» Cherubim إنما كانت تتكون من جسد أسد، ورأس إنسان، وأجنحة طيور،

(١) W.F. Albright, The Role of the Canaanites in the History of Civilization , London, 1961, p. 22F.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 600.

(٣) W.F. Albright, Archaeology and the religion of Israel, p. 152F; O. Eissfeldt, op.cit., p. 600.

(٤) ملوك أول ٦: ١٣-٢٨.

وتظهر هذه الأشكال على تابوت حيرام فى بيبيلوس، وعلى قطعة عاجية من مجدو، فضلاعن نموذج صغير للعرش من مجدو مصنوع من العاج^(١)، وقد وضع سليمان هذه التماثيل فى محراب معبده، كما وضع التابوت أسفل أجنحتها ومن الواضح أن سليمان قد نقل الطريقة التى وضع بها التابوت فى معبد شيلوه^(٢) وهو المعبد الذى دمره الفلسطينيون قبل بناء معبد سليمان بحوالى قرن من الزمان، ومازالت أساساته واضحة تقدم لنا فكرة واضحة عن مظهره قبل التدمير^(٣).

وأما العبادة فى الهيكل فكانت تقرب كثيراً فى مميزاتها العامة من الممارسات المألوفة فى هياكل مصر وفينيقيا ورأس الشمرة فى سورية، وإن صحّ هذا القول - ويحسبه حبيب سعيد صحيحاً - كما توحى بذلك فى رأيه أعمدة الهيكل والحلى التى ازدان بها، والعبادات الغريبة التى أدانها وفضحها كتاب الأسفار المدسة المتأخرون، فلا بد أن طقوس عبادة الشمس المصرية، والذبائح والتقدمات الكنعانية وحفلات بلاد ما بين النهرين الدينية مثل المرائى على «تموز» وغيرها، قد مارسها القوم فى ذات المعبد الملكى، وقد أقام فيه الملك «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ ق.م) مذبحاً آشورياً على النمط السومرى فى دمشق^(٤).

وهكذا رغم أن المعبد كان مركزاً روحياً لليهود، ورغم أنه انتقل بدينهم من دين بدائى متعدد فيه الآلهة، بعد أن ارتدوا عن ديانة موسى الكليم، عليه السلام، وهو ما يزال بين ظهرائهم، إلى عقيدة تنادى بالوحدانية، رغم ذلك كله ابتعد عن العقيدة الإسرائيلية (اليهودية) بسبب الطقوس التى باشرها الإسرائيليون وحرص اليهودى على الإيمان بها وهذه الطقوس هى فى الواقع

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 600-601; W.F.Albright, op.cit., p. 148-216.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 166-167.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

(٤) حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٧٣، (القاهرة، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية).

طقوس كنعانية مستمدة من عبادة «بعل» والفرق كبير بين العبادتين، عبادة «يهوه» الصجراوية المتبدية، وعبادة «بعل» الزراعية المستقرة المتحضرة، لذلك لم يكبد يخبو نور الملكية، وتخبو معها أبهة الحياة العامة وأبهة الأعياد من قومية ودينية، حتى أخذت تتحلل هذه الرابطة التي جمعت بين الأسباط الإسرائيلية أولاً، والعقائد الدينية ثانياً، فأمحت فيها هذه الطقوس وريثة العقائد الوثنية القديمة، وأخذت الطقوس «اليهودية» تظهر إلى الوجود ثانياً^(١).

غير أن «يهوه» رغم هذا التحول الظاهري لم ينجح في مطاردة «بعل» وبخاصة فالمجتمع الإسرائيلي قد أخذ يتذوق معنى الاستقرار والحضارة التي يمثلها «بعل» وديانته، وهنا نجد المجتمع يوفق بين العقيدتين «اليهوية» و«البعلية» فأصبحنا نجد «يهوه» محتفظاً برمز «بعل» ألا وهو «الثور»^(٢)، هذا إلى جانب تماثيل الإلهة «عشتارت»^(٣) وغيرها، والتي كانت توجد في البيوت الإسرائيلية^(٤)، وأخيراً فهناك من يرى أن معبد سليمان هذا، إنما كان معبداً خاصاً، ولم يصبح مزاراً عاماً لليهود، إلا بعد فترة^(٥)، وتلك - فيما أظن - مبالغة غير مقبولة.

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢) كان يهوه في العصور القديمة يصور ويقدر في صورة «ثور» هذا فضلاً عن أننا نجد قرنين في مذبحه، (ملوك أول ١٢: ٢٨، خروج ٣٣: ٤، ملوك ثان ٢٢: ١، هوشع ٨: ٥).

(٣) كان «يهوه» وبعل وعشتارت، يكونون للوثاق مقدساً عند العبرانيين في عصر الملكية، وإن كانت عبادة «بعل» على أيام «أخاب» معاصر النبي «إيليا» - وهو إلياس عليه السلام، فيما نرجح - أوضح من غيرها (ديتلف نلسن: المرجع السابق، ص ٢٣٦، ملوك أول ١٦: ٣٠-٣٤) وإلى عبادة بعل هذه يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ» (الصافات، آية: ٢٣٣-٢٣٦)، وانظر: تفسير أبي السعود ٢٧٦/٤-٢٧٧، تفسير الفخر الرازي ١٦٠/٢٦-١٦١، تفسير الطبري ٩١/٢٣-٩٥، تفسير البضاوي ٢٩٩/٢، تفسير القرطبي، ١١٥/١٥-١١٩، تفسير الألوسي ١٣٨/٢٣-١٤٠، تفسير القاسمي ٥٠٥٩/١٤-٥٠٦٠، تفسير الطبرسي ٨٠/٢٣-٨٢، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢٩٥/٥-٢٨٦، تفسير ابن كثير ٧/٣١-٣٢، في ظلال القرآن ٣٩٩٧/٢٣-٣٩٩٨، تفسير النسي، ٢٧/٤-٢٩).

(٤) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

ونقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من العمل في المعبد^(١) دعا إليه شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود»، وأن الجميع - وعلى رأسهم سليمان - قد اجتمعوا أمام التابوت، «يذبحون من الغنم والبقر ما لا

(١) يروى أن أبا فراته سأل النبي ﷺ، عن أول بيت وضع للناس، فقال: قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، ثم قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد (صحيح مسلم ١٥٣/٢-١٥٤، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١ م، مسند الإمام أحمد ١٥٠/٥، ١٦٠-١٦٧، طبعة الحلبي، تفسير الطبري ٢٢/٧؛ تفسير ابن كثير ٦٣/٢؛ تفسير القرطبي، ص ١٣٧٩؛ تفسير المنار ٦/٤-٧، القاهرة ١٩٧٣).

وقد أثار هذا الحديث الشريف جدلاً، على أساس أن إبراهيم هو باني البيت الحرام، وأن سليمان هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوي، في «شرح معاني الآثار» بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما فيجتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك. (هامش ٢ صحيح مسلم ١٥٣/٢)، غير أن صاحب تفسير المنار (٧/٤) إنما يرى أن هذا التفسير ضعيف، لأنه سماء يتأ، ولو جعل المكان مسجداً ولم يكن فيه، لما سمي بيتاً بل مسجداً أو قبلة، ثم إن ذلك مبني على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس وذلك معقول وإن لم يكن عندنا فيه نص صريح، هذا ويرى «ابن القيم الجوزية» أن الذي أسس بيت المقدس يعقوب، وأن سليمان كان مجدداً له.

وانتني لأميل - حدساً عن غير يقين - أن إبراهيم الخليل، عليه السلام، هو الذي وضع الأسس لبيت المقدس على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهي العقبة التي احتج بها صاحب تفسير المنار وعلى أساس أن إبراهيم - طبقاً لرواية التوراة - إنما زار القدس، وقابل هناك «ملكاً صادقاً» كياهن الله العلي، وأنه أقام الكثير من المحارب في فلسطين، وخاصة في شكيم وبيت إيل وبلوطات ممرا عند جبرون، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون قد فعل الشيء نفسه في القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا كان صحيحاً ما ذهبنا إليه من قبل في هذه الدراسة، وفي دراسات سابقة لنا (دراسات في تاريخ العرب القديم، دراسات تاريخية من القرآن الكريم) من أن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى البيت الحرام حوالي عام ١٨٢٤ ق.م، ومن ثم يصبح بناؤه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً (أي حوالي عام ١٧٨٤ ق.م)، أمراً مقبولاً، وانظر: دراسة تفصيلية عن «بناء المسجد الأقصى»: محمد يومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ١١٥/٣-١٢٨، بيروت ١٩٨٨.

يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، إلى تحت جناحي الكروبيين، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن الكهنة ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الرب إنما «يسكن في الضباب»^(١)، ولعل هذا هو السبب في أن «التابوت» قد وضع في «قدس الأقداس» ليكون عرشاً للحضرة الربانية الخفية.

ونقرأ في سفر الملوك الأول (٨: ٢٢-٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى ربه، والتي ينهض بعدها من أمام المذبح، ويداه مبسوطتان إلى السماء، ثم يقف ويبارك كل جماعة إسرائيل، ثم يعلن النبي الكريم أمام خراف إسرائيل الضلالة - والتي اتهمته كذباً وزوراً - أنه قد ارتد في أخريات أيامه عن ديانة آبائه^(٢) - قائلاً: «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا، وإذ تسيرون في فرائضه وتحفظون وصاياه»^(٣) ثم يشكر الرب على أنعمه التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه أن يجيب دعوات بني إسرائيل، حين يدعونه في هذا البيت، وأن يغفر لهم خطاياهم^(٤).

وتنتهى الاحتفالات بتقديم الذبائح لإله إسرائيل، والتي بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فدشن الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب»^(٥)، وهنا لست أدري سبباً لكثرة هذه الضحايا التي تقدم من سليمان إرضاءً لربه يهوه، إلا أن يكون ذلك من قبل المبالغة المعتادة في التوراة وليس - كما يرى لوبون^(٦) - إرضاءً لميول إله سليمان الدامية، فمهما كانت هذه الميول الدامية،

(١) ملوك أول ٨ : ١-١٣ .

(٢) ملوك أول ٨ : ٦٠-٦١ .

(٣) ملوك أول ٨ : ٦٢-٦٥ .

(٤) ملوك أول ١١ : ٤-١١ .

(٥) ملوك أول ٨ : ٢٥-٤٠ .

(٦) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٧٠ .

ومهما كان حب «يهوه» لإراقة الدماء ومطالبتة بالقرايين البشرية - فضلاً عن القرايين الحيوانية - فليس من المقبول منطقياً أن يستمر سليمان يذبح أو يأمر بالذبح، بلا انقطاع، لمدة أسبوع كامل.

وأيما ما كان الأمر، فإن التوراة إنما تصف هيكل سليمان وقصره في سفر الملوك الأول (٥-٨) وصفاً خيالياً، وتصورهما في حالة من الجلال والعظمة ومع ذلك فيجب علينا أن نتذكر جيداً، أننا لو استخرجنا من قصة التوراة نفسها أطوال معبد سليمان، لوجدنا أنه في الإماكن وضعهما داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي^(١)، بل إن مساحة هذا المعبد أصغر بكثير من «قبة الصخرة»، ويكاد يقل عن نصف ارتفاعها^(٢).

ومن هنا يرى «هربرت ويلز» أن سفر الملوك الأول قد أسهم في تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته، ولكن الحق إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحوتمس الثالث أو رعمسيس الثاني، أو نفر من الفراعين الآخرين، أو سرجون الثاني أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات^(٣)، وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية، ليعملوا في إقامة الهيكل، يعتقدون أنه إحدى عجائب الدنيا، ولا لوم عليهم، فهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونيوى، التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً^(٤).

لم ير العبرانيون معبد الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م) فى الدير البحرى^(٥)، ولم يروا معابد تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) فى

(١) H.G. Wells, A short History of the World, 1965, p. 77.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 348.

(٣) H.G. Wells, The Outline of History, p. 287.

(٤) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٥) انظر: محمد أنور شكرى، العمارة فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٠٧-٤٠٩، جيمس بيكنى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ومراجعة محمد جمال الدين مختار، الجزء الثالث، ص ٨٩-١٠٦، (القاهرة ١٩٧٣). وكذا:

E. Naville, The Temple of Deir el-Bahari, 7 Vols., London, 1894-1908.

قفط ومدينة حابو وأرمنت، فضلا عن المعبد الكبير وصالة الاحتفالات والصرح السابع فى الكرنك، كما لم يروا معابده فى السودان وفى بلاد النوبة وفى جميع المدن الهامة فى الصعيد والدلتا، ولا رأوا مسلاته التى تزين الآن أهم ميادين المدن الكبرى فى أوروبا وأمريكا - فى القسطنطينية وروما ولندن ونيويورك - هذا على الرغم من أن تحوتمس الثالث العظيم لم يشتهر فى التاريخ كبناء، بقدر شهرته كمقاتل لا يبارى، أقام لمصر أعظم إمبراطورية عرفت فى تاريخها القديم، وكانت مملكة سليمان فيها، لا تعدو إقليمًا من أقاليمها.

وأما «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م) فهو صاحب «بى رعمسيس»^(١) والتى تنسب التوراة إليه تسخير اليهود فى بنائها، وأما عن آثاره، فيكفى أن نذكر معابه العظيمة فى أبيدوس وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى الأقصر، هذا فضلا عن أنه شاد فى النوبة أكبر وأروع معابدها، فهو الذى أمر ببناء أو حفر معابد وادى السبوع وجرف حسين وبيت الوالى والدر، وأما عن درته الرائعة فى «أبو سمبل» فلا أظن - وليس كل الظن إثما - أن المقارنة بينها وبين معبد سليمان فى إمكان أى أثرى، أو مؤرخ أن يقوم بها، أو حتى أن يجد بينهما أوجه للمقارنة الجادة، يستطيع أن يدلى بدلوه فيها، ذلك لأن معبدى أبو سمبل، هما دون ريب، من أعظم معابد مصر القديمة، إن لم يكونا أروعها جميعًا، بل إن معبد أبو سمبل الكبير، ليعتبر الوحيد من نوعه فى تاريخ العمارة البشرية، وقد فتن به كل من شاهده، حتى لقد بلغ من تأثيره على النفس أن ترك الكتاب العنان لأقلامهم لتصف ما انطبع فى نفوسهم من مشاعر، وفى قلوبهم من أحاسيس^(٢).

(١) انظر: محمد يومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٤٦-٦٢؛ وانظر للمؤلف: مصر، ٢٧٧/٣-٢٨٤.

(٢) نجيب ميخائيل، أبو سمبل، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦٢، ص ١٤.

ويدهى أننا لسنا فى حاجة إلى أن نقارن هيكل سليمان بأعمال البنائين العظماء من الفراعين، فكلنا يعرف أهرام خوفو وخفرع ومنقرع^(١)، وما فيها، أو على الأقل، ما فى هرم خوفو من الاتقان المعجز فى هندسته، والدقة فى تخطيطه وجمال نسبه، حتى كان - وما يزال - إحدى عجائب الدنيا، بل إنه - كما يقول الدكتور جون ويلسون - وثيقة من وثائق تاريخ ذهن البشرى، فهو بيئة رائعة على سطوة الإنسان فى قهر القوة المادية، لقد حقق مهندس الفرعون لنفسه والمليكه قهر الخلود بسيطرته الخالصة على القوى المادية^(٢)، وكلنا يعرف «لابرنت» أمنمحات الثالث (١٨٤٢ - ١٧٩٧ ق.م)، والذي كان يحوى ثلاثة آلاف غرفة، نصفها تحت الأرض، بينما النصف الآخر فوق سطح الأرض، والذي يصفه «هيرودوت»، كشاهد عيان، بقوله: «لقد رأيته بنفسى، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان، إذ لو قدر لامرئ أن يجمع معرضاً للمبان والآثار الفنية التى شيدها اليونان لبدت عملاً أقل من هذا «اللابرنت»^(٣).

(ب) قصر سليمان:

يبدو أن الهضبة الغربية إنما قد بدأ استيطانها على أيام سليمان، ذلك أن التوراة فى سفر الأخبار الثانى^(٤) إنما تعتبر أنه من غير اللائق أن يقيم سليمان بيوت زوجاته الوثنية على مقربة من «بيت يهوه»، ومن ثم فإن الهضبة الغربية تصبح هى المكان المناسب لتهيئة وسائل الإقامة لهؤلاء

(١) انظر: أحمد فخري، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٤٥-٢٤٠؛ محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣٤٧. وكذا:

L.E.S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1961, p. 116-169.

(٢) J.A. Wilson, in Before Philosophy, (Pelican Books), 1949, p. 105.

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم وشرح أحمد بدوي، ص ٢٨٠، (القاهرة ١٩٦٦)؛ محمد بيومي مهران، مصر، ٣٧٤/٢-٣٧٧.

(٤) أخبار أيام ثان ٨: ١١.

الزوجات^(١)، وهكذا أقيم قصر سليمان الكبير على المنطقة الصخرية التي تدعى «تل موريا»^(٢).

وكان القصر يتكون من عناصر ثلاث: «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم بالتأكيد كترسانة أسلحة^(٣)، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت^(٤)، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للاسطبلات، هذا وقد كان يؤدي نفس الغرض ثلاثة أو أربعة صفوف متوازية، صنعت من أخشاب أرز لبنان، أما «صالة الأعمدة» فلم يعرف الغرض الذي استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة»، فقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلا عن الاحتفالات الملكية^(٥).

هذا وقد وجد إلى جانب هذا القصر مباشرة من ناحية الغرب، قصر آخر، أحيط بجدار فاصل، وكان قد اتخذ مكانا لسكنى الملك والحريم، هذا وقد وجد إلى الشمال مباشرة، وفوق هضبة مرتفعة، مبنى آخر أحيط بسور خاص، اتخذ كمعبد أمامه مذبح لحرق الأضاحي^(٦).

ولقد رجح بعض الباحثين^(٧) مقارنين لإعادة تصميم مباني سليمان الدنيوية، فلقد كانت حجرات قصر العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) في «خورسباد» (دورشروكين) تتصل بمدخل عام، كما كانت الحجرات الخاصة بالملك وأهل بيته منفصلة، الواحدة منهما عن الأخرى، ولكنها تتجمع حول أفنية داخلية، وهي تشبه في ذلك قصر سليمان، هذا ويوجد في Zincirli صالة أعمدة يوجد أمامها بهو ذو مدخل،

(١) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 350. (٢) أخبار أيام ثان ٣ : ١ .

(٣) ملوك أول ١٠ : ١٦-١٧ . (٤) ملوك أول ١٠ : ١٧-٢ .

O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٥) ملوك أول ١٠ : ١٨-٢٠ ؛ وكذا :

Ibid., p. 569.

(٦)

Watzinger, Denkmaler Palastines, Leipzig, 1933, I, p. 96.

(٧) انظر :

ثم ثبت السقف بواسطة أعمدة، وتشبه الواجهة النموذج السوري، ويبدو أن حجرة الاجتماعات في أورشليم كانت تشبه نظيرتها في قصر تل حلف^(١).

وقد حاول بعض الباحثين إعادة تصميم «بيت وعربلبنان» على أساس نماذج الاسطبلات المكتشفة في مجدو^(٢)، وذلك بمقارنة ما كتب عن وسائل البناء، وما هو معروف من البحث الأثرى، وينصب ذلك بصفة خاصة على الجدار المحيط بالقصور حيث توجد طبقة من الكتل الخشبية بين كل ثلاثة مدا ميك حجرية، ولقد ظهر هذا الأسلوب في البناء في عدة أماكن في غرب آسيا^(٣).

وأنة لمن السهل نسبياً تصور العرش المصنوع من الذهب والعاج بدرجاته الست، كما وصف في سفر الملوك الأول^(٤)، ويمكن مقارنة وفرة استخدام الذهب بكرسى الفرعون «توت عنخ آمون» (١٣٤٧-١٣٣٩ ق.م)، ونماذج العروش السورية والفلسطينية المصورة على تابوت الملك الصوري أحيرام، وكذا على قطعة عاجية عثر عليها في مجدو^(٥)، هذا إلى جانب مقارنة المناظر المصورة على عرش سليمان وهى رؤوس الثيران من الخلف، والأسود التى تقف تحت الأذرع وبجانب الدرجات^(٦)، كما توجد عناصر أخرى ذات أصول مختلفة، ترجع إلى مصر وسورية وفلسطين، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأشكال البرونزية المنكوبة للمنعبد وإلى المنحوتات والأشياء المرصعة التى زينت بها أبواب وجدران معبد سليمان^(٧).

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 597; K. Gallig, BR, 1937, p. 411F.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 579; N. Mohlenbrink, Der Tempel Solomon, 1932, p. 18.

(٣) S. Smith, Timber and Bricks and Masonry Construction, P.E.Q., 83, 1941, p. 5F;

ملوك أول ٦: ٣٦، ٧: ١١-١٢.

(٤) ملوك أول ١٠: ١٨-٢٠.

(٥) G. Loud, The Megiddo Ivories, OIP, LII, 1939, p. 4; O. Eissfeldt, op.cit., p. 597.

(٦) O. Eissfeldt, op.cit. p 597.

(٧) Ibid., p. 13, 597.

(٧) القدس فى عهد حزقيا ومنسى:

يبدو أن ملك يهوذا «عزيا» (٧٨٣-٧٤٢ ق.م) قد أصلح أسوار المدينة التى دمرها القتال الذى دار بين دويلتى يهوذا وإسرائيل، ولكنه لم يضيف شيئاً إلى مساحة المدينة، وقد اضطر «حزقيا» (٧١٥-٦٨٧ ق.م) إلى تدعيم تحصيناتها لمواجهة التهديد الآشورى، إلا أن جل اهتمامه لم يكن موجهاً نحو مصدر الماء، إذا فكر الآشوريون فى قطعه عن المدينة، وذلك لأن «الصهاريج» كان قد بدئ فى إقامتها داخل المدينة نفسها، كما أن المدخل القديم، والذى يرجع إلى ما قبل الوجود الإسرائيلى بالمدينة لم تعد له فائدة، وبالتالى فإن «عين العذراء»، لم يعد لها دور رئيسى فى حياة المدينة، فيما يختص بإمدادها بالماء، بعد أن أصبحت تعتمد على «الصهاريج» وأصبح «ينبوع العذراء» يستخدم فى رى حدائق الخضروات التى على نهاية الطرف الأسفل لـ «قدرون»^(١) كما أن النفق القديم لم يعد صالحاً لأداء وظيفته بسبب تغير جغرافية المدينة، ومن ثم فقد أقيم بدلا منه نفق عبر «تل أوفل» The Hill of Ophel من منحدرات الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، والتى كانت وقت ذاك داخل أسوار المدينة، وهكذا كانت مياه ينبوع تصب فى بركة السلوام Siloam، والتى مازالت تجرى فيها المياه^(٢)، أضف إلى ذلك كله، أن حزقيا إنما قد أصلح من سور سليمان وحصنه، فضلا عن إقامته سور آخر^(٣).

والى هذا كله، تشير التوراة فى سفر أخبار الأيام الثانى، «ولما رأى حزقيا أن سنحريب قد أتى ووجهه على محاربة أورشليم تشاور هو ورؤسائه

(١) ملوك ثان ١٨: ١٧، ٢٥: ٤؛ أخبار ثان ٣٢: ٢-٤، ٣٠؛ وكذا:

R.A.S. Macalister, op.cit., p. 350-351.

K.M. Kenyon, op.cit., p. 287.

(٢)

R.A.S. Macalister, op.cit., p. 351.

(٣)

وجبايرته على طم مياه العيون التي هي خارج المدينة فساعده، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجارى فى وسط الأرض، قائلين: لماذا يأتى ملوك آشور ويجدون مياهًا غزيرة^(١)، وتقول: «وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود، وأفلح حزقيا فى كل عمله»^(٢).

هذا وقد كشف فى عام ١٨٨٠ م عند السور الصخرى للمدخل السفلى للنفق، جنوبى المعبد، عن نص عبرى يرجع إلى أيام الملك حزقيا، ومنه نعرف أن العمال كانوا ينحتون فى جوف الليل من ناحيتين متقابلتين، واستمر العمل إلى أن تقابل العمال من الطرفين وسط النفق، وفى مكان التقائهما وضع هذا النقش، وفى حفريات أعوام ١٩٠٩-١٩١١ م، أخلى النفق، ورغم أن النتائج لا تعطى تأكيدات دقيقة تتفق والرأى التقليدى، الذى ينسب هذا العمل إلى حزقيا، فإن «الأب فنسنت» قد أثبت كيف نفذ هذا العمل وكيف اتبع خط النفق مجرى متعرجاً بدرجة غريبة لم يقدم له تفسيراً كلياً بدرجة مقبولة تماماً، وإن كان من المفترض أنه فى أحد أجزائه يتعد عن المقابر الملكية القديمة^(٣).

وعلى أى حال، فلقد أثبتت الحفائر التى أجريت فى عام ١٩٦١ م بشكل مؤكد أن الحافة الغربية، أو على الأقل نهايتها الجنوبية، كانت لا تدخل فى نطاق المدينة حتى القرن الأول الميلادى، ولكن إذا تأكد لنا ذلك، فعلى أن نبحت عن تفسير لقيام حزقيا بعمل مورد المياه من ينبوع جيحون إلى سكان أورشليم، مع أنه كان فى إمكانه أن يأتى بالمياه من بركة سيلوام فى الوادى الأوسط، وإذا نظرنا إلى ذلك فى أيامنا هذه، فإننا نجد مصاعب

(١) أخبار أيام ثان ٣٢: ٢-٤.

(٢) أخبار أيام ثان ٣٢: ٣٠.

(٣) Kathleen M. Kenyon, Archaeology in the Holy land, London, 1970, p. 287-288.

كبرى تقف في وجه تحقيق ذلك فالوادي الأوسط ضيق في هذا الموضع، والجافة الغربية منحدره انحداراً شديداً وإذا افترضنا أن هناك سوراً بنى بشكل دائري من رأس الحافة الشرقية ليضم البركة، فإنه لا بد من أن يمتد ليشمل أسفل الحافة الغربية في مكان لا يشكل وجوده خطراً عسكرياً، بمعنى أنه لا يكون مرتفعاً بدرجة تمكن المهاجمين من رؤيته على الحافة الغربية.

والراجع أن المياه التي كانت تتدفق من ينبوع جيحون تنساب إلى حوض في الوادي الأوسط داخل فتاة منحوتة في الصخر، وكان يستمر تدفقها إلى الجنوب في قناة على طول الجانب الغربي للحافة الشرقية، ولا يمكن قبول هذا الافتراض الأخير في أيامنا هذه، لأنه من السهولة بمكان افتراض أن المياه تجري وسط الوادي، والتفسير المعقول، هو أن الخزان نفسه كان مغطى بالصخر، وأنها في الحقيقة لم تكن بركة، بل خزاناً للمياه، مع افتراض أنهم حين يصرون تدفقها على السطح، فربما خدعوا أنفسهم بتمرير مياهها على كتل من الصخر لتقويتها عند منحدر وادي قدرون، وإذا صح الافتراض الخاص بالحوض المغطى بالصخر، وأنه كان جميعه منحوتاً في الصخر، عند ذلك سوف تختفي العقبات، وليس هناك أي داع لوجود خزان داخل حوائط، وكل ما كان يجب اتخاذه نحو المحافظة على هذا الخزان، هو حماية المدخل إليه بأية وسيلة من وسائل الدفاع.

وليس هناك من شك في أن سقف هذا الخزان قد انهار، وقد اختفت كل الحقائق الدالة عليه في أعماق البركة الحالية، كذلك اختفت أيضاً الاستحكامات الدفاعية التي كانت قائمة حول المدخل^(١).

وأما في عهد «منسى» (٦٨٧-٦٤٢ ق.م) الطويل، فقد زادت المدينة من ناحية الشمال، كما بنى منسى كذلك سوراً، اشتمل على «باب

(١) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٦-٨٧.

السمك» الذى نسمع عنه لأول مرة، والذى يجب أن يكون فى الجانب الشرقى من المدينة، ومن ثم فإن منسى إنما يعتبر هو الذى أنشأ هذا السور^(١).

(١) أخبار أيام ثان ٣٣ : ١٤ ، نحميا ٣ : ٣ ، ١٢ : ٣٩ ، وكذا :

R.A.S. Mecalister, op.cit., p. 351.

الباب الثامن

عصر الانقسام

الفصل الأول الانقسام وأسبابه

في عام ٩٢٢ قبل ميلاد المسيح، عليه السلام، ينتقل سليمان إلى جوار ربّه - راضياً مرضياً، عنه، ولو كرهت يهود - ولكنه في اللحظة التي دفن فيها، إنما دفن معه، حلم إسرائيل، في أن تكون قوة لها كيان بين جيرانها من دويلات فلسطين وسورية، إذ سرعان ما تفشى الشقاق القبلي القديم بين الإسرائيليين، ومن ثم فقد انقسمت دولتهم إلى دويلتين، الواحدة في الشمال، وتدعى «إسرائيل» والأخرى في الجنوب، وتدعى «يهوذا».

وترجع التوراة في سفر الملوك الأول - دون أن تقيم أى اعتبار للنبيّ الكريم - أسباب انقسام المملكة الإسرائيلية إلى إقبال سليمان على ملذاته وحبه لنساء كثيرات، تزوج من بعضهن، واتخذ من البعض الآخر سرايا، هذا فضلاً عن أن هؤلاء النسوة إنما كن من المصريات والمؤابيات والعمونيات والصيدونيات والحيثيات ممن قال ربّ إسرائيل عنهن لشعبه إسرائيل: «لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاثة مئة من السراي، فأملت نساؤه قلبه»^(١).

وسواء أكان عدد نساء سليمان ألفاً، كما تقول التوراة، أوستين أو ثمانين على التوالي، كما يقول المؤرخون، وسواء أراد سليمان من وراء هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقيا، أو أن الباعث له على ذلك هو نفس الباعث الذي حمل رعمسيس الثانى على هذا العمل بعينه وهو رغبته

(١) ملوك أول ١: ١١-١٣.

فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو شخصياً^(١)، فإن سليمان - رغبة منه فى مرضاة زوجته وسراريه^(٢)، أو إرضاء للشعوب التى اتصل بها طبقاً لما أملت عليه الظروف السياسية والمخالفات الأجنبية والزواج والعلاقات الاقتصادية - أخذ يقيم هياكل صغيرة ودوراً لعبادة الآلهة الأجنبية، بجوار هيكل يهوه، ومن ثم فقد بات إله إسرائيل، ليس الإله الواحد، أو الإله فحسب، وإنما مجرد إله قومى^(٣)، بل والأدهى من ذلك وأمر، أن القوم - فيما يرى البعض - قد مارسوا فى هيكل يهوه نفسه طقوس عبادة الشمس المصرية، والذبائح والتقدمات الكتعانية، وحفلات بلاد النهرين الدينية، مثل المراثى على «تموز»^(٤) وقد أدى ذلك كله إلى تمزيق الوحدة الدينية بين القوم، والتى كانت بدورها سبباً فى تمزيق الوحدة الوطنية^(٥).

وأياً ما كان الأمر، فإن سليمان - فيما ترى التوراة^(٦) - يختم حياته، وغضب الرب - والعياذ بالله - قد حل عليه، «لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل»، ولم يحفظ ما أوصى به الرب، ومن هنا، ولأن سليمان لم ينفذ وصايا الرب، حتى تحول من موحد إلى مشرك، وهو يدرك تمام الإدراك أن رب إسرائيل إنما هو إله غيور يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء، فى الجيل الثالث والرابع من مبعضيه^(٧)، لهذا كله فقد شاءت إرادة رب إسرائيل أن تمزق مملكة سليمان لينعطىها لعبد سليمان، ولكن تقديراً لعبد داود، ولأورشليم مدينته، يؤجل ذلك إلى ما بعد موت سليمان، بل ويعطى كذلك ولده من بعده واحداً من أسباط إسرائيل، ليكون ملكاً على هذا السبط دون بقية الأسباط، وهكذا - وطبقاً لرواية التوراة - ما أن انتقل سليمان إلى جوار

(١) أول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٣. (٢) ملوك أول ١١: ٤-٨.

(٣) I. Epstein, Judaism, 1970, p. 37.

(٤) حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٧٢، (دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة).

(٥) I. Epstein, op.cit., p. 37. (٦) ملوك أول ١١: ١-١١.

(٧) خروج ٢٠: ٥.

ربه، حتى حققت على نسله نقمة الرب، فأنفذ وعيده ومزق مملكته بين رحبعام ولده، ويربعام عبده^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه النصوص التي تجعل انقسام المملكة بسبب غضب الرب على سليمان، لأنه لم يحفظ وصاياه لأن قلبه مال عنه، أقول هذه النصوص التوراتية جمعاء، إنما تتعارض تعارضاً تاماً، وما سبق أن روته نصوص توراتية أخرى، من أن رب إسرائيل نفسه قد منع داود، كما رأينا من قبل، من أن يقيم له هيكلًا، لأنه سفك دماء كثيرة، وأن الذي سيقوم له ذلك هو ابنه سليمان ذلك لأنه - طبقاً لرواية سفر الأخبار الأول - «يكون لي ابنًا وأكون له أبًا، وأثبت كرسي مملكته إلى الأبد»^(٢).

ولست أدري أى نصوص التوراة نصدق؟ أثلك التي ترى أن الرب سوف يثبت مملكته إلى الأبد؟ أم تلك التي ترى أن رب إسرائيل نفسه سوف يقسم مملكته بين ابنه وبين عبده، فيعطى عبده منها عشرة أسباط، ولا يترك لولده منها إلا سبطًا وبعض سبط، وليس ذلك إلا من أجل داود، لأن سليمان مال قلبه عن الرب، أم أنه التعارض الذي عهدناه في نصوص التوراة، حتى جعلت داود مغضوباً عليه في الأولى، مرضياً عنه في الثانية، وجعلت سليمان مرضياً عنه في الأولى، مغضوباً عنه في الثانية.

ومن هنا - علم الله - أننى لا أدري أين الحقيقة في كل ذلك، وأيهما المغضوب عليه، وأيهما المرضى عنه؟ ذلك لأن التوراة إنما تكيل المديح للواحد منهما في نص، وتلقى عليه التهم جزافاً في نص آخر، حتى لقد بات من العسير علينا أن نتبين أى النصوص هو الصادق، وأيهما هو الكذوب، وإن كان النبيان الكريمان - فيما أومن به الإيمان كل الإيمان - براء من كل تهم بنى إسرائيل، وشطط يهود، فهما من تلك الصفوة المختارة من أئمة

(١) ملوك أول ١١: ١١-١٣.

(٢) أخبار أيام ٢٢: ٦-١٠.

البشرية، ممن حُبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكَرِه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، هذا فضلاً عن أن التوراة إنما تمتلئ صفحاتها بمدح سليمان، حتى أنها تروى في سفر الأخبار الأول^(١)، أن الرب قد اختاره ابناً له، بل وإن هناك من أسفار التوراة ما ينسب إلى سليمان كنيشد الإنشاد والأمثال والجامعة، هذا إلى جانب غيرها مما يطلق عليها علماء التوراة اسم «الأسفار الخفية»، مثل أسفار أمور سليمان وحكمة سليمان وغيرهما.

يذهب بعض المؤرخين إلى أن من أسباب الثورة على سليمان والتي أدت إلى انقسام دولته بعد مماته، من أن إسرائيل إنما كانت تئن تحت جور العسف، وكانت تترقب الفرصة للثورة، تخلصاً من السخرة والضغط اللذين نستطيع أن نتخيلهما من قول التوراة في سفر الملوك الأول: «وسخر الملك سليمان من جميع إسرائيل، وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل، فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف في الشهر بالنوبة، يكونون شهراً في لبنان وشهرين في بيوتهم، وكان «أدونيرام» على التسخير، وكان لسليمان سبعون ألفاً يحملون أحمالاً، وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل، ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة من المتسلطين على الشعب العاملين العمل، وأمر الملك أن يقطعوا حجارة كبيرة، حجارة كريمة، لتأسيس البيت، حجارة مربعة»^(٢)، ثم تشير مرة أخرى إلى ذلك بعد وفاة سليمان، حين أتى شيوخ إسرائيل إلى ولده «رحبعام» قائلين: «إن أباك قسى نيرنا، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أيك القاسية، ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك»^(٣).

هذا إلى أن هناك فريقاً من الباحثين، إنما يذهب إلى أن التذمر قد بدأ على أيام سليمان نفسه، عندما بدأ التناقض واضحاً بين ترف العاصمة

(١) أخبار أيام أول ٢٨ : ٩ .

(٢) ملوك أول ٥ : ١٣-١٧ .

(٣) ملوك أول ١٢ : ٤ .

أورشليم، وبين الفقر النسبي الذى كانت تعيش فيه المناطق الأخرى، بسبب الضرائب الثقيلة التى كانت مفروضة عليها، والتى زادت كثيراً عندما ضاعمت أدوم ومناجمها الغنية بالنحاس^(١)، هذا فضلاً عن أن سليمان إنما كان قد أعفى منطقة سبط يهوذا - أو على الأقل الإقليم الجبلى منها - من الإسهام بنصيبها فى تزويد موارد الملك، كغيرها من الاثنى عشر إقليماً، الأمر الذى أشرنا إليه من قبل، وقد أدى ذلك إلى تمرد قائده «يربعام» الذى فر إلى مصر^(٢)، والتى كانت - على ما يبدو - ملجأً لأعداء سليمان، وربما أصبحت لم تعد تبادل الصداقة، كما أنه كان من الطبيعى، أنها ما كانت ترغب فى أن ترى فلسطين قوية فى عهده^(٣)، وهكذا حدث الانقسام بعد وفاة سليمان مباشرة، والذى يعد مسئولا عنه بسبب تحيزه لأورشليم ويهوذا^(٤)، والتى كانت رغم ذلك لا ترتبط بالأسرة المالكة برباط الدم، بقدر ما ترتبط بها برباط الرخاء الاقتصادى، الذى نتج عن السياسة الملكية إزاءها، وعن وجود العاصمة بها إلى حد ما^(٥).

ويضيف المؤرخون إلى أسباب الانفصال كذلك، أن الشعب قد تحمل كارهاً جميع نفقات مباني سليمان ونفقاته هو وحاشيته وجيشه، فكان الناس لا يفيقون من ضريبة، حتى تصرعهم إدارة الضرائب بأخرى وأخرى، هذا إلى جانب المبالغة فى الإنتاج للتصدير للحصول على الأموال الضرورية لهذا المجتمع الجديد، الذى لم يكن فى الواقع إلا الملك وحاشيته وجيشه وأعوانه الذين ابتدعوا مختلف الوسائل لإنماء الدخل وازدهار الاقتصاديات، كما أجبر سليمان القبائل الشمالية على شراء حاجياتهم من تجاره الخصوصيين، وبالغ سليمان فى احتكار وسائل كسب العيش فلم يترك من وسائله وسيلة لرزق إلا وقبض عليها.

A. Lods, op.cit., p. 370-371. (٢)

K.M. Kenyon, op.cit., p. 258. (١)

Stanley, A. Cook, CAH, III, 1965, p. 358.

(٣)

C. Roth, op.cit., p.

(٥)

A. Lods, op.cit., p. 371-372. (٤)

وكانت النتيجة المنتظرة لهذا الاحتكار الملكي للاقتصاد العام للملكية إثراء الحاشية، والطبقة الخاصة التي أسند إليها الملك هذه الأعمال الاقتصادية، فظهر في المجتمع الإسرائيلي طبقة قوامها الحاشية والموظفون التجاريون، وقد أصبحت هي صاحبة الجاه والثروة، وسال الذهب في خزائنها فتطورت الحياة الاجتماعية الصاخبة في المدن التي أخذت تشتهر بلياليها الحمراء، أما السواد الأعظم من الشعب فقد انزوى، واكتفى بالزراعة والمهن الصغيرة التي لا تقوم بأوده وذلك لاضطراب الحياة الاقتصادية، وظهور طبقة غنية تشتري كل حاجياتها بأفدح الأثمان، بينما عامة الشعب تئن وترزح تحت نير ارتفاع الأسعار وتكاليف الحياة، فتمزق المجتمع الإسرائيلي داخلياً - وللمرة الأولى في تاريخه - فأوجد هذا الوضع حالة تدمير ضد الحكم^(١).

واستغلت المعارضة الساخطة الخائفة تعاون سليمان الديني، وإقامة كثير من دور العبادة الأجنبية في البلاد، وتكتلت معظم الأسباط الإسرائيلية ضد هذا الحكم السليماني المطلق، فظهرت في أخريات عهده في مدينة «شيلوه» - والتي يرجح أنها سليون الحالية على مبعدة ١٧ ميلاً شمال أورشليم - حركة ثورية عامة مناهضة لسليمان وسياسته، وقد تزعم هذه الثورة النبي «أخيا» الشيلوني^(٢).

وأخيراً فإن هناك من المؤرخين من يرى أن من أسباب الانفصال أن سليمان أنما قد تعجل حينما أراد أن يحول البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية، وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب، ولما أن تمت بعد عشرين عاماً من العمل المتواصل، وجدت في أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسي والفساد الاجتماعي في فلسطين^(٣).

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ملوك أول ١١: ٤-٨، ٢٩-٣٩؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٣) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٤٨.

وهكذا - نرى التوراة - وكذا كثير من المؤرخين والباحثين - أن سليمان مسئول عن انقسام مملكة إسرائيل، إلى دويلتين، الواحدة إسرائيل، والأخرى يهوذا - ناسين أو متناسين - أن سليمان العظيم، هو الذى جعل من إسرائيل شعباً معروفاً فى التاريخ، وسليمان هو الذى مدّ شهرة الإسرائيليين، وصنع لهم كياناً، وسليمان هو الذى أنشأ معبداً ظل قروناً طويلة، الهيكل الوحيد لهم، وملاذهم فى وقت الضيق، كان سليمان نقطة تحول فى حياة إسرائيل، ذلك لأنه علم شعبه فضل القانون والنظام، وبثّ فى النفوس مبادئ الوحدة، وأهمية الالتفات إلى الصنعة، فزادت الثروة، وتضاعفت بفضل تشجيعه للتجارة والتجار الفينيقيين، بتسيير قوافلهم داخل أرض فلسطين وإنشاء أسطول البحر الأحمر، وإغرائه حيرام على استخدام هذا الطريق (بدلاً من طريق مصر) للتجارة مع بلاد العرب وأفريقيا^(١).

وانطلاقاً من هذا، فالرأى عندى أن أسباب انقسام دولة سليمان بعد موته مباشرة، إنما ترجع - فى الدرجة الأولى - إلى ظروف المملكة الإسرائيلية نفسها - وليس إلى التهم البذيئة تارة، والظالمة تارة أخرى، والمبالغ فيها جد المبالغة تارة ثالثة، التى تلصقها التوراة بالنبيّ الكريم - صلوات الله وسلامه عليه.

كان الانقسام الخاتمة الحتمية لظروف هذه المملكة، فمن المحقق - فيما يروى سيجموند فرويد - أن ثمة عناصر متباينة قد ساهمت فى تكوين الشعب اليهودى، غير أن الحقائق البارزة إنما تثبت أن الأمة اليهودية إنما تكونت من اتحادين لفريقين مختلفين، أو قل من اتحاد فريقين، وطبقاً لهذه الحقيقة فقد أقدمت الأمة اليهودية - بعد فترة قصيرة من الوحدة السياسية - على الانقسام مرة أخرى إلى جزأين، الواحد يهوذا، والآخر إسرائيل^(٢).

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٢٧٧-٢٧٨، (الإسكندرية ١٩٦٦).

Sigmund Freud, Moses and Monotheism, N.Y., 1939, p. 44.

(٢)

وهكذا كان اجتماع هذه المجاميع المتنافرة، في بادئ الأمر، أمراً يثير العجب حقاً، وكان من الطبيعي بعد أن اختفى العنصر الذي يستطيع أن يضم بعضهم إلى بعض، أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من قبل، كانت حاجيات الدفاع عن النفس سبباً في إقامة وحدة سياسية بين القبائل العبرية في وقت كان فيه المرقف التاريخي موثياً على نحو فريد لإقامة مملكة وتوسيعها، ولكن تلك المملكة كانت قائمة على أساس غير ثابت.

ولم تستطع سياسة التركيز والتوطيد التي اتبعها ملوك إسرائيل العظام - كداود وسليمان، عليهما السلام - القضاء تماماً على عوامل الهدم داخلها، وكان أقوى عوامل الهدم هذه، التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل قضى هو نفسه على دولة إسرائيل^(١)، إذ لازمتهم آفتهم القديمة، الدائمة أبداً، بعد إقامة المملكة وتعاقب العروش، فلم يفارقوا نظام القبيلة، بعد محاكاتهم لجيرانهم في نظام الدولة، ولبثوا في دولتهم - كما لبثوا في هجرتهم - قبيلة معزولة عن الأم، بل سبطاً معزولاً عن سبط في داخل القبيلة وظلت لهم شريعة «العصبية القبلية» دستوراً يصلح لهم وحدهم في تقديرهم، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التي تجمعهم في كل تقدير، وظلوا يحصرون العصبية في أضيق حدودها بين الأسباط في القبيلة الواحدة، ويتشددون في حصر كل سبط بميراثه إلى أعقاب الأعقاب^(٢).

ونقرأ في التوراة أنه «لا يتحول نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلازم بنو إسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني إسرائيل، تكون امرأة لواحد من عشيرة أبيها، لكي يرث بنو

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤١. وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 475, 585-586.

(٢) عباس العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٥٩-٦٠، (القاهرة ١٩٦٠).

إسرائيل كل واحد نصيب آبائه، فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلزم أسباط بنى إسرائيل كل واحد نصيبه»^(١).

أضف إلى ذلك الغيرة القديمة بين سبطى يهوذا وأفرام، التى ترجع إلى وقت دخولهم أرض كنعان^(٢)، ومن هنا يتجه البعض إلى أن الأسباط التى انتسبت إلى يوسف - إلى «بيت يوسف» كما يقولون - أفرام ومنسى، وأحياناً سبط بنيامين - ذرية يعقوب من زوجه الأثيرة راحيل - ربما كانوا أصلاً الأقوام التى تفردت فتتمسك وحدها لأحقاب طويلة بلقب «بنى إسرائيل» مما دعى إلى أن يتصدى لهم شتيت من كهانة «بيت يهوذا» يستنزلون عليهم اللعنات، متهمين إياهم بالمروق عن صراط «يهوه» القويم، فينتزعوا انتحالاً لبيت يهوذا ومن لف لفهم، مكانة «إسرائيل الصديق»؛ فهم شرعاً - دون شعوب الأرض جميعاً - أصحاب تلك الحقوق والوعود التى بذلها الرب لمن اصطفى وتخير^(٣).

بل إن العلاقات بين يهوذا وإسرائيل كانت تسودها دائماً الشكوك والريبة وسرعان ما تجددت العداوة بينهما، وادعى رجال الشمال بأن لهم فضل البكورية على يهوذا، كما أن قصص القائد «يوآب» - ابن صروية أخت داود، ورئيس جيشه، وقاتل أبير وعماسا - كانت رمزاً للغيرة الداخلية العميقة، التى هزت مراراً وتكراراً المملكتين - الإسرائيلية واليهودية - فى العصور التالية^(٤).

هذا فضلاً عن أن المملكة إنما كانت تنقسم إلى قسمين متباينين الواحد فى الشمال، ويسكنه شعب مزارع، ويعيش فى أرض خصبة تجود

(١) عدد ٢٦: ٧-١٠.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٠/١.

(٣) حسين ذو الفقار صبرى، إنما الأمور بأصولها، «المجلة»، العدد ١٥١، يوليه ١٩٦٩، ص ٧.

S.A. Cook, CAH, II, 1931, p. 363.

(٤)

بمحاصيل مختلفة، والآخر في الجنوب، ويسكنه شعب رعوى يعيش بقطعانه في المرتفعات الصالحة لرعى هذه القطعان، كانت إسرائيل تقيم علاقات تجارية نشطة مع فينيقيا وسورية، وقد أصبحت بحكم موقعها على مفترق الطرق المؤدية إلى آسيا وبلاد النهرين ومصر، بلداً تجارياً، في الوقت الذي بقيت فيه اليهودية الواقعة في القسم الجبلي الأصعب منالاً بلد الرعاة المتخلف^(١)، وإن هذا في الحقيقة أمر لا بد منه، فقد كانت «إسرائيل» متصلة جغرافياً بفينيقيا مباشرة، والأقطار الأخرى المتحضرة من ناحية الشمال كذلك، أما «يهودا» فقد كانت باباً مغلقاً بين إسرائيل - والتي عادة في حالة حرب معها - وبين ممالك عبر الأردن المحاربة من ناحية الشرق، والصحراء من ناحية الجنوب^(٢).

أضف إلى ذلك أن القبائل الشمالية إنما كانت أكثر تأثراً بحضارة الكنعانيين ومزاولة طقوسها الدينية على نمط طقوسهم، وذلك لأنها كانت أكثر تقبلاً لتأثيرات الشعوب غير العبرية، والتي كانت على اتصال مستمر بها، بينما ظلت يهوذا منعزلة في تلالها تعيش عيشة بسيطة، وتزاول طقوساً أكثر بساطة، بالرغم من أن عاصمة سلميان كانت فيها^(٣).

وجاءت الأزمة الاجتماعية أكثر عمقاً وأشد خطراً، كانت الحياة البدوية قد فرضت نظام حياة، وإن لم يكن ديموقراطياً، بالمعنى الصحيح، فقوامه المساواة بين الشعب، وذلك بفضل اشتراكية الأموال والأموال، فأزالت الحياة الحضرية رويداً رويداً، ثم أفضى الاقتصاد التجاري الذي شجعت الملكية إلى التفاوت الاجتماعي، وذلك بوضع الأغنياء والفقراء جنباً إلى

(١) يورى إيفانوف، إحدروا الصهيونية، ص ١٣، وكذا:

V. Scranuizza and Mackendich, Ancient World, p. 85.

K.M. Kenyon, op.cit., p. 260.

(٢)

(٣) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

جنب، فهاج في النفوس الحنين إلى الحياة البسيطة، ولم تستطع تقاليد العبرانيين البدوية أن تكيف نفسها وفق الملكية في يسر، فعلى الرغم من أن الملكية كانت أمراً لا مناص منه، لكى تشغل إسرائيل مكاناً في الميدان السياسى فى الشرق القديم، كانت روح أهلها الاستقلالية البدوية تعرقل الملكية، وتنال منها، وقد استعان معارضو السلطة الملكية بالسلطة الدينية، فأوجدوا داخل الدولة ثنائية أخرى، إلى جانب ثنائية الشمال والجنوب، ولم يلبث «شاول» - أول ملوك إسرائيل - أن اصطدم بالكهنة، وكان هذا هو السبب الأساسى لسقوطه، ومجىء داود بعده.

وقد أدرك داود وسليمان القوة المركزية الدينية وسلطة الكاهن الأكبر، فاتبعوا السياسة التى يتبعها الأباطرة والملوك دائماً فى مثل هذه الأحوال، وذلك أنهما قد بسطا «حمايتهما» على الدين، وألحقا الكاهن الأكبر ببلاطهما، وجاهدا ليجعلا الهيئة الدينية إدارة من إدارات الدولة، وكان أثر هذه السياسة هو ذلك الأثر الذى أورد لنا التاريخ أمثلة كثيرة أخرى له، فقد سلك الكهنة بطبقاتهم المختلفة مسلك موظفى الدولة، فانصببت الكراهية عندئذ على الدولة والدين الرسمى معاً، وحدث صدع بين الدين الرسمى والآمال الدينية لأولئك الذين كانوا ينظرون إلى الدين على أنه أكثر من شكل جامد، وتطور التوتر إلى معارضة، وكان الأنبياء بعد انقسام المملكة لسان هذه المعارضة، فقيام الأنبياء كان مظهرًا تلقائيًا لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التى فرضها الحكم الملكى على الدين^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فإن السبب المباشر لانقسام المملكة إنما يرجع إلى حماقة «رحبعام» بن سليمان، فى مجتمع عام، حدث ذلك حين اجتمعت قبائل مملكة إسرائيل فى «شكيم» - على مبعده ٦ أميال إلى الشمال الغربى من السامرة، ٣١ ميلاً شمال أورشليم - وأتى «رحبعام» إلى هناك، وأرادت

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤١.

القبائل الإسرائيلية أن تجعله هي ملكاً وخليفة لأبيه سليمان، أى أن هذه القبائل إنما أرادت أن تناقش معه أمر التعيين، وأن يعملوا شروطهم، وهذا يعنى أن القبائل الإسرائيلية لم تعترف بالوراثة التقليدية التى حدثت فى الحالات الضرورية، كالتى تبعت سقوط «شاول» بسبب نفوذ «أبشير» المهاب، ومرة أخرى عند وفاة داود، بسبب قوة سلطته الشخصية العظيمة، ومثلها كان من قبل فى حالة تنويع «شاول» ملكاً، وفوق كل شىء، عندما اختير داود ملكاً على إسرائيل، وهكذا فإنهم إنما أرادوا أن يمنحوا التاج بأنفسهم لرجعهم، وأن يعقدوا معه ميثاقاً، وقد أعطوه أفضلية على غيره، بصفته الابن الأكبر لسليمان العظيم، ولكنهم طلبوا منه تأكيداً بإنهاء الأعباء التى أصبحت لا تطاق منذ أيام سليمان، ويدهى أن من هذه الأعباء الجزية النوعية، طالما أن المدينة الكنعانية السابقة هى التى احتضنت الحركة والأمر كذلك بالنسبة إلى السخرة^(١).

ويبدو أن فريقاً من المؤرخين قد وجد غرابة فى أن ملكاً، كان له الحق - كما كان لأبيه من قبل، ولابنه من بعد - فى أن يجلس على العرش بحق الوراثة، ومع ذلك فهو يرضى بأن يطرح حق وراثة العرش للتصديق الشعبى، ومن هنا فإن هذا الفريق من المؤرخين إنما يستنتجون أن «اجتماع شكيم» إنما كان اجتماعاً ثورياً قصد منه الملك محاولة استعادة الإسرائيليين الذين تمردوا من قبل، وليس لتنصيبه ملكاً، كما تقول التوراة^(٢)، ولكن حكم الوراثة المطلق لم تكن قد ثبتت أقدامه بعد فى إسرائيل، حتى يستطيع الملك أن يعفى من متاعب الحصول على الموافقة الشرعية، سواء فيما يختص بتعاقب الملوك، وبخاصة فى أوقات المحن^(٣)، أو حتى فى أمور التشريع الهامة^(٤).

M. Noth, op.cit., p. 226-227.

(١)

(٢) ملوك أول ١٢: ١-١١.

(٣) صموئيل ثان ١٦: ١٨؛ ملوك أول ١: ٤٠، ٢: ١٥؛ ملوك ثان ١١: ٤-٢٠، ٢٣: ٣٠.

(٤) ملوك ثان ٢٣: ٢٣؛ لرمياء ٣٤: ٨-٢٢.

ومن هنا، فإنه من المسلم به أن الملك - وقد أدرك الحالة القلقة التي كانت تسود الشعور العام وقت ذاك - رأى أنه من الحكمة السياسية أن يبدى اهتماماً خاصاً برعاياه الشماليين، وذلك بأن يجيء إليهم في عقر دارهم، ليعلن نفسه ملكاً بينهم، ومع ذلك كله، فعلينا ألا نتسى أن «اجتماع شكيم»، كان يعنى مواجهة من المتمردين للملك، ومن هنا فعلينا أن نرفض بقية الرواية كلها^(١).

وعلى أى حال فإن شيوخ القبائل حين تقدموا إلى «رحبعام» طالبين منه أن يخفف عنهم عبء الضرائب التي أثقل بها والده كاهلهم، فإنه قد ذهل عن هذه المطالب، وأمهلهم ثلاثة أيام قبل أن يرد عليهم، وحين انتهت المهلة لم يكن رحبعام موفقاً في الرد عليهم، فقد كان الأحرى به أن يقابل الموقف الخطير بكياسة ولباقة، ولكنه ركب رأسه في عناد يستره الضعف عادة، وأجاب شيوخ القبائل جواباً غليظاً، رغم أن الشيوخ من مستشاريه نصحوه بالاستجابة إلى مطالب الشعب، غير أنه لم يستمع إلا إلى نصيحة الأحداث من أقرانه، الذين أوغروا صدره ضد الشاكين، ومن ثم فقد كان رد «رحبعام»: «إن خنصرى أغلظ من متن أبى، والآن أبى حملكم نيراً ثقيلاً، وأنا أزيدكم على نيركم، إن أبى أدبكم بالسياط، وأنا أودبكم بالعقارب»، وكانت تلك هي اللحظة التي أعلنت فيها القبائل الشمالية انفصالها عن «بيت داود»، وهكذا عادت إلى الحياة، مرة أخرى، كلمة سادت يوماً ما موقفاً خطيراً في عهد داود، من أن إسرائيل لم يعد لها دور في عهد أسرة داود اليهودية، أو على حد قول التوراة: «أى قسم لنا في داود، ولا نصيب لنا في ابن يسى، إلى خيامك يا إسرائيل، الآن انظر إلى بيتك يا داود، وذهب إسرائيل إلى خيامهم»^(٢).

A. Lods, op.cit., p. 372-373.

(١)

(٢) ملوك أول ١٢: ١-١٦؛ صموئيل ثان ١: ٢٠؛ نجيبي ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٩١-

M. Noth, op.cit., p. 227.

٣٩٢؛ وكذا:

وهنا، فلسنا ندرى شيئاً على وجه التحقيق عن الدور الذى قام به «يربعام» من وراء الستار، وإن كانا ندرى تماماً - طبقاً لرواية التوراة فى الملوك الأول - أن رحبعام قد أرسل «أدورام» - مسئول التسخير ليمسك بزمام الموقف، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا الموقف رجماً بالحجارة، وعندئذ هرب رحبعام فى عربته إلى أورشليم، «وعصى إسرائيل على بيت داود»^(١)، كما أننا ندرى كذلك، وطبقاً لرواية أخرى فى التوراة، أن رحبعام رفض أن يمنح رعاياه طلباتهم العادلة، لأن «يهوه» إنما أراد أن يحقق وعيده بانشقاق الوحدة القومية^(٢).

ويحاول «رحبعام» بعد ذلك أن يستعيد سلطته على كل إسرائيل، ومن ثم فقد «جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين، مئة وثمانين ألف مختار محارب، ليحاربوا بيت إسرائيل، ويردوا المملكة لرحبعام بن سليمان»، ولكن «شمعيا» - رجل الله - يتصدى لرحبعام ويعلمه أن تلك إرادة رب إسرائيل، فيصدع رحبعام بالأمر، وتنتهى المشاكل عند هذا الحد^(٣)، وتنقسم إسرائيل الموحدة إلى دولتين، الواحدة إسرائيل، وعليها «يربعام» الأفرامى، الذى كان رئيساً للتسخير على أيام سليمان، والآخرى يهوذا، وعليها رحبعام بن سليمان، غير أن مركز النشاط منذ هذه اللحظة، وحتى سقوط السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م، إنما سوف ينتقل إلى الشمال، بينما تبدأ يهوذا تغيب نسبياً فى غياهب الظلمات^(٤).

وهكذا يصدق التاريخ إلى حد كبير، ما ذهب إليه «فرويد» من أن تاريخ بنى إسرائيل إنما يقوم على الثنائية، كان هناك شعبان اندمجا معاً فى أمة واحدة ولم تلبث هذه الأمة أن انقسمت إلى مملكتين، وهناك اسمان للإله فى أصل التوراة الواحد يهوه، والآخر إلوهيم - بل كانت هناك

(١) ملوك أول ١٢: ١٨-١٩.

(٢) ملوك أول ١٢: ١٥.

(٣) ملوك أول ١٢: ٢١-٢٤.

(٤) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٩٣.

عقيدتان في الواقع؛ طردت الأولى بواسطة الثانية، ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة في النهاية^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى تناقض نصوص التوراة بشأن الأسباط التي تكونت منها كل من دويلتي يهوذا وإسرائيل؛ فهي تشير مرتين^(٢) إلى أن يهوذا؛ إنما أصبحت تتكون من سبط يهوذا وحده، ولكنها تشير مرة ثالثة^(٣) إلى أنها تتكون من سبطي يهوذا وبنيامين، وأن إسرائيل إنما تتكون من الأسباط العشرة الباقية^(٤)، وفي الواقع أن الأمر ليس كذلك، لأن إسرائيل إنما كانت تتكون من الأسباط التسعة الشمالية فقط (راؤبين وجاد وأفرايم ومنسى وأشير ويساكر وزوبولون ونفتالي ودان)؛ وأن يهوذا إنما كان من سبطي يهوذا وبنيامين، فضلاً عن سبط «شمعون»، والذي كانت دياره تقع إلى ما وراء حدود يهوذا من جهة الجنوب، ولم يقل أحد أن دويلة إسرائيل كانت لها ممتلكات إلى الجنوب من يهوذا، وحتى لو صدقنا ما ذهب إليه «مارتن نوث»، من أن قبيلة شمعون كانت تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدور مستقل في العصر التاريخي المعروف لنا^(٥)، فإن هذا لا يغير شيئاً من الصورة التي قدمناها من قبل.

وأخيراً، فلعل من المفيد أن نشير إلى أن انضمام بنيامين مع يهوذا، ضد أفرايم، إنما كان أمراً غير منتظر من هذا السبط بالذات، ذلك لأن بنيامين من «بيت يوسف» (أفرايم ومنسى وبنيامين)، أبناء «راحيل»، وليس من «بيت يهوذا» أبناء «ليئة»، هذا فضلاً عن أن أبناء سبط بنيامين كان من المنتظر أن يكونوا هم المنافسون لبيت يهوذا، على أساس أن عرش إسرائيل

(٢) ملوك أول ١١: ٣٦، ١٢: ٢٠.

(٤) ملوك أول ١١: ٣٥.

(١) S. Freud, op.cit., p. 64.

(٣) ملوك أول ١٢: ٢٣.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 58.

إنما كان لهم قبل أن يكون لبית يهوذا، وذلك منذ اختيار «شاول» كأول ملك لإسرائيل، ثم ولده «إشبعل» من بعده، بل إن الكثيرين من البنيامين إنما كانوا يعتقدون أن «آل داود» إنما قد اغتصبوا حقهم في العرش، ومن ثم فقد كانوا من أكثر القبائل الإسرائيلية معارضة لبית داود، ويذهب المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث» إلى أن الفضل في ذلك إنما يرجع إلى المهارة السياسية لداود وولده سليمان، تلك المهارة التي جعلت بنيامين الآن تلقى بكل ثقلها - وبمفردها مع البقية الباقية من سبط شمعون - في جانب يهوذا، ضد رهطهم الآدنيين من الأفرايمين^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فلقد بدأ عصر جديد في تاريخ اليهود، عصر لم يعرف فيه بنو إسرائيل الأمن والسكينة، اللتين طالما تمتعوا بهما على أيام سليمان، فقد كان موقع فلسطين بين عواصم النيل والدجلة والفرات، والذي جاء إلى اليهود، بالتجارة على أيام سليمان، هو نفسه الذي سيجيء إليهم بالحرب في البقية الباقية لهم من أيام في فلسطين، وكم من مرة ضيق على اليهود، فلم يجدوا لهم مخرجًا من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين في الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى - في مصر والعراق القديم - أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، وكم من مرة اجتاحت المصطرعون بلادهم، وكان من وراء التوراة، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء، وعويلهم وطلبهم الغوث من رب السماء، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذي تتهدده الأخطار، بين شقى الرحى، من فوقهم دول أرض الجزيرة، ومن تحتهم أرض النيل^(٢).

وأما عن جيرانهم المباشرين، فإن الإمارة الآرامية التي ظهرت في «دمشق» على أيام سليمان، سرعان ما أصبحت مركزاً لقوة جديدة بمدنها

C. Roth, op.cit., p. 23.

(١)

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢١.

القديمة التي انضمت إليها سريعاً، وهكذا أصبحت دمشق عدواً ضعب المراس بالنسبة لإسرائيل، بل وطالما فرضت نفوذها عليها، وأما «عمون» فقد ضاعت هيبة إسرائيل فيها، ولم يعد للملك إسرائيل الجديد أية رابطة من أى نوع كان مع مملكة عمون، والتي اعتبرها داود ذات مرة من أملاكه الخاصة، وإن كانت مملكة «أدوم» بقيت على صلة لفترة ما بمملكة يهوذا.

وأما مملكة إسرائيل نفسها، فقد غدت مسرحاً لكثير من الفتن، فشهد القرن الذى أعقب الانفصال أكثر من أربعة أسر (يربعام وبعشا وعمرى وياهو) تداولت الملك فيما بينها، وهكذا تجدد المجتمع الإسرائيلي لا يخرج من دوامة إلا وتتلقفه أخرى، وتتحول إسرائيل إلى مسرح للانقلابات السياسية، فلا يكاد يتربع على عرشها ملك حتى يقتله آخر ويحل محله، معتقداً أو مدعياً أنه يحرر الشعب، ويأخذ بيده إلى العزة والرفاهية، وبينما تسود هذه الأحوال فى داخل إسرائيل، إذا بجيرانها يهتبلون الفرصة وينتقصون من حدودها، فتستولى دمشق على الجليل وجليعاد، وهكذا أخذت إسرائيل تنكمش وتتضاءل بعد أن فقدت نصف مساحتها، وشرذ نصف سكانها، وتحولت إلى مستعمرة صغيرة ممزقة الأوصال، تنتظر مصيرها المحتوم، ألا وهو الموت^(١)، وقد كان ذلك فى عام ٧٢٢ ق.م، على يد «سرجون الثانى» ملك آشور (٧٢٢-٧٠٥ ق.م).

وأما «يهوذا» فقد غدت دولة أهميتها السياسية ضئيلة، وعزلتها بين تلالها فى الجنوب، جعلتها ترقب تيارات الإمبراطوريات دون أن تتحرك، ولم تجد القوى الأجنبية أية صعوبة فى إقامة علاقات معها، وأما التجار الأجانب فقد تحولوا عنها بازدياد، وقد وجد النفوذ الأجنبى - سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الديانة - فرصة ليعتمد إلى كل شئونها^(٢)، ثم ليقتضى عليها

C. Roth, op.cit., p. 40.

(٢)

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

آخر الأمر فى عام ٥٨٧ ق.م، على يد العاهل البابلى «نبوخذ نصر»
(٦٠٥-٥٦٢ ق.م).

هذا، ولم يكن هناك وفاق بين الدولتين (إسرائيل ويهوذا)، فقد كانت الواحدة منهما تريق دماء الأخرى فى نزاع إثر نزاع، من أجل الحدود تارة، ومن أجل سيطرة الواحدة على الأخرى تارة أخرى، وهكذا منذ البداية، «وكانت حروب بين رحبعام ويريعام كل الأيام»، وقد ظلت الحروب مشتعلة الأوار بينهما، يرثها خلف عن سلف، وكانت حرب بين أسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامها»^(١)؛ ومن ثم فقد اضطرت يهوذا أن تقيم «قلعة المصفاة» على الطريق الاستراتيجى الرئيسى من أورشليم إلى الشمال، كما اضطرت كذلك إلى تحصين «جبع» - والتي تقع فى نهاية حدودها الشمالية، وعلى مبعده ٦ أميال شرقى أورشليم - وهكذا فقد «حملوا كل حجارة الرامة وأنحشابهها التى بناها بعشا، وبنى بها الملك أساجبع بنيامين والمصفاة»، وكانت تلك هى الحدود النهائية بين الدولتين اليهوديتين - إسرائيل ويهوذا -^(٢).

وقد كشفت بعثة أمريكية من «مدرسة الباسفيك للديانة» تحت إشراف «الدكتور وليم فردريك بيد» فى الحفريات التى قامت بها فيما بين عامى ١٩٢٦، ١٩٣٥ م فى «تل النصبة» - على مبعده سبعة أميال إلى الشمال من أورشليم - بقايا حصن الحدود القديم فى «المصفاة»، وكان سمك الحائط ٢٦ قدمًا، ولعل هذا الحائط الدفاعى الهائل يرينا كيف كانت الحرب الأهلية التى استمر أوارها بين إسرائيل ويهوذا، قاسية مريرة^(٣).

(١) ملوك أول ١٤: ٣٠، ١٥: ١٦.

(٢) ملوك أول ١٥: ٢٢.

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 224-225; J. Muilenburg, in Studia (٣) Theologica, 1955, p. 2-42; G.E. Wright, BA, Io, 1947, p. 69-77; J. Finegan, Light from the Ancient Past, 1969, p. 175.

وعلى أى حال، فإن هذه الحروب بين القبائل الشمالية والجنوبية لم تكن مقصورة على فترة دون أخرى ذلك لأننا نسمع دائماً عن اقتتال إسرائيل ويهوذا بين الفينة والفينة، بل إن التوراة نفسها كثيراً ما تختتم حديثها عن كل ملكين متعاصرين فى يهوذا وإسرائيل بهذه العبارة «وكانت بينهما حرب كل الأيام» وصدق الله العظيم، حيث يقول فى سورة الحشر: «بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»^(١)، والتاريخ يحدثنا أن نتيجة هذه الحروب إنما كانت دائماً فى جانب قبائل الشمال، بل إن دخول ملوك أورشليم فى طاعة أهل الشمال - من الوجهة السياسية - إنما كان تاماً - أو يكاد - قرابة عام ٨٦٠ قبل الميلاد^(٢).

(١) سورة الحشر، آية : ١٤؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٦٥١٤-٦٥١٥، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠؛ تفسير ابن كثير ١٠٠/٨، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٣)؛ تفسير النسفى، ٢٤٣/٤، فى ظلال القرآن، ٣٥٢٨/٦-٣٥٢٩؛ صفوة التفاسير، ٣٥٤/٣؛ تفسير البحر المحيط، ٢٤٩/٨؛ تفسير البيضاوى، ٤٧٨/٣.

(٢) تيودور رونسون، تاريخ العالم - إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، ص ١١٢.

الفصل الثانى دويلة إسرائيل

أولا - أسرة يربعام (٩٢٢-٩٠٠ ق.م)

(١) يربعام الأول (٩٢٢-٩٠١ ق.م)

ويربعام هذا هو : ابن «ناباط» من زوجه «صروعة» ، وهو أفرايمى من «صردة» - وتقع فى وادى الأردن وربما كانت «دير غسانة» على مقربة من عين صردة، على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الجنوب الغربى من شكيم - وقد اكتشفه سليمان أثناء عمليات البناء فى هيكل وقصور أورشليم، ثم وثق فى إدارته لبیت يوسف^(١).

غير أن الرجل - على ما يبدو - إنما كان فى موقف حرج، فقد تنازعه أمران، الواحد ولاؤه لسيده الملك، والآخر ولاؤه لعشيرته، ولكنه سرعان ما فضل ولائه لعشيرته على ولائه للملك، ثم صاحب ذلك أمر آخر جد خطير، ذلك أن «أخيا الشيلونى» قد تنبأ بأن يربعام سوف يخلف سليمان على عشرة أسباط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر وسرعان ما اشم سليمان رائحة النبوة فسعى إلى قتل يربعام، ولكن الأخير استطاع الهروب إلى مصر^(٢)، والتى يبدو أنها كانت قد غيرت من سياستها نحو سليمان، أو على الأقل فإنها قد بدأت ترى أنه لا تعارض البتة بين صداقتها لسليمان ومصاهرته، وبين أن تكون فى نفس الوقت المأوى الذى يلجأ إليه أعداؤه، فضلا عن التأثيرين عليه، وهكذا استقبل يربعام بترحاب من فرعون الذى أعطاه الأمان والحماية، وربما وعده بمساعدته على تحقيق نبوءة «أخيا

(١) ملوك أول ١١: ٢٦-٢٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ٥٤١/٢، ١٠٥٩.

(٢) ملوك أول ١١: ٣١-٤٠.

الشيولوني» عندما تسنح الفرصة، ويعود إلى فلسطين^(١).

وأيا ما كان الأمر، فما أن ينتقل النبي الكريم إلى جوار ربه - راضياً مرضياً عنه - حتى تقوم الفتن الهوجاء بين قبائل الشمال الجنوب وحتى يقرر الشماليون في «اجتماع شكيم» المشهور، انفصال إسرائيل عن 'يهودا، واختيار «يربعام» ملكاً على إسرائيل، وكما أشرنا من قبل، أننا لا ندرى شيئاً على وجه التحقيق، عن الدور الذي قام به «يربعام» من وراء ستار في المفاوضات التي دارت بين «رحبعام» وشيوخ إسرائيل، كما أننا لا ندرى كذلك مدى استعانة يربعام بحلفائه المصريين - أو سادته على الأصح - في تثبيت دعائم عرشه الجديد، بخاصة وأن هناك من يزعم أن الرجل إنما كان من أم مصرية - كما كانت زوجته كذلك - بل ويزعم كذلك أن الغزو المصري ليهودا، تحت قيادة «شيشنق الأول»، وسقوط أورشليم تحت أقدام الجيوش المصرية، إنما كان في فترة سابقة لثورة إسرائيل على يهوذا^(٢).

وعلى أي حال، فلقد اختير «يربعام» ملكاً على إسرائيل، بقرار من مجلس شكيم، الذي اجتمع لمبايعة «رحبعام» على شروطهم، فضلاً عن اختيار سابق من «يهوه» - رب إسرائيل - على لسان نبيه «أخيا الشيولوني»، ثم اختيار «شكيم» - والتي يحتمل أنها تل بلاطه، شرقي نابلس الحالية - مقراً للعرش الجديد ونقرأ في التوراة «وبنى يربعام شكيم في جبل أفرايم وسكن بها»^(٣)، ولعل المقصود بذلك أنه نظمها كمدينة ملكية، فالمدينة أقدم من يربعام بآلاف السنين بل إن التوراة نفسها، إنما قد أشارت من قبل إلى قيام ملكية «أبيمالك» فيها على أيام القضاة^(٤).

(١) يرى بعض الباحثين، دون أن يقدم دليلاً صحيحاً أن «سيامون» كان ينوي غزو إسرائيل، لولا أن روع بقوة سليمان، الأمر الذي جعله يتساهل فيعطيه مساحات من أرض فلسطين..

(A. Malamat, JNES, 22, 1963, p. 16F)

H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 436-7.

(٢)

(٣) ملوك أول ١٢: ٢٥.

(٤) قضاة ٩: ٦، ٢٠-٢١، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 344; M. Noth, op.cit., p. 152.

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى ترك «يربعام» شكيم إلى مكان بعيد في شرق الأردن، حيث اتخذ مقره في ييوق العمق، في «فنوئيل» - تلؤل الذهب الحالية، وإن كانت «حفائر نلسون جلوك» تثبت أن «تل الذهب الشرقي»، كان هو الموقع القديم لفنوئيل، وكان هذا التحول السريع من «شكيم» في غرب الأردن إلى «فنوئيل» في شرقه، يرجع دون شك إلى اضطراب الأمور في إسرائيل، وقد حاول البعض أن يرى فيه تهديداً لشكيم من قبل «رحبعام»^(١) بينما يرى آخرون أنه بسبب تهديد الجيوش المصرية لفلسطين، وإن كان هذا الاتجاه إنما يتعارض تماماً، وتعريض مصر ليربعام، ومساندتها لثورته.

وعلى أي حال، فسرعان ما يدرك يربعام أن «فنوئيل» لا تصلح كعاصمة إسرائيل، فيعود مرة أخرى إلى غرب الأردن، ولكنه لا يعود إلى «شكيم» وإنما إلى موقع آخر من جبل أفرام، حيث اتخذ من مدينة «ترزة» (ترصة) عاصمة له - وهي تل الفارعة الحالية، على مبعدة ١١ كيلاً شمال شرق شكيم - وقد استمرت «ترزة» هذه عاصمة للملك إسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمري» (٨٧٦-٨٦٩ ق.م.)^(٢).

كانت أورشليم بتابوتها المقدسة ومعبدتها الرئيسي تقع ضمن مملكة يهوذا، ومن ثم فقد استمر المعبد الملكي الرئيسي في أورشليم (هيكل سليمان) يجذب إليه أبناء القبائل التي كانت تعيش في مملكة إسرائيل، للحج إليه وتقديم القرابين هناك، على أساس أنه المحراب الرئيسي للقبائل الإسرائيلية، حتى وإن نبذت سلطة آل داود الملكية، ويدهى أن يربعام الأول هذا لم يكن ينظر إلى هذا الأمر بعين الرضا، لأن ذلك إنما يعنى أن هناك

A. Lods, op.cit., p. 374.

(١)

(٢) ه.هـ. وولي، أطلس الكتاب المقدس، ص ١٥، ٢٢، (مترجم، بيروت، ١٩٦٨)، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 843, 1102; H.C. Kee and L.E. Toombs, BA, 20, 1957, p. 82-10; J. Finegan, op.cit., p. 183-184; C. Ernest Wright, BA, 20, 1957, p. 1-32, BASOR, 148, 1957, p. 11-28.

رابطة غير مباشرة تربط القبائل الإسرائيلية بأسرة داود، وخشى يربعام أن «ترجع الملكية إلى بيت داود، إن صعد هذا الشعب، ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم، فيرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونني»^(١).

وهنا فكر يربعام في وسيلة يحتفظ بها بولاء شعبه، وفي نفس الوقت يوجد نوعاً من التوازن الدينى بين مقدسات القبائل الشمالية، وبين هيكل سليمان الرائع، وهكذا هداه تفكيره إلى أن يعيد للمكانين المقدسين القديمين مكانتهما، وكان الواحد منهما في «بيت إيل» - وهى برج بيتين، على مقربة من بيتين الحالية، على مبعدة ١٦ كيلاً شمالى أورشليم - وكان الآخر فى «دان» - وهى تل القاضى الحالية، على مبعدة ٥ كيلاً أميال غربى بانياس، عند منابع الأردن فى أقصى شمال المملكة - وزود كل منها بـ «العجل الذهبى» ويبدو أن مدينة السامرة قد زودت فيما بعد بمحراب ملكى، وربما بعجل ذهبى كذلك، وعلى أى حال، فإن النبىء «هوشع» قد ذكر عجل السامرة^(٢).

وهكذا عمل يربعام على تقويض الاحترام الذى كانت تتمتع به أورشليم فى أعين القوم عن طريق تحويل الحجاج إليها، وفى نفس الوقت ليحوز بعضاً من هذا الولاء الذى كانت تتمتع به العاصمة القومية^(٣)، ومع ذلك فإن مراكز العبادة الإسرائيلية كانت غير قادرة على منافسة تابوت أورشليم، ومكانته التقليدية الفريدة فى الحياة القبلية، حتى لو أمدها ملوك إسرائيل بكل المقومات اللازمة، وبكهنه يعينهم الملك، وبنظام من الاحتفالات كان تقليداً لمثيله المرعى فى أورشليم^(٤)، وإن كانت عجول

(١) ملوك أول ١٢: ٢٥-٢٧.

M.Noth, op.cit., p. 232.

(٢) ملوك أول ١٢: ٢٧-٢٣، هوشع ٨: ٥-٦، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 232.

(٤)

C. Roth, op.cit., p. 24-25. (٣)

يربعام الذهبية قد فتحت الطريق للنهضة المرتقبة لعبادة «البعل» بعد أن غابت عن البلاد منذ أيام صموئيل النبي^(١).

وعلى أى حال، فلقد استمر يربعام فى إجراءات الانفصال عن يهوذا، فاختار كهاتته من غير اللاويين، كما اعتنى عناية شديدة بالأماكن المقدسة المقامة على المرتفعات، مما دفع الكثير من اللاويين وغيرهم من المتدينين إلى مغادرة البلاد والهجرة إلى يهوذا، هذا فضلا عن التغيير الذى أحدثه فى «عيد المظال»، واحتفالات الحصاد الدينية من الشهر السابع إلى الشهر الثامن، وإن كان هناك من يرى أن هذا التغيير إنما قد حدث فى يهوذا - وليس فى إسرائيل - ذلك لأن عيد المظال إنما كان يتم بمجرد أن تجمع آخر ثمرة من محصول العام فى إسرائيل ويهوذا، على أيام الوحدة بينهما، وعندما تم الانفصال فقد كان من الطبيعى أن يعقد هذا الاحتفال فى يهوذا قبله فى إسرائيل، لأن الثمار إنما تنضج فى يهوذا قبل أن تنضج فى إسرائيل، أى فى الجنوب قبل الشمال^(٢).

وأيا ما كان الأمر، فإن يربعام كان - على ما يبدو - قويا للدرجة التى مكنته من أن يقبض على زمام الأمور فى إسرائيل على مدى اثنين وعشرين عاما، وإن كان يبدو كذلك أن البلاد قد تعرضت فى أخريات أيامه لفترة من القلق وعدم الاستقرار.

(٢) ناداب (٩٠١-٩٠٠ ق.م):

جلس «ناداب» على عرش إسرائيل بعد أبيه يربعام الأول، ولم يستمر حكمه أكثر من عامين، فى أيام حكم «أسا» (٩١٣-٨٧٣ ق.م) فى يهوذا، ثم قتل فى «جيشون»، وتعرف اليوم بتل الملات على مبعدة كيلين جنوب

I. Epstien, op.cit., p. 38.

(١)

A. Lods, op.cit., p. 416.

(٢) ملوك أول ١٢ : ٣١-٣٣، وكذا:

تمنة، وشرق عقرون مباشرة - فى منطقة دان، وتصفه التوراة بأنه قد عمل الشر وأخطأ إلى الله مثل أبيه^(١).

ثانياً - أسرة عشا (٩٠٠-٨٧٦ ق.م):

(١) بعشا (٩٠٠-٨٧٧ ق.م): استطاع «بعشا بن أخيا»، من سبط يساكر أن يجلس على عرش إسرائيل، فى قرصة أربعاً وعشرين سنة، بعد أن نجح فى اغتيال «ناداب» - ثانى ملوك أسرة يربعام - أثناء حصاره للفلسطينيين الذين انتهزوا فرصة الانشقاق بين الإسرائيليين، وهاجموهم فى «جبشون» فى منطقة دان، غربى أورشليم، ثم نجح «بعشا» (أى يهل شمس، بمعنى الشمس بعل أو الشمس رب) بعد ذلك فى أن يبيد من بقى من نسل يربعام على قيد الحياة، تصديقاً لنبوءة «أخيا الشيلونى»^(٢)، وأن يقوم من عاصمته «ترزه» بمهاجمة «آسا» ملك يهوذا فى «الرامة»، وطبقاً لرواية التوراة، فإن الملك الإسرائيلى بعشا، قد نجح فى احتلال مدينة الرامة^(٣) - التى تقع فى وسط منطقة بنيامين على الطريق الرئيسى المودى إلى أورشليم، وعلى مبعده ٨ كيلاً إلى الشمال منها - وأن يجعل منها حصناً إسرائيلاً منيعاً.

ويضطر «آسا» ملك يهوذا إلى أن يقدم البقية الباقية فى خزائن الكهنوت بمعبد أورشليم لملك دمشق «بن هدد»، ليقوم بمهاجمة إسرائيل من الشمال، وقد أجابه الملك الآرامى إلى رغبته، فهاجم إسرائيل، «وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى»^(٤)، وكان التجار الدمشقيون يرغبون فى هذه المناطق الشمالية من إسرائيل لتأمين

(١) ملوك أول ١٤: ١٠-١٢، ١٥: ٢٥؛ قاموس الكتاب المقدس، ٩٤٦/٢.

(٢) ملوك أول ١٥: ٢٧-٣١؛ قاموس الكتاب المقدس ١٨١/١.

(٣) ملوك أول ١٥: ١٧-٢٠.

(٤) ملوك أول ١٥: ٢٠.

اتصالاتهم مع المدن الساحلية^(١) ويضطر «بعشا» إلى الانسحاب من الجنوب للدفاع عن جبهته الشمالية، وينتهز «أسا» الفرصة، ويحتل الرامة ويحصن المصفاة، ويشيد حصناً جديداً في «جبع» - على مبعدة ٥ كيلاً إلى الشرق من الرامة - والتي أصبحت منذ الآن حداً ثابتاً بين المملكتين، ذلك لأننا نعرف أنه في أثناء حكم الملك «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٩٠ ق.م) أن «جبع» ماتزال - على ما يبدو - مدينة الحدود الشمالية ليهوذا، حيث نقرأ في التوراة: «من جبع إلى بئر سبع»؛ وعلى أى حال، فإن العلاقات بين إسرائيل ويهوذا سرعان ما تتغير بوضع حد للنزاع على الحدود حيث تصبح التلال في منطقة الطريق الرئيسى، الذى يسير متوازياً مع خط تقسيم المياه، وتحتفظ يهوذا بجزء هام من منطقة بنيامين، لحماية المدينة الملكية أورشليم^(٢).

(٢) أيلة (٨٧٧-٨٧٦ ق.م)

يخلف «أيلة» أباه «بعشا» كملك على إسرائيل - أو أفرايم كما يقال أحياناً - ولمدة عامين، ثم تنتهى الأسرة بنفس الطريقة التى انتهت بها أسرة يربعام - وهى نفس الطريقة التى قام بها حكم هذه الأسرة، وستقوم بها غيرها من بيوت ملوك إسرائيل - فيقتاله «زمرى» أحد قواده الصغار، وهو يشرب ويسكر فى بيت أرضا الذى على البيت فى ترصه، وينتهى الأمر - كالعادة - بقتل جميع أفراد العائلة المالكة، حتى لم يبق منها - على حد تعبير التوراة - «بائلا بحائط» وكالعادة كذلك عند بنى إسرائيل، فإن ذلك إنما كان تصديقاً لنبوءة نبي - هو «ياهو» هذه المرة - وإن كانت خيانة «زمرى» هذه المرة قد أصبحت مضغة فى الأفواه^(٣)، لسبب لا ندره على وجه التحقيق.

A. Lods, op.cit., p. 376.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 235-236.

(٢) ملوك ثان ٨: ٢٣؛ وكذا:

(٣) ملوك أول ١٦: ٨-١١؛ ملوك ثان ٩: ٣١؛ وكذا: S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 360.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد مضت سبعة أيام - إن لم تكن سبع سنين، طبقًا للترجمة السبعينية - وقام الجيش الذي كان في ذلك الوقت يحاصر «جيثون» الفلسطينية، وأعلن «عمري» ملكًا لإسرائيل^(١).

ثالثًا - أسيرة عمري (٨٧٦-٨٤٣ ق.م):

(١) عمري (٨٧٦-٨٦٩):

أسرع عمري - بعد أن أعلنه الجيش ملكًا في جيثون - إلى «ترزة» وحاصرها، وسرعان ما أصبح الموقف ميئوسًا منه بالنسبة إلى «زمرى»، ومن ثم فقد أشعل النار في القصر، وأحرق نفسه داخل قلعته، وكان عمري يظن أن الجو قد خلا له، غير أن «تبنى» و«يورام» ولدا «جينة»، ومن ورائهما نصف إسرائيل، قد اتخذوا جميعًا موقفًا معارضًا من تعيين «عمري» ملكًا على إسرائيل، وأخيرًا - وبعد صراع دام أربعة أعوام - أحرز عمري انتصاره التام، ومن ثم فقد أصبح مؤسسًا لأسرة حكمت إسرائيل فترة تجاوزت الثلاثين عامًا، كما أن إسرائيل قد عرفت في الوثائق الآشورية «بأرض عمري» أو «أرض بيت عمري»، وحتى بعد سقوط أسرته، فقد كان ملك إسرائيل بالنسبة إليهم هو «ابن عمري»، وربما يعزى هذا بدرجة ما إلى أن الإسرائيليين قد اتصلوا، لأول مرة، بآشور أثناء عهد أسيرة عمري - وربما أثناء عهد عمري نفسه - ولعله هو نفسه الملك الإسرائيلي الذي أرسل بهداياه إلى «أشور ناصر بال» الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م)، عندما تقدم هذا الأخير حتى نهر الكلب، على مقربة من بيروت^(٢).

وفي الواقع أننا لا نعرف شيئًا عن أسيرة عمري قبل توليته العرش، وهو أمر لا يمكن أن يكون مجرد صدفة، هذا إلى أن اسمه - وكذا اسم ولده أخاب - لا يبدو أنه إسرائيلي، وربما كان اسم عمري ذا أصول عربية، كما

(١) ملوك أول ١٦: ١٥-١٧.

A. Lods, op.cit., p. 377.

(٢)

يمكن تفسير اسم أنخاب على أنه تسمية عربية كذلك^(١)، فضلاً عن أسماء زمري وعمرى، لها أسماء عربية مماثلة^(٢)، ومن هنا فربما كان اسم عمرى، يدل على أصل عربي أو بالأحرى نبطي^(٣)، وإن ذهب البعض إلى أنه اسم عبري، بمعنى «مفلح»^(٤)، وعلى أى حال، فإن عمرى كقائد «للمليشيا» لا بد وأنه قد ظهر من بين صفوف المرتزقة، والتي كانت دائماً تتكون من عناصر مختلفة الأصول كلية^(٥).

هذا وقد استمر «عمرى» يحكم إسرائيل من «ترزة»، ولكنه فى عامه السادس اشترى تلاً فى قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» بوزنتين من الفضة، وأقام عليه عاصمة إسرائيل الجديدة - ولمدة قرن ونصف بعد ذلك - وسماها «السامرة» - وهى مبسطة الحالية على مبعده ١٠ كيلاً إلى الشمال الغربى من شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل القديم^(٦) وإن كان هناك من يرى أن الاسم يعنى «مركز المراقبة»^(٧) أو «جبل المراقبة أو الحراسة»^(٨).

وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات فى السامرة، لعل أهمها ما كان فى أعوام ١٩٠٨-١٩١٠^(٩)، ١٩٣١/١٩٣٣، ١٩٣٥م^(١٠)، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات

(١) M. Noth, op.cit., p. 230. (٢) S.A. Cook, op.cit., p. 361.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٩. (٤) قاموس الكتاب المقدس، ٦٣٨/٢.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 230.

(٦) ملوك أول ١٦: ٢٣-٢٤؛ قاموس الكتاب المقدس ٤٤٨/١-٤٤٩.

(٧) A. Lods, op.cit., p. 378.

(٨) J. Finegan, op.cit., p. 185.

وكذا: جون إلدر، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٩) G. A. Reisner, C.S. Fisher and D.G. Zyon, Harvard Excavations at samaria, 1908-1910, 2 Vols., 1924.

(١٠) W.F. Albright, BASOR, 150, 1958, p. 21-25; J.W. Crowfoot, K.M. Kenyon and E.L. Snkenik, The Buildings at Samaria, 1942.

الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل منعزل يقرب ارتفاعه من ٢٠٠ قدم، ويرتفع تدريجياً من وادٍ متسع خصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعاً محلياً يجعل المكان مثالياً في حالة الدفاع^(١).

هذا فضلاً عن أن «عمري» إنما كان يهدف إلى أن يقيم مقراً ملكياً في مدينة ليست على مثال «شكيم» مرتبطة بقبيلته خاصة، وليست تحت رحمة هجوم مفاجئ، كما كان الأمر بالنسبة إلى «ترزة»، التي استولى عليها في أقل من أسبوع^(٢)، أضف إلى ذلك أن «السامرة» إنما كانت تقع على الطريق الرئيسي من الشمال إلى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا، وعلى اتصال بسهل فينيقيا في وقت كان فيه عمري راغباً في إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، وأقوى الأدلة على ذلك زواج ولده «أخاب» من الأميرة الصورية «إيزابيل»، والأمر كذلك بالنسبة إلى الغرب، حيث تقع أغنى أراضي مملكته، وهكذا كانت السامرة مصدر قوة، أكثر مما كانت عليه «ترزه» بكثير، وأخيراً فقد كانت السامرة - مثلها في ذلك مثل أورشليم - تتحكم في الطريق الرئيسي، من الشمال إلى الجنوب على امتداد خط تقسيم المياه، كما أن هناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدي إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدي إلى الساحل والبحر الأبيض المتوسط من ناحية الغرب^(٣).

وقد تم تخطيط قمة التل على أن تكون الحى الملكى، وهى سنة جديدة فى تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك فى تخطيط أورشليم على أيام سليمان، إلا أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك، إنما قد جاء إلينا من السامرة، ويبدو أن الحى الملكى فى مدينة عمري هذه إنما

W. Keller, op.cit., p. 227.

(١)

A. Lods, op.cit., p. 378.

(٢)

K. M. Kenyon, op.cit., p. 261-271; G. E. Wright, Samaria, BA, 27, 1959, p. 67-68; J. Finegan, op.cit., p. 185.

(٣)

كانت منطقة يمكن الدفاع عنها، ذلك لأنها إنما قد أحيطت في المرحلة الثانية - على الأقل - بسور قوى كما أن تخطيط الحي لا يجعل منه مركزاً لتجمعات مدينة بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته^(١).

وأما في السياسة الخارجية، فقد كتب لعمرى نجاحاً بعيد المدى تجاه «مؤاب» غير أنه إنما قد منى بفشل ذريع تجاه الآراميين في دمشق، فلقد أصبحت الآن مملكة دمشق الآرامية أقوى القوى الموجودة في سورية وفلسطين على الإطلاق، كما أنها أصبحت تحيط بإسرائيل من الشمال والشرق على السواء، فقد كانت تجاورها على الحدود شمال شرق «عجلون» - وتقع في مكان خربة عجلان الحالية إلى الشمال من تل اله - ، بميلين، وعلى مقربة من إربد في الأردن - والحدود الشرقية لوادي الأردن الأعلى، كما أنها أصبحت تتحكم في البقاغ الغنية بالمعادن، وعلى أي حال، فلقد انتهت الأمور بين عمرى والآراميين، بأن اضطر عمرى مرغماً على أن يتنازل عن مدن كثيرة في شرق الأردن غالباً، وأن يخصص أحياء معينة في السامرة للتجار الآراميين، كما أن ضغط الآراميين هذا من أهم الأسباب التي دفعت عمرى إلى أن يرتقى في أحضان الفينقيين^(٢).

وأما من الناحية الإدارية فلقد أوجد عمرى - وربما ولده أخاب - أقساماً إدارية جديدة، ذلك لأن سياسة «بيت عمرى» إنما كانت تهدف - كما فعل سليمان من قبل - إلى القضاء على النظام القبلي، وتقوية النفوذ المركزي للسلطة الحاكمة^(٣).

K.M. Kenyon, op.cit., p. 263.

(١)

(٢) ملوك أول ٢٠ : ١٤ - ١٥ ، ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس ٦٠٧/٢ ، وكذا :

A. Lods. op.cit., p. 377-378.

Ibid., p. 378.

(٣)

(٣) أخاب (٨٦٩-٨٥٠ ق.م):

خلف «أخاب» أبا عمري على عرش السامرة بعد وفاته في عام ٨٦٩ ق.م، ولعل من اللافت للنظر أن التوراة إنما تتحدث عن أخاب هذا، أكثر مما تتحدث عن أي واحد آخر من أسلافه منذ أيام سليمان^(١)، مما يشير إلى أهمية الرجل، غير أن أكثر عناصر هذا الحديث - فيما يبدو - إنما أتت من التاريخ الشعبي لبیت عمري وسقوطه، ورغم أنه مصدر ذو قيمة تاريخية، إلا أنه يميل كثيراً إلى الخلط بين المادة التاريخية والأسطورة، ومن ناحية أخرى، فيجب أن نكون على حذر من سيرة «إيليا» و«إليشع»^(٢) بالرغم من قيمتها في تاريخ الدين، فربما نعتبرها من الأجزاء الرائعة في العهد القديم (التوراة)، ولكنها مع ذلك شعر قصصي، وليس تاريخياً^(٣).

وعلى أي حال، فلقد كان «أخاب» يدرك تماماً أن موطن الخطر على دولته إنما يربض هناك في دمشق، بخاصة وأن أورشليم إنما قد أصبحت الآن طرفاً في الصراع بجانب دمشق، وضد إسرائيل، ومن هنا فقد عقد العزم على إقامة روابط وثيقة مع مدن الساحل الفينيقي، التي كانت قد بدأت في هذه الفترة في الشروع في استعمار ناجح في منطقة البحر الأبيض المتوسط^(٤)، وهكذا اتجه «أخاب» نحو «إشبعل» ملك صور، الذي مكنه من أن يمنع أعداءه من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق فينيقيا، وساعد على ذلك أن الصوريين من جانبهم قد وجدوا لهذا التحالف مع الإسرائيليين مزايا فائقة، هم في حاجة إلى قمح ومنتجات شمال فلسطين الأخرى، فضلاً عن أنه سوف يمنع منافسيهم من التجار الآراميين من

(١) ملوك أول ١٦: ٢٨، ٢٢: ٤٠.

(٢) ملوك أول ١٧-١٩، ٢١.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 378.

M. Noth, op.cit., p. 241, W.F. Albright, in Studies in the History of Culture, (٤) 1942, p. 40F.

الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق «عكو» (عكا) عبر المنطقة الإسرائيلية^(١).

وفى نفس هذا الاتجاه السياسى، اتخذ «أخاب» كذلك عدة خطوات لتحرير مملكته من القلق الذى يعترى حدوده الجنوبية مع يهوذا، وتحقيقاً لهذا الهدف الواضح، فإن الرجل إنما جاهد كثيراً لأن يضع حداً للكوارث والضغائن العقيمة مع حكام أورشليم، وهكذا - وبتحالف مازالت بنوده مجهولة - تم الصلح بين «أخاب» و«يهو شافط» ملك أورشليم (٨٧٣-٨٤٩ ق.م)، وإن كان ملحق التحالف يقضى بأن تتعهد يهوذا بمساعدة إسرائيل بكل ما تستطيع من قوة فى حالة نشوب حرب ما، وهكذا أصبحت المملكة الجنوبية هى الأضعف، ثم سرعان ما قويت روابط هذا الحلف بزواج «يهورام» بن «يهو شافط» ملك يهوذا، من «عثليا» ابنة أخاب وإيزابيل ابنة إيشبعل أمير صور، وربما أقيم فى هذه المناسبة معبد «للبلع» فى أورشليم، وهو إله ملك صور، العضو الثالث فى الحلف^(٢).

وبدأ الصراع بين أخاب والآراميين، وإن لم يكن من السهل علينا ترتيب الأحداث الحربية، أو تتبع خطى العلاقات الخارجية، فإننا نستطيع أن نستنتج من رواية التوراة فى سفر الملوك الأول أن ملك دمشق استطاع أن يحاصر أخاب فى السامرة، إلا أن الأخير تمكن من التغلب على الآراميين، بل وانتصر عليهم مما كان سبباً فى عقد معاهدة بين الملكين الإسرائيلى والآرامى، أصبح لأخاب بمقتضاها الحق فى استرجاع المدن التى كانت دمشق قد استولت عليها من إسرائيل فى عهد سلفه، كما أصبح له الحق فى أن يكون له سوق فى دمشق، كما كان لملك دمشق سوق فى السامرة أثناء حكم عمرى، وفى العام التالى هزم أخاب الآراميين مرة أخرى فى معركة مريرة عند «أفيق»^(٣).

A. Lods, op.cit., p. 380.

(٢)

A. Lods, op.cit., p. 379-80. (١)

(٣) ملوك أول ٢٠: ١-٤٣.

ورغم ذلك، فيبدو أن إسرائيل قد لاقت الأمرين من الهزائم التي منيت بها على أيدي الآراميين، وهكذا نقرأ في التوراة عن المحاولة العقيمة التي قام بها أخاب لاسترداد «راموت جلعاد» التي احتلها الآراميون، وعن الهزائم الساحقة فيها^(١)، والأمر كذلك بالنسبة إلى تلك الغارات المفاجئة التي كان يقوم بها الآراميون على إسرائيل، حتى أن السامرة نفسها قد حوصرت^(٢).

ومع ذلك، فقد استطاع «أخاب» أن يصون حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك في حلف ضد الآشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، ذلك لأن الآشوريين إنما كانوا قد بدأوا في القرن التاسع قبل الميلاد يظهرون من جديد على مسرح الأحداث في غربى آسيا، ولأول مرة، منذ عهد «تجلات بلاسر الأول» (١١١٢-١٠٧٦ ق.م) يصل ملك آشور إلى البحر الأبيض المتوسط، وذلك حين اندفع «أشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) إلى شمال سورية، ووصل إلى الساحل الفينيقي وتلقى الجزية من عدد من المدن الفينيقية ويقول الملك الآشوري: «لقد استوليت على كل جبال لبنان المترامية الأطراف ووصلت إلى البحر الكبير في بلاد «أمورو» وغسلت أسلحتي في البحر العظيم، وقدمت قرابيني من الماشية للآلهة جميعاً»^(٣).

ولكن العاهل الآشوري لم يستطع - رغم ذلك - أن يقترب من دمشق والولايات الجنوبية، وقد جاهد - ومن بعده خليفته شلمنصر الثالث - أن يكسر شوكة الممالك الآرامية، ولكن دمشق - تحت قيادة بن حدد - قد وقفت تمنع تقدمهم نحو الجنوب^(٤)، وأخيراً وفي عام ٨٥٣ ق.م، يتقدم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) إلى وسط وجنوب سورية، ولم تكن الولايات الصغيرة في سورية وفلسطين حينئذ بقادرة على أن تقف أمام هذا

(١) ملوك أول ٢٢: ٣٨-٣٩. (٢) ملوك ثان ٦: ٨-٣٣.

(٣) محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، ص ٣٦٩-٣٧٠، (الإسكندرية ١٩٩٠)؛ وكذلك:

A. L. Oppenheim, ANET, 1966, p. 276.

S.A. Cook, CAH, IV, 1965, p. 362.

(٤)

الخطر الداهم طويلاً، وكل ما كان فى قدرتها أن تقوم به هو أن توحد قواتها ضد الخطر المشترك، وفى الواقع فإن حكام الولايات جميعاً سرعان ما تناسوا خلافاتهم الشخصية واتحدوا من أجل الدفاع عن أنفسهم، وهنا يدرك الإسرائيليون والآراميون أن الخلاف بينهم، إذا ما قورن بمقاومة الغزو الآشورى، فلن يعدو أن يكون خلافاً على الحدود وإن عادت الخلافات مرة أخرى، بمجرد انسحاب شلمنصر الثالث^(١).

وعلى أى حال، فلقد تجرأ شلمنصر الثالث وهاجم دمشق، والتى لم تكن صيداً سهلاً، على الرغم من طول منافستها مع جيرانها من الآراميين، والبدو والعبرانيين، فعزمت على الوقوف فى وجه جبروت الآشوريين^(٢)، ومن ثم فقد عملت على تكوين تحالف قوى، انضم إليه أمير ولاية «موصرى» فى الشمال الغربى من بلاد العرب، فضلاً عن أمير عربى آخر يدعى «جندب» (جنديو) شارك فى المعركة القادمة بمدد محمول على ألف بعير، إلى جانب ما شارك به أمراء عمون وحماة وارقنانا وأرواد وإسرائيل وغيرهم^(٣).

وهكذا، وفى صيف عام ٨٥٣ ق.م، تجتمع فى قرقر (قرقار) حلف من الملوك السوريين والعرب، يضم اثنى عشر ملكاً، على رأسهم «بن حداد» ملك دمشق، حيث حدثت الموقعة الشهيرة، ورغم تفاخر شلمنصر بالنصر فى موقعة قرقر هذه، فإن الحقائق التاريخية تقول أن نصره لم يكن حاسماً، ولم يؤد أبداً إلى استسلام دمشق وإسرائيل^(٤).

(١) M. Noth, op.cit., p. 245-246.

(٢) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٥١٥، (القاهرة ١٩٦٧).

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٥٩/٥-٢٦٠؛ وكذا: محمد يوسى مهران، تاريخ العراق القديم، ص ٣٧٣-٣٧٤؛ وكذا:

ANET, p. 278; S.A. Cook, op.cit., p. 263.

J. Montgomery, op.cit., p. 27; J. Finegan, op.cit., p. 24; A.L. Oppenheim, (٤)

ANET, p. 279; Daniel David Luckenbill, Ancient Records of Assyria and

ومن عجب أن شيئاً من ذلك لم يرد له ذكر في التوراة، وعلى أى حال، فإن كان زمان ذلك يقع قبل هزيمة «بن حدد» في «أفيق»، فإن هذا يعنى أن «أخاب» إنما كان تابعاً لأمير دمشق في «قرقر»، وأما إن كان ما يشار إليه قد تم في المرحلة ما بين موقعتي أفيق وراموت جلعات - وهو الأرجح - فإن إخاب إنما يكون قد انضم إلى ولايات سورية أخرى ضد الآشوريين، حين أدرك أنهم خطر عام مشترك^(١).

وعلى أى حال، فإن المسلة السوداء - والتي اكتشفت في قصر شلمنصر في مدينة نمرود عام ١٨٤٦ م، وموجودة الآن بالمتحف البريطاني^(٢) - تمثل على وجهها الثاني من أعلى حاملي الجزية الإسرائيليين وموظفيهم، في ملابس مشغولة ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس، والشكل العام يبعدهم عن أن يكونوا «حيثيين قحاً» وتشهد للتأثير القوي للحيثيين الآراميين، حيث يمثل نصب «شيشنق» شكلاً آخر، ينظر إليه كأمرى^(٣).

ونقرأ في التوراة عن «بيت العاج»، الذي بناه أخاب^(٤)، غير أن البعض إنما يتشكك كثيراً في ذلك، وعلى أى حال، فإن «أخاب» لم يبن هذا القصر كله، وإن كان له فيه بعض حجرات قد ملئت بأثاث قد حلى بالعاج^(٥)، وترى الأثرية «مس كاثلين كنيون» أن معظم اللوحات المصورة مصرية في موضوعها وفي طريقة معالجتها الأساسية، وإن لم تكن واحدة منها مصرية صرفة، وإنما هي أعمال لرجال شاهدوا الأصول المصرية وقلدوها بأسلوبهم الوطني^(٦)، وقد نقش على ألواح العاج صور عديدة كزهور

Bablonia I, Chicago, 1926, No. 611; James B. Pritchard, The Ancient Near East Princeton, 1950, p. 188.

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤١٠/٣.

(٢) C. J. Gadd, The Stones of SAssyria, 1930, p. 48; A. H. Layard, Nineveh and its Remains, 1849, I, p. 181; S.A. Cook, op.cit., p. 363.

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 264-265. (٤) ملوك أرل ٢٢ : ٣٩.

(٥) W. Keller, op.cit., p. 228-229. (٦) K.M. Kenyon, op.cit., p. 267.

اللوتس والزنبق وأوراق البردى، وصور الحيوانات كالأسود والثيران والغزلان، وصور لآلهة آشورية مجنحة وصور لأبى الهول وبعض الآلهة المصرية، مما يدل بوضوح على تأثير مصر القوى على إسرائيل فى تلك الفترة، ولعل من أجل الصور، ذلك النقش الذى يمثل الإله «حور»، وهو يجلس على زهرة من زهور اللوتس^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأثاث العاجى لم يكن فى تلك الفترة من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وحوض البحر الأبيض المتوسط، مقصوراً على أخاب وحده، فقد اكتشفت بعثة فرنسية فى عام ١٩٢٨ م، بقايا سرير من العاج فى شمال سورية بمنطقة «أرسلان تاش» شرق قرقيش، تحمل اسم «حزائيل» ملك دمشق، الذى اعتلى العرش فى عام ٨٤٢ ق.م، كما اكتشف «سير أوستن ليارد» (١٨١٧-١٨٩٤ م) فى عام ١٨٤٩ م، أشياء مشابهة لها، وتنتمى إلى نفس العصر، فى قصر «نمرود» (كالح فى التوراة) بآشور، وكان هذا القصر قد جدد «سرجون الثانى» وينتمى معظم ما به إلى هذا العصر، وعاجياته غير آشورية فى أسلوبها ولا بد أن معظمها قد أتى من نفس المكان، الذى أتت منه مثيلاتها التى فى «السامرة» وأنها ربما كانت قد نهبت أو دفعت كجزية للعاهل الآشورية «سرجون الثانى» عند استيلائه على السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م هذا وقد اكتشف Mallowan، حديثاً مجموعات ضخمة من العاجيات فى نفس قصر نمرود، تنتمى إلى نفس مجموعات عاج السامرة^(٢).

هذا وقد وجدت «جذاذات» فى كريت، وفى أنحاء مختلفة من شرق البحر الأبيض المتوسط، بينما قد كشف عن عدد كبير منذ أكثر من نصف قرن فى «قرمونة» فى جنوب غربى أسبانيا، وبالرغم من أنه لم يوجد فى

(١) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٨٨.

K. M. Kenyon, op.cit., p. 268.

(٢)

الواقع أية نماذج في فينيقية نفسها، إلا أنه مما لا شك فيه أن أغلبها قد جاء من «ورش» فينيقية، أما النماذج الآشورية فقد جاء أغلبها من دمشق وشمال سورية، وكان التأثير المصري غالباً، وأما عاجيات السامرة فتتبع إلى مجموعتين، يمكن تأريخهما في الوقت الحالي من القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد، على التوالي، وإن كان بعض الأدلة تشير إلى أنها من عصر واحد، والوحدات الزخرفية اقتباس مصري بحث^(١).

وتقدم التوراة لنا صورة قاتمة لأخاب، فهي تشير إلى أنه قد اقترف كل أنواع الشرور، التي اقترفها أسلافه من قبل، ولعل السبب في ذلك أن «أخاب» قد تزوج من «إيزابيل» ابنة «إيشبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماماً، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في إسرائيل، نفسها، تزعمها النبي «إيليا»، ذلك لأن «إيزابيل» لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغربية عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب^(٢)، وإنما حاولت كذلك إحلال آلهة الفينيقيين شيئاً فشيئاً محل عبادة الله في مملكة إسرائيل^(٣)، وليس هناك من ريب في أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم الصورية في معبد أنشئ في السامرة نفسها من أجل هذا الغرض^(٤) - كما كان الأمر حين بنى سليمان، كما تقول التوراة، محاريب لعبادة زوجاته الأجنبية على جبل الزيتون في شرقي أورشليم^(٥).

وعلى أي حال، فلم تكن هذه الديانات هي طقوس الدولة الرسمية، ذلك لأن «يهوه»، إنما بقي بالتأكيد رب إسرائيل بالنسبة لأخاب ومملكة

(١) W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 136-137.

وانظر: الترجمة العربية، ص ١٢٤-١٣٥.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 25.

(٣) ج. كوتنوتو، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٥) ملوك ثان ٢٣: ١٣.

(٤) ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤.

إسرائيل، وأن الملك نفسه - فيما تروى التوراة - «قد عبد البعل وسجد له»^(١)، إلا أن وجود هذه الديانة الأجنبية وعبادتها في السامرة، إنما قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية، التي كانت خدمة «يهوه» هو هدفها النهائي^(٢)، وقد تزعم «إيليا» النبي الثورة ضد أخاب وزوجه إيزابيل اللذين جهدا لإلغاء عبادة «يهوه» وإحلال عبادة «البعل» في مكانها، فهما مذابح رب إسرائيل وقتلا أنبياءه، فاندفع إيليا في طول البلاد وعرضها كالإعصار مهدداً متوعداً، بأنه لا ظل ولا مطر في هذه السنين، وفي السنة الثالثة يقول الرب لإيليا: «اذهب وتراءى لأخاب فأعطي مطراً على وجه الأرض»^(٣).

ومع أن المجاعة كانت شديدة في كل مكان، إلا أنها كانت في السامرة أشد قسوة وأعنف ضراوة، وأخيراً يطلب إيليا من أخاب أن يدعو كل إسرائيل إلى «جبل الكرمل»، حيث يتلقى هناك بأنبياء البعل وعددهم ٤٥٠ نبياً - وكذا أنبياء السواري الذين يأكلون على مائدة إيزابيل وعددهم ٤٠٠ نبياً - وأصدر أخاب أمره الملكي باستدعاء «جميع بني إسرائيل وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، ويعقد إيليا مباراة بينه وبين أنبياء البعل، تنتهي بغلبة «يهوه» على «البعل»، وهنا يأمر إيليا النبي قومه أن «امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل، فأمسكهم، فنزل بهم إيليا إلى نهر «قيشون»^(٤) وذبحهم، وتسمع

(١) ملوك أول ١٦: ٣١.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 241-242.

(٣) ملوك أول ١٧: ١-١٨: ١، ١٩: ٢١، إنجيل لوقا ٤: ١٥؛ رسالة يعقوب ٥: ١٧.

(٤) نهر قيشون: ويسميه العرب «نهر المقطع»، ويجرى في وسط سهل مرج ابن عامر، بمجرى ملتو ومرج، متجهاً إلى الشمال الغربي، فيدخل سهل عكا ويصب بقرب حيفا في جهة الشمال، وأما مياهه فتأتي من جبل طابور وتلال الناصرة وجبل حرمون الصغير، وجلبوع، وأكثر مياهه من جهة الجنوب، وأما مياه عيون السعدية، التي تنبع من سفح جبل الكرمل الشمالي عند طرف سهل عكا، فتلتقي بقيشون على مبعده ثلاثة أميال من شرقي حيفا. (قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٣/٢-٧٥٤).

إيزاييل بما حدث، وفي غضب مرير تنذر قتل إيليا، انتقاماً منه لقتله كهنة البعل، وفي يأس قاتل يهرب إيليا إلى «حوريب»^(١)، ثم يعهد إلى حواريه «اليشع» ليمسح - باسم يهوه - حزائيل ملك دمشق^(٢)، رغم أنه ليس إسرائيلياً، ولم يكن عابداً، «ليهوه»، ذلك لأن رب إسرائيل - فيما يرى أبشتين - أراد أن يجعله صوت عذاب على شعبه إسرائيل، الآثم الشرير^(٣).

هذا ويرى بعض الباحثين أن هذه الصفحات التي وردت في التوراة عن «قصة إيليا»، ربما كانت تقاليد شعبية، أكثر منها حقائق تاريخية، وذلك لأسباب منها (أولاً) أننا نستطيع أن نستخلص من التوراة نفسها، أن أخاب وإيزاييل إنما كانا أول حاكمين إسرائيليين - بعد داود عليه السلام - أعطيا أبناءهما أسماء بها مقاطع من اسم الرب القومي (أخزيا ويهورام وعثليا) ومنها (ثانياً) أن «الأوستراكا» التي اكتشفت في قصر أخاب بالسامرة تبين أن هنا أسماء من هذا القبيل كانت شائعة بين موظفي الملك أخاب، ومنها (ثالثاً) أن الزوجين الملكيين لم يقوما باغتيال كل أنبياء يهوه، ذلك لأن هناك نصوصاً تشير إلى أنه قد استمع إليهم بعد ذلك، «وكان يحيط به عشية وفاته أربعمئة نبي تنبأوا له بالنصر، إلا واحداً، ومنها (رابعاً) أن إيليا لم يبلغ عبادة «بعل» في عهد أخاب، وإنما كان الملك «ياهو» (٨٤٢-٨١٥ ق.م) هو الذي فعل ذلك بعد سنوات عدة، وطبقاً لتقاليد أخرى، إنما كان ذلك هو «حزائيل» وعلى أي حال، فإن الذي مسح «ياهو» إنما كان هو النبي «اليشع»، وليس إيليا^(٤).

(١) جبل حوريب: وهو جبل سريال في وادي فيران على رأى، وهو في أدوم على رأى آخر، وهو جبل موسى على رأى ثالث (قاموس الكتاب المقدس).

(٢) ملوك أول ١٨: ١-١٩: ١٧.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 41.

(٤) ملوك أول ٢٠-٢٢، ملوك ثان ٨: ٧-١٥، ١٩-١٦؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 421.

ولعل من الأفضل هنا - وقبل متابعة الحديث عن بقية عهد أخاب، وفترة حكم ولديه أخزيا ويهورام - أن نشير إلى النبيين الإسرائيليين «إيليا» و«اليشع» فأما «إيليا» - وهو صيغة مختصرة من «إياهو»، بمعنى «الله يهوه» فربما استطعنا القول - ولكن بحذر شديد - أن إيليا التوراة هذا، إنما هو إلياس القرآن، معتمدين في ذلك على قصة هذا النبي الكريم، كما جاءت في التوراة والقرآن الكريم، فقصة التوراة تشير إلى عبادة «بعل» في إسرائيل على أيام أخاب وزوجه إيزابيل الصورية، ثم معارضة إيليا العنيفة لهذه الوثنية الصورية، ودعوته إلى عبادة يهوه رب إسرائيل^(١) - كما أشرنا من قبل -.

وأما القرآن الكريم، فقد ذكر «إلياس»، عليه السلام، مرتين، الواحدة في سورة الأنعام، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) والثانية في سورة الصافات، حيث يقول عز من قال: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِيلَاسِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) وأما متى كان عصر هذا النبي الكريم فالثابت من نصوص التوراة أنه إنما أرسل إلى بني إسرائيل على أيام الملك «أخاب» والذي كان حكمه في الفترة (٨٦٩-٨٥٠ ق.م)، أي

(١) ملوك أول ١٦: ٢٩-١٩: ٢١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٨٥؛ وانظر: تفسر الطبرى ٥٠٨/١١-٥١٠؛ تفسر القرطبي، ص ٢٤٦٧-٢٤٦٨؛ تفسر ابن كثير ٢/٢٩٠؛ تفسر المنار، ٤٨٧/٧-٤٩٠.

(٣) سورة الصافات، آية: ١٢٣-١٣٢؛ وانظر: تفسر البيضاوى ٢/٢٩٩؛ تفسر روح المعاني ٢٣/١٣٨-١٤٢؛ تفسر ابن كثير ٧/٣١-٣٢؛ تفسر القرطبي، ص ٥٥٥٩-٥٥٥٤؛ تفسر وجدى، ص ٥٩٤-٥٩٥؛ تفسر الجلالين، ص ٣٩٨؛ تفسر القاسمى ١٤/٥٠٥٩-٥٠٦١؛ تفسر مجمع البيان ٢٣/٨٠-٨٢؛ تفسر الطبرى ٢٣/٩١-٩٢؛ تفسر الفخر الرازى ٢٩/١٨٠-١٩١؛ وانظر: (الثعلبى، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، ص ٢٢٣-٢٢٩؛ أبو الحسن علي المارردى، أعلام النبوة، القاهرة ١٩٧١، ص ٥٢).

أن إلياس عليه السلام، إنما كان يعيش في القرن التاسع قبل الميلاد، وربما كان أكثر تحديداً أنه كان في النصف الأول من هذا القرن التاسع.

وأما «اليشع»، فربما كان هو نبي الله الكريم «اليسع» عليه السلام، المذكور في القرآن الكريم، في سورتي الأنعام و«ص» حيث يقول، سبحانه وتعالى: «وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين»^(١). ويقول «واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار»^(١)، ويذهب بعض المفسرين إلى أن «اليسع» معرب الاسم العبراني «يوشع»، فهو اسم أعجمي، دخلت عليه لام التعريف على خلاف القياس، وذهب آخرون إلى أنه اسم عربي منقول من «يسع» مضارع «وسع»، وأنه من ولد إسماعيل، وذهب صاحب «تفسير المنار» - وهو الأرجح فيما نعتقد - إلى أنه تعريب «اليسع»، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وكان خليفة «إلياس» (إيليا)، ومن المعهود في نقل الاسم العبري إلى العربي، إبدال الشين المعجمة بالمهملة^(٢).

(٣) أخزيا (٨٥٠-٨٤٩ ق.م):

تروى التوراة أن أخياب قد أصيب - رغم تنكره، - بسهم طائش في «حملة راموت جلعاد»، فمات في عربته، ثم نقل إلى السامرة، حيث «غسلت المركبة في بركة السامرة، فلحست الكلاب دمه، ومن ثم فقد خلفه ولده «أخزيا» على عرش إسرائيل، ولمدة عامين»^(٣)، كانت فيها الأم

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٦؛ سورة «ص»، آية: ٤٨؛ وانظر: تفسير الطبري ١١/٥١٠-٥١٢، ٢٣/١٧٢؛ تفسير الكشاف ٢/٣٤؛ تفسير الفخر الرازي ١٣/٦٤-٦٥، ٢٦/٢١٦؛ تفسير روح المعاني ٧/٢١٨-٢١٩، ٢٣/٢١١-٢١٢؛ تفسير البيضاوي ٢/٣١٢؛ تفسير أبي السعود ٢/٢٤٥؛ تفسير الطبرسي ٢٣/١٢٠-١٢٤؛ تفسير القاسمي ١٤/١١٢؛ تفسير الجلالين، ص ١٣٢، ص ٤٠٤؛ تفسير المنار ٤٨٧-٤٩١؛ تفسير القرطبي، ص ٢٤٦٧-٢٤٦٩؛ ٥٦٦٢-٥٦٦٣؛ تفسير وجدى، ص ١٧٦، ٦٠٣؛ تفسير ابن كثير ٣/٢٩٠-٢٩١، ٦٧-٦٦/٧.

(٢) تفسير المنار ٧/٤٩٠-٤٩١؛ تفسير القرطبي، ص ٢٤٦٨-٢٤٦٩.

(٣) ملوك أول ٢٢: ٣٩-٥٣.

الملكية «إيزابيل» هي التي تدير دفة الأمور في السامرة^(١).

(٤) يهورام (٨٤٩-٨٤٢ ق.م):

ورث يهورام عرش إسرائيل بعد وفاة أخيه «أخزيا»، كما ورث كذلك مشاكل إسرائيل التي بدأت منذ أخريات أيام أبيه أخاب، وهكذا نرى العناصر المناوئة مستمرة في تمرداتها، ويقوم الآراميون بالإغارة على إسرائيل، وحصار السامرة، وفي نفس الوقت تصاب البلاد بقحط شديد، فتنتشر المجاعة في العاصمة، «حتى صار رأس الحمار بشمانين من الفضة، وبيع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة»، وحتى بدأ القوم يأكلون أطفالهم^(٢).

ونقرأ في التوراة أن ملك إسرائيل، بينما جائزاً على السور، صرخت امرأة إليه تقول خلّص يا سيدي الملك، فقال لا يخلصك الرب، من أين أخلصك، أمن البيدر أو من المعصرة؟ ثم قال لها الملك: مالك، فقالت: إن هذه المرأة قد قالت لي هاتى ابنك فنأكله اليوم، ثم نأكل ابني غداً، فسلقنا ابني وأكلناه، ثم قلت لها في اليم الآخر، هاتى ابنك فنأكله فخبأت ابنها، فلما سمع الملك كلام المرأة مزق ثيابه وهو مجتاز السور، فنظر الشعب، وإذا مسح من داخل على جسده، فقال هكذا يصنع لى الله وهكذا يريد...^(٣).

ويهم «يهورام» بقتل النبي «اليشع» الذي كان قد حمله مسئولية كل هذه المصائب، رغم أن اليشع كان قد تنبأ بأن القحط سوف يزول في الأيام

(١) ليس صحيحاً ما ذهبت إليه بعض المراجع العربية من أن هذه الملكة الصورية «إيزابيل» (أربيل كما يدعونها) ابنة ملكة سبأ وأنها قد تزوجت بعد أخاب (لاجب أو آجب كما يدعونه) سبعة من ملوك إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيل، وأنها ولدت سبعين ولداً، وكانت معمرة، وأنها هي التي قتلت يحيى ابن زكريا عليهما السلام. (المأوردى، أعلام النبوة، ص ٥٢؛ الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ٢٢٤)؛ ولست أدري من أين جاءوا بكل هذا، ثم إن الفرق بين عهدا وعهد يحيى إنما يقرب من ثمانية قرون ونصف قرن، ثم إن الذي تسبب في قتل يحيى إنما هي «هيروديا» وابنتها «سالومي» (إنجيل متى ١٤: ٣-٢١١؛ تاريخ يوسفوس، ص ٢١٤؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٢٢).

(٢) ملوك ثان ٦: ٢٧-٣١.

(٣) ملوك ثان ٦: ٢٤-٢٥.

القادمة، وكما تقول التوراة، «فإن جندياً للملك كان يستند على يده»، إذ كان - فيما يبدو - يشك في النبوة، وعلى أى حال، فقد انتهت الأزمة أخيراً، وفك الآراميون الحصار على السامرة، بسبب أنباء مفاجئة عن هجوم آشورى على بلادهم^(١).

وتنتهز موآب فرصة هذه الاضطرابات العنيفة، والمجاعات القاسية، فتعلن الثورة على إسرائيل، وترفض دفع الجزية، بل وتستولى على الهضبة الخصبة شمال عرنون، تلك المنطقة التي كانت مزارعاً، ولعدة سنوات، بين إسرائيل وموآب، ولكنها أصبحت منذ أيام داود وسليمان تابعة لإسرائيل.

وفي عام ١٨٦٨، رأى المبشر الألماني الأب «ف.أ. كلاين» F.A. Ke- lin حجراً كبيراً ناعماً في «ديون» - وهي ذبيان الحالية، على مبعدة ٥ كيلاً شمال نهر أرنون وشمال غربي عراعر - ولكنه فشل في الحصول عليه، وكان الباحث الفرنسي «كلير مونت جانيو» في القدس، فعلم بالأمر، فانطلق مباشرة إلى «ديون» وأخذ الحجر المؤابي، ونقله إلى متحف اللوفر بباريس في عام ١٨٧٣ م، والحجر عبارة عن قطعة من صخور البازلت الأسود، عرضها قدمان وثلاثة بوصات، وارتفاعها أربعة أقدام، وسمكها نصف بوصة، وهو أقدم نقش تاريخي مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، ويعد أكثر الآثار قيمة عن تاريخ فلسطين، ولغته قريبة الشبه في رسمها وقواعدها باللغة العبرية القديمة، كما أن أسلوب النقش يدل على أن مؤاب لم تكن بلداً بدائياً - كما أشرنا من قبل - والأمر كذلك بالنسبة إلى عمون وأدوم والولايات الأخرى بدون شك^(٢)، وأما تاريخ هذا الحجر، فربما كان فيما بين عامي ٨٤٠، ٨٢٠ ق.م، وربما حوالي ٨٣٠ ق.م^(٣).

(١) ملوك ثان ٦: ٨-٢٣-٧: ١-٢٠، وكذا: W. Keller, op.cit., p. 230.

(٢) S.A. Cook, op.cit., p. 372; W. Keller, op.cit., p. 230-234; J. Finegan, op.cit., p. 188; M.F. Unger, op.cit., p. 755-6; C.S. Clermont - Ganneau, La Stele de Mesa, 1887.

(٣) W.F. Albright, Palestinian Inscriptions, The Mobile Stone, ANET, Princeton, 1966, p. 320.

هذا ويمكن ترجمة النص الذى جاء على الحجر المؤابى كالتالى : «أنا ميشع ابن كيموش ملك مؤاب الديونى، حكم أبى مؤاب ثلاثين عاماً، ثم حكمت بعده، وبنيت مكاناً عالياً «لكيموش» فى فورنخا، لأنه أنقذنى من جميع الملوك، وجعلنى أتحمل أعبائى، وكان «عمرى» ملك إسرائيل قد اضطهد مؤاب سنوات عدة، كان «كيموش» غاضباً على بلاده إبانها، ثم جاء من بعده ولده «أخاب» على أيامى، وقال: سوف أستذل مؤاب، ولكنى أهلكته وبيته، بينما إسرائيل قد أهلكت إلى الأبد، والآن فإن عمرى قد احتل أرض «ماديا»، وأقامت بها إسرائيل على أيامه، وفى النصف (الأول) من عهد ولده «أخاب» ولمدة أربعين سنة، غير أن كيموش قد سكن هنا فى أيامى» .

«لقد شيدت «بعل معون»^(١) وعملت فيها خزاناً، وبنيت Qaryatem^(٢) وكان رجال جاد قد سكنوا فى أرض «عطروث» وقد بنى لهم ملك إسرائيل المدينة من قبل، ولكنى حاربت المدينة واستوليت عليها وقتلت جميع سكانها إرضاء لكيموش، ومؤاب، وأحضرت من هناك مذبحاً وسحبته أمام كيموش فى قريوت Kerioth^(٢)، ثم أسكنت هناك رجال «شارون» و«ماخاروت» وقد قال لى كيموش: اذهب وخذ «نبو» من إسرائيل، فذهبت إليها ليلاً وحاربتها من الفجر حتى الظهر، وتغلبت عليها وذبحت كل سكانها، سبعة آلاف رجل وطفل وامرأة وفتاة وخادمة، ووهبتهم للإله «عشتار - كيموش» وأخذت مذابح «يهوه»، وجررتها أمام كيموش، وقد بنى ملك إسرائيل «جهاز» Jahaz وسكنها إيان حربه معى، لكن

(١) بعل معون: وتدعى الآن معين، وتقع على مبعدة تسعة أميال إلى الجنوب الغربى من حسان.

(٢) قرياتين: وجاء فى التوراة تحت اسم «قريتايم» وهى «خربة القرياث»، الحالية، التى تقع شمال نهر أرنون، وعلى مبعدة ميلين ونصف الميل شرقى «عطاروت»، التى جادت هنا تحت اسم «عطروث» (خربة عطاروس الحالية)، على المنحدر الغربى من جبل عطاروس، وعلى مبعدة ثمانية أميال شمال غرب ذيان. (قاموس الكتاب المقدس، ٦٣١/٢-٦٣٢، ٧٣٩).

كيموش هزمه أمامي، فلقد أخذت مائتي رجل من المحاربين الممتازين ووضعتهم أمام «جهاز» فأخذتها وضممتها إلى «ديون».

«أنا الذي بنيت فورخا والسور الخشبي والمتاريس، وأعدت بناء بواباتها وأبراجها، وشيدت قصر الملك، وحفرت خزانات المياه في المدينة، ولم يكن في فورخا صهاريج، فأمرت جميع الناس: ليعمل كل منهم صهريجاً في بيته وحفرت أقبية فورخا بواسطة الأسرى الإسرائيليين، وقد أعدت بناء «عروعر»^(١) وعبدت الطرق في وادي أرنون، وشيدت «بيت - باموت»^(٢) لأنها كانت قد دمرت، وبنيت «بيزر» التي خربت بمساعدة خمسة عشر رجلاً من «ديون»، لأن كل «ديون» إنما كانت تخضع لسلطاني، وحكمت المائة مدينة التي ضممتها إلى مملكتي بسلام، وأعدت بناء «مادبا» و«بيت ديلاتون» و«بيت بعل معون»، وأخذت إلى هناك أصحاب الماشية والقطعان، وسكن «الدبونيون» في «حورونين»^(٣) Haaronen وقد قال لي كيموش: اذهب وحارب المدينة (حورونين) وخذها، وكن كيموش هنا في عهدي»^(٤).

(١) عروعر: وتسمى الآن عراعر، وتقع على مبعدة ١٢ ميلاً شرقى البحر الميت، جنوبى ذبيان بقليل.

(٢) بيت باموت: ربما هي «خربة القوقية» الحالية، على مبعدة ميلين ونصف إلى الجنوب من «نبو» . (قاموس الكتاب المقدس، ١/١٦٠).

(٣) حورونين: كلمة مؤنسية بمعنى: كهفان أو هدتان، وقد جاءت في التوراة تحت اسم «حوروناي»، وهي اسم لمدينة مؤنسية غير بعيدة، من «صوعر»، ولا شك أنها مدينة «أورناي» التي أخذها «الإسكندريانوس» من العرب، وردّها ولده هيركانوس إلى الحارث النبطي . (قاموس الكتاب المقدس ١/٣٢٦).

(٤) انظر عن ترجمة نص الحجر المؤابي: نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٣٩٧-

٣٩٩؛ وكذا: محمد يومي مهران، بلاد الشام، ص ٣٧٢-٣٧٣، الإسكندرية ١٩٩٠؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 756; S.A. Cook, op.cit., p. 372-3; J.B. Fritchard, ANEA, 1958, p. 209F; W.F. Albright, ANET, 1966, p. 320-321; G.A. Cooke, The Text Book of North-Semitic Inscriptions, Oxford, 1903. p. 14; R. Dussaud, Le Monuments Palestiniens et Judaiques (Musée du Louvre), 1912, p. 4, 22; J. Finegan, op.cit., p. 188-189.

ونقرأ فى التوراة أن «ميشع ملك موآب كان صاحب مواش فأدى لملك إسرائيل مئة ألف خروف، ومئة ألف كبش بصوفها، وعند موت أخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل»^(١)، وأما نص «الحجر» المؤابى، فيذهب كما - رأينا - إلى أن «عمرى» وولده «أخاب» قد اضطهدوا مؤاب أربعين عاماً، كان «كيموش» - إله مؤاب - غاضباً على بلاده أثناءها، ولكن ما أن يعتلى «ميشع» العرش حتى يسرع بخلع نير إسرائيل ثم يقوم بحملة مظفرة ينجح فيها فى توسع الحكم المؤابى على مدى خط العرض فى الطرف الشمالى من البحر الميت وإخضاع المستعمرات الإسرائيلية، والمدن الخاضعة لإسرائيل فى الهضبة الخصبة شمال عرنون^(٢)، ثم نهب المعبد الإسرائيلى فى «نبو» - وهى خربة المخيط جنوبى شرقى حسيبان ٨ كيلاً - ووهب سبعة آلاف من سكانها للإله «عشتار - كيموش» وتخليداً لانتصاره فقد كرس المكان العالى للإله «كيموش» فى «فورخا»^(٣).

وهنا تضطر إسرائيل إلى طلب المعونة من يهوذا وأدوم، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب، وهذا يستدعى الدوران حول البحر الميت، اعتماداً على نبوءة فى التوراة، تقول: «لا ترون ريحاً ولا ترون مطراً، وهذا الوادى يمتلئ ماء، فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم»^(٤)، وهكذا خاطر الحلفاء بالسير فى هذا الإقليم القفر، «وداروا مسيرة سبعة أيام، ولم يكن هناك ماء للجيش والبهائم التى تبتعتهم، وطبقاً لنصيحة النبى «اليشع» فقد ملأوا الوادى حفراً وخنادق، وعند الصباح، وإذا مياه آتية عن طريق أدوم فامتلات الأرض ماء»، ورأى جواسيس مؤاب المياه حمراء كالدم فظنوا أن الأعداء بدأوا يضربون بعضهم البعض، وهكذا تمكن الحلفاء من نشر الخراب فى مؤاب، «وهدموا المدن وكل واحد يلقي حجره فى كل حلقة جيدة حتى

M. Noth, op.cit., p. 244-245. (٢)

(١) ملوك ثان ٣: ٤-٥.

(٤) ملوك ثان ٣: ١٧.

(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 372.

ملأوها وطمحوا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة، وهنا يضطر ملك مؤاب إلى أن يقدم ولده البكر محرقة على أسوار قلعة المدينة، استرضاء للإله كيموش، وبهذه الوسيلة اضطر ملك إسرائيل وحلفاؤه إلى الانسحاب^(١)، وإن كان هذا يعنى - فى الوقت نفسه - أن الغزاة فى الحقيقة إنما قد ردوا وطردها.

وهكذا يبدو واضحاً، أن النصين - المؤابى والتوراتى - جد مختلفان، إذ أن كلا منهما يزعم أن النصر كان حليفه، وأن الخراب والدمار إنما كانا من نصيب أعدائه، مما يدل على أن ما ذهب إليه البعض، من أن ما ورد فى حجر مؤاب، إنما يؤيد قصة الكتاب المقدس تماماً^(٢)، أمر يحتاج إلى إعادة نظر، بل إن رسالة النصر المؤابية هذه إنما قد أثارت اهتماماً كبيراً فى الدوائر التى وجدتتها، تخالف ما جاء فى التوراة، حتى رأينا كثيراً من الباحثين لا يخفى شكه فى أن الرسالة مزيفة، ولكن الاختبارات الدقيقة أثبتت أن الحجر المؤابى ونقوشه بعيدة عن الشك تماماً، وأنها وثيقة تاريخية لا ريب فيها، وأن النص سجل معاصر للملك «ميشع» ملك مؤاب الذى جاء ذكره فى التوراة، كما أنها وثيقة مكتوبة بكتابة فلسطينية قديمة، تؤرخ بحوالى عام ٨٤٠ ق.م - وربما كان الأرجح عام ٨٣٠ ق.م - كما أشرنا من قبل - وبلهجة مؤابية قريبة الصلة بالعبرية التوراتية^(٣).

وعلى أى حال، فإننا إذا ما أردنا أن نقف موقف المحايدين بين النصين - المؤابى واليهودى - لرأينا أن كلا منهما إنما يعبر عن وجهة نظر أصحابه، وإن اتفق النصفان على أن الحملة قد انتهت بهزيمة إسرائيل وحلفائها، ولكنهما يختلفان فى أن النص التوراتى قد أطنب فيما أحرزته إسرائيل من

(١) ملوك ثان ٣: ٩-٢٧.

(٢) يسى منصور، عصمة الكتاب المقدس، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٢٧-٢٨.

W. Keller, op.cit., p. 233.

(٣)

نجح - بادئ ذي بدء - بينما يمر النص المؤابي على ذلك مر الكرام ، وأن التوراة تشير إلى النتيجة النهائية باختصار، بينما يطنب فيها نص مؤاب، وأما قول النص المؤابي أن إسرائيل قد أبيدت إلى الأبد، فربما كان يعنى الإبادة الدموية لأسرة عمرى^(١)، هذا إلى أن التوراة تجعل ثورة مؤاب بعد وفاة آخاب^(٢)، بينما الذى يفهم من النص المؤابي أن ذلك إنما كان منذ النصف الثانى من حكم أخاب، أضف إلى ذلك أن النص المؤابي إنما هو وثيقة تاريخية، تتحدث بوضوح عن جهود الملك المؤابي «ميشع» فى كفاحه المرير ضد إسرائيل وحلفائها من يهوذا وأدوم، وتخليصه لكثير من المدن المؤابية من النير الإسرائيلى، فضلا عن الإنشاءات المدنية والدينية التى أقامها فى هذه المدن بعد طرد يهود منها، بينما النص التوراتى لا يعدو أن يكون واحداً من نصوص التوراة، يسجل - كما يسجل غيره - أمجاد يهوه رب إسرائيل، ورعايته لشعبه ومن تحالف معهم، عن طريق نبوءات لواحد من أنبياء يهود، تبشر برعاية يهوه لهم فى صحراوات شرق الأردن، ومع ذلك فهذه الرعاية لم يكتب لها أى نجاح - طويل المدى أو قصيره - أمام قوات مؤاب.

رابعاً - أسرة ياهو (٨١٢-٧٤٥ ق.م):

(١) ياهو (٨٤٢-٨١٥ ق.م):

تحدثنا التوراة فى سفر الملوك الثانى - أن الإسرائيليين بينما كانوا فى حومة الوغى فى «راموت جلعاد» - تل راميث الحالية فى شرق الأردن - يحاولون استعادتها من بين أنياب الأسد الآرامى القوى، إذا بالنبي «الميشع» يرسل بواحد من «بنى الأنبياء» ليمسح «ياهو» - أحد ضباط يهورام - ملكاً على إسرائيل، ومبيداً لبيت أخاب، ورغم ما فى ذلك من خيانة قومية، من جانب الأنبياء والقائد، سواء بسواء، ورغم ما فى ذلك من خطورة على الكيان القومى، وما فيه من القضاء على تماسك الجبهة الداخلية، إبان قيام

المعارك الضارية بين إسرائيل وأعدائها، فإن القائد الإسرائيلي (ياهو) سرعان ما يندفع في وحشية لطيف بآخر ملوك أسرة عمري، ويعتلى العرش الإسرائيلي بنفسه (٨٤٢-٨١٥ ق.م)، فيتقدم على رأس كوكبة من أتباعه إلى «يزرعيل»^(١) - حيث كان يهورام بن أخاب يستشفى من جرح أصيب به من ملك آرام (حزائيل) - فيقتله ويطرح جثته في حقل «نابوت» اليزرعيلي^(٢).

ويرى «أخزيا» ملك يهوذا - حليف يهورام وابن أخته عثليا - ما حلّ بخاله ملك إسرائيل، فيحاول الهرب، ولكن «ياهو» يأمر واحداً من رجاله بأن يلحق بملك يهوذا الهارب، ويفعل الرجل ما أمر به، ويطعن أخزيا طعنة قاتلة، يموت بسببها في «منجدو» بعد ذلك بفترة قصيرة، وهكذا يستولى «ياهو» على يزرعيل، حيث يجد هناك «إيزابيل» - أم يهورام، وجدة أخزيا، وزوج أخاب - في انتظاره، وقد جمعت نفسها لتزف إلى الموت، فيأمر أن يقذف بها من نافذة القصر الملكي في يزرعيل، ثم يَطْوُها تحت حوافر خيوله، ويختتم «ياهو» المأساة المروعة بأن يدبر مذبحه هميجة، تراق فيها دماء اثنين وأربعين من أمراء بيت آل داود، أتوا من أورشليم في زيارة ليزرعيل، ولكنها - رغم بشاتها - لا تروى ظمأه المتعطش إلى الدماء، فيرسل إلى «السامرة» يطلب من نبلائها أن يأتوا إليه برؤوس سبعين أميراً من ولد أخاب^(٣).

(١) يزرعيل: مدينة في سهل يزرعيل بين جلبوع وجبل الدجى، اختارها أخاب مقراً له، وبقرها هيكل لعشتارت كان يأكل فيه ٤٠٠ نبياً (كاهناً) على مائدة إيزابيل، وكان قصر أخاب في الجهة الشرقية من المدينة، وربما كان فيه «بيت العاج»، ويرجح أن حقل نابوت إنما كان على تل في شرقي المدينة، وقد أصاب المدينة تدهور كبير بعد عهد أسرة أخاب، ويرجح أن مكان يزرعيل الآن، هو قرية «يزرعين»، وحولها صهاريج وآبار، وإن لم توجد آثار للقصر الملكي. (انظر: ملوك ١٨: ١٩، ٢١: ٢٢-٢٣، ملوك ثان ١٠: ٣٩، قاموس الكتاب المقدس، ١٠٦٤/٢).

(٢) ملوك ثان ٩: ١-٢٦.

A. Lods, op.cit., p. 383.

(٣) ملوك ثان ٩: ٢٧-٣٧، ١٠: ١-١٧، وكذا:

وانتجه «ياهو» بعد ذلك إلى السامرة وبصحبته - وفي عربته الحربية ذاتها - «ياهوناداب» بن ركاب القيني، المتحمس ليهوه ضد البعل، وهناك «قتل جميع الذين بقوا لأخاب في السامرة»، ثم تقدم إلى معبد البعل، وادعى أنه أكثر إيمانًا بالبعل من أخاب، لينجمع إليه «جميع أنبياء البعل، وكل عابديه وكل كهنته، وفي لحظة من التعصب الديني البغيض ذبح «ياهو» كل من اتخذ البعل ربًا، ودمر معبده^(١)، وهكذا كانت ثورة ياهو دينية، كما كانت سياسية كذلك، فقد قضى على أسرة عمرى تمامًا، كما أيد أتباع البعل في مذبحه بقيت في ذاكرة القوم مروعة، ولفترة طويلة بعد ذلك^(٢).

وبدأ «ياهو» يتخذ سياسة جديدة، فهو لم يعتنق المبدأ القائل بأن سورية «دولة حاضرة» Buffer State، بين إسرائيل ودولة آشور القوية، وأن بقاءها قوية إنما هو خير لإسرائيل، كما هو خير لدمشق، ومن هنا نراه حين يقوم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) بحملة جديدة على دمشق في عام ٨٤٢ ق.م، لم يرسل بقواته لمساعدة «حزائيل» ملك دمشق، بل إنه يسرع في إرسال بجريته إلى العاهل الآشوري المنتصر، كما يبدو ذلك واضحًا في المسلة السوداء، حيث نرى «ياهو» راكعًا أمام شلمنصر، يقبل الأرض عند قدميه في ذلة وخضوع، ويدفع الجزية على هيئة أوان من الفضة والذهب والرصاص^(٣).

وزاد الطين بلة، أن علاقاته بجيرانه كانت سيئة، فقد أدت ثورته التي راح ضحيتها أفراد البيت المالكة - وبخاصة إيزابيل - إلى قطع العلاقات الودية مع صور، ومن ورائها المدن الفينيقية الأخرى، كما أن وجود «عشيليا»

(١) ملوك ثان ١٠: ١٥-٢٨.

C. Roth, op.cit., p. 26.

(٢) هوشع ١: ٤، وكذا:

A. Loe Oppenheim, ANET, p. 281; A.H. Layard, op.cit., p. 282.

(٣)

- ابنة أخاب وإيزابيل، وأم أخزيا ملك يهوذا الذى ضرب به ياهو فى يزرعيل ضربة قاتلة - تمسك بزمام الأمور فى يهوذا، أفقد إسرائيل عطفها وحولها إلى دولة معادية، ولم تكن إسرائيل وقت ذلك قوية بالدرجة التى تستطيع معها أن تجعل يهوذا مجرد تابع لها، وهناك فى شرق الأردن كانت مؤاب مائزال تدق طبول انتصارها على إسرائيل^(١).

وهكذا وجد «ياهو» نفسه وحيداً فى الميدان، فالتجّه إلى آشور يطلب عونها أو حمايتها، ولكن آماله خابت حين أرسلت آشور فى عام ٨٣٩ ق.م، حملة إلى دمشق، ثم غابت عن الميدان فلم يشعر بوجودها أحد فى الغرب قرابة ثلاثين عاماً، إما بسبب ضعف ألم بأشور نفسها، وإما لانشغالها بحروب على الحدود الأخرى^(٢)، وهكذا بدأ «حزائيل» ملك دمشق يتجه نحو إسرائيل، ليعيد سيادة الآراميين عليها، وليحقق «نبوءة اليشع» النبىء الإسرائيلى من حرق مدن إسرائيل وقتل الشباب والأطفال، وبقر بطون الحوامل من النسوة، ومن أسف فإنه لا توجد تفاصيل عن هذه المعارك فى التوراة، ومع ذلك فإن النبىء عاموس حين تطلع إلى الراء، فإننا نراه يذكر أن الآراميين قد خربوا أرض جلعاد^(٣).

ونقرأ فى التوراة أن إسرائيل قد فقدت كل ممتلكاتها فى شرق الأردن، حيث استولى، حزائيل، على جميع أرض جلعاد الجاديين والراؤيين والمنسيين من عروعر التى على وادى أرنون وجلعاد وباشان^(٤)، وقد شجعت انتصارات دمشق أعداء إسرائيل القدامى على مهاجمتها، وأيد حزائيل الفلسطينيين فى نزاعهم مع إسرائيل ويهوذا على السواء، واستغل العمونيون الفرصة فى غزو أرض جلعاد - جنوب يبوق - لتوسيع حدودهم،

A. Lods, op.cit, p. 384.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 34.

(١)

(٤) ملوك ثان ١٠ : ٣٢-٣٣.

(٣) ملوك ثان ٨ : ١٢، عاموس ١ : ٣.

وطبقًا لما جاء في سفر عاموس، فقد دمروا جلعاد وبقروا بطون الحوامل هناك^(١).

(٢) يهوأحاز (٨١٥-٨٠١ ق.م):

وصلت إسرائيل في عهد «يهوأحاز» هذا إلى الحضيض في ذلتها إلى مجرد التابع لآرام^(٢)، ثم حوصرت «السامرة» ولم ينقذها إلا رعب فجائي في معسكر العدو^(٣)، وهكذا أصبحت أحوال إسرائيل على أيام «يهوأحاز» أسوأ مما كانت على أيام أبيه، وأذاقها حزائيل من الذلة والمهانة، ما لم تتعرض لمثيله من قبل، ونقرأ في التوراة أن جيش إسرائيل قد ضعف على أيام يهوأحاز، حتى أنه «لم يبق له شعبًا، إلا خمسين فارسًا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل، لأن ملك آرام قد أفناهم، ووضعهم كالتراب للدوس»^(٤)، ويبدو أن حزائيل قد أخضع كل البلاد أثناء قيامه بحملة ضد يهوذا، لأنه قد استولى على «جت» عند حدود يهوذا الجنوبية الغربية، وكان على وشك أن يهاجم أورشليم نفسها، ما لم يغره «يهوآش» (٨٣٧-٨٠٠ ق.م) ملك يهوذا - حفيد وخليفة عثليا - بإعطائه كل كنوز خزائنه^(٥).

وهكذا أصبحت دمشق تسيطر على كل من مملكتي العبرانيين - إسرائيل ويهوذا - وإن تعرضت الأولى للذلة والمهانة أكثر من الثانية، ويتوغل الآراميون إلى تخوم السامرة ذاتها، وخيل يومئذ أنها وشيكة الانحلال، ولكن ساعة إسرائيل لم تكن قد دنت بعد، وكان مقدراً لها أن تصحو مرة أخرى من هذه الإغفاءة إلى أن يجيء يوم دمارها وفنائها^(٦).

I. Epstein, op.cit., p. 42.

(٢)

(١) عاموس ١: ١٣.

(٤) ملوك ثان ١٣: ٧.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 27.

A. Lods, op.cit., p. 385.

(٥) ملوك ثان ١٢: ١٧-١٨، وكذا:

(٦) حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون يتكلمون، ص ١٤.

٣ - يهوآش (٨٠١-٧٨٦ ق.م):

خلف «يهوآش» آباه «يهوأحاز» على عرش إسرائيل، وسرعان ما يقوم «أدد - نيرارى» الثالث (٨١٢-٧٨٢ ق.م) ملك آشور بحملة على دمشق، ليجبرها على الخضوع ودفع الجزية، وتنتهز إسرائيل الفرصة ويتمكن «يهوآش» من هزيمة الآراميين ثلاث مرات فى «أفيق» ويسترد المدائن التى فقدوها أبوه فى غرب الأردن^(١).

٤ - يربعام الثانى (٧٨٦-٧٤٦ ق.م):

جاء «يربعام الثانى» بعد أبيه «يهوآش» وظل يحكم إسرائيل نحواً من أربعين عاماً، كانت عودة قصيرة للأيام الهادئة فى حياة إسرائيل، فقد كانت آشور فى شغل عن فلسطين بمشاكلها الداخلية، ولم تعد دمشق منافساً خطيراً، واهتبلت إسرائيل الفرصة لاستعادة الأقاليم المفتوحة واستغلال الموقف لصالحها، ونقرأ فى التوراة أن يربعام «رد تخم إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العرب»^(٢) (البحر الميت)، ورغم ما فى هذا النص من غموض ومبالغة، فإن إسرائيل على أيام «يربعام الثانى» كانت دون شك من أقوى الولايات الفلسطينية.

وهكذا بدا فى الأفق أن يربعام هو المخلص الحقيقى لإسرائيل (أفرايم) فقد كانت القوة والرخاء فى عهد مصحوبين بانتعاش دينى، وبدت روح الورع وكأنها تسود فى كل مكان، واحتشدت المحاربين، وتدفقت القرايين، وحفوظت على الأعياد بدقة، ولكن كل هذه المظاهر الخارجية للديانة قد نوئت بالوثنية، فلم تتجه إلى عبادة «يهوه» النقية، وإنما للتوفيق بينها وبين عبادة العجول الذهبية^(٣)، ومن هنا نرى عاموس يقول بغضب على لسان

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤١٢، ملوك ثان ١٣ : ٢٥.

(٢) ملوك ثان ١٤ : ٢٥.

I. Epstein, op.cit., p. 42.

(٣)

ربه يهوه: «بغضت كرهت أعيادكم، وليست ألتذ باعتكافاتكم، إننى إذا قدمت لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع، وليجر الحق كالمياه، والبر كنهر دائم»^(١).

هذا وقد سار الانحطاط الخلقي فى نفس الطريق الذى سار فيه الانحطاط الدينى، ونقرأ فى سفر عاموس عن المقر الملكى - الشتوى والصيفى - فى منازل من عاج، وأخرى من أبنوس، وعن قصور فخمة، جاورتها أخصاص خشنه^(٢)، وعن الأغنياء الذين أكلوا خرافاً وعجولاً، وشربوا كئوس الخمر على أصوات الرباب والآت الغناء، ودهنوا أجسادهم بأفضل الطيب والأدهان، ولكن هذه المتع وأسباب الرفاهية والنعماء قد اقتنصوها بالظلم والاعتصاب، وإرهاق الفقراء والمعوزين، الذين كانوا يباعون كما تباع السائمة وفاء لحقوق دائنين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سيلاً، وباقتراف الغش فى التجارة والموازن الباطلة والسلع التافهة، وأخذ الهدايا والرشوة، وهكذا اضمحلت الفضائل فى الحياة العامة والخاصة، وحتى العدل قد اعوج فى المحاكم والقضاء، فيصرخ عاموس النبى (٧٦٠-٧٤٦ ق.م) صرخته الداوية: «رؤساء متمردون وشركاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم».

هذا وقد بلغت الإباحية حداً شنيعاً مخزياً حتى ليذهب «رجل وأبوه إلى صبية واحدة، فيدنسوا اسم قدسى»، ولم يخف التجار خيانتهم ومطامعهم، لكى «يسيدوا بائسى الأرض»، وتجاهل القوم كل الشرائع الإنسانية، فتمددوا على ثياب مرهونة، وشربوا «خمر المجرمين فى بيت آلهتهم»^(٣).

(١) عاموس ٥: ٢١-٢٤.

C. Roth, op.cit., p. 27.

(٢) عاموس ٣: ١٥، وكذا:

(٣) عاموس ٢: ٦-٨، ٣: ١٠، ٦: ٤-٨، ٦: ٦، حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧، النفس

عاموس عبد المسيح، دراسات فى عاموس، ترجمة حارث قريضة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٦٦-٧٣.

ويبدو أن أساس المجتمع الاقتصادى بأسره قد تعرض لثورة صامتة إبان القرن السابق، فلم تعد الأرض يملكها ويفلحها «التوايت» وهم فلاحون أحرار يتوارثون حقول أجدادهم ويكفلون بحملهم المتواصل عيشًا شريفًا لأنفسهم وأسرهم، بل تحولت الملكيات الصغيرة إلى ضياع واسعة، وكان معظم من يفلحونها من العبيد، وهى صورة تبدو لنا بعد ذلك بجيل من أقوال «إشعيا» الأول (٧٣٤-٦٨٠ ق.م)، و«ميشا» (٧٤٠-٧٠١ ق.م) وتعرض لنا بين حين وآخر إشارات تدل على الوسائل التى حدث بها هذا التحول ويلوح لنا أن ما فعلته «إيزاييل»، زوج أخاب، مع «نابوت» اليزرعى^(١) قد حدث بعد ذلك مرارًا وتكرارًا، فأصبح المالك - وقد أثرت فيه الحروب القاسية التى نشبت على الحدود فأفقرته وأفلسته - فلاحًا يستأجر الأرض من مالكيها، ثم أصبح فى آخر الأمر مسترقًا، وارتفع مستوى الترف بين الأغنياء، وهبط مستوى المعيشة بين الفقراء، وأخذت الفجوة بين هاتين الطبقتين تتسع على مرّ السنين^(٢).

هذا وتظهر لنا أحداث التاريخ أن أحوالا كهذه لا يمكن أن تنتهى إلا بأحد أمرين، فإما أن تحتفظ بالطبقات الدنيا بشيء من الرجولة يثير حفيظتهم ويدفعهم فى النهاية إلى الانتفاض على استبداد الأقلية، فيحدثون انقلابًا يززع كيان النظام الاجتماعى الداخلى، وإما أن يفقدوا روحهم المعنوية فتتفكك أوصال الأمة، وتقع فريسة سهلة لكل فاتح جريء قوى، والهلاك نهاية كل من الأمرين، وليس من الواضح أن عاموس فكر فى الأمر على هذا النحو، أو أنه كان يفكر فى عدو بعينه يريد أن يغتصب البلاد، ولكنه كان يرى أن الحضارة ممثلة فى «السامرة» و«بيت إيل» مقضى عليها بالزوال، ولم يكن يجد فى الدين - وقت ذاك - سندًا لأنه كان فى أحسن وجوهه طائفة

(١) ملوك أول ٢١: ١-١١.

(٢) تيودور رونسون، المرجع السابق، ص ١٢١.

من الشعائر لا تقوم على وازع خلقى، وفى أسوئها لا يبيح المفسد التى يشكو النبىُّ منها فحسب، بل يشجع عليها أيضاً^(١).

٥ - زكريا (٧٤٦-٧٤٥ ق.م):

خلف زكريا أباه على عرش إسرائيل، غير أنه لم يحكم أكثر من ستة أشهر قتله بعدها مغتصب للعرش يدعى «شلوم بن يابيش» (٧٤٥ ق.م)^(٢)، وهكذا انتهت الأسرة، كما بدأت، بدم مسفوك، تحقيقاً لنبوءة عاموس^(٣).

خامساً - أخريات أيام إسرائيل:

أعقب الانهيار سقوط أسرة «ياهو»، وكان انهياراً سريعاً متلاحقاً متصل الحلقات، لم يستغرق أكثر من ربع قرن من الزمان، أو قريب من هذا، وقد توالى الأحداث فى هذه الفترة القصيرة من الزمن فى عنف وسرعة، وهى لم تكن على أية حال، أحداثاً داخلية، رغم ما تشير إلى ذلك التوراة، لم تكن بسبب نجاسة أفرايم (إسرائيل)، وغضب الرب بسبب تخليهم عنه وعكوفهم على عبادات أخرى، بل إن هناك عوامل خارجية كانت الأداة الفعلية لهدم إسرائيل والقضاء عليها، كانت هذه العوامل تتصل بدمشق وأشور، دمشق بحلفها مع إسرائيل ضد يهوذا وأشور، ثم أشور باهتمامها بشئون الغرب - تحت قيادة ملكها «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)^(٤).

كانت أشور ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين، هو الشرط الأساسى لنجاح إمبراطوريتها، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة سورية وفلسطين من أخشاب نادرة فى الشرق، وبسبب ثروتها المعدنية وساحلها الطويل على البحر الأبيض المتوسط، وتجارتها الغنية فحسب، ولكنه ان كذلك - وفى نفس الوقت - المدخل إلى جنوب شرق اسيا الصغرى من

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢١. (٢) ملوك ثان ١٥: ٨-١٢.

(٣) عاموس ٧: ٩.

(٤) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٤١٤ وانظر: هوشع ٧: ٨-١٣، عاموس ١: ٥، ٢: ٢٥.

ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ولهذا كله فقد اتخذ «تجلات بلاسر» الخطوات الجادة مباشرة وتثبيت سيادة آشور على فلسطين وسورية، ومن هنا، فإنه لم يقنع - كغيره من الحكام الآشوريين - بقبول الجزية ممن يخضعهم من الأمراء السوريين والفلسطينيين^(١)؛

١ - شلوم (٧٤٥ ق.م) :

انتهت أسرة «ياهو» - كما أشرنا آنفاً - على يد «شلوم بن يابيش» الذى اغتصب العرش بعد ذلك، ولكن هيهات للغاصب أن يحتفظ طويلاً بما سلب واغتصب، ومن ثم فقد قتل بعد شهر من قتل زكريا بن يربعام^(٢).

٢ - منحيم بن جادى (٧٤٥-٧٣٦ ق.م) :

هو مغتصب آخر من «ترزة» نجح فى قتل «شلوم» واغتصاب عرش إسرائيل بعده، ونقرأ فى التوراة عن فظائع الحرب الأهلية التى أعقبت ذلك، والانتقام المرير الذى صبه «منحيم» على الذين لم يرضوا مسأيرته، حتى أنه فى «تفصح» - وهى تفسح الحالية على مبعدة ١٠ كيلاً إلى الجنوب الغربى من أورشليم - بقر بطون الحوامل من نسوتها، ورغم ذلك كله، فلم يستطع «منحيم» توطيد عرشه بدون عون من الخارج، فلما غزا تجلات بلاسر الثالث (فول) إسرائيل، أحنى له منحيم رأسه، وخفض له جناح البذل، وابتاع معونته بالمال، «ألف وزنة من الفضة» فرضها ضريبة على بنى قومه من أصحاب الأملاك، ليقدمها هدية أو رشوة لعاهل آشور، استرضاء له واستجداء لمعونته على صيانة العرش^(٣).

M. Noth, op.cit., p. 253.

(١)

(٢) ملوك ثان ١٥ : ١٣-١٦.

(٣) ملوك ثان ١٥ : ١٧-٢٢؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٦.

٣ - فقحيا (٧٣٦-٧٣٥ ق.م):

جاء «فقحيا» هذا على عرش إسرائيل بعد موت أبيه «منحيم» ولمدة سنتين، وعمل الشرف في عيني الرب، لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط، الذي جعل إسرائيل يخطئ ففتن عليه «فقح بن رمليا» وضربه في السامرة في قصر بيت الملك مع أرجوب ومع أربعة وخمسون رجلا من بني الجلعايين، قتله وملك عوضاً عنه^(١).

٤ - فقح (٧٣٥-٧٣٣ ق.م):

تروى التوراة أن «فقح» هذا، إنما جلس على عرش إسرائيل لمدة عشرين عاماً^(٢)، على أن المؤرخين المحدثين إنما يرون أنها لم تتجاوز أعواماً أربعة، كانت في الفترة (٧٣٥-٧٣٢ ق.م)^(٣)، وربما أقل من ذلك (٧٣٤-٧٣٣ ق.م)^(٤)، وعلى أي حال، ففي هذه الفترة تقوم دمشق بدور قيادي ولاحر مرة، إذ تكونت كتلة سياسية بزعامة «رصين» ملك دمشق - ومن ورائه كل تحالف الدويلات الآرامية - ضد الآشوريين، ثم سرعان ما انضم إلى «رصين» الفينيقيون والدويلات العربية والمدن الفلسطينية، وكذلك الآدوميون، ثم أخيراً انضمت إسرائيل إلى هذا التحالف ولم يبق خارجه إلا «أحاز» ملك يهوذا^(٥)، ومن ثم فإننا نقرأ في التوراة أن أورشليم قد هوجمت بقوات دمشق والسامرة بغية إزاحة «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ ق.م) عن عرشها، وتويع واحد من الآراميين في مكانه، ليضم يهوذا إلى الحلف القائم ضد آشور^(٦)، كما نقرأ كذلك أن «رصين» أرجع «زيلة» للآراميين، وطرده

(١) ملوك ثان ١٥: ٢٣-٣٦. (٢) ملوك ثان ١٥: ٢٧.

(٣) W.F. Albright, The Biblical Period, p. 117; Historical Atlas of The Holy Land, p. 82.

(٤) P.K. Hitti, The Near East in History, Princeton, 1961, p. 99.

(٥) W. Keller, op.cit., p. 241-242.

(٦) ملوك ثان ١٦: ٥؛ إشعيا ٧: ١-٤؛ وكذا:

Emil G. Kraeling, Aram and Israel, N.Y., 1918, p. 116.

اليهوديين منها^(١)، هذا ويسجل لنا مؤرخ أخبار الأيام الثانى تلك المذابح العظيمة التى وقعت فى يهوذا، والنفى إلى دمشق لعدد كثير من أسرى اليهود^(٢)، مما أثار النبىء إشعياء إلى حد كبير^(٣).

وهكذا هدد الجيش المهاجم بيت داود وأثار فيه الهلع، فارتجفت قلوب القوم - كما ترتجف أشجار الغابة فى مهب الريح - وحاول إشعياء النبىء - بكلمات ملؤها الأمل - أن يشجع أهل يهوذا، بتحقيقه لضعف «فصح» و«رصين» ثم تشبيههما بالأطراف البالية من فرع شجرة محترقة، وبما له من قدرة على التعبير طالب بالثقة فى يهوه «إن لم تؤمنوا فلا تؤمنوا» ولكن «أحاز» الذى كان مضيقاً عليه الخناق، وقلقاً فى أورشليم، قد فقد الثقة فى نفسه، وفى ربه يهوه كذلك، ومن ثم فقد قرر أن يستدعى قوات آشور لحمايته، ثم يرسل الهدايا من خزائن المعبد والقصر لـ «تجلات بلاسر» (تغلت فلاسر)، سائلاً إياه - بل وملحاً فى سؤاله - أن ينقذه من ملكى دمشق والسامرة، على شريطة أن يكون له «عبداً وابناً»^(٤).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الملك الآشورى لم يستجب سريعاً لنداء «أحاز» غير أن هناك ما يشير إلى أن «تجلات بلاسر» إنما كان فى تلك الآونة فى شمال سورية، وربما كان مع جيشه فى مكان ما فى مجاورات دمشق، وعلى أى حال، فمن الواضح أن الأحداث - بدأت تتحرك سريعاً، ويفضل التدخل لآشورى السريع - والحاسم كذلك - أنقذ أحاز من موقفه الصعب، قبل أن تسقط أورشليم فى أيدي المهاجمين من الآراميين والإسرائيليين، وإن كان «تجلات بلاسر» بالتأكيد، ما كان بحاجة إلى توسلات أحاز اليهودى ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، فقد كان هدفه

(١) ملوك ١٦: ١٦ ثم قارن: قاموس الكتاب المقدس، ١٤٣/١.

(٢) أخبار أيام ثان ١٧: ١-٢٨. (٣) إشعياء ٧: ١-١٧.

S. A. Cook, op.cit., p. 363.

(٤) ملوك ثان ١٦: ٧-٨؛ وكذا:

فى هذه الفترة، على أى حال، هو الإخضاع التام لسورية وفلسطين، ومنذ عام ٧٣٨ ق.م، وقد أصبحت حماة من أملاكه، فقد كان يرنو بناظره نحو دمشق - باديء ذى بدء - ثم إسرائيل فيما بعد^(١).

وفى عام ٧٣٣ ق.م، تقابل الملك الآشورى مع ملك دمشق، فهرب «رصين» إلى عاصمته «دمشق»، ومن ثم فقد قام العاهل الآشورى بمحاصرة العاصمة الآرامية وإتلاف ما حولها من حدائق ومدن، هذا فضلاً عن الإغارة على حلفاء الآراميين والانتصار عليهم، مما جعل دمشق تصبح فى عزلة تامة^(٢).

ونقرأ فى التوراة أن «تجلات بلاسر» قد أخذ عيون وابل بيت معكة ويأنوج وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى، وسباهم إلى آشور^(٣)، هذا وتشير إحدى حوليات العاهل الآشورى أنه قد استولى على كل مدن إسرائيل، ما عدا السامرة، ومن ثم فإننا نستنتج من ذلك - ومن قوائم الأقاليم الآشورية - أن تجلات بلاسر قد ترك لملك إسرائيل «فقح» جبل أفرام والمدينة الملكية (السامرة)، وأما بقية المناطق الإسرائيلية فقد أدمجت فى نسق الولايات الآشورية^(٤).

وأيما ما كان الأمر، فإن الممالك الصغيرة فى سورية وفلسطين، والتي كانت على مدى قرنين من الزمان قبل ذلك، قادرة على حفظ كيانها دون تدخل من الخارج تقريباً، وجدت الآن نفسها أمام آشور القوية الطامعة الطاغية، وقد نجح «تجلات بلاسر» فى أن يحتاج فى عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصاد دام عامين، ويقتل ملكها «رصين» ويسقوط

M. Noth, op.cit., p. 259-260.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 260-261; E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119.

(٢)

E.G. Kraeling, op.cit., p. 118.

(٣) ملوك ثان ١٥ : ٢٩، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 261.

(٤)

دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الآراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الآرامية لآشور، وبالتالي فقد زال الحاجز الذى كان يحول دون سقوط السامرة^(١).

٥ - هوشع بن أيلة (٧٣٢-٧٢٤ ق.م):

ونقرأ فى التوراة أن فقح فقد عرشه وحياته فى مؤامرة على رأسها هوشع بن أيلة، وأن الأخير قد نصب نفسه ملكاً فى السامرة على ما بقى لإسرائيل، وإن كنا لا ندرى أكان ذلك برضى من تجلات بلاسر^(٢) أم أن الأخير إنما كان بريئاً من دم فقح فحمل هوشع مسئولية الحادث وفرض عليه جزية ثقيلة^(٣).

وأيما ما كان الأمر، فإن «هوشع» قد أصبح ملكاً على إسرائيل فى السامرة من قبل الآشوريين يدين لهم بالولاء، ويدفع لهم الجزية صاغراً، ومصادرنا عن هذه الأحداث وعن غيرها من الأحداث التى تقع فى نصف القرن التالى مستقاة من التوراة، ومن الكتابات المسمارية (الإسفينية)، ولا تشير النصوص المصرية إلى آشور، وإن تعرضت العاصمة المصرية طيبة، لتصبح فريسة مؤقتة لتلك القوة الآسيوية البعيدة، ومع ذلك فقد كان من الواضح بالنسبة إلى مصر أن الحكام الضغار فى فلسطين كانوا يلتمسون عونها ومساعدتها ضد الغزاة الشماليين^(٤).

(١) E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 341.

(٢) ملوك ثان ١٥ : ٣٠، وكذا:

A. L. Oppenheim, ANET, p. 284; A.H. Gardiner, op.cit., p. 341.

S.A. op.cit., p. 382.

(٣)

A. H. Gardiner, op.cit., p. 341-342.

(٤)

سادساً - نهاية إسرائيل والسبي الآشوري:

مات «تجلات بلاسر» وخلفه على عرش آشور ولده «شلمنصر الخامس» الذي لم يعيش طويلاً (٧٢٧-٧٢٢ ق.م)، وفي عهده أعلن هوشع ملك السامرة العصيان والثورة ضد آشور^(١)، ونقرأ في التوراة أن «ملك آشور وجد في هوشع خيانة، لأنه أرسل رسلاً إلى «سوا» ملك مصر، ولم يؤد جزية إلى ملك آشور حسب كل سنة»^(٢)، والمعروف تاريخياً أنه لا يوجد ملك في هذه الفترة من تاريخ مصر يحمل اسم «سوا»، ومن هنا حاول بعض الباحثين أن يقرنوا هذا الـ «سوا» بـ «سيبه» (تورتان مصر) الذي تشير إليه حوليات «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) بأنه خرج من «ريحو» (رفع على حدود فلسطين)، مع «هنو» ملك غزة، لكي يقوموا بمعركة حاسمة، وكان «هنو» هذا قد هرب في عهد «تجلات بلاسر» أمام جيشه، «متجهماً إلى مصر»^(٣).

ويرى سير أرن جاردنر أنه ليس من الممكن أن يكون «سوا» أو «سيبه» من الناحيتين اللغوية والتاريخية، هو الملك الأثيوبي «شيكو»، ومن ثم فهذه في أغلب الأمر أسماء قواد، ولعل هذا يبدو أكثر احتمالاً، مادام النص الآشوري يشير بعد ذلك إلى قول العاهل الآشوري: «تلقيت الجزية من يبرو صاحب موصرو» التي لا يمكن أن تعني شيئاً سوى «من فرعون صاحب مصر»^(٤)، هذا فضلاً عن أن «شيكو» هذا لم يحكم مصر إلا في عام ٧١٥ ق.م، وأن طلب المساعدة من مصر، إنما تم قبل ذلك بعقدين من الزمان (أي في جوالى عام ٧٢٥ ق.م)^(٥)، ويرى «أوسترلى» أن «سوا» هذا

(٢) ملوك ثان ١٧ : ٤-٥.

(١) Ibid. p. 342.

(٣) ANET, p. 283; A.H. Gardiner, op.cit., p. 342.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 342; ANET, p. 286.

(٥) K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, p. 373.

ربما كان واحداً من أمراء الدلتا^(١)، بل ربما كان - فيما يرى جيمس هنرى برستد^(٢)، وهو جوفنكلر وغيرهما^(٣) - حاكماً لولاية «موصرو» التي تقع في شمال غرب بلاد العرب، وتحمل اسماً مشابهاً لاسم «مصر».

ويذهب «كتشن» إلى أن طلب «هوشع» ملك إسرائيل المساعدة من «سوا» ملك مصر، إنما يقع في عهد «أوسركون الرابع» (٧٣٠-٧١٥ ق.م) ملك تانيس وبوباسطه (من الأسرة الثانية والعشرين) و«إيوبوت الثاني» (٧٣١-٧٢٠ ق.م) ملك لينيتوبوليس Leontopolis (من الأسرة الثالثة والعشرين) و«تف نخت» (٧٢٧/٨٢٨-٧٢٠ ق.م) ملك سايس (من الأسرة الرابعة والعشرين)، وأن كل الأسس التاريخية والنصية والجغرافية والسياسية، إنما تجعل من «أوسركون الرابع» أفضل المرشحين لأن يكون «سوا» التوراة هذا^(٤).

ويدل لقب «سوا» هذا، وكذا اسمه، على أنه بالتأكيد ليس هو «سيبه» (تورتان مصر، أى قائد جيش مصر) فقائد الجيش ليس هو الفرعون، هذا فضلاً عن أن اسم القائد إنما يقرأ Re'e وليس سيبه SiB'e^(٥)، وأخيراً فإن النض العبرى لا يمكن أن يقرأ «وزير ملك مصر»، كما اقترح بعض الباحثين^(٦).

هذا ويعترض «كتشن» كذلك على أن يكون «سوا» هو «إيوبوت الثاني» وأما «تف نخت» فهناك من يراه «سوا» على أساس أن فترة حكمه كملك (٧٢٧/٧٢٨-٧٢٠ ق.م) إنما تناسب والحادث موضوع المناقشة^(٦)،

(١) W.O.E. Oesterley, op.cit., p. 228.

(٢) J.H. Breasted, History of Egypt, p. 549.

(٣) Von Bissing, RT, 34, 1912, p. 125F; A.T. Olmstead, Western Asia in the Days of Sargon of Asayria, 1908, p. 56, 70.

(٤) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, p. 182, 372, 373.

(٥) S.Yeivin, VI, 2, 1952, p. 164. (٦) R. Borger, JNES, 19, 1960, p. 49, 53.

(٦) K.A. Kitchen, op.cit., p. 273.

كما أن هناك من يقترح توخيد الكلمة العبرية «سوا» So' بـ SeWe، وتفسر على أنها الأصل للاسم الحورى Si-ib للملك «تف - نخت»^(١)، إلا أن ذلك خيالاً عريضاً إلى حد كبير، كما أنه غير مقبول بصفة عامة، فضلاً عن أن الحكام والكتاب الأجانب لا يشيرون إلى الفراعين المصريين إلا بأسمائهم التي ترد في خراطيشهم، وفي العصر المتأخر (من الأسرات ٢١ إلى ٢٥) بأسمائهم الشخصية فحسب، ومن ثم فإن «سوا» لا يمكن أن يكون Si-ib^(٢) هذا وهناك من يقترح القراءة التالية لنص التوراة (ملوك ثان ١٧ : ٤) : «أن هوشع قد أرسل رسلاً إلى ساييس، إلى ملك مصر»، ومعنى هذا أن هذه القراءة تشير إلى ملك مصر دون أن تسميه، أى أنها لا تذكر «تف نخت» بالاسم^(٣) وأن «تف نخت» كان أقوى من كل من «أوسركون الرابع» و«إيوبوت الثانى»، ورغم أن ذلك ربما كان صحيحاً إلى حد ما، فإن إمارة «تف نخت» الكبيرة في غرب الدلتا، ليست أكبر بكثير من المساحة التي يحكمها «أوسركون» الرابع، كوريث للأسرة الثانية والعشرين^(٤).

وأما عن محاولة معادلة «ساييس» مع «تف نخت» فهناك عدة عقبات تقف أمامها، منها (أولاً) أن «ساييس» من الناحية الجغرافية إنما هي بعيدة جداً بدرجة لا تسمح للملك «تف نخت» بتقديم العون للملك في فلسطين، ومنها (ثانياً) أن قراءة «سوا» في سفر الملوك الثانى (١٧ : ٤) على أنها «ساييس» إنما يستدعى تنقيحاً في النص لا مبرر له، بل ليست هناك أية ضرورة تطلبه على الإطلاق، ذلك لأن «سوا» اسم شخص و«ساييس» اسم مكان^(٥).

(١) K.A. Kitchen, op.cit., p. 273. (٢) Ramadan Sayed, VI, 17, 1967, p. 116-118.

(٣) K.A. Kitchens, op.cit., p. 273. (٤) H. Geodick, BASOR, 171, 1963, p. 64-66.

(٥) «ساييس» هي «صا الحجر الحالية» وتقع على مبعده سبعة كيلو مترات شمال غرب مدينة بسيون بمحافظة الغربية، ورغم أن المنطقة الأثرية ومساحتها حوالى ١٠٠ فدان، موزعة في مناطق تعرف بأسماء: تل صا الحجر وتل الربوة وتل الكوادي، ومعزولة عن منطقة السكن الحالية، فإن رجال الآثار يؤكدون أن أجزاء من البلدة الحالية تقع فوق أجزاء من المدينة الأثرية.

ومنها (ثالثًا) أن هنا تحالفًا قائمًا - أو يكاد - بين العبرانيين والأسرة الثانية والعشرين، منذ أيام، أوسركون الثاني، و«تكلوت الثاني»، ولم تكن مملكة «سايس» معروفة وقت ذاك في البلاط العبراني^(١).

ومنها (رابعًا) أن الأنبياء العبرانيين في تلك الأيام الخوالي إنما قد هاجموا بعنف أولئك الرسل الذين كانوا يذهبون إلى شرق الدلتا، وليس إلى سايس البعيدة^(٢)، فإشعيا النبي (٧٣٤-٦٨٠ ق.م) يعلن: «أن رؤساء صوعن أغبياء»^(٣)، ثم يندد بالحكام العبرانيين، «الذين ينزلون إلى مصر، ولم يسألوا فمى ليلتجئوا إلى حصن فرعون، ويحتموا بظل فرعون»^(٤)، «ولأن رؤساءه صاروا في صوعن»^(٥)، وبلغ رسله إلى تانيس^(٦)، و«حانيس هذه ربما كانت «هيراكليوبوليس» في شرق تانيس، وربما كانت Herakieous Mikra Polis في منتصف الطريق بين تانيس وبلوزيوم»^(٧) وهكذا كان النبي العبراني إنما يؤكد في القرن الثامن قبل الميلاد عدم جدوى التحالف مع فرعون، وأن هذا الفرعون ومستشاريه إنما كانوا في «تانيس» - والتي كانت عاصمة مصر في الغالب فيما بين الأسرتين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين - وليس في «سايس» عاصمة «تف نخت»، ومنها (خامسًا) أنه ليس هناك واحد يمكن أن يكون أكثر ملاءمة من «أوسركون الرابع» ملك تانيس وبواسطة^(٨)، لأن يكون «سواء» التوراة هذا، كما أشرنا من قبل.

Ibid., p. 374.

(١) K. A. Kitchen, op.cit., p. 373-374. (٢)

(٤) إشعيا ٣٠: ٢.

(٣) إشعيا ١٩: ١١.

(٥) صوعن: هي تانيس اليونانية، و«زعتت» (جمن أو زعتتى) المصرية، وهي الآن «صان الحجر» على مبعدة ٢٠ كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة المنزلة الحالية، ١٤ كيلو مترًا إلى الشمال الشرقي من تل فرعون (نبيشة).

(٦) إشعيا ٣٠: ٤.

(٧) A. H. Gardiner, JEA, 50, 1964, p. 94; A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, II, Oxford, 1947, p. 176.

K.A. Kitchen, op.cit., p. 372-374.

(٨)

وأيًا ما كان الأمر، فلقد تقدم الملك الآشوري «شلمنصر الخامس» نحو السامرة، واستمر في حصارها أعوامًا ثلاثة - من السنة السابعة للملك هوشع حتى التاسعة - وإذا أمكننا أن نضع سقوط السامرة في أخريات السنة التاسعة، فإن هذا الحدث التاريخي الخطير، إنما يكون قد تم في ربيع عام ٧٢٢ ق.م. في وقت كان فيه «شلمنصر» مازال ملكًا على آشور، هذا ويقرر سفر تاريخي بابلي - يؤرخ بالسنة الثانية والعشرين من عهد الملك دارا الأول الفارسي (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) - أي في حوالي عام ٥٠٠ ق.م - ويتحدث عن الفترة من عهد «تجلات بلاسر الثالث» إلى أيام «أشور بانيبال» - (أي من عام ٧٤٥ ق.م إلى ٦٢٦ ق.م - أن موت «شلمنصر الخامس» (٧٢٧-٧٢٢ ق.م) إنما كان في شهر Tebet، وأن اعتلاء سرجون الثاني العرش إنما كان في اليوم الثاني عشر من نفس الشهر، وهذا يتأخر به إلى ديسمبر ٧٢٢ ق.م، كما يعتبر هذا السفر تدمير مدينة «الشامريين» - والتي يمكن أن توحد بالسامرة - من الأحداث الهامة في عهد «شلمنصر الخامس» وتؤرخ المعركة بعام ٧٢٢ ق.م، وفي الغالب فيما بين الربيع والخريف من هذا العام، وإن كان هناك من يقرأ اسم المدينة على أنها «الشابريين» بدلا من «الشامريين»، ويرى أنها ليست مدينة «السامرة» وإن كان هذا الاحتمال ضعيفا^(١).

وعلى أي حال، فإننا نقرأ في حوليات العاهل الآشوري، سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) قوله : «في بداية حكمي، وفي السنة الأولى منه حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونقلت من أهلها ٢٩٠, ٢٧ مواطنًا، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان فيها، فأحللت بها مواطنين جددًا من بلاد كنت قد استوليت

(١) J. Finegan, op.cit., p. 208; A.T. Olmstead, *Wester Asia in the Days of Sargon of Asayria*, p. 45; E.R. Thiele, *The Mysterious Numbers of the Hebrew Kings*, 1951, p. 122-128; A.T. Olmstead, *AJSL*, 21, p. 181F.

عليها، وعينت حكاماً عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون»^(١).

وانطلاقاً من هذا، فإن سقوط السامرة إنما قد تم في أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثانى»، وأن ذلك قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م، ومن ثم فربما كان ذلك فى عام ٧٢١ ق.م، وهذا يتناقض مع رواية «شلمنصر الخامس» التى ينسب فيها سقوط السامرة إلى أيامه^(٢)، بل إن هناك رأياً يذهب إلى أن عاصمة إسرائيل هذه إنما قد سقطت فى عام ٧١٥ ق.م^(٣) وآخر يذهب إلى أنها قد سقطت فى عام ٧١١ ق.م^(٤).

وعلى أى حال، فإذا كانت السامرة قد سقطت فى ربيع أو حتى خريف عام ٧٢٢ ق.م، فقد بقيت شهور قليلة من هذه السنة حتى وفاة شلمنصر فى ديسمبر من تلك السنة، وأن ذلك ربما قد جعل الأمر سهلاً بالنسبة إلى سرجون الثانى فى نقوش كتبت فى فترة من عهده من أن ينسب إلى نفسه - تيهاً وتفاخراً - الفتح الذى قام به سلفه فى الواقع، هذا فضلاً، عن أنه فى الشهور القلائل التى سبقت وفاة شلمنصر الخامس، إنما كان قد بدئ بالكاد فى نفي سكان السامرة، وأن الإنجاز الفعلى لهذا النفي، ربما كان من عمل سرجون دون غيره^(٥)، أضف إلى ذلك أن سرجون الثانى، ربما كان قد اشترك فى احتلال السامرة مع أخيه «شلمنصر الخامس» قبل اعتلائه العرش، ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن التوراة إنما تقول أن شلمنصر قد حاصر السامرة، وأنهم قد «أخذوها»، فربما تشير صيغة الجمع

A.L. Oppenheim, ANET, p. 234; A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, (١)
Part I, The Annals, p. 5.

J. Finegan, op.cit., p. 210. (٢)

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 342; Bull Inst. For, L1, p. 27. (٣)

A.H. Gardiner, op.cit., p. 342. (٤)

J. Finegan, op.cit., p. 210; A. T. Olmstead, AJSL, 47, p. 262F. (٥)

هنا إلى اشتراك «سرجون الثاني» مع «شلمنصر الخامس» في نهاية الحصار، ولكنها من ناحية أخرى، قد تشير ببساطة إلى «الجيش الآشوري» في صيغة الجمع كذلك^(١).

وأيما ما كان الأمر، فإن سرجون الثاني قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية ربما النبلاء والأغنياء - إلى «حليج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي» وبعد سنوات قليلة - وربما في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م - وبعد قلاقل في سورية وفلسطين، ساهم فيها معظم سكان الولايات المختلفة، بما فيها دمشق والسامرة، تكررت العملية على درجة كبيرة، ثم سرعان ما شارك سكان غربي الجزيرة العربية في هذه الاضطرابات بنصيب كبير أو قليل، وحين نجح العاهل الآشوري في القضاء على هذه الاضطرابات، عمل - كما تقول التوراة - على أن يأتي بقوم آخرين، وأن يسكنهم هذه الأقاليم، ومن بينهم مجاميع من العرب، حددهم النص الآشوري «بقبائل تامودي وإياديدي ومرسيما نو وجبايا»^(٢) والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء، والذين لا يعترفون برؤساء وموظفين، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم لأي ملك، سبيت الأحياء منهم، ونقلتهم إلى السامرة^(٣).

ونقرأ في التوراة في سفرى الملوك الثاني وعزرا^(٤) - أن العاهل الآشوري قد جاء كذلك بقوم من بابل وكوت (تل إبراهيم على مبعدة ٢٤ كيلاً إلى الشمال الشرقي من بابل) ومن عوا وحماه روسفر وايم (وهما بلدتان على ضفتي الفرات، على مبعدة ٢٥,٥ كيلاً جنوب غرب بغداد، ويرى «رسام»

J. Finegan, op.cit., p. 210, No. 29.

(١)

(٢) انظر عن هذه القبائل العربية الشمالية: الويس موسل، شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية ١٩٥٢، ص ٩١-٩٥؛ محمد ييومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، ص ٢٦٣-٣٠٧، الرياض ١٩٨٠م.

A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 286.

(٣)

(٤) ملوك ثان ١٧: ٢٤؛ عزرا ٢: ٩.

أنها «أبو حبه» الحالية، بينما يرى آخرون أنها «شومورية» شرقي بحيرة حمص) ومن سوسة وعيلام، وربما كان الآشوريون يهدفون من وراء ذلك إلى كسر التحالفات القديمة، بإدخال أجانب في البلاد، ربما كانوا في بعض الحالات من الآشوريين أنفسهم، وبداية لظروف جديدة أكثر ملاءمة للإمبراطورية الآشورية الطموح، ومن الصعب أن نقدر أهمية هذا التهجير، وإن كان على الأقل قد عمل على تخطيط الروابط الاجتماعية والسياسية والدينية، بدرجة أكثر فاعلية عما سبقه من إجراءات، وبدون شك فإن الغزوات الآشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المنهارة، كما أن الأحوال القديمة قد تغيرت، واختفت المعالم القديمة، واضمحلت المشاعر المحلية والقومية، ودمرت الدويلات الحاضرة وأدى سقوط الممالك الآرامية إلى إضعاف أفرام، وكشف سقوط الأخيرة يهوذا^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة على أساس أنها إقليم آشوري يخضع لإمرة حاكم آشور وعززوا الحامية العسكرية الآشورية بجنود من مستوطنين أتوا بهم من بلاد بعيدة، حدث لها ما حدث لفلسطين، وأخيراً فإن هؤلاء قد تزوجوا مع السكان الأصليين، وهجروا تقاليدهم إلى حد ما، وظهر جنس جديد هم «السامريون» - نسبة إلى السامرة عاصمتهم - قريب الشبه بجيرانه اليهوديين دماً وثقافة، وإن اختلفوا عنهم في ميولهم السياسية^(٢)، وقد أدى ذلك كله إلى ظهور نظرة جديدة للأمور - بعد العودة من السبي البابلي - تتجه إلى أن إسرائيل الشمالية ليست نقية، وأن يهوذا إنما هي الوريث الوحيد للتقاليد الإسرائيلية، ومن هنا فإن الشمال ليس كفوًا لها ومقاسمتها مميزاتها^(٣).

S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 383-385.

(١)

C. Roth, op.cit., p. 28-29.

(٢)

(٣) أخبار ثان ١٢: ٨، ٢٥: ٧، عزرا ٤: ٣.

وانطلاقاً من هذا، فمن الضروري أن نعترف أننا ننظر إلى التاريخ - من خلال التوراة - بعيون رجال يحفظون ذكرى النفور العميق للسامريين، وليس هذا فحسب، بل إن «اليهوديين» إنما كانوا يشعرون أنهم أرقى أرومة من الآخرين، ولما كانت إسرائيل قد أزيلت من فلسطين، فإننا نجد أن مصادرنا معتمدة على مملكة يهوذا، وحيث أن السامرة بعيدة عن منطقة الكتاب (كتاب التوراة)، فهي غالباً ليست موجودة، وأنه منذ ازدهار النقد الحديث فحسب بدأ العلماء يبحثون فيما وراء النظرة اليهودية للأحداث، معترفين بأن طبيعة الأشياء المتعلقة بائنتين لن تنتهى، وأن هذا التاريخ لجنوب غربى آسيا - بعد عام ٧٢٢ ق.م - ليس إلا وجهة نظر ناقصة تماماً للتطور المتتابع فى فلسطين نأخذها من سجلات يهوذا غير الكافية، والتي تتطلب الحذر منه^(١).

الفصل الثالث

دويلة يهوذا

(١) رحبعام (٩٢٢-٩١٥ ق.م)

قامت دويلة يهوذا - كما قامت دويلة إسرائيل - بعد وفاة سليمان، ثم جلوس ولده «رحبعام» على عرشها، وإن اختلف عرشها هذا، عن عرش إسرائيل في أنه لم يكن دائماً مشار نزاع داخلي، ولم ينتقل من بيت إلى آخر، بين آونة وأخرى، كما كان الأمر هناك في إسرائيل، وهكذا فإن الأسرة المالكة في «يهوذا» قد نالت نفوذاً على الشعب الذي لم يقدر له أبداً أن يستأصل شأفتها، حتى حين أصبح الاستقلال حلمًا بعيد المنال، ولكن تاريخها تميز - في الغالب الأعم - بعلاقات العداء مع إسرائيل.

ونقرأ في التوراة أنه «في السنة الخامسة للملك رحبعام ضعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان، فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس^(١)، ومن الواضح أن الكاتب العبراني لم يفزعه تدنيس المدينة المقدسة، بقدر ما ضايقه ضياع دروع الذهب التي صنعها سليمان والتي استبدلت بمثلها من نحاس، وليس هناك ذكر لمدينتي «جازر» و«أورشليم» بين الأسماء الباقية التي تصحب المنظر الكبير في البوابة البوآستية، وهي الأسماء التي تقدم بالصورة التقليدية، التي اعتدناها فيما يتصل بحروب فرعون مصر العظيم «تخوتمس الثالث»، بمعنى أنها ملحقة بصدور أسرى تقودهم صورة فرعون العملاقة إلى الأمام، كمقدمة لأبيه «آمون رع»^(٢).

(١) ملوك أول ١٤: ٢٥-٢٧.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 229-230.

(٢)

وأما الحصر العددي فمدعاة لليأس، ذلك أنه من بين ١٥٠ مكاناً ذكرت، لا نلتقى إلا بالقليل محفوظاً ليمهد لنا تحديد طرق تدور في النواحي حول المنطقة الجبلية للسامرة، دون الوصول إلى مركز المملكة الإسرائيلية، بل إنه ليست هناك أية إشارة إلى أنهم قد اقتربوا من اليهودية إطلاقاً - وإن كان هناك من يرى عكس ذلك، كما سوف نرى - ومع ذلك فهناك ما يشير إلى غارة على الإقليم الأدومي، وأما الفكرة التي ظلت قائمة طويلاً من أنه يمكن قراءة «حقل أبراهام» في القائمة، فقد صرف النظر عنها نهائياً اليوم^(١).

وعلى أى حال، فإن حملة شيشنق هذه، إنما قد وصلت إلى شرق الأردن - حيث فر رحبعام، حتى وصل إلى فتوئيل ومحانيم، التي لجأ إليها جده داود من قبل، كما وصلت في الشمال إلى سهل يزرعيل والجليل، وأما في الجنوب فقد وصلت إلى «عصيون جابر» على خليج العقبة، وإلى حبرون وبئر سبع وغيرهما من مدن جنوب يهوذا، وإلى سهل عكا وغزة في الغرب^(٢).

هذا ويعزى إلى شيشنق تدمير مدينة «تل بيت مرسيم» من الطبقة B وقد كان تدميراً عنيفاً، حتى اقتلعت المدينة القديمة تماماً من جذورها، وحلت مكانها أبنية تدين بالقليل في تخطيطها إلى ما سبقه من مباني في نفس الموقع^(٣) وأما المدينة الأخرى التي ينسب تدميرها إلى الفرعون فهي «بيت شمس»، حيث وجدت مباني الطبقة الثانية (أ)، مغطاة بطبقة من الرماد نتيجة حريق هائل، ورغم أن هناك من يؤرخ هذا الحريق بحوالى عام ٩٥٠ ق.م، فالأكثر احتمالاً أنه كان في عام ٩٢٦ ق.م، ومن جراء غزوة

Ibid., p. 230.

Y. Aharoni, The Land of the Bible, 1966, p. 288-289.

K.M. Kenyon, op.cit., p. 272-273; G.E. Wright, Biblical Archaeology, 1957, p. 149. (٣)

«شيشنق»، لأن الحريق لو تم في منتصف القرن العاشر، فلا بد أن يكون قد حدث بطريق الصدفة، وليس بفعل عدو للمدينة، ذلك لأن سلطة سليمان في تلك الفترة إنما كانت جداً قوية^(١) وعلى أى حال، فإن غزوة شيشنق إنما تركت أثراً كبيراً في عدة مدن، مثل مجدو وشكيم وغيرهما^(٢).

وأما متى كانت هذه الحملة، فإن هناك من يراها في السنوات الأخيرة من حكم شيشنق^(٣)، ومن يراها في عام ٩٣١ ق.م^(٤)، ومن يراها في عام ٩٢٦ ق.م^(٥)، ولعل السبب في هذا الاختلاف إنما يرجع إلى الاضطراب في التاريخ للملوك إسرائيل، أكثر منه للفراعين المصريين، وعلى أى حال، فإننا نفضل الاتجاه الأول، بخاصة وأنا قد ارتضينا من قبل أن سليمان قد انتقل إلى جوار ربّه الكريم في حوالى عام ٩٢٢ ق.م، وبما أن هذه الحملة قد حدثت بعد وفاة سليمان، فلا بد إذن من أن تؤرخ بتاريخ لاحق لوفاة.

وأيّما ما كان الأمر، فإن الكشف في «مجدو» عن قطعة جاء بها ذكر «شيشنق» لا يدع مجالاً للشك في صحة الحملة، وإن ظل الأمر غامضاً تماماً فيما إذا كانت هذه محاولة لإحياء الأمجاد المصرية القديمة، أو هي خطة لتدعيم مركز يريعام، أو هي غارة سلب ونهب، وليس أكثر من ذلك^(٦).

والرأى عندى أن الحملة إنما كانت تهدف إلى الأمرين الأولين معاً،

(١) G.E. Wright, JBL, 75, 1956, p.216; K.M. Kenyon, op.cit., p. 273-274.

(٢) D.W. Thomas, Archaeology and Old Testament Study, 1967, p. 333, 366;

G.E. Wright, B.A., 1957, p. 148-149.

(٣) J. Bright, A History of Israel, Philadelphia, 1959, p. 213.

(٤) A. H. Gardiner, op.cit., p. 229.

(٥) K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 272.

(٦) A. T. Olmstead, History of Palestine and Syrin, 1931, p. 355; A.H. Gardiner, op.cit., p. 230; J. Bright, op.cit., p. 213F.

فمصر إنما كانت قد بدأت في هذه الفترة تسترد أمجاد الأجداد العظام، وأن «شيشنق» إنما كان يريد استعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية من جديد، بل إن الأمور، إنما قد بدأت تسير في هذا الاتجاه منذ أيام الأسرة السابقة (الأسرة الحادية والعشرين)، وذلك حين آوت مصر الفارين من «داود»، ولكنها في عهد ولده سليمان إنما كانت أكثر حسماً، فهي تطلق سراح ابن ملك أدوم، وهي تأوي «يربعام» الذي فر من وجه سليمان، ثم هي مرة ثالثة تحاول ألا تصل الأمور معه إلى حد الاشتباك المسلح، فتحتل جيوشها مدينة «جازر» ثم تقدمها مهراً لابنة فرعون، وزوج سليمان، بل إن «برستد» ليذهب إلى حد القول أن سليمان نفسه إنما كان وقت ذاك والياً تحت النفوذ المصري في فلسطين^(١) وتلك مبالغة لا ريب فيها.

ويتنقل سليمان، عليه السلام إلى جوار ربّه راضياً مرضياً عنه، وترى مصر - على ما يبدو - في ذلك ساعة الصفر، فتطلق سراح يربعام، أو بالأحرى تسمح له بالعودة إلى فلسطين، ليقود الثورة ضد رجبعام، وحين يتم له الاستقلال بدويلة إسرائيل، تقف من ورائه تعضده وتسانده، ولكن يبدو أن «يربعام» - رجل مصر في فلسطين - لم يجد الأمور تسير، كما يحب ويهوى، فربما اعترضته عقبات كؤود، وربما تعرض لغزو من «رجبعام»، ومن ثم فقد استنجد - فيما يرى سيسل روث^(٢)، وأودلف لودز^(٣)، وهول^(٤) - بشيشنق، فيهتبل الأخير الفرصة، فيقوم بحملته التي أراد بها - بجانب مساعدة يربعام - إعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية^(٥)، الأمر الذي تابعه فيه الكثيرون من خلفائه، قدر

J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 529.

(١)

A. Lods, op.cit., p. 374-375.

(٣)

C. Roth, op.cit., p. 31.

(٢)

H. R. Hall, op.cit., p. 436-437.

(٤)

J. Bright, op.cit., p. 213F; E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1956, p.525.

H. R. Hall, op.cit., p. 439.

(٥)

طاقتهم، وليس - كما يقول هول - لإحضار الدروع الذهبية من معبد سليمان والبقية الباقية من خزائن كهنوت «يهوه» ليضمن بذلك ثراء لآمون، الذى لم يكن فى ذلك الوقت على ميسرة، كالتى كانت فى الماضى القريب^(١).

ومع ذلك، فلعل من الجدير بالملاحظة أن «شيشنق» لم يحاول المضى فى فتوحاته إلى سورية، كما أن الرجل إنما قد اعترف على جدران معبد الكرنك، بأن الغنائم والجزى التى جاء بها من فلسطين، إنما قد وهبها لربه آمون، وأن النقوش التى تزين معبد الكرنك الكبير، إنما توضح إلى حد بعيد مدى التضرع والتوسع من الفرعون لرب طيبة^(٢).

وعلى أى حال، فإن التدخل المصرى فى إسرائيل، ولم تمض على موت سليمان سنوات خمس، فضلاً عن احتلال العديد من المدن، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره، لدليل واضح على مدى ضعف الإسرائيليين، بل إن التوراة إنما تنوه بخضوع دويلة يهوذا لمصر، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما قامت بدفع الجزية لمصر^(٣).

(٢) أيام (٩١٥-٩١٣ ق.م):

ورث أيام أباه رجبعام على عرش يهوذا، ولمدة سنوات ثلاث، وإن كانت التوراة مضطربة بالنسبة للملك الجديد، فهو أيام بن رجبعام من زوجه معكة ابنة أبشالوم على رواية^(٤)، وهو أيام بن رجبعام من زوجه ميخايا بنت أوربشيل من جبعة على رواية أخرى^(٥)، وعلى أى حال، فلقد وجد ملك يهوذا الجديد، أنه لا مخرج له من اعتداءات جارتة إسرائيل، إلا

(١) Barguet, Temple d'Amon- Re a Karnak, Paris, 1962, p. 122-123;

(٢) G.R. Hughes, Reliefs and Inscriptions at Karnak, Vol. III, The Bubastie Portal, Chicago, 1945, p. 2.

S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٣) أخبار أيام ثان ١٢: ٨، وكذا:

(٥) أخبار أيام ثان ١٣: ٢١.

(٤) ملوك أول ١٤: ١، ١٥: ٨-١٠.

بالتحالف مع دمشق^(١)، ويقص علينا كاتب الحوليات العبراني أن «أبيام» قد انتصر على «يربعام الأول» ملك إسرائيل، واحتل بيت إيل وبعض مدن أفرايم الجنوبية^(٢).

(٣) أسا (٩١٣ - ٨٧٣ ق.م):

وجاء بعد أبيام ولده «أسا»، و«ملك إحدى وأربعين سنة»^(٣)، ونقرأ في التوراة^(٤) أنه كان «يهويًا» مخلصًا، أخرج من معبد سليمان، الإله الأنثى التي كانت تقطن بجوار «يهوه» وطرد العاهرات المقدسات، وأزال المأبوتين من أرض يهوذا، وسحب من أمه معكة ابنة أبشالوم^(٥)، لقب «الملكة الأم»، لأنها كانت تؤيد الوثنية^(٦)، وتتعبد إلى إله الإخصاب الكنعانية «عشتارت» ومن المعروف أن هذه الأمور قد انتقلت إلى الإسرائيليين من ديانة «بعل» الذي اشتهر بشرب الخمر والانغماس في الجنس^(٧)، وأما المرتفعات التي كانت قد أسست على نمط كنعاني بأعمدة وسواري مقدسة، فقد بقيت كما كانت، لأنهم إنما كانوا يظنون أن ذلك كان مجرد عادة، ولا يحمل بين طياته أية أهداف وثنية^(٨).

وأما عن علاقة «أسا» بإسرائيل، «فقد كانت حرب بين أسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما، ومن ثم فقد اضطر «أسا» أن يرشو «بن حدد»

(١) C. Roth, op.cit., p. 31; A. Lods, op.cit., p. 376.

(٢) أخبار أيام ثان ١٣: ٢٢-٢٣.

(٣) ملوك أول ١٥: ١٩؛ أخبار أيام ثان ١٦: ١٣.

(٤) ملوك أول ١٥: ٩-١٥؛ أخبار أيام ثان ١٤: ١-٥.

(٥) لعل هذا نوعًا من الاضطراب المعروف في التوراة، فكما أشرنا من قبل - وفي نفس الإصحاح - أن معكة ابنة أبشالوم، إنما هي أم أبيه وليست أمه هو (ملوك أول ١٥: ٢؛ ثم قارن ١٥: ١٠).

(٦) باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص ٤٢٤.

(٧) ثروت أنيس الأميوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، القاهرة، ١٧٤.

I. Epstein, op.cit., p. 46.

(٨)

ملك دمشق للقيام بحركة تحول بين قوات إسرائيل وبين الغارة على يهوذا، وقد استجاب الملك الآرامى لتوسلات أسا، مما اضطر إسرائيل إلى أن تتخلى عن مشروعاتها تجاه يهوذا^(١).

(٤) يهو شافط (٨٧٣-٨٤٩ ق.م):

خلف «يهو شافط» أباه «أسا» على عرش يهوذا، ولمدة ربع قرن، نهج إبانها نهج أبيه وأكمل بعض مشروعاته، ونقرأ فى التوراة أنه أزال «بقية المأبونين الذين بقوا فى أيام أسا أبيه»، إلا أن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات^(٢)، هذا وقد عمل العاهل الجديد على إعادة تنظيم الجهاز اليهودى الكامل للبلاد، فعين قضاة فى كل المدن، لإقامة العدالة كما يطلب القانون التثنوى - وللوصول إلى مدى بعيد فى إصلاحه القضائى، فقد عمل «يهو شافط» على فصل القانون الدينى، عن القانون المدنى، كما وضع على رأس القضاء الكاهن الأكبر «أمريا» وفوق الجميع كان ممثلة الشخصى، وأخيراً فلقد وضع الإجراءات الكفيلة بنشر «سفر شريعة الرب بين الناس فى كل مدن يهوذا»^(٣).

ولعل أهم ما يميز عهد «يهو شافط» تلك العلاقة الودية بين إسرائيل ويهوذا، وإن كانت تبعية الثانية للأولى إنما هى جد واضحة، وقد تزوج ولى العهد «يهورام» من «عثليا» - ابنة أخاب وإيزابيل^(٤) - كما اشترك «يهو شافط» مع ملكى إسرائيل وأدوم فى حملة فاشلة ضد مؤاب^(٥)، وعلى أى

(١) ملوك أول ١٥: ١٦-٢٤؛ أخبار أيام ثان ١٦: ١-٦.

(٢) ملوك أول ٢٢: ٤٢-٤٦.

(٣) تثية ١٦: ١٨-٢٠؛ أخبار أيام ثان ١٧: ٩، ١٩: ٥-١١؛ وكذا:

I. Epstein, op.cit., p. 46-47.

(٤) ملوك ثان ٨: ١٨؛ أخبار أيام ثان ٢١: ٦.

(٥) انظر عن هذه الحملة: ملوك ثان ٣: ٤-٢٧؛ وكذا:

S. A. Cook, op.cit., p. 372; M.F. Unger, op.cit., p. 756-7; J.Finegan, op.cit., p. 188-189; W. Keller, op.cit., p. 230-234.

حال، فلقد كان التحالف مع إسرائيل مثمراً بالنسبة لملك يهوذا، إذ ساعد ذلك على أن يصون البقية الباقية له من نفوذ في أدوم، وفي أن يبنى في «عصيون جابر» أسطولاً، ونقرأ في التوراة - في سفر الملوك الأول^(١) - أنه قام ببناء السفن بمفرده، وحين عرض عليه «أخزيا» ملك إسرائيل الاشتراك في المشروع رفض، ولكننا نقرأ في سفر الأخبار الثاني أنه «اتحد مع أخزيا» في عمل سفن تسير إلى قرشيش، فعملاً السفن في عصيون جابر^(٢).

وسواء أكان نص التوراة الأول هو الصحيح، أم كان الثاني، فإن «يهو شافط» إنما أراد من عمل الأسطول استعادة نشاط البعثات التجارية التي كانت على أيام سليمان غير أن السفن قد تحطمت في ميناء عصيون - جابر، وباءت المحاولة بفشل ذريع، ولم يكن السبب - كما تروى التوراة^(٣) - اتحاده مع أخزيا، وإنما كان لأن قومه العبرانيين لم يكونوا على دراية ببناء السفن، ولأن مشروع سليمان قد نجح من قبل بسبب مهارة البحارة الفينيقيين وخبرتهم في المجال البحري والتجاري، وأياً ما كان الأمر فلم نسمع بعد ذلك عن أية محاولات إسرائيلية لإقامة مشروعات بحرية تهدف إلى الإبحار مع البلاد الواقعة على مسافات بعيدة عن فلسطين^(٤).

(٥) يهورام (٨٤٩-٨٤٢ ق.م):

جاء «يهورام» بعد أبيه «يهو شافط» في السنة الخامسة ليهورام (أو يورام) ابن أخاب ملك إسرائيل، «وملك ثمانين سنة في أورشليم»^(٥)، وقد ظهرت آثار المصاهرة بين إسرائيل ويهوذا في عهده واضحة، فقد أدت -

(٢) أخبار أيام ثان ٢٠: ٣٥-٣٧.

(١) ملوك أول ٢٢: ٤٨-٤٩.

(٣) أخبار أيام ثان ٢٠: ٣٧.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦٤٠/١-٦٤١، (بيروت ١٩٦٨م)؛ وكذا:

James A. Montgomery, Arabia and the Bible, p. 179.

(٥) ملوك ثان ٨: ١٦-١٧.

ولأول مرة - إلى إدخال عبادة «البعل» فى يهوذا، كما جعلت القتل وسيلة من وسائل سياسة الدولة، وأثبتت «عثليا» حقيقة أنها ابنة أمها، فتحت نفوذها القوى ونتيجة لتأثيرها غير المحدود على زوجها «يهورام» لم يحتضن يهورام عبادة «بعل» صور فحسب، ولكنه كذلك عقد العزم على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد، وربما لكى يزيل المعارضة عن هدفه فى سياسة عبادة الأوثان؛ فقد قتل إخوته الستة، كما قتل كذلك بعض النبلاء، وإن كان من المحتمل كذلك أن التنافس على العرش كان السبب فى هذه المجزرة المروعة^(١).

ولكن الأمور فى الخارج استدعت حملة على أدوم، التى انتهزت فرصة هزيمة إسرائيل ويهوذا على يد مؤاب، وأطاحت بولائها ليهوذا، وحاول يهورام - كما فعل أبوه من قبل - أن يستعيد نفوذه هناك، ولكنه لقى هزيمة منكرة كان من نتائجها ضياع أدوم ولبنه^(٢) - بين مقيدة ولخيش، والتى يرجح أنها المكان المسمى الآن تل بورناط على مبعدة ميلين إلى الشمال الغربى من بيت جبرين، وإن ظن البعض أنها تل الصافى أو الصافية^(٣) - .

ونقرأ فى التوراة أن الفلسطينيين والعرب - الذين بجوار الكوشيين - قد هاجموا يهوذا فى عهده، واستولوا عليها، وعلى أموال القصر، وسبوا بنيه وبناته، ولم يبق له إلا أصغر بنيه (يهوأحاز)^(٤)، ويرى «مرجليوت» أن المراد بالعرب هنا سكان اليمن، وأن الهجوم كان بجرأ، بدليل أنهم سرعان ما تراجعوا إلى منازلهم بغنائمهم، وبما حصلوا عليه من أموال، دون أن يفضلوا البقاء فى أورشليم (القدس)، والاستيلاء على دولة يهوذا، بمساعدة

(١) ملوك ثان ٨: ١٨-١٩؛ أخبار أيام ثان ٢١: ١-٧؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 47.

(٢) ملوك ثان ٨: ٢٠-٢٢؛ أخبار أيام ثان ٢١: ٨-١٠.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٨١١/٢.

(٤) أخبار أيام ثان ٢١: ١٦-١٧ (لاحظ تناقضه مع ٢٢: ١) الذى يرى أن الذى بقى حياً هو «أخزيا».

الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون السواحل الفلسطينية^(١)، وسواء أكانت كلمة «العرب» هنا تعنى سكان اليمن، أو تعنى - فيما يرى الويس موسل^(٢) - العرب النازلين فى الأقسام الجنوبية والغربية من سيناء - وكانت موطناً قديماً للعرب - فإن هذه الهزائم التى منيت بها «يهودا» على أيدي العرب والفلسطينيين (وهم عناصر غير سامية) لأكبر دليل على ضعف يهودا، وقوة أعدائها.

وأخيراً أصيب «يهورام» بمرض فى أمعائه، وبأمراض أخرى خبيثة، وذهب غير مأسوف عليه ودفنوه فى مدينة داود، ولكن ليس فى قبور الملوك^(٣)، تاركاً بلاده، وقد أنهكها خصام مرير، وأفقرها ضياع أدوم، وبالتالى ضياع حركة مرور قوافلها فيها، فضلاً عن تجارة البحر الأحمر، ومناجم المعادن، التى لعبت دوراً هاماً فى اقتصاديات الدولة اليهودية الضعيفة^(٤).

(٦) أخزيا (٨٤٣ ق.م):

خلف يهورام على عرش يهودا ولده «أخزيا» من «عثليا» ابنة أخاب وإيزابيل الصورية، وسار على نهج أبيه فى فترة حكمه التى لم تتجاوز العام^(٥)، فاشترك مع خاله «يهورام» (يورام) ملك إسرائيل فى حملة ضد «حزائيل» ملك آرام «راموت جلعاد»، حيث أصيب بطعنة من أحد رجال «ياهو» الإسرائيلى، لقى حتفه بسببها فى «مجدو»^(٦).

(١) D.S. Margoliouth, The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924, p. 52.

(٢) A. Musil, The Northern Hegaz, N.Y., 1926, p. 274.

(٣) أخبار أيام ثان ٢١: ١٨-٢٠.

(٤) Isidore Epstein, op.cit., p. 47.

(٥) أخبار أيام ثان ٢٢: ١-٤.

(٦) ملوك ثان ٩: ٢٧-٢٩؛ أخبار ثان ٢٢: ٥-٩.

(٧) عثليا (٨٤٣-٨٣٧ ق.م.):

وتصل الأخبار إلى أورشليم، وتعلم عثليا بموت ولدها «أخزيا»، وقد كانت شديدة الرغبة في العرش، فتقتل أبناء الأسرة المالكة، وتعلن نفسها ملكة على يهوذا، وتعلن عبادة «بعل» الصوري، عبادة رسمية^(١)، بل إن «سيسل روث» إنما يذهب إلى أن هذه المرأة القوية، إنما كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في أورشليم من موطنها صور^(٢)، - أو بالأحرى من موطن أمها «إيزاييل» ذلك لأن عثليا إنما هي ابنة أخاب ملك إسرائيل، ولعل «سيسل روث» إنما نظر إلى هذه المرأة من ناحية أمها، طبقاً للتقاليد اليهودية، التي ترى أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعنيه على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختن^(٣)، والأمر بالنسبة إلى «عثليا» إنما هو عكس ذلك، فهي من أم صورية، وأب إسرائيلي.

وعلى أي حال، فقد انتهى حكم «عثليا» بعد سنوات ست (٨٤٣-٨٣٧ ق.م.)^(٤)، إما بمؤامرة من الجيش، أو بتمرد عام ضد عبادة «البعل» الذي جعلت منه عبادة رسمية في يهوذا، وعلى أي حال، فإن كلا الرأيين قد وردا في التوراة - في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الثاني - كما أن قصة «عثليا» بأكملها مازال غامضة، فطبقاً للتقاليد التي أشرنا إليها، فإن عثليا قد بدأت عهداً بقتل كل أمراء الأسرة المالكة، بما فيهم أحفادها جميعاً وأن واحداً منهم مجهول من عثليا قد أنقذ من المذبحة المروعة، وخبى في المعبد، وفي الواقع أنه ليست هناك بواعث كافية لهذه

I. Epstein, op.cit., p. 47.

(١) ملوك ثان ١١ : ١ : أخبار ثان ٢٢ : ١٠ : وكذا :

C. Roth, op.cit., p. 32.

(٢)

I. Epstein, op.cit., p. 168.

(٣)

(٤) قارن : W. F. Albright, The Biblical Period, p. 116.

المجازر البشرية، ذلك لأن عثليا إنما كانت تستطيع أن تقبض على زمام السلطة، بصفتها أم الملك المتوفى، ووصية على واحد من أحفادها أثناء صغره^(١).

(٨) يهوآش (٨٣٧-٨٠٠ ق.م.):

نجح «يهو ياداع» الكاهن الأكبر، وصهر البيت المالِك (زوج «يهو شبعة» ابنة يهورام، وأخت أخزيا، وعمة يهوآش في أن يجلس «يهوآش» (يوآش) - الطفل الذى كان قد خبئ في المعبد - وهو ما يزال في السابعة من عمره، على عرش يهوذا، وأن يقتل عثليا، وأن يدخل جميع الشعب، إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماما، وقتلوا «متان» كاهن البعل أمام المذابح^(٢).

وهكذا أصبح «يهوآش» ملكا على يهوذا، ولمدة أربعين سنة تالية، فيما ترى التوراة^(٣)، وسبع وثلاثين سنة (٨٣٧-٨٠٠ ق.م) فيما يرى «وليم أولبرايت»^(٤)، واستمر «يهو ياداع» يياشر نفوذه الدينى - وربما السياسى كذلك - على الملك والشعب سواء بسواء، طوال الأيام الباقية بعد ذلك من حياته، ثم سرعان ما تتغير الأمور بعد وفاته، فيعيد الملك والنبلاء عبادة البعل، مرة ثانية، ويهدد «حزائيل» ملك دمشق يهوذا، فيقدم له «يهوآش» «كل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك... فصعد عن اورشليم وقد أدى ذلك كله - إلى جانب رده، وانتهاك حرمة المعابد، وتدخل القصر في ضرائب المعبد - إلى اغتياله بيد اثنين من عبيده»^(٥).

A. Lods, op.cit., p. 384-385.

(١)

(٢) ملوك ثان ١١ : ١ - ٢١ : أخبار أيام ثان ٢٣ : ١٥ .

(٣) ملوك ثان ١٢ : ١ : أخبار أيام ثان ٢٣ : ١ .

W.F. Albright, op.cit., p. 166.

(٤)

(٥) ملوك ثان ١٢ : ١ - ٢١ : أخبار أيام ثان ٢٤ : ٤ - ٢٦ : وكذا : I. Epstein, op.cit., p. 47-48.

(٩) أمصيا (٨٠٠-٧٨٣ ق.م):

ويخلف أمصيا أباه يهوآش على عرش يهوذا، ويعاقب الجناة على ما اقتترف أيديهم ولكنه لم ينل بالأذى أولادهم، ونقرأ في التوراة^(١) أنه عمل المستقيم في عيني الرب، وإن ظلت المرتفعات كما كانت يذبح القوم لها، ويوقدون عليها، وأنه حاول أن يسترد أدوم، ونجح في الاستيلاء على سالع (البتراء)، ومن ثم فقد أطلق عليها اسم «يفثيل» بمعنى «الخاضع لله»^(٢) وطبقاً لما جاء في التوراة فإن أمصيا قد أحضر معه آلهة أدوم، وسجد أمامها وأوقد لها^(٣).

ويبدو أن أمصيا قد انبهر بانتصاره على أدوم، ومن ثم فقد تحدى «يوآش» (يهوآش ٨٠١-٧٨٦ ق.م) ملك إسرائيل، وتلاقى الخصمان في معركة عند «بيت شمس»، كتب فيها النصر لملك إسرائيل على أمصيا وأسره كذلك، ثم اتجه يوآش إلى أورشليم، وهدم جزءاً من السور الشمالي، وغنم ما في القصر والمعبد، ثم حمل الرهائن إلى السامرة، وإن سمح لأمصيا أن يحتفظ بالعرش وربما كتابع له - وقد أدى ذلك كله إلى أن تظل يهوذا تابعة لإسرائيل، وإلى أن تقوم فتنة ضد أمصيا يهرب من جرائم إلى لاختيش، وهي تلك الحسى على مبعدة ٥٦ كيلاً جنوب غرب أورشليم - فيتجه المتآمرون إلى هناك ويقتلون^(٤).

(١٠) عزيا (٧٨٣-٧٤٢ ق.م):

تبع «عزيا» أو «عزريا» أباه أمصيا على العرش، وكان موفقاً في تقوية مملكته، وقد حدثت بينه وبين الفلسطينيين عدة احتكاكات تمكن فيها من

(١) ملوك ثان ١٤ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٥ : ١-١٦.

(٢) A.B.W. Kennedy, Petra, History and Monuments, London, 1925, p. 78; .

Hastings, op.cit., p. 853.

(٣) أخبار الأيام الثاني ٢٥ : ١٤.

(٤) ملوك ثان ١٤ : ٨-٢٠؛ أخبار أيام ثان ١٥ : ١٧-٢٨؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 35-386; S.A. Cook, op.cit., p. 376.

تهديم بعض مدنها، كما شيد أبراجاً للدفاع عن أورشليم، وأعاد تنظيم الجيش، وقد تجاوز اهتمامه الشؤون العسكرية، فنشط الزراعة بحفر الخزانات، وحمى قطعانه في البرية ببناء أبراج لاتزال بعض آثارها حتى اليوم، ويمكن معرفتها بقطع الخزف المورخ، غير أننا نشهد في أخريات أيامه نزاعاً حاداً بينه وبين كهنوت يهو، ثم يصاب الملك بالبرص حين أراد اغتصاب وظائف الكهنوت، ويظل كذلك حتى وفاته، ورغم وصف التوراة له بأنه قد عمل المستقيم مع الرب، إلا أن المرتفعات ظلت كما هي، يذبح الشعب ويوقدون عليها^(١).

وفي عهد عزيا هذا تجدد النزاع بين اليهود والعرب الساكنين في «جوربعل» والمعونيين^(٢)، وأما «جوربعل» فهو مسكن بعل، فيما يرى بعض علماء التوراة، ومن ثم فإن «الويس موسل» إنما يضعها في الزاوية الشمالية الغربية من أرض حسمى^(٣)، بينما يرى آخرون أنها بمعنى «صخرة بعل»، ومن ثم فهي «البتراء»^(٤)، وأما المعونيون، فهم المعينيون^(٥) سكان المستعمرات المعينية في «ديدان»^(٦)، وربما سكان «معين مصر»^(٧).

(١) ملوك ثان ١٥ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٦ : ٩-١٩؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٢) أخبار أيام ثان ٢٦ : ٨؛ وكذا:

J. Hastings, op.cit., p. 401; E.B., p. 5240; A. Musil, op.cit., p. 244.

(٣) J. A. Montgomery, op.cit., p. 30; A. Musil, op.cit., p. 274.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٣٦٢/٢ (بيروت ١٩٦٧).

(٥) انظر عن «المعنيين»: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الفصل السابع، ص ٢١٣-٢٣٣، (الرياض ١٩٧٧).

(٦) ديدان: وهي العلا الحالية، وتقع في وادي القرى جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسلة الجبال من الشرق والغرب، وعلى مبعدة ٣٧٠ كيلو متراً من المدينة المنورة، ٢٤ كيلو متراً إلى الجنوب من مدائن صالح، وكانت تسمى على أيام النبي ﷺ «وادي القرى»، وأما الاسم «ديدان» (أو ددن) فهو الاسم القديم للموقع، وإن حاول البعض أن يربط بينه وبين اسم الإله «دد» الذي كان يعبد لدى الساميين الشماليين، وقد قامت بعض دويلات المدن فيما بين القرنين السادس والثالث ق.م، لعل أهمها «ديدان» و«الحيان». (انظر: عبد الرحمن الأنصاري، مجلة الدارة، العدد الأول، ص ٧٩، (١٩٧٥)؛ موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٠٣؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٢٥-٥٢٦؛ وكذا:

W. Caskel, Libyan and Libyanisch, Koln, 1954, p. 44.

(٧) H. Winckler, AOF, 29, p. 337; E.B., p. 3065; J. A. Montgomery, op.cit., p. 51.

(١١) يوثام (٧٤٢-٧٣٥ ق.م):

كان «يوثام» يقوم بوظيفة نائب الملك أثناء مرض أبيه عزيا، فلما مات جلس على العرش من بعده، ومن هنا نراه يتابع سياسته، فيدعم حضون أورشليم، ويبني القلاع والأبراج في الغابات، فيما وراء الأرض، ويخمد ثورة قام بها بنو عمون، ولم تسمع دمدمة العاصفة المقبلة إلا في أخريات أيامه، وذلك حين «ابتدأ الرب يرسل على يهوذا رصين ملك آرام، ووفقح بن رمليا، بهدف ضمها إلى الكتلة السياسية الجديدة التي بدأت تتكون ضد آشور، ولكن الملكين الآرامى والإسرائيلى - فضلا عن محاولتهما، على أنها كانت فى الواقع نذيراً أبطنته الأيام لخلفه على عرش يهوذا^(١)».

(١٢) أحاز (٧٣٥-٧١٥ ق.م):

ورث أحاز عرش أبيه يوثام، ورفض الدخول فى الحلف المضاد لآشور، وقاد النبىُّ أشعيا الحركة ضد هذا الحلف، وكان يرى أن الأمر فى حقيقته نزاع بين آشور ومصر، وأن يهوذا يجب أن تقف منه موقف الحياد، ومن ثم فقد بدأ يحرض الملك والشعب على السوء بأن يقفوا بعيداً عن هذه الأحلاف الخطرة، وأن يضعوا ثقتهم فى ربهم «يهوه» الذى اتخذ من أورشليم موطناً خاصاً به، ومن ثم فإنه لا يرضى بأن تكون مدينته فريسة للغازى الأجنبى، فلتثق يهوذا بربها يهوه، فلا يستطيع أحد لها ضرراً ولا نفعاً، ولن تجدد لسمعتها خيراً من الترفع وسياسة العزلة، كما أن النبىَّ العبرانى إنما قد تنبأ كذلك بتدمير الآشوريين لمملكتى دمشق وإسرائيل^(٢).

ومع ذلك كله، فلقد رفض «أحاز» أن يسمع لتحذيرات إشعيا وتأكيداته أو يشاطره ثقته فى «يهوه»، فقدم جزيته إلى آشور، طالباً حمايتها - الأمر الذى ناقشناه من قبل - وأخيراً فقد كان على أحاز، أن يذهب إلى

(١) ملوك ثان ١٥: ٢٢-٢٨، أخبار أيام ثان ٢٧: ١-٩، حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٥٣-٥٤.

(٢) إشعيا ٧: ١-١٧ تيودور رونسون، المرجع السابق، ص ١٤٢.

دمشق ليقدم بنفسه فروض الولاء لملك آشور (تجملات بلاسر الثالث)، ونقرأ في التوراة أن أحاز قد ضحى لآلهة دمشق، وطلب عونها، لأنها في رأيه الآلهة الأقوى، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل أنه قد شيد مذبحاً في معبد أورشليم على النمط الذي رآه هناك في دمشق، كما أدخل في يهوذا طقوس التضحية بالطفل التي كان يمارسها الآشوريون، حتى أنه قدم ابنه الوحيد لنيران مردوخ^(١)، وفي نفس الوقت فلقد أدخل في نطاق المعبد صوراً للخيول المقدسة تكريماً لإله الشمس، وذلك كتعبير لولائه لمعبودات آشور القديمة، كما هي في نفس الوقت تعبير عن الولاء لملك الملوك نفسه^(٢)، ومن ذلك الحين أصبحت دويلة يهوذا تابعة لهؤلاء الأباطرة الذين يتسلمون جزية أورشليم في نينوى.

(١٣) حزقيا (٧١٥-٦٨٧ ق.م):

خلف حزقيا أباه عرلى عرش يهوذا، ولكنه كان مختلفاً عنه، فلم ينهج نهجه، ولم يتبع سياسته في الدين والسياسة، فقد كان العاهل الجديد - فيما ترى التوراة - مصلحاً دينياً، ومن ثم فقد أمر بإخراج النجاسة من بيت الرب وتطهيره، فضلاً عن تقديم الذبائح والقربان والمحرقات، هذا إلى جانب إزالة المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى، وهى أمور حاول أسلافه القيام بها دون جدوى، بل لقد ذهب إلى حد الإعلان بأنه لن يدمر ما هو أقل قداسة من تمثال حية النحاس (نحشتان)، والتي كان محفوظاً داخل المعبد، ومحسوبة على أنه من صنع موسى نفسه، كما أنه «قد عصى على ملك آشور ولم يتعبد له»^(٣).

هذا وقد عمد حزقيا وأنصاره - في نفس الوقت - إلى إرسال البعثات

(١) ملوك ثان ١٦: ٧-٢٠؛ أخبار أيام ثان ٢٨: ١-٢٥؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 48-49.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 34.

(٣) ملوك ثان ١٨: ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٩: ١-٣٦.

التبشيرية النشطة إلى إسرائيل الشمالية للاشتراك في «عيد الفصح» في أورشليم، وقد لقيت دعوته قبولا حسنا في «الخليل» وفتورا في «أفرايم»، التي كانت قد أعادت تنظيم «بيت إيل» تحت رعاية الآشوريين، ليكون منافسا لمعبد أورشليم في تقديم الخدمات الدينية لأهل أفرايم^(١)، وقد لا يكون الخطأ أن المظاهر السياسية لهذه الدعاية التبشيرية لم يدركها حكام السامرة من الآشوريين، الذين كانوا يجدون مشقة وعنتا في السيطرة على السكان الأصليين، كما نعرف ذلك من المصادر الآشورية، والواضح أن يهوذا لم تذهب إلى أبعد من التخطيط للثورة في المستقبل في زمن «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م).

وعلى أي حال، فإننا نعرف من النقوش الآشورية أن ملك أشدود قد حاول الحصول على العون من يهوذا في خطته للتمرد، وعلى فرض صحة ذلك، فإن القائد الآشوري العام قد هاجم أشدود وأخضعها، ثم جعل منها إقليما آشوريا وإذا كان «حزقيا» قد اشترك في هذا التمرد، فإنه انسحب منه في الوقت المناسب حفاظا على يهوذا من خطر الوقوف ضد آشور، الأمر الذي لا جدوى منه أمام هذه القوة الساحقة المسيطة^(٢)، فهو - على أي حال - إنما كان رجلا حذرا، بصيرا بالعواقب، فهو يعلم تماما أن هناك على مسبعة ٤٨ كيلا إلى الشمال من أورشليم، كان الحاكم الآشوري يقف مفتوح العينين تماما، فإن خطوة واحدة غير حذرة من «حزقيا» تتبعها إيماءة من «نينوى» تجعله يفقد عرشه إلى الأبد^(٣).

وهكذا بقيت الأمور على حالها قرابة عقد من الزمان، مات فيها «سرجون الثاني» وخلفه ولده «منحريب» (٧٠٥-٦٨١ ق.م) وكانت تلك

(١) ملوك ثان ١٧: ٢١-٢٨؛ أخبار إيام ثان ٣٠: ٣١-٢١.

(٢) William Foxwell Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963, p. 77.

W. Keller, op.cit., p. 251.

(٣)

اللحظة هي الإشارة للثورة التي انتشرت كالنار في الهشيم بين الولايات الموالية لآشور، وفي هذه الأثناء تدخل «مردوخ بالادان» ملك بابل الذي كان يقود الثورة في الأراضي الغربية، بطريقة أكثر حزمًا في السياسة اليهودية، ونظرًا لشفاء «حزقيا» من مرضه الخطير الذي كان قد أصيب به، ولثقة في التخلص من قبضة الآشوريين، فإن حزقيا استقبل بعثة من قبل ملك بابل، طبقًا للتقاليد الملكية القديمة، تحمل إليه السلام، وتحضر إليه الهدايا، وقام حزقيا بفتح خزائنه، ومحتويات مخازنه الحربية، وتم بهذا التحالف مع بابل الذي اشترك فيه العرب مع آخرون، وأما «مصر» فقد كان لها هناك في أورشليم حزب قوى يبغى التحالف معها، ويطلب الحماية منها، وينجح الآن فيما فشل فيه من قبل، فلا يسمع «حزقيا» لنصائح إشعياء النبي، ولا يضيع على نفسه فرصة موت سرجون، ومن ثم فإن ملك يهوذا إنما يطلب من مصر التدخل في شئون فلسطين لتدعيم مركز الثائرين، ومساعدتهم على التخلص من النير الآشوري، وهكذا تكون حلف يضم فينيقيا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون، فضلًا عن بعض القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية، على رأسها «تعلخونو» ملكة «أدوماتو» (دومة الجندل) وفوق الجميع كانت مصر، وأخيرًا «حزقيا» ملك يهوذا حيث «عصى على ملك آشور ولم يتعبد له»^(١).

وهكذا انتهزت بابل ومصر فرصة قيام ملك جديد في آشور لإثارة المتاعب في طريقه، كانت بابل تسعى لرفع نير آشور عن كاهلها، وإن لم يكتب لها نجاحًا في مساعيها، وكانت «تعلخونو» (تلخونو) - التي امتدت سلطتها من دومة الجندل، وحتى حدود بابل - قد وقفت إلى جانب الشوار البابليين ضد سنحريب وعندما كتب للعاهل الآشوري نجاحًا كبيرًا في القضاء على مقاومة البابليين، اتجه إلى دومة الجندل، وفرض الحصار

عليها^(١)، ثم استولى عليها بعد أن دبّ النزاع بين ملكة «دومة الجندل»، وقائد جيوشها «حزائيل» سيد قبيلة قيدان^(٢)، ويبدو أن سنحريب قد حقق نجاحاً كبيراً على الأعراب في البادية، كان سبباً في أن يفرض نفوذه عليهم بدرجة كبيرة، ومن ثم فقد رأينا «هيرودوت» يطلق عليه لقب «ملك العرب والآشوريين»^(٣).

وأما مصر، فقد كانت تستهدف إعادة نفوذها على فلسطين، وهكذا تجددت العداوة الكامنة بين القوتين الكبيرتين - مصر وآشور - في عهد «سنحريب» وبدأ الجيش الآشوري في غزو فلسطين في عام ٧٠١ ق.م، وإخضاع مدن فلسطين الساحلية، الواحدة تلو الأخرى، وبينما كان «سنحريب» يقوم بذلك كله، ظهرت قوة مصرية في الجنوب الغربي من فلسطين قرب «التقية» (المذكورة في سفر يشوع ١٩ : ٤٤) أو «التكة» - وهي خربة المقنع الحالية، على مبعده ١٠ كيلاً جنوبى العقير (عقرون)، ١١,٥ كيلاً شمال تبنة (تمنة) - وإن كان من غير المحتمل أن المصريين قد استخدموا قوة كبيرة، وعلى أى حال، فإن «سنحريب» يصف منافسيه بأنهم «ملوك مصر» أى حكام المدن، وربما كانوا من أمراء الدلتا، وكذلك النبالة وفرسان الفرعون الأثيوبي، ومن الواضح أن الإشارة في التوراة عن تدخل «ترهاقة» (طهراقا) ملك كوش ضد سنحريب خطأ، ذلك لأن «شباكا» إنما كان ما يزال فى عام ٧٠١ ق.م ملكاً، وأن ابن أخيه «طهراقا» لم يخلفه على العرش إلا فى عام ٦٨٩ ق.م^(٤).

(١) A. Musil, Arabia Deserta, N.Y., 1930, p. 460; D.D. Luckenbill, ARAB, 2, p. 518.

(٢) جواد علي، ٥٩٢/١، وكذا: British Museum Tablets, K, 3087, 3405.

(٣) Herodotus, II, 141.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ١٠٣/١، والتر إمري، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة خندوسة، ص

٢٢٧، (القاهرة ١٩٧٠)، وكذا:

A. H. Gardiner, op.cit., 450; M. Noth, op.cit., p. 268.

وأيا ما كان الأمر، فإن قوات سنحريب قد اخترقت بلاد يهوذا، وفتحت حصونها واحداً إثر الآخر، ثم احتلت ستاً وأربعين مدينة مسورة مع عدد من المدن الصغرى، أو بمعنى آخر، فإن بلاد اليهودية كلها تقريباً قد سقطت في أيدي الآشوريين، وكل ما استطاع «حزقيا» الحفاظ عليه إنما كان أورشليم، كما أن واحدة أو اثنتين من القلاع الحصينة في الجبهة الغربية استمرت تقاوم الآشوريين، ومنها «لاخيش» Lachish^(١)، التي اتجه إليها سنحريب وأحكم جنوده الحصار حولها، وهنا لم يكن أمام حزقيا شيئاً يفعل في هذا الموقف الميئوس منه، إلا الخضوع لسنحريب، وإلا جزية كبيرة يدفعها له صاغراً ذليلاً، ومن ثم فقد أرسل حزقيال للعاهل الآشوري في «لاخيش» يقول: «قد أخطأت ارجع عني، ومهما جعلت على حملته، فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة، وثلاثين وزنة من الذهب، فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب، وفي خزائن بيت الملك»^(٢).

ويبدو أن سنحريب قد أدرك أنه من خرق الرأى أن يترك أورشليم الحصينة من ورائه في يد حزقيا، ومن هنا فقد أرسل قسماً من جيشه تحت إمرة ثلاثة من قواده لحصار أورشليم والاستيلاء عليها، وهكذا بدأ حصار أورشليم، وأرسل ضباط سنحريب رسالة سخرية إلى حزقيا الذي بدأ في مدينته «كالطير في القفص» وانتشر الرعب بين القوم، الذين خيل إليهم أن ساعة أورشليم الأخيرة قد دنت ويفتح سنحريب لاخيش بعد ذلك، ثم يتجه إلى «التكة» لمهاجمة الجيش المصرى الذى كان يقوده «طهراقا»، وفى أثناء

(١) لخيخ أو لاكيش: كان يظن أنها «تل الحصى» على مبعده ١٦ ميلا إلى الشمال الشرقى من غزة، ١١ ميلا إلى الجنوب الغربى من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدوير» على مبعده ٥ أميال غرب بيت جبرين.

W.M.F. Petrie, Tell el-Hesi (Lachish), 1891; M.F. Albright, ZAW, 6, 1929, p. 3.

(٢) ملوك ثان ١٨: ١٣-١٦.

ذلك حدث ما يدعو سنحريب إلى العودة إلى «نينوى»، وأنقذت أورشليم، وسمح لحزقيا بأن يحتفظ بعرش يهوذا، كتابع لآشور، وإن أجبر على دفع الجزية المتأخرة، وأن يرسل بناته ومحظياته إلى سنحريب في نينوى، ومن المتفق عليه أن سنحريب قد أوقع على حزقيا عقاباً قاسياً، وأنه جعل سلطانه مقصوراً على دولة المدينة الصغيرة أورشليم (مدينة داود)، واستولى منه على كل بلاد يهوذا، التي وهبها للملوك الفلسطينيين الموالين له، وهم «متنى» ملك أشدود، و«سلبيل» ملك غزة، و«بادى» ملك عقرون، الذى استعاد سلطانه القديم^(١).

هذا وقد سجل «سنحريب» كل هذه الأحداث فى حولياته، ومن ثم فإننا نقرأ فى هذه الحوليات : «... أما بالنسبة لحزقيا اليهودى، فإنه لم يخضع لنيرى، ومن ثم فقد حاصرت ٤٦ مدينة من مدنه القوية، وكذا القلاع المسورة والقرى الحصينة، التى لا تحصى فى مجاوراتها، وفتحتها بواسطة منحدرات ترابية وكباش (آلات حربية لهدم الأسوار) جعلتها قريبة من الأسوار، هذا إلى جانب هجمة المشاة الذين استخدموا المقاليع والمدكات، واستوليت منهم على (٢٠٠ ١٥٠)^(٢) نسمة، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، وأخذت منهم خيلاً وبغالاً وحميراً وجمالاً وماشية لا تحصى، كغنيمة، وأما هو فقد جعلته سجيناً فى أورشليم مقر ملكه كطير فى قفص، وحاصرت به بأكوام من التراب، حتى أضايق من يتركون بوابة مدينته، وأما مدنه التى نهبتها فقد نزعته من بلاده، وأعطيته لـ «متنى» ملك أشدود، و«بادى»

(١) ملوك ثان ١٨ : ١٧-٢٧، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 268-269; P.R. dougherty, JBL, XLIX, 1930, p. 160-171;

K. Kullerton, AJSL, XLII, 1925, p. 1-25.

(٢) يرى بعض الباحثين أن ما يدعيه «سنحريب» من أنه قد أخذ من سكان يهوذا (٢٠٠ ١٥٠ نسمة)، إنما يشير إلى عدد سكان يهوذا، كما يقدر فى تلك الأيام، وأن العاهل الآشورى إنما قد اعتبرهم جميعاً أسرى حرب . (فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٩٧).

ملك عقرون، و«سلبيل» ملك غزة، وهكذا اختزلت بلاده، ومع ذلك زدت الجزية «كاترو» Katru التي يجب دفعها لى بوصفى سيداً له، بالإضافة إلى الجزية السابقة، على أن تسلم لى سنوياً، أما حزقيا نفسه الذى ذعر من بهائى وعظمتى، والذى هجرته النخبة الممتازة من الجيوش التي جاء بها إلى اورشليم لتدعيم قواتها، فأرسل إلى فيما بعد إلى نينوى، مدينتى الملكية ٢٠٠ وزنة من الذهب، ٨٠٠ وزنة من الفضة، أحجاراً كريمة، كحل ألواح كبيرة من الحجر الأحمر، مخادع مطعمة بالعاج، ومقاعد مطعمة بالعاج، جلود فيلة، أبنوس خشب صناديق، وكل الذخائر الثمينة، ثم بناته ومحظياته، وعازفين وعازفات، ولكى يسلم الجزية ويقدم الخضوع كعبد، أرسل رسوله الشخصى^(١).

هذا وقد اختلفت الآراء فى الأسباب التي دعت سنحريب إلى العودة المفاجئة إلى بلاده، بخاصة وأن العاهل الآشورى لم يشر إلى ذلك، فهناك من يرجع ذلك - إلى اضطراب خطير فى «نينوى» نفهسا، وهناك من يرجعها إلى وجود جحافل من الفيران أكلت قسى الغزة وجعابهم وحمائل دروعهم، فكانت النتيجة أنهم قد أصبحوا عزلاً من السلاح، ومن ثم فقد ولوا الأدبار، وسقط الكثيرون منهم^(٢)، وأخيراً ترجعها التوراة إلى أن «ملاك الرب» قد خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألف، ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة، فانصرف سنحريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام فى نينوى^(٣).

وهكذا أصبح من الصعب علينا أن نعرف أسباب عودة سنحريب على

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٨٠/٥-٢٨١، (الإسكندرية ١٩٦٣)، وكذا: A. Leo, Oppenheim, ANET, 1966, p. 288.

(٢) هيرودوت، يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر، خفاجة، مراجعة وتقديم أحمد بدوى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٨٠-٢٨٢.

(٣) ملوك ثان ١٩: ٣٥-٣٦؛ إشعيا ٣٧: ٣٦.

وجه التحقيق، ذلك لأن كلا من روايتى التوراة وهيرودوت، إنما ترجعها لأسباب غير عادية، فالأولى ترجعها إلى قدرة «هيفايستوس» (بتاح) الإله المصرى والثانية ترجعها إلى قدرة «يهوه» رب إسرائيل، وهى فى ذلك إنما تعبر عن وجهة النظر اليهودية من هذه الأحداث^(١)، وعلى أى حال، فلئن صدقت إحدى الروايتين - أو حتى الروايتين معاً - فذلك نوع من المعجزات، وإن كان الأمر غير ذلك، فربما كانت هناك أسباب داخلية فى نينوى دعت سنحريب إلى العودة إلى بلاده، ليكون على مقربة من الأحداث، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به، وأياً ما كان الأمر، فالذى لا شك فيه أن حزقيا إنما استمر على ولائه لآشور، ما بقى حياً فى هذه الدنيا.

(١٤) منسى (٦٨٧-٦٤٢ ق.م):

جاء «منسى» إلى عرش يهوذا بعد أبيه حزقيا، و«كان منسى ابن اثنى عشرة سنة حين ملك، وملك خمسا وخمسين سنة»^(٢)، وقد تميز عهده الطويل هذا بأن فلسطين أصبحت تحت النفوذ الآشورى المباشر، وأن حكمه - طبقاً لهذا - يمكن أن ينظر إليه كعلامة مميزة فى التطور الداخلى للبلاد^(٣).

وأما من الناحية الدينية فقد كانت له شهرة سيئة، ذلك لأن «منسى» إنما كان كافراً بدين «يهوه»، متبنياً لطقوس سادته الوثنية، بما فيها من عبادة الكواكب والتضحية بالأطفال، ومن هنا فقد اعتبرت هذه المرحلة أسوأ وأقسى ردة وثنية فى تاريخ يهوذا، وأما ما هو أكثر دهشة فى هذه المرحلة، فإن هذه الأحوال إنما كان يمارسها هؤلاء القوم الذين ادعوا أنهم عباد يهوه، إنما كانوا يعتقدون أنهم بممارستهم مثل هذه الأعمال، يصبحون

(١) J. Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, p. 114.

(٢) ملوك ثان ٢١: ١.

(٣) S. A. Cook, op.cit., p. 391.

(٤) I. Epstein, op.cit., p. 51.

جديدين برعاية رب إسرائيل^(٤)، ونقرأ في التوراة أن منسى قد «بنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه، وأقام مذابح البعل، وعمل سارية كما عمل أخاب ملك إسرائيل، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبنى مذابح فى بيت الرب، الذى قال الرب عنه: فى أورشليم أضع اسمى، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب، وعبر ابنه فى النار، وعاف وتفاءل واستخدم جانا وتوابع، وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته، ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت، الذى قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه فى هذا البيت، وفى أورشليم التى اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد»^(١)، وهكذا جددت المحارب المحلية القديمة، ومارس القوم الضحايا البشرية، وقدموا الطقوس الأجنبية المألوفة حتى فى معبد أورشليم نفسه^(٢)، وأعترف القوم رسمياً بعبادة البعل، كما اعترف كذلك بممارسة العرافة والسحر، ولعل هذا كله هو الذى دعا بعض الكتاب المتأخرين إلى أن يروا فى منسى وما تم فى عهده سبياً فى سقوط أورشليم ونفى يهوذا^(٣).

ونقرأ فى التوراة أن «منسى» قد سبى إلى «بابل»، ثم أعيد مرة أخرى إلى عرشه، وليس هناك من المستندات الآشورية ما يدعم ذلك، وإن كان هناك ما يشير إلى أن «إسر حدون» (٦٨٠-٦٩٩ ق.م) قد استدعى مجموعة من مواليه الصغار - ومنهم منسى - للمساهمة فى بناء القصر الملكى، ولكن ليست هناك أية إشارة إلى إعادة «منسى» إلى عرشه^(٤)، وعلى أى حال، فإن هذا الأمر الأخير إنما قد حدث مع «نخاو» أمير سايس^(٥)، ومن ثم فليس من الغريب أن يحدث مثل ذلك مع «منسى» حين تأكد الآشوريون من ولائه لهم، ولكن الشيء المميز للنص التوراتى يعزو حرية منسى وعودته إلى

C. Roth, op.cit., p. 35.

(٢)

(١) ملوك ثان ٢١: ٣-٧.

W. F. Albright, op.cit., p. 79.

(٣) ملوك ثان ٢٣: ٢٦-٢٧؛ إرميا ١٥: ٤؛ وكذا:

(٤) جون إلدر، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) A. Leo Oppenheim, ANET, p. 295.

عرش يهوذا، إلى خضوعه لرب إسرائيل «يهوه»، ويدهى أن هذا ليس صحيحاً^(١) كما أنه لا يتفق وسيرة منسى وأعماله الدينية.

(١٥) آمون (٦٤٢-٦٤٠ ق.م):

خلف آمون أباه منسى على عرش يهوذا، وكان ابن اثنين وعشرين سنة حين ملك، وملك سنتين في أورشليم، وعمل الشر في عيني الرب كما عمل منسى أبوه، ثم سرعان ما ذبح في فتنة قام بها عبيده من خدم القصر، فاقتص الشعب لهذه الجريمة، ونصب ولده «يوشيا» على العرش، وهو ما يزال بعد صبيهاً في الثامنة من عمره^(٢)، وفي الواقع أننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب في اغتيال آمون، فربما كان تصرفاً لانتقام شخصي، وربما كان نتيجة مؤامرة في الحاشية، وإن كان من غير المستحيل والحدث يرتبط بانهيال آشور - أن النزاع بين مؤيدي آشور والمعادين لها - إنما كان مسئولاً إلى درجة ما عن هذا الأمر^(٣).

(١٦) يوشيا (٦٤٠-٦٠٩ ق.م):

جاء يوشيا إلى عرش يهوذا في وقت كانت فيه آشور تدنو إلى النهاية المحتومة، وفي هذه الأثناء كان يجلس على عرش آشور «أشور بانيبال» (٦٦٨-٦٢٦ ق.م)، وكانت ظواهر الأمور تدل على أن إمبراطوريته وطيدة الأركان، وخاصة بعد أن قضى على ثورة أخيه «شمش شوم أوكين»، وحلفائه من الأعراب مثل «باتاع» الذي فر إلى البادية على أيام سلفه «إسرحدون»، وإن انتهى أمره الآن إلى أن يقبض عليه - وكذا زوجه أديا «عدية» - وأن يضعه «أشور بانيبال» في قفص ليعرض على الناس عند أحد أبواب نينوى^(٤).

S.A. Cook, op.cit., p. 293-4.

(١)

(٢) ملوك ثان ٢١: ١٩-٢٦، ٢٣: ٢٠-٢٥، أخبار أيام ثان ٢٣: ٢١، ٢٥.

M. Noth, op.cit., p. 272.

(٣)

A. Musil, op.cit., p. 48-65; D.D. Luckenhill, op.cit., p. 819.

(٤)

وتمضى الأيام، ويحدثنا العاهل الآشورى نفسه أن أياماً سوداً قد حلت فى أرجاء مملكته، وأنه كان يقاسى آلاماً جسمية وروحية سلبت روحه، ثم حدثت بعد وفاته فى عام ٦٢٦ ق.م، مشاكل واضطرابات أدت فى نهاية الأمر إلى سقوط العاصمة الآشورية نفسها فى أيدي البابليين والميديين فى عام ٦١٢ ق.م، وبعد ذلك تم نهبها فى صورة كاملة^(١)، وإن كان هناك من العلماء من يرى أن المدينة قد سقطت فى أغسطس ٦١٣ ق.م، بعد معركة دموية ضد الحلفاء، بدأت فى شهر يونيه ٦١٣ ق.م^(٢)، وعلى أى حال، فلقد اقتسم الفريقان المنتصران مملكة آشور، فاستولى «الميديون» على قسمها الشرقى، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية أن تجعل من «حران» مركزاً لها، ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) ابن «نبوبولاسر» (٦٢٦-٦٠٥ ق.م) ملك بابل، استطاع أن يستولى عليها، وأن يقضى على الجيش الآشورى فى عام ٦٠٩ ق.م^(٣).

وفى هذه الأثناء كان «نخاو الثانى» (٦١٠-٥٩٥ ق.م) يجلس على عرش الكنانة، فيتابع سياسة أبيه «بسماتيك الأول» (٦٦٤-٦١٠ ق.م) فى مساندة آشور - وإلى أبعد الحدود - ولم يكن نخاو يريد من ذلك أن يجعل لمصر صوتاً مسموعاً فى سياسة الشرق الأدنى القديم فحسب، ولكنه أراد كذلك أن يحتفظ بأشور الضعيفة كحماية ضد القوى الخطيرة فى الشرق، والتي تهدد الآن آشور فى المقام الأول، ولكنها على العموم ربما تجاوزت فى الغد القريب كل الشرق القديم، وأخيراً لكى يسترجع لمصر الإمبراطورية المصرية المفقودة فى سورية وفلسطين، وهكذا أسرع نخاو الثانى بقواته لمساعدة «أشور أوبالط الثانى» القابع فى «حران» أملاً فى عون السماء، يأتيه عن طريق مصر، ويا للعجب، فإن البلد الذى بقى لمدة جيلين هدف

A. H. Gardiner, op.cit., p. 258.

(١)

(٢) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

M. Noth, op.cit., p. 273.

(٣)

الآشوريين، فإذا هو يصبح الآن العون الأكبر - والوحيد لهم - ولست أدرى أكان ذلك نتيجة طبيعية لحسن نية المصريين، وطبيعة نفوسهم النبيلة ونسيانهم الإساءة دائماً وأبداً؟ أم أن الدوافع السياسية كانت وراء ذلك كله؟ وأياً ما كان الأمر، فلقد كان على الفرعون المصري لكي يصل إلى حران أن يعبر كل سورية وفلسطين، وأن يقبض بيديه على زمام الأمور في هذه البلاد بعد أن انتهى الحكم الآشوري فيها، وكان الموقف بالنسبة إلى «يوشيا» ملك اليهود مختلفاً، كان انهيار آشور فرصته التي كان يحلم بها، لاستعادة حكم بيت آل داود في مملكة إسرائيل السابقة، والتي كانت في هذه الفترة مقسمة بين أربع ولايات آشورية، ولما لم يكن هناك ملك على إسرائيل منذ سقوط السامرة، فقد رأى أن الطريق ممهد للمحاولة في تعزيز الادعاء القديم لبيت داود، واستعادة الحكم الملكي على أيام داود وسليمان^(١).

هذا فضلاً عن أن «يوشيا» إنما كان يميل إلى بابل - كما كان حزقيا من قبل - أكثر من ميله إلى آشور، بل إن محاولات يوشيا لإعاقة الجيش المصري في «مجدو» وهو في طريقه إلى حران، ربما تدل على قاعدة عريضة من خطة استراتيجية لمعاهدة عسكرية بين يهوذا وبابل، وإن لم تكن لدينا أية معلومات عنها، ومما يؤيد ذلك أن الجيش المصري، تحت قيادة بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ ق.م)، كان قد أسرع في عام ٦١٦ ق.م، لمساعدة الآشوريين ولم يعترضه يوشيا، لأن بابل كانت ماتزال فيما وراء الأفق السياسي لمملكة يهوذا ولكن الموقف الآن قد تغير تماماً، وقد أصبح الجيش البابلي على مقربة من الفرات^(٢)، وتلك فيما أظن طبيعة اليهود، فهم تحت أقدام القوي دائماً وأبداً، ويؤيد ذلك ما كان يظنه يوشيا من ضعف الجيش المصري.

M. Noth, op.cit., p. 273-274.

(١)

A. Malamat, The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES 9, 1950, p. 219. (٢)

وعلى أى حال، ورغم ذلك، فليس هناك من شك فى أنه كان فى أورشليم حزب مصرى قوى - كما كان من قبل على أيام حزقيا، وكما سيكون من بعد على أيام خلفاء يوشيا - وأياً ما كان الأمر، فمن الواضح تماماً أن يوشيا كان يؤيد بابل ضد آشور، وأنه لم يكن أبداً راغباً فى طلب مساعدة مصر ضد عدوه، كما أنه لم يكن راغباً كذلك فى أن يمكن مصر من الإفادة من ضعف هذا العدو^(١).

وفى عام ٦٠٩ ق.م، تقدم الفرعون «نخاو الثانى» نحو «حران» لنجدة ملك آشور، وهناك فى «مجدو» - تل المتسلم على مبعدة ٣٢ كيلا جنوبى شرقى حيفا، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال^(٢) - اعترض يوشيا الجيش المصرى ومنعه من التقدم، فأنذره «نخاو» بالحسنى، ولكنه لم يرعو، ونقرأ رسالته فى التوراة - كما جاءت فى أخبار الأيام الثانى - حيث يقول فيها: «مالى ولك يا ملك يهوذا، لست عليك أنت اليوم، ولكن على بيت حربى، والله أمر بإسراعى، فكف عن الله الذى معى فلا يهلكك، ومع ذلك: «لم يحول يوشيا وجهه عنه، بل تنكر لمقاتلته، ولم يسمع لكلام «نخو» (نخاو) من فم الله، بل جاء ليحارب فى بقعة مجدو»^(٣).

ويدو أن «يوشيا» قد خيل إليه أن الموقف فى صالحه، فقد كانت بعض المميزات العسكرية الهامة فى مجدو إلى جانب يوشيا، كالمبادأة بالهجوم والفرصة لهجوم سريع مذهل على عدو بعيد عن قواعد عملياته العسكرية، ومهدد بخطر الانفصال، والانتقطاع عنها، ومع ذلك فإن يوشيا لم يكن بقادر على هذه الخطوة، ما لم يكن يمتلك جيشاً قوياً مدرباً يمكن الاعتماد عليه، ومع ذلك فيمكن أن نفترض - على أساس مقدرة يوشيا

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 395-396. (٢) قاموس الكتاب المقدس ١/٢: ٨٤١.

(٣) أخبار الأيام الثانى ٣٥: ٢١-٢٣.

السياسية - أنه قد أولى اهتماماً كبيراً لتطوير الجيش اليهودي ورفع مستواه^(١).

وعلى أى حال، فسرعان ما يلتقى الجيشان - المصري واليهودي - ويكتب النصر للمصريين، والذلة على اليهود، ويدفع يوشيا حياته ثمناً لهذه المغامرة الفاشلة، كما يدفع اليهود ثمن خطيئتهم فى تقدير قوة المصريين الحقيقية، وبسبب سياستهم المناوئة للسياسة المصرية، وتصبح فلسطين بالتالى خاضعة للسيادة المصرية^(٢)، ومع ذلك، فإن محاولة «يوشيا» هذه فى «مجدو» إنما يمكن أن ينظر إليها على أنها النموذج الوحيد فى التاريخ الإسرائيلى من ناحية القيام بهجوم على جيش ذى قوة عالمية عظيمة^(٣)، وكانت هذه القوة، هى مصر بالذات، التى قدر لها أن تذيبهم الذلة على مدى الدهور القديمة، وأياً ما كان الأمر فإن «نخاو» قد تابع مسيرته فى أواسط سورية وشمالها ليقوم بمحاولة أخيرة لمساعدة آشور، ورغم أن المصريين لم يوفقوا فى إنقاذ آشور، فإنهم استمروا يسيطرون على منطقة عبر النهر وتخوم الفرات، بعد أن استولوا فى عام ٦٠٦-٦٠٥ ق.م، على معقل «كيموخو» وهزموا البابليين فى «فوراماتى» وهما موقعان على الفرات إلى جنوب قرقيش^(٤).

وعلى أى حال، فلقد نجح «نخاو» فى أن يخضع المدن الساحلية مثل أشدود وعسقلون، كما أثبتت ذلك أوراق البردى، وطبقاً لرواية فى التوراة فقد استولى على غزة كذلك، وهناك نص بالهيريوغليفية عثر عليه فى «صيدا» يشير إلى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقي، وقد يسر له ذلك امتلاكه لأسطول فى البحر الأبيض المتوسط^(٥).

(١) A. Malamat, JNES, 9, 1959, p. 222.

(٢) ملوك ثان ٢٣ : ٢٩-٣٠؛ أخبار أيام ثان ٣٥ : ٢٠-٢٥، وكذا: S. A. Cook, op.cit., p. 296.

(٣) A. Malamat, JNES, 9, 1950, p. 222.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 358; D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, p. 23, 67.

(٥) إرمياء ٤٧ : ٨؛ وكذا: A. H. Gardiner, op.cit., p. 358.

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير هنا، قبل أن نختم عهد يوشيا، إلى أن هذا العهد إنما قد تميز بعدة إصلاحات دينية، كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» في العام الثامن عشر من حكم هذا الرجل (عام ٦٢٢ ق.م) على يد الكاهن حلقيا في معبد أورشليم^(١)، وقد قام جدل طويل حول حقيقة هذا الكشف، وسواء أكان «حلقيا» قد أوجد نسخة سفر «التثنية» هذه، أم أنه قد وجدها حقيقة^(٢)، وسواء أكانت النسخة أصلية، أم أنها لم تكتب إلا قبيل اكتشافها هذا المزعوم بما لا يتعدى عشرات السنين^(٣) - الأمر الذي سوف تناقشه بالتفصيل في الجزء الخاص بالتوراة في كتابنا عن الحضارة اليهودية - فالذي يهمنا هنا أن النصوص إنما تنسب إلى يوشيا أنه قد أصلح المعبد، وطهره من الطقوس الأجنبية، وأزال المحاريب المحالية من المرتفعات، ودمر مذبح «بيت إيل» المنافس لمذبح أورشليم منذ أيام يربعام الأول ملك إسرائيل (٩٢٢-٩٠١ ق.م)، واحتفل بعيد الفصح الذي يذكر القوم بالخلاص من مصر^(٤)، ومن المدهش أن سيطرة مصر قد جاءت إليهم بجيوشها في أورشليم نفسها هذه المرة، وفي نفس العهد الذي احتفل فيه بالخلاص منها.

(١٧) يهوأحاز (٦٠٩ ق.م):

كان موت يوشيا بعد معركة مجدو صدمة قاسية على الحزب البابلي في أورشليم، ومع ذلك فقد «أخذ شعب الأرض يهوأحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه، وكان يهوأحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم»، كان «نخاو» أثناءها مشغولاً في الشمال،

(١) ملوك ثان ٢٢: ٣-١٣؛ أخبار أيام ثان ٢٤: ٨-٣٣.

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٥٦؛ وكذا:

(٣) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 225.

A.P. Davies, The Ten Commandment, N.Y., 1956, p. 35. (٣)

C. Roth, op cit., p. 35-36. (٤) ملوك ثان ٢٢: ٢٣؛ وكذا:

متخذاً من «ربلة» - وهى هرمل الحالية عند منابع العاصى - ثم أمر «يهوأحاز» بالحضور إليه، وهناك قبض عليه وأرسل إلى مصر مقيداً فى الأغلال، حيث بقى هناك إلى وفاته، وتقاضى نخاو من يهوذا تعويضاً كبيراً، «مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب»^(١).

(١٨) يهوياقيم (٦٠٩-٥٩٨ ق.م):

جاء يهوياقيم إلى عرش يهوذا - بأمر من الفرعون المصرى نخاو الثانى - بعد أخيه غير الشقيق «يهوأحاز»، ثم سرعان ما غير نخاو اسم الملك اليهودى الجديد من «الياقيم» إلى «يهوياقيم»، ورغم أن نقطة التغير هذه ليست واضحة، فربما تعنى إشارة ما إلى السيادة المصرية، وعلى أى حال، فمن الواضح أن الملك الجديد إنما كان مرضياً عنه من مصر^(٢)، وأن الفرعون المصرى إنما كان قد هبط كثيراً بممتلكات «بيت داود» إلى الحدود التى كانت عليها قبل يوشيا، وجعلها مقصورة على «دويلة المدينة أورشليم»، ومملكة يهوذا القديم، كما طلب الاعتراف بسلطانه عليها، فضلاً عن أن تكون له أقاليم مملكة إسرائيل الشمالية، والتى أصبحت تدار فعلاً كأقاليم مصرية تماماً^(٣).

وما أن يمضى حين من الدهر قليل، حتى استقرت الأمور تماماً - «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، وفشلت كل محاولات مصر للإبقاء على الإمبراطورية الآشورية المنهارة، وهناك ما يشير إلى تجدد العداوة بين القوتين الكبيرتين - مصر وبابل - ذلك أن «نبوخذ نصر» - على ما يبدو - لم يتخل مطلقاً عن الوصول إلى الحدود المصرية، ومن هنا نراه فى عام

(١) ملوك ثان ٢٣: ٣-٢٣؛ أخبار أيام ثان ٣٦: ١-٣؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 280.

(٢) ملوك ثان ٢٣: ٣٤-٣٧؛ أخبار أيام ثان ٣٦: ٤-٥؛ وكذا:

S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 397.

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 280.

(٣)

٦٠١ ق.م، يتجه إلى مصر، ولكنه ردَّ عنها بعد أن تحمل الكثير من الخسائر، بل واضطر إلى أن يعود إلى بلاده، وأن يبقى هناك عامًا يسترد فيه أنفاسه ويستعيد قواه، ويعيد تنظيم جيشه، كما أن هزيمة العاهل البابلي هذه إنما قد أنهت العداوات المباشرة بين البلدين لبضع سنوات تالية^(١)، ومن ثم فقد تجمدت السياسة الحربية الشمالية لمصر بقية عهد «نخاو» ويشير «هيرودوت» إلى عقد معاهدة بين البلدين، وأن الفرعون المصري قد زوج ابنته أو أخته من «نبوخذ نصر»، فصارت ملكة على بابل، وهي رواية لم تتأكد بعد^(٢).

وأيًا ما كان الأمر، فإن «نبوخذ نصر» إنما كان يتلقى الجزية من الأقاليم العربية التي وافقت مصر على أن ترث بابل آشور فيها، غير أن يهوذا إنما بقيت فترة تفاضل بين مصر وبابل، وأى الدولتين أحق بخضوع اليهود لها، وفاز الحزب المصري آخر الأمر باليد العليا، وثار «يهوياقيم» ضد سيده البابلي «نبوخذ نصر»^(٣)، وربما ساعده على ذلك هزيمة البابليين أمام المصريين، ومن ثم فقد انضم إلى مصر، رغم تحذيرات النبي «إرميا»^(٤) ونقرأ في التوراة أن «يهوه» رب إسرائيل قد أرسل إلى يهوياقيم جماعات من الكلدانيين والآراميين والمؤابيين والعمونيين لإبادة يهوذا^(٥)، والواقع أن «نبوخذ نصر» لم يتدخل بنفسه في هذا التمرد الذي قام ضده في عام ٥٩٨ ق.م، لأنه رأى أن إمبراطورية عظيمة مثل إمبراطوريته لا تخلو من الثورات المحلية الصغيرة، ولكن سرعان ما غير رأيه وأسرع بنفسه إلى يهوذا، وبينما كان في الطريق إليها مات «يهوياقيم» وخلف ولده «يهوياكين» على عرش يهوذا^(٦).

(١) D. J. Wiseman, op.cit., p. 29-31, 70-71; K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, p. 407; A. H. Gardiner, op.cit., p. 359.

(٢) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٧٧-٢٨٧؛ وانظر: Herodotus, I, 184-186.

(٣) A. Malamat, op.cit., p. 223.

(٤) إرميا ٤٦ : ٤ وما بعدها، وكذا: A. H. Gardiner, op.cit., p. 359.

(٥) ملوك ثان ٢٤ : ٢. (٦) A. Malamat, op.cit., p. 223-224.

(١٩) يهوياكين (٥٩٥/٥٩٧ ق.م):

جاء «يهوياكين» بعد أبيه يهوياقيم، وكان عمره ثمانى عشر سنة على رواية تورانية^(١)، وثمانى سنين على رواية أخرى^(٢)، وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام^(٣)، وعلى أى حال، فلقد وصل «نبوخذ نصر» مع قواته الرئيسية وأطبق الحصار على أورشليم، ولم يقاوم «يهوياكين»، أو حتى يفكر فى المقاومة، وإنما خرج ومعه أمه وزوجاته وآل بيته، وسلموا أنفسهم إلى الفاتح الكلدانى فى مارس ٥٩٧ ق.م، وتم نقلهم إلى بابل، وتنظر التوراة إلى هذا النفى على أنه مرحلة حاسمة فى تاريخ نهاية يهوذا، فلقد تم فيه إبعاد حوالي عشرة آلاف رجل يكونون هم وأسرههم قرابة الثلاثين ألفاً من الناس معظمهم من أورشليم، والبقية الباقية من الجنوب^(٤).

على أن سبى «يهوياكين»، ومن معه، لا تقاس أهميته فى الواقع بعدد المستبشرين ولكن بنوعيتهم، فقد سبيت العائلة المالكة، والطبقات الحاكمة وكبار رجال الدولة والوزراء والأرستقراطيون والكهنة والأنبياء، وفوق كل هؤلاء الجنود والصناع والحرفيون^(٥)، وهذه المجموعة الأخيرة تكون الجيش ومعداته، ولهذا فإن لذكرها أهمية خاصة^(٦)، وإذا كان النص التوراتى الأخير (ملوك ثان ٢٤: ١٦) صحيحاً، وإذا أمكن توحيد كلمة «الجنود» (أصحاب البأس) بـ «الجيش» فإن الجيش النظامى يمكن أن يكون عدده فى ذلك الوقت سبعة آلاف، والأمر كذلك فى توحيد الاحتياطى بالصناع والحرفيين، فإن عددهم ألفاً، وبذا فهم يكونون سبع الجيش النظامى، وقد أضيف إلى هؤلاء الأخرى عدة كتائب تركها «نبوخذ نصر» فى الخطوط الخلفية،

(١) ملوك ثان ٢٤: ٨، ١٢. (٢) أخبار أيام ثان ٣٦: ٩.

(٣) أخبار أيام ثان ٣٦: ٩؛ ثم قارن ملوك ثان ٢٤: ٨.

(٤) ملوك ثان ٢٤: ١٠؛ لرمياء ١: ٢٤، ٢٧؛ ٢٠: ٢٩، ١: ٢-٢.

A. Malamate, op.cit., p. 224.

(٥) ملوك ثان ٢٤: ١٥-١٦؛ وكذا:

(٦) ملوك ثان ٢٤: ١٦.

فضلا عن عدد كبير من المتطوعين حشدوا أثناء الحرب^(١)، وأخيراً فلعل مما يشير كثيراً إلى أهمية المنفيين قول التوراة أنه «لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض»^(٢).

وفي عام ١٩٥٥ م نشر «وايزمان» إحدى اللوحات المحفوظة في المتحف البريطاني، وقد جاء فيها «في السنة السابعة للملك «نبوخذ نصر» في شهر Chister، جمع الملك جيشه وتقدم نحو أرض حاتى (سورية)، وعسكر أمام مدينة اليهودية، واستولى عليها في اليوم التالي من Ader، (مارس ٥٩٧ ق.م) وأخذ الملك «يهوياكين» أسيراً، وعين مكانه «صدقيا» ملكاً بحسب قلبه (برغبته)، وفرض عليه جزية ثقيلة، وأحضره إلى بابل»^(٣)، ولعل هذا التقرير البابلي الرسمي لا يختلف كثيراً عن نظيره التواتى، كما جاء في سفرى الملوك الثانى (٢٤ : ٨ - ٢٠) والأخبار الثانى (٣٦ : ٩ - ١٠).

(٢٠) صدقيا (٥٩٧-٥٨٦ ق.م):

تروى التوراة أن العاهل البابلى «نبوخذ نصر» قد أصدر أوامره بتعيين «متنيا» ملكاً على يهوذا، بدلا من «يهوياكين»، وغير اسمه إلى «صدقيا»، وهو عم يهوياكين على رأى نص توراتى^(٤)، وأخوه على رأى نص آخر^(٥)، وأما «يهوياكين» فقد بقى أسيراً فى بابل حوالى الأربعين عاماً، ولكنه فى نفس الوقت ظل محتفظاً بلقبه الرسمي حتى عام ٥٩٢ ق.م، كما تدل على ذلك نقوش اكتشفت فى قصر «نبوخذ نصر» ونشرها «فيدنر» E. E. Veid-ner، وكذلك أختام من «بيت شمس» و«تل بيت مرسيم»، وربما من «لاخيش» و«تل النصبة»، وكلها تؤكد مركز «يهوياكين» الملكى أثناء سببه^(٦).

(١) A. Malamate, op.cit., p. 224. (٢) ملوك ثان ٢٤ : ١٤.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 280. (٤) ملوك ثان ٢٤ : ١٧.

(٥) أخبار أيام ثان ٣٦ : ١٠.

(٦) H. G. May, Three Hebrew Seals and Status of Exiled Jehoiachin, AJSL, LVI, 1939, p. 146-148; J. Finegan, op.cit., p. 226; A. Malamat, op.cit., p. 224; W. F. Albright, King Joiachin in Exile, BA. 4, 1942, No. 4.

ولعل هذا كله إنما يلقي ضوءاً جديداً على سياسة «نبوخذ نصر» نحو يهوذا، فهو يعين ملكاً جديداً، ولكنه في نفس الوقت يحتفظ للملك السابق بمركزه الملكي، كنوع من التهديد لخليفته في الأرض المحتلة، ولعل هذا هو السبب في سلوك صدقيا المتردد، والمتناقض كذلك، والذي انتهى به آخر الأمر إلى الثورة على القوة التي وصل إلى الحكم عن طريقها، فلقد كان أعداؤه في يهوذا من ناحية، والملك البابلي «نبوخذ نصر» من ناحية أخرى يهددونه عن طريق الإشارة إلى بديله الملكي يهوياكين^(١).

ومع ذلك فلقد انتهى الأمر بثورة صدقيا على بابل، مما أدى في نهاية الأمر إلى السبي البابلي، في عام ٥٨٧ ق.م - الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل التالي - .

وهكذا انتهى تاريخ بني إسرائيل، وبدأ تاريخ اليهود، ويصف «هربرت جورج ويلز»^(٢) (١٨٦٦-١٩٤٦ م) نهاية الدولتين - يهوذا وإسرائيل - بقوله: «لم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمداً قصيراً، فما أن انقطع عون صور، الذي كانت تقوى به أورشليم، ثم قويت شوكة مصر ثانية، حتى أصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحى تعركهما على التوالي سورية وأشور وبابل من الشمال، ومصر من الجنوب، وهي قصة نكبات وتحمرات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق.م (٧٢٢ ق.م) محت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حلّ بها عام ٥٨٦ ق.م أو عام ٥٨٧ ق.م على أيدي البابليين، ما حل بإسرائيل على أيدي الآشوريين.

A. Malamat, op.cit., p. 224.

(١)

H. G. Wells, A Short History of the World (Pelican Book), 1965, p. 77.

(٢)

الباب التاسع
السبب والعودة

الفصل الأول السبب البابلي

(١) سقوط يهوذا:

كانت السياسة المصرية في تلك الفترة أكثر نشاطاً، فقد قام «بسماتيك الثاني» (٥٩٥-٥٨٩ ق.م) في السنة الرابعة من حكمه بحملة إلى فينيقيا، كما تشير إلى ذلك بردية ديموطيقية متأخرة، وإن كان هناك من يرى أنها لم تكن لأغراض حربية، بإدام الفرعون قد استدعى كهنة كثير من المعابد ليسهموا فيها، ومات «بسماتيك الثاني» في عام ٥٨٩ ق.م، ترك لولده «واح إيب رع» (إيريس ٥٨٩-٥٧٠ ق.م)، أن يأخذ على عاتقه القيام بمجهودات نشطة لاستعادة فلسطين^(١).

وهكذا بدأت سياسة مصر في عهد «واح إيب» (وهو الفرعون حفرع في التوراة)^(٢) تتجه إلى ممارسة القوة في الشمال، وكان سر تغييرها أمران وهما رغبة مصر في الإفادة من إمكانيات قوتها البحرية النامية في مراقبة موانئ الشام، لتعطيل مصالح البابليين بها، وحتى لا يستغلوها ضدها، ثم عودة البابليين إلى التوسع الحربي في فلسطين وحصارهم لأورشليم في عام ٥٨٨ ق.م^(٣).

وأما يهوذا نفسها، فقد انقسم أهلها إلى فريقين، الواحد، ويتزعمه «حننيا» ويعلن أن قبضة البابليين الخشبية يجب أن تكسر، والآخر، ويتزعمه «إرمياء» ويعلن أن «نبوخذ نصر» هو «خادم يهوه»، وأن القبضة حديدية ولن

A.H. Gardiner, op.cit., p. 360;

(١)

ثم قارن : عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٧٨.

(٢) إرميا ٤٤ : ٣٠.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧٩.

تتمزق، وفي الواقع أن إرمياء إنما كان من أشد الأنبياء حقداً على قومه، يدافع عن بابل، ويعلن في الملأ أنها سوط عذاب في يد الرب، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى «نبوخذ نصر»، حتى ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين، انظر إلى قول إرميا (٢١: ٥-١٠) على لسان ربّه يهو: «إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني والآن قد وقعت كل هذه الأراضي بيد نبوخذ تاصر ملك بابل عبيدي وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه، فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتي وقت أرضه أيضاً فستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام، ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الرب حتى أفنيها بيده، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرفاءكم وحالمكم وعائقيكم وسحرتكم الذي يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل، لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب».

ثم أخذ يتنبأ بعد ذلك بأن ملك مصر سوف يعود إلى بلده، وأن البابليين سوف يستولون على أورشليم ويحرقونها، وأنه يجب وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بأمر الرب أيضاً، وهكذا كان شأن من يدعون النبوة من بنى إسرائيل إلا من عصم الله، وأما المنفيين في بابل منذ أيام «يهوياكين» فقد كانت لديهم الأمال الكبار بفجر الحرية^(١).

وأما «صدقيّا» ملك يهوذا، فقد استمر على إخلاصه لبابل فترة من حكمه، كانت مصر فيها مهمة كل الاهتمام بالعلاقات بين يهوذا وبابل، باذلة جهودها لأحداث ثورة في يهوذا ضد العاهل البابلي «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) ومن ثم فقد بثت الموالين والمشايعين لها بين الشعب

(١) إرميا ٢٨: ١-١٤؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧٩؛ ول ديورانت، قصة الحضارة؛

S.A. Cook, op.cit., p. 399-400.

٢/٣٥٨، وكذا:

وقواده، مما أدى إلى زيادة التوتر بين الأحزاب المعارضة في يهوذا، وحذر الأنبياء الحزب الموالي لمصر، ولكن تحذيراتهم ذهبت أدراج الرياح، وأرسلت بعثة عسكرية إلى مصر - فيما ترى التوراة وتروى أوستراكالاخيس - وعقد تحالف سرى بين يهوذا وأدوم ومؤاب وعمون وصيدا وصور، بحضور صدقيا في أورشليم^(١)، وهناك إشارة في التوراة على أن صدقيا إنما قد استدعى إلى بابل لتقديم تفسير عن ذلك كله، وعلى أية حال، فإن «إيريس» ملك مصر، قد قام بدور رئيسى فى اتخاذ القرار بالثورة، ولا بد - والأمر كذلك - أن الفرعون قد أعطى تأكيدات بمساعدة عسكرية، ومن ثم فقد «تمرد صدقيا على ملك بابل»^(٢).

وهكذا وجد «نبوخذ نصر» نفسه مضطراً إلى القيام بحملة إلى فلسطين وبدأ يحتل مدن يهوذا الواحدة تلو الأخرى، - ما عدا أورشليم، فضلاً عن مدن الحدود فى لاختيش وعزيقة (تل زكريا) فى الجنوب^(٣) - وقد ساعده على ذلك، أن يهوذا كانت فى عام ٥٨٩ ق.م غيرها منذ عشر سنوات مضت، حيث كانت تحت إمرتها القلاع الحصينة، والقواد الأكفاء، والخبراء العسكريون والمهندسون، الذين أرسلوا إلى المنفى، أضف إلى ذلك أن الأمة الآن - وعلى رأسها إرميا النبى - لم تكن تؤيد إعلان الحرب ضد البابليين، هذا إلى جانب وجود فريق من القوم لا يمكن التغاضى عنه كان يؤمن بسياسة المسالمة، فضلاً عن بعض عناصر الجيش، التى كانت تعرف أكثر من غيرها، أن فرص النجاح العسكرى كانت ضئيلة للغاية^(٤).

(١) إرميا ٢٦: ٢٢-٢٤، ٢٧: ٣٠، حزقيال ١٧: ١٥، وكذا:

K. M. Kenyon, op.cit., p. 294-296.

(٢) إرميا ٥١: ٥٩، ملوك ثان ٢٤: ٢٠، وكذا:

W.Keller, op.cit., p. 281; S.A. Cook, op.cit., p. 400.

(٣) إرميا ٣٤: ٧.

A. Malamat, JNES, 9, 1950, p. 225.

(٤)

وأخيراً استسلمت «لاخيش»، وتشير حفريات أعوام (١٩٦١-١٩٦٧) إلى آثار الحملتين البابليتين، لعامى ٥٩٦، ٥٨٨ ق.م، فقد دمرت الطبقة الثالثة تماماً فى الحملة الأولى، وهناك ما يشير إلى المجهود الأخير الذى بذل لإعداد المدينة لمواجهة الهجوم القادم، وهناك فتحة فى الصخر لا يعرف الغرض منها، وإن كان من المظنون أنها كانت متصلة بمصدر المياه عن طريق ماسورة إلى ينبوع أو كخزان للمياه، ولا بد أن الغزو البابلى قد جاء قبل أن يبدأ استخدامه، هذا ويوجد على يمين القاع كميات من فخار القرن السادس قبل الميلاد، وقد تركت الحفرة مفتوحة لكى تمتلئ تدريجياً على مر القرون المتلاحقة، ويشير رديم الأنقاض الذى يعلو بقايا مدينة الطبقة الثالثة إلى أن التدمير إنما كان تاماً وعنيفاً، وفى البوابة فقد فصلت أرضية هذه الفترة عما يليها بشمانية أقدام من رديم الأنقاض المحترق، وقد دمرت قلعة القصر، وتراكمت كمية من الطوب الهش على الأساسات الحجرية، وقد كشفت على مقربة من القصر عن صف من الحوانيت، وقد وجدت الحجرات مملوءة بأشياء كانت مستخدمة فى وقت التدمير، ولم يجد السكان الوقت الكافى لإنقاذها، وهى كميات كبيرة من جرار تخزين الحبوب، وأنوال النسيج، تمثل صناعة وتجارة طبق الأصل من مدينة العصر الفلسطينية^(١).

هذا وقد وجد خارج المدينة حوالى ألفى جثة ملقاة فى قبر قديم، وقد وجدت بعض عظامها هشة، ولا بد أن الجثث قد أنقذت من المبانى المحترقة، ويعتقد «ج.ل. ستاركى» أن هذه البقايا إنما تمثل إخلاء المدينة بعد المجزرة الوحشية التى قام بها البابليون، ويتبين من بعض الجماجم إصابات المعركة، غير أن أكثر الاكتشافات غرابة إنما كانت ثلاثة جماجم أجريت لها عمليات «تربنة» Trephine، وفى حالتين منها أزيل مربع من العظام بواسطة

منشار قاطع، وكانت العملية الجراحية بدائية جداً لم يعش بعدها الشخص الذى أجريت له، فهل يصور هذا تجارباً أجراها الغزاة على الأسرى - على طريقة النازى - أم أنها محاولات يائسة من الناجين لإنقاذ حياة شخص أصيب فى المعركة؟ وربما كان هذا التفسير الأخير أكثر احتمالاً، وفى الحالة الثالثة حيث حفر الثقب بواسطة الكشط فقد عاش المريض فترة طويلة، لأن العظام كانت مندملة، وقد تكون عملية قديمة وليست السبب المباشر للموت، ولا بد أن عملية «الترينة» كانت إجراء جراحياً إسرائيلياً معترفاً به، وأجرى على حالات أخرى من ضحايا الحرب^(١).

هذا وقد أضاف «إرميا» فى الهجوم البابلى الأخير مدينة «لاخيش» إلى قائمة تتكون منها مدن المقاومة، فضلاً عن أورشليم، وعزيقة، على أساس أن «لاخيش» إنما هى واحدة من مدن الاستحكامات المنيعة فى يهوذا، لأن «لاخيش» و«عزيقة» بقيتا فى مدن يهوذا مدينتين حصينتين^(٢).

وبقيت أورشليم وحدها تقاوم الغزاة، واتجه البابليون إليها بكل قوتهم، وفرضوا الحصار عليها، ولكنها ظلت تقاوم قرابة ثمانية عشر شهراً (أى من اليوم العاشر فى الشهر العاشر من السنة التاسعة من حكم صدقيا، إلى اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادى عشر من حكمه، ما عدا فترة قصيرة سببها الهجوم المصرى) بالرغم من انتشار المجاعة فى المدينة، والمكوس الثقيلة^(٣)، هذا فضلاً عن نصائح «إرميا» بالخضوع لبابل، لأن يهوہ نفسه إنما كان يحارب ضد أورشليم، المدينة المنكوبة، السيئة المصير، ولهذا فليس من العجيب أن نبي الويل هذا قد ألقى به فى غياهب السجون لمجاهرته بالخذلان^(٤)، بعد أن فشل الكهنة - مراراً وتكراراً - أن يثنوه عن عمله هذا

Ibid., p. 293.

(١)

K. M. Kenyon, op.cit., p. 294.

(١) إرميا ٣٤: ٧، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 286; W. Keller, op.cit., p. 383.

(٣)

S.A. Cook, op.cit., p. 401.

(٤)

بوضع رأسه فى الدهق، ولكنه وهو فى هذا الوضع ظل يشهر بهم، فما كان منهم إلا أن استدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة، ثم قبض عليه الأمراء وربطوه فى حبال وأنزلوه فى بئر مملوءة بالوحل، ولكن «صدقيا» خفف هذا العقاب بأن سجنه فى فناء القصر، الذى وجده البابليون فيه حين سقطت أورشليم فى أيديهم^(١).

ومن الواضح أن المدينة البائسة قد تحملت كل تلك الصعاب الجسام، أملا فى وصول المساعدة العسكرية القادمة من مصر، وفعلا ما أن وصلت، «وسمع الكلدانيون المحاصرون أورشليم بخبرهم حتى صعدوا عن أورشليم»، ورغم أن الوثائق المصرية صامتة تماما فى هذا الصدد، إلا أنه - على ما يبدو - فإن الجيش المصرى قد بقى فترة يحمى أورشليم؛ ولكنه تركها بعد ذلك متجهاً إلى احتلال مدن الساحل الفينيقي، بعد أن حول اهتمام البابليين عنها، وبعد أن ترك فيه رجالا أقوياء من الحزب المصرى^(٢).

وما أن يمضى إلا قصير وقت، حتى يعود «نبوخذ نصر» إلى حصار أورشليم ويحث «إرميا» قومه على الاستسلام للعاهل البابلى، ومع أن النبىء العبرانى إنما كان دائما متهما بإضعاف الروح المعنوية بين الجنود والشعب على السواء، فمن الثابت أنه لم يكن فى ذلك كله وحيدا، كما أن الجوع كان «قد اشتد فى المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض، فشغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا، من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك، وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا فى طريق البرية»^(٣).

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٣٦٠/٢، (القاهرة ١٩٦١).

(٢) إرميا ٣٧ : ٥، وكذا:

W.O.E. Oesterley, op.cit., p. 233; W. Keller, op.cit., p. 384; M. Noth, op.cit., p. 285.

(٣) ملوك لان ٢٥ : ٣-٤، إرميا ٢١ : ٩، ٢٨ : ٤.

وفعل اختلاف الرأى بين المحاصرين وانتشار المجاعة فعلهما، وأخيراً، وفي اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادى عشر من حكم صدقيا (أى فى شهر أغسطس من عام ٥٨٧ ق.م)، حدثت الشغرات فى جدران المدينة، وحاول «صدقيا» الهرب مع حرسه إلى الشرق، عبر «برية يهوذا»، ثم إلى بلاد شرق الأردن، ولكنه أسر وهو يعبر وادى الأردن قرب «أريحا»، وأخذ أسيراً إلى نبوخذ نصر فى «ربلة» التى اتخذها مركزاً لقيادة جيشه - كما فعل نخاو فرعون مصر فى عام ٦٠٩ ق.م - وهناك ذبح أبناءه أمام عينيه، وقاسى ما فيه الكثير من المتمردين، وسملت عيناه، وقيد مسلسلاً فى الأغلال إلى بابل حيث مات هناك بعد فترة قصيرة^(١).

ونهب الغزاة أورشليم، وأشعلوا فيها النيران، وأحرقوا القصر الملكى، والمعبد، وطبقاً لرواية التوراة، فإن ذلك إنما تم فى اليوم السابع من الشهر الخامس من نفس السنة، وضاع معبد سليمان، ومعه البقية المفترضة أنها باقية من التابوت الذى كُفّت الروايات عن ذكره بعد نقله إلى مبعده سليمان، وكان قد أقيم فى مكان خفى من المعبد كهدف تقليدى خاص بالعبادة، مع أنه لم يلعب دوراً هاماً فى العبادة العامة^(٢)، هذا ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن حفريات (١٩٦١-١٩٦٧ م) لم تكتشف أطلال منازل القرن السابع على المنحدرات الشرقية، التى دمرت فى هذه الفترة^(٣).

(٢) السبى البابلى:

وهكذا انتهت دويلة يهوذا، وأدمجت فى التنظيم الإدارى للإمبراطورية البابلية، واتباعاً للعرف الآشورى، فإن الغازى الجديد (نبوخذ نصر) قد أبعد

M. Noth, op.cit., p. 286;

(١)

ملوك ثان ٢٥: ١-٧، أخبار أيام ثان ٣٦: ١١-٢٠.

M. Noth, op.cit., p. 286-287.

(٢)

K.M. Kenyon, op.cit., p. 291.

(٣)

البقية الباقية من الطبقة العليا الحاكمة من اليهودية، فلقد أسر بعضاً من حاشية «صدقيا» المقربين، وعديداً من الرجال البارزين في اورشليم وبلاد يهوذا، وأرسلوا إلى «ربلة» حيث لقوا حتفهم جميعاً، وأما بقية السكان فقد اقتيد الجزء الأكبر منهم - وقد قدره بعض الباحثين بأربعين ألفاً^(١)، وقدره آخرون بخمسين ألفاً^(٢) - أسرى إلى بابل، وكان «إرميا» من بين الأسرى، وقد منحه الجنرال «نبوزرآدان» حريته، ولكن طبقاً لرواية أخرى، فإن «نبوخذ نصر» نفسه هو المسئول عن المعاملة اللينة لشخص يعد قبل كل شيء، أنه قد لعب دوراً في مساعدته على النصر الذي أحرزه على يهوذا، وعاصمتها اورشليم^(٣).

على أن العاهل البابلي - من ناحية أخرى - إنما أبقى السكان المزارعين في أماكنهم، ولم يفعل - كما فعل الآشوريون من قبل - بجلب سكان جدد إلى يهوذا كما أنه لم يقيم بأي تنظيم مستقل في المملكة الصغيرة، ولم يفعل البابليون بيهوذا ما فعله الآشوريون بإسرائيل، بل إنهم حتى بعد إخضاعهم ليهوذا فقد تركوا الإدارة لواحد من يهوذا، وهكذا عين «جداليا بن أخيقام بن شافان» - وهو ابن موظف يهودي كبير، معروف منذ أيام الملكين يوشيا ويهوياكين - حاكماً على يهوذا، ولا نعرف من الذي أوصى به «نبوخذ نصر» ليشغل هذا المنصب الجديد، وعلى أي حال، فلقد اتخذ «جداليا» من المصفاة - على مبعدة ٨ كيلاً من الشمال الشرقي لأورشليم - مركزاً له، ربما احتقاراً لأورشليم الثائرة، وربما لأن «المصفاة» لم تتعرض لسوء مثل المدن اليهودية الأخرى في معارك ٥٨٩، ٥٨٧ ق.م.

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣٢٠/٥، (الإسكندرية ١٩٦٣).

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٢٠، باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ٢٩٦/٢، (بغداد ١٩٥٦).

(٣) ملوك ثان ٢٥: ١١-٢١؛ إرميا ٣٩: ١١-١٤، وكذا: W. Keller, op.cit., p. 402.

وكان إرميا، الذى أصبح عجوزاً فى ذلك الوقت، واحداً من أكبر مستشاريه الجديرين بالثقة، وتمتع «جداليا» بإخلاص جزء من السكان، وتعهد بأن يتصرف كوسيط بينهم وبين البابليين، وتغلبت سياسة المهادنة على جماعات حرب العصابات - وهم بقايا الجيش اليهودى - ورجع الفارون من الأراضى المجاورة، واستؤنفت الحياة الزراعية^(١).

ومع ذلك فإن الدسائس لم تنته تماماً، ودأبت الآمال الكاذبة بعضاً من أفراد البيت الملكى اليهودى الذين لم يهاجروا، وسرعان ما وجدوا لهم حليفاً فى «بعليس» ملك عمون، وانتهت المؤامرة بأن قامت فرقة - ربما كانوا من الضباط الذين هربوا من الكارثة إلى عمون، وعلى رأسهم «إسماعيل بن ثنيا» من النسل الملكى - بقتل «جداليا» أثناء وليمة عامة وأصبح هذا اليوم - الثالث من الشهر السابع - كارثة قومية رئيسية، واعتبر من أيام الصيام الرئيسية عند اليهود واستطاع «يوحانان بن قاريح» إحباط مؤامرة قام بها إسماعيل وعصابته لأسر الأميرات ومن كان فى المصفاة مع جداليا^(٢).

وأدرك القوم مدى الكارثة التى حلت بهم، وخوفاً من انتقام «نبوخذ نصر» لقتل نائبه، بل وبعض القوات البابلية نفسها التى كانت فى المصفاة، إلى جانب مجموعة من الرجال أتوا من شكيم ومن شيلوه، ومن السامرة لتقديم قرابينهم إلى بيت الرب، ومن ثم فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم^(٣) ولدينا تقرير شبه مفصل عن هذه الأحداث فى

(١) ملوك ثان ٢٢: ١٢-١٤، إرميا ٢٦: ٢٤، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 288; S.A. Cook, op.cit., p. 402-403.

(٢) إرميا ٤٠: ٧-١٦-٤١: ١٨، زكريا ٧: ٥، وكذا:

S. A. Cook, op.cit., p. 403; M. Noth, op.cit., p. 288.

(٣) إرميا ٤١: ٣-٧، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 288; W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, 1911, p. 90-93; H.

التوراة (إرميا ٤٠: ٧-٤١: ٧) ولكن لا توجد تفصيلات عن كل ما حدث، وربما أمكن القول أن اليهوديين قد عينوا كموظفين إداريين حتى بعد قتل «جداليا» ولم تصبح ولاية يهوذا المحدودة المساحة ولاية مستقلة على الإطلاق، وربما أدمجت في ولاية السامرة المجاورة، ذلك لأن السكان اليهوديين ورؤساءهم إنما كانوا يخضعون لوالى «السامرة»، و«نائب الحاكم» الذى كانت له سلطات محدودة، وأما الحدود الإدارية ليهوذا فقد كانت تتفق مع حدود المملكة فى عصرها الأخير، إذا ما كان صحيحاً أن فصل الجزء الجنوبي من يهوذا، إنما قد حدث من قبل فى عام ٥٩٨ ق.م، ومن ثم، فهى تتضمن الحدود القديمة الفعلية لقبيلة يهوذا من جبال غرب الأردن، وتبدأ من شمال حبرون، وحتى دويلة المدينة السابقة أورشليم، وإلى الجزء الجنوبي لحدود قبيلة بنيامين^(١).

ونقرأ فى التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير، ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين، وهكذا لم يجد اليهود ملجأ يحتمون به سوى مصر التى خرجوا منها، واعتبروا يوم خروجهم عيداً، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح»، ومن الواضح من نصوص التوراة أن بلاد اليهودية قد أخليت من سكانها، فقد سبى الصفوة منهم إلى بابل، وفرت البقية، - ومنهم إرميا - إلى مصر، وتبعثرت قبائل إسرائيل فى شرق الأرض وغيرها، ومع ذلك فهناك بعض العلماء من نقاد التوراة - ومنهم ستانلى كوك وتورى - ينكرون صحة قصة الأسر، كما جاءت فى التوراة - فى أسفار الملوك وحزقيال وإرميا وعزرا - ويرون أنه لم يكن هناك نفى ضخيم من اليهودية، وإنما كل ما حدث أن بعضاً من الأشراف قد سجنوا فى بابل، وأنه بعد صدمة الغزو البابلى عاد الأهالى من مخابثهم المؤقتة إلى بيوتهم القديمة التى أعيد بناؤها^(٢).

(١) R. Hall, op.cit., p. 564; M. Noth, op.cit., p. 288-289.

(٢) ملوك ثان ٢٤: ١٤-١٦، ٢٥: ١١-٢٦، إرميا ٢٤: ١، ٢٧: ٢٠، ٢٩: ١-٢، ٤٣: ١-٧؛

S.A. Cook, op.cit., p. 403-404.

وكذا:

وتدل الاكتشافات التي تمت في عدة مواقع بفلسطين أن عدداً من المدن قد تم تدميره في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ولم تسكن بعد ذلك إطلاقاً والبعض الآخر دمر في نفس الوقت ثم عاد إليها العمار جزئياً بعد فترة، أما البعض الآخر فقد دمر ولم يعد العمار إليه إلا بعد فترة طويلة من الهجر، تتميز بتغير ملحوظ في الطبقة، وبأدلة خارجية تثبت استعمالها لأغراض غير مدنية ولا تعرف حالة واحدة كانت فيها بلداً من يهوذا الأصلية مسكونة بصفة مستمرة خلال فترة النفي^(١)، فالبابليون قد دمروا اليهودية وأخلوها من سكانها تماماً وبهذا تحققت التحذيرات والتهديدات النبوية، وأتى قضاء الله الذي أعلنه إرميا النبي: «ها أنذا أمر بقول الرب وأردهم إلى هذه المدينة فيحاربونها ويأخذونها ويحرقونها بالنار، وأجعل مدن يهوذا خربة بلا ساكن»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة تذهب إلى أن السبى البابلي ليهوذا إنما كان بسبب الانحلال الداخلي وانتشار الفساد الخلقي والاجتماعي بين القوم فضلاً عن الانحرافات الدينية، فلقد حنث بالأقسام المقدسة، ودنست أيام السبت، وكانت القوانين الخاصة بالصلوات والأخلاق الشخصية قد وصلت إلى الحضيض «طوفوا في شوارع أورشليم، وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل، طالب الحق، فاصفح عنها،... كيف أصفح عن هذه، بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة، ولما أشبعتم زناً وفي بيت زانية تزاحموا، صاروا حصناً معلوفاً، سائبة، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه».

هذا إلى جانب الابتعاد قليلاً أو كثيراً عن عبادة يهوه، رب إسرائيل والاتجاه إلى عبادة آلهة الشعوب المجاورة، وبخاصة «بعل» رب صور - كما

(١) W.F.Albright, The Archaeology of Palestine, p. 141-142; W. Keller, op.cit., p. 205.

(٢) إرمياء ٣٤: ٢٢.

رأينا فى الصفحات السابقة - وهكذا اعتبر النبيان إرميا وحزقيال أن «نبوخذ نصر» إنما هو وسيلة «يهوه» ضد أورشليم - الأمر الذى سوف يتكرر فيما بعد مع مؤرخ اليهود المشهور «يوسف بن متى»، عندما يعتبر الرومان كذلك - وأن الله (يهوه) سوف يحارب فى صف البابليين ضد أورشليم التى حان وقت مصيرها المحتوم فى الدمار والخراب، بسبب بعدها عن يهوه، وبسبب جرائمها فى قتل الأخوة والأخوات، وهكذا تنسب التوراة فى كثير من نصوصها أسباب السبى البابلى إلى حالة الانحلال والانحراف عن عبادة يهوه اللتين سادتتا فى أورشليم فى الفترة التى سبقت هذا السبى، مما يدل على أن كتبة هذه النصوص إنما يخلطون كثيراً بين السياسة والأفكار الدينية، ويصبغون السياسة بالطابع الدينى، وتلك بالأفكار السياسية^(١).

وفى الواقع أن ما حدث فى عام ٥٨٧ ق.م (أو فى ٥٨٦ ق.م على رأى كثير من الباحثين) لم يكن إلا نتيجة طبيعية لأحداث تاريخية طويلة، بدأت منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ولا يدل، بحال من الأحوال، على تغير مفاجئ فى الموقف التاريخى لإسرائيل، وكان التدخل المستمر من القوى الأجنبية العظمى فى تاريخ إسرائيل لفترة طويلة، عاملاً يجب أن يشار إليه دائماً، ولكن من المرجح أن سقوط ودمار أورشليم قد أظهر أولاً كل الحقيقة عن الموقف الفعلى بالنسبة لإسرائيل، والتى اعتبرت هذا الحادث نقطة تحول حاسمة فى تاريخها، وتحت ضغط هذا الحدث يصف مؤرخ العهد القديم تاريخ قومه على أساس من المصادر التى فى متناول يده، وكأنه تاريخ لعصيان دائم ومتكرر أدى إلى هذا الحدث المتفاجئ، وكأن نبوءات التهديدات التى بدأت منذ القرن الثامن والسابع قبل الميلاد قد تمت فى هذا الحدث، وأن الحكم الإلهى الذى كان يتنبأ به الأنبياء قد وقع الآن^(٢).

S.A. Cook, op.cit., p. 400.

(١) إرميا ١: ١٥-١٦، ٢: ٨-١٠، ١٩-١٠؛ وكذا:

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 280.

(٢)

وفى الحقيقة بينما اعتبرت نهاية يهوذا ليست ذات قيمة تاريخية عالمية، حتى أن نبوخذ نصر لم يذكرها فى نقوشه، نظر إليها اليهود على أنها أمر هام وجد خطير، حيث أنها إنما كانت - فى نظرهم - تعنى نهاية الاستقلال السياسى فى تربة إسرائيل، ومن المتفق عليه أن يهوذا كانت منذ قرن ونصف قرن مضيا - باستثناء فترات قصيرة - ليست إلا ولاية فى إطار أملاك القوى المختلفة فى الشرق ولم تشمل إلا جزءاً صغيراً من القبائل الإسرائيلية، وإن كانت - على أية حال - تعيش حياة سياسية خاصة بها، أى أن القوم كان لهم ملك ونظام إدارى خاص بهم، وكان الأمل أن هذا الجزء المحدود، والباقى لهم من الاستقلال، ربما يصبح يوماً ما سبيلاً إلى عودة الاستقلال السياسى لإسرائيل، وقد ضاع هذا الأمل الآن تماماً، فضلاً عن اختفاء حكم بيت داود فى أورشليم^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن وجود البابليين فى اليهودية - كحكام وكحامية - قد أدى إلى قيام المعبودات البابلية والاعتراف بها، حتى لئرى إرميا يحتج - وهو فى مصر - على عبادة «ملكة السماوات» (عشتار)، ويشير حزقيال - وهو أحد أفراد سبى يهوياكين فى عام ٥٩٧ ق.م - إلى مجرى سير الأمور فى المعبد قبل عام ٥٨٦ ق.م، فيحدثنا عن «تمثال الغيرة» (وربما كان لعشتار كذلك)، بينما كان هناك «تموز» الذى يجلس عنده النساء الباكيات، هذا فضلاً عن عبادة الحيوان التى كانت تمارس فى قاعة سرية، وفى نفس الوقت كانت «السامرة» تشجع على عبادة «بعل» (بعل الكنعانى)^(٢).

على أن هذا كله، لا يعنى، بحال من الأحوال، أن القوم قد انصرفوا

M. Noth, op.cit., p. 289-290.

(١)

(٢) إرميا ٤٤: ١٧-١٩، حزقيال ٨: ٣، ١٤، إشعيا ٥٧: ٣-٨، ٦٥: ٣-٥، ٦٦: ٣، ١٧،

نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٧.

عن عبادة ربهم «يهوه»، وإنما يعنى أن هناك محاولة للربط بين رب إسرائيل، وبين مختلف معبودات الشعوب الأخرى، ويدهى أن الاحتجاجات التى أثّرت ضد محاولات التوفيق هذه، إنما توحى بأن أولئك الذين كانوا يعبدون «يهوه» حقيقة قد ظلوا فى اليهودية، كما يشير إلى ذلك الوصف الذى يقدمه الثمانون حاجًا القادمون من شكيم وشيلوه والسامرة - والذين قتلهم إسماعيل بن نثيا، كما أشرنا من قبل^(١) - إنما كانوا قادمين إلى أورشليم لتقديم القرابين إلى بيت الرب الذى خرب، وفى هذا دليل على أن عبادة يهوه إنما قد استمرت فى مكان المعبد حتى بعد عام ٥٨٧ ق.م، وتقدم لنا نبوءات إشعياء - فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفره - مدى توافق التفكير بين عباد يهوه فى اليهودية وإسهامهم فى الأفكار والآمال مع إخوانهم فى بابل، وهى تشير إلى توقع سقوط بابل^(٢) حيث تختتم نبوءات إشعياء بقوله «سقطت سقطت بابل، وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض»^(٣).

(٣) الحياة فى السبى:

ذهب اليهود إلى بابل كأسرى على ثلاثة مراحل، كانت الأولى فى عام ٥٩٧ ق.م، عقب سبى «يهوياكين»، والذى تم فيه إبعاد حوالى عشرة آلاف رجل، يكونون هم وأسرهم قرابة الثلاثين ألفًا من الناس معظمهم من أورشليم والبقية من مدن الجنوب^(٤)، وأما السبى الثانى - أو السبى الكبير - فقد كان فى عام ٥٨٧ ق.م، وقد تم فيه إبعاد أربعين ألفًا على رأى^(٥)، وخمسين ألفًا على رأى آخر^(٦) - كما أشرنا من قبل - ويعد هذا السبى -

M. Noth, op.cit., p. 288.

(١) إرميا ٤١: ٤-٧؛ وكذا:

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٧/٢.

(٣) إشعياء ٢١: ٩.

(٤) ملوك ثان ٢٤: ١٠-١٤؛ ثم قارن: إرميا ٥٢: ٢٨.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٢٠/٥.

(٦) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٢؛ طه باقر، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

على أى حال - بمثابة التشريد لمن سمح لهم بالإقامة فى أورشليم، ومن لم يؤخذ إلى «ربلة» أو بابل، فقد هاجر إلى مصر هرباً مما قد يتعرض له من أذى، وأما السبى الثالث فقد كان عام ٥٨٢ ق.م، ويظهر أن المجموع النهائي للسبى كان أقل بكثير مما تركوا فى يهوذا، وكانت يهوذا، على أية حال، أبعد من أن تكون قد أفرغت كالسامرة - من أهلها أو ألفت أو دمرت أو تركت دون أن تزرع، بل إن هناك ما يشير إلى استقدام وفود جدد إليها ليحلوا مكان من أخذوا للسبى من الفينيقيين والقنزيين والكلبيين الذين كانوا يتعرضون لضغوط الآدوميين، بل إن لدينا ما يشير إلى اتصال العمونيين يهوذا فى هذه المرحلة، لأن ذبح «جداليا» - كما أشرنا من قبل - إنما كان بإيعاز، أو على الأقل بتعريض من ملك عمون^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن البابليين لم يعاملوا أفراد السبى من اليهود معاملة قاسية، ولم ينزلوا بهم إلى مرتبة العبيد، وإنما كانوا - كما يبدو بوضوح فى سفر حزقيال، والذي كتب بصفة عامة فى مرحلة السبى هذه - بمثابة شعب خاضع، ومنفى إجبارياً، ولكنه كان بمسئطيع أن يتنقل بحرية فى حياته اليومية وإن كان من المفروض أنه مضطر أن يقوم بالخدمة الإجبارية^(٢)، وقد ساعد ذلك على إعطاء القوم حرية نسبية إلى حد ما، نستطيع أن نتلمسها فى الخطاب الذى بعث به النبى إرميا من مصر، يحرضهم فيه على الاستقرار، وعدم إثارة المتاعب أمام سادتهم من البابليين، وأن يعيشوا فى منفاهم الجديد فى سلام، كما يعيش غيرهم من الناس، «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها، خذوا نساء، ولدوا بنين وبنات، وخذوا لبنيتكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال، فيلدن بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلوا، واطلبوا سلام المدينة التى سبتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام»^(٣).

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ٤٥٥/٣-٤٥٦.

(٢) إرميا ٢٩: ٥-٧.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 296.

وهكذا لم يجد الواحد من أفراد السبي البابلي صعوبة في أن يكيف نفسه طبقاً للظروف الجديدة، وأن يحافظ على حرته، وأن يعيش في أى مكان يختاره، وأن يشتغل الفلاح منهم بالزراعة في الأرض الجديدة، وأن يعمل الحرفى في حرفته السابقة^(١).

وهكذا كانت الأوساط البابلية اليهودية من وجهة تركيبها الطبقي لا تتميز - فيما يرى كثير من الباحثين - عن المجتمع الذى تعيش فيه، ومن ثم فقد كان بين اليهود في بابل مزارعون وحرفيون وأصحاب أراضي وتجار.

وهكذا سمح البابليون، لأهل السبي، أن يمارسوا لون الحياة التى كانوا يحبونها في بلادهم، ويحتفظ سفرا حزقيال وعزرا بما يشير إلى وجود سجلات للعائلات مما يوحى باستمرار استقرار الحياة العائلية لأفراد السبي، وكان لهذا اللون من المعاملة أثره من غير شك، فأهل السبي هنا يختلفون عن أندادهم في السامرة، إذ شرد أهل السامرة وبعثروا وضاعوا، وأما أهل أورشليم فإن حياتهم على الصورة التى قدمناها استطاعت أن تكون منهم وحدة في المنفى تحافظ على شعائهم وتصونها وتدفع بهم إلى الأمام، بل إن اعتدال «نبوخذ نصر»، وأخذه إياهم بالرفق، يسر لهم حياة تعادل - إن لم تكن تفوق - حياتهم في أورشليم^(٢).

ولما كان البابليون تجاراً، فإن اليهود قد أخذوا عنهم هذه الحرفة دون شك، وإن كان هذا لا يعنى أن بنى يهوذا كانوا جدداً في ميدان التجارة، فقد كانت لهم خبرة منذ أيام سليمان، عليه السلام، حيث أصبحت أورشليم من أنشط الأسواق التجارية في الشرق الأدنى القديم، وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى، على أن الخبرة اليهودية في التجارة إنما كانت في حدود ضيقة نسبياً، بسبب اشتغل القوم بالزراعة في فلسطين، وربما

C. Roth, op.cit., p. 51.

(١)

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٩.

بسبب الاضطرابات التي سادت معظم أيام دويلتهم في اليهودية، وعلى أى حال، فلقد كانت تجربتهم التجارية في بابل نواة لنشاطهم المعروف في العالم فيما بعد في هذا المضمار، فإذا تذكرنا أن هناك أعداداً كبيرة من اليهود في العراق القديم منذ أيام السبي الآشوري في عام ٧٢٢ ق.م، وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن اليهود - شأنهم في ذلك شأن السوريين والفينيقيين - كانوا منذ أيام سليمان، ينشئون لهم مراكز تجارية في مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم، فإن المنفيين الجدد إنما قد رأوا في المنفى أسباطاً يهودية كثيرة العدد وحسنة الحال، نشأت هناك في القرن الثامن قبل الميلاد، وقد أكمل القادمون الجدد صفوف هذه الأسباط^(١).

وبمرور الزمن استطاع المنفيون أن يكونوا مستعمرة كبيرة في «تل أبيب» Tel Aviv عرفت بفلسطين الجديدة، إلى جانب عدة مستعمرات أخرى في مجاوراتها، واستمر المنفيون في عملهم، وبدأوا يكسبون الثروات وهناك أساس للاعتقاد بأن التجار والمرابين كانوا من الأسباط اليهودية في بابل الفئة الأكثر نفوذاً اقتصادياً ذلك لأن النصوص المكتوبة بالحروف المسمارية - فيما يرى الباحث الألماني لوجو برانتانو - إنما تشهد على أن النزاحين اليهود قد اشتركوا اشتراكاً نشطاً في الحياة التجارية، ومارسوا عملية التسليف بالربا^(٢)، وقد كانت هذه العملية متبعة بشكل واسع بين سكان بابل^(٣) - ولا شك أن ما نالوه من حرية نسبية مهد طريق الثراء لبعض

(١) N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge , p. 126.

(٢) كان بنو إسرائيل أول من ابتدع الربا في التاريخ ، ومن المعروف أنه محرم بين بنى إسرائيل ، وهو في الوقت نفسه شريعتهم تجاه الآخرين، وسفراً للتثنية من التوراة قاطع في تشريعه للربا، لأنه محرم على إسرائيلى أن يقرض إسرائيلى ربياً، بينما يشرع الربا تشريعاً قاطعاً على غير اليهود، تقول التوراة: «لا تقرض أخاك ربياً ، ربا فضة أو رباً طعام، أو رباً شئ» مما يقرض ربياً، للأجنبي تقرض ربياً، لكى يبارك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتملكها» (تثنية ٢٣ : ١٩ - ٢٠).

(٣) L.Brentano, Das Wirtschaftsleben der antiken Welt, 1929, p. 80.

أفرادهم، حتى لنراهم يسهمون فى حرية مطلقة فيما بعد فى ترميم المعبد، بل نراهم بعد عشرين عاماً يسهمون فى إرسال فضة وذهب لعمل تيجان توضع على رأس «يوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم»^(١).

هذا وقد حاز بعض المنفيين على ثقة البابليين، كما وصل البعض الآخر إلى مناصب خطيرة وحساسة فى القصر الملكى فى بابل، ونقرأ فى التوراة أن «نبوخذ نصر» ملك بابل (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) إنما قد أمر رئيس خصيانه «بأن يحضر من بنى إسرائيل فتياناً لا عيب فيهم، حاذقين فى كل حكمة، ولهم قدرة على الوقوف فى قصر الملك، فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم، وعين لهم الملك وظيفة كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين وعند نهايتها يقفون أمام الملك، وكان من بينهم من بنى يهوذا : دانيال وحنيا وميشائيل وعزريا، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء: دانيال بلطشاصر، وحنيا شدرخ - وميشائيل ميشخ، وعزريا عبد تغو»^(٢).

وتذهب رواية التوراة بعد ذلك إلى أن «دانيال» إنما قد أصبح يقوم بتفسير الأحلام لملك بابل، التى عجز عنها المجوس والسحرة والعرافون،^(٣) - الأمر الذى قام به يوسف الصديق من قبل لملك مصر^(٤) - ولكن الأمر الغريب فى رواية التوراة أنها تذهب بعد ذلك إلى أن الملك البابلى «نبوخذ نصر» إنما قد «خرَّ على وجهه وسجد لدانيال، وأمر بأن يقدموا له مقدمة وروائح سرور، فأجاب الملك دانيال، وقال حقاً إنَّ إلهكم إله الآلهة وربُّ الملوك وكاشف الأسرار، ثم عظم دانيال وسلطه على كل ولاية بابل، وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل»^(٥).

ولست أدري كيف قبل كاتب نص التوراة هذا أن يسجل فى توراته،

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٨. (٢) دانيال ١: ٣-٧.

(٣) دانيال ٢: ١-٤٥. (٤) Isidore, Epstein, Judaism, p. 83.

(٥) دانيال ٢: ٤٦-٤٨.

أن العاهل البابلي إنما «قد خسر على وجهه وسجد لدانيال»، وهو واحد من عبيده الذين استولى عليهم بحد سيفه، ثم كيف قبل أن يسجل لنا أن العاهل البابلي قال لدانيال: «إن إلهكم إله الآلهة ورب الملوك وكاشف الأسرار»، فإذا كان ذلك كذلك، فلم لم يؤمن نبوخذ نصر بإله دانيال هذا، ويعتق ديانة يهود؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تحريفًا توراتيًا، ومن ثم فلا خطر منه، فنظائره كثيرة.

وعلى أى حال، وأيا كان نصيب هذه النصوص التوراتية من الصواب أو الخطأ، فالذى لا شك فيه أن الحياة فى بابل إنما قد أصبحت مقبولة عند المنفيين، وأصبحت لهم قرى يعيشون فيها^(١)، كما كان فى استطاعتهم بناء منازل لهم وغرس حدائق بها والتمتع بإنتاجها، فضلا عن حقهم فى الزواج وتسجيل عقوده، وطبقًا لرواية التوراة: «فلم يكونوا مجبرين على عبادة أى نوع من العبادات البابلية»^(٢).

وبدأ الأمل يداعب يهود السبي فى عودة الاتصال بمقرهم الأول، وقد أعطى مجد بابل وقوة إمبراطوريتها المنفيين أفقًا أوسع، مما جعلهم يحسون بأنهم أعلى منزلة، وأكثر تسامياً من مواطنيهم فى اليهودية، وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية، وتآلف الأساليب الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة، على الرغم مما بذله حزقيال من جهد جبار فى إبقاء القوم على عقيدتهم وفى عناية يهوه بمدينةته ووطنه وشعبه ومع ذلك فإن الجيل الثانى من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت - أو كادت - تمحى من أذهانهم^(٣).

(١) أهم هذه القرى - كما أشرنا من قبل - «تل أبيب» وهو اسم بابلى بمعنى «كومة أو قل سنابل القمح»، وتقع عند بابل على نهر الخابور (نهر كيار Chabar، وربما كانت تقع فى مكان «تل إيان» الحالية). (قاموس الكتاب المقدس، ٢٢١/١).

M. Noth, op.cit., p. 296.

(٢) دانيال ٣: ١-٣٠؛ حزقيال ٣: ١٥؛ وكذا:

(٣) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٢؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 407-408; C. Roth, op.cit., p. 51-52.

على أن هذا كله لا يعنى، بحال من الأحوال، أن المنفيين لم يحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، فضلاً عن لغتهم وشخصيتهم الدينية، وقد حمل المنفيون معهم مجموعة ضخمة من الآداب - سواء عن طريق الرواية الشفوية أو فى سجلات مكتوبة - ومن ذلك مجموعة القوانين التى تنسب عن طريق التقاليد إلى موسى، والشعر الدينى الذى ارتبط باسم داود - الملك المحبوب من بين ملوكهم - فضلاً عن مجموعة من حوليات الأسرة الملكية القديمة، إلى جانب مجموعات تتطلع إلى العدالة، وتحذر من الأعمال الخاطئة الفردية أو الجماعية، بل وحتى إن كانت من هؤلاء الرجال الملهمين الذين يدعون «أنبياء»^(١).

هذا وقد بدأ هؤلاء المنفيون من أجل إراحة أنفسهم من جراء فقدانهم لموطنهم بدراسة هذا الأدب بشغف زائد عن طريق انتقاء أجوده، ثم تنظيمه ونسخه، بل وربما قراءته فى بعض الأحيان بصوت مرتفع عندما يجتمعون معاً، ولما كان معبد أورشليم - مركز حياتهم الدينية فيما قبل السبي - قد دمر الآن، فإنهم قد فكروا فى إقامة بديل له فى أرض المنفى، ومن ثم فقد أخذت العبادة عندهم مكان التضحية، واجتماعات الصلاة عن طريق قراءة الأدب القديم ومناقشته، وفيما بعد أصبح المعبد مؤسسة دينية منظمة^(٢)، وتطورت الطقوس فيه من تراثيل فياضة وأدعية وتطبيق لمبدأ التنبؤ على الحياة اليومية، وهكذا أصبح المعبد نواة فعلية لأسس المذهب الإسرائيلى الموضوع بما جد فيه من فلسفة الحشر، والحياة بعد الموت^(٣).

وقد عزز إنشاء المعبد (أو الكنيس) - الذى ظهر فى بابل بالذات، حيث فرضت أهداف حكام الأسباط المفروضة بشكل أعنف من أى مكان

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن هؤلاء الأنبياء فى بحثه «النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل»، الإسكندرية ١٩٧٨. تمثل الجزء الخامس من هذه الدراسة.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 52.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦١.

آخر - عزز مراراً عديدة الطابع السبطي لطقوس الدين اليهودي، وحصرت الأسباط اليهودية بين كماشة طقوس أكثر تزمناً، ومن البدهي أن نفوذ «الكنيس» استخدم كلياً لمصلحة الأقلية الغنية، وجرت بالتدريج عملية تحويل «الكنيس» إلى مركز ديني وروحي للأسباط اليهودية، مع العلم بأنها لم تعرقل، بل بالعكس ساعدت التجارة والعمليات المالية لغلبة الأسباط أو نخبهم^(١).

على أن المنفيين لم ينسوا - كما تروى توراتهم - أورشليم أبداً، ومن ثم نقرأ في المزمور (١٣٧):

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون، على الصفصاف في وسطها علقنا أعودنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحاً، قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة، إن نسيتهك يا أورشليم تنسني يميني، ليلتصق لساني بحنكي، إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي»^(٢).

بل إن يهود إنما يصبون - في نفس المزمور - لعناتهم على بابل، ويطلبون لها الخراب والدمار: «يا بنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك، ويضرب بهم الصخرة»^(٣).

هذا ولم يكن تعلق اليهود بأورشليم بصفة خاصة، وفلسطين بصفة عامة تعلقاً دينياً ومعنوياً فحسب، وإنما تجاوزه إلى التعلق المادي كذلك، ذلك لأن المكان المقدس في أورشليم، حيث كان التابوت محفوظاً، إنما يمثل المركز الديني للقبائل الإسرائيلية، قد أصبح المكان المختار لسكنى

J. Parkes, End of an Exile, London, 1954, p. 92.

(١)

(٢) مزمور ١٣٧: ٨-٩.

(٣) مزمور ١٣٧: ١-٦.

يهوه^(١)، والمكان الذى اختاره ليحمل اسمه^(٢)، ورغم أن المعبد الذى بناه سليمان فى هذا المكان قد أتت عليه النيران، إلا أن قدسية المكان، لم ترتبط ببناء المعبد فحسب، ومن ثم فإنه كخرائب مايزال مكانًا مقدسًا، وسكنًا لرب إسرائيل (يهوه)^(٣).

وأما من ناحية تعلق اليهود المادى بفلسطين، فلقد أصدر رجال الدين اليهودى - لأول مرة فى بابل - مرسومًا يستطيع بموجبه كل يهودى أن يعلن عن امتلاكه أربعة أفدنة وهمية فى فلسطين^(٤)، ذلك لأن المنفيين - رغم كل ما ذكرناه - فإنهم قد ظلوا يشعرون بالغربة فى هذه البلاد الجديدة (أرض المنفى) لأنها إنما كانت بالنسبة إليهم أرضًا غريبة، غير طاهرة، فهى البلاد التى كان من المستحيل عليهم أن يمارسوا فيها عبادتهم التى كانت مرتبطة بوطنهم القديم - وتحديد أدق فى معبد أورشليم المقدس - وهكذا كان المنفيون يقاسون كثيرًا من أجل أورشليم التى لم يستطيعوا أبدًا نسيانها^(٥)، وهكذا رأينا الإسرائيليين على مدى ثلاثة آلاف سنة، وفى مختلف الأوطان التى انتشروا فيها بعد الشتات النهائى من فلسطين، يحيون بعضهم بتلك التحية التى تعنى دلالتها عن البحث فى كثير من الأدلة والبراهين، فالإسرائيلي كان يحيى صاحبه الإسرائيلي عند الافتراق «إلى اللقاء فى أورشليم»، وهى تحية تجدد الأمل الذى ظل حلمًا يراود الأجيال المتعاقبة من الإسرائيليين فى منفاها دائمًا وأبدًا^(٦).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المنفيين لم يكونوا متمسكين

(١) إشعياء ٨: ١٨.

(٢) تثنى ١٢: ١١.

(٣) M. Noth, The History of Israel, p. 291.

(٤) Salo W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, Vol. V, p. 27.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 297.

(٦) عبده الراجحى، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ١٠٧.

بشعائرهم الدينية تمامًا، ومن ثم فقد تنازلوا عن بعض ما جاء في وصايا موسى العشرة وبخاصة تقديس يوم السبت (وأصل الكلمة سباتو أو شباط، وهي كلمة عبرية ربما بمعنى راحة)، وهي عادة قديمة جدًا لم يتمكن الباحثون من اكتشاف الهدف منها على وجه اليقين^(١)، ورغم أن الاحتفاظ بها إنما يعتبر تعبيراً عن الإيمان القديم وإشارة إلى الانفصال عن البيئة الأجنبية، ورغم أن حزقيال قد أشار مراراً وتكراراً إلى «سبت يهو» كإشارة إلى الوحدة بين رجال يهو ومريديه، إلا أن المنفيين إنما قد نسوا حفظ السبت في بابل، ومن ثم فقد بدأ رجال الدين يشددون على حفظه بعد العودة إلى كنعان^(٢).

والأمر كذلك بالنسبة إلى سنة الختان^(٣) الذي تركه أفراد السبي البابلي، رغم أن التوراة جعلت منه «علامة عهد بين يهو وشعبه إسرائيل»^(٤)، ومن ثم فإن تقاليد البنتاتوك - فيما يدعى بالقانون الكهنوتي - إنما تربط بين راحة السبت وخلق العالم^(٥)، وتجعل من الختان التزاماً بين يهو وأبراهام (إبراهيم عليه السلام)، وركناً أساسياً في تاريخ إسرائيل، ولا يكاد في الإمكان إثبات أكثر من احتمال أن القانون الكهنوتي إنما كتب

(١) تصور التوراة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض في ستة أيام، واستراح من جميع عمله (تكوين ١: ٢-٣)، وهكذا تصور التوراة الله الخالق - جلّ جلاله - في صورة بشر يعملون فيهمهم لغوب، ومن ثم يستريحون، ويرد القرآن الكريم على دعواهم الكذوب هذه بقوله تعالى: «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» (سورة ق، آية ٣٨).

(٢) حزقيال ٢٠: ١٢-٢١، ٢٢: ٨، ٢٦: ٢٣، ٢٨: ٢٣، ٣١: ١٠، ٣١: ١٢، ٣٢: ١٥-٢٢، قاموس الكتاب المقدس ١/٤٥٣-٤٥٥، وكذا:

J. Lugol, Israel at la Civilisation, 1939, p. 28; M. Noth, op.cit., p. 297.

(٣) انظر: الجزء الأول من هذه الدراسة، ص ٣٥٧-٣٥٩، (ط ١٩٩٧). ص ٣٩٣-٣٩٦.

(٤) تكوين ١٧: ١١.

(٥) تكوين ٣: ١-٣.

فى أوساط المنفيين فى بابل وتفترض التأكيدات القوية فى مراعاة السبت والختان بأنهما منذ اكتسبا أهمية أساسية فى كل إسرائيل، ومن الناحية الأخرى، وطبقًا لما جاء فى القانون الكهنوتى والبناتوك فإنهما قد انتشرا بدرجة عظيمة فى كل إسرائيل^(١)، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن من انحرافات فترة السبى هذه، إنما كان ظهور الأنبياء الكذبة^(٢)، ذلك لأن هذه المرحلة من تاريخ إسرائيل إنما تميزت بظهور كثير من الأنبياء ومعظمهم من مدعى النبوة، وكلهم لقى آذانًا صاغية لأنهم جميعًا كانوا يأملون الخلاص، وحذرهم يهوذا مرة أخرى من اتباع الكذبة والمضللين من الأنبياء^(٣)، يقول سفر حزقيال: «ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئًا، أنبياءك يا إسرائيل صاروا كالشعالب فى الحرب، لم تصعدوا أكثر، ولم تبنا جدار البيت إسرائيل للوقوف فى الحرب فى يوم الرب، رأوا باطلا وعرافة كاذبة، القائلون وحى الرب، والرب لم يرسلهم، وانتظروا إثبات الكلمة، ألم تروا رؤيا باطلة، وتكلمتم بعرافة كاذبة، قائلين: وحى الرب وأنا لم أتكلم»^(٤).

وعلى أى حال، فليس هناك من شك فى أنه إلى فترة السبى البابلى هذه (٥٨٧-٥٣٩ ق.م) إنما ترجع عملية الجمع لنصوص العهد القديم، ويقول «هربرت جورج ويلز» (١٨٦٦-١٩٤٦ ق.م) أنه من الراجح أن العهد القديم قد جمع لأول مرة فى بابل، ثم ظهر فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، ذلك لأن اليهود قد جمعوا هناك أثناء السبى البابلى تاريخهم بعضه إلى بعض، وطوروا تقاليدهم ونموها، ومن ثم فقد أصبح

M. Noth, op.cit., p. 298.

(١)

(٢) عن الأنبياء الكذبة، انظر: محمد بيومى مهران، النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل، الإسكندرية،

١٩٧٨، ص ٦٩-٧١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٠.

(٤) حزقيال ١٣: ٧-٣.

الذين آبوا إلى أورشليم بأمر كيروش الثانى شعباً يختلف اختلافاً عظيماً فى الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذى خرج منها مأسوراً، وذلك لأنهم تعلموا الحضارة هناك من البابليين»^(١).

ويزيد «ويلز» الأمر وضوحاً - فى كتاب آخر له - بقوله : «إن الحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هى أن اليهود ذهبوا همجاً وعادوا منهما ممدنين، خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه لا يربطه وعى ذاتى وطنى، وعادوا بروح قومية شديدة، وجنوح إلى الاعتزال، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، وليس هناك ما يدل على تعودهم تلاوة أى كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم شطر أكبر من مادة العهد القديم (التوراة)، ومن الواضح أن اليهود بعد أن تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين، وبعثوا عن السياسة وعاشوا فى ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى فى العالم البابلى، فإن العقل اليهودى ما لبث فى أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة»^(٢).

وعلى أى حال، فرغم انهيار كثير من المبادئ الدينية لعبادة يهوه فى أيام السبى هذه، ورغم إحساس المنفيين بانحرافهم، فإن إسرائيل إنما كانت تعيش على تقاليد الماضى، وكانت النظرة إلى الخلف - إلى تقاليدها وتاريخها - تملأ كل حياتها، ورغم أن إسرائيل قد شاركت غيرها من شعوب سورية وفلسطين فى ضياع استقلالها السياسى، فإننا - على قدر ما نعلم - لا نعرف شعباً آخر غير إسرائيل، قد احتفظ بأسلوب حياته وتقاليدته القديمة، فضلاً عن أن تلك التقاليد التى كانت تتطلع بها إسرائيل إلى الخلف، إنما كانت تحتوى أيضاً على إشارة إلى المستقبل فى أن يهوه يحفظ إسرائيل، ورغم أن الضغط المباشر للمحنة الأخيرة كان من الصعب أن يبقى

Herbert George Wells, A Short History of the World, 1965, p. 73-78; Martin (١)

Noth, The History of Israel, 1965, p. 298.

H.G. Wells, The Outline of History, p. 290.

على قيد الحياة أى أمل فى المستقبل، وأن الغالبية العظمى من المنفيين إنما كانت عاجزة عن تصديق تحقيق ذلك، ومع ذلك لم يمت هذا الأمل حينما كانت الظروف الخارجية هى الأكثر قسوة، أنعشها هذه أكثر فأكثر، وأن الأمل فى مستقبل جديد قد ساعد دون شك فى أن تبقى إسرائيل معاً، وأن تصون إدراكها لمستقبلها بتفردا بين شعوب الإمبراطورية الأخرى وكانت تحتاج إلى توقع معقول عن تغير جوهرى فى الموقف التاريخى العالمى ليحرك شعلة الأمل المتوهجة إلى الحياة مرة أخرى^(١).

الفصل الثانى العودة من السبى

(١) كيروش الثانى (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م)

لم تدم الإمبراطورية البابلية الجديدة طويلا، فقد سارت فى طريق الإنهيار السريع بعد موت «نبوخذ نصر» فى عام ٥٦٢ ق.م، وكان «نبونيدس» (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) - ذلك الملك المثقف والذى اشتهر فى التاريخ القديم بحبه للآثار وعنايته بها - آخر ملوكها، قد سمح للتنظيم السياسى أن ينهار، ويسقط مع كهنة إله الإمبراطورية «مردوك»، ومن سوء الحظ فقد كانت الأحداث تأخذ مجرى آخر فى المرتفعات الإيرانية المجاورة، التى أصبحت بعد فترة قصيرة ذات تأثير حاسم على كل تاريخ الشرق الأدنى القديم، ومن المعروف أن السلطة الميدية قد ساهمت بطريقة حاسمة فى الإمبراطورية الآشورية - كما رأينا من قبل - كما أن ثمرة انتصارهم قد أكسبتهم الجزء الجنوبى من نطاق الإمبراطورية الآشورية، بالإضافة إلى بلاد الميديين نفسها، وسرعان ما مدّوا سيطرتهم إلى أرمينيا وجبال آسيا الصغرى ناحية الغرب على امتداد نهر «هاليس»، وأما فى الجزء الجنوبى الشرقى فقد أخضعوا الحكام الفرس من الأخمينيين الذين كانوا يحكمون عيلام القديمة^(١).

وفى حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، نجح «كيروش الثانى» فى القضاء على الميديين، ذلك أن كيروش بعد أن نجح فى توحيد فارس، إنما أخذ يبحث له عن حليف ضد ميديا من بين القوى الكبرى الأخرى، وكانت بابل هى الحليف الأقرب - والمنطقى كذلك - ذلك لأن بابل، رغم أنها كانت منذ جيلين مضيا حليفة لميديا، إلا أن ذلك كان أمرا مؤقتا،

(١) J. Unge, Dareios J, Konig der Perser, 1944, p. 14F; M. Noth, op.cit., p. 300.

انتهى عهده بتدمير آشور، وتقسيم إمبراطوريتها بين الحيفين، وأصبحت ميديا الآن العدو الذى تخشاه بابل، وهكذا عقد تحالف بين «كيروش» ملك أنشان - وربما كانت مكان مدينة مسجيدى سليمان الحالية - و«نبونيد» ملك بابل فى عام ٥٥٥ ق.م ضد الميديين، وفى عام ٥٥٣ ق.م أعلن كيروش الثورة ضد الميديين، ونجح بعد ثلاث سنوات - وبمعاونة من بعض دوائر معينة من بين النبلاء الميديين الذين تمردوا ضد الحكم الاستبدادى الذى كان يمارسه ملكهم - من خلع جده لأمه «استياجس» الذى لم يستطع إلا مقاومة طفيفة قبل إبعاده عن عاصمته «أكبتانا» - ومكانها الآن مدينة همدان - واستولى كيروش على عرش ميديا، وبالتالي فقد أصبح ملكاً على الميديين والفرس، من قبل النبلاء الميديين والفرس سواء بسواء، متخذاً من «أكبتانا» عاصمة له^(١).

ورأت بابل بعينها الآن المملكة الفارسية الأكثر خطورة تظهر قوية بجوارها، بدلا من المملكة الميديّة، وبدأت دول غرب آسيا تنظر بقلق إلى الفاتح الجديد وعقدت ليديا وبابل ومصر وبعض الشعوب الإغريقية حلفاً فيما بينها ضد الفرس، ومن ناحية أخرى، فلقد بدأ كيروش يمد سلطته إلى أبعد ما يستطيع شرقاً وغرباً، وكانت جارتها الغربية ليديا - وهى مملكة فى القسم الغربى من آسيا الصغرى - ظهرت فى بداية القرن السابع قبل الميلاد، كقوة ذات حجم كبير هناك، منذ انهيار دولة الحيثيين على أيدي شعوب البحر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد - وكان ملكها الغنى «كرويسوس» (٥٦٠-٥٤٦ ق.م) معاصراً لكيروش الفارسى، فبدأ يناصبه العداء، وطلب العون من حلفائه، وكانت مصر هى الوحيدة التى احترمت كلمتها، ومع ذلك فلم تغن عنه شيئاً أمام الطوفان الفارسى الذى سرعان ما هاجمه فى

(١) E. Herzfeld, Archaeological History of Early Iram, 1935, p. 40; G.G. Cameron, History of Early Iram, 1936, p. 219; M. Noth, op.cit., p. 300.

دياره، واستولى على عاصمته «سارديس» فى عام ٥٤٦ ق.م، وأخذ أسيراً، ولم تمض سنون خمسة حتى أصبحت فارس تحتل المكانة الأولى فى الشرق، ثم سرعان ما مدّت نفوذها حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم فقد أصبحت مدن الشاطئ الأيونى تحت رحمة الحاكم الفارسى الذى تركها لتصرف قواده، ثم سرعان ما استولى على البلاد الفسيحة شرقى إيران، ومن ثم فقد أصبح يملك بين يديه سلطة قوية وفى غاية الثراء^(١).

وأما «نبونيد» ملك بابل، فقد كان قد اتجه إلى «تيماء» - وتقع على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها - حيث قضى هناك عشر سنوات^(٢) - ربما ليحى أهميتها التجارية، وينتفع باقتصادياتها، أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوى على تطعيم جيشه بقواته فنية يحى بها مجد دولته، ويستعد بها لمعركة قادمة لا بد منها بينه وبين الفرس الطموحين، ولكن خاب أمله فى هذا كله، وخابت سياسته مع تيماء وجيرانها، إذ اشتد عليها وقتل ملكها^(٣).

وعلى أى حال، فلقد أقام «نبونيد» قصراً فى تيماء، أقام فيه حيناً من الدهر، أصبحت فيه تيماء وكأنها قد غدت خليفة لبابل، ونقرأ فى واحد من نصوص الملك البابلى عن ذلك بقوله: «واتجه الملك إلى تيماء فى وسط بلاد العرب، وياشر مسير الحملة على طريق لم يعهد من قبل، وذبح أمير تيماء^(٤)»

(١) محمد يومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ٢٤٠-٢٤١، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 300-301; Herodotus, I, 129, 177etc.

(٢) يقترح بعض الباحثين أن نبونيد قد ذهب إلى تيماء فى السنة الرابعة من حكمه، وأنه بقى هناك على الأقل حتى السنة الحادية عشرة. انظر:

J. Finegan, op.cit., p. 228-229; J. Lewy, HUCA, 19, 1945, 1946, p. 434-450.

(٣) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٥٦١.

(٤) انظر عن «تيماء»: محمد يومى مهران، تاريخ العرب القديم، ٢٧٦/٢-٢٨٧، الإسكندرية

بسيفه، كما ذبح أولئك المقيمين في مدينته وفي الإقليم، ثم استقر في تيماء... وجعل هذه المدينة رائعة وفخمة، وحولها إلى ما يشبه قصور بابل^(١).

على أن هناك اتجاهًا آخر، يذهب إلى أن الرجل إنما كان هناك في تيماء، في المنفى وأنه لم يعد من هناك إلا في عام ٥٤٦ ق.م، عندما دعاه رعاياه الذين كان قد طال من قبل خلافهم معه^(٢)، وذهب فريق ثالث إلى أن نبونيد إنما قد ذهب إلى تيماء، لأن هذا المكان هو المركز القديم لعبادة إله القمر «سين» الذي جعله نبونيد فوق «مردوك» وكل الآلهة البابلية الأخرى^(٣).

وأيًا ما كان الأمر، فإن الأحداث التي جرت في الإمبراطورية البابلية كان لهما دوى عظيم بين الشعوب الخاضعة لها، والتي كان لديها من الأسباب ما يجعلها تأمل في انهيار محتمل الوقوع لسلطة بابل الجديدة، وتطلع اليهود الذين أبعادوا ببابل بأمل كبير إلى كيروش القوى المنتصر، ومن ثم فإن النبي المجهول الاسم - والذي يدعى عادة إشعياء الثاني - قد تنبأ بتدخل رب إسرائيل بصفته السيد الإلهي الوحيد للتاريخ كله، وهكذا أدمجت النبوة القديمة المستمرة من القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، كيروش فيها، على أنه الملك الذي وهبه الرب مع حكومته، ليكون أداة رب إسرائيل، وكان يذكره في أغلب الأحيان بالاسم^(٤)، كما تنبأ إشعياء كذلك بسقوط بابل المحتمل الوقوع في وضوح تام^(٥)، ومن سوء الحظ

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٣١؛ وكذا:

A. L. Oppenheim, in ANET; 1966, p. 313-314; J. Finegan, op.cit., p. 227-228.

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 364. (٢)

Julius Lew, op.cit., p. 434-450; J. Finegan, op.cit., p. 229. (٣)

(٤) إشعياء ٤٤: ٨، ٤٥: ١.

(٥) إشعياء ٤٧: ١-١٥.

فإننا لا نستطيع أن نقرر إذا ما كان «إشعياء الثانى» هذا من المنفيين إلى بابل، على أساس نبوءاته عن الأحداث التاريخية فى إيران المجاورة، أم لا؟ وعلى أى حال، فإن كلمات إشعياء الثانى إنما وجدت قبولاً حسناً لدى المنفيين فى بابل، وأنها كانت دافعاً قوياً لآمالهم فى تغيير أحوالهم^(١).

وأياً ما كان الأمر، فإن كيروش قد عزم العزم على احتلال بابل، بل إن هجومه على المدينة العظيمة إنما جاء بعد فترة قصيرة جداً، وبعد أن كان قد نجح فى مد سلطانته فى اتجاهات مختلفة، ولم يعد أمامه سوى الإمبراطورية البابلية الجديدة، بأملاتها فى بلاد الرافدين وسورية وفلسطين، وأنه كان يعرف أنه أبعد علواً فى سلطته، وأن كل ما كان يحتاج إليه لمواجهة هو الإطاحة بها بسرعة، وفى نفس الوقت فإن «نبونيد» إنما قد حاول أن يعد العدة لاتقاء العاصفة الوشيكة الوقوع، فبذل جهداً أخيراً لإعادة أقدم صور العبادة البابلية، ولكن الفرس - يناصرهم فى ذلك كهنة مردوك - لم يتركوا له وقتاً لتحقيق ما يريد، فضلاً عن أن البلاد - ومدينة بابل بالذات - كانت تقاسى الأمرين، من سوء الإدارة، وانتشار المجاعات بين أهلها^(٢).

وقرب بداية أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م، قاد كيروش معركة فى «أوبيس» Opis على الدجلة، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من الرعب البغيض، أفقد كيروش خصومه شجاعتهم، وفى ١١ أكتوبر استسلمت «سيبار» دون قتال، وحاول «نبونيد» الهروب إلى الجنوب الغربى متجهاً إلى الصحراء، إلا أن البدو الرحل من أعوان كيروش قطعوا عليه الطريق وأجبروه على العودة إلى بابل، وفى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٥٣٩ ق.م، دخل «جوبرياس» Gobryas محافظ Gutium الخائن - والذى

M. Noth, op.cit., p. 301.

(١)

R.P. Dougherty, Records from Erech, 1920, No. 154; G.G. Cameron, New (٢)

Light on Ancient Persia, JAOS, LII, 1932, p. 304.

كان قد هرب إلى فارس منذ عشر سنوات ليعمل في خدمة كيروش ضد قومه البابليين - دخل بابل، ومعه قوات كيروش، دون معركة، وهكذا سقطت إمبراطورية «نبوخذ نصر» على يد أحد ضباطه، وفي ٢٦ أكتوبر بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الجديد «كيروش ملك العالم» وفي ٢٩ أكتوبر ٥٣٩ ق.م، دخل كيروش نفسه بابل، وفرشت الورد في طريقه ورحب به كهنة مردوك، وكثير من البابليين الذين لم يكونوا راضين عن حكومة «نبونيد»، وأعلن الغازي الجديد الأمان لسكان المدينة، وعين الخائن «جوبرياس» والياً (ستراب Satrap) على إقليم بابل الجديدة، وأعيد الموظفون إلى وظائفهم، وأعلن كيروش أنه «الملك العظيم، الملك القوى، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك كل أنحاء العالم»^(١)، وهكذا انتقلت مقاليد الأمور في الإمبراطورية البابلية الجديدة إلى كيروش، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين بدون صعوبة، واعترفت سورية وفلسطين بالغازي الجديد.

(٢) العودة من السبي:

لم يكن تأسيس الإمبراطورية الفارسية مجرد تغيير في السيادة، وتركيز أقوى في السلطة، وإنما كان تغييراً جوهرياً في سياسة العواهل من آشور وبابل تجاه الشعوب الخاضعة لهم، وكان ذلك أمر في منتهى الأهمية بالنسبة لإسرائيل، ذلك أن الملوك الآشوريين - والبابليين من بعد - إنما حاولوا أن يوطنوا سلطتهم كلما أمكنهم ذلك، عن طريق وضع السكان الوطنيين في الأقاليم الخاضعة لهم، تحت وصايتهم، وترحيل الطبقات الأعلى مرتبة إلى أقاليم أخرى، هذا فضلاً عن إدخال دين الإمبراطورية

(١) R.W. Rogers, Cuneiform Parallels to the Old Testament, London, 1912, p. 381; Herodotus, I, 178, 188FF; A.L. Oppenheim, ANET, p. 315F; R. Ghirshman, Iran (penguin Books), 1954, p.131-132; A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, Chicago, 1970, p. 50-51; R.A. Parker and W.H. Dubberstein, Babylonian Chronology, 626B.C.-A.D. 45, 1942, p. 11.

الرسمى فى عواصم الأقاليم، إلى جانب الأديان المحلية، ولو أنهم كانوا يتسامحون معهم إلى حد ما، واستمر الفرس فى سياسة التسامح هذه، ولكنهم احتفظوا بالسلطة الفعلية - والتي كانت مركزة فى شخص الملك، وكبار الموظفين - فى أيديهم^(١).

ونقرأ فى التوراة^(٢) أنه فى السنة الأولى من حكم كيروش - أى فى السنة الأولى من حكمه للإمبراطورية البابلية الجديدة - وبمعنى آخر فى عام ٥٣٨/٥٣٩ ق.م أصدر كيروش أمره الملكى بالسماح للمنفيين من اليهود بالعودة إلى أورشليم، إن رغبوا فى ذلك^(٣)، ولعل السبب الذى دفع كيروش إلى إصداره أمره هذا، أن الجالية اليهودية فى بابل قد ساعدته على احتلال المدينة، وربما لأن العاهل الفارسى قد رأى فى وجود جالية يهودية فى فلسطين تدين بوجودها لإحسانه سيشكل توازنًا فعالًا تجاه الحزب الموالى للمصريين الذى طالما برز فى شئون فلسطين^(٤).

هذا ويبدو أن المنفيين قد ترددوا بين العودة إلى ديارهم التى خربت، وبين البقاء فى تلك التى أقاموها فى أرض المنفى، وكانت النتيجة الرئيسية أن غالبية الشعب اليهودى قد بقيت فى بابل^(٥) فقد كان الكثيرون منهم قد تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرابحة، ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة^(٦)، وهكذا كان من الصعب - فيما يرى المؤرخ الأمريكى أولمستد - التوقع بأن يترك اليهود، بعد أن اغتتوا، بابل الخصبة من أجل هضاب

M. Noth, op.cit., p. 32.

(١)

(٢) عزرا ١: ١-١١.

C. Roth, op.cit., p. 53; S.A. Cook, op.cit., p. 409.

(٣)

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

N. Sokolow, History of Zionism, Vol. II, p. 106.

(٥)

(٦) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٥.

اليهودية الجرداء^(١) بل إن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن زعماء المنفيين إنما كان يضعون بابل في مرتبة تفوق مرتبة أورشليم نفسها، وهكذا نرى المؤرخ الأمريكى الصهيونى «سالو - و - بارون» يذكر عن مرحلة أقدم من مرحلة العودة نسبياً أن زعماء المنفيين فى بابل قد أصرروا على أن تتلى فى جميع بلدان سبى اليهود الصلوات «من أجل صحة حكماء بابل» قبل أى شىء آخر، وقد أتاح العدد والرفاء المادى لآباء اليهودية الروحانيين البابليين أن يؤكدوا أنه هنا - أى فى بابل - يسكن مصدر الحكمة والنبوءة، ومن بابل بالذات - وليس من القدس - ينشع الإكليل المتألق على شعبه^(٢).

وهكذا فضل أغنياء المسبيين البقاء حيث هم، بدليل ورود أسماء عبرانية بصورة متكررة فى الوثائق التجارية لذلك العهد، وكانت هذه الأسماء مركبة من أسماء آلهة، وكانت أهم مراكزهم - كما أشرنا من قبل - على نهر الخابور، جنوب شرق بابل، وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان أول أفراد ما عرف بـ «الدياسپورا» Diaspora، أى اليهود المقيمين خارج فلسطين أو «يهود الشتات»^(٣).

ورغم ذلك كله، فإن «عزرا» و«نحميا» يقدمان ٣٦٠، ٤٢. رقمًا للعائدين، وهو رقم - فيما يرى فيلب حتى - مبالغ فيه، إذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو ٥٨ ألف نسمة (٤٠ ألف فيما يرى سيسل روث^(٤)) كما أنه لا يتفق مع ما جاء فى قوائم المفصلة التى تسبق الجمع النهائى، ولا بد أن الذين استجابوا لهذه الدعوة - أى العودة - هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة، ومن الذين لم تكن لهم جذور فى الأرض الجديدة^(٥).

(١) A. T. Olmstead, op.cit., p. 1960, p. 57.

(٢) Salo W. Baron, A Social and Religions History of the Jews, V, N.Y., 1957, p. 25.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٤) C. Roth, op.cit., p. 53.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٣؛ وانظر: عزرا ٢: ٦٤؛ نحميا ٧: ٦٦.

وعلى أى حال، فإن هؤلاء العائدين لم يجدوا ترحيباً كبيراً فى وطنهم القديم ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقوقهم، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة لهم والتي كانت تحمى العائدين - أعنى فارس -، لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين^(١).

٣ - إعادة بناء المعبد:

نقرأ فى المرسوم الملكى الذى أصدره كيروش الثانى (٥٥٨-٥٣٠ ق.م) فى السنة الأولى من حكمه للإمبراطورية البابلية الجديدة (٥٣٩/٥٣٨ ق.م) بعودة المنفيين إلى أورشليم^(٢)، أن العاهل الفارسى إنما قد أمر بإعادة بناء معبد أورشليم فى نفس مكان المعبد السابق، حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية، وتقدم القرابين، وأن تكون نفقات البناء الجديد من «بيت الملك» - أى من الخزانة العامة - وأخيراً فإن المرسوم الملكى إنما يعيد للمعبد الجديد كل متعلقات المعبد القديم الثمينة، التى كان قد اغتصبها «نبوخذ نصر» عند الاستيلاء على المدينة المقدسة، وتدمير المعبد فى عام ٥٨٧ ق.م، ثم أحضرها إلى بابل مع الغنائم والأسلاب التى استولى عليها الغازى البابلى من يهوذا، هذا فضلاً عن الأموال التى تبرع بها يهود السبى البابلى للمعبد الجديد^(٣).

ولعل سؤال البداة الآن: لم تدخل كيروش بنفسه فى أمر عبادة محلية على نفس حدود إمبراطوريته العظيمة، بعد فترة قصيرة من استيلائه على

(١) ول. ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٢) هناك من يشير الشكوك حول صحة هذا القرار. انظر:

E. Meyer, Die Entstehung des Judentums, 1896, p. 8F.

(٣) عزرا ١: ١-١١، ٦: ٣-١٥ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 409; C. Roth, op.cit., p. 53; M. Noth, op.cit., p. 306-307.

أملاك الإمبراطورية البابلية الجديدة، داخل بلاد وصلت إليه عن طريق الإمبراطورية المذكورة، رغم أنه لم يرها من قبل؟.

لا ريب في أن تصرف كيروش هذا لا يرجع بالتأكيد إلى مبادرته الشخصية، ولعل الأمر الذي يمكن إدراكه بسهولة، أن بعض اليهود الذين سبق ترحيلهم إلى بابل، والذين شاهدوا تجديد الديانات القديمة في ميزوبوتاميا، ربما لفتوا نظر البلاط الفارسي إلى حقيقة أن حاكم الإمبراطورية البابلية الجديدة قد دمر معبد أورشليم، الذي يجب أن يجدد بناؤه الآن، وأنه من الممكن إعادة الأشياء المقدسة التي نهبت من هذا المعبد.

وأما بالنسبة للمنفيين، فضلا عن القبائل التي بقيت في البلاد، والجماعات الأخرى المتفرقة من إسرائيل القديمة، فقد كان تجديد المعبد أمراً ذا أهمية أساسية بالنسبة للديانة المركزية الفيدرالية التي كانت أورشليم مركزاً لها لفترة طويلة، وما زالت مركزاً لإسرائيل التي تعلقت بسرعة بتقاليدها.

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن كيروش الثانى لم يصدر أية أوامر رسمية بتجديد معبد أورشليم، ولم يشر بأية وسيلة بأنه سوف يقوم بالاحتياجات التي ربطها إشعياء الثانى بشخص كيروش كمبعوث من العناية الإلهية وهو الذى كان عليه أن يؤثر فى التغيير النهائى الحاسم فى التاريخ، ومع ذلك، فيبدو أنه على الرغم من أن الأمل فى تغيير أساسى، وتحسن الموقف الذى كان قد ارتبط بظهور كيروش، لم يكن هناك أى أمر كتابى، وقد وجد البعض أنه من الصعوبة بمكان تصديق أن كيروش قد وافق على أن تكون إعادة بناء المعبد من الخزانة العامة، الأمر الذى اتخذه البعض كحجة ضد صحة القرار المقتبس من النص الذى جاء فى سفر عزرا (٦: ٣-٥).

غير أن هذا العمل إنما يتفق مع سياسة تحسين أحوال الديانات المحلية

عن طريق تقديم مساعدة مالية من الدولة فى حالات الضرورة، وفى حالتنا هذه إنما يوجد سبب خاص لتقديم المساعدة الآنفة الذكر، ذلك أن العاهل البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) إنما قد دمر المعبد ونهبه، عند استيلائه على المدينة المقدسة فى عام ٥٨٧ ق.م، وبما أن العاهل الفارسى «كيروش» الثانى هو الوريث لحكم الدولة البابلية، فضلاً عن أنه الذى تبنى سياسة معينة بالنسبة للشئون الدينية، ومن ثم فهناك سبب وجيه لقيامه بإصلاح أخطاء «نبوخذ نصر»، هذا إلى جانب أن المعبد إنما كان مكاناً للعبادة الملكية السابقة ولما كان «كيروش الثانى» يعتبر نفسه الخليفة الشرعى للملك يهوذا السابقين، فهو إذن المسئول عن تكاليف تجديد المعبد، وهكذا فقد كان من اللائق أن يعطى أوامره بذلك، فضلاً عن توجيهاته بشأن أسلوب البناء الجديد^(١).

ويشير مرسوم كيروش بصفة خاصة إلى تجديد المعبد، وفيما بعد نرى كاتب الحوليات العبرانى يسجل الحادث باللغة العبرية فى سرده لقصة البداية الجديدة بعد فترة النفى^(٢)، معتمداً فى ذلك على النص المعروف والمرتبط بأمر تجديد المعبد، ومنح المنفيين حرية العودة، لأنه إنما كان يفكر فى الموطن القديم، وبخاصة مدينة أورشليم، والتى كانت خرائب مهجورة، ومن ثم فمن المحتمل أنه قد استنتج أن كيروش قد استغل سلطاته لإصلاح المعبد والسماح للحنفيين بالعودة إلى الوطن للقيام بهذه المهمة، وأن وجهة نظره إنما كانت تتجه إلى أن جزءاً صغيراً من السكان قد بقى فى فلسطين^(٣)، فضلاً عن تلك الطبقة العليا الأجنبية التى بقيت فى ولايات مملكة إسرائيل، والتى لم تشترك فى إعادة بناء المعبد.

وفى الواقع، إن قرار كيروش لم يذكر عودة النفيين، لأن ذلك لم يكن

M. Noth, op.cit., p. 307-308.

(١)

(٢) ملوك ثان ٢٥: ١٢.

(٣) عزرا ١: ٢-٤.

ضرورياً بالنسبة لتجديد المعبد، ذلك لأن الجزء الرئيسى من القبائل، إنما قد بقى فى البلاد للقيام بالخدمة الدينية فى المكان المقدس، حتى بعد تخريب «نبوخذ نصر» لهيكل سليمان، ومن ثم فهذا الجزء من القبائل إنما كان قادراً على التجديد وربما لم يرجع كثير من المنفيين إلى أورشليم وبلاد يهوذا، رغم أن الفرس لم يضعوا أية عقبات فى طريق عودتهم، وعلى أى حال، فمن المفترض أن عدد العائدين لم يكن كبيراً (أربعين ألفاً فيما يرى سيسل روث)^(١)، ذلك لأن أحوال فلسطين نفسها لم تكن تسمح بذلك، بسبب المدن والقرى الكثيرة التى دمرت، والتى لم يكن قد أعيد بناؤها بعد، بل إن مدينة أورشليم نفسها، كانت ماتزال بمثابة خرائب بدرجة كبيرة^(٢).

وأيا ما كان الأمر، فلقد فوّض كيروش شخصاً يدعى «شيشبصر» وصف بأنه «رئيس يهوذا» فى أن يأخذ الكنوز التى نهبت من معبد أورشليم منذ نصف قرن، وحفظت بمعبد الإله «بل» Bel، وأن يقوم بمهمة تجديد المعبد، وكان على «شيشبصر» على أى حال، أن يقوم بوضع أساس المعبد الجديد^(٣).

هذا وقد وصف «شيشبصر» بأنه كان والياً من قبل كيروش الثانى^(٤)، وأنه «رئيس يهوذا»^(٥)، ومع ذلك فليس من السهل علينا أن نحدد المركز الذى كان يشغله «شيشبصر» هذا، وهل كان حاكماً على ولاية يهوذا التى كانت قد بقيت كولاية مستقلة، أو أنها قد أعيد تكوينها من جديد، أم أنه كان حاكماً مساعداً لجهة ما فى يهوذا، التى كانت تحت الإدارة الإقليمية للسامرة؟ أم أنه كان شاغلاً لوظيفة عادية عند الحاكم، وليس أكثر من مجرد وكيل خاص يشرف على عودة كنوز المعبد وتجديده، طبقاً للأوصاف

M. Noth, op.cit., p. 308.

(٢)

(١) C. Roth, op.cit., p. 53.

C. Roth, op.cit., p. 53.

(٣) عزرا ٥ : ١٤-١٦ ؛ وكذا:

(٥) عزرا ١ : ٨.

(٤) عزرا ٥ : ١٤.

التي جاءت في سفر عزرا (٥ : ١٥) ؟ كل تلك أسئلة من الصعب إعطاء
إجابة حاسمة عنها، وكل ما نعرفه أن كيروش الثاني إنما قد أعطى تفويضاً
محددًا لتنفيذ قراره^(١).

ثم من هو «شيشبصر» هذا؟ إن الرجل - كما يبدو من اسمه البابلي
- ليس موظفًا فارسيًا، وربما كان يهوديًا منفيًا قبل الآخرين ممن على شاكلته
في بابل، وفي نفس الوقت كان يحمل اسمًا بابليًا، وقد بدا للحكومة
الفارسية لسبب أو لآخر أنه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة، ومن العبث
أن نحاول توحيدته بشخصية أخرى معروفة جاء ذكرها في سفر أخبار الأيام
الأول (٣ : ١٨) تدعى «شناصر» والذي يظهر على أنه رابع أبناء الملك
اليهودي المنفي «يهوياكين»^(٢)، ورغم أنه لا يوجد حقيقة ما يجعلنا نوحده
«شيشبصر» بـ «شناصر» وأنه من المستحسن أن نعتف بأننا لا نعرف عن
شخص «شيشبصر» هذا سوى القليل الذي جاء عنه في نص عزرا (٥ :
١٤-١٦)^(٣)، فإن هناك من الباحثين من يذهب إلى أنه ابن الملك
«يهوياكين»، ومن يذهب إلى أنه أمير من الأسرة المالكة^(٤)، ربما اعتمداً
على ما جاء في التوراة من أنه «رئيس يهوذا»^(٥).

وأيًا ما كان الأمر، فبعد عودة قوافل المنفيين إلى فلسطين، يمكن أن
يتصور المرء أن القوم قد تفرقوا في أماكنهم الأولى، وبدأت كل عائلة تبحث
عن قطعة الأرض التي كانت تمتلكها سابقًا، ورغم ذلك فقد تجمعوا بعد
ذلك في أورشليم لإعادة الشعائر المقدسة في المعبد، وفي مناسبة الحفل

(١) M. Noth, op.cit., p. 309; K. Galling, JBL, 70, 1951, p. 179.

(٢) أطلق الملك البابلي «أوبل مردوخ» (٥٦٢-٥٦٠ ق.م) سراح الملك اليهودي «يهوياكين» في
عام ٥٦٢ ق.م (ملوك ثان ٢٥ : ٢٧-٣١، وكذا :
C. Roth, op.cit., p. 51

(٣) M. Noth, op.cit., p. 309-310.

(٤) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 409.

(٥) عزرا ٢ : ٨.

الدينى الذى كان يقام فى بداية الشهر السابع (والذى عرف فيما بعد ببداية العام) بدأت إزالة الأنقاض من وسط الساحات المهدمة تمهيداً لإقامة الهيكل الجديد، ومنذ تلك اللحظة - ومنذ ثلاثة قرون ونصف القرن - لم تنقطع التضحية المنظمة والمتوالية صباح مساء^(١).

وهكذا - وبعد عامين من العودة - أقيمت أساسات المعبد الجديد، ولكن العمل سرعان ما توقف بسبب الموقف السيء فى أورشليم والبلاد المجاورة، ومن ثم فقد بدأت دعوة جديدة تنادى، «بأن الوقت لم يحن بعد لبناء بيت يهوه»، وأن القوم كانوا ما يزالون مشغولين بأمورهم الخاصة، «وكل رجل لا يشغله إلا آل بيته»، وأن بعضاً منهم كان ما يزال يعيش فى «منازل مكسورة»، ورغم أنهم ربما كانوا قلة، فالذى لا شك فيه أن أورشليم كانت مازال إلى حد كبير مدينة خربة، يسكنها قوم يستحقون العطف، وأن القرى فى الريف لم تكن بأفضل من ذلك، وكان على قمة تلك المآسى «المجاعة» التى يتلوها حصاد شىء للغاية، مما جعل الأهالى يركزون كل اهتماماتهم فى متاعبهم الشخصية، وهكذا بدأت الأساسات دون أن يلمسها أحد، وتوقف العمل فى تجديد المعبد نهائياً^(٢).

وهكذا توقف العمل فى إعادة بناء معبد أورشليم، بسبب حاجته إلى أعداد كبيرة من الأيدي العاملة، والتى كانت أورشليم المهدمة فى أشد الحاجة إليها لإعادة بنائها، كما أن المعونة الفارسية كانت جد قليلة، فضلاً عن أن جييران يهوذا، إنما كانوا من عوامل هذا التوقف، إذ «كان شعب الأرض يرخون أيدي شعب يهوذا ويدعرونهم عن البناء، واستأجروا ضدهم مشيرين ليبتلوا مشورتهم كل أيام كوروش ملك فارس، وحتى ملك داريوس ملك فارس»^(٣).

(٢) عزرا ٤ : ٤-٥.

(١) C. Roth, op.cit., p. 53.

(٢) حجى ١ : ١-١١، وكذا M. Noth, op.cit., p. 310.

وهكذا لم يبن من المعبد الثانى غير أساساته، حتى قضى «كيروش الثانى» فى سبتمبر من عام ٥٣٠ ق.م، وهو يهاجم جحافل الطورانيين على حدوده الشمالية، وخلفه ولده «قمبىز الثانى» (٥٣٠-٥٢٢ ق.م)، الذى انشغل بالاضطرابات التى انتشرت بعد وفات أبيه، بسبب المشاكل المتعلقة بوراثه العرش، والتى لعب فيها أخوه «برديا» (سمروس) دوراً هاماً، ومن هنا فقد عقد العزم على أن يكبح بعنف كل ما يهدد قوته بالضعف، أو يجعل العرش الذى يجلس عليه يهتز من تحته، ومن ثم فقد تم اغتيال «برديا» وخلا له الجو ليكون الحاكم الوحيد لأكبر إمبراطورية عرفها عصره^(١)، غير أن قمبىز لم يقدم شيئاً ذا منفعة لليهود، وهكذا - وبعد ستة عشر عاماً من قرار كيروش، وبعد البداية الأولى لإعادة بناء المعبد - مات قمبىز فى سورية، فى مكان غير معروف على وجه التحقيق، ربما فى شمال فلسطين عند «أقبطانا» أو «أكبتانا» على مقربة من جبل الكرمل، وربما عند دمشق^(٢).

واستغل «جاوماتا» الماچى شدة شبهه بشقيق قمبىز (برديا)، وزعم أنه «برديا» الحقيقى، الذى كان قمبىز قد قتله فى بداية حكمه، ومن ثم فقد أعلن الثورة فى ١١ مارس من عام ٥٢٢ ق.م، ثم أصبح ملكاً فى بابل فى ١٤ أبريل، وفى أول يولييه من عام ٥٢٢ ق.م، تم الاعتراف به فى جميع أنحاء الإمبراطورية، وقد تقبل القوم «برديا» المزعوم بارتياح، ولأنه أوقف الضرائب التجنيد لمدة ثلاث سنوات، ومع ذلك فإن حكمه لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما اجتمع سبعة من النبلاء، بزعماء «دارا بن هستاسبس» ونجحوا فى القضاء عليه فى ٢٩ سبتمبر من عام ٥٢٢ ق.م، وأصبح «دارا» ملكاً على فارس^(٣).

(١) M. Noth, op.cit., p. 310-311; R. Ghirshman, IRan (Penguin Books), 1954, p. 136.

(٢) Herodotus, III, 64; Josephus, Antiquities of the Jews, XI, 2, 3; Pliny, V, 19.

(٣) A.T. Olmstead, AJSL, LV, 1938, p. 394; Herodotus, III, 61F; G.G. Cameron, AJSL, LVIII, 1941, p. 315F.

وبدأ الأمل يداعب اليهود من جديد فى إعادة بناء هيكل سليمان، وفى النصف الثانى من عام ٥٢٠ ق.م، بدأ النبىُّ «حجى» يتكلم عن إعادة المباني الخاصة، بينما بيت يهوه ما يزال خراباً، وإلى هذا تشير التوراة فى سفر حجى «فمن أجل بيتى الذى هو خراب، وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته لذا منعت السماوات من فوقكم الندى، ومنعت الأرض غلتها، ودعوت بالحر على الأرض، وعلى الجبال، وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تنبت الأرض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب الديدان» (١).

وفى بداية عام ٥١٩ ق.م بدأ كذلك النبىُّ «زكريا» (٥١٩-٥١٨ ق.م) يتحدث عن رؤياه المسجلة فى (زكريا ١: ٧-٦: ١٥)، وكان زكريا - كما كان حجى (حوالى عام ٥٢٠ ق.م) - يرى ضرورة إعادة بناء المعبد، وهكذا كانت بداية عصر «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ ق.م)، بمثابة عصر جديد بالنسبة إلى يهود، لقد كان «يهوه» رب إسرائيل غاضباً على شعبه إسرائيل، ولكنه كف الآن عن ذلك، وعاد إلى مدينته، غيوراً على شعبه، وانتهت سنين البؤس بلا عودة، وبدأ الأمل يداعب القوم فى مستقبل قريب (٢).

وهكذا كان النبيان - حجى وزكريا - فى انتظار مجيء حكم الرب الذى أُنذرت بقدمه الاضطرابات التى سادت تلك الفترة، وكان مهماً بالنسبة إليهما - إزاء كل تلك الظروف - أن يعاد بناء المعبد، ذلك لأن كلا من النبيين لا يدرك وجود الرب، إلا باتصاله بالمكان المقدس فى أورشليم، وبهذا الاهتمام العقائدى، فإن حجى وزكريا إنما يختلفان عن أنبياء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، ومن ثم فقد حاول حجى - بصفة خاصة -

(١) حجى ١: ٩-١١.

S.A. Cook, op.cit., p. 410.

(٢) زكريا ١: ١٤ وما بعدها ٢: ١ وما بعدها ٤: وكذا:

استئناف العمل فى بناء المعبد فى نهاية عام ٥٢٠ ق.م^(١).

وفى تلك الأثناء أرسلت الحكومة الفارسية «زربابل»^(٢) بن شالتييل الداودى - وهو الحفيد الأكبر للملك «يهوياكين» بن يهوياكين الأكبر «شالتييل» - إلى أورشليم ؛ بوصفه موظفًا فارسيًا، يعمل كحاكم إقليمى فى يهوذا، أو كحاكم تابع يعمل تحت إمرة والى السامرة، وطبقًا لما جاء فى سفر حجى (١ : ١ وما بعدها) فإن «زربابل» بوجه خاص، هو الذى ذكره حجى النبى بإعادة بناء المعبد، وطبقًا لما جاء فى الفقرة (١ : ١٢) من نفس السفر، فإنه هو الذى أمر ببناء المعبد، فضلًا عن أنه الذى ينسب إليه أقصى ما أمكن الوصول إليه من الأمانى، ثم هو كذلك وريث بيت داود، والزعيم فى أورشليم ويهوذا، ولكه فى الوقت نفسه، ليس إلا موظفًا فى الإمبراطورية الفارسية، وطبقًا لنبوات أنبياء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، فهو ملك المستقبل، ويسجل سفر حجى (٢ : ٢٠-٢٣) أن الرب قد اختاره ليصبح «خاتم الله» وأن ذلك ربما يعنى أن «زربابل» فى مملكة الرب سوف يكون مبعوث العناية الإلهية، ورمز قوة يهوه، وخادمه ومختاره، سوف ينال القصر الذى أخذ من جده «يهوياكين» وسيكون المسيح الأمير المسحوق من نسل داود، هذا وقد تابع زكريا حجى فى نبوءاته، فتحدث عن التعويض الإلهى لزربابل، ووضع التاج على رأسه كملك للمستقبل (زكريا ٩٦-١٤) (٣).

وفى الواقع فإن حالة «زربابل» هذه، إنما هى حالة فريدة من أنبياء

M. Noth, op.cit., p. 311-312.

(١) حجى ١ : ١٢-١٤، وكذا:

(٢) زربابل، اسم أكادى معناه «زرع بابل» أو «المولود فى بابل» ابن «شالتييل» (عزرا ٢ : ٣، ٨، ١٢ : ١١ حجى ١ : ١، ١٢، ١٤، متى ١ : ١٢، ١٣، لوقا ٣ : ٢٧). ونستطيع أن نفهم مما ورد فى سفر أخبار الأيام الأول (١٧-١٩) أن شالتييل مات بدون ذرية، ولعل أخاه «فدايا» قد تزوج بامرأته وأقام نسلًا لأخيه حسب التاموس. (ثنائية ٢٥ : ٥-٦)، (انظر : قاموس الكتاب المقدس ١/٤٢٥).

(٣) S. A. Cook, op.cit., p. 411; M. Noth, op.cit., p 312; C. Roth, op.cit., p. 54-55.

يشيرون إلى توقع «المسيا» المنتظر، في شخص تاريخي موجود بينهم، ومن الواضح أن هذا إنما يشير إلى اللهفة الغريبة في البحث عن التغيير النهائي في الموقف التاريخي، وعلى أي حال، فإننا لا نعلم مدى تأثير رؤيا الأنبياء التي عبر عنها حجي وزكريا والأمل المركز في «زربابل»، ولكن من السهل أن نتصور أن فروع الصبر واللهفة كانتا عظيمنتين في أورشليم نفسها، وربما من القبائل التي تقطن الريف كذلك ومهما يكن من أمر، فإن تلك الآمال التي أصبحت معقودة على ملك من نسل داود، يقوم ما اعوج، ويعيد الأمور إلى مجراها القديم، إنما قد أصبحت وبالا على «زربابل» فاختفى فجأة كما اختفى من قبل «شيشبصر»^(١) من مسرح الأحداث بسبب ما يزال موضع خلاف بين الباحثين، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن حاكم السامرة قد علم بما يدور في أورشليم ويهوذا، فأحاط البلاط الفارسي علماً بذلك، وهكذا تم إبعاد «زربابل» على أنه موظف خطير يسعى إلى الاستقلال بإحدى الولايات، ذلك لأن السلطات الفارسية كانت لا تمنع في إعادة بناء المعبد، أما إقامة عرش جديد فأمر يستحق التفكير، بل يستوجب المقاومة ومن ثم فربما تعرض «زربابل» لنهاية عنيفة كعقاب له على تطلعاته الطموح بإقامة عرش جديد في أورشليم، مستقلاً عن الإمبراطورية الفارسية^(٢)، على أن هناك اتجاهًا آخر، يذهب إلى أن اختفاء «زربابل» ربما كان بسبب التنافس بينه وبين الكهنة^(٣).

وعلى أي حال، فلقد نجح «زربابل» في إكمال بناء الهيكل (المعبد

(١) هناك من يرجع أن «شيشبصر» هو «زربابل» نفسه، ومن يرجع أنهما مختلفان، وأن الأول زعيم المائدة في عهد كيروش والثاني في عهد دارا : (قاموس الكتاب المقدس، ٤٢٥/١؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 410.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٥-٤٦٦؛ وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 313; C. Roth, op.cit., p. 55.

S.A. Cook, op.cit., p. 412.

(٣)

الثانى) فى اليوم الثالث من شهر آذار من العام السادس من حكم الملك الفارسى «دارا الأول» (أى فى ١٠ مارس من عام ٥١٥ ق.م)، وكان البناء الجديد أضخم من الهيكل الأول، لكنه كان أقل منه فخامة وتكلفة، وقد استعمل فى تشييده خشب الأرز، ورصع بالجواهر التى تبرع بها السكان، وأعيدت إليه بعض أوانيهِ التى سرقت، غير أن قدس الأقداس كان خالياً لأن «تابوت العهد» كان قد اختفى^(١).

وهكذا أصبح لإسرائيل مركز دينى، يمكن أن تستأنف فيه من جديد تقاليد معبد سليمان، ويدهى أن الحدث إنما كان ذا أهمية حاسمة بالنسبة لمستقبل الحياة فى إسرائيل التى فقدت استقلالها السياسى، وأصبح الكثيرون من أهلها يعيشون بعيداً عن يهوذا، وأصبح التحالف الودى الذى كان يجمع القبائل الاثنى عشر مجرد فكرة، بعد أن كان يعبر عنه فى عصر الملوك فى أورشليم مركز التابوت بأشكال مختلفة، وأما الآن فقد اعتبر معبد أورشليم هو المعبد الوحيد الشرعى، كما أنه أصبح مرة أخرى المركز الحقيقى للحياة اليهودية، وكانت إسرائيل وقت ذاك هى المجتمع الدينى العظيم الذى يتركز حول هذا الخراب^(٢).

على أن هذا لا يعنى أن هؤلاء المتجمعين حول معبد أورشليم يمثلون إسرائيل القديم، صحيح أن الأجزاء الباقية من القبائل القديمة، كانت مازال تعيش فى جهاتها القبلية، ولكن صحيح كذلك أن هناك جماعات أخرى - أصغر أو أكبر - انتشرت فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الفارسية الواسعة، وفيما وراءها، ومن المستحيل إحياء عوامل التحالف القبلى التى كانت محددة فى مظاهر كثيرة منذ تأسيس الملكية، غير أنها سرعان ما ندرت نتيجة

(١) عزرا ٦: ١٥، قاموس الكتاب المقدس ١٠١٤/٢، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 314; C. Roth, op.cit., p. 54; S.A. Cook, op.cit., p. 409.

M. Noth, op.cit., p. 314.

(٢)

الأحداث التي أعقبت منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ولم يعد باقياً، من مخلفات التابوت شيئاً، باستثناء المكان المقدس الذي كان يشغله في الماضي، والذي أصبحت أهميته الوحيدة تنحصر في كونه مكاناً للعبادة وتجمعت إسرائيل حوله كمجتمع ديني في دائرة ضيقة من هؤلاء الذين بقوا في يهوذا، أو الذين عادوا إليها، وفي دائرة أوسع من «الدياسبورا» Diaspora وهم اليهود المقيمون خارج فلسطين^(١).

(٤) نحميا (٤٤٥-٤٣٣ ق.م):

كان نحميا ينحدر من صلب أحد المنفيين في بابل، وقد ساعدته الظروف على أن يعمل في وظيفة حامل الكأس الملكية في المدينة الفارسية «سوسة» (شوشة وشوشان في التوراة)^(٢)، مما ساعده على الاتصال بالعاقل الفارسي «أرتاكزكسيس الأول» (٤٦٥-٤٢٤ ق.م) نفسه، وفي الوقت ذاته تعطينا ظروف «نحميا» هذه مثالا فريداً ومعروفاً لنا عن الوسيلة التي يمكن الحصول بها على اهتمام الملك الفارسي بأمور فلسطين، وربما لم يكن «نحميا» هو المنفى الوحيد الذي وصل إلى منصب ما في البلاط الفارسي.

ونقرأ في التوراة أن بعض العائدين إلى يهوذا ممن كانوا يترددون على «سوسة» - فضلاً عن الزوار والحجاج العائدين من فلسطين - إنما قدموا تقريراً إلى نحميا عن الظروف السيئة التي كانت ماتزال تسود أورشليم، وكيف أن أسوار المدينة المقدسة وبواباتها - فضلاً عن الجزء الأكبر من منازلها - كانت ماتزال خراباً ينشق فيها البوم، والغراب، واستغل نحميا رضى العاقل الفارسي عنه، في السماح له بزيارة القدس، بل وفي إرساله في مهمة رسمية إلى أورشليم ليجدد أسوارها، ومزوداً في الوقت نفسه بخطابات رسمية

Ibid, p. 314-315.

(١)

(٢) نحميا ١ : ١ ، دانيال ٨ : ٢ .

لتسهيل مهمته عند حكام ولايات ما وراء النهر، فضلاً عن المشرفين على الأملاك الملكية لتزويده بالأخشاب اللازمة لعملية البناء، والتي تعاني أورشليم منها نقصاً واضحاً^(١).

وفي شهر نيسان من العام العشرين من حكم «أرتاكزكسيس الأول» (أبريل / مايو عام ٤٤٥ ق.م)، وصل «نحميا» إلى أورشليم بحرس عسكري من الخزانة وضباطها، ولم يظهر نحميا في أورشليم ببعثته الخاصة فحسب، وإنما ظهر بمنصب رسمي «ترشاتا» Tirshata^(٢) أنعم به عليه الملك الفارسي، وبعد ثلاثة أيام من وصوله ركب جواده، ودار حول أسوار المدينة مع بعض المرافقين له، وتأكد أن كل ما سمعه من أخيه «حناني»، ومن العائدين من أورشليم إلى بابل، صحيح تماماً، وأن ما حدث منذ قرن ونصف من خراب وتدمير للمدينة المقدسة، إنما هو باق كما كان، فالحصون قد خربت، والأسوار دمرت والمنازل هدمت ولأبواب في حالة يرثى لها، ومن ثم فقد استدعى نحميا الموظفين البارزين في المدينة، وأبلغهم عن السلطة التي حولها إياه الملك الفارسي، والإجراءات التي سوف يتخذها لإعادة بناء المدينة وصيانتها، وقد استقبلت هذه الأخبار بترحاب شديد من الكهنة والحرفيين، وبدأ الناس في أورشليم يهشون أنفسهم - ما وسعهم إلى ذلك سبيل - لإعادة البناء، كما بدأ العمال يتوافدون على أورشليم من جميع المناطق المجاورة^(٣).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن إصلاحات «نحميا» هذه، من

M. Noth, op.cit., p. 321.

(١) نحميا ١: ١-٢: ١٨، وكذا:

(٢) ترشاتا: منصب أعطي لنحميا من قبل الملك الفارسي «أرتاكزكسيس الأول» أثناء فترة عودة المنفيين من بابل إلى أورشليم، ويمنحه سلطة مدنية كاملة. (نحميا ٨: ٩، ١٠: ٢، وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 238.

(٣) نحميا ١١: ٥، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 58; A. Alt, PJB 24, 1928, p. 91F.

إعادة بناء أسوار أورشليم، وتجديد الحصون، إنما لاقت معارضة شديدة فى داخل أورشليم وفى خارجها^(١)، ففى داخل المدينة المقدسة ومجاوراتها، إنما عارضها بعض وجهاء اليهود المحليين، بسبب النفور الذى ظهر بمجرد عودة المنفيين، بين اليهود الذين بقوا فى فلسطين أثناء السبى البابلى، وأصبحوا يملكون معظم الأراضى الخصبة، وبين القادمين الجدد الذين يملكون توصية من الملك الفارسى بامتلاك هذه الأراضى، وهكذا بدأ النزاع بين القادمين والمقيمين حول امتلاك هذه الأراضى، فضلا عن الاشتراك فى الحياة اليومية، وقد انعكس كل ذلك على مهمة نحميا^(٢).

وأما المعارضة الخارجية فقد تزعمها رجال ثلاثة، جشم الزعيم العربى، وسنبط حاكم السامرة، وطوبيا العمونى، ويشير نحميا فى سفره (٢ : ١٠) أن الأخيرين قد ساء هما كثيرا، أن رجلا جاء يطلب الخير لبنى إسرائيل.

كان «جشم العربى» أول المعارضين^(٣)، وقد اختلف المؤرخون فيه، فمنهم من يرى أنه من السامرة (ربما من القبائل العربية التى هجرها سرجون الثانى إلى السامرة)، بينما يرى آخرون أنه رئيس قبيلة عربية تسكن فى جنوب يهوذا^(٤)، على أن فريقا ثالثا يرى فيه أحد ملوك «قيدار» - وهى مملكة عربية تمتد من حدود مصر الشرقية إلى حدود يهوذا، فجنوب ديدان بحوالى ٢١ كيلو مترا^(٥) - ويظن البعض أن الإناء الذى وجد فى مكان ما، يقع إلى الغرب من مدينة الإسماعيلية بتسعة عشر كيلا، وقد دون عليه اسم

(١) نحميا ٤ : ١-٣٣.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 56.

(٣) نحميا ٤ : ١-٢٣.

(٤) جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/٦٤٧، وكذا:

Encyclopaedia Biblica, p. 1710; J. Hastings, op.cit., p. 162.

(٥) F.V. Winnett, Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Le Luse-on, 1938, p. 307-309; W.F. Albright, New Light on Early Recension of the Hebrew Bible, BASOR 140, 1955, p. 31.

من يدعى «قينو بن جشم ملك قيدار»، إنما يخص ابن جشم المعاصر
لنحميا اليهودي^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فإن جشم العربي هذا، إنما كان يرى أن إعادة بناء
أسوار أورشليم المهدامة، إنما يعنى إعادة دويلة يهوذا من جديد، ثم تنصيب
«نحميا» ملكًا عليها من قبل الفرس، فيه من الخطورة ما فيه على العرب،
ومن ثم فإنه يكتب لنحميا - طبقًا لنص التوراة - «إنك أنت واليهود تفكرون
أن تتمردوا، ولذلك أنت تبنى السور لتكون لهم ملكًا حسب هذه الأمور،
وقد أقمت أيضًا أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين : في يهوذا ملك»^(٢).

وأما «سنبلط» حاكم السامرة، فقد كان يعارض معارضة شديدة في
إقامة أية سلطة في أورشليم، حتى لا تنافس سلطاته يومًا ما، ومن ثم فقد بدأ
يعمل - ما استطاع إلى ذلك سبيلًا - على القضاء على إقامة هذه السلطة
الجديدة، وصلت إلى حد محاولة اغتيال «نحميا» نفسه^(٣).

وتؤكد الوثائق المعاصرة أن موظفي الحكومة الإقليمية في السامرة كانوا
في أورشليم - التي كانت ماتزال مع إقليم يهوذا تابعة لحاكم السامرة
الفارسي - بسبب إعادة بناء أسوار أورشليم، وأنهم قد أرسلوا تقريراً إلى الملك
الفارسي - ربما عن طريق الحاكم الفارسي لبلاد ما وراء النهر - مشيرين
فيه إلى أن أورشليم مدينة متمردة منذ زمن قديم، وستكون - إذا ما أعيد
تجديد أسوارها - تهديدًا لأمن وسلامة الإمبراطورية الفارسية.

وفي الواقع فلقد كان حاكم السامرة - مدينة إسرائيل الملكية القديمة
- ينظر إلى إحياء مدينة اليهود الملكية القديمة بقلق شديد، خوفًا من أن
تصبح منافسًا خطيرًا لمدينته، وهكذا - ونتيجة للتقرير الذي أرسله موظفوه إلى

(١) W. Culican, The Medes and Persians, London, 1965, p. 151.

(٢) نحميا ٦ : ٦-٧.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 56-59.

العاهل الفارسي «أرتاكزكسيس الأول» (أرتخششتا الأول) - أوقف العمل في إعادة بناء أورشليم حتى إخطار آخر، في قرار أرسله الملك الفارسي إلى السامرة^(١).

وبدهى أن المنفيين من يهود لم يستسلموا لقرار إيقاف العمل في تجديد المدينة وبذلوا جهودهم - بقيادة نحemia - في الحصول على أمر من العاهل الفارسي، لا باستمرار العمل في تجديد أسوار أورشليم فحسب، بل وفصل ولاية أورشليم ويهوذا عن ولاية السامرة، وبدأ نحemia في تحقيق أهدافه سرا، حتى لا يتعطل مشروعه مرة ثانية بجهود «سنبلاط» (Sanbal-lat)، فضلا عن العرب والعمونيين والأشوديين والفلسطينيين، وهكذا فكر نحemia في أن ينجز مهمته، قبل أن ينجح جيرانه في إعاقته عن العمل، فقسم السور إلى قطاعات عهد بكل قطاع إلى مجموعة معينة، فعهد إلى الكهنة ببناء «باب الضأن»، وإلى «بنو هسناة» «باب السمك»، و«الباب العتيق» إلى «يوياداع بن فاسج ومشلام بن بسوديا»، و«باب الوادي» إلى «حانون وسكان زانوح» و«باب العين» إلى شلون بن كلحوزة رئيس دائرة المصفاة... وهكذا^(٢).

هذا، وقد أثار هذا العمل - بادئ ذي بدء - احتقار الجيران في السامرة ومنطقة العمونيين في شرق الأردن، ولكن حينما تم بناء نصف السور، حاول الجيران أن يعطلوا العمل عنوة، ومن ثم فقد صدرت الأوامر من حاكم السامرة وعمون بالقيام بهجوم مفاجئ على أورشليم، غير أن يهود الحدود سرعان ما أحاطوا نحemia علما بكل ذلك، مما اضطر المهاجمون إلى إيقاف خططهم تجاه أورشليم، وفي نفس الوقت فقد أدرك نحemia أنه لن يستطيع إنجاز مهمته إلا تحت حراسة تامة، وهكذا جاء وقت كانت الفرق

M. Noth, op.cit., p. 322-323.

(١)

(٢) نحemia ٣: ١-٣٢.

المتطوعة لتعمير أورشليم مضطرة إلى مباشرة عملها تحت حماية جماعة من المسلحين، حتى لا يباغتهم هجوم مفاجئ يقضى عليهم، ورغم هذا الجو الذى يحيطه الرعب، ورغم التهديد المستمر بأن عملهم هذا، إنما يعنى بطريق غير مباشر، التمرد ضد السلطة الحاكمة، ورغم اضطرابهم إلى التوقف عن العمل فى بعض الأحيان، فقد أنجز رجال نحميا مهمتهم فى فترة قصيرة - فى اثنين وخمسين يوماً^(١).

على أن السرعة التى تمت بها إقامة الأسوار، إنما دفعت بعض الباحثين إلى القول، بأنها لا تعدو أن تكون تجديدًا لأسوار قديمة، ذلك لأن وصف تصميم المدينة قبل السبي، وما كتبه عنه المنفيون فيها، إنما يشير إلى أن دائرة الأسوار التى كانت تحيط بالمدينة إنما كانت ٤٠٥٠ مترًا، وليس هناك من حل مقبول ومعقول لتفسير بناء مثل هذه الأطوال من السوار فى ٥٢ يومًا، إلا أن تكون الأسوار القديمة كانت قائمة، وأن الأمر لم يكن إلا ترميم بعض الثغرات، مع التركيز على المداخل، وتشير الحقيقة الجديدة إلى أن الدائرة يحتمل أن تكون ٢٦٠٠ متر فقط، وإذا كانت النهاية الشمالية للجبل الغربى تتمثل فى هذه الدائرة فعند ذلك يصل محيطها إلى ٤١٥٠ مترًا، وما زالت تسجيلات الكتاب المقدس تفيد أن الكثير من العمل كان ترميمات فى الأسوار الشرقية^(٢).

وعلى أى حال، فلقد بدأ السكان يتوافدون إلى أورشليم للإقامة فيها، ولكن فى فترات متباعدة، وبأعداد قليلة، هذا فضلًا عن أن المدينة المقدسة، والتى ظلت فترة طويلة خراب غير محمية، لم تكن إلا بأعداد قليلة، ومن ثم فقد اضطرت نحميا رغبة فى حماية أورشليم من أى غزو قد تتعرض له بسبب قلة المدافعين عنها، أن يجرى قرعة بين الأسر التى كانت تشتغل

(١) نحميا ٦: ١-٧؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 324; C. Roth, op.cit., p. 58-59.

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٠٣-١٠٤.

بزراعة الأرض في مجاورات العاصمة، لاختيار أسرة من بين كل عشرة أسر، للانتقال إلى العاصمة والإقامة فيها، فضلاً عن الدفاع عنها ضد أى غزو قد تتعرض له بين آونة وأخرى، وعندما تم ذلك قام اللاويون بتدشين سور أورشليم الجديد^(١).

وهكذا رتب نحميا الأسوار لمدينة جديدة مسورة، تحرس بعناية تحت قيادة «قائد الحصن»، وكانت البوابات التى حول المدينة تغلق تماماً عند حلول الظلام ولا تفتح إلا فى صباح اليوم التالى، وبذا تحولت إقامة اليهود فى فلسطين من كونها تكريماً لجاليات يهودية مهجرة، إلى اعتبارها نشأة جديدة لولاية تعيش خلف أسوار، يجب على من بداخلها أن يكونوا دائماً متحفزين لصد أى غزو قد يتعرضون له، فضلاً عن كونها مركزاً جديداً، ومقرّاً للحكومة^(٢).

وانتهج نحميا - بعد تأمين العاصمة - بحماس شديد إلى بناء المجتمع الجديد، وكانت هذه الفترة من أكثر فترات الضغط الاقتصادى والمعاناة، ومن ثم فقد اضطر كثير من أفراد الطبقة الكادحة - رغبة فى الوفاء بالتزاماتهم - إلى رهن أملاكهم إلى من يملكون المال، وتعرض المعسرون منهم لمصادرة أملاكهم وفاء لديونهم، بينما لجأ المعدمون إلى بيع أبنائهم كعبيد، للحصول على ثمن يبيعهم لسداد ما عليهم من التزامات^(٣)، غير أن هذا إن كان فيه شبهة من شرعية دينية عند يهود^(٤)، فإن هناك أمراً آخر لجأ إليه القوم فى هذه الفترة تحرمه شريعة يهود، وهو «الربا» الذى انتشر بين الطبقات اليهودى المختلفة^(٥).

C. Roth, op.cit., p. 56.

(١) نحميا ١١: ١-١٢: ٤٧، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 324; C. Roth, op.cit., p. 59.

(٢)

C. Roth, op.cit., p. 60.

(٣)

(٤) خروج ٢١: ٧-١١، تثنية ١٥: ١٢-١٨.

(٥) ٢٢: ٢٤، تثنية ٢٣: ٩-٢٠، ٢٤: ١٠-١٢.

وقد دفع ذلك كله «نحميا» إلى أن يعقد اجتماعاً عاماً من الأغنياء، ويخبرهم فيه على جشعهم هذا، مما أدى إلى أن يقبل معظمهم إعادة الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها، والأموال التي تقاضوها من المعسرين في مقابل تأخير سداد الديون، وكعامل من عوامل تحصين ظروف البلاد المعيشية، فقد تنازل نحميا عن حقوقه في الجزية التي فرضها الحكام السابقون، كما كان من نتائج الاتفاق الذي تم في الاجتماع الذي عقد مع الأغنياء، الالتزام بشدة بتعليمات «السبت»، والتي يتم بموجبها إغلاق بوابات مدينة أورشليم منذ غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت، وإيقاف البيع والشراء خلال هذا اليوم، واتخاذ أعنف الإجراءات ضد المخالفين لهذه التعليمات وكلف بعض ضباطه بمراقبة التنفيذ^(١).

وفي العام الثاني والثلاثين من حكم «أرتاكزكسيس الأول» (أى في عام ٤٣٣ ق.م) - وبعد كفاح ونشاط متواصل طيلة اثني عشر عاماً - استدعى نحميا إلى «سوسة»، وقد أدى ذلك إلى إعادة العلاقات مع القوى المناوئة لأورشليم في السامرة، والتي كان كبار القوم من يهود على صلة دائمة بها، كما بدأت عملية تزواج بين الاثنين على نطاق واسع، بحيث كان يبدو واضحاً لكل ذى عينين، ما كان يخشى عليه من اندثار المتحدثين باللغة العبرية، وقد صرح كبير الكهنة «الياشيب» لواحد من أحفاده بالزواج من إحدى بنات «سنبلط» حاكم السامرة، كما سمح لسكرتير هذا الحاكم ويدعى «طوبيا» بأن يشغل غرفة في المعبد عند زيارته لأورشليم^(٢).

وهكذا كانت التقارير التي جاءت إلى نحميا في «سوسة»، سبباً في عودته مرة أخرى إلى أورشليم بعد غيبة طويلة تقدم خلالها في السن كثيراً، وإن لم يفقد الكثير من همته ونشاطه على ما يبدو، وعلى أى حال، فلقد

C. Roth, op.cit., p. 60.

(١)

Ibid, p. 61.

(٢)

طرد «طوبيا» من الغرفة التي كان يحتلها في المعبد، وأعيد استعمالها في الغرض الذي كانت مخصصة له، وقام نحميا بإجراءات مشددة ضد عقود الزواج الكثيرة التي تمت بين اليهود وبين أفراد من الشعوب المجاورة، وذلك ليس بفسخ هذه العقود وإنما بتعهد اليهود بعدم السماح لأبنائهم بتكرار مثل هذا الزواج بعد ذلك أبداً، واشتد في جمع ضريبة العشر المستحقة للمعبد، وعين مفتشين للإشراف على جمعها، وإعطائها للاويين حتى يتفرغوا لواجباتهم الكهنوتية وعدم العمل في الحقول، وأما «راحة يوم السبت» والتي أهملها القوم في العاصمة وفي القرى المجاورة، حتى أن الناس يأتون يوم السبت مع حميرهم للبيع، وكان تجار صيدا الذين استوطنوا أورشليم يبيعون السمك الذي كانوا يأتون به من شاطئ البحر المتوسط - مع السلع الأخرى - لا يهتمون أبداً بيوم السبت، فأصدر نحميا أوامره بإغلاق السوق في يوم السبت، بل وبعدم فتح أبواب المدينة طوال هذا اليوم، - كما فعل من قبل - (١).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن اليهود قد تمتعوا في عهد «زربابل» و«نحميا» بامتياز الحكم الذاتي، ولكن اللغة العبرية في عهدهما لم تستعمل كلغة دارجة، وذلك ليس في مواطن سبي اليهود فحسب، وإنما في يهوذا كذلك، وقد حلت محلها اللغة الآرامية، وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية، واستعمل اليهود الآرامية في مراسلاتهم الرسمية (٢).

(٥) عزرا:

تروى التوراة أن «عزرا» (٣) يسبق «نحميا»، من الناحية التاريخية، إذ أنه

(١) نحميا ١٣ : ٤-٣١، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 61; M. Noth, op.cit., p. 329.

(٢) نحميا ١٣ : ٢٤، عزرا ٤ : ٣١، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٣) عزرا : هو ابن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شلوم بن صادق بن أنخيطوب بن أمريا بن عزريا بن مزأيوث بن زرحيا بن عزى بن بقى بن أيشوع بن فينحاس بن لعازار بن هارون الكاهن الرأس (أى هارون النبی شقيق موسى النبی عليهما السلام). (عزرا ٧ : ١-٤).

جاء إلى أورشليم في أول الشهر الخامس من السنة السابعة للملك «أرتاكزكسيس»^(١)، فإذا كانت تعني «أرتاكزكسيس الأول» فإنه يكون قد وصل إلى أورشليم في حوالي عام ٤٥٨ ق.م، وبالتالي يكون سابقاً لنحميا، غير أن العلماء - ومنهم أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل^(٢)، ومارتن نوث^(٣)، وستانلي كوك^(٤)، ووليم أولبرايت^(٥)، وجاك فنجان^(٦)، و«وولي»^(٧) وغيرهم - إنما يجمعون على أن عزرا إنما جاء بعد نحميا، وربما جاء في السنة السابعة عشرة من عهد «أرتاكزكسيس الثالث» (أى في عام ٣٩٨ ق.م)، ذلك لأن ما كتبه كل منهما على حده - كما يقول أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل^(٨) - يشير إلى أن عمل كل منهما مستقل عن عمل الآخر، وليس هناك ذكر لواحد من عادوا مع عزرا، يشير إلى أنه عاون نحميا في بناء الأسوار، هذا إلى أن عزرا يتنبأ بعمل نحميا، فهو لا يذكر بناء المعبد وحده، بل يشير كذلك إلى الأسوار، وإنا لنرى أن نحميا يحرم الزواج بالأجنبيات مستقبلاً ولا يفرض إلغاء الزيجات القائمة فعلاً - كما رأينا من قبل - بينما يطلب عزرا إلى اليهود تطليق الزوجات الأجنبيات وهو أمر لاحق للأمر السابق، حين رؤى أنه غير كفيل بمعالجة الأمر، وأخيراً فإن بردية «إليفانتين» تشير إلى كبير كهنة يدعى «يوجانان» كان معاصراً لعزرا

(١) عزرا ٧: ١، ٨.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 230.

(٤) S.A. Cook, op.cit., p. 413.

(٥) W.F. Albright, The Archaeology of Palestine and the Bible, p. 169F.

(٦) J. Finegan, op.cit., p. 239.

(٧) H.H. Rowley, The Servant of the Lord and Other Essays on the Old Testament, 1952, p. 131-159; BJRL, 38, 1955, 166-198; Norman H. Snaith, Zaw, 636, 1951, p. 53-66.

(٨) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٤٠٨ ق.م)، ويوحانان هذا هو حفيد «الياشيب» المعاصر لنحميا، والذي كان يرتبط طويلا العموني به برابطة نسب^(١).

وعلى أى حال، فعزرا هذا إنما هو كاهن أرسل من بابل إلى أورشليم، ومن الواضح أنه من مجموعة المنفيين، وربما كان ينتمى إلى مجموعة «الصدوقيين» الذين كانوا قد أتوا إلى أورشليم من قبل، وإن مهمته إنما كانت تعتمد إلى حد كبير على شخصيته، فضلا عن بعض الأشخاص ذوى النفوذ فى محيطه، وبدهى أنه نظراً للموقف المضطرب فى أورشليم، فإن عزرا عندما وصل إليها إنما كان مزوداً بتعليمات رسمية، اقترحها بعض المقربين إليه من المنفيين، وربما ارتبطت مهمة عزرا هذه بمهمة نحميا الثانية، بل ينبغى أن ترتبط بها، وأن تكون الحادثتان متقاربتين، لو كان عزرا حقيقة قد تلى نحميا فى مهمته^(٢).

وأيًا ما كان الأمر، فإن عزرا إنما قد تلقى تفويضاً خاصاً لمهمة خاصة، الأمر الذى يبدو بوضوح فى نص عزرا (٧: ١٢)، والذى يشير إلى أنه - إلى جانب لقب «الكاهن» الذى حمله فى مجتمع أورشليم الدينى - فقد حمل كذلك لقب «كاتب شريعة إله السماء»، والذى حاول كاتب الحوليات العبرانى أن يفسره بأنه «كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل»^(٣)، ومع ذلك، فطبقاً لما ورد فى عزرا (٧: ٢) ونحميا (نحميا ٨: ١ وما بعدها) فإنه اختار لقب «عزرا الكاتب»، والتطور فى المعنى من كلمة «Sofer» أدى فى النهاية إلى فكرة «عزرا المفسر العالم»، وفى الواقع فإن لقب عزرا الرسمى هذا كان اصطلاحاً فنياً فى اللغة الآرامية الرسمية، للإمبراطورية الفارسية لم يكن يقصد به أن يوصف عزرا، ككاتب لشريعة

(١) عزرا ٧: ٧، ٩: ٩، ١٠: ٣، ٦: ١٣، ٤: ٧، ٢٨: ٣، نحميا ٣: ١٣، ٢٣: ٢٣، نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

M. Noth, op.cit., p. 331.

(٢)

(٣) عزرا ٧: ٦.

السماء»، أو «خبير عالم ومفسر لهذا القانون»، وفي اللغة الرسمية كانت الكلمة الآرامية «كاتب» تعبيراً شائعاً لموظف ذي اختصاص رسمي، وهكذا كان عزرا موظفاً لشرعة إله السماء، أو - لأن مهمته لا تنكر - مفوض من قبل الدولة لشرعة إله السماء^(١).

وليست لدينا معلومات مؤكدة عن كيفية تنفيذ عزرا لمهمته، وكل ما نعرفه أنه قد حصل - بمناسبة سفره إلى أورشليم - على بعض الحقوق الإضافية التي صيغت في صورة تعليمات رسمية، وبما أن الرجل كان جداً مهتماً بتقوية نفوذ جماعة البابليين من المنفيين الذين وقفوا إلى جواره، فقد كان شديد الرغبة على أن يأتي معه بجماعة من هؤلاء المنفيين، وهكذا سمح العاهل الفارسي لمن يرغب منهم في العودة إلى يهوذا بأن يفعل ذلك، واستغل عزرا ذلك إلى حد كبير، فجدد منهم الأعداد التي يريدونها، هذا فضلاً عن أنه نظراً للظروف السياسية والاقتصادية السيئة في ولاية يهوذا المنكوبة - كما وصفت بوضوح في ذكريات نحميا - فقد أراد عزرا أن يأخذ معه قدرًا من المال ليستعين به على أداء مهمته، ومن ثم فقد حصل من الملك الفارسي - وكذا من مستشاريه الكبار - على نذر خاص يهوه رب إسرائيل، الساكن في أورشليم، هذا فضلاً عن التصريح له بجمع التبرعات من ولاية بابل، وأخذ الأواني لخدمة المعبد هناك في أورشليم، هذا إلى جانب تجديد الامتياز الذي أصدره الملك الفارسي «دارا الأول»، والذي ينص على أن نفقات القرايين الخاصة بمعبد أورشليم إنما تؤخذ من الإيراد العام للدولة، وأخيراً الإعفاء الكامل لكل هيئة المعبد من الضرائب، وبهذه الامتيازات الرسمية جميعها ذهب عزرا إلى أورشليم مع حاشيته^(٢).

M. Noth, op.cit., p. 331-332.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 333-334.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ١٦٢٠/٢، وكذا:

ومع ذلك كله، فالذى نعرفه بالتأكيد عن نشاط عزرا فى أورشليم، إنما كان مشكلة «الزواج المختلط» بين يهود وجيرانهم، ومن المستحيل القول: هل كان من حق عزرا أن يهتم بنفسه بمشكلة الزواج المختلط بين نحميا الذى يفترض أنه قد سبقه فى متابعته؟ والتى أصبحت - كما تشير نصوص التوراة - مشكلة خطيرة، يقول سفر عزرا: «لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأرض حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والأموريين، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيتهم، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى، وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة أولاً»^(١).

ويستمر الإصحاح التاسع هذا من سفر عزرا معلناً ألم صاحبه من هذه الخيانة لرب إسرائيل قائلاً: «اللهم إني أخجل وأخزي من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤسنا، وآثامنا تعاظمت إلى السماء، منذ أيام آبائنا نحن فى إثم عظيم إلى هذا اليوم»^(٢)، ذلك لأن ربهم «يهوه» إنما قد حذّرهم من مصاهرة الأمم الأخرى، ولكنهم إنما كانوا دائماً وأبداً يصاهرون هذه الأمم^(٣).

ويروى الإصحاح العاشر من سفر عزرا بقية الرواية، فنرى عزرا يصلى ويعترف «وهو باك وساقط أمام بيت الله»، ثم «اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جداً من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكى بكاء عظيماً» «لأننا قد خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض»^(٤)، ثم يستمر سفر عزرا فى الرواية قائلاً: «أطلقوا نداءً فى يهوذا وأورشليم إلى جميع بنى السبي لى يجتمعوا إلى أورشليم، وكل من لا يأتى فى ثلاثة

(٢) عزرا ٩: ٦-٧.

(٤) عزرا ١٠: ٢١.

(١) عزرا ٩: ١-٤.

(٣) عزرا ٩: ١٤.

أيام حسب مشورة الرؤساء والشيوخ يحرم كل ماله، وهو يفرز من جماعة أهل السبى، واجتمع كل رجال يهوذا وبنيامين إلى أورشليم فى الثلاثة الأيام، أى فى الشهر التاسع فى العشرين من الشهر، وجلس جميع الشعب فى ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار، فقام عزرا الكاهن، وقال لهم: إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم، واعملوا مرضاته، وانفصلوا عن شعوب الأرض ومن النساء الغريبة، فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم: كما كلمتنا كذلك نعمل، ويجتمع عزرا ورؤساء بيوت إسرائيل لعمل إحصاء لكل من صاهر غير الإسرائيليين، وانتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة فى اليوم الأول من الشهر الأول... فوجد من بين الكهنة من اتخذ نساء غريبة^(١)، ومن اللاويين ومن المنفيين، وكل هؤلاء قد اتخذن نساء غريبة ومنهن نساء قد وضعن بنين^(٢).

ويرى البعض أن عزرا قد استصدر أمراً من ملك الفرس أسبغ به على التشريع صفة الإلزام، واستخدم القوة فى هدم الزيجات المختلطة القائمة، وشتت الأسر بالعنف، وشرّد الأطفال الأبرياء، وتم كل ذلك باسم الدين، لاستئصال الرجس من بنى إسرائيل، وفى ذلك نرى عزرا يفوق نحميا الذى اكتفى بلعن هؤلاء الأزواج وجلدهم ونزع شعورهم، ثم استحلفهم بالله قائلاً: لا تعطوا بناتكم لبنينهم، ولا تأخذوا من بناتهم لبنينكم ولا لأنفسكم^(٣).

وكانت المهمة الثانية - والأكثر أهمية - لعزرا، هى : إعلان الشريعة

(١) عزرا ١٠: ٧-١٢.

(٢) عزرا ١٠: ١٦-٤٤.

(٣) ثروت الأسىوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية بنو إسرائيل، ص ١٨١. (نقلا عن مكس فيير، فى مقالاته عن سوسولوجيا الأديان، ٢٦٦/٣).

التي أحضرها معه من بابل في اجتماع وقور وخطير، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه «سفر شريعة موسى»^(١)، وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرأون عليهم ما تحويه ملفات هذا السفر، ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع، ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه، ومبادئ خلقية يسرون على هديها، ويطيعونها إلى أبد الأبدين^(٢).

ولعل السؤال الهام والصبب الآن: من أين أتت شريعة رب السماء هذه، التي كانت بين يدي عزرا؟ وما هي موادها؟ علماً بأنه لا توجد أية إشارة إلى ذلك في تعليمات عزرا الرسمية، أو في الرواية المتأخرة التي جاء بها كاتب الحوليات العبراني.

وفي كل الاحتمالات الممكنة أن هذه الشريعة قد جمعت وظهرت بين جماعات البابليين من المنفيين، ثم أصبحت أمراً ملزماً لكل إسرائيل عن طريق سلطة الدولة الفارسية، وقد كانت - فيما عدا نبوءة إشعياء الثاني - من أكثر الأمثلة أهمية في حياة إسرائيل^(٣)، وعلى أي حال، فإن شريعة عزرا هذه هي القانون الكهنوتي (أو جزء من القانون كان موجوداً مع السبي في بابل)، وأضيفت إليه إضافات بها بعض الشرائع، وبها بعض قصص الآباء،

(١) سفر شريعة موسى: ليس هناك في التوراة الحالية من الأسفار ما يحمل هذا الاسم، ولعله من الأسفار الخفية أو المفقودة، إذ أن هناك من أسفار التوراة ما قد فقد، ولم نستطع الحصول عليها حتى الآن، ربما لأنها من الأسفار الخفية، وربما لأنها فقدت حقيقة، وربما لأن اليهود - عندما كتبوا التوراة - نقلوا منها ما يريدون، ثم تصرفوا فيما لا يريدون بطريقة أو بأخرى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك (سورة البقرة، آية: ١٥٩، سورة المائدة، آية: ١٥، سورة الأنعام، آية: ٩١)، ونستطيع أن نذكر من بين هذه الأسفار الخفية أو المفقودة عدداً ليس بالقليل، تردد ذكره في ثنايا التوراة الحالية، وإن كنا لا نعرف عنها أكثر من أسمائها. (انظر: كتابنا «إسرائيل»، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣، ص ٩٥-٩٧).

(٢) نحميا ٨: ١-١٨، ول ديورانت، قصة الحضارة، ٣٦٦/٢.

M. Noth, op.cit., p. 335.

(٣)

وكلها تعنى اليوم محتويات ناموس موسى (أسفار موسى الخمسة) ، هى أساس الدين اليهودى^(١) ، ومن هنا نظر القوم إلى عزرا على أنه «موسى الثانى» ، ويعتقد اليهود أنه هو الذى جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها ، كما يزعمون أنه هو الذى حمل إلى فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل ، والمعروفة بالخط الآشورى ، والتي مهّدت لنشوء الأبجدية العبرانية الحالية^(٢) .

وأيما ما كان الأمر ، فإن من الأمور التى لا تقبل كثيراً من الجدل ، أن قراءة التوراة علناً ، إنما قد عرفت قبل عهد عزرا ، ولكن الشئ الجديد فى أيام عزرا ، إنما كان الشرح الذى يتبع القراءة ، وكان هدف عزرا من ذلك هو وضع التوراة فى مركز السلطة العليا ، وليجعل القوم يضعون قوانينها نصب أعينهم ، ومن ثم فإن مجهود عزرا إنما قد أخرج التوراة عن كونها تختص طبقة واحدة إلى جعلها فى متناول يد كل من يرغب فى تعلمها^(٣) .

وهكذا يمكننا القول ، أنه مع وجود عزرا ، إنما زادت وقويت تعاليم التوراة Torah فى نفوس اليهود بمساعدة السلطات المدنية ، كما أقيمت المعابد فى عدة مواقع بتشجيع من يهود المنفى ، وكان هذا هو أساس فيما عرف من بعده بـ «المعبد» - والذى يمثل الكنيسة عند المسيحيين ، والمسجد عند المسلمين - كمكان للعبادة ، وتعتبر هذه الخطوة من أهم مساهمات الإسرائيليين تجاه المدينة ، ولم تكن التوراة تتلى فقط فى هذه المعابد ، وإنما كانت تشرح وتفسر كذلك ، وهكذا أخذ دور المعلم يصبح له أهمية أخذت تتزايد بمرور الزمن ، حتى أصبحت تفوق مكانة الكهنة ومساعدتهم فى إدارة المعبد إلى حد ما ، ولم تكن النظرة إلى التوراة فى ذلك الحين على أنها

(١) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص ٤٧٠ .

(٢) قاموس الكتاب المقدس ، ٦٢١/٢ .

I. Epstein, op.cit., p. 84-85.

(٣)

دستور جاف المواد، وإنما اتخذت أساساً للحياة الإنسانية، وعماداً لتصرفات القوم في كل مناحي الحياة، ومن ثم فقد أخذ القوم يتمسكون بتعاليمها بصرامة، وينفذون ما تنص عليه حرفياً، وكان اليهود قد عادوا من المنفى نصف متعلمين، وإن كانوا مختلفين في عقائدهم وعقائد نسائهم، غير أنهم كانوا مترابطين ومتسامحين، وكانت مثلهم العليا تتمثل في شرائعهم الدينية^(١).

وهكذا بدأ القوم في ممارسة الطقوس على النظام القديم، ومراعاة «السبت» والعبادة والختان، التي غدت جميعاً بعد هذه المرحلة أموراً يجب اتباعها، كما عملت في الوقت نفسه على ربط ما كان قد انفردت من عقدهم، ونأت بهم عما كادوا يتردون فيه من ضباب الوثنية، الآخذ بخناقهم، والمحيط بهم من كل ناحية، وقربتهم إلى فكرة التوحيد، وباعدت ما بينهم وبين الشرك، وأعطتهم الأمل في بعث ونشور، وحساب من ثواب أو عقاب^(٢).

٦ - السامريون:

ظهر السامريون كقوة لها تأثير خطير في الديانة اليهودية، ومعادى لسكان أورشليم، بعد العودة من السبي البابلي في عام ٥٣٩ ق.م، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى إعادة بناء المعبد، وتجديد أسوار أورشليم، حتى انتهى الأمر إلى انفصال ديني تام بين مجتمع الشمال ومجتمع أورشليم، حيث أقيمت شعائر عبادة سامرية على جبل «جرزيم» المقدس على مقربة من شكيم في أثناء حكم «أنطيوخس الرابع أيفانس» (١٧٥-١٦٤ ق.م) ومنفصلة عن معبد أورشليم.

C. Roth, op.cit., p. 62.

(١)

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧٠.

وفى الواقع أن هذا الانفصال لم يبدأ فجأة، وإنما كانت له جذوره التاريخية البعيدة، كما أن عصر «أبيفانس» لا يعنى تحديد تاريخ دقيق لهذا الانفصال وإن كانت قد تمت فيه نهاية نزاع طويل بين سكان الشمال والجنوب، بدأ على الأقل منذ أيام «داود» عليه السلام (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)، حيث كتبت السيادة فيها لليهوديين على الإسرائيليين - كما سوف نرى فيما بعد - وبعد موت ولده سليمان، عليه السلام فى عام ٩٢٢ ق.م، أبقت مملكة يهوذا الجنوبية - داخل مجال نفوذها، وفى مدينتها الملكية أورشليم - التابوت القبلى القديم الذى كان يشكل المركز الدينى لكل تحالف القبائل الإسرائيلية، وبالتالى فقد كان معبد أورشليم مزاراً لكل قبائل إسرائيل، ومن ثم فقد حاول ملوك الشمال منافسة محراب أورشليم بإقامة محاريب أخرى فى بيت إيل ودان، فضلاً عما أقيم فى الجلجال وشيلوه وشكيم، واستمر الأمر كذلك حتى انتهت دويلة إسرائيل على أيدي الآشوريين فى عام ٧٢٢ ق.م، ونجح «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) فى إلغاء مراكز العبادة المحلية فى ولاية إسرائيل التى ضمها إليه، ومن ثم فقد عادت إلى أورشليم مكائنها السابقة، وأصبح محرابها هو المكان الدينى الوحيد لهياكل بنى إسرائيل جميعاً، حتى أننا نرى بعد تدمير معبد أورشليم فى عام ٥٨٧ ق.م، مجموعة من الرجال قد أتوا من شكيم ومن شيلوه ومن السامرة لتقديم قرابينهم إلى بيت الرب فى أورشليم^(١).

غير أن التناقضات القبلية بين الشمال والجنوب، كانت مازال تعيش تحت السطح، ولا تحتاج إلا لما يحركها، وكان المحرك الجديد هو إعادة بناء المعبد بعد قرار كيروش الثانى المشهور، ويبدو أن الذى بدأها هذه المرة هم يهود الجنوب، الذين نظروا إلى المعبد، وكأنه ملك خاص لهم، وأن إعادة بنائه إنما تقع على عاتقهم دون سواهم من سكان الولايات الإسرائيلية

(١) ملوك أول ١٢ : ٢٥-٣٣، إرميا ٤١ : ٤-٥، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 352-353.

الأخرى، الذين طلبوا أن يقوموا بواجبهم نحو إعادة بناء المعبد، ولكن يهود السبي إنما كانوا ينظرون إلى سكان الولايات هؤلاء، على أنهم غير متطهرين دينياً، بعد أن اختلطوا بغيرهم من الأقوام غير اليهودية، نتيجة حركة التهجير والاستيطان التي قام بها سرجون الثاني الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ ق.م.)، فضلاً عن الزواج المختلط، وعلى أى حال، فهكذا نظر إليهم «حجى» فى سفره (٢: ١٠-١٤)، أو أن يهود السبي البابلى، والذين أثروا فى مجرى الأحداث إبان فترة ما بعد العودة من السبي بسبب اتصالهم بالبلاط الفارسى، إنما نظروا إلى إعادة بناء المعبد على أنه أمر يهودى صرف، وربما كان النزاع السياسى القديم بين اليهود والإسرائيليين ما يزال يلعب دوراً فى هذه الفترة، كما يظهر ذلك من موقف زربابل ونحميا منهم^(١).

هذا وقد رأينا «نحميا» يطرد حفيد كبير الكهنة الذى تزوج من ابنة «سنبط» ويذهب المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» إلى أن اسمه «منسى» وأن «سنبط» عوضه عن فقدانه لميراثه الكهنوتى فى أورشليم ببناء معبد على جبل «جرزيم» أصبح منسى الكاهن الأكبر له^(٢)، ولدينا ما يشير إلى أن أهل إلفنتين قد حجوا إلى أورشليم وإلى معبد سنبط على السواء فى عام ٤٠٨/٤٠٧ ق.م، مما يشير إلى أن شقة الخلاف لم تكن قد اتسعت كبيراً فى هذه المرحلة^(٣).

ويحكى المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»^(٤) عن تقدم الإسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ ق.م) عبر سورية وفلسطين، وكيف أن كاهن أورشليم

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١/٤٥٠، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 353-354; ANET, p. 284; N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge, N.Y., 1964, p. 126.

(٢) يرجع يوسف اليهودى هذا الحادث إلى عهد الإسكندر، كما سوف نرى حالا.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧١.

Josephus Flovius, Antiquities of the Jews, XI, 8, 3-7.

(٤)

قد تحدى الغازى المقدونى، إخلاصاً منه للإمبراطورى الفارسى «دارا الثالث» (٣٣٥-٣٣٠ ق.م)^(١) بينما قدم له حاكم السامرة ولاءه التام، فضلاً عن طلبه السماح له بتشديد محراب يكرسه للغازى الجديد، الأمر الذى وافق عليه الإسكندر فوراً، غير أن القصة - كما رواها المؤرخ اليهودى - إنما تمتلئ بتفاصيل أسطورية، فضلاً عن تقديمها لكل الشخصيات مثل «سنبط» حاكم السامرة، الذى لم يكن يعيش فى هذه الفترة، بالإضافة إلى نجاة أورشليم من تدمير الغازى الجديد، بطريقة تشبه المعجزة^(٢).

ومن هنا فإن كثيراً من المؤرخين إنما يرفضون رواية يوسف اليهودى عن زيارة الإسكندر لأورشليم، التى تفرد بذكرها دون غيره من المؤرخين - سواء أكانوا من الإغريق أم الرومان - الذين كتبوا عن حملة الإسكندر فى سورية وفلسطين، ومن ثم فإن ما ذكره يوسف هذا عن الإسكندر لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب الدعاية التى حذقها اليهود فى العصرين الهلينستى والرومانى، وعملوا على ترويجها دون أى اهتمام بالحقائق التاريخية^(٣).

(١) تذهب رواية يوسف اليهودى إلى أن الإسكندر عندما كان يحاصر «صور» بعث إلى الحبر الأعظم فى أورشليم يطلب إليه أن يمدّه بجند يمينونه على حصارها، فأبى عليه ذلك تعبيراً عن ولائه للملك دارا الثالث، فثار الإسكندر وأقسم أنه سيعطى يهود أورشليم - فى شخص جبرهم - درساً لن ينسوه، وعندما تقدم الإسكندر إلى أورشليم بعد إشتيلائه على غزة، أوجس الحبر الأعظم منه خيفة، ولكن أوحى إليه أن يتخذ هو وزملاؤه الأحبار ملابس بيضاء وأن يكونوا فى استقبال الإسكندر خارج المدينة، وما أن رأى الإسكندر الحبر حتى هرع إلى تحيته وذلك لأنه رأى هذا الحبر فى منامه فى مقدونيا مبشراً إياه بالنصر على الفرس، ثم ذهب الإسكندر مع الحبر إلى هيكل أورشليم حيث قدم القرايين لرب يهود، وهناك عرض عليه اليهود سفر دانيال (٦: ٧) الذى تنبأ بأن أحد الأغارقة سيقضى على إمبراطورية الفرس، ورحّب اليهود بالخدمة فى جيشه عندما عرض عليهم ذلك وأقطع الجند السامريين الذين صحبوه إلى مصر أرضاً فى إقليم طيبة وعهد إليهم بأعمال الحراسة فى هذا الإقليم، وفى العصر الهلينستى أضاف اليهود إلى سيرة الإسكندر قصة أخرى عن زيارته لأورشليم تختلف عن الأولى فى التفاصيل وتتفق معها فى النهاية. (انظر: مصطفى عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣٠).

M. Noth, op.cit., p. 354-355.

(٢)

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٠-٣١-٣٣.

على أنه - من ناحية أخرى - ربما كانت السامرة قد رحبت بالغازى الجديد، بينما وجد ذلك الأمر معارضة فى أورشليم التى كانت قد نالت من سادتها الفرس كثيراً من الامتيازات التى تخشى أن تفقدها فى العهد الجديد، وفى نفس الوقت كان أهل السامرة ينتهزون فرصة تغيير الحكومة والحصول على إذن بإقامة عبادة خاصة بهم فى «جرزيم»، ومستقلة عن أورشليم التى كان الفرس يحرصون على أن تكون هى مركز العبادة فى فلسطين، ورغم أن المعبد السامرى فى جرزيم يؤرخ بعهد «أنطيوخس الرابع أيفانس»^(١)، ولكنه قد ظهر من قبل - إلى جانب معبد أورشليم - كمحارب هام، ورغم أن قصة، يوسف بن متى عن الإسكندر، تشير إلى أن الرجل إنما قد أعطى تصريحاً ببناء معبد فى السامرة عندما وصل مباشرة إلى سورية وفلسطين، فلا يصح أن ينظر إليها كحقيقة تاريخية موثوق بها، ومع ذلك فليس من المحتمل كثيراً أنه أثناء حكم الإسكندر - وربما أثناء النزاع بين قواده - قد وجدت السامرة الفرصة للحصول على تصريح رسمى بإقامة عبادتها الخاصة بها، والتى عانت بسببها كثيراً.

على أنه على الرغم من قيام عبادة على جبل جرزيم لكل سكان ولاية السامرة، والتى أصبحت بالنسبة إليهم مركزاً دينياً خاصاً بهم، كما كانت أورشليم بالنسبة لسكان اليهودية، غير أن تقاليد أورشليم القديمة، والتى طلبت لفترة طويلة - حتى لسكان ولاية السامرة - مركزاً دينياً، إنما جذبت إليها الإسرائيليين من سكان الأجزاء الجنوبية للسامرة، ربما بسبب قربهم منها جغرافياً، وربما بسبب مكانتها الدينية فى نفوس القوم، وأياً ما كان السبب، فقد أدى ذلك فى حوالى القرن الثانى قبل الميلاد إلى انفصالهم عن السامرة وتحولهم إلى اليهودية^(٢).

(١) مكابيين ثان ٦: ٢.

M. Noth, op.cit., p. 354-355; A. Alt PJB, 31, 1935, p. 94F.

(٢)

وليس من المدهش كثيراً أن الشعب في أورشليم، إنما كان ينظر دائماً إلى العبادة في جرزيم على أنها أمر غير شرعي، وعلى أن السامريين من الكفرة، غير المتطهرين دينياً، وذلك منذ حوالي عام ٣٠٠ ق.م، بغرض إثبات الشرعية فقط لمعبد أورشليم، وبالتالي فقد أعطيت السيادة منذ البداية لعمل داود القريب من قلب الرب، عندما قام بإعداد التجهيزات اللازمة لبناء معبد أورشليم، وهكذا تعلق اليهود الذين عادوا من السبي بتجديد المعبد، وإعادة تنظيم المجتمع الديني^(١).

وعلى أي حال، فلقد نظر السامريون إلى نقل التابوت إلى معبد أورشليم على أيام داود، وكأنه عمل غير شرعي، ومن ثم فإنهم إنما كانوا يقابلون اليهود الهاربين من القانون في أورشليم، عندما يذهبون إلى هيكل جرزيم للعبادة، بترحاب كبير، واستمر موقف السامريين العدائي من اليهود طويلاً، من ذلك أننا نرى «أنطيوخس الرابع» عندما يدنس هيكل أورشليم بتقديم خنزيرة على مذبحه، أعلن السامريون أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودي أبداً، وأعلنوا ولائهم للطاغية بأن كرّسوا هيكلهم للإله «زفس» حامى الغرباء.

وفي عام ١٢٨ ق.م، استولى يوحنا هيركانوس على شكيم وجزيريم وخرب الهيكل هناك بعد بنائه بمائتي سنة^(٢)، ولكن السامريين ظلوا يقدمون قرابينهم على الجبل، حيث كان هيكلهم، وظلوا يفعلون ذلك «حتى جاء المسيح إلى أرضنا»^(٣)، وفي العام السادس قبل الميلاد ألقى بعض السامريين عظاماً نجسة في هيكل أورشليم، فصار اليهودي يستكف من أن ينجس شفتيه بنطق كلمة «سامري»، وكان يحسب طعام السامري نجس

M. Noth, op.cit., p. 356.

(١)

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ١/٤٥٠.

(٣) إنجيل يوحنا ٤: ٢٠-٢١.

كلحم الخنزير، وهكذا كان العداء مستحكماً بين اليهود والسامريين، ولم يكن اليهود يسمحون بأية علاقة اجتماعية أو دينية مع السامريين.

وفي زمن المسيح، عليه السلام، كانت عقائد السامريين اللاهوتية لا تختلف عن عقائد اليهود، وخصوصاً عقائد الصدوقيين، وكانوا مثلهم ينتظرون «المسيا»، على أنهم لم يقبلوا من العهد القديم (التوراة) إلا أسفار موسى الخمسة، وإن كان النص السامري لهذه الأسفار الخمسة يختلف عن النص العبري.

هذا وقد فقد السامريون - أو بقاياهم - مواضعهم بالتدريج، ولا تزال هناك طائفة قليلة منهم، مازال تعيش في مدينة نابلس (شكيم) ومجاوراتها، ومازالوا يصعدون على جبلهم «جرزيم» ثلاث مرات في السنة، في عيد الفصح، حيث كانوا يحتفلون بالخلاص من مصر، وفي عيد الأسابيع، وفي عيد المظال، ومع ذلك فقد أصبحوا الآن مجرد ظاهرة تاريخية^(١).

الفصل الثالث الجالية اليهودية في مصر

لا ريب في أن علاقة اليهود بمصر، إنما هي جد قديمة ترجع إلى أيام الهكسوس (١٧٢٥-١٥٧٥ ق.م)، عندما قدم إليها يوسف الصديق، عليه السلام، ثم تبعه بعد ذلك أبوه وإخوته - كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل في الجزء الأول من هذه الدراسة - ويدهى أنه ليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هذه العلاقة ترجع إلى أيام الأسرة الخامسة^(١) (٢٤٨٠-٢٣٤٠ ق.م)، ذلك لأن التاريخ لا يعرف هؤلاء اليهود قبل عهد الخليل، عليه السلام - جد يعقوب أو إسرائيل كما يدعى أحياناً - والذي زار مصر على أيام الأسرة الثانية عشرة (٩٩١-١٧٨٦ ق.م) - كما أشرنا من قبل -.

وهكذا فالصحيح - فيما نعتقد - أن علاقة اليهود بمصر، إنما بدأت على أيام الهكسوس، حين لجأ القوم إلى أرض النيل الطيبة، عندما أصيبت أرض كنعان بمجاعة لم تترك زرعاً، ولم تبق على ضرع، ثم بقى اللاجئون بمصر حتى تم خروجهم منها - فيما نرى - على أيام مرنبتاح (١٢٢٤-١٢١٤ ق.م)، ولم تنقطع علاقة يهود بعد ذلك بمصر، وإن اختلفت هذه العلاقة تبعاً لاختلاف وضع فلسطين بالنسبة إلى مصر، فضلاً عن علاقة مصر ببقية دول الشرق الأدنى القديم، وأثر هذه العلاقة على فلسطين، وإن كان الأمر لم يأخذ صورة هجرات يهودية - أو على الأقل تسلل يهودي - إلى مصر، إلا بعد الغزو الآشوري لإسرائيل، واستيلاء «سرجون الثاني» على السامرة في عام ٧٢٢ ق.م (أو عام ٧٢١ ق.م)، ثم السبي البابلي في عام ٥٨٧ ق.م (أو ٥٨٦ ق.م)، وما تلا ذلك من تكوين جاليا يهودية في مصر،

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣؛ وكذا:

ذلك لأن اليهود - كما تشير الأدلة التاريخية - إنما كانوا كلما حزبهم الأمر - سياسيًا أو اقتصاديًا أو عسكريًا - إنما يولون وجوههم شطر مصر، فيجدون عندها دائمًا الأمان والحماية، أو يهاجرون إليها للإقامة فيها، كما يشير إلى ذلك العهد القديم، سواء أكان ذلك في الأسفار التاريخية، أم في أسفار الأنبياء، وهكذا نقرأ في سفر الملوك الثاني، «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير، ورؤساء الجيوش، وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»^(١)، ونقرأ في سفر إرمياء «الكلمة التي سارت إلى إرميا من جهة كل اليهود الساكنين في أرض مصر، الساكنين في مجدل وفي تحفنجيس وفي نوف وفي أرض فتروس...»^(٢).

وأما «مجدل» فهي «تل السموت»، وربما كانت «ثارو» على حدود الدلتا الشمالية الشرقية، ومكانها الآن «تل أبو صيفة» الحالي، على مبعده حوالي ثلاثة كيلو مترات إلى الشرق من مدينة القنطرة شرق الحالية^(٣)، وأما «تحفنجيس» فهي «دفنای» (كوم دفنة)، وموقعها على الفرع البيلوزي، وعلى مسيرة خمسة عشر كيلو متراً من القنطرة الحالية، وفيها وضع بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ ق.م) حامية من المرتزقة الإغريق^(٤)، وأما «نوف» فهي «منف» (من نفر) - العاصمة المصرية العتيقة - وتقع على الشاطئ الأيسر للنيل، على مبعده ثلاثة كيلو مترات من النيل، ٢٢ كيلو متراً إلى الجنوب من القاهرة، وتقع أطلالها تحت وبجوار قرية «ميت رهينة» مركز البدرشين، محافظة الجيزة^(٥)، وأما «فتروس» (باتروس Patros) فهي منطقة في أرض الصعيد، تقع في نطاقها جزيرة «اليفانتين»^(٦).

(١) ملوك ثان ٢٥: ٢٦. (٢) إرميا ٤٤: ١.

(٣) W.F. Albright, JEA, 10, 1924, p. 8; A.H. Gardiner, Oum, II, p. 203-204.

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٣، حاشية ٢.

(٥) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastics, III, Oxford, 1947, p. 122-123.

(٦) M.J. Leibovitch, (Pathros), BIE, 17, 1935, p. 69F; P.E. Elgood, Later, Dynasties of Egypt, Oxford, 1951, p. 98F.

ولعل سؤال البداهة الآن: متى تكونت الجاليات اليهودية فى مصر؟
فى الواقع أن هناك وجهات نظر مختلفة بشأن بداية تكوين الجاليات
اليهودية فى مصر - وخاصة تلك التى استقرت فى «اليفانتين» وأسوان^(١)،
فهناك وجه للنظر يذهب إلى أن مؤسسى الجالية اليهودية فى اليفانتين، إنما
كانوا من جنود الملك اليهودى «منسى» (٦٨٧-٦٤٢ ق.م)، الذين التحقوا
بجنود الغازى الآشورى «أشوربانيبال» (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) فى حملته على
مصر فى عام ٦٦٧ ق.م، ثم بقوا عند الحدود الجنوبية لحمايتها^(٢).

وهناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن تلك الحامية اليهودية فى
اليفانتين، إنما ترجع إلى أيام مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (بسماتيك
الأول) (٦٦٤-٦١٠ ق.م)^(٣)، ذلك لأن الظروف المختلفة التى مرت بمصر
وواجهت «بسماتيك الأول» فى كفاحه ضد الآشوريين، إنما قد ساعدت
على تدمير المحاربين القدامى، من مرتزقة ليبين، ودفعتهم إلى ترك خدمة
«بسماتيك الأول» فكان هذا سبباً فى أن يقيم الفرعون حامية جديدة عند
اليفانتين، بها بعض سكان فلسطين وسورية^(٤)، كان منهم كثير من الجنود
اليهود الذين عملوا عند فرعون كجنود مرتزقة، بل إن الفرعون قد لجأ
كذلك إلى «جيجس» ملك ليديا، الذى أمده بقوة من المرتزقة الإيونيين
والكاريين الذين يرتدون دروع البرونز، والذين - طبقاً لرواية هيرودوت - قد
عاونوا «بسماتيك الأول» على أن يصبح سيد أمرا الدلتا^(٥).

(١) E.G. Kraeling, The Brooklyn Museum Aramaic Papyri, New Haven, 1953, p. 43-47.

(٢) انظر: خالد طه الدسوقي، الجالية اليهودية فى أسوان، القاهرة ١٩٧٤، ص ٦-٧.

(٣) E.G. Kraeling, op.cit., p. 44.

(٤) إيتين دريوتون، وجاك فاندييه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٦٣٧؛ بولس

عياد، الآراميون فى مصر، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣٩.

(٥) Herodotus II, p. 152; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 353.

وأما وجه النظر الثالث، فيذهب إلى أن وجود حامية اليفانتين اليهودية، إنما يرتبط بإصلاحات الملك «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) الدينية، التي كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» في السنة الثامنة عشرة من حكمه (أى فى عام ٦٢٢ ق.م) وتأكد الملك اليهودى أن قومه قد زاغوا عن الصراط المستقيم^(١)، ورغم ما أثير حديثاً حول هذا الكشف من شبهات، وسواء أكان «حلقيا» كاهن معبد أورشليم قد أوجد هذه النسخة للملك، أم أنه قد وجدها حقيقة^(٢)، فإن الرواية التوراتية إنما تذهب إلى أن ملك يهوذا قد جمع شيوخ قومه وقرأ عليهم السفر، ثم أقسم الجميع الإيمان بالملاحظة على التوبة النصوح^(٣).

وسرعان ما يقوم «يوشيا» بإصلاح المعبد، وتطهير العقيدة من الطقوس الأجنبية الوثنية، فأزيلت المحاريب المحلية من المرتفعات، ودمر مذبح «بيت إيل» المنافس لمذبح أورشليم منذ أيام «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ ق.م) واحتفل بعيد الفصح، الذى يذكر القوم بالخلاص من مصر، ولم يعترف إلا بمعبد أورشليم كنمكان تقدم فيه الأضاحى^(٤)، ويبدو أن هذه الحركة الإصلاحية لم تعجب كثيراً من السكان، فأخذهم السخط، وعدم الرضى، ومن ثم فقد لجأ فريق منهم إلى مصر، ليمارسوا عبادتهم القديمة الوثنية بحرية أكثر^(٥)، وهذا فضلاً عن أن هناك فريقاً من الكهنة قد فقدوا

(١) ملوك ثان ٢٢: ٣-١٣؛ أخبار أيام ثان ٣٤: ٨-٢٨.

(٢) انظر: رحمة الله الهندي، إظهار الحق ٣٢٥/١، (القاهرة ١٩٦٤)؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٥٦، وكذا:

A.P. Davies, The Ten Commandment, N.Y., 1956, p. 53; A. Lods, op.cit., p. 12;

W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 225.

(٣) ملوك ثان ٢٣: ١-٣؛ أخبار أيام ثان ٣٤: ٢٩٨-٣٣.

(٤) C. Roth, op.cit., p. 35-36; A.T. Olmstead, The Reforms of Josiah in Its Secular Aspects AHB, 20, 1915, p. 566.

(٥) بولس عياد عياد، المرجع السابق، ص ٣٩.

وظائفهم على أثر هدم معابدهم، وبما أن مصر كانت دائماً الواحة التي يلجأ إليها المضطهدون والمضطروب عليهم في فلسطين، فلا نستبعد أن هؤلاء الكهنة قد هاجروا إليها، حيث سمح لهم بتشيد معبد لهم فيها، ومن الطريف أن ديانة الجالية اليهودية في اليفاتين هي نفس الديانة اليهودية التي كانت متبعة في فلسطين قبل إعلان قوانين الإصلاح، وقد يبدو هذا الرأي مقبولا، إلا أنه يصعب تبرير السبب الذي من أجله استقر هؤلاء المهاجرون في اليفاتين (جزيرة أسوان) بالذات^(١).

على أن هناك فريقاً رابعاً يذهب إلى أن تأسيس هذه الجالية، إنما يرجع إلى أيام «بسماتيك الثاني» (٥٩٥-٥٨٥ ق.م) ويعتمدون في ذلك على أن الخطاب المنسوب إلى «أرستياس» Aristeeas - والذي يرجع إلى حوالي عام ١٢٠ ق.م - إنما يقرر أن عدداً كبيراً من اليهود جاءوا مع الغزو الفارسي، وآخرين جاءوا إلى مصر في عهد بسماتيك لمساعدته في حملته ضد ملك الأثيوبيين، ويرجح أن بسماتيك المذكور في خطاب «أرستياس» إنما هو «بسماتيك الثاني» إذ أنه هو الذي حارب الأثيوبيين^(٢)، على أن هناك من يذهب إلى أن المقصود هنا إنما هو بسماتيك الأول، وليس الثاني، على أساس أن دويلة يهوذا لم تكن في حوالي عام ٥٩١ ق.م (أي أيام حكم بسماتيك الثاني)، بقادة على أن ترسل من رجالها من يعمل كجنود مرتزقة في مصر^(٣).

غير أننا لو صدقنا «أرستياس»، فإن بسماتيك الثاني هو الذي قاد حملة ضد أثيوبيا في عام ٥٨٩ ق.م^(٤)، إذ أن هناك ما يشير إلى أن الأمور إنما

(١) خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٨-٩.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٣٩، وكذا:

R.H. Charles, The Apocryphs and Pseudepigrapha of the old Testament ,
Oxford, 1913, 2, p. 96, L. 12, 13.

(٣) انظر: خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٩.

(٤) H.S.K. Bakry, Psammetichus, II, and his Newly - Found Stela at Shellul ,
OA, 6, 1967, p. 225-244.

كان يشوبها بعض الاضطراب، وربما كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن الأسرة الكوشية الثانية كانت ذات أطماع في مصر نفسها، وأنها كانت تحاول استعادة نفوذها في مصر، ذلك النفوذ الذي قد ضاع عقب فرار «تانوت أمانى» (تانوات - أمون) من طيبة، وهكذا اضطر «بسماتيك الثاني» تلافياً للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى شمال دنقلة على أقل تقدير، ونجحت إلى أبعد الحدود في سحق الجيوش النوبية في أرضها^(١) هذا فضلاً عن أن هناك ما يشير إلى قيام الفرعون بحملة إلى فينيقيا، وسواء أكانت حملة حربية، أم أنها مجرد زيارة تفتيشية لميناء بيبيلوس، مادام قد استدعى بعض كهنة كثير من المعابد للإسهام فيها^(٢)، فالذى يهمنا هنا أن هذه الحملة ربما قد أعطته الفرصة لتجنيد بعض قوات يهودية في جيشه.

وهناك وجه خامس للنظر - يعتمد في الدرجة الأولى على نصوص التوراة، فضلاً عن وثائق إيفانتين الآرامية - ويذهب إلى أن الوجود اليهودي في مصر، إنما كان قبيل وبعد سقوط أورشليم تحت أقدام العاهل البابلي «نبوخذ نصر» في عام ٥٨٧ ق.م، فمن المحتمل أن هناك قوات يهودية - فضلاً عن جموع من الحزب المصري في أورشليم - قد هاجرت إلى مصر قبيل الغزو البابلي للمدينة المقدسة، ثم سرعان ما قتل «جداليا» - حاكم اليهودية من قبل العاهل البابلي وعندئذ، وكما أشرنا من قبل، فلقد أدرك القوم مدى الكارثة التي حلت بهم، وخوفاً من «نبوخذ نصر» لقتل نائبه - بل وبعض القوات البابلية نفسها، والتي كانت تعسكر في المصفاة - كان

(١) جان يويوت : مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٨٧ ، وكذا:

Saunern et Yoyott, La Campagne Nubienne de Psammetique, II, in BIFAO, 51, 1952, p. 157F.

(٢) Saunern et Yoyotte, VT, I, 1951, p. 140-144, 2, 1952, p. 131-136; A.H. Gardiner, op.cit., p. 360.

الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم^(١)، ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش، وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»^(٢).

وهكذا لم يجد اليهود ملجأ يجتمعون به سوى مصر، التي خرجوا منها يوماً ما، واعتبروا يوم خروجهم منها عيداً يحتفلون به، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح»، ونظراً لأن الفرعون المصرى «إيريس» (٥٨٩-٥٧٠ ق.م) إنما كان حليفاً للملك اليهودى «صدقياء» (٥٩٧-٥٧٠ ق.م)، ضد ملك بابل، فلقد فتح الفرعون صدره لليهود، فكانت تلك الهجرة اليهودية إلى مصر.

ويعتمد أصحاب هذا الرأى فى تعضيده على تمثال «نسحور»، - الذى يحمل لقب «قائد بوابة الأقطار الجنوبية» فى عهد الملك «إيريس»، - فقد نجاء فى النقش أن حامية «إيفانتين»^(٣) قامت بحركة عصيان، والتجأت إلى بلاد النوبة، ولكن «نسحور» نجح فى إحضارهم إلى المكان الذى فيه

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 403; M. Noth, op.cit., p. 288; M. F. Petrie, Egypt and Israel, 1911, p. 90-93; H.R. Hall, op.cit., p. 546.

(٢) ملوك ثان ٢٥: ٢٦.

(٣) إيفانتين: تقع جزيرة إيفانتين (Yab)، والمعروفة الآن باسم جزيرة أسوان على مبعده ٩ كيلا إلى الشمال من الجندل الأول، فى مقابل مدينة أسوان الحالية عبر النهر، ويعنى اسمها فى اللغة المصرية القديمة «فيل»، والذى انتقل إلى اليونانية تحت اسم «إيفانتين» (أوليفنتين)، وربما سميت كذلك لأن الأفيال وجدت فى هذا المكان مكاناً ملائماً لاستقرارها قبل هجرتها النهائية صوب الجنوب، ونظراً لتحكم جزيرة «يب» وأسوان (والمعروفة عند الأغارقة باسم Syene) فى مدخل مصر الجنوبى، فقد أقيمت قلعة فى كل منهما، ومن ثم فإن البرديات الآرامية إنما تتحدث كثيراً عن «يب القلعة» و«أسوان» (سنى أوسونو) القلعة، وقد ذكرت أسوان فى التوراة كذلك (حزقيال ٢٩: ١٠، ٢٠: ٦، مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٦؛ خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٤٩؛ وكذا:

G. Ricciotti, The History of Israel, II, Milwante, 1955, p. 155; H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124; E.G. Kreamling, op.cit., p. 21.

سيده (إبريس) ومعاقبتهم، وأن ما قامت به هذه الحامية من عصيان أنهى خدمتها، ثم حلت محلها حامية جديدة تحتوى على العنصر اليهودي^(١).

هذا وتحدثنا المصادر أن «إبريس» قد أنزل اليهود فى «تل الدفنة» (تخفنجيس التوراة)^(٢)، على مبعده خمسة عشر كيلو متراً من القنطرة الحالية، عند مدخل الدلتا من جهة الشرق، غير أن موقع المدينة الاستراتيجية الهام - فضلاً عن كونها المركز الرئيسى للجنود المرتزقة على أيام العصر الصاوى - إنما قد باعد كثيراً بينها وبين أن تكون معسكراً للاجئين من يهود، ومن ثم فأغلب الظن أن فرعون لم يبق بها من لاجئ يهود، غير أولئك الذين انخرطوا فى سلك الجيش، ولا سيما أننا نسمع أن كثيراً من أولئك اللاجئين إنام قد تفرقوا بين تانيس ومنف وأرض الصعيد (أرض باتروس Patros)^(٣).

وهكذا تشير المصادر إلى أن اليهود إنما قد انتشروا فى صعيد مصر، وبخاصة فى منف والفيوم ودهشور والبهنسا^(٤) والأشمونين^(٥) وأبيدوس^(٦).

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٤٠، وكذا:

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 168; J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, IV, No. 989.

(٢) إرميا ٤٤: ١، وكذا:

A. H. Sayce, The Egypt of the Habrews and Herodotus, London, 1896, p. 129.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٥.

(٤) تقع البهنسا على حافة الصحراء الغربية على مبعده ١٣ كيلاً شمال غربى بنى مزار بمحافظة المنيا، وحوالى ١٩٢ كيلاً جنوبى القاهرة.

(٥) الأشمونين: هى مدينة «خمنو» المصرية و«هرموبوليس ماجنا» ، الإغريقية، وتقع على مبعده ١٠ كيلاً من مدينة ملوى بمحافظة المنيا، وكانت مقر عبادة وفلسفة إله القمر «تحت» الذى شبهه الإغريق بالإله «هرمس» ومنها تسمية المدينة بهرموبوليس . (كريستيان توبلكر، توت عنخ آمون، ص ١٠٧).

(٦) أبيدوس: وتقع على حافة الصحراء الغربية عند العراة المدفونة على مبعده حوالى ١٠ كيلو مترات إلى الغربية من مدينة البلينا بمحافظة سوهاج.

وطيبة (الأقصر) وإدفو وإلفانتين وأسوان، وأن الجاليات اليهودية فى هذه الأماكن المختلفة، إنما كانت تتصل بعضها ببعض الآخر^(١).

الجالية اليهودية فى أسوان (جزيرة إلفانتين):

على أن أم هذه الجاليات إنما كانت «جالية إلفانتين»، والتي يميل أغلب الباحثين إلى أنها من سلالة الجند المرتزقة فى جيش «بسماتيك الثانى»، أو من سلالة أولئك الذين نجوا من السبى البابلى بعد تدمير هيكل أورشليم فى عام ٥٧٨ ق.م، فضلا عن الذين هاجروا إلى مصر بعد قتل «جداليا، بعد السبى البابلى».

هذا وقد نجح أفراد الجالية اليهودية - والذين كانوا يقيمون مع عائلاتهم بأمر الفراعين - فى أن يقيموا فى إلفانتين معبدًا للإله اليهودى «يهوه» - بجانب معبد إله المنطقة المصرى «خنوم» - فى فترة تسبق الحكم الفارسى لمصر عام ٥٢٥ ق.م،^(٢) ومن ثم فإننا نقرأ فى أحد النصوص على لسان يهود إلفانتين هؤلاء «لقد بنى آبائنا هذا المعبد فى قلعة «يب» (إلفانتين)، منذ أيام الملوك المصريين وأن قمبير عندما جاء إلى مصر هدم كل معابد الآلهة المصرية، ولكنه لم يصب هذا المعبد بأى ضرر»^(٣).

وأما أين يقع هذا المعبد؟ فمن الصعب الآن تحديد المكان الذى شيد عليه معبد «يهوه» هذا، وإن كان فى إمكاننا القول بشيء أقرب إلى التوكيد منه إلى التخمين، أن معبد إلفانتين اليهودى، إنما كان مجاورًا لمعبد «خنوم» المصرى، أو بجوار واحد من الأحياء المصرية المجاورة^(٤)، ويذهب

(١) مراد كامل، النصوص الآرامية التى كشفت حديثًا فى مصر، مجلة أحاديث الثلاثاء بدار السلام، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٢) انظر: M. Noth, op.cit., p. 294 وانظر عن الغزو الفارسى لمصر: محمد يومى مهران، حركات

التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٤١-٢٦٢.

(٣) A.E. Cowley, Aramaic Papyri of the Fifth Century, B.C. Oxford, 1923, No. 30: 13-14.

E.G. Kraeling, The Brooklyn Museum Aramaic Papyri, p. 82.

(٤)

«كلير مونت جانيو» إلى أن المعبد اليهودي إنما كان في شمال جزيرة إلفانتين، وسرعان ما تجمعت منازل اليهود حول معبد يهوه هذا، مكونة حياً خاصاً أخذ يتسع شيئاً فشيئاً، حتى بلغت مشارف الحى المصرى الذى كان يقع إلى الجنوب من المعبد اليهودي، وانتهى الأمر بأن أصبحت منازل المصريين ملاصقة لجدران «معبد يهوه»^(١).

ولعل من اللافت للنظر أن عبادة يهود إلفانتين لم تكن مقصورة على عبادة إلههم «يهوه» وإنما تجاوزته إلى عبادة آلهة أخرى، عبادة معبودين اثنين الواحد ذكر، والأخرى أنثى، أى ثالث من الآلهة، شأنهم فى ذلك شأن جماعات الآلهة الأخرى المشابهة فى الشرق الأدنى القديم، وهكذا مارس يهود إلفانتين عبادة وثنية يهودية^(٢)، وربما نظر القوم إلى هذه الآلهة على أنها من أتباع إلههم «يهوه»، ومن ثم فقد كانوا يتوسلون إليها من أجل رفاهية خلاتهم خاصة فى خطاباتهم، فهذا «هاناباه» يكتب لـ «يدويناه» وزملائه وللحامية اليهودية قائلاً: «ليشاء الآلهة رفاهية إخواني»^(٣).

ويرى «دوبون - سومير» أن يهود إلفانتين قد عبدوا الآلهة البابلية، معتمداً فى ذلك على أن أربعة من هذه الآلهة (بل ونابو وشمس ونرجال) قد ذكرت فى ضراعة من يدعى «يارجو» فى إحدى البرديات، وأن هذه الآلهة قد كتبت بهذا الترتيب فى نقش يرجع إلى أيام الملك «سرجون»^(٤) وهناك ما يشير إلى أن يهودياً يدعى «جادل» قد تضرع للإلهين «يهوه» و«خن»، وقد ذهب «دوبون - سومير» إلى أن «خن» هذا، إنما هو اختصار لاسم الإله المصرى «خنوم» - معبود إلفانتين الرئيسى - ومن ثم فإن يهوداً إنما قد شاركوا المصريين فى عبادة هذا الإله.

(١) J.B. Chabot, Les Fouilles de Clermont - Ganneau Elephantine, Journal des Savants, 1914, p. 136F; E.G. Kraeling, op.cit., p. 74.

M. Noth, op.cit., p. 295.

(٢)

A.E. Cowley, op.cit., p. 21, 22.

(٣)

A. Dupont-Sommer, Les Syncretisme Religieux des Juifs d'Elephantine, (٤)

RHR, 65, 1945, p. 17F.

غير أن هناك من يعترض على هذا الاتجاه ويذهب إلى أن المراد هنا من «خن» إنما هو الإله «خان» - إله منطقة حران - الذى اشترك اسمه مع كثير من أسماء الأشخاص من إيفنتين، ومع ذلك فلا يمكن استبعاد الرأى الأول، ذلك لأن هناك - كما تشير إحدى البرديات - امرأة يهودية قد أدت قسمًا باسم الإلهة «سائتس»، إحدى ثلوث الشلال الأول، الذى يرأسه «خنوم»^(١).

وأيا ما كان الأمر فإن يهود إيفنتين إنما كانوا يحتفلون بأعياد الإسرائيليين القديم، ومنها «عيد السبت» ومن ثم فإننا نقرأ فى إحدى البرديات «إنى ذاهب ولن أعود حتى عشية السبت»^(٢)، ويبدو أن اليهود كانوا يعتقدون أن «يهوه» إنما كان «يسكن فى إيفنتين القلعة» - أى أفى معبد إيفنتين، وليس فى أورشليم^(٣) - بل لقد ظل الإله «يهوه فى إيفنتين يحمل لقبه القديم «رب الجنود»^(٤).

وأما عن علاقة اليهود بالمصريين، فيبدو أن يهود إيفنتين إنما كانوا يقومون بواجباتهم فى خدمة مصر، وصدّ الهجمات التى كانت تتعرض لها من الجنوب، ولم يتدخل ملوك العصر الصاوى فى شئون الجالية الداخلية، وسمحوا لأفرادها بقسط وافر من الحرية الدينية، وبالرغم من وجود معبد «يهوه» فى إيفنتين، إلى جانب معبد خنوم، فإنه لم يحدث طوال العصر الصاوى، أى صدام بين اليهود والمصريين بسبب التعصب الدينى، أو اختلاف العقائد بين الفريقين^(٥).

ومع ذلك فهناك من الباحثين من يرى أن اليهود قد نسوا لمصر، أنها

E.G. Kraeling, op.cit., p. 86; H.L. Cinsberg, Aramaic Letters, ANET, p. 401; (١)

A. Dupont - Sommer, BHR, 65, 1945, p. 17F; A.E. Cowley, op.cit., p. 14-15.

M.Nothe, op.cit., p. 295. (٢)

A. G. Kraeling, op.cit., Nos. 2, 4, 9, 10; A.E. Cowley, op.cit., No. 2, 4, 44-45. (٣)

A. Dupont - Sommer, (Ral, 1947), p. 180F. (٤)

(٥) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٨.

قد أطعمتهم من جوع، وآوتهم من تشرد، وكستهم بعد عرى، فردوا لها الجميل نكراتاً، وكانوا عليها للفرس أعواناً، وفي حامياتهم جنوداً، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المصريين كانوا يكرهون الإسرائيليين منذ أول يوم عرفوهم فيه، وتذكروا أن أعوان الفرس اليوم، إنما هم أعوان الهكسوس في الأمس البعيد ثم ازدادت الكراهية والمقت، بعد أن رأوهم بعد طول إقامة في البلاد، خونة وجواسيس، ومثار فتن ودسائس، وأذئاباً لأعداء البلاد، يعملون على هدم وطنهم، واستعباد أهله، ثم سرعان ما تحولت الكراهية والمقت إلى ثورة ضد الأجانب بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة، وكان اختلاف الدين والجنس بين اليهود والمصريين من ناحية، ووجود هؤلاء الذين يعبدون «يهوه» ملاصقين لكهنة الإله «خنوم» ذى رأس الكبش من ناحية أخرى، سبباً في إشعال هذه الثورة المباركة التي انتهت باستقلال مصر.

وكان «فيدرانج» قد أصبح فى عام ٤٢٠ ق.م، «قائداً للجيش» (أو رئيس القوة) فى أسوان، ثم سرعان ما رقى فيما بين عامى ٤١٦، ٤١١ ق.م إلى منصب «حاكم الإقليم»، وقد أفاد كهنة خنوم من وجود الوالى «أرساميس» فى الخارج فى عام ٤١٠ ق.م، وتمكنوا بمساعدة «فيدرانج» من تدمير المعبد اليهودى، الذى طالما أذى الشعور القومى، بسبب عدم توقييرهم للإله خنوم ذى رأس الكبش^(١)، وتقديمهم للكباش كقربان ليهوه فى «عيد الفصح» - عيد الخروج من مصر - الأمر الذى اعتبر خطيئة دينية كبيرة موجهة إلى كهان خنوم، الذين كانوا يعتقدون أن الكبش حيوان مقدس عند ربهم «خنوم»^(٢).

غير أن هناك من الباحثين من يرفض هذا الاتجاه، ويتساءل : إذا كان الأمر كذلك، فلم تأخر الصدّام حتى وقت ثورة المصريين ضد الفرس ؟ ثم

(١) A. T. Olmstead, A History of the Persian Empire , Chicago, 1970, p. 364-365.

(٢) J.B. Chalbot, op.cit., p. 137.

ألم يدرك فرعون الذى سمح لليهود بعبادة ربهم يهود، وبإقامة معبد له بجوار معبد الإله خنوم، أن هذا الذى سيفعله اليهود، سوف يسىء إلى شعور المصريين؟

ويجيب «كليرمونت - جانو» على ذلك بأن اليهود إنما كان لهم قبل هذا العهد بوقت قصير، الحرية فى تقديم القرابين من «الجدى» بدلا من «الكباش» غير أنهم بدأوا فى وقت ما يضحون بالكباش، مما أثار غضب المصريين، وفى نفس الوقت فإنه إنما يذهب - حدسًا عن غير يقين - إلى أن يهود إنما قد مارسوا عادة التضحية بالكباش إبان كتابة تلك البردية التى ذكرت الاحتفال بعيد الفصح^(١).

ولكن يبدو أن الأمور قد ساءت بالنسبة إلى يهود قبل تدمير المعبد، ربما بسبب خيانتهم للمصريين، وربما بسبب الكراهية للأجانب، ولعل مما يستوقف النظر أن اليهود قد سارعوا إلى تقديم فروض الولاء للملك الفارسى، وفى نفس الوقت وجد الفرس فيهم أداة طيعة يستطيعون استخدامها فى السيطرة على بلاد لم تكن فقط بعيدة عن مقر الحكم فى الإمبراطورية، وإنما كانت كذلك قوية فى شعورها بذاتيتها، وحريصة على استرجاع استقلالها^(٢)، هذا فضلا عن أن اليهود إنما كانوا أعضاء فى الحامية الفارسية فى إلفانتين، وكانت هذه الحامية تشترك فى إخماد ثورات المصريين التى كانت تقوم فى هذه المنطقة ضد عوامل الفرس، وكان هذا من أسباب اضطهاد المصريين لأعضاء هذه الجالية، عندما تراخت قبضة الفرس على مصر، وكان ضعف الحكومة الفارسية على أيام «دارا الثانى» (٤٢٤-٤٠٤ ق.م)، فرصة لا تعوز بالنسبة إلى كهنة خنوم، وجموع المصريين فى إلفانتين وأسوان، فانقضوا على معابد يهوه ودمروه تمامًا فى

(١) W. Vincent, La Religion des Judco-Arameons d'Elephantine, Paris, 1937, p.388F.

(٢) مصطفى عبد العليم، الرجوع السابق، ص ٩.

عام ٤١٠ ق.م، وأوقعوا كثيراً من الأذى بأعضاء الجالية اليهودية هناك، أضف إلى ذلك كله، أن الكهنة المصريين فى معبد خنوم إنما كانوا يمثلون معقل الوطنية فى المنطقة، ومن ثم فقد ضايقهم إلى حد بعيد بقاء الفرس فى مصر، وإخلاص يهود لهم، مما أد إلى اشتراك الكهنة فى هذا الاضطهاد^(١).

وهناك لمحات من أحداث خطيرة ساعدت على ازدياد الكراهية بين المصريين واليهود فى أسوان، وربما وقعت هذه الأحداث فى عام ٤١٠ ق.م، عندما لحق بالمعبد التدمير، فهناك جزء من رسالة، يبدو أنها كتبت بيد مصرية وتحدث عن تقرير خاص بأحداث معينة ومرسلة إلى شخصية فى إلفنتين - وتذكر الرسالة أسماء ست نساء، وخمسة رجال من يهود وجدوا عند البوابة فى طيبة، ثم قبض عليهم، هذا وتشير الرسالة إلى دخولهم بعض المنازل فى إلفنتين، واستيلائهم على بعض البضائع التى أعادوها إلى أصحابها، ثم تختتم الرسالة برغبة صاحبها فى أن يحل السلام بمن يخاطبه وبعائلته، «حتى تحقق لنا الآلهة ما نريده»، وقد تتضمن هذه العبارة الأخيرة شعوراً عدائياً تجاه يهود، وهناك احتمال كبير فى أن وجود بعض رجال ونساء يهود فى طيبة، إنما كان للوقوف أمام محكمة عليا، ويبدو أن هذه الحادثة قد وقعت قبل هدم المعبد اليهودى، وليس بعده، وعلى أى حال، فمن الواضح أن تغير الشعور المصرى العام تجاه اليهود، إنما كان نتيجة عوامل سياسية، وليست دينية^(٢).

وانطلاقاً من هذا كله، يذهب «كريلنج» إلى أن تخطيط معبد يهود فى إلفنتين، وبالتالى اضطهاد الجالية اليهودية هناك إنما يرجع إلى أسباب غير دينية، ومن ثم فإن تقديم الذبائح والمحرقات فى المعبد اليهودى لم تكن

(١) عياد بولس، المرجع السابق، ص ٥١.

A.E. Cowley, op.cit., p. 34.

(٢) خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٣٥، وكذا:

السبب في الاضطهاد، معتمداً في ذلك على أسباب كثيرة، منها (أولاً) أن عيد الفصح - فيما يرى كريلنج - لم يذكر فعلاً في البردية الآرامية، وحتى لو افترضنا أن هناك احتفالاً تم بهذا العيد، فهو يختلف عما جاء في التوراة بشأن الاحتفال بهذا العيد.

ومنها (ثانياً) أنه ليس من الممكن أن يقيم أعضاء الجالية من يهود شعائهم الدينية، التي تسمى إلى عقيدة المصريين، خاصة وأن أعضاء الجالية اليهودية إنما كانوا متساهلين بشأن التناقضات المذهبية، التي سادت الجماعة التي يعيشون بينها، ومنها (ثالثاً) أن «كريلنج» لم يعترف بما ذهب إليه «كليرمونت - جانو» من أن تقديم الكبش في معبد يهود قد أثار حتى كهنة خنوم، ومنها (رابعاً) أن «كريلنج» إنما يعارض ما ذهب إليه «كولى» من أن التقدّمات والذبائح الدموية، إنما كانت سبباً في اضطهاد الجالية اليهودية في إيفانتين^(١).

وهكذا يعلل «كريلنج» سبب اشتراك كهنة «خنوم» في تخطيط المعبد اليهودي واضطهاد الجالية اليهودية في إيفانتين، إلى قيام الأسرة الجديدة في «منديس» وكانت عبادتها «الإله الكبش» وقد أضفت هذه العبادة قوة لكهنة الإله «خنوم» في الجنوب، وكان هذا نذيراً بالشر للمعبد والجالية اليهودية، ولكن يرد على ذلك بأن تخطيط المعبد تم قبل قيام الأسرة الجديدة بمدة ليست بالقصيرة، ولو افترضنا أن ما ذهب إلى «كريلنج» صحيحاً، وأن قيام أسرة جديدة أعطى للكهنة سلطة قوية، فليس من المقبول أن يحطم الكهنة المعبد، إلا إذا كانت بينهم وبين اليهود عداوة قديمة^(٢).

أضف إلى ذلك أن «كريلنج» لم يشر إلى بعض النواحي الهامة التي

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢، وكذا:

E. G. Kraeling, op.cit., p. 102-103; A. E. Cowley, op.cit, p. 32

E.G. Kraeling, op.cit., p. 113.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢، وكذا:

وردت فى البرديات الآرامية، ولم يعط لها تعليلاً، ومنها (أولاً) اشتراك الكهنة المصريين فى تخطيط معبد يهود بعون من الحاكم الفارسى «فيدرانج»، وعن طريق العامة من المصريين، وليس هناك من سبب يدفع الكهنة إلى تخطيط المعبد اليهودى، إلا ما كان يمس عقيدتهم أولاً، وقوميتهم ثانياً، ومنها (ثانياً) أن أعداء الجالية اليهودية إنما يقدمون الذبائح والمحرقات قبل تخطيط المعبد، ثم استعدادهم بعد ذلك لإعادة المعبد، على ألا تقدم فيه أية ذبائح.

ومنها (ثالثاً) أن هناك عبارة آرامية جاءت فى إحدى الرسائل تشير إلى أن الإله «خنوم» إنما قد أصبح ضد أعضاء الجالية من يهود، ومما لا ريب فيه أن خنوم لا يصبح ضدهم إلا إذا كان هناك من الأسباب الدينية ما يجعله غاضباً على الجالية اليهودية، وهكذا يبدو واضحاً أن الأسباب الدينية إنما لعبت دوراً فى اضطهاد الجالية اليهودية وتخطيط معبدهم، بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى ذكرت من قبل^(١).

وأياماً ما كان الأمر، فلقد قام المصريون بثورة فى عام ٤١٠ ق.م، بدأت شرارتها الأولى من أسوان، وانتهت بتدمير المعبد اليهودى فى إلفانتين تماماً، ثم سرعان ما امتدت إلى الدلتا، ولم يمض حين من الدهر، حتى أصبحت نضالاً سافراً عنيفاً بين مصر وفارس، وامتد لهيبها إلى كل أنحاء البلاد.

ومن أسف أننا لا نعرف الكثير عن هذه الثورة الوطنية، وإن كنا نعرف تماماً أن مصر لم تعتمد فيها على عون من حلفائها القدامى من الأغارقة، بسبب انشغال كل من أثينا وإسبرطة بحرب ضروس تدور رحاها بينهما، ونعرف كذلك أن الذى تولى قيادة الثورة المصرية ضد فارس، إنما كان «أمير تايوس الثانى» وهو ابن أو حفيد، أو على الأقل واحد من ذوى قربى «أمير

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢-٥٣، وكذا: A.E. Cowley, op.cit., Nos. 732, 38.

تايوس، الذى حمل من قبل لواء الصراع الذى بدأه «إيناروس» - بعد أن قبض أعداء الأخير عليه ثم صلبوه.

واستمرت الثورة نحواً من ست سنوات (٤١٠-٤٠٤ ق.م.)، انتهت بخلوص حكم مصر لبنيتها، وتحررها بعد مذلة المهانة، وينهى مؤرخنا المصرى «مانيتو» عند هذه النقطة الأسرة السابعة والعشرين الفارسية، ويجعل أسرته الثامنة والعشرين من ملك واحد هو «أمير تايوس» الساوى (أمون حر الثانى) (حوالى عام ٤٠٤-٣٩٩ ق.م.)^(١).

وتشير الدلائل إلى أن موقف اليهود من ثورة المصريين ضد أعدائهم الفرس إنما كان موقفاً سلبياً، بل إن بردية Strasburg تشير إلى أن اليهود لم يتركوا مراكزهم إبان الثورة، ولم توجه إليهم تهمة الخيانة من جانب الغزاة، مما يدل على أنهم قد عاونوا الفرس على إخماد الثورة المصرية، مما كان سبباً فى غضب المصريين على يهود، بعد أن أفسحوا لهم صدورهم، وأكرموا غربتهم، فمنعواهم من ممارسة شعائرهم الدينية لربهم يهوه^(٢)، ثم انتهى الأمر بتدمير المعبد اليهودى نفسه، بعون من الوالى الفارسى «فيدراخ».

ولعل سائلاً يتساءل: لم انضم «فيدراخ» القائد الفارسى إلى المصريين فى تدمير معبد يهود فى إلفانتين؟

فى الواقع إن تصرف الوالى الفارسى إنما يحتاج إلى تفسير مقبول، بخاصة وأنه لم يقف عند هذا الحد، إذ نقرأ فى إحدى البرديات أنه كتب إلى ولده «نفايان» - وكان قائداً لبعض فرق عسكرية ضمت بعض المصريين فى قلعة أسوان - يأمره بأن يدمر المعبد فى «يب» (إلفانتين)، وهكذا اشترك فى تدمير المعبد اليهودى «نفايان» وجنوده، فضلاً عن صحبة من المصريين، وكذا كهنة «خنوم».

(١) عبد العزيز صالحي، مصر والعراق، ص ٣٨٩، (القاهرة ١٩٦٧)؛ وكذا:

A.H. Gradiner, op.cit., p. 372-452; A. T. Olmstead, op.cit., p. 373-374.

A. E. Cowley, op.cit., p. 27.

(٢)

ولعل الباعث على تصرفات «فيدراج» إنما كان باعثاً شخصياً، مردّه من ناحية إلى الطموح الشخصى، والطمع فى الكسب، وإلى ما أغراه به المصريون على نحو ما أشارت إليه البردية السابقة، وربما خوفاً من بطشهم، ومن ناحية أخرى ربما كان اليهود قد أثاروا حفيظته عليهم^(١).

وأيّ ما كان الأمر، فهناك الكثير من الشكاوى التى يلتمس فيها «يدونيا» زعيم الجالية اليهودية فى إيفانتين - وزملاؤه الكهنة، عون السلطات الفارسية ضد الوطنيين، بل إن هناك رسائل أخرى، إلى كبير الكهنة وزملائه فى أورشليم وإلى المدعو «أوستانيس»، وإلى نبلاء اليهودية، وإن كان الصمت هو الجواب الدائم عليه^(٢).

وفى ٢٥ نوفمبر من عام ٤٠٧ قبل الميلاد، يرسل «يدونيا» بن جمارياه رسالة إلى «باجواس» حاكم اليهودية، يطلب منه أن يستغل صلاته الطيبة يملك الفرس وأمراهه، ليسمح لهم بتشييد معبدهم، ثم يعيد «يدونيا» قصة الهجوم على المعبد، وكيف أن آبائه قد بنوه فى قلعة «يب» (إيفانتين) قبل الغزو الفارسى (عام ٥٢٥ ق.م)، وكيف أن معابد آلهة مصر العظيمة قد دمرت فى عهد قمبيز ولم يصب معبدهم بأى أذى، ثم يصف «يدونيا» حالة قومه اليهود بعد تدمير المعبد، فيروى أنهم قد أصبحوا فى هم مقيم، فهم لا يرتدون ملابس حسنة، ولا يتطيبون بزيت، ولا يشربون خمرًا، وباتت نساؤهم، كالآرامل لأن المصريين يصرون على ألا يعيد اليهود بناء معبدهم.

ثم تنتهى رسالة «يدونيا» بأن يستغل «باجواس» نفوذه لدى حماته الفرس لإعادة بناء المعبد، متعهدين ألا يحرق اليهود فيه أية مأكولات إرضاء

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١١، وكذا:

H. L. Ginsberg, op.cit., p. 492; E.G. Kraeling, op.cit., p. 109; R. Driver, op.cit., p. 54.

A.T. Olmstead, A History of the Persian Empire, Chicago, 1970, p. 365. (٢)

للفرس الذين كانت تحرم دياتهم تنجيس النار، إذا وضعت فيها - أو لامستها - جثث حيوانات ميتة، مشيرين إليه من طرف خفى بهبة مالية، فضلاً عما سوف يناله من ثواب عند «يهوه» ربّ يهود، وأخيراً فإن «يدونيا» وزملاءه كهنة إليفانتين يكتبون رسالة كذلك بنفس المعنى إلى حاكم «السامرة»، ولكن الرد كان دائماً أن «أرساميس» (أرشام) الوالى الفارسى، وحده صاحب الحق فى تحقيق رغبتهم^(١).

على أن «باجواس» - وكذا «دلایا» أحد ولدى حاكم السامرة - إنما كتبوا ردّاً فى صورة توصية شفوية إلى «أرشام» حاكم مصر الفارسى، يتضمن النقاط التالية:

١ - أن معبد إله السماء هذا، إنما قد أنشئ قبل وصول قمبیز إلى مصر فى عام ٥٢٥ ق.م، ومن ثم فليس من حق المصريين الزعم بأنه من أعمال الفرس فى مصر.

٢ - أن «فيدراج» القائد الفارسى هو المسئول عن هدم المعبد، وليس المصريون.

٣ - ضرورة إعادة بناء المعبد فى مكانه الأصلى، ولعل المقصود من هذه العبارة إبعاد أى تفكير من جانب المصريين فى عدم إقامة معبد «يهوه» إلى جوار معبد «خنوم»، وربما إبعاده عن جزيرة إليفانتين كلية.

٤ - أن تقدم القرابين على المذابح - كما كان الحال من قبل - وإن اقتصرَت هذه القرابين على البخور والأطعمة، ودونما أى ذكر للأضاحى^(٢).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى يعود «أرساميس» (أرشام) من فارس، وكان عليه أن يوفق بين رغبة اليهود الملحة فى إعادة بناء معبدهم،

(١) A.T. Olmstead, op.cit., p. 304-366; A.E. Cowley, op.cit., no. 30-32.

(٢) A.E. Cowley, op-cit, No. 32; R. Driver, op.cit., p. 54.

وبين الاستياء العام الذى يسود شعور المصريين ضد يهود، وإصرارهم على عدم بناء معبد يهوه، وهكذا وجد «أرساميس» أن إعادة بناء المعبد اليهودى فى هذه الظروف الحرجة، قد تجر عليه مشاكل لا قبل له بها، ومن ثم فلم يفعل لليهود شيئاً.

ويستمر اليهود - دون تقدير للموقف الحرج، ودون إدراك للسحب التى بدأت تتجمع فى سماء العلاقات بين مصر وفارس - يستمرون فى كتابة رسائلهم إلى المسئولين فى إصرار عجيب، ومن ثم يرى «يدونيا» وأربعة من زعماء المستعمرة اليهودية، يكتبون إلى الموظف الأعلى - ولعله الحاكم المحلى فى طيبة - بنغمة تسودها الذلة أكثر من التواضع، والتوسل أكثر من الملتمس، فضلاً عن أنهم إنما يتعهدون فى رسالتهم هذه، بألا يقدموا فى معبدهم قرابين من العجول والخراف والماعز، وأنها سوف تكون مقصورة على البخور وقرابين الطعام والشراب، كما يتعهدون كذلك بتقديم مبالغ من المال (ضاع رقمها) وألف أردب من الشعير، من ممتلكات «بيت يهوه»^(١)، إلا أن من حملوا رسالتهم هذه إلى طيبة، قبض عليهم بمجرد وصولهم إلى مداخل مدينة آمون، وجردوا من مناصبهم، وأجبروا على أن يدفعوا فدية كبيرة^(٢).

ويختلف المؤرخون فى أمر إعادة بناء المعبد من جديد، فهناك من يذهب إلى أن المعبد إنما أقيم مرة ثانية، وربما فى مكانه الأصلى، وإن كان ذلك إنما قد تم بعمارة متواضعة، ولكنها تفى بتحقيق أغراضه الدينية^(٣)، على أن هناك اتجاهًا آخر، يذهب إلى أن المعبد لم يقدر له أن يبنى مرة ثانية، بسبب الثورة التى قامت فى مصر، والتى أدت - كما أشرنا من قبل - إلى

(١) A. E. Cowley, op.cit., p. 33; A.T. Olmstead, op.cit., p. 305.

(٢) H.L.Ginsberg, op.cit., p. 491-492; A.E. Colwey, op.cit., no. 34.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٣، وكذا: E. G. Kraeling, op.cit., p. 110.

استقلال مصر، وقيام الأسرة الثامنة والعشرين في عام ٤٠٤ ق.م^(١)، ويميل كثير من الباحثين المصريين إلى الرأي الأول، وخاصة بعد نشر مجموعة برديات متحف بروكلين إذ جاء في البردية (رقم ١٢) منها - والتي كتبت بعد تلك الأحداث بسنين قصيرة أي في عام ٤٠٢ ق.م - إن الإله «يهوه» كان ما يزال يسكن في إلفانتين^(٢).

وأيًا ما كان الأمر، فإن الجالية اليهودية في إلفانتين، إنما بدأت تسير بسرعة في طريق الاضمحلال على أيام الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٩ - ٣٨٠ ق.م) - والتي كانت من مندس في الدلتا، حيث مركز عبادة الإله الكبش - ومن ثم فقد ترك أمر يهود إلفانتين تحت تصرف كهانة خنوم، التي كررت أحداث عام ٤١٠ ق.م، ولكن بصورة أشد قسوة، وأكثر عنفًا، ويتجه «كريلنج» إلى أن عهد آخر ملوك هذه الأسرة «نفرتيس الثاني» (نف - عاون - رود) إنما قد شهد نهاية يهود في إلفانتين، ذلك لأن آخر بردية وصلتنا من إلفانتين، إنما قد تحدثت عن تولية هذا الملك عرش مصر^(٣).

ويكاد يكون في حكم اليقين أنه لم يعد هناك يهودى واحد في إلفانتين على أيام الأسرة الثلاثين السمنودية (٣٨٠ - ٢٤٣ ق.م) في الوقت الذي أعاد فيه آخر فراعنتها «نكتانبس» (نخت حارحبي) (٣٦٠ - ٣٤٣ ق.م)^(٤) بناء «معبد خنوم» فوق الجزيرة، وما يؤيد ذلك أن الشارع الذى يحيط بجدار معبد «خنوم»، قد يتجاوز منازل الحى اليهودى بطريقة توحى بأنها لم تكن عامرة في وقت إنشائه^(٥).

(١) خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٣؛ خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٥، وكذا : E.G. Kraeling, op.cit., p. 115.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 453.

(٥) خالد الدسوقي، المرجع السابق، ص ٤٤.

ولعل سائلاً يتساءل: أين ذهب يهود إليفانتين؟ وهل عادت تلك القلة التي نجت إلى أرض يهوذا؟

فى الواقع أن بعضاً من الباحثين إنما يستبعد عودة الناجين من يهود إلى اليهودية^(١) مرة أخرى، بينما يرجح آخرون أن نفرًا من تلك الجالية إنما قد اتجهوا شمالاً - إلى إدفو - معتمدين فى ذلك على أن هناك شواهد قبور، تحمل كتابة آرامية، ترجع إلى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، قد عثر عليها هناك فى إدفو، هذا وقد اختص اليهود فى العصرين اليونانى والرومانى بالحق الرابع من أحياء هذه المدينة، كما أن بطليموس الأول (٣٢٢-٢٨٤ ق.م) إنما قد وجد فى مصر عناصر يهودية كثيرة، عندما آل إليه حكمها، بعد وفاة الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م، وأن كثيرًا من الجاليات اليهودية فى العصر البطلمى، إنا ترجع فى أصولها إلى القرن السابع أو السادس قبل الميلاد^(٢).

(١) اليهودية تعبير جغرافى كان أول من استعمله عزرا (٥ : ٨) ليشير إلى ولاية فى الإمبراطورية الفارسية.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥، وانظر:

H.I. Bell, Cults and Creads in Graeco-Roman Egypt, Liverpool, 1954, p. 32;

E. Beavan, A History of Egypt Under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, p. 111.

الباب العاشر

بنو إسرائيل

فيما بين الثورة المكابية ونهاية اليهود في فلسطين عام ١٣٥ م

الفصل الأول

الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ ق.م)

(١) فلسطين فيما قبل الثورة المكابية

مات الإسكندر الأكبر فجأة في الثالث عشر من يونيو عام ٣٢٣ ق.م. وقسمت إمبراطوريته بين قواته الذين جهد الواحد منهم في الحصول على النصيب الأوفر من الإمبراطورية المقدونية، وهكذا انتهى الأمر، بأن أصبحت مصر من نصيب «بطليموس»، وبابل من نصيب «سلوقس»، وآسيا الصغرى من نصيب «أنتيغونس»، ومقدونيا من نصيب «أنتيباتر»^(١)، وهكذا «انكسر القرن العظيم، وطلع عوضاً عنه أربعة قرون عظيمة، تتجه نحو رياح السماء الأربع»^(٢)، وكان بطليموس - فيما يرى البعض - أكثر هؤلاء الأربعة ذكاء، إلا أن سلوقس كان بالتأكد أقدرهم^(٣).

هذا وقد بدأت علاقة اليهود بالبطالة منذ بداية دولتهم في مصر، وتطلعها إلى الاستيلاء على فلسطين، بغية تأمين سلطانهم في أرض الكنانة، ومن هنا قام «بطليموس الأول سوتير» (٣٢٣-٢٨٤ ق.م) بغزو سورية في عام ٣٢٠ ق.م ثم الاستيلاء على أورشليم - عاصمة اليهودية - في عام ٣١٩/٣١٨ ق.م، ورغم أنه قد اضطر إلى إخلاء سورية الجنوبية (وتعني أساساً منطقة فلسطين، والتي تشمل في العادة جنوب سورية وفينيقيًا)، إلا

(١) عن الظروف التي أحاطت بدولة الإسكندر بعد وفاته: وتقسيم إمبراطوريته بين قواده، انظر: لطفى عبد الوهاب، دراسات في تاريخ مصر - عصر البطالة، ٨٥/١-٩٤، إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالة، ٤٥/١، وما بعدها؛ تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، ص ٤-٨؛ مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٨-٤٤.

(٢) دانيال، ٨: ٨.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

أنه سرعان ما عاد إليها مرة أخرى بعد انتصاره العظيم على «ديمتريوس» في موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م^(١).

وكان من نتائج انتصار بطليموس الأول في غزة أن تابع الرجل تقدمه، فاستولى على فلسطين وفينيقيها، كما أن الأنباط^(٢) في البتراء إنما قد انضموا تحت لوائه، ومن ثم فإن «ديودور الصقلي» (من القرن الأول الميلادي) يروى أن «أنتيجونس» قد أغار على البتراء في عام ٣١٢ ق.م، بسبب موالة النبط لبطليموس الأول، فأعد حملة تحت قيادة صديقه «أنتيوس» بلغ تعدادها أربعة آلاف من المشاة، وستمائة فارس - ليجبرهم على التحالف معه ضد الملك البطلمي، ونجح «أنتيوس» في أن يخفى أمر حملته، وأن يسير إلى «البتراء» عن طريق أدوم، وأن يباغت القوم ليلاً، والناس نيام، فضلاً عن غياب حراسها من الشباب والرجال الأشداء في سوق لهم، ومن ثم فقد كتب له النجاح عليها، ونهب ما استطاع من بخور وتوابل وطيب وفضة.

غير أن الأنباط سرعان ما علموا بالأمر، فطاردوا الغزاة ذات ليلة، كانوا يستريحون فيها من وعشاء السفر، ومشقة الطريق، وأعملوا السيف فيهم حتى قضوا عليهم، إلا خمسين فارساً هربوا بسلام، وإن أصيبوا بجراح من سيوف الأنباط، ويعلل «ديودور» ذلك الفشل الذي منيت به الحملة، بأن رجالها ما كانوا يتوقعون أن يطاردهم الأنباط بهذه السرعة، ومن ثم فقد أهملوا الحراسة فكانت المأساة، مما اضطر «أنتيجونس» إلى أن يرسل إليهم حملة أخرى

(١) مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ٣٤-٣٧، مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٣، محمد عواد حسين، الحرب السورية السادسة، حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير، ٧١/١، ١٢٥، القاهرة ١٩٥١ م.

(٢) عن دولة الأنباط انظر: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الفصل الرابع عشر، الرياض ١٩٧٧، ص ٤٩٣-٥٣٣.

بقيادة ولده «ديمتريوس»، باءت بالفشل كذلك^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فإن «ديمتريوس» سرعان ما ينتصر على جيوش بطليموس في شمال سورية في عام ٣١١ ق.م، الأمر الذي أدى إلى انسحاب بطليموس من فلسطين مرة أخرى، غير أنه سرعان ما يعود إليها في عام ٣٠٢ ق.م، منتهزاً فرصة انشغال «أنتيغونس» وولده «ديمتريوس» في حروبهما في آسيا الصغرى، ويبدو أن الأمر قد استقر له في هذه المنطقة - بما في ذلك يهوذا - منذ عام ٣٠١ ق.م، إلى حد ما، ذلك لأن التاريخ إنما يحدثنا أن منطقة سورية الجنوبية (أو سورية الحالية Coele Syria)، إنما قد ظلت فترة طويلة موضع نزاع عنيف ومستمر بين الأسرتين البطلمية والسلوقية، وتكررت الحروب بشأنهما، وقد تبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة، كما تعرض فيها بنو إسرائيل للشدائد والمحن، وربما بسبب تقلب الحكيم من دولة لأخرى، وربما لأن القوم - بطبيعتهم - إنما كانوا يندمجون في الدسائس والمؤامرات.

وعلى أي حال، فلقد كانت فترة حكم البطالمة - على أيام بطليموس الأول (٣٢٣-٢٨٤ ق.م)، وبطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ ق.م) وبطليموس الثالث (٢٤٦-٢٢١ ق.م) - أطول من فترة حكم السلوقيين وأقوى، حتى استطاع «أنطيوخس الثالث» أو الكبير (٢٢٣-١٨٧ ق.م)، أن ينتزع فلسطين من البطالمة - بعد أن أوقع هزيمة ساحقة بجيش «بطليموس الخامس» (٢٠٥-١٨٠ ق.م)^(٢) في موقعة بانيون عام ١٩٩ ق.م - ولكنها

(١) جواد علي، ١٩/٣-٢٠، صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب القديم، ٢٧/١؛

محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٠٣-٥٠٤، وكذا:

F. Altheim and R. Stiel, op.cit., p. 32-33; J. Hastings, ERE, 9, p. 121;

A.B.W. Kennedy, Petre, Its History and Monuments, London, 1925, p. 31;

Encyclopaedia of Islam, III, p. 801.

(٢) اختلف الباحثون حول وفاة بطليموس الرابع وتولية ولده بطليموس الخامس، فمنهم من يرى أنها

في عام ٢٠٥ ق.م، ومن يرى أنها في عام ٢٠٣ ق.م (انظر: إبراهيم نصحي، عصر البطالمة

١٥٢/١، مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ٧٧، وكذا:

T.C. Skeat, The Reigus of the Ptolemies, 1954, p. 32.

سرعان ما عادت إليهم مرة أخرى، فانتزعها السلوقيون منهم، بل واستمروا يحكمونها باستثناء فترات قصيرة - حتى الفتح الروماني في عام ٦٣ ق.م^(١). ولقد أدى النزاع بين البطالمة والسلوقيين على السيادة في فلسطين^(٢)، أن اليهود إنما انقسموا إلى فريقين، الواحد قد تحزب للبطالمة، والآخر قد تحزب للسلوقيين، ومن ثم فقد كان كثيراً ما يقع الشقاق بين الفريقين، هذا إلى جانب أن السلوقيين عندما كانوا يستولون على البلاد، إنما كانوا يتكلمون بأنصار البطالمة، يساعدهم في ذلك الحزب المناصر لهم، فمثلاً عندما آل العرش السلوقي إلى «أنطيوخس الثالث» إنما عمل على الاستيلاء على سورية من «بطليموس الرابع» (٢٢١-٢٠٥ ق.م)، وقد نجح في ذلك إلى حد ما، غير أن بطليموس الرابع سرعان ما استعادها بعد معركة عنيفة عند مدينة «رفح» في الثاني والعشرين من يونية عام ٢١٧ ق.م، لعب فيها الجنود المصريون من الفلاحين أخطر الأدوار، وفي خلال هذه الفترة ظهر الحزبان - السلوقي والبطلمي - وأخذا يتناحran ويكيد الواحد منهما للآخر، وينكل الواحد منهما بالآخر تنكيلاً شديداً، وفي فترة السيطرة السلوقية فرّ كثير من أنصار البطالمة إلى مصر وأخذوا ينشئون لأنفسهم في «تل اليهودية»

(١) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٩٤.

(٢) لم تكن فلسطين تعتبر في القرن الثالث قبل الميلاد، وحدة إدارية قائمة بذاتها، بل كان يطلق على الولايات البطلمية في سورية وفينيقيا وشرق الأردن اسم «سورية وفينيقيا» وكان يطلق عليها بصفة رسمية «سورية» فقط، وفي برديات «زينون» كان اسم سورية لا يطلق على فلسطين، فيقال عن الذاهبين إلى فلسطين أنهم ذاهبون إلى سورية، وعن القادمين من فلسطين أنهم قادمون من سورية، وحتى في أوائل العصر الروماني كان اسم سورية يطلق أيضاً على فلسطين، فنجد الإمبراطور «كلاديوس» يحذر يهود الإسكندرية من أن يأتوا إلى المدينة بيهود من سورية، ومن هذا نرى أنه كان في العصر اليوناني والروماني، يخلط بين الشعوب القادمة من الشام، ويطلق عليها ~~جنتهم~~ ^{سوريين}، كما كان يخلط - كذلك بين اللغة العبرية، واللغة التي يتكلم بها السوريون. وتوصفت اللغتان بأنهما «اللغة الآرامية». (انظر: مصطفى عبد العليم، اليهود في مصر في عصر البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٥).

(ليونتبولويس) فى إقليم هليوبوليس معبدًا، على أيام بطليموس السادس (١٨٠-١٤٥ ق.م) - والمعروف بشدة عطفه على اليهود - على غرار هيكل أورشليم، ثم أخذوا يدسون دسائسهم فى اليهود الباقين فى بلاد اليهودية، ويحركونهم ضد السلوقيين، واستجاب بعضهم فعلا لهذه الدسائس، مما أثار «سلوقس الرابع فيلوباتر» (١٨٧-١٧٥ ق.م) الذى خلف أباه أنطيوخس الثالث، وجعله يشتد عليهم قمعًا وتدميرًا، ثم جعل السلوقيين يبذلون جهدهم فى تحويل اليهود عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية^(١).

وعلى أى حال، فرغم أن كلا من الدولتين - البطلمية والسلوقية - إنما كانت تقيم فى البلاد ولاية وقوادًا عاميين، فضلًا عن الحاميات العسكرية، إلا أن رؤساء كهان يهود، إنما كانوا يمارسون - إلى جانب وظائفهم الدينية - الزعامة المدنية على اليهود، ويقومون بجمع الجزية وتسليمها للسلطة الحكام من البطالمة أو السلوقيين^(٢).

على أن البطالمة - بالذات - إنما كانوا يتبعون سياسة معتدلة إزاء فلسطين، ولم يحرصوا إلا على أن تؤد لهم الجزية، ومن ثم فقد تفادوا التدخل بشكل محسوس فى شئون اليهود الداخلية، مفضلين أن يتركوا لهم قدرًا كبيرًا من الحكم الذاتى، وهكذا يبدو واضحًا أن سياسة البطالمة إزاء يهود، إنما كانت شديدة الشبه بتلك التى اتبعها الفرس عندما كانوا يحكمون فلسطين^(٣).

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥، محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٦، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 64 F; Josephus, Antiquities, XIII, 62-79.

(٢) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٧، وكذا:

A.H.M. Jones The Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1937, p.236; G.H. Box, Judaism in The Greek Period, Oxford, 1953, p.21.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين، الواحد: ويتصل بأسرى اليهود، الذى جاء بهم بطليموس الأول إلى مصر، والثانى: ويتصل بالترجمة السبعينية للتوراة على أيام بطليموس الثانى.

أما عن الأمر الأول، فإن الرواية اليهودية إنما تبالغ إلى حد كبير فى أعداد الأسرى الذى جلبهم بطليموس الأول - وبخاصة بعد انتصاره فى موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م - ثم حررهم ولده بطليموس الثانى وقت الترجمة السبعينية للتوراة، إذ تصل بهم مصادر يهود إلى مائة ألف أو يزيدون (١٢٠ ألف فى بعض الروايات)، الأمر الذى نظر إليه اليهود، وكأنه كارثة قومية لبلاد اليهودية، يمكن أن تؤدى إلى افتقارها من سكانها^(١).

غير أن «وسترمان» إنما يرجح أن عدد الأسرى اليهود الذين جاء بهم «سوتير» إلى مصر، إنما كان أقل بكثير مما ذكره كاتب الرسالة المنسوبة إلى «أرستياس» Aristaeas، وخاصة أنه لم يقم دليلاً على أن أحداً من البطالة الأوائل قد أتيح له أن يأسر مثل هذا العدد الضخم فى إحدى حملاته الحربية^(٢). هذا فضلاً عن أن «ديودور الصقلي» إنما يذكر أن بطليموس قد أتى معه إلى مصر بثمانية آلاف من الأسرى الذين وقعوا فى قبضته، وأنزلهم فى أقاليمها^(٣).

وأيما ما كان الأمر، فإن بطليموس الأول إنما قد أتى إلى مصر بيهود، كانوا مزيجاً من الأسرى، ومن بعض الأحرار الذين جاءوا إلى مصر من تلقاء أنفسهم، بعد أن استشعروا عطف الملك البطلمي عليهم، ولمسوا النواحي

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.

(٢) W.L. Westernmann, The Slave System of Greek and Roman Antiquity, Philadelphia, 1955, p. 28.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٤، وكذا:

Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, 19, 85, 4.

الطيبة فيه، كما أن الرجل إنما كان قد أدرك صلاحية استخدام اليهود في جيشه، فنقل أفواجاً منهم، ومنحهم إقطاعيات ليستقروا في مصر كالأغريق والمقدونيين، ثم سرعان ما اجتذبت الحياة الجديدة عناصر أخرى من يهود، جاءوا إليها وانتشروا في كثير من أرجائها^(١).

وأما الأمر الثاني، فهو «الترجمة السبعينية للتوراة» (سبتوجيتا - Septuaginta)، ويرجع أصل هذه التسمية السبعينية إلى قصة أسطورية نسجت حول هذه الترجمة، إذ يروى أن الملك «بطيמוש الثاني» (٢٨٤-٢٤٦ ق.م)، قد طلب من اليعازر - الحاخام الأكبر - أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالماً من يهود فلسطين - ستاً من كل سبط - لترجمة التوراة إلى اليونانية، كل على انفراد، لأن كثيراً من يهود الإسكندرية إنما كانوا قد تأغرقوا تماماً، وأصبحت اليونانية لغتهم الوحيدة، وليس أدل على ذلك من أن القوم - بعد إتمام الترجمة إلى اليونانية - إنما كانوا يؤدون شعائرتهم الدينية لليهودية باللغة اليونانية.

وقام علماء يهود بالمهمة الخطيرة الملقاة على عاتقهم خلال اثنين وسبعين يوماً، ومن ثم فقد أطلق على هذه الترجمة «الترجمة السبعينية»، ربما نسبة إلى العلماء المشتركين فيها، أو نسبة إلى عدد الأيام التي تمت إبانها، وإن كان العدد في الحالتين اثنين وسبعين - وليس سبعين، وأياً ما كان الأمر فإن الرواية إنما تذهب إلى أن التراجم المختلفة للتوراة إنما وجدت مطابقة بعضها للبعض الآخر، مما يعنى (أولاً) أن كل حبر من هؤلاء الاثنين والسبعين من أحبار يهود، إنما قام بالترجمة بمفرده، كما يعنى (ثانياً) أن ترجمة الكتاب المقدس (أعنى العهد القديم أو التوراة)، إنما تمت بوحي من

(١) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ١٥٨؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ٣٤-٣٥، وكذا: Josephus, Antiquities, XII, 10.

«يهوه»، حتى أن كلماته (أى العهد القديم) لا تختلف من ترجمة إلى أخرى^(١).

ومن ثم فقد ابتهج الملك البطلمي (بطليموس الثانى فيلادلفوس)، الابتهاج كل الابتهاج، وسر السرور كل السرور، فأمر لحاخام يهود الأكبر بجائزة كبرى، ومنح بقية العلماء الاثنى والسبعين جوائز مالية كبيرة، هذا إلى جانب إصداره الأوامر بإطلاق سراح من كان أسيراً فى مصر من سبى يهود - وعددهم مائة ألف على رواية، ومائة ألف وعشرون ألفاً على رواية أخرى - كان أبوه بطليموس الأول قد أتى بهم بعد حملاته المتكررة على فلسطين، وخاصة بعد موقعة غزة فى عام ٣١٢ ق.م، وأخيراً تذهب الرواية إلى أن بطليموس الثانى إنما قد أمر بصنع مائدة من ذهب، رسمت عليها أرض الكنانة والنيل يجرى فى وسطها، ثم رصعت هذه الصورة بالجواهر الثمينة، وقدمت هدية من ملك مصر البطلمى إلى «بيت يهوه» فى أورشليم^(٢).

غير أن الاتجاهات العلمية الحديثة إنما تذهب إلى أن هذه الروايات إنما هى مجرد أسطورة، ليس لها أساس من الصحة، كما أن بعض المؤرخين إنما يشكّون فى أن الترجمة الإغريقية جاءت ترجمة صادقة للتوراة الأصلية، وذلك لتأثر المترجمين الواضح بالأساليب الإغريقية التى كانت تصاغ وفقاً لها القوانين الهلينستية، هذا فضلاً عن أن العلماء الذين عهد إليهم بهذه الترجمة لم يكونوا من «يهودا» - كما حاول أن يؤكد كاتب الرسالة

(١) فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٦، تاريخ يوسفوس، ص ٤٩، (دار صادر، بيروت)، محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥، المطران الدبس، تاريخ سورية، ١١٢/٢، (المجلد الثالث)، مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ١١٢-١١٣.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ٧٦٨/٢، المطران الدبس، المرجع السابق، ص ١١٢، تاريخ يوسفوس، ص ٤٩ وما بعدها، محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥، وكذا:

المنسوبة إلى أرستياس - وإنما كانوا من علماء الإسكندرية اليهود، الذين ألفوا أساليب اللغة الإغريقية وتمرسوا بها تمرساً تاماً^(١).

أضف إلى ذلك أن هناك فريقاً من المؤرخين إنما يذهب إلى أن صاحب الرسالة المنسوبة إلى «أرستياس»، إنما كاتب رسالته في القرن الثاني قبل الميلاد، فيما بين عامي ١٤٥، ١٢٧ ق.م - وليس في القرن الثالث قبل الميلاد وعلى أيام بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ ق.م) بالذات - ومن ثم فإنهم يرون أن كل ما أورده عن ترجمة التوراة هو ضرب من الخيال، وأنه لم يكن معاصراً لبطليموس الثاني، على الرغم من إقناع القارئ بأنه عاش في عصر هذا الملك وشهد اجتماعات البلاط، بل ويزيد على ذلك، أنه كان شخصياً واحداً من أعضاء الوفد الذي بعث به «فيلادفوس» لإحضار علماء يهود من فلسطين.

هذا فضلاً عن أن هؤلاء المؤرخين إنما يذهبون إلى أن يهود الإسكندرية قد سبق لهم من قبل أن تولوا ترجمة التوراة قبل «بطليموس الثاني»، ومن ثم لو افترضنا أن هناك ترجمة للتوراة قد تمت في عصر هذا الملك، فإنها لم تكن الترجمة الأولى، ولا الترجمة الكاملة للتوراة، ذلك لأن ما تم نقله إلى الإغريق فعلاً في عهد «فيلادفوس» إنما كانت الأسفار الخمسة الأولى (شريعة موسى) والمعروفة باسم «البتاتوك» Pentateuch ثم تعاقبت ترجمة بقية الأسفار بعد ذلك، حتى تمت الترجمة كلها فيما بين عامي ٢٥٠، ١٥٠ قبل الميلاد^(٢).

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١١٥، وكذا:

H.I. Bell, Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt, p. 44F; P.E. Kahle, The Cairo Genize, London, 1947, p. 133.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢٢-١٢٣، وكذا:

G.H. Box, Judaism in the Greek Period, Oxford, 1953, p. 178.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى عدة نقاط تتصل بالترجمة السبعينية هذه، منها، (أولاً) أنها لم تكن فى مجموعها ترجمة دقيقة، وبخاصة فى أسفار إشعياء والمزامير ودانيال، حيث نجد الترجمة فيها حرة غير دقيقة، أى أنها فى أحيان كثيرة إنما كانت بالمعنى لا بالحرف، ومنها (ثانياً) أن سفر إرميا إنما ينقص عن النص العبرى نحو السبع، كما ينقص سفر أيوب نحو الربع، ومنها (ثالثاً) ذلك الاضطراب فى ترجمة بعض الألفاظ العبرية إلى اليونانية، كما أن هذه الترجمة لم تتم فى عصر بعينه - كما أشرنا من قبل - ومن ثم فالآراء متضاربة حول الترجمة السبعينية، ليس فقط حول ترتيبها وتنسيق أسفارها، بل حول اختلافها أحياناً عن النص العبرى، وترتيب العهد القديم العبرى^(١).

ومنها (رابعاً) أن الترجمة السبعينية تضم أسفاراً ليست شرعية، ولم ترد فى النص العبرى، ذلك لأن يهود الإسكندرية إنما قد اهتموا بنوع من الكتب عرف باسم «أبو كريفاء» Apocrypha، وحرصوا على نقل هذه الكتب إلى اللغة الإغريقية، ومن ثم فإن الترجمة السبعينية إنما تشتمل على أسفار لا تتضمنها العربية ولا الإنجليزية الرسمية، على سبيل المثال، فلقد أضاف يهود الإسكندرية كتاب السفر الثالث من كتاب المكابيين، ولم يكن فى الأصل حتى ضمن كتب «الأبو كريفاء» الاثنى عشر، والتي نشرت فيما بعد منفصلة فى إنجيل الملك «جيمس» فى عام ١٦١١م، ومن أسف أنه لم تصل إلينا نسخة واحدة من الأصل القديم الذى ترجم عنه، وأقدم نسخة لدينا ترجع إلى القرن العاشر الميلادى^(٢).

(١) فؤاد حنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٦-٢٧.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢١، محمد بيومى مهران، إسرائيل، ص ٤٩-٥٠، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣، وكذا:

P.W. Charles, The A Pocrypha and Pseuepigrphas of the Old Testament, 2 Vols., Oxford, 19/3; C.C. Torrey, The A Pocryyphal Literature, New Haven, 1948, p. 1.

ولعل الهدف من إضافة هذه الأسفار هو نقد الأوضاع الظالمة التي يعيش فيها اليهود والتي أشاعت الأمل في مستقبل أسعد، وقد كان اليهود يألفون هذا النوع من الأدب، عندما كانت بابل وآشور تهددان بالقضاء عليهم قضاء مبرماً، وما لبثوا أن عادوا إليه في الشطر الثاني من حكم البطالمة، كرمز للضغط الذي أحسوا به، والكراهية التي أحاطت بهم، عندما أثاروا حقد إغريق الإسكندرية عليهم^(١).

(٢) الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ ق.م):

نجح الملك السلوقي «أنطيوخس الرابع» (١٧٥-١٦٤ ق.م) في الاستيلاء على قبرص ومصر في عام ١٦٨ ق.م، ولكن روما سرعان ما أجبرته على الانسحاب منهما، ونقرأ في سفر المكابين الأول^(٢)، أن الملك السلوقي بعد أن عاد من مصر قد تحول إلى اليهودية، «فصعد إلى أورشليم بجيش كثيف، ودخل القدس بتجبر، وأخذ مذابح الذهب ومنازة النور مع جميع أدواتها ومائدة التنضيد والمساكب والجامات ومجامر الذهب والحجاب والأكاليل والحلية الذهبية التي كانت على وجه الهيكل وحطمها جميعاً، وأخذ الذهب والفضة والآنية النفيسة، وأخذ ما وجد من الكنوز المكنونة، وأخذ الجميع وانصرف إلى أرضه، وأكثر من القتل وتكلم بتجبر عظيم، فكانت مناخة عظيمة في إسرائيل في كل أرضهم، وانتحب الرؤساء والشيوخ وحارت العذارى والفتيان وتغير جمال النساء، وكل عروس اتخذ مرثاة، والجالسة في الحجلة عقدت مناخة، فارجت الأرض على سكانها، وجميع آل يعقوب لبسوا الخزي وبعد سنتين من الأيام أرسل الملك رئيس الجزية إلى مدن يهوذا فوفد على أورشليم في جيش كثيف، وخاطبهم سلام

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٧؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٢؛

وكذا: C.C. M. Cown, Hebrew and Egyptian , Apocalyptic Literature, p. 368.

(٢) سفر المكابين الأول ١: ٢١-٤١.

مكر فوثقوا به، ثم هجم على المدينة فجأة وضربها ضربة عظيمة وأهلك شعبها كثيراً من نسل إسرائيل، وسلب غنائم المدينة وأحرقها بالنار، وهدم بيوتها وأسوارها من حولها، وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشى، وبنوا على مدينة داود سوراً عظيماً متيناً وبروجاً حصينة فصارت قلعة لهم، وجعلوا هناك أئمة أئمة منافقين، فتحصنوا فيها ووضعوا فيه السلاح والطعام وجمعوا غنائم أورشليم، ووضعوها هناك، فصاروا لهم شركاً مهلكاً^(١).

وهذا يعنى أن الملك السلوقي «أنطيوخس الرابع»، إنما قد وضع حامية مختلطة من اليونانيين والإسرائيليين فصاروا يعتدون على أهل أورشليم، قتلوا ونهبوا وتدنيساً لمقدساتها، مما جعل أهلها يهربون منها وتغدو قفراً خراباً.

هذا وقد كان «أنطيوخس الرابع أبيفانس» يهدف إلى صهر ممتلكاته فى وحدة ثقافية، ومن ثم فقد «كتب الملك أنطيوخس إلى مملكته كلها بأن يكونوا جميعهم شعباً واحداً، ويتركوا كل واحد سنته، فأذعنت الأم بأسرها لكلام الملك»^(٢)، ولعل الرجل إنما كان يتبع فى ذلك السياسة التقليدية للأسرة السلوقية التى اعتبرت الهلينية القاسم المشترك الذى سيلتقى عنده جميع رعاياهم، ولكن أنطيوخس ذهب أبعد مما يجب وبلغ منه أن أعلن نفسه «إلهاً» أو «الإله الظاهر» (تيوس أبيفانس)، وقرن نفسه فى هذه المناسبة بـ «زفس أوليمبيوس»، وبما أن آلهة السوريين لم تكن غيورة، فقد منحت أتباعها امتياز عبادة الملك^(٣).

وقد حاول أنطيوخس الرابع اتباع تلك السياسة مع اليهود، فعمل جاهداً على تحويلهم عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية، وقد وجد تجاوباً لآرائه هذه من الأرستقراطية اليهودية، فضلاً عن

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٢١-٣٧.

(٢) سفر المكابيين الأول ١: ٤٢-٤٤.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

الأغنياء والطبقة المتطورة بين اليهود فى أورشليم، والذين تبناوا العادات واللغة اليونانية، ومن ثم فقد أصبح اللباس اليونانى شائعاً بين اليهود، وبدأ «الجمنازيوم» اليونانى فى الظهور بل إنهم حتى لم يعترضوا على تسميتهم «أنطاكيين» أو كما يقول سفر المكابيين الثانى «أن يكتب أهل أورشليم فى رعية أنطاكية»^(١).

وسرعان ما سار أنطيوخس الرابع فى هذا المجال شوطاً آخر، فأصدر أوامره للوالى «أثنيوس» بأن ينصب تمثالا للإله «زفس» فى معبد أورشليم، على أساس أنه مساو لرب إسرائيل «يهوه»، هذا فضلاً عن إقامة مذبح للإله اليونانى فى المعبد اليهودى، وكان ذلك - كما جاء فى سفر دانيال - «وتجعل الرجس المخرب»^(٢)، كما أن الملك السلوقى إنما أمر كذلك بأن تقدم للإله اليونانى القرابين، وأن يدعى اليهود إلى المشاركة فى الطقوس اليونانية، وأن يشتد ضد المتمردين على دعوته^(٣).

وقد استجاب كثير من اليهود إلى دعوة الملك السلوقى وأخذوا ينصرفون عن شرائعهم وتقاليدهم، ويندمجون فى تقاليد وطقوس اليونانيين^(٤)، بما فى ذلك «أونيئاس الثالث» الحبر الأعظم وأسرته، حتى أن شقيقه «ياسون» إنما ذهب فى تحمسه للحضارة الإغريقية، إلى حد أنه أضحى زعيماً للحزب المتأغرق فى أورشليم، وطمح إلى انتزاع منصب الحبر من أخيه بمساعدة السلوقيين^(٥).

(١) سفر المكابيين الثانى ٤ : ٩.

(٢) دانيال ١١ : ٣١؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٣) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٥) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٤؛ وكذا:

ونقرأ في سفر المكابيين الأول أن كثيراً من اليهود إنما «قد ارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودينسوا السبت، وأنفذ الملك كتباً على أيدي رسل إلى اورشليم ومدن يهوذا، أن يتبعوا سنن الأجانب في الأرض، ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة والسكيب في المقدس، ويدنسوا السبت والأعياد، وينجسوا المقدس والقديسين، ويبنوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام، ويذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة، ويتركوا بينهم قلقاً، ويقذروا أنفسهم بكل نجاسة ورجس، حتى ينسوا الشريعة وغيروا جميع الأحكام، ومن لم يعمل بكلام الملك يقتل، وكتب بمثل هذا الكلام كله إلى مملكته بأسرها، وأقام رقباء على جميع الشعب، وأمر مدائن يهوذا بأن يذبحوا في كل مدينة، فانضم إليهم كثيرون من الشعب كل من نبذ الشريعة فصنعوا الشر في الأرض، وألجأوا إسرائيل إلى المختبآت في كل موضع فرؤا إليه»^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «زفس أوليمبيوس» الذي أوجده «أنطيوخس الرابع» إنما كان يحمل اسماً يونانياً، فقد كان يحمل شخصيته «بعل الشرقي» كما كان يحمل «زفس» الغربي، وكان يعبد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية، ويمثل بلباس نصف سامي، ومع ذلك فقد كان المتمسكون بأصول الديانة والقوميون بين اليهود متحدين في معارضتهم الأكيدة^(٢).

على أن فريقاً من يهود قد تمرد وتمسك بالتقاليد الموسوية، مما أدى إلى أن ينقسم القوم إلى فريقين: الواحد، أثر التمسك بدينه وتقاليده، والآخر، يقبل الحضارة الإغريقية ويتغالي في الأخذ بها^(٣)، وقد وشى الفريق

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٤٥-٥٦.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ وكذا:

M. Rostovizeff, The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, 1641, p. 704.

(٣) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ وكذا:

W.W. Tarn, Hellenistic Civilization, p. 214.

الثانى بمعارضيتهم من الفريق الأول، مما كان سبباً فى أن يتعرض الأخيرون إلى التنكيل الشديد، هذا فضلاً عن أن السلوقيين إنما قد تشددوا فى إرغام الناس على تقاليدهم، وترك التقاليد الموسوية، مما أدى إلى انفجار الثورة، التى عرفت «بالثورة المكابية»^(١) فى عام ١٦٨ ق.م، بزعماء «متيتا بن يوحنا بن سمعان كاهن من بنى يوياريب»^(٢)، من أسرة الحسمونية من حسمون أبو جد متيتا من أبناء يهوياريب^(٣)، واتخذ بعد ذلك لقب «المكابى»، ومن ثم فقد بدأ دور جديد لبنى إسرائيل، طالأت أيامه إلى ما يقرب من القرنين ونصف القرن (١٦٨ ق.م - ٧٠ م)، تمتع بنو إسرائيل خلالها بشيء من الكيان المستقل، والسيادة فى بعض الفترات، وإن كان هذا الاستقلال فى أكثر الأحيان ذاتياً، تحت سيادة السلوقيين ثم الرومان، كما أنه كان يضيق ويتسع طبقاً للظروف التى تمر بها اليهودية^(٤).

ويعتز اليهود بهذه الثورة ويعدونها من مفاخرهم العظمى، وقد يكون ذلك حقاً من حيث يواغث الثورة وسيرتها، غير أنها شيت بمعكرات كثيرة من اليهود أنفسهم، مما هو شنشنة بنى إسرائيل الدائمة أبداً، فأضعفت نتائجها ومفخرتها، فاليهود لم يندمجوا جميعاً فيها، بل كان كثيراً منهم

(١) من أسف أنه ليس فى أسفار المكابيين التى يدور الكلام فيها حول مقدمات الثورة وسيرتها فى حقيبتها الأولى، ولا فى تاريخ يوسفوس الذى استغرقت أحداثها معظمها، تحليل ما لهذا الاسم (المكابى) ومن ثم فقد اختلفت الآراء حول أصل هذا التعبير ومعناه، فهناك من يرى أنه مشتق من الكلمة العبرية «مقبة» أى «المطرقة» بالإشارة إلى الضربات الساحقة التى أنزلت بالعدو، ومن يرى أنه بمعنى «مضرب» ومن يرى أنه بمعنى «الخبأ» لأن زعماء الثورة إنما قد اختبأوا فى أول الأمر فى المغاور، حتى هبأوا أنفسهم للثورة. (قاموس الكتاب المقدس، ٩١٣/٢؛ المطران الديس، المرجع السابق، ص ٢١٣؛ سفر المكابيين الأول ٢ : ٤؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XII, 6, I.

(٢) سفر المكابيين الأول ٢ : ١.

(٣) أخبار أيام أول ٧ : ٢٤.

(٤) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

يكيدون لها ولرجالها في مختلف المناسبات والأشكال، وظل كثير منهم على انحرافهم الخلقى والدينى، هذا فضلا عن أن كثيرا منهم إنما كانوا يحالفون السلطات السلوقية ثم الرومانية ويتعاونون معها ضد الثورة، أضف إلى ذلك أن ما كان ينشأ بين رجال الحركة من خلافات إنما كانت بسبب الاضطرابات في البلاد، التي أدت - إلى حد كبير - إلى قصر مدة سيادة المكابيين التامة، وخضوع يهود في أكثر فترات هذا الدور الجديد للسيادة الخارجية، كما أدى بالتالى إلى انهيار دولتهم آخر الأمر^(١).

وأيما ما كان الأمر، فهناك تمرد أو ثورة قام بها «متيتا» الكاهن، واتجهت في بادئ الأمر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير، أكثر منها ضد الحكومة المركزية، وقد نظم الثوار عصابات غير نظامية تعمل في التلأل، وتتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية، وكان هناك أتقياء (حاسيديم) بين الذين ثاروا على الملك السلوقى أنطيوخس الرابع، ولم يقبلوا بتدنيس يوم السبت، وذلك بالقيام بأعمال حربية، ومن ثم فقد أبيدوا بسهولة^(٢)، مما اضطر الثوار إلى القتال حتى في «يوم السبت» فهاجموا الجيوش السلوقية بقوة وحماس، حتى تمكنوا من قتل كثير منهم وهزيمة البقية، مما شجع الثوار على الطواف باليهودية وختن الأطفال الغلف وهدم المذابح الوثنية^(٣).

وفي عام ١٦٦ ق.م، مات «متيتا» فخلفه ولده «يهوذا» في قيادة الثورة المكابية (١٦٥-١٦٠ ق.م)، وانضم إليه إخوته وأنصاره، فتعقب المنافقين وأحرق الذين يفتنون الشعب، واشتهر إلى أقاصى الأرض، وهنا زحف «أبلونيوس» قائد السلوقيين بجيش كثيف من السامرة، وخرج «يهوذا» للقاءه

(١) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٢) سفر المكابيين الأول ١: ٦٢-٦٣، ٢٨٢.

(٣) سفر المكابيين الأول ٢: ١-٤٨.

وتمكن من هزيمته، فضلا عن قتله، وكذا أعداد كبيرة من جنوده، والاستيلاء على غنائم كثيرة، كان من بينها «سيف أبلونيوس» نفسه، والذي ظل «يهوذا» يقاتل به بقية عمره^(١).

وجاء أخبار هزيمة «أبلونيوس» إلى ملك السلوقيين، فجهز جيشاً آخر - على رأسه سارون، القائد العام لجيوش السلوقيين - فخاف أتباع يهوذا، وملاً الرعب قلوبهم، ولكن الرجل طمأنهم بأن «الظفر في الحروب ليس بكثرة الجنود، وإنما القوة من السماء» والتقى الفريقان عند «عقبة بيت حورون» - على مبعدة ١٢ ميلاً شمال غرب أورشليم - في معركة كتب النصر فيها للمكابيين وباء السلوقيون بالهزيمة، فاشتد غضب أنطيوخس وأرسل حملة أخرى - تحت قيادة بطليموس - «قوامها أربعون ألف راجل، وسبعة آلاف فارس»، وصام الإسرائيليون وتطهروا والتحموا مع الحملة عند «عمواس» فهني معركة أخرى انتصر المكابيون فيها كذلك، وأرسل الملك السلوقي حملة ثالثة كان نصيبها من النصر نصيب ما سبقها من حملات^(٢).

وهكذا أصبح الطريق إلى أورشليم أمام اليهود مفتوحاً، فالتجّت قواتهم إليها حتى وصلت إلى جبل صهيون، في الوقت الذي كانت فيه القوات السلوقية في قلعة «أكراه، خلف أسوار أورشليم المحصنة»^(٣)، وأخيراً احتلت أورشليم، فطهر المكابيون الهيكل، وأعيدت الذبائح اليومية، وأقيم «عيد هتوكة» (الكريس) - الذي ما يزال يحتفل به سنوياً - تخليداً لذكرى دخول المكابيين أورشليم، «وبنوا على جبل صهيون أسواراً عالية وبروجاً حصينة، لئلا تجيء الأمم وتطأه - كما فعلت من قبل - ، كما أقاموا جيشاً للحراسة، فضلاً عن تحصين «بيت صور» حتى يكون للشعب معقلاً تلقاء أدوم»^(٤).

(١) سفر المكابيين الأول ٣: ٥-١٢، محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٢) سفر المكابيين الأول ٣: ١٣-٦٠. (٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٤) سفر المكابيين الأول ٤: ١-٦١.

ويدو أن احتلال المكابيين لأورشليم - أو حتى أجزاء منها - إنما أثار الأمم المجاورة، ومن ثم فقد عزموا على أن «يبيدوا من بينهم من نسل يعقوب وطفقوا يقتلون ويهلكون من الشعب»، مما اضطر يهوذا إلى أن يخوض عدة معارك ضد «بنى عيسو فى أدوم عند أقربيتين»، وضد «بنى بيبان»، هذا فضلاً عن المعركة التى دارت عند «يعزير» - وهى بيت زرعة الحالية - ضد العمونيين، مما أدى إلى أن تجتمع الشعوب ضد بنى إسرائيل فى «جلعاد» من الشرق، وفى «الجليل» من الشمال، وأن يضطر «يهوذا المكابى» إلى أن يرسل فرقة من جيشه بقيادة أخيه «سمعان» إلى الجليل، وأن يقود هو فرقة أخرى إلى «جلعاد»، نجحت كل منهما فى مهمتها، فقتلت كثيراً من الأعداء، ودمرت كثيراً من المدن، وسلبت كثيراً من الغنائم، وهكذا «عظم الرجل يهوذا وإخوته جداً فى عيون كل إسرائيل وجميع الأمم التى سار إليها ذكرهم»^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اليهود إنما بدأوا منذ فترة طويلة قد ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد - ينظرون إلى العرب نظرة عدائية مطلقة^(٢)، ربما لأن العرب قد بدأوا يتخذون موقفاً موحداً من اليهود، ثم التوغل فى فلسطين، والاتحاد مع جيرانهم فى العمل، على منع اليهود من إقامة دولة يهوذا مرة أخرى^(٣)، ومن ثم فقد رأينا بعض الأعراب ينضمون إلى «تيموتاس» (١٦٦-١٦١ ق.م) أمير عمون (فيلادلفيا - عمان الحالية) فى نزاعه ضد اليهود^(٤)، وإن ذهب سفر المكابيين الأول إلى أن «تيموتاس» لم يحقق نصراً على اليهود^(٥).

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٥ - ٦٣.

(٢) Encyclopaedia Biblica, p. 273.

(٣) جواد على، المفضل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦٤٩/١، (بيروت ١٩٦٨).

(٤) J. Hastings, op.cit., p. 937.

(٥) سفر المكابيين الأول ٦: ٥، سفر المكابيين الثانى ٨: ٣٠، ٩: ٢.

(٣) الأسرة الحسمونية:

بدأت الحركة المكابية حركة دينية فى أول الأمر، ثم سرعان ما تطورت إلى ثورة قومية تهدف إلى تحرير البلاد، ولم يكن النزاع ضد القوات السورية فقط، بل كان نزاعاً بين المتعصبين والقوميين اليهود، الذين لم يترددوا فى إخلاصهم للنزعة العبرانية من جهة، وبين أنصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الهلينستى أو حزب الإصلاح من جهة أخرى، وكان النصر فى كلا النزاعين حليف المكابيين^(١).

وعندما قتل «يهوذا» فى معركة «السا» Elasa - على مبعدة ١٢ ميلاً إلى الشمال من أورشليم - فى عام ١٦٠ ق.م، انتقلت الزعامة إلى أخيه «يوناثان» (١٦٠-١٤٢ ق.م)، الذى استطاع أن يدخل أورشليم فى عام ١٥٢ ق.م، ليس فقط كزعيم محارب، ولكن أيضاً ككبير للكهنة، وحاكم فعلى لليهودية، وعندما قتل فى عام ١٤٢ ق.م، خلفه أخوه «سمعان» (١٤٢-١٣٥ ق.م)، الذى انتخب فى عام ١٤١ ق.م، كاهناً أعظم وحاكماً، ثم سرعان ما منح الملك السلوقى «ديمتريوس الثانى نيكاتور» (١٤٦-١٣٨ ق.م) اليهود الاستقلال تحت حكم «سمعان» ومن ثم فقد أخذ الحاكم المكابى يضرب النقود، وبدأت أورشليم عصراً جديداً، فأرخت الوثائق من ذلك الحين فصاعداً كما يلى: «فى السنة الأولى من حكم سميان الكاهن الأعظم والحاكم» وهكذا ولدت - كما يقول فيليب حتى - جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين سنة^(٢).

وكانت فترة حكم ولده «يوحنا هيركانوس الأول» (١٣٥-١٠٤ ق.م) الطويلة، ذات أهمية خاصة فى نمو الشعب اليهودى، فقد هاجم «يوحنا

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١١٤؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٨-٢٦٩؛

سفر المكابيين الأول، ١٣: ٢٤-٤٢، وكذا: Josephus Antiquities, XII, 6. 7.

المكابى» السامريين الذين استسلموا لمشروع أنطيوخس وهدم مدينتهم فضلاً عن معبدها الذى أقيم على جبل جرزيم^(١).

وفى الواقع فإن سياسة التوسع - على أيام يوحنا هيركانوس الأول - إنما كانت هى السياسة القومية وقت ذاك، حتى أن الرجل قد مَدَّ حدود دولته فى كل الاتجاهات، ومن ثم فقد ضمَّ إليه مناطق عقرون، وأماكن أخرى على الساحل، فضلاً عن «يافا» و«جازر»، وأما فى شرق الأردن فقد عمل «يوحنا» على احتلال «ميدبا» Medeba، والمناطق المجاورة^(٢)، هذا فضلاً عن أن الحاكم المكابى إنما قد أجبر الأدوميين الذين كانوا قد تهودوا فى عام ١٢٦ ق.م، على الاختتان، ومن ثم فقد انضم بنو عيسو إلى الإسرائيليين^(٣).

وأعقب وفاة «يوحنا هيركانوس الأول» فى عام ١٠٤ ق.م، فترة اضطراب وخلافات عائلية بين أولاده، انتهت بأن يخلفه فى دولته ولده الأكبر «يهوذا» أو «أرسطو بولس» (١٠٤-١٠٣ ق.م)، الذى استطاع إبان فترة حكمه القصيرة أن يمد حدوده إلى الشمال، فيغزوا بقية منطقة الجليل، وبعض المناطق حول جبل لبنان، وأن يحولها إلى الديانة اليهودية^(٤)، كما أنه كان - خلافاً لأبيه الذى نقش على نقوده لقب «يوحنا الكاهن الأكبر» - قد اتخذ لقب «ملك»، أو على حد تعبير المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» قد «وضع تاجاً على رأسه»، واتخذ لنفسه مع سائر ملوك السلالة المتأخرين أسماء يونانية بجانب العبرية، ثم سرعان ما أصبحت الكلمات اليونانية، على أيام خليفته، تستعمل على النقود بجانب العبرية^(٥).

(١) C. Roth, op.cit., p. 78; Josephus, op.cit., XIII, 42-3.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 77-78.

(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود فى بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧، ص ٧٢؛ سفر المكابيين الأول ٤: ٢٩، ٥: ٦٥، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 78; Josephus Antiquities, XIII, 9-1.

(٤) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 78.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩، وكذا: Josephus Antiquities, XIII, 11, 1.

وجاء بعد «أرسطوبولس» أخاه «ألكسندر جاني» (١٠٣-٧٦ ق.م)، والذي نجح في مد حدوده على طول الساحل الفلسطيني، على مقربة من الحدود المصرية، فضلاً عن الجانب الآخر من الأردن، وقد أصبحت الآن الدولة اليهودية تنافس، بل تزيد في الاتساع عن تلك التي كانت أيام المجد - على أيام داود وسليمان، عليهما السلام - فأصبحت فلسطين كلها، فضلاً عن المناطق المحيطة من بحيرة «ميروم» Merom، وحتى حدود مصر جنوباً، كما أنها أصبحت من الناحية الشرقية تضم مناطق واسعة في عبر الأردن، وأما في الغرب فقد أصبحت تضم كل السهل الساحلي تقريباً - ما عدا عسقلان - وهي المناطق التي لم يستطع ملوك إسرائيل القدامى السيطرة عليها أبداً^(١).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن هذه الأسرة الحشمونية، إنما كانت ذات أطماع بحرية، بدليل تلك السفن المحفورة على مقابر الأسرة في «مودين» Modein - وهي المدينة الحالية في مجاورات اللد^(٢) - غير أن دولة الحشمونيين هذه، إنما كانت غير متجانسة الشعوب، إذ كانت توجد هنا وهناك بعض المدن اليونانية التي تسكنها أقلية يهودية، كما أن السامريين - رغم هزيمتهم الكاملة - إنما قد استمروا في مقاومة امتصاص الدولة اليهودية لهم، إلا أن مناطق أخرى قد أصبحت يهودية تماماً، كما أن منطقة الجبل قد أصبحت منذ تلك الفترة واحدة من المراكز اليهودية الرئيسية^(٣).

وفي الواقع فإن منطقة الجليل - بوصفها الذي نعرفه من الإنجيل - إنما كانت من عمل «أرسطوبولس»، وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية، وأصبح الآن يسكنها «الإيتوريون» (يطور في التوراة) - وهم من أصل عربي، ولغتهم آرامية، وقد نجحوا في تكوين دولتهم في سورية المجوفة،

(١) C. Roth, op.cit., p. 78-79; M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 388-89.

(٢) المطران الدبس، تاريخ سورية، ٢٢٦/٢ (المجلد الثالث).

C. Roth, op.cit., p. 79.

(٣)

مخذين من «عنجر» عاصمة لهم^(١) - وقد خير سكان الجليل بين الطرد
مختان، ففضلت غالبية القوم المختان، ونتيجة لذلك كله، فإن الكثير من
سكان الذين عمل المسيح، عليه السلام، بينهم، واتخذ منهم أكثر تلاميذه،
ما كانوا من أصل غير يهودى، ويتكلمون العبرية ولكنة أجنبية (غير
عربية).

وهكذا فقد كان ينظر إليهم على أنهم أدنى من اليهود القدامى مرتبة،
غير جديرين بظهور «نبي» من بينهم.

هذا وقد اعتبر التصرف الذى قام به «هيركانوس» وولده
أرسطوبولس، سنة اتبعها آخرون من البيت الحشمونى فى معاملتهم المدن
الشعوب التى كتب عليها أن تقع تحت قبضتهم، وأعنى بتلك السنة:
اختيار بين اليهودية والإبادة^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن العرب إنما قد بدأوا منذ
بصر الملك النبطى «الحارث الثانى» - والذى حكم فى الفترة
١١٠-٩٦ ق.م) على رأى^(٣) وفى الفترة (١٣٩-٩٧ ق.م) على رأى آخر،
فى الفترة (١٢٠-٩٦ ق.م) على رأى ثالث^(٤) - والمعروف باسم
«إيروثيموس»، وربما كان هو الذى عناه «يوسف اليهودى»، فى أحداث عام
٩٠ ق.م^(٥)، وذلك حين لجأ إليه أهالى غزة يطلبون معونته أثناء حصار
الكسندرجانى (إسكندرجانيوس) لمدينتهم، إلا أنه لم يكن عند حسن

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩-٢٧٠؛ إشعياء ٩: ١؛ تكوين ٢٥: ١٥؛ أخبار أيام أول
١: ٣١؛ سفر المكابيين الأول ٥: ١٥؛ إنجيل متى ٤: ١٥.

(٢) إنجيل مرقس ١٤: ٧؛ لوقا ٢٢: ٥٩؛ أعمال الرسل ٧: ٢؛ يوحنا ١: ٤٦، ٧: ٤١، ٥٢؛ وكذا:
Josephus, Antiquities, XIII, 154, 11, 3.

(٣) J. Hastings, ERE, 89, p. 121; EI, III, p. 801.

(٤) جواد على، ٢٥/٣؛ وكذا:
F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 290.

(٥) Encyclopaedia of Islam, III, p. 801; J. Hastings, op.cit., p. 121.

ن به، على رأى^(١)، وأنه قدم إليهم ما يطلبون، على رأى آخر^(٢) ومن ثم بدأت العلاقات بين الأنباط واليهود تأخذ اتجاهًا آخر، بخاصة عندما رأى نباط أن المكابيين إنما يسعون إلى الاستيلاء على شرق الأردن، ثم التوغل أرض الأنباط نفسها، مما كان سببًا في أن يقف النبط في وجه السياسة كابية^(٣).

وفي عهد الملك «عبادة الأول» نجح الأنباط في إلحاق الهزيمة بكسندر جاني في معركة دارت رحاها على الشاطئ الشرقي لبحر جليل، ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سورية (منطقة حوران نبل الدروز اليوم)، أما «الكسندر المكابي» فقد فر إلى القدس، حيث قوبل ك بمعارضة شديدة، سرعان ما تحولت إلى عداء صريح، يتمثل في تدعاء أحد الحكام السلوقيين وتنصيبه ملكًا، وهكذا وضعت الظروف كسندر جاني بين خصمين قوين (ديمترىوس الحاكم السلوقي، وعبادة لك النبطي)، ومن ثم فقد رأى الكسندر أنه من الخير أن يكسب ود نباط حتى يستطيع الحفاظ على عرشه، فتنازل لهم عن «مؤاب» جلعاد، وأماكن أخرى كان يخشى من انضمامها إلى أعدائه^(٤).

وفي عهد «الحارث الثاني» (٨٥-٦٠ ق.م) كانت الأمور قلقة في لة يهوذا، ومن ثم فقد كان على الحارث أن يضع حدًا لهذا القلق فإن لم حل، فإن الأحزاب اليهودية ما كانت بقادرة على أن تتركه على الحياد،

F. Altheim and R. Stiel, op.cit., p. 290.

(فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤١٩.

جواد علي، ٢٦/٣؛ وكذا: The Universal Jewish Encyclopaedia, 8, p. 79.

CAH, 9, p. 409; Josephus, The Jewish War, I, IV, 34; J. Hastings, op.cit., (p.121; Encyclopaedia of Islam, III, p. 801.

وانظر: جواد علي، ٢٧/٣؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ٤١٩؛ محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الرياض، ١٩٧٧، ص ٥٠٨-٥٠٩.

وهكذا ما أن يمضى حين من الدهر، حتى يبدأ الجيش النبطى يهاجم يهوذا، ويشترك معها فى معركة ضارية عند «أديدا» Addida - وهى الحديثة الحالية على مقربة من اللد - ينهزم فيها جيش اليهود شر هزيمة، ويطلب «الكسندر جاني» الصلح على شروط الأنباط، التى تجاهلها المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»، ولم يقل لنا عنها شيئاً^(١).

وجاءت «سالومى ألكسندرا» (٧٦-٦٧ ق.م) بعد زوجها «الكسندر جاني» Alexander Jannai - الذى تزوجته بعد أخيه أرسطوبولس - وكان أخوها «سمعان» من قادة حزب الفريسيين، وإن كانت هى تميل - شأنها فى ذلك شأن زوجها - إلى الحزب الآخر، وعلى أى حال، فإن اعتلاء «سالومى الكسندرا» العرش إنما يشير إلى مكانة المرأة الممتازة فى حياة اليهود فى تلك الفترة، إذ أن كلا من ولديها «هيركانوس» و«أرسطوبولس» إنما كان صغيراً، وفى حاجة إلى وصى عليه، يدير شؤون الدولة نيابة عنه، وأياً ما كان الأمر، فلقد أصبح أكبر ولديها (هيركانوس) رئيساً للكهنة، بينما تولى الآخر (أرسطوبولس) قيادة الجيش^(٢).

وقد اتسم حكم «سالومى» بالهدوء بالنسبة إلى حكم الملوك السابقين، الذين خاضوا كثيراً من المعارك الحربية، وإذا كان ولدها «أرسطوبولس» قد قاد حملة فاشلة على دمشق، فقد نجحت الملكة اليهودية فى إبعاد غزو كان ينوى القيام به «تيجرانس» Tigranas ملك أرمينيا، عن طريق الرشوة والدبلوماسية، هذا فضلاً عن أن الملكة العجوز - التى كانت قد بلغت عامها الثالث والسبعين - إنما قد نجحت إلى حد كبير فى حفظ التوازن

(١) جواد على، ١٣١/٣، وكذا:

Josephus, Antiquities, XIII, XV, 2 Vol. II, p. 428; CAH, IX, p. 40; EP, p.

1932; J. Hastings, op.cit., p. 12.

C. Roth, op.cit., p. 82-83; M. Noth, op.cit., p. 387-388.

(٢):

بن عنصري الدولة المتنافسين - الصدوقيين والفريسيين^(١).

هذا وقد بدأ «أرسطوبولس» - بمساعدة الصدوقيين - يطالب بالعرش،
نما كانت أمه «سالومي» على فراش الموت تودع هذه الدنيا، ومن ثم فإنه
رعان ما قام - بمجرد وفاة أمه - بالهجوم على أخيه «هيركانوس» -
باحب الحق الشرعى فى عرش يهوذا - وبعد معركة صغيرة تأكد فيها
تصار «أرسطوبولس» أسرع فاتخذ مظاهر السلطة فى يهوذا، وهرب
هيركانوس إلى «أرتياس» (الحارث النبطى)، وأصبح «أرسطوبولس» ملكاً
لمى يهوذا فى الفترة (٦٧-٦٣ ق.م)، أى حتى الفتح الرومانى فى عام ٦٣
ل الميلاد^(٢).

وهكذا دعت الظروف السياسية فى يهوذا «الحارث الثالث» ملك
نباط (٨٧-٦٢ ق.م) إلى التدخل فى شئون يهوذا، حينما احتدم النزاع
بن ولدى «الكسندر جاني» و«سالومي الكسندرا» (هيركانوس
رستوبولس) وانقسام يهود إلى فريقين، الصدوقيين ويؤيدون أرسطوبولس،
فريسيين^(٣) ويؤيدون «هيركانوس» الذى فر إلى «البتراء» - بناء على
سيحة انتباتر - القائد الأدومى، والمستشار القوى فى يهوذا - لعله يجد
حمى عند «الحارث» النبطى، فضلاً عن إعادة التاج اليهودى إليه، وتثبيت

C. Roth, op.cit., p. 83; M. Noth, op.cit., p. 391.

C. Roth, op.cit., p. 83.

(نمت فى الدولة اليهودية وقت ذاك فرقتان، الواحدة: وتنظر إلى المعبد كرمز للدراسة ومركز
للعباداة، والأخرى تبحث عن المعرفة أينما وجدت، وبالتالى فقد كانت الأولى محافظة، بينما
كانت الثانية متحررة فى العقيدة والممارسة، وكانت إحدى الفرقتين تتكون من الكهنة، وتساندها
الطبقة الأرستقراطية وملاك الأراضى، بينما تضم الأخرى الطبقتين الدنيا والوسطى، وقد ساندت
الأولى الحكم المطلق بما فيه من سلطات رئيس الكهنة الموروثة بينما الأخرى تميل إلى
الديمقراطية وبالتدرج فقد أصبح الحزب الأول يعرف باسم «الصدوقيين» والآخر باسم
«الفريسيين» انظر: C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 83.

ملكه، على أن يعيد للحارث - في مقابل ذلك - المد الاثنى عشر، التي كان أبوه قد أخذها من العرب.

ويقبل «الحارث الثالث» العرض اليهودي، أملا في أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا، إن لم يقدر له أن يوجه إليها الضربة القاضية، وهكذا يوجه الحارث جيشاً - قوامه خمسون ألف رجل - لمهاجمة «أرسطوبولس» الذي سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة، فيتابعه الحارث إلى المدينة المقدسة، ويكاد يستولى عليها، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق في عام ٦٤ ق.م، ثم إرسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتدخل في النزاع القائم وقت ذاك، ولمنع الأنباط من الاستيلاء عليها^(١).

وهكذا يضطر الحارث إلى فك الحصار عن القدس، غير أن «أرسطوبولس» - الذي نجح في أن يضم إليه قائد الحملة الرومانية - سرعان ما يتعقب الأنباط، وهم في الطريق إلى «ربة عمون»، (فيلا دلفيا = عمان الحالية)، وهناك عند «بابيرون» Papyron، تدور معركة ضارية بين الفريقين، انتصر فيها «أرسطوبولس»، وقتل ستة آلاف من أتباع الحارث النبطي^(٢).

(٤) ظهور روما ونهاية الأسرة الحشمونية:

كانت روما في السنوات الأخيرة تنتقل من نصر إلى نصر، وكان تأثيرها ملموساً في غربي آسيا منذ فترة، فمنذ قرن مضى كان «يهوذا المكابي» يحس بالرغبة في إرسال مبعوث من قبله إلى إيطاليا لعقد معاهدة سلام وصداقة، ثم حذا حذوه أخواه - يوناثان وسمعان - هذا فضلاً عن أن النفوذ الروماني هو الذي أنقذ «يوحنا هيركانوس الأول» في عام ١٢٦ ق.م،

(١) تاريخ يوسفوس، ص ١١٠-١١٥، (دار صادر، بيروت)؛ وكذا:

Josephus, The Jewish War, p. 32; C. Roth, op.cit., p. 83-84.

(٢) جواد على ٣٣/٣. وكذا:

CAH, IX, p. 382; F. Altheim and R. Stüchl, op.cit., p. 302.

وأن الضغط الروماني كان من وراء انسحاب «تيجرانس» ملك أرمينيا في عام ٧٠ قبل الميلاد^(١).

وعندما وصل «بومبي» - القائد الروماني - إلى دمشق في عام ٦٤ ق.م، أرسل المتنافسان على عرش يهوذا (هيركانوس وأرسطوبولس) رسلا إلى القائد الروماني يطلب كل منهما أن تكون روما العظيمة إلى جانبه، بل إن بعضاً من الفريسيين - الذين كانوا يعتبرون هذا النزاع بنى الأخوين اليهوديين من الشئون العائلية للأسرة المالكة - إنما قد طلبوا من الرومان أن يجعلوا السلطة السياسية في فلسطين تحت أيديهم.

ومكث «بومبي» طويلاً حتى اتخذ قراره، لدرجة أن «أرسطوبولس» قد ظن أن القرار سوف يكون في غير مصلحته، ومن ثم فقد هرب إلى أورشليم، وعندما وجد نفسه مطارداً، أدرك أن المقاومة لا تجدى، فاتخذ طريقه نحو معسكر الرومان، عارضاً عليهم تسليم المدينة المقدسة لهم، غير أن أتباعه داخل أورشليم رفضوا تنفيذ أوامره، واعتصموا بجبل المعبد، لمدة ثلاثة أشهر، وفي يوم سبت من عام ٦٣ ق.م، دمرت حصونهم، وقتل رجالهم، ودخل «بومبي» المدينة المقدسة، وأصبحت ولاية يهوذا ولاية رومانية^(٢).

وبدأ «بومبي» Pompey تنظيماته الجديدة، فأدخل سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد، هو «ولاية سورية» Provincia Syria، وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية، وأصبحت عاصمتها «أنطاكية»^(٣)، بينما جعلت «قليقيا» ولاية قائمة بذاتها، وأبقيت اليهودية دولة خاضعة

C. Roth, op.cit., p. 84.

(١)

M. Noth, op.cit., p. 402-403; C. Roth, op.cit., p. 84; W. Keller, op.cit., p. 323.

(٢)

(٣) تقع أنطاكية على نهر العاصي، وعلى مبعده ١٥ ميلاً من ساحل البحر الأبيض، وقد أسسها «سلوقس نيكاتور» أحد قواد الإسكندر الأكبر في عام ٣٠٠ ق.م، ودعاها أنطاكية نسبة إلى أبيه «أنطيوخس» وقد صارت عاصمة السلوقيين (قاموس الكتاب المقدس، ١٢٤/١-١٢٥).

ضمن إطار ولاية سورية، ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية، والتي ضمها الرومان إلى ممتلكاتهم، قد أعيدت إلى وضعها السابق، ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات، وشكلت عشر من هذه المدن اتحاداً عرف باسم «الديكابوليس»^(١) وقد انضمت إليها مدن أخرى فيما بعد^(٢).

وفي عام ٥٧ ق.م، عين «أولوس جابينيوس» حاكماً على سورية (٥٧-٥٥ ق.م)، فأعاد تنظيم الأمور في اليهودية، ومن ثم فقد جرد الكاهن الأعظم «يوحنا هيركانوس الثاني» - حفيد أرسطو بولس - من رتبته الملكية، على أن يحكم البلاد كتابع لروما، كما كان يفعل أسلافه الكهان أيام السيادة الفارسية على اليهودية، كما قام «جابينيوس» بفرض ضرائب ثقيلة على السكان، وتقسيم الدولة إلى خمسة أقسام صغيرة، يحكم كلا منها مجلس (سنهدرين Sanhedrin) وذلك عقب ثورة فاشلة قام بها «الكسندر بن أرسطو بوليس»، هذا فضلاً عن أن «جابينيوس» إنما قام بإعادة بناء عدد من المدن اليونانية السورية، التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة، وبيسان ودور وغزة، ومنذ ذلك الحين - وطوال عصر مجد الإمبراطورية الرومانية - بقيت فلسطين ولاية رومانية^(٣).

(١) اتحاد الديكابوليس: أو «حلف المدن العشرة» والتي تبدأ حيث يتصل «مرج ابن عامر» بوادي الأردن، ثم تمتد نحو الشرق، وكانت هذه المدن التي كانت تسيطر على تلك المنطقة هي «بيت شان» (بيسان = سكيثوبوليس) وبيلاوديون (تل الأشعري) وجرش وفيلادلفيا (ربة عمون = عمان الحالية) وجدره ورافانا (الرافا في حوران) وكنائنا (القنوات) وهيبوس (قلعة الحصن جنوب شرق بحيرة طبرية) ودمشق، وقد أضيفت إليها ثمانى مدن بعد ذلك فأصبح العدد ثمانى عشرة مينة. (فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٠٩، ٣٥٠-٣٥١؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٤؛ وكذا: Pliny, V. 16.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٠٩؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 4, 4; M. Noth, op.cit., p. 404-405.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٠؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 5, 3; C. Roth, op.cit., p. 84-85; Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 405-406.

الفصل الثانى

نهاية اليهود فى فلسطين عام ١٣٥ م

(١) أسرة هيرودوس الأدومية

مرت الإمبراطورية الرومانية بعد مصرع «يوليوس قيصر» فى منتصف مارس من عام ٤٤ ق.م، بفترة عصيبة من الحرب الأهلية، انتهت بانتصار «أوكتافيان» (أوغسطس فيما بعد)، و«مارك أنطونيوس»، فى عام ٤٢ ق.م ثم اقتسم القائدان المنتصران الإمبراطورية فيما بينهما، فآلت الولايات الغربية لأوكتافيان، والولايات الشرقية - بما فيها سورية - لمارك أنطونيوس^(١).

ولعل من أهم ما قام به «مارك أنطونيوس» فى موضوعنا، أنه عمل على القضاء على سلطة المكابيين، وإقامة سلطة أخرى من الأدوميين على رأسها «هيركانوس» إلا أن زمام الأمور، إنما كان بيد «أنتيبتر» الأدومى الأصل وما أن جاء عام ٣٧ ق.م، حتى أصبح «هيرودوس» الابن الثانى لـ «أنتيبتر» ملكاً على أورشليم، بعد أن اتخذ له زوجة ثانية، هى حفيدة هيركانوس الثانى، بغية أن يربط عائلته بالعائلة الحشمونية، التى خلفها فى حكم اليهودية، واستمر هيرودوس (الذى عرف فيما بعد بالكبير) يحكم أورشليم لمدة ثلاث وثلاثين سنة (٣٧-٤ ق.م)، كان طوال تلك الفترة أداة طيعة فى أيدى الرومان الذين نصبوه ملكاً على اليهودية^(٢).

كان «مارك أنطونيوس» قد أعلن فى عام ٣٥ ق.م طلاقه من زوجته «أوكتافيا» أخت «أوكتافيان» كما أعلن شرعية علاقته بملكة مصر

(١) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١١-٣١٢، جواد على، ٣/٣٥-٣٦، قاموس الكتاب المقدس، ٩١٣/٢، وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 6, 4; The Jewish War, I, XIII, 8.

«كليوباترا» (كليوباترا السابعة ٥١-٣٠ ق.م)، ثم سرعان ما حضر إلى مصر، وأعلن تقسيم الإمبراطورية الشرقية بين أبنائها جميعاً، بينما جعل من «كليوباترا» نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها - بما فيها بلاد الأنباط - وهذا ما لم يجرؤ أحد من البطالمة من قبل على التفكير فيه إبان أعظم أيامهم^(١).

وهكذا أصبحت «كليوباترا» صاحبة الحق في جزية الإمبراطورية الشرقية، غير أن النبط إنما قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر، ومن ثم فقد طلبت «كليوباترا» من «مارك أنطونيوس» الإسراع في تأديب الأنباط.

وكانت سياسة «كليوباترا» تهدف إلى السيطرة على بلاد العرب الشمالية، فضلاً عما منحه إياها «أنطونيوس» في سورية وفينيقيا، ومن ثم فقد أرادت لتخلص من ملكي العرب واليهود سواء بسواء، وهكذا شجعت «هيرودوس» ملك اليهودية على محاربة الأنباط، ويبدو أن هيرودوس كان ينتظر هذه الفرصة، ومن ثم فقد أسرع بشن هجوم على الأنباط عند «اللد»، وما أن يتم له النصر هنا حتى يسرع بالهجوم عليهم مرة أخرى عند «قنا» في البقاع، ويكاد ينتصر عليهم، إلا أن موازين النصر سرعان ما تتغير إلى جانب النبط، وهكذا قتلوا عدداً كبيراً من جيشه، وأسروا آخرين، وفر هيرودوس إلى القدس^(٢).

وهنا بدأ «هيرودوس» يعد العدة لجوة أخرى، بخاصة وأن النبط قد بدأوا يهاجمون مدته، مما أدى إلى قيام سلسلة من المعارك تبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة، فضلاً عن الخسائر في الرجال والمعدات، ويزعم المؤرخ

(١) مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٢) تاريخ يوسيفوس، ص ١٦٨، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣١١-٣١٢، جواد علي،

٢٥/٣-٢٦ محمد يومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٥١٤-٥١٥، (الرياض

١٩٧٧)، وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 306-307; Josephus, The Jewish War, I, XVIII, 4, 1, 4.

اليهودى «يوسف بن متى» أن النصر كان فى النهاية إلى جانب اليهود، وذلك حين جمع «هيرودوس» قواته وأعاد تنظيمها، وعبر الأردن، والتحم مع الأنباط فى معركة ضارية عند «عمان» فأنزل بهم خسائر فادحة، فاقت خمسة آلاف قتيل، وأربعة آلاف أسير، فضلا عن سبعة آلاف آخرين لقوا حتفهم بأيدي اليهود، حينما حاولوا الفرار من الحصار، وكان نتيجة ذلك كله أن اضطر الأنباط إلى دفع جزية لهيرودوس، وإذا كان ما زعمه المؤرخ اليهودى صحيحًا، أو حتى قريبًا من الصواب، فليس هناك من ريب فى أن قوة هيرودوس لم تكن وراء هذه الانتصارات، وإنما كان السبب فيها قوة الرومان الطاغية، وجنود الأنباط غير المدربين^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فلقد شجع «هيرودوس» المصالح الرومانية على حساب المصالح اليهودية القومية، وقد نجح حيث أخفق «أنطيوخس الرابع أيفيائس» فى جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هليستية. وبدأ مشروع بناء أبنية عامة بدل به وجه البلاد تبديلاً تامًا، فقد بنى - مثلاً - فى أورشليم ميدانًا لسباق الخيل ومسرحًا ومدرجًا، وأقام ألعابًا عامة، وكانت كلها لا تتفق مع الديانة اليهودية^(٢)، كما بنى قصرًا فى الركن الشمالى للمدينة العليا (على الجبل الجنوبى الغربى) بالقرب من بوابة «يافا» الحالية، وأقام فى الطرف الشمالى للقصر الملكى ثلاثة أبراج كبيرة، وهى المعروفة «ببرج فاسيل» (أخيه)، و«برج هيكوس» (صديقه)، و«برج ماريامن» (زوجته)، لم يبق منها الآن، سوى «برج فاسيل» والمعروف بـ «برج داود» هذا فضلًا عن برج رابع سمّاه «بسيفينوس»، كان متصلًا على أيام الملك «أغريبا»
(٤١-٤٤ م) بسور المدينة الجديد الذى بناه والذى عرف بالسور الثالث^(٣).

(١) F. Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 360; Josephus, The Jewish War, I, p. 383;

وكذا: جواد علي، ٣٧/٣.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٣) عبد الحميد زايد، القدس البخلدة، ص ١٢١.

ولعل من أهم مباني هيرودوس في أورشليم إنما كان الهيكل أو المعبد، وقد بدأ بناءه عام ٢٠ ق.م - وهي السنة الثامنة عشرة من حكمه - وإن لم ينته البناء إلا في عهد «أغريبا الثاني»، وبالتحديد في عام ٦٤ م، وقد وسعت مساحته، إلى ضعف ما كانت عليه من قبل، هذا وقد بنى المعبد من كتل حجرية كبيرة، وغطيت واجهته بالذهب، كما بنى السور من كتل حجرية كبيرة مستطيلة، بلغت ١٩ مدماكاً، وكان ارتفاعه فوق سطح الأرض ثمانية عشر متراً وأما «قدس الأقداس» (منزل الرب) فقد غطيت واجهته بالذهب، وقسم إلى ثلاثة أقسام «مائدة للبخور، وأخرى لخبز التقدمة، فضلاً عن الشمعدان الكبير ذي الأفرع السبعة»^(١).

هذا وقد أحيط الهيكل بدور عدة، لعل أهمها: دار الأم، والدار الخارجية، ودار النساء، ودار إسرائيل، ودار الكهنة، وقد بنى دار السياج بين دار الأم ودار النساء، وكان فيه ثلاثة عشر باباً، منع منها غير اليهود، وكانت المزامير ترنم في دار إسرائيل، وأما دار الكهنة فقد كان أصحابها يغنون فيها، ويباركون الشعب، أما «السنهدريم» فكان يجتمع في مكان سمي بالبلاط، وهو غرفة، متصلة بالدار، التي فيها المذبح، الذي كان مبنياً من حجارة مبيضة بالكلس، وفيه ثقب لیسيل منها دم الذبائح، ثم غطى وجهه (أى المذبح) بالذهب^(٢).

هذا وقد بنى «هيرودوس» كذلك مدينة «قيصرية» - التي قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية - على ساحل البحر الأبيض المتوسط، - وعلى مبعدة ٤٤ ميلاً جنوبى عكا، ٤٧ ميلاً إلى الشمال الغربى من أورشليم - ، وذلك في عام ١٠ ق.م، وسماها كذلك (أى قيصرية) تكريماً لـ «أوغسطس قيصر» (٢٧ ق.م - ١٤ م)، هذا وقد كانت مدينة «السامرة» مقره المحبب فزينها بالأبنية، وأعاد تسميتها باسم «سبسطية» Sebaste أى

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢٢. (٢) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١٤/٢ - ١١٠٥.

«مدينة أغسطس» تكريماً لأوغسطس قيصر كذلك، حيث أن كلمة «سيباستوس» Sebastos اليونانية تعنى «أوغسطس» Augustus فى اللاتينية^(١).

هذا وقد تزوج «هيرودوس» من عشر نساء، كان له منهن أبناء كثيرون اشتد التنافس فيما بينهم على وراثة العرش، وأصبح القصر مسرح عشرات من المؤامرات والفتن، التى اشتركت فيها زوجات الملك وأقربائهن، هذا إلى جانب المؤامرات التى حاكها «هيرودوس» نفسه ضد أعدائه من يهود البلاد، وضد خصومه من حكام الرومان، فقد كان الرجل قاسى القلب، عديم الشفقة، يسعى وراء مصالحه ولا يتراجع عنها مهما كانت الخسائر، ومهما كانت صلتة بالضحايا، حتى أنه قتل عدداً من زوجاته وأقربائه خوفاً من مؤامراتهم، أو معارضتهم لحكمه المطلق وحتى أن قسوته بلغت حداً وصل به إلى أنه لم يشأ أن يودع هذه الدنيا - وهو فى السبعين من عمره - إلا بعد أن أمر بقتل وجهاء أورشليم ساعة موته، حتى يعم الحزن المدينة، ولا يجد السكان فراغاً للابتهاج بموت مليكهم المكروه^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عهد «هيرودوس» هذا، إنما تميز بمولد رسول السلام - سيدنا عيسى عليه السلام^(٣) - فى مدينة «بيت لحم» اليهودية، وطبقاً لرواية الإنجيل، فإن هيرودوس إنما قد أسرع بقتل جميع الأطفال فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون، وهنا رأى «يوسف النجار» - فيما يرى النائم - من يأمره بأن يأخذ الصبي وأمه (المسيح والعذراء)، وأن يلجأ بهما إلى أرض الكنانة، حيث بقوا هناك

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٢؛ قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٥/٢، ١٠٠٩؛ وكذا: M. F. Unger, op.cit., p. 470-71' Josephus, Antiquities, XV, 9, 6; Pliny, V. 14; Strabo, XVI, 2, 27.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ١٠٠٩/٢.

(٣) انظر عن الآراء التى دارت حول مولد المسيح: كتابنا هذا، ص ٣٠٩.

إلى وفاة هيرودوس (٤ ق.م)^(١)، الذى مرض بعد ذلك مرضاً خطيراً، وسافر إلى شرق الأردن للاستشفاء بحماماتها، ثم عاد إلى «أريحا» أسوأ مما كان عليه من قبل، حيث مات هناك، وهنا عادت أسرة المسيح - عليه السلام - إلى اليهودية ولكنها لم تقم فى «بيت لحم»، وإنما أقامت فى «الناصرة» بأرض الجليل، خوفاً على السيد المسيح عليه السلام، من خليفة هيرودوس وولده «أرخيلاس» (٤ ق.م - ٦ م)^(٢).

وحكم «أرخيلاس» بعد أبيه وبوصية منه، غير أن أخاه «هيرودوس أنتيباس» وهو الابن الثانى لهيرودوس الكبير من زوجته الرابعة السامرية «ملاكى»، ومن ثم فهو نصف أدومى، نصف سامرى^(٣) - قد نافس «أرخيلاس» على عرش اليهودية، فأخذ جزءاً كبيراً من المملكة، وإن لم يعط غير لقب «حاكم» فقط^(٤).

وهكذا أصبح «هيرودوس أنتيباس» حاكماً لمنطقة الجليل، وهو الذى بنى مدينة «طبرية» وسماها على اسم «طيبيريوس قيصر» (تيبيريوس ١٤ - ٣٧ م) وفى الواقع فإن هيرودوس إنما كان ذا وجهين - شأنه فى ذلك شأن أبيه وغيره من أفراد سلالته - فهو يهودى فى اليهودية، وهلنستى خارجها، وحين نخلع «أرخيلاس» فى عام ٦ م، وضعت اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام أو النواب الرومان الذين كان خامسهم «بيلاطس النبطى»^(٥).

(١) هناك من يذهب إلى أن المسيح إما أنه ولد فى أخريات عام ٥ قبل الميلاد، أو أوائل عام ٤ قبل الميلاد، أما الاحتفال بمولد المسيح فى ٥ ديسمبر، فقد بدأ فى القرن الرابع الميلادى، ومن ثم فربما كان ميلاده فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥ ق.م، وهذا يجعله سابقاً للتاريخ الذى وضعه «ديونيسيوس» (أى ٢٥ ديسمبر عام ١ م) بخمس سنوات. (قاموس الكتاب المقدس، ٨٦٤/٢).

(٢) إنجيل متى ٢: ١-٢٣؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 471; C. Roth, op.cit., p. 109.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢.

(٤) M.F. Unger, op.cit., p. 472; Josephus, Antiquities, XVII, 11, 4.

(٥) إنجيل لوقا ٣: ١؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٣؛ وكذا:

F. Josephus, Antiquities of the Jews, XVIII, 2, 3.

ويبدو أن علاقة «هيرودوس» (٤ ق.م - ٣٩ م) بالأنباط إنما كانت -
بادئ ذي بدء - طيبة، ومن ثم فقد تزوج هيرودوس من ابنة الملك النبطي
«الحارث الرابع» (٩ ق.م - ٤٠ م) إلا أن «هيرودوس» إنما قد تجرأ بعد حين
من الدهر، فطلق ابنة الحارث الرابع، ليتزوج من أم راقصة كان السبب في
مقتل «يوحنا المعمدان».

ونقرأ في الإنجيل أن هيرودوس أراد أن يتزوج من «هيروديا» امرأة أخيه
«فيلبس»، إلا أن «يوحنا المعمدان» قد أفتى بغير ذلك، ومن ثم فقد قرر
هيرودوس التخلص منه، غير أنه خشى غضب القوم، لأنه كان عندهم مثل
نبي^(١)، ومن ثم فقد اكتفى بإلقائه في غياهب السجون، وتنتهز «هيروديا»
فرصة الاحتفال بعيد ميلاد هيرودوس فتتفق مع ابنتها «سالومي» على أن
ترقص شبه عارية لعمها الملك، وحين تنتهي من رقصتها، ويفتن الملك بها،
تطلب منه أن يعطيها رأس يوحنا في طبق، وتفعل سالومي ما أرادت أمها،
وهنا يضطر هيرودوس إلى تنفيذ رغبة ابنة أخيه، بناء على وعد منه أن يعطيها
ما تريد، أيًا كان الذي تريد، حتى وإن كان نصف مملكته، وهكذا يأمر الملك
بقتل يحيى فوراً وبسرعة مذبوحاً بالسيف، وأن يؤتى برأسه على طبق، ليكون
هذا ختام الاحتفال ونهاية الاجتماع، وقدمت الرأس إلى «سالومي» وهذه
قدمتها إلى أمها «هيروديا»^(٢).

(١) ليس هناك من شك في أن «يوحنا المعمدان» نبي من أنبياء الله الكرام، وهو سيدنا يحيى عليه
السلام، وقد جاءت نبوته صريحة في القرآن الكريم (سورة آل عمران، آية : ٧٩)، وأما عصره
فقد كان على أيام المسيح عليه السلام وربما على أيام القيصر «أوغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م)
و«تيريوس» (١٤ - ٣٧ م)، وقد كان يحيى يعمد القوم، أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من
الخطايا (متى ٣ : ٥-٦) وقد عمد المسيح نفسه (متى ٧ : ١٢-١٦).

(٢) إنجيل متى ١٤ : ٣-١١، إنجيل مرقس، ٦ : ١٦-٢٨، تاريخ يوسيفوس، ص ٢١٤، قاموس
الكتاب المقدس، ١٠/١١/٢، فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٢٠-٤٢٢، عبد الرازق نوفل،
يوحنا المعمدان، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦١-٨٦، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 472، ثم
قارن: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/١-٣٠١، تاريخ الطبري، ١/١-٥٨٥، ٥٩٣، تاريخ
ابن خلدون، ١٤٤/٢.

والأمر بهذه الصورة يحتاج إلى وقفة، (فأولا) ليس هناك من شك في أن «يوحنا المعمدان» (سيدنا يحيى عليه السلام) نبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار، (وثانياً) لماذا يمنع يوحنا هذا الزواج؟، ومبلغ علمي أن اليهودية - دين هيرودوس وهيروديا - لا تمنع ذلك، بل تفرضه على المؤمنين بها، بل إنها إنما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج إلى الأخ المتوفى^(١)، فإذا كان ذلك صحيحاً، فإن التفسير الآنف الذكر للحدث الخطير، إنما هو تفسير مسيحي، وما كان هيرودوس مسيحياً، وإنما كان ملكاً يهودياً أدومياً على دولة يهودية، فالتاريخ حتى تلك اللحظة لا يتعامل مع ملوك - أو حتى شعوب مسيحية - كما أن يوحنا المعمدان لم يكن نصرانياً، حتى يفتي بشريعة النصارى، إلا أن يكون السبب هو الوسيلة التي تزوج بها «هيرودوس» من «هيروديا»، إذ أن هناك رواية تذهب إلى أن هيرودوس إنما ألقى بأخيه في غياهب السجون، ثم قتله قبل أن يتزوج من امرأته.

وأياً ما كان الأمر، فإن الحرب سرعان ما تدق طبولها بين اليهود والأنباط ولكن ليس بسبب النبي الكريم، وإنما بسبب طلاق ابنة الحارث من زوجها هيرودوس، فضلاً عن الاختلاف على بعض مناطق الحدود، وهكذا نشبت المعارك بينهما، وانتهت بانتصار الحارث النبطي في «جلعاد»، ومن ثم فقد استنجد هيرودوس بالإمبراطور الروماني «تبريوس» (١٤-٣٧م)، الذي أمر عامله في سورية بالقضاء على الأنباط، ولكن بينما كانت القوات

=

غير أن المراجع العربية (ابن الأثير - الطبري) للأسف، مضطربة في تأريخها لهذه الفترة، حتى أنها تذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى - قد سلط على اليهود «بختنصر» (نبوخذ نصر ٦٠٥-٥٦٢ ق.م) جزاء وفاً لما ارتكبه في حق النبي الكريم سيدنا يحيى عليه السلام، وأنه قتل منهم سبعين ألف رجل وامرأة مع العلم بأن العاقل البابلي إنما كان يعيش في آخريات القرن السابع، وحتى عام ٦٢ من القرن السادس قبل الميلاد، وأن سيدنا يحيى عليه السلام كان يعيش بعد ذلك بحوالي ستة قرون، حيث عاصر المسيح، عليهما السلام.

الرومانية تتحرك نحو «البتراء» تأتي الأخبار بوفاة القيصر، فتتوقف الحرب، وينجو الحارث الرابع، بل وتسوء حالة «هيرودوس»، فيضطر الرومان إلى تنحيته عن العرش في عام ٣٩م، ونفيه إلى أسبانيا، على أيام الإمبراطور «كاليجولا» (٣٧-٤١م) (١).

(٢) ثورة أعوام ٦٦-٧٠م وتدمير اورشليم:

في الواقع إن الجزء الأكبر من فلسطين، إنما أصبح بعد موت «هيرودوس الكبير» في عام ٤ ق.م، يحكم حكماً رومانياً مباشراً، فيما عدا الفترة (٤١-٤٤م) حينما عينت روما «أغريبا الأول» ملكاً، وهو حفيد هيرودوس الكبير من زوجته الحمونية «ماريا من» Mariamne، ليحكم جزءاً كبيراً من أراضى هيرودوس، وكانت مدة حكمه قصيرة، لم تتجاوز أربع سنوات (٢)، على أيام الإمبراطور «كاليجولا» (٣٧-٤١م) والإمبراطور «كلوديوس» (٤١-٥٤م) كان فيها محبوباً من اليهود، بسبب أمه الحسמוنية، وإن كانت صورته في الإنجيل قائمة، بسبب موقفه السيء من المسيحين (٣)، وبسبب ادعائه الألوهية (٤).

هذا وهناك ما يشير إلى أن «أغريبا» (أجريبا)، إنما قد ردم ما بين جبلى «موريا» و«بيزيتا»، ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء المدينة المقدسة كان يسمى «المدينة الجديدة»

وجاء بعد «أغريبا الأول» ولده «أغريبا الثاني»، وكان عند موت أبيه صغيراً، فرفض الإمبراطور الروماني «كلوديوس» تعيينه في مركز أبيه، ووضع اليهودية تحت وصايته، وبقي أغريبا يقيم في روما إلى أن نال أخيراً لقب

(١) تاريخ يوسفوس، ص ٢١٣، قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢؛ جواد على ٤٣/٣-٤٤، وكذا: Josphus, Antiquites, XVIII, VI,

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١٤١.

(٣) أعمال الرسل، ١٢: ١٩.

(٤) أعمال الرسل ١٢: ٢٠-٢٣، قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢.

«ملك»، وضمت إليه بعض مناطق لبنان الداخلية، واستمر ملكه فى الاتساع إلى أن حكم الإمبراطور «نيرون» (٥٤-٦٨ م)، فأضاف إليه مناطق كثيرة فى فلسطين والأردن، واستمر بملك حتى سقوط القدس فى عام ٧٠ م، فانتقل إلى روما، وهنا عاش مع أخته «برنيكى» التى كان يعاشرها كزوجة إلى أن مات فى عام ١٠٠ م^(١).

وفى الواقع فإننا إذا أردنا الحديث عن ثورة (٦٦-٧٠ م)، فعلينا أن نذكر أن الجماعات اليهودية كانت أقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية، وكانت الأرستقراطية قد أصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الأرستقراطى ويحتكرون الوظائف على تأييد روما، أما الفريسيون الذين كانوا يمثلون العامة من القوم، فقد تمكنوا بتقاليد دينهم، وهدفوا إلى تخريب اليهودية، ويتصل الفريسيون من حيث مثالياتهم بالحسيديم Hasidim.

وقد عومل اليهود منذ عهد «بومبى» كجماعة متميزة بسبب الوجدانية فى دينهم، فكانوا فى عهد الأباطرة يعفون من الخدمة فى الجيش، ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور، فلم يطلب منهم المساهمة فى عبادة الحاكم الرومانى المقرونة بتقديم القرابين له، وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغذون شعورهم القومى، وأدى هذا إلى اصطدامات اتسعت، فأصبحت ثورة قومية فيما بين عامى ٦٦، ٧٠ م^(٢).

وكانت بداية النزاع اليهودى الرومانى فى عام ٦٤ ق.م، عندما جاء «جسيوس فلورس» كحاكم رومانى لليهودية، وقد تميز عهده بالمذابح، مما زاد من اشتعال نيران الغضب فى قلوب يهود، وفى عام ٦٧/٦٨ م عهد الإمبراطور «نيرون» بمهمة قمع الثورة إلى قائده «فسباسيان» الذى أخضع

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١٢/٢.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

منطقة الريف والحصون المنعزلة دون مقاومة كبيرة^(١)، كما تمكن كذلك من عزل أورشليم عن فلسطين، غير أن القائد الرومانى بينما كان يتجه إلى أورشليم لضرب الحصار من حولها تأتى الأخبار من روما بوفاة الإمبراطور «نيرون»، فتوقف عن الحصار، وذهب إلى روما^(٢).

وعندما أصبح «فسباسيان» إمبراطوراً (٦٩-٧٩م)، عهد بمهمة القضاء على الثورة إلى ولده «تيتوس» الذى ضرب الحصار حول أورشليم مباشرة - ولمدة خمسة أشهر - بقوات كبيرة، مكونة من أربع فرق، بالإضافة إلى المرتزقة، وقد اندفعت إلى أورشليم فرق رومانية أخرى، وأحاطت بالمدينة من كل جهة.

ويوصف مصير المحاصرين المفجع من ميثاق متبادل بين اليهود، تعهدوا فيه بإبادة أنفسهم، عندما كان جنود الرومان يفتحون المدينة المقدسة، ذلك أن القوم - بعد أن أبادوا نساءهم وأولادهم - توقف كل منهم عن القتال، ورمى سلاحه حول أفراد عائلته المذبوحين، وقدم رقبتة لضربه بسيف واحد من أولئك الذين وقعت القرعة عليهم بالقيام بهذه المهمة الأليمة، وقد كتب الوصف التالى مؤرخ يهودى ساهم بنفسه فى هذه الحرب، وهو «يوسف بن متى» حيث يقول:

كان الأزواج يضمنون زوجاتهم بخان، ويحملون أطفالهم بين أذرعهم ويتعانقون عناق الوداع، والدموع تترقرق فى مآقيهم، ولكنهم نفذوا فى الوقت ذاته ما اعتزموا عمله، كأنهم يعملون ذلك بأيد غريبة، وقد جعلوا عزاءهم لضرورة ما قاموا به، تفكيرهم فى المصائب التى سيقاسونها فيما لو سقطوا بأيدي أعدائهم، وكانوا فى الحقيقة رجالا تعساء، بسبب الضرورة

(١) Diodorus Siculus, LXIII, 22,1; F. Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3-4.

(٢) C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 103; M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 441.

التي وجدوا أنفسهم فيها، وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم وأطفالهم بأيديهم أهون الشرور التي تنتظرهم»^(١).

وبدأ «تيتوس» في مهاجمة أورشليم، ونجحت جيوشه في دخول المدينة المقدسة في سبتمبر من عام ٧٠م، وأضرمت النار فيها، وهدم المعبد المزخرف الذي بناه «هيرودوس الكبير»، فوق أبنية متعاقبة في نفس الموقع، وأشعلت النار في «قد الأقداس»، ويقدر المؤرخ اليهودي - والمعاصر للأحداث - «يوسف بن متى» عدد القتلى بمليون وثلاثمائة وخمسين ألفاً، هذا فضلاً عن تسعمائة ألف آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق، كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعة والأوبئة والمذابح.

ويعلق «هنتنجون» - وهو جغرافي يهودي لا يخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها دون شك، ويمكننا نحن أن ننبتها ونعدها خرافية تماماً، ذلك لأن الأدلة التاريخية وإشارات التوراة نفسها، تضع كل تعداد اليهود - في أزهي عصورهم - في حدود تقصر دون ذلك كثيراً جداً، ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى، ومن ناحية أخرى، فإن البعض إنما يقدر عدد من أيدوا من اليهود في هذه التوراة، بما لا يقل عن ستمائة ألف، فإذا صح هذا الرقم - ولعله ربما كان أدنى إلى العقل - ، فذلك انقراض جنسى حقيقى، لم يكد يترك من يهود شيئاً^(٢).

وأما المعبد اليهودي في أورشليم، فقد بلغ من جسامه وقسوة تهدمه في هذه الثورة، أن ضاعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد، إذا كان المعبد قد بنى على التل الشرقى أو الغربى من أورشليم، وقد فشلت جميع المحاولات التي بذلت لإعادة بنائه بالاستناد إلى وصف التوراة وحدها^(٣).

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٥، وكذا: Josephus, The Jewish War, VII, 9, 1.

(٢) جمال حمدان، اليهود أثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٩-٢٠، وكذا:

E. Huntington, Palestine and Its Transformation, Boston, 1911.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٥.

وعاد «تيتوس» إلى روما، وقام هو ووالده بموكب كبير عرضت فيه كنوز المعبد، وأخصها «الشمعدان الذهبي»، ذلك أن أحد الجنود الرومان قد اختطف الشمعدان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق، وحمله في موكب النصر، وقد سار أسرى اليهود - وعلى رأسهم القائد سيمون بار جيورا، الذي أعدم بعد ذلك - في موكب النصر، وتخليداً لذكرى انتصار تيتوس هذا على أورشليم، أقام القائد الروماني في ساحة روما «قوس نصر» دعاه Triumphal Arch of Titus، وسجل عليه كثيراً من المناظر لعل أهمها، منظر موكب الأسلاب التي جئ بها من أورشليم، فضلاً عن مقصورة الشمعدان^(١).

وهكذا أضيف فصل روماني في تاريخ الشتات اليهودي Diaspora إلى الفصول الآشورية والكلدانية، وخيم الخراب على أورشليم، وهدم كل شيء فيها، وصدق فيها قول المسيح، عليه السلام: «يا أورشليم... يا أورشليم... يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها، كم أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا، وها هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً»^(٢) وقوله: «الحق أقول لكم: إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر، لا ينقض»^(٣).

وعلى أي حال، فلقد تبع ذلك كله انحطاط ديانة يهود وتدهورها، تبعاً لانحطاط المؤمنين بها وتدهورهم، هذا فضلاً عن الدور الذي لعبته الأسس القومية الضيقة - إلى جانب بعض مظاهر طقوسها - في عدم انتشارها بين غير اليهود، ومن ثم فقد فشلت جميع محاولات علماء يهود - ومنهم فيلون السكندري^(٤) في تقريب اليهودية إلى العقلية اليونانية الرومانية^(٥).

(١) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٤٦؛ وكذا: Werner Keller, The Bible as History, 1967, p. 388; C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 103-107.

(٢) متى ٢٣: ٣٧-٣٨. (٣) متى ٢٤: ٢.

(٤) فيلون اليهودي: سكندري عاش في الفترة (٢٠ ق.م - ٥٠ م)، جعل شريعة موسى أساس الفلسفة، وقال إن الكائنات بادئة من الله، ونازلة إلى المائدة، وقد كان لهذه التعاليم أثر عميق في الكتاب اليهود والمسيحيين. (الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٣٥٢، القاهرة ١٩٦٥).

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٣) ثورة باركوخبا (١٣٢-١٣٥ م) :

فقد الإسرائيليون الكثير - كما أشرنا آنفاً - فى مذابح تيتوس عام ٧٠م، وأقام الحاكم الرومانى فى مدينة «قيصرية»، وأخذ يراقب أورشليم، عن طريق حاميته التى كانت هناك، وبدأ الربانيون فى الاهتمام بشئون اليهود الدينية، حتى لا تتأثر باتجاهات روما، وأصبح «الكنيس» هو ملتقى اليهود، واستمر لأورشليم طابعها اليهودى، على الرغم من وجود الحامية الرومانية بها، فضلاً عن جماعات غير يهودية كانت هناك.

وفى عام ١٣٠م، قام الإمبراطور الرومانى «هادريان» (١١٧-١٣٨م) بزيارة سورية - بعد عودته من زيارة قام بها لمصر - فزار مدينة أورشليم وأصدر عدة قرارات، منها تحريم تقديس يوم السبت، وعادة الختان، وتحويل أورشليم إلى مستعمرة رومانية، مما أغضب اليهود كثيراً، وأدى إلى اشتعال الثورة فى عام ١٣٢م، بقيادة «سيمون باركوخبا» Simon Bar Kohba^(١).

ونجح الثوار فى الاستيلاء على بعض معاقل الرومان، وأخذ أورشليم والاستقلال بها لمدة ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥م)، وهكذا غدت أورشليم كعاصمة سياسية، ومركزاً دينياً، طوال هذه الفترة، وضربت العملة باسم «سيمون باركوخبا»^(٢).

وأخيراً اضطر «هادريان» إلى استخدام منتهى العنف فى قمع الثورة، فعهد إلى قائده «يوليوس سيفيروس» بالقضاء على الثورة، ونجح القائد

(١) باركوخبا: تعبير آرامى بمعنى «ابن الكوكب» وقد تكون فيه إشارة إلى سفر العدد (٢٤: ١٧)، وبعد فشل الثورة دعاه اليهود «باركوزيبا» Bar Koziba بمعنى ابن الكذاب. (فيلب حتى، المرجع السابق، ٣٧٧).

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٤، وكذا:

W. Keller, op.cit., p. 389; M. Noth, op.cit., p. 451-452; A. Rienberg, Ancient Jewish Coins, 1927, p. 33F.

الرومانى فى مهمته، حيث انتهت الثورة عند «بيت ثير»^(١) - على مبعدة بضعة أميال جنوب غرب أورشليم - فى أغسطس من عام ١٣٥ م، وقبض على «باركوخبا» ونكل به، ثم قتل، واستولى الرومانى على أورشليم، التى هدمها «هدريان» تمامًا، وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كابيتولينا» Aelia Capitolina وأبدل المعبد القديم بمعبد كرس للإله «جوبيتر كابيتولينس» Jupitee Capitolinus، وقام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود فى فلسطين، كدولة وكقومية، فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة، ويقدر «ديودور الصقلى» عدد القرى التى دمرت بتسعمائة وخمس وثمانين قرية، وعدد القتلى من السكان بخمسمائة وثمانين ألفاً^(٢).

ورغم ما فى هذه الأرقام من مبالغات، فإن اليهود، إنما قد طردوا فعلا من فلسطين إلى كل أجزاء الإمبراطورية الرومانية، وكان هذا هو التاريخ (أى عام ١٣٥ م) الذى انتهت فيه نهائياً، علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً، إنه الخروج الأخير، كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص، وحتى ندرك مدى ضلالة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو أربعين ألفاً.

أما ما تبقى من هذا وذاك من يهود فلسطين، فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصاً فيما بعد، بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية، ولعل أهم تلك البقايا «السامريين» الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلفة فى «نابلس» (شكيم القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مائة أو مائتين، وفى بداية القرن التاسع

(١) تذكر التوراة فى سفر يشوع (٥٩ : ١٥) اسم «بيت عنوت» ، وهناك شك إن كانت موجودة فى القرن الثانى الميلادى أم لا ؟ وانظر: M. Noth, op.cit., p. 453.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٧، وكذا: مصطفى كمال عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٩٥-١٩٦.

M. Noth, op.cit., p. 453-454.; H. Strathmann, PJB, 23, 1927, p. 92F; A. Schulten, ZDPV, 56, , 1933, p. 180F.

عشر الميلادى لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد عن عشرة آلاف نسمة (١).

(١) جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٠-٢١؛ وانظر: فؤاد حسنين، المجتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى اليوم، القاهرة ١٩٦٧، ص ٥-١٥.

خاتمة

تفرق اليهود بعد ذلك فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين، الذى وصلوا إليه منذ القرن الثالث الميلادى، حيث تحولت «فرانكونيا» بالذات إلى قاعدة رئيسية، ونواة لهم، وكادت عاصمتها «فرانكفورت» أن تكون عاصمة «يهود الشتات» الجديد، ومنذ ذلك الحين نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة «فرانكفورت» واليهود ظلت حتى يومنا هذا.

ثم أتت العصور الوسطى بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا - مثلما أثارتها ضد العرب خارجها، وعلى أطرافها ومشارفها - هناك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا، ففى القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤م) اختفى يهود فرنسا تمامًا، بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة، أما يهود إيطاليا فظلوا متفوقين بها، حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع، وحيث تلقوا، فضلًا عن ذلك - هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد.

أما يهود ألمانيا وأسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصر الحديث، فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى أو الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية، وجنوب أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى، أعنى ثنائية «الإشكناز» Ashkenazim و«السفاردى» Sephardim - وهما كلمتان قديمتان فى التوراة فاستعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى، لتمييز بين يهود ألمانيا، ويهود أسبانيا على الترتيب - اعتقادًا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهوذا، ويهود أسبانيا من نسل

قبيلة بنيامين، والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم «أرستقراطية» اليهود على الأساس الدينى، غير أن «الإشكناز» إنما يؤلفون الأغلبية الساحقة عددياً (٨٠ إلى ٩٠ ٪ فيما يقدر)، والطبقة المسيطرة المتفوقة حضارياً إلى حد يحتقرون معه «السفارديم» احتقاراً لا يحفلون بإخفائه^(١).

وهكذا تفرق اليهود فى أنحاء العالم يلاقون النجاح والاضطهاد، والتسامح والتفرقة، بدرجات متفاوتة من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، وفى كل هذا، بقى اليهود طوال هذه العصور يهوداً، ينظرون إلى الماضى بأسى، ويشكون فى كل ما هو غير يهودى، كما كان غير اليهود من أقوام ينظرون إليهم دائماً وأبداً على أنهم غرباء^(٢).

وانقطعت علاقة اليهود بفلسطين - سياسياً وقومياً - وإن ظلوا ينظرون إلى أورشليم - مَثَر هيكَل الله المقدس - وكأنها حاضرتهم الكبرى، وبقى الأمر هكذا، حتى القرن الثامن عشر الميلادى، لم يتجاوز تعلق اليهود الروحى بنصوص التوراة وطقوس الأعياد والاحتفالات الدينية، وكانت دوافع رغبة قسم من اليهود فى العودة إلى فلسطين دينية صرفة، وهكذا بقى اليهود، حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يتساءل: عما إذا ما كان اليهود شعباً - أى أمة بلا وطن - أم هم مجرد جماعات تمثل ديانة معينة، وبخاصة وأن اللفظ اللاتينى Judaism فى العصور الوسطى، لم يكن يفرق بين الأمرين، والأمر كذلك بالنسبة إلى شعور اليهود إزاء الأمرين^(٣).

وجاء القرن التاسع عشر الميلادى، وأثار مسألة القومية اليهودية، لأن القومية كانت على كل لسان فى البلاد التى يكثُر فيها اليهود - وبخاصة

(١) جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢١-٢٢.

(٢) Don Peretz, The Middle East Today, U.S.A., 1963, p. 244.

(٣) James Parker, A History of the Jewish People, 1964, p. 172.

بولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولندا - فخطر لليهود أن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعدهم الدول على احتلاله، ومن ثم فقد بدأ اليهود يفكرون في «الوطن القومي» بل سرعان ما اندفعوا إلى فكرة «الدولة اليهودية» ولم يقنعوا بالوطن لمجرد السكنى والتعمير^(١).

ومن هنا ظهرت الحركة الصهيونية الحديثة كحركة سياسية، قامت في شرق أوروبا من جراء اضطهاد اليهود في روسيا وبولندا وألمانيا، بقصد إسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودي، ومن هنا كانت الصهيونية في القرن التاسع عشر الميلادي، تطوراً لما كان يسمى بالمشكلة اليهودية في أوروبا^(٢).

وفي ٢٩ أغسطس من عام ١٨٩٧ م، انعقد أول مؤتمر صهيوني عالمي - ولمدة ثلاثة أيام - في مدينة «بال» بسويسرا بزعامة «تيودور هرتزل» (١٨٦٠-١٩٠٤ م)، وتمخض المؤتمر عن قرارات ثلاث، أولها: ضرورة إنشاء وطن قومي لليهود، وثانيها: ضرورة جعل اللغة العبرية لغة يتحدث بها اليهود في جميع أنحاء العالم، وثالثها: إنشاء صندوق يدفع له كل يهودي جزءاً من المال، وينقسم الغرض من تمويل الصندوق إلى شقين: الأول الإنفاق على سفر الشبان اليهود إلى فلسطين، والثاني لشراء الأراضي في فلسطين وإعطائها لليهود^(٣).

وفي العقد الأول من القرن العشرين بعد الميلاد - وفي عام ١٩٠٧ م على وجه التحديد - حدث أول لقاء بين الصهيونية والاستعمار الحديث، ذلك أن بريطانيا التي كانت تملك أكبر إمبراطورية وقت ذاك، إنما كانت

(١) عباس العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣، ٢١، ٢٣.

James Parker, A op.cit., p. 172-174.

(٢)

(٣) انظر: ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، القاهرة ١٩٧٠، ج ١، ص ٧٧-٩٤، وكذا:

Don Peretz, op.cit., p. 248-250; J. Parker, op.cit., p. 184-185; C. Roth, op.cit., p. 411.

تخشى من أن يصيب إمبراطوريتها، ما أصاب غيرها من إمبراطوريات كبرى سبقتها فى التاريخ القديم والوسيط، وتلاشت على مر الزمن، وتتابع التاريخ، ومن ثم فقد حاولت أن تؤمن مستقبلها معتمدة فى ذلك على الحلول العلمية، فجردت نخبة من العلماء فى التاريخ والآثار والجغرافية والاقتصاد من علماء الدول الخمسة الكبرى المستعمرة فى ذلك الحين - وهى إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال - وانهقد المؤتمر بلندن فى عام ١٩٠٧م، ثم أصدر وثيقة خطيرة سرية تعرف فى التاريخ الدولى باسم «وثيقة بترمان» - نسة إلى رئيس وزراء بريطانيا كامبل بترمان - الذى وجه إلى العلماء رسالته المشهورة، ومفادها : أن الإمبراطوريات تقوم عادة ثم تقوى ثم تأخذ فى الزوال تدريجياً، وضرب لذلك أمثلة بإمبراطوريات الفراعنة، وآشور وبابل وروما وغيرها، ثم طرح «بترمان» تساؤله : فهل لديكم أيها السادة وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الإمبراطورية البريطانية، وتأخر مصير الاستعمار الأوروبى ؟.

وقد أجاب العلماء على هذا التساؤل بعد الدراسة، بأن الخطر الذى يهدد الاستعمار إنما يكمن فى البحر الأبيض المتوسط وفى جنوب شرقية على وجه التحديد، حيث يعيش فى هذه المنطقة شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ، ومقومات التجمع والترابط والاتحاد، وخاصة إذا دخلت المنطقة مكتسبات الثورة الصناعية واستخدمها الشعب، فعندئذ سيكون هذا عاملاً مدمراً للاستعمار وبناء على ذلك يمكن معالجة الموقف على النحو التالى :

١ - أن تعمل الدول ذات المصالح المشتركة على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها، وإبقاء شعوبها على ما هى عليه من تفكك وتناحر وتأخر.

٢ - ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى، واقترحت اللجنة لذلك ما يأتى : إقامة حاجز بشرى قوى وغريب، يفصل الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا، والذى يربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يجب أن تعيش بهذه المنطقة -

وعلى مقربة من قناة السويس - قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة.

وقد وجد الاستعمار ضالته المنشودة في «اليهود» الذين كانوا - إلى جانب العاملين السابقين - يحلمون بإنشاء وطن قومي يهودى فى فلسطين، يحققون به جشع عقول مريضة من يهود فى أرض الشرق العربى، متوارين خلف ستار من نصوص أوردها يهود السبى البابلى فى التوراة، تجعل أرضنا العربية من النيل إلى الفرات، وكأنها هبة من «يهوه» رب إسرائيل لشعبه إسرائيل^(١).

وفى عام ١٩١٧م نجح الدكتور «حايم وايزمان» (١٨٧٤-١٩٥٩م) - والذي أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل - نجح فى الحصول على «وعد بلفور» فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧م، على هيئة رسالة كتبها «آرثر جيمس بلفور» وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت، إلى «آدموند روتشيلد» رئيس الجمعية الصهيونية فى بريطانيا: وهذا نصها:

«عزيزى اللورد روتشيلد: يسرنى أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أنه يفهم بوضوح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية من سكان فلسطين، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسى فى أى دولة أخرى»^(١).

(١) انظر: محمد يومى مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول، العدد ٦٦، ص ٣-١٥، العدد ٦٧، ص ٥-١٥، الإسكندرية ١٩٧١، التوراة، سفر التكوين، ١٣:

وانتهت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) باحتلال إنجلترا لفلسطين، وكان هذا الاحتلال تمهيداً لإنشاء وطن قومي لليهود على هذه الأرض العربية، وتعيين السير «هربرت صمويل»، والذي أصبح زعيماً لحزب الأحرار فيما بعد (١٩٢٧-١٩٢٩) مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين (١٩٢٥-١٩٢٠)، وكان هذا آل «هربرت» يهودى الديانة، صهيونى العقيدة، ومن أشد المتعصبين، ومن ثم فقد عمل منذ وصوله إلى فلسطين على تنفيذ وعد بلفور، وإقامة الدولة اليهودية، فكانت ثورات العرب الفلسطينيين فى أعوام ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٩، ١٩٣٦ م^(٢).

وفى عام ١٩٤٠ م، تألفت وزارة «ونستون تشرشل»، فكسب اليهود بذلك رئيس الوزراء ذا الميول الصهيونية، كما كسبوا كذلك وزراء آخرين فى الوزراء لهم نفس الميول، وينجح «وايزمان» فى إقناع إنجلترا بتكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء^(٣)، وإلغاء الاتجاه المضاد إلى تكوين فرقة فلسطينية عربية ويهودية، وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش إسرائيل، الذى حارب خلال الساعات الحرجة التى تلت إعلان قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨ م، وقد كانت الجهود التى بذلت من أجل

(١) ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ٣٨٥/١، محمد محمود السروجى، وعد بلفور والعوامل التى ساعدت على إصداره، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ١٦، ١٩٦٣، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 413-414; G. Antonius, The Arab Awakening, The Story of the Arab National Movement, U.S.A., 1939, p. 266-267; J. Loder, The Truth about Mesopotamia Palestine and Syria, London, 1923, p. 31; M. V. Seton- Williams, Britain and the Arab States, 1948, p. 122-123.

(٢) أحمد طربين، محاضرات فى تاريخ قضية فلسطين، القاهرة ١٩٤٩، ص ٧٦-١٨٣، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 415F; J. Parkers, op.cit., p. 210-212; S. Fisher, The Middle East, London, 1960, p. 440.

(٣) كان لليهود وحدات محاربة يهودية صرفة فى جيش «النبى» الذى غزا فلسطين فى عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى.

(Sir Ritchard Wavell, Allenby, Edinburgh, 1940, p. 282).

إيجاد هذه الفرقة عنيفة ومتواصلة في جميع المجالات، من الصحافة، إلى اقتراحات يقدمها النواب من حزبي المحافظين والعمال إلى البرلمان البريطاني، إلى ضغط وإقناع لدى الساسة والقادة العسكريين.

وفي سبتمبر من عام ١٩٤٨ م، أعلنت وزارة الحرب البريطانية أنها قررت المساعدة في تكوين الفرقة اليهودية المحاربة، ثم سرعان ما أصبح للوحدة علمها المستقل، مشيرة بذلك إلى أن اليهودية قد أصبحت «قومية» لا مجرد دين، وكان ذلك العلم هو نفس علم دولة إسرائيل اليوم، وفي أكتوبر ١٩٤٤ م، طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية تحويل فلسطين إلى «كومنولث يهودي» وأن تسمح بهجرة مليون يهودي إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود أغلبية في فلسطين تسمح بإعلان اليهودية، واستطاع «وايزمان» أن يحصل على موافقة «ونستون تشرشل» الشخصية على إقامة الدولة اليهودية، على الأقل في جزء من فلسطين.

وفي يناير ١٩٤٧ م، بدا أن هيئة أركان الحرب البريطانية قد باتت مقتنعة بأن فلسطين لم تعد لها أهمية استراتيجية بالنسبة للدفاع البريطاني في الشرق الأوسط، وهكذا تظهر بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين، وتعلن الحكومة البريطانية أنها سوف تضع المسألة كلها بين يدي الأمم المتحدة، التي تصدر في ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧ م قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بأغلبية الثلثين، بزيادة صوت واحد^(١).

وفي تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ م، يعلن «دافيد بن جوريون»، قيام دولة إسرائيل، ويختار هو رئيساً لوزرائها، كما يختار «حاييم وايزمان» رئيساً لجمهوريتها، ويبادر «ترومان» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فيعلن اعترافه بالدولة الجديدة بعد دقائق من قيامها في

(١) حسن صبحي، التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية، بيروت ١٩٦٨، ص ١١٢، وكذا:

J. Parkers, op.cit., p. 226.

فجر ١٥ مايو ١٩٤٨ م، وتبعته في نفس اليوم «جواتيمالا» أما ثالث دولة اعترفت بإسرائيل فهي الاتحاد السوفيتي في ١٧ مايو ١٩٤٨ م، وفي الأول من فبراير ١٩٤٩ م، بلغ مجموع الدول التي اعترفت بإسرائيل ٢٣ دولة، ثم ختمت المأساة الأليمة الكثيرة بموافقة الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بضم إسرائيل إلى عضويتها في ١١ مايو ١٩٤٩ م، وهكذا نجحت مؤامرات يهود وخلقوا إسرائيل خلقاً مصطنعاً، مسجلة بذلك ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها في تاريخ نشأة الدول^(١).

Lenczovsky, The Middle East in World Affairs, p. 312.

(١)

وانظر: محمد بيومي مهران، قضية فلسطين، الإسكندرية ١٩٧٠، ص ١١٧-١٥٢.

فهرس الأعلام

(١)

أبشاي: ٢٢٤، ٩٥.	القرآن الكريم:
أخزيا:	١٤، ٢٠-٢٢، ٢٥، ٢٨، ٥٦-٥٧،
٨٦٤، ٨٦٢، ٨٣٤، ٨٣٢، ٨٢٥-٨٢٢	٥٩-٦٠، ٦٣-٦٤، ٨٢، ٨٨، ٩٦، ١١٢،
٨٦٦، ٨٦٥	١١٤-١١٦، ١١٨، ١٢٠-١٢١، ١٢٦-١٢٨،
إخاتون:	١٤٣، ١٤٧، ١٥٨، ١٧٠، ١٩٧-١٩٩، ٢٠١،
٢٢٥، ٢٥٠، ٢٣١، ١٩٢-١٩١، ٩٦	٢٠٤-٢٠٥، ٢١٢-٢١٣، ٢٢١-٢٢٢، ٢٣١،
٢٥٧، ٢٥٥-٢٥٤، ٢٤٨، ٢٤٥، ٢٣٠، ٢٢٨	٢٤٧، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٠-٢٧١، ٢٧٧،
٧٤٥، ٧٣٩، ٢٦٨-٢٦٦، ٢٦٤-٢٥٩	٢٨١، ٢٨٨-٢٩٠، ٢٩٤-٢٩٦، ٣١٨،
إدفو: ٢٠٩، ٢٠٧، ٢٢	٣٢٤-٣٢٥، ٣٢٩، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٩٠،
آتون: ٢٦٣-٢٦١، ٢٥٦-٢٥٥، ٢١٤	٣٩٢-٣٩٣، ٤٠٨، ٤١٤، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٨،
إرميا:	٤٣٣-٤٣٤، ٤٣٦، ٥٠١، ٥١٣، ٥١٥، ٥٨٠،
٥٠٣، ٢٨٢، ١٦٠، ١٠٦-١٠٥، ٧٣	٦٠٧-٦٠٩، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٣١-٦٣٢، ٦٥٥،
-٩٠٠، ٨٩٨-٨٩٧، ٨٩٥-٨٩٣، ٨٨٦، ٥٩٧	٧٠٢، ٧٢٦، ٨٢٣-٨٢٤.
٩٩٤، ٩٦٢، ٩٠٧، ٩٠٥	إبراهيم عليه السلام:
أريحا:	١٠، ٢٩-٣٠، ٣٣، ٤٧، ٥٠، ٥٥-٧٠،
-٣٥٢، ٣٤٩-٣٤٨، ٣٤٣، ٣٢٩، ٩١	٧٢-٧٦، ٧٨-٧٩، ٩٤، ٩٧-٩٨، ١٠١-١٠٨،
٥٥٨-٥٥٢، ٥٢٢، ٤٧٩، ٤٤١، ٤٢٥، ٣٥٣	١١٠-١١٦، ١١٨-١٢٢، ١٢٤-١٣٥، ١٣٩،
٨٩٩، ٦٦٧، ٦١٤، ٥٧٥، ٥٦٥، ٥٦٢-٥٦١	١٤٣-١٥٠، ١٥٢، ١٥٧-١٦٠، ١٦٢، ١٦٤،
١٠١٨	١٦٥-١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣-١٧٦،
إسحاق:	١٨٣-١٨٤، ١٩٤، ١٩٩، ٢٣٥-٢٣٦، ٢٥٥،
٨٤-٨٣، ٧٦، ٧٣، ٦٧، ٦٣، ٥٦-٥٥	٢٧٩، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٢٥، ٢٣٩-٢٤٠، ٢٥١،
-١٢٤، ١١٩، ١١٦-١١٥، ١١٢، ١٠٨، ١٠٦	٣٥٨، ٤٦٨، ٤٧٧، ٤٩٠، ٤٩٥، ٥٠٥، ٥٠٩،
١٥٢-١٤٢، ١٤٠-١٣٨، ١٣٦-١٢٩، ١٢٧	٥١٥، ٥١٩-٥٢١، ٥٢٧، ٥٣٠، ٨٥١، ٩١٥.
٢٧٩، ١٩٤، ١٨٢-١٧٣، ١٧٠، ١٦٦، ١٥٩	أبشالوم:
٧٥٣، ٥٠٥، ٤٩٥، ٤٩٠، ٤٣١، ٣٥١	٥٤١، ٦٣١، ٦٦١-٦٦٨، ٦٧١، ٦٧٧،
	٨٥٩-٨٦٠.

الآدوميون:	إسرائيل: في معظم الصفحات
١٨٣ ، ٢٣٦-٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٨١	أدوم:
٤٦٥ ، ٥٠٥-٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٤	١٥٦ ، ١٧٨-١٧٩ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٤
٦٠٢ ، ٦٨٢ ، ٧١٧ ، ٧٢٠ ، ٧٤١ ، ٨٤١	٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٤٣٩-٤٤١
٩٠٧ ، ١٠٠٤ ، ١٠١٣	٥٠٥-٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥٢٥ ، ٥٢٨ ، ٦٢٠ ، ٦٤٨
الإسلام:	٦٤٩ ، ٦٩٩ ، ٧٠٦ ، ٧١٤ ، ٧١٦ ، ٧١٩-٧٢١
١٢ ، ٢٢ ، ٥٧ ، ٩٤ ، ١٠٦ ، ١١٠	٧٨٥ ، ٧٩٧ ، ٨٢٦ ، ٨٢٩ ، ٨٣١ ، ٨٥٨ ، ٨٦١
١١٤-١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٦٥ ، ٢٢٦	٨٦٤ ، ٨٦٧ ، ٨٧٢ ، ٨٩٥ ، ٩٨٦ ، ١٠٠١
٤٣٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٣ ، ٦٣٢ ، ٧٠٤ ، ٧١١	١٠٠٢
٧٢٥ ، ٧٣٧ ، ٧٥١	إسماعيل:
الآراميون:	٥٥-٥٧ ، ٦٣-٦٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٠٦
١٩ ، ٧١-٧٣ ، ١١٠ ، ٢٣٦ ، ٢٧٩	١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢-١١٦ ، ١١٨-١١٩ ، ١٢١
٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٤-٤٨٦ ، ٤٨٩-٤٩٠	١٢٢ ، ١٢٤-١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٨-١٤٠ ، ١٤٢
٤٩٨-٥٠٠ ، ٥١٣ ، ٦٠١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٨١	١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤-١٦٦ ، ١٦٨-١٧١
٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٩ ، ٨١٣-٨١٨ ، ٨٢٥	١٧٣ ، ١٧٥-١٧٦ ، ١٨٢-١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢١٦
الأموريون:	٨٢٤ ، ٩٠١ ، ٩٠٦
٥٩ ، ١١٠ ، ١٩٢ ، ٤٤١ ، ٤٦٤-٤٦٥	أساس:
٤٧٤-٤٧٨ ، ٥١٢ ، ٥٣٢ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٧٤	٨٦٠-٨٦١ ، ٨٠٧-٨٠٩ ، ٧٩٨ ، ٦٨٥
٥٨٧ ، ٦٤٧ ، ٩٥٠	أسوان:
البابليون:	٢٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩-٢١١ ، ٩٦٣ ، ٩٦٩
٣١ ، ٤١ ، ١٤٢ ، ٢١٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠	٩٧٢-٩٧٤ ، ٩٧٦-٩٧٧
٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٦٦ ، ٦٥٨	آرام:
٧٦٤ ، ٨٧٢ ، ٨٨٠ ، ٨٨٣ ، ٨٨٦ ، ٨٨٩	٧٢ ، ٤٦٧ ، ٤٩٨-٤٩٩ ، ٥٧٥ ، ٦٤٧
٨٩٣-٨٩٨ ، ٩٠٠-٩٠١ ، ٩٠٣-٩٠٥	٦٨٣ ، ٧٢١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٥
٩٠٧-٩٠٨ ، ٩١٠ ، ٩١٧ ، ٩٢٤ ، ٩٢٦ ، ٩٤٩	أشور:
٩٥٢	١٨٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٨٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٧
البخاري:	٥٨٠ ، ٧١٨ ، ٧٩٥
٦٣ ، ٩٤ ، ١٢٣-١٢٤ ، ١٢٦	الأكاديون: ٢٧٩

٤١٨، ٤٢٠-٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٢،	الفريزيون: ٥٦٤، ٥٦٢، ٥٢٩.
٤٣٧، ٤٦٧، ٥٠٢، ٥١٨، ٥٩٤، ٦٥٠، ٦٥٨،	القينيون:
٦٨١، ٦٨٨، ٧٦٣، ٨٤٧، ٨٥٧، ٨٧٣، ٨٨١،	١٠٩، ١٥٥، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٧٤، ٤٦٥،
٨٨٣، ٩٢٥، ٩٥٠، ٩٦٩-٩٨٩.	٤٧٧، ٤٨٠-٤٨١، ٤٨٣، ٥١١، ٥٤٣، ٥٤٥،
المديانيون:	٦٠٢، ٦٤٧، ٦٨٦، ٧١٢، ٧١٤، ٧٢٢، ٧٦١،
١٩٩، ٢٦٧، ٤٦٥، ٥١٣، ٥٢٢،	٧٥٩، ٧٦٢، ٧٦٤-٧٦٥، ٧٨٧، ٨١٣، ٨٢٠،
٥٢٤-٥٢٥، ٥٧٩، ٥٨١-٥٨٢، ٥٩٤، ٦٠١،	٨٤١، ٨٦٢، ٩٠٧، ٩٠٩.
٦٢٤.	القنزيون: ٩٠٧، ٥٢٨-٥٢٧.
المزايون:	القينيون: ٥٢٤-٥٢٩، ٤٦٥، ٦٣٧، ٧١٦.
١٥٩، ٢٤٩، ٥٠٥، ٥٠٩-٥١١،	الكلدانيون:
٥١٣، ٥٣٠، ٥٧٥، ٦٠١-٦٠٢، ٦٤٦، ٦٨١،	٥٩، ٦٦، ٦٨-٧١، ٨٤، ٩٠، ٤٦٥،
٦٨٦، ٩٥٠.	٤٨٧، ٨٨٦، ٨٩٨، ٩٠٢، ٩١٠، ٩٦٢، ٩٦٧.
آمون:	الكتعانيون:
٢٧٣-٢٧٤، ٣١٠، ٣٦٠-٣٦١، ٣٩٩،	١٩، ٣٣، ٤٠، ٥٩، ٩١-٩٢، ١٥٥،
٥٤١، ٦٨٢، ٧٧٤، ٨٥٥، ٨٥٩، ٨٧٩، ٩٨٠،	١٥٦، ١٥٩، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٦، ٢٧٩،
إمئحطب الثالث:	٣٢٤، ٣٣٥-٣٣٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٤٤٠، ٤٦٥،
٣٢٨، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٢-٣٥٣،	٤٦٧، ٤٧٧-٤٧٨، ٤٨١-٤٨٣، ٥١٧-٥١٨،
٣٨٦-٣٨٧، ٣٩٥، ٧٣٩.	٥٢٨، ٥٣١، ٥٣٦، ٥٦١-٥٦٤، ٥٧١، ٥٧٦،
أمنمحات الثالث: ٧٧٢.	٦٠١، ٦٨١، ٦٨١، ٧٤٧، ٧٦٣، ٧٦٥، ٩٥٠.
أنطيوخس الثالث: ٩٨٧-٩٨٩.	المصريون:
الهكسوس:	٩، ٣٣، ٩٢، ٩٤-٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٥٤-
٧٨، ٨٢-٨٤، ٩٦، ١٠٢، ١٦٩،	١٥٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٨،
٢٠٢-٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٢٩-٢٣٧،	٢١٤-٢١٥، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٩-٢٤٨،
٢٤٠-٢٤٣، ٢٤٥-٢٤٨، ٣٢٤-٣٢٥، ٣٢٨-	٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٦، ٢٦٣-٢٦٤، ٢٦٩،
٣٢٨، ٣٤٠-٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٦٠، ٣٨١،	٢٧٣-٢٧٦، ٢٨٦، ٢٨٨-٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧-
٣٩٧، ٥٣٣، ٩٦١، ٩٧٢.	٢٩٨، ٣٠٠-٣٠١، ٣٠٦-٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٧،
اليوسوس:	٣١٩-٣٢٣، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٧،
١٠٥، ٤٦٥، ٥١٦-٥١٧، ٧٣٥،	٣٥٠-٣٥١، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٨٢،
٧٤٦-٧٥٠، ٧٥٧، ٩٥٠.	٣٩١، ٣٩٧، ٤٠٦-٤٠٧، ٤١٠-٤١١، ٤١٣،

أورد:

٨٥-٨٤, ٨٢, ٨٠-٧٩, ٧٦, ٧٤-٦٦

٨٠٧, ٧٤١, ١٥٣, ٨٩

أونياس الثالث: ٩٩٧.

أوجاريت: ٧١, ٤٨٦, ٥٣٣.

أورشليم:

١٨, ٤٢-٤٠, ٤٥-٤٤, ٩١, ١٠٥

١٠٩, ١٩١, ٢١٥, ٣٤٤, ٤٢٤, ٥١١, ٥١٦

٥٢٧, ٥٣١, ٥٥٨-٥٥٩, ٥٦٢-٥٦٣, ٥٦٥

٥٨٥, ٥٩٨, ٦٠٧, ٦١٣, ٦٢٢, ٦٣٣, ٦٤١

٦٤٣-٦٤٤, ٦٤٧, ٦٥٢, ٦٥٦, ٦٦٠, ٦٦٢-

٦٦٣, ٦٦٥-٦٦٩, ٦٧١, ٦٧٦-٦٧٧, ٦٧٩-

٦٨٠, ٦٨٥, ٦٨٩, ٦٩٢, ٦٩٩, ٧٠٩, ٧١٨

٧٢٣, ٧٢٨-٧٢٩, ٧٣١, ٧٤١-٧٤٢, ٧٤٤-

٧٤٨, ٧٥٠-٧٥٦, ٧٥٨-٧٥٩, ٧٦٢, ٧٧٤-

٧٧٦, ٧٨٢, ٧٨٥-٧٨٦, ٧٩١, ٧٩٤, ٧٩٨-

٧٩٩, ٨٠٣-٨٠٦, ٨٠٨-٨٠٩, ٨١٢, ٨١٤-

٨١٥, ٨٢٠, ٨٣٢, ٨٣٥, ٨٤٢-٨٤٠, ٨٥٥

٨٥٩, ٨٦٢-٨٦٣, ٨٦٥, ٨٦٧-٨٧٢, ٨٧٤-

٨٧٦, ٨٧٨-٨٧٩, ٨٨٢, ٨٨٥-٨٨٧

٨٨٩, ٨٩٣-٨٩٥, ٨٩٧-٩٠٠, ٩٠٢-٩٠٨

٩١١-٩١٤, ٩١٧, ٩٢٥-٩٢٦, ٩٢٨-٩٣٢

٩٣٤-٩٥١, ٩٥٤-٩٥٩, ٩٦٤, ٩٦٦, ٩٦٩

٩٧١, ٩٧٨, ٩٨٥, ٩٨٩, ٩٩٢, ٩٩٥-٩٩٨

١٠٠١-١٠٠٣, ١٠١١, ١٠١٣, ١٠١٥-

١٠١٧, ١٠٢١, ١٠٢٣-١٠٢٧, ١٠٣٠.

إيزرايل:

٨١٢, ٨١٥, ٨٢٠-٨٢٣, ٨٢٥, ٨٣٢-

٨٣٤, ٨٣٨, ٨٦١, ٨٦٤-٨٦٥.

إيشعيل: ٦٣٨.

إيل:

٣٥, ٨٠, ٩١, ١٠٤, ١٠٩, ١١٨

١٨٦-١٨٧, ٣٥٣, ٤٢٤, ٤٢٧, ٤٩٠, ٤٩٣

٥٠٠, ٥٥٧, ٥٦٢, ٦٩٨, ٨٠٦, ٨٣٨, ٨٦٠

٨٧١, ٨٨٤, ٩٥٥, ٩٦٤.

إيليا:

١٠٩, ٧٤١-٧٤٢, ٨١٤, ٨٢٠-٨٢٤

٨٢٨, ١٠٢٧.

إيلي ليفي أبو عسل: ٥٠.

إيلات: ٥٠٨, ٧١٥.

(ب)

بابل:

٤١, ٥٩, ٦٧, ٧٠, ٧٢, ٧٩, ٨٢, ٨٤

٩٠, ١٢٩, ٣١٩, ٣٤٠, ٣٦٨, ٤٧٠, ٤٩٣

٤٩٦, ٥١٩-٥٢٠, ٥٣٣, ٦٥٨-٦٥٩, ٦٧٣

٦٨١, ٧٥١, ٧٦٤-٧٦٥, ٧٧٠, ٨٥١, ٨٧٢

٨٧٨, ٨٨٠-٨٨٢, ٨٨٥-٨٨٩, ٨٩٥, ٨٩٧

٨٩٩-٩٠٠, ٩٠٣-٩٠٦, ٩١٦-٩١٩, ٩٢٨-

٩٣١, ٩٣٣, ٩٣٨-٩٣٩, ٩٤٨-٩٤٩, ٩٥٢

٩٦٧, ٩٨٥, ٩٩٥, ١٠٣٢.

باراق: ٥٧٧-٥٧٨.

باشان: ٤٤١-٤٤٢, ٤٧٧, ٤٩٧, ٥٠٠, ٨٣٤

بعشا: ٦٨٥, ٧٩٧-٧٩٨, ٨٠٨-٨٠٩, ٨٦٠

بوسبع:

٢٢٧, ٤٧٩, ٦٣٥, ٦٥٠, ٦٦٩, ٧٢٨

٧٥١, ٨٠٩, ٨٥٦, ٩٦١.

بتاح: ٣٩٩, ٤٢٠-٤٢١, ٨٧٧.

بطليموس الثالث: ٩٨٧.	بيت بخياني: ٤٩٣.
بسماتيك الثاني:	بيت رحوب: ٤٩٩-٦٤٧, ٥٠٠.
٨٨٠-٨٨١, ٩٦٢-٩٦٣, ٩٦٥.	بيت أون: ٦١٨.
بلقيس: ٦٩٦-٦٩٨, ٧٠٣-٧٠٥.	بيت حورون: ٦١٨, ٦٢٨-٦٢٩, ١٠٠١.
بنى حث: ١٠٤.	بيت يهوذا:
بنى عمون: ١٥٩, ٥٧٥, ٥٨٧-٥٨٨, ٦٤٧.	٦٣٧-٦٣٨, ٧١٩, ٧٨٩, ٧٩٤-
بنى عيسو: ١٨٣.	٧٩٦.
بنى يهوذا: ٥٢٦, ٧٤٦, ٩٠٩-٩١٠.	بيت شاول: ٦٦١.
بنى كنعان: ٤٨٢.	بيت عور: ٧٩٢.
بنيامين:	بيت حينا: ٧٣٤.
٢٣٩, ٥٩٨, ٦٠٦-٦٠٧, ٦٠٩, ٦٢٦,	بيت اكسا: ٧٣٤.
٦٢٧, ٦٦٥, ٦٧٢, ٦٨٩, ٧٤٧, ٧٥٦, ٧٩٤-	بيت يهوه: ٧٧٢, ٩٣٢, ٩٣٤, ٩٨٠, ٩٩٢.
٧٩٦, ٧٩٨, ٨٠٨-٨٠٩, ٩٠٢, ١٠٣٠.	بيت أرسا: ٨٠٩.
بيت إيل:	بيت جبرين: ٨٦٣.
٩١, ١٠٩, ١١٨, ١٨٦-١٨٧, ٣٥٣,	بيت لحم:
٤٢٤, ٤٢٧, ٤٩٠, ٥٠٧, ٥٦٢, ٨٠٦, ٨٣٨,	٩, ٥٣١, ٥٨٩, ٦١٧, ٦٣٣-٦٣٤,
٨٦٠, ٨٧١, ٨٨٤, ٩٥٥, ٩٦٤.	٦٧٢-٦٧٣, ٧٣٣, ٧٤٧, ١٠١٧-١٠١٨.
بيت شان:	
٥٤٤, ٥٦٣, ٥٦٥, ٦١٣, ٦١٧, ٧٦٢-	(ت)
٧٦٣.	تارج:
بيت خالوب: ٤٩٣.	٥٩, ٦٢, ٦٨, ٧٣-٧٤, ٨٤, ١٧٤,
بيت المقدس:	٤٩٦.
٩, ٧٩, ٨٩, ١٠٤-١٠٦, ١١٨, ٥٠٧,	ثانيس:
٧٣٤, ٧٣٨, ٧٤١, ٧٣٩.	٢١٦, ٣٤٧, ٣٧٢, ٣٧٦, ٣٩٨-
بيت إسرائيل: ٤٥, ٥٧٣, ٧٩٤-٧٩٥.	٣٩٩, ٤٠١, ٤٠٦, ٦٥١, ٦٧٣, ٧٢١, ٨٤٦,
بيت الله الحرام: ٦٤, ١١٩, ١٤٩.	٩٦٨.
بيت فرعون: ٩٢, ٧٢٠.	تخوتمس الأول: ٣٤٤.
بيت إديني: ٤٩٢, ٤٩٣.	تخوتمس الثاني: ٣٥٠.

جداليا:	تخوتمس الثالث:
٩٦٩، ٩٦٦، ٩٠٧، ٩٠٢، ٩٠٠	٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٢٣، ٢٢٥
جدعون:	٢٤٢-٢٤٤، ٢٤٧، ٣٥٢-٣٥٠، ٣٧٢، ٣٨٢
٥٧٣، ٥٨٤-٥٧٩، ٦٠٣-٦٠٤	٢٩٦، ٥٣٣، ٥٣٥، ٧٧٠، ٧٧١، ٨٥٥
٦٢٤، ٦٢٧	تخوتمس الرابع: ٣٥٢
جلعاد:	تجلات بلاسر الأول: ٤٨٦، ٤٨٩، ٧٢٩، ٧١٦
٤٤١، ٤٩١، ٥٧٧، ٥٨٨-٥٨٧	تجلات بلاسر الثالث:
٦١٢-٦١٣، ٦١٨، ٦٣٨، ٦٤٠-٦٤١، ٦٦٦	٤٩٤، ٤٩٨، ٨٣٩-٨٤٠، ٨٤٩، ٨٧٠
٦٧٢، ٧٩٧، ٨١٦، ٨٢٤، ٨٣١، ٨٣٥-٨٣٤	ترزة:
٨٤٣، ٨٦٤، ١٠٠٢، ١٠٠٧، ١٠٢٠	٦١٣، ٦٨٥، ٨٠٥، ٨٠٨، ٨١٠-٨١٢
جبل أفرام:	٨٤٠
٥٨٦، ٦١٧، ٨٠٤-٨٠٥، ٨٤٣	تل حلفا: ٤٩٦، ٦٦
١٠٠٤	تيتوس: ١٠٢٣-١٠٢٦
جبل أكر: ٧٣٤	ثارو: ٩٦٢
جبل التسويج: ٧٣٤	(ج) —————
جبل السناسين: ٧٣٤	جاد:
جبل الزيتون:	١٨٢، ٥١٠، ٥٦٦، ٥٧٧، ٦١٨، ٦٣٤
١٠٩، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٦، ٨٢٠	٦٦٩، ٧٩٥، ٨٢٦
جبل العمالقة: ٥٢١، ٥٩٠	جازر:
جبل الله: ٢٧١	٣٤٥، ٣٧٨-٣٧٩، ٣٨٥، ٣٩٠، ٤٢٥
جبل الكرمل: ٨٢١، ٨٨٢، ٩٣٣	٤٧٤، ٤٧٧، ٥٦٢-٥٦٣، ٥٦٥-٥٦٦، ٦٤٥
جبل النبي صموئيل: ٧٣٤	٦٥١، ٦٨١-٦٨٢، ٧٢٢، ٧٢٨، ٨٥٥، ٨٥٨
جبل المريا: ٧٥٧	١٠٠٤
جبل المراقين: ٧٣٤	جالوت: ٥٨٠، ٥٩٤، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٣٣
جبل المكبر: ٥٩٧	جبعون:
جبل يزيثا: ٧٣٥	٢١٥، ٥٥٠، ٥٣٤، ٥٥٨-٥٦٠، ٦٤١
جبل بيت المقدس: ٧٣٤	٦٤٤-٦٤٥
جبل جرزيم: ٩٥٤، ٩٥٦، ٩٥٨	جت:

جبل جلبوع:	جبرون:
٦٥٨، ٦٢٨، ٦٣٦، ٦٢٤-٦٢٣، ٥٨١	٤٧٧، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٢٨، ٥٣٠
جبل جلعاد: ٤٩١.	٥٥٩-٥٦٠، ٥٦٢، ٥٩٢، ٦٣٤، ٦٣٧، ٦٣٩
جبل جرمون: ٤٧٧، ٥٣٤.	٦٤٢-٦٤٤، ٦٦١، ٦٦٤، ٧٤٦، ٧٥١، ٨٥٦
جبل داود: ٧٣٤.	٩٠٢.
جبل حرمون: ٤٧٧، ٥٣٤، ٦٥٠.	حتشبوت:
جبل رأس أبو عمار: ٧٣٤.	
جبل رأس المشارف: ٧٣٤.	
جبل سمير: ٢١٩، ٥٠٦، ٥٢٣.	حجورة:
جبل سكوپولس: ٢٣٤.	
جبل شمر: ٦٩٣.	
جبل سور: ٤٤٠.	حماة:
جبل صهيون:	
١٠٠١، ٧٥٥، ٧٥٤، ٧٤٩، ٧٣٦، ٧٣٤.	
جبل فاران: ١٠٦.	حزائيل: ٨٢٢.
جبل فراصيم: ٦٤٤.	حزقيا:
جبل عيبال: ١٩١.	٧٣٠، ٧٧٥-٧٧٦، ٨٧٠، ٨٧٢
جبل لبنان: ٤٩٧، ٥٣٤، ٥٧٤، ١٠٠٤.	٨٧٤-٨٧٨، ٨٨١-٨٨٢.
جبل موريا: ٧٣٤، ٧٥٧، ٧٩٥.	حمورابي:
جبل نبو: ٣١٠، ٤٤٢.	
جشور: ٦٤٠، ٦٦١، ٦٦٣.	
جوشن: ٥٦٠.	حورمحب:
(ح)	
حاران: ٤٩٦.	حيرام:
حانخور: ٤٩٦.	٦٥٠، ٦٥٢، ٧٠٦، ٧٠٩، ٧١٢
حام:	٧١٤، ٧١٥، ٧١٧، ٧٦٢، ٧٦٥-٧٦٦، ٧٧٤
٥٣٦، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٧، ٥٠٦.	٧٨٧.
٥٠٨، ٥١٨-٥١٩.	

٧٢٧، ٧٣٤، ٧٤٠-٧٤٣، ٧٤٦-٧٦٠، ٧٦٨،
٧٧٦، ٧٨٢-٧٨٣، ٧٨٨-٧٨٩، ٧٩١-٧٩٤،
٧٩٦-٧٩٧، ٨٠٥-٨٠٦، ٨٢٢، ٨٢٦-٨٣٢،
٨٤٢، ٨٥٦-٨٥٨، ٨٧٨، ٨٨١، ٩١٢،
٩٣٥-٩٣٦، ٩٥٥، ٩٥٩، ١٠٠٥.

دبورة:

٢٦٧، ٥٢٦، ٥٧٣، ٥٧٦-٥٧٧،

٦٠٤.

ديبر: ٢٤٩، ٥٦٠.

دمشق:

٤٨٤، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨-٤٩٩،

٥١٣، ٥٣٦، ٦٤٩-٦٥٠، ٦٥٢، ٦٨٣، ٦٨٦،

٧٢١، ٧٣١، ٧٥١، ٧٦٦، ٧٩٦-٧٩٧، ٨٠٨،

٨١٣-٨٢٢، ٨٣٣-٨٣٦، ٨٣٩، ٨٤١-٨٤٤،

٨٥١، ٨٦٠-٨٦١، ٨٦٦، ٨٦٩-٨٧٠، ٩٣٣،

١٠٠٨-١٠١١.

دندرة: ٢٠٨، ٤٢٢، ٤٢٨.

(ر)

راحيل:

١٤١، ١٤٣، ١٧٤، ١٨٢-١٨٣،

٢٢٦، ٢٢٨، ٤٩٠، ٧٨٩، ٧٩٥.

رحبعام:

١٤١، ٧٨٤-٧٨٣، ٧٩٤-٧٩١،

٧٩٨، ٨٠٤-٨٠٦، ٨٥٥-٨٥٦، ٨٥٨-٨٥٩،

راعوث: ٦٣٤، ٦٤٦.

رعمسيس الثاني:

١٨٤، ٢٤٣، ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥١-

٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٦، ٣١٩-٣٢٥، ٣٣٢، ٣٣٩،

٢٤٧، ٣٥٠، ٣٦٦-٣٦٧، ٣٧٠-٣٧٢،

(خ)

خايسرو:

٣١-٣٣، ٢٣٥-٢٣٦، ٣٢٨، ٣٣٠،

٣٣٦، ٣٤٣، ٧٤٥.

خاتوسيل الثالث: ٧١، ١٨٤.

خاني: ٢٧٨، ٥٣٥-٥٣٦.

خديجة: (رضي الله عنها) ١٢٢-١٢٤، ٣٩٢.

خليج العقبة:

٢٦٦، ٤٠٣، ٤٠٩، ٦٤٩-٦٥٠، ٦٥٢،

٧١٥-٧١٦.

خليج السويس: ٤٠٣-٤٠٥.

الخليج الفارسي: ٧١٣.

خنوم:

٢٠٩-٢١١، ٢٩٢، ٩٦٩-٩٧٧، ٩٧٩،

٩٨١.

(د)

دارا الأول:

٥٠٢، ٧٢٥، ٨٤٩، ٩٣٤، ٩٣٧، ٩٤٩.

دارا الثاني: ٩٧٣.

دارا الثالث:

دارا بن هستايس: ٩٣٣.

دان: ٨.

داود: (عليه السلام)

٣٦-٣٧، ٣٩-٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥٦، ٦٥،

٧٣، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٠، ٢٨٣، ٣٤٤، ٤٩٧،

٤٩٩-٥٠١، ٥٠٣، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٣، ٥١٦،

٥٢٣، ٥٣٤، ٥٦٣، ٥٦٥، ٦٢١-٦٢٣، ٦٢٦-

٦٢٧، ٦٢٩، ٦٣١-٦٥٢، ٦٥٥-٦٧٣، ٦٧٥-

٦٨٠، ٦٨٣، ٦٨٥، ٧١٦، ٧١٨-٧٢١، ٧٢٣،

سبتاح: ٣٨٩.	٣٧٥-٣٧٦، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩١-٣٩٣،
سرجون الثاني:	٣٩٩-٤٠١، ٤٠٦، ٤٢١، ٤٧٥، ٧٧٠-٧٧١،
٣٤، ٥١، ٤٨٧، ٧٧٠، ٧٧٣، ٧٩٧،	٧٨١.
٨١٩، ٨٤٥، ٨٤٩-٨٥١، ٨٧١-٨٧٢، ٩٤٠،	رعمسيس الثالث:
٩٥٦، ٩٦١، ٩٧٠.	٣٢٤، ٣٨٢، ٣٨٨-٣٩٠، ٣٩٦، ٤٧٥،
سفر أخبار الأيام: ٦٧٠، ٧٨٣-٧٨٤، ٩٣١.	٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٥، ٥٦٦.
سفر أخبار الأيام الثاني:	رعمسيس الرابع:
٦٨٧، ٧٢٩، ٧٧٢، ٧٧٤، ٨٦٢،	٢١٨، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٥.
٨٨٨.	رفقة: ١٧٣-١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٩٤.
سفر إشعياء: ٤٤، ١٨٦، ٢٨٢، ٥٨١، ٥٠٦.	رفيديم: ٤١٥-٤١٦، ٥٢١، ٥٤٩.
سفر التثنية:	(ز)
٧٣، ٣٥٨، ٤٤٢، ٥٠٥، ٥١٦، ٦٠٣،	زاهسى: ٣٨٨-٣٨٩.
٨٨٤، ٦٦١.	زبوات:
سفر إرميا: ٧٣، ٥٠٣، ٩٦٢، ٩٩٤.	زكريا:
سفر التكوين:	٥٦، ٧٣، ١٣٦، ١٣٩، ٣٩٠، ٥٠٣،
٣٠، ٥٠، ٥٩، ٧٠، ٧٣، ٨٢، ٨٤،	٨٢٣، ٨٣٩-٨٤٠، ٨٩٥، ٩٣٤-٩٣٦.
٩٢، ١٠٢، ١٠٤، ١١٣، ١١٦، ١٣٠، ١٣٨،	زلفه: ١٤١، ١٤٣، ١٨٢، ٤٩٠.
١٦٣، ١٦٦، ١٧٣-١٧٤، ١٨٢، ١٨٥،	زمرى ليم: ٤٧٦.
١٨٩-١٩٠، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٢،	(س)
٢١٤، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٦٩،	سارة:
٢٣٨-٢٣٩، ٢٧٦، ٢٩٧، ٤٦٧-٤٦٩، ٤٧٦،	٦٣، ٩٢-٩٤، ١٠٢-١٠٣، ١١٦،
٤٨١، ٤٩٠، ٥٠٣، ٥١٢، ٥٢٧، ٥٣٠، ٥٣٦،	١٢٢، ١٢٤-١٢٥، ١٣٩-١٤٣، ١٤٩، ١٦٣-
سفر الجامعة: ٧٣، ٥٠٣.	١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠-١٧١، ١٧٥-١٧٦،
سفر الخروج:	١٩٤.
٥٠، ١٠٨، ٢١٥، ٢٣٢، ٢٤٨، ٢٦٧،	سالومي: ١٠٠٨-١٠٠٩، ١٠١٩.
٢٦٩، ٢٧١، ٢٨٣-٢٨٤، ٣٠٠، ٣١٩-٣٢٣،	سبا:
٣٢٣، ٣٢٩، ٣٦١، ٣٧١-٣٧٢، ٣٨٣، ٤٠٨،	٤٦٨، ٦٩٠-٦٩٣، ٦٩٥-٧٠٠، ٧٠٢،
٤١٦، ٤٢٥-٤٢٦.	٧٠٥، ٧١١-٧١٢، ٧٢٦.

سفر العدد:	سفر يشوع:
٢٤٨، ٢٦٧، ٢٨٤، ٣٢٤، ٤١٤، ٤٣٣	٣٠، ١٧٤، ٢٤٢-٢٤٣، ٣٤٥، ٣٦٧
٤٣٥، ٤٣٨، ٥٠٠، ٥٠٩، ٥٦٥، ٥٧٣، ٥٧٧	٢٨٦، ٥٢٥، ٥٤٩، ٥٥٢-٥٥٥، ٥٦٠، ٥٦٢
سفر القضاة:	٨٧٣، ٥٦٥
٢٣٥، ٢٦٧، ٣٤٥، ٣٨٨، ٤٠٩، ٥٠٠	سليمان: (عليه السلام)
٥٢٥-٥٢٦، ٥٦٢-٥٦٥، ٥٧٤، ٥٨٢، ٥٨٨	٢٦-٣٧، ٣٩، ٤٥، ٥٠، ٥٦، ١٠٥
٥٨٩، ٥٩١-٥٩٢، ٦٠٩، ٧٤٦	١٠٩، ١٢٣، ١٤١، ٢٨٢، ٢٤٢-٢٤٣، ٣٤٥
سفر اللاويين: ١٥٩	٣٧٦، ٣٨٣، ٤١٢، ٥١٦، ٥٢٦، ٥٢٩، ٥٦٣
سفر الملوك الأول:	٥٦٦، ٦٣٠، ٦٣٢، ٦٥١-٦٥٢، ٦٥٧، ٦٦٢
٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٨٣، ٤٠٩، ٤٢٥	٦٦٣، ٦٧٠-٦٧١، ٦٧٣، ٦٧٥-٦٩٦، ٦٩٨
٦٤٨، ٦٥٧، ٦٧٣، ٦٨٤-٦٨٥، ٦٨٧	٧٠٢، ٧٠٤-٧٠٦، ٧٠٩-٧١٤، ٧١٦، ٧٣١
٧٠٧، ٧١٧، ٧٢٠-٧٢٧، ٧٢٩، ٧٣٤، ٧٦٥	٧٣٤، ٧٥١-٧٥٢، ٧٥٤-٧٥٦، ٧٥٨-٧٦٣
٧٦٩-٧٧٠، ٧٧٤، ٧٨١، ٧٨٤، ٨١٥، ٨٦٢	٧٦٥-٧٧٥، ٧٨١، ٧٨٨، ٧٩١-٧٩٢، ٧٩٤
سفر الملوك الثاني:	٧٩٦، ٨٠٣، ٨٠٥-٨٠٦، ٨١٢-٨١٤، ٨٢٠
٨٣١، ٨٤٧، ٨٥١، ٨٦٥، ٨٨٨، ٩٦٢	٨٢٦، ٨٥٥-٨٦٠، ٨٦٢، ٨٧٨، ٨٨١، ٨٩٩
سفر حزقيال:	٩٠٨-٩٠٩، ٩١٤، ٩٢٠، ٩٣٠، ٩٣٤، ٩٣٧
٤٥، ٢٤٢، ٧٣٠، ٧٦١، ٩٠٧-٩٠٨	٩٥٥، ١٠٠٥
٩١٦	سحريب: ٧٧٥، ٨٧١-٨٧٧
سفر حبقوق: ١٠٦	سنوسرت الثالث: ٨٤، ٣٤٦
سفر صموئيل الأول:	موسى: ٨٥، ٨٥٢، ٩٣٨، ٩٤٥
٥٢٥-٥٢٦، ٥٢٨-٥٢٩، ٥٤٤، ٥٦٩	سورية:
٦٠٧، ٦٢٤، ٦٣٤	١١، ٦٤، ٨٥، ١٢٧، ١٥٥، ٢٥٠
سفر صموئيل الثاني:	٢٥١، ٣٢٧-٣٢٨، ٣٦٧-٣٦٨، ٣٨٥
٣٤٤، ٦٣٩، ٦٤٦-٦٤٨، ٦٥٧، ٦٦١	٣٨٨-٣٩٠، ٣٩٥، ٤٦٤-٤٦٥، ٤٧٤-٤٧٥
٦٦٢، ٧٤٩	٤٧٨-٤٨٠، ٤٨٣-٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٨-٤٩٩
سفر صفنيا: ٤٨٢	٤٩٥، ٤٩٧-٤٩٨، ٥٠٤، ٥٣٣-٥٣٧، ٥٤٠
سفر عاموس: ٨٣٧، ٨٣٥، ٥٣٧	٥٤٥، ٥٦٦، ٦٥٢، ٦٨٢، ٦٨٨، ٦٩٥، ٦٩٩
سفر هوشع: ؟؟؟؟؟	٧٢١، ٧٢٣-٧٢٤، ٧٤٥، ٧٦٢-٧٦٣

٧٤٧ ، ٧٣٥ ، ٧٢٣ ، ٦٧٩ ، ٦٧٧ ، ٦٧٢	٨١٦ ، ٨١٣ ، ٧٩١ ، ٧٨١ ، ٧٧٤ ، ٧٦٦-٧٦٥
٧٩٦ ، ٧٩٢-٧٩١ ، ٧٥٥-٧٥٤	٨٤٤-٨٤٢ ، ٨٤٠-٨٣٩ ، ٨٣٣ ، ٨٢٠-٨١٨
شبع بن بكرى: ٦٦٨-٦٦٧ ، ٦٦٥	٨٨٨ ، ٨٨٣ ، ٨٨١-٨٨٠ ، ٨٥٩-٨٥٨ ، ٨٥١
شبه الجزيرة العربية:	٨٨٩ ، ٩١٧ ، ٩٢٣-٩٢٤ ، ٩٣٣ ، ٩٥٦-٩٥٨
٢١٩ ، ١٥٥ ، ١٢٧ ، ١١١ ، ١٠٦	٩٦٣ ، ٩٨٥ ، ٩٨٨-٩٨٧ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٥
٤٨١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٢-٤٧١ ، ٤٦٩ ، ٤٦٣ ، ٣٣٦	١٠٠٧ ، ١٠١١-١٠١٢ ، ١٠١٣-١٠١٤ ، ١٠٢٠-
٤٨٤-٤٨٥ ، ٥٠٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٣ ، ٥٣٢ ، ٦٩٠	١٠٢٢ ، ١٠٢٦
٧٢٥ ، ٦٩٥ ، ٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧٢٥	سيتى الأول:
شعيب: (عليه السلام) ٤١٦ ، ٥١٣-٥١٦	٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧-٢٥١ ، ٣٦٦-٣٦٧
شكيم:	٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٤٧٢
٩٠-٩١ ، ١١٨ ، ١٧٦ ، ١٩٣-١٩٤	سيتى الثانى: ٣٩٢ ، ٣٩٥-٣٩٦
٢٣٥ ، ٥٣٤ ، ٥٦٥ ، ٥٨٤-٥٨٦ ، ٦١٣ ، ٦٨٥	ساييس:
٧٩١-٧٩٣ ، ٨٥٧ ، ٩٠١ ، ٩٠٦ ، ٩٥٤-٩٥٥	١٣-١٤ ، ٣٧٥ ، ٤٧٢ ، ٨٤٦-٨٤٨
٩٥٩-٩٦٠ ، ١٠٢٧	٨٧٨
شلمنصر الثالث:	سيسرا: ٥٧٦-٥٧٩
٤٩٢-٤٩٤ ، ٥١٣ ، ٨١٦-٨١٧	سيتاء:
٨٣٣	٤٥ ، ٩٥ ، ١٠٨ ، ١١٢-١١٣ ، ١٦٥
شلمنصر الخامس: ٤٩٥ ، ٨٤٥ ، ٨٤٩-٨٥٠	٢١٣ ، ٢١٥-٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٦٦-٢٦٨ ، ٢٨٣
شمشون: ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢-٥٩٤	٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٤
شيشير: ٩٣٠-٩٣١ ، ٩٣٦	٤١٠-٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧-٤١٨ ، ٤٢٥
شيشنق الأول:	٤٢٧-٤٢٨ ، ٤٣٠-٤٣١ ، ٤٧٢ ، ٥١٤ ، ٥٢١
٦٥١ ، ٧٢٣ ، ٦٨٢ ، ٨٠٤ ، ٨١٨	٥٥١ ، ٧٥٣ ، ٨٦٤
٨٥٩ ، ٨٥٥	(ش) _____
شمعون:	شارل:
١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥	٣٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٢٢ ، ٥٤٤ ، ٥٧١
٣٨٣ ، ٥٢٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٨ ، ٦٣٧ ، ٧٩٥-٧٩٦	٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٨ ، ٦٠٦-٦١٥ ، ٦١٧-٦٢٠
	٦٢٣-٦٢٣ ، ٦٣٥-٦٣٩ ، ٦٤١-٦٤٤ ، ٦٤٦-
	٦٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨-٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٧-٦٦٩

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢

٢٩٩ ، ٥١١ ، ٥٤٠ ، ٧٧٠ ، ٨٤٤ ، ٨٥٩ ، ٩٦٦

٩٦٩ ، ٩٧٤ ، ٩٨٠

(ع)

عالي الكاهن: ١٤ ، ٥٩٧

عاموس: ٢٨٢ ، ٥٣٦ ، ٧١٩ ، ٨٢٤ - ٨٢٩

عائى: ٢٥٢ ، ٥٥٦ - ٥٥٨ ، ٥٦٢

عجلون:

٥٢٢ ، ٥٧٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٦١٢ -

٦١٢ ، ٦٣٨ ، ٨١٢

عزرا:

٤٩ ، ٣٥٨ ، ٥٠٣ ، ٨٥١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٨

٩٢٦ ، ٩٢٨ ، ٩٣١ ، ٩٤٦ - ٩٥٣

عزيا: ٧٧٥ ، ٨٦٧ - ٨٦٩

عقلان: ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ٥٤٣ ، ٥٧٤ ، ١٠٠٥

عشتار:

١٥٦ ، ٤٢٥ ، ٥١١ ، ٥٧٣ ، ٨٢٧

٨٢٩ ، ٨٦٠ ، ٩٠٥

عصيون جابر:

٥٠٨ ، ٦٩٥ ، ٧٠٦ - ٧٠٧ ، ٧١٤

٧١٦ ، ٧٢١ ، ٧٢٨ ، ٨٥٦ ، ٨٦٥

عكا: ٥٧٦ ، ٦٠١ ، ٨١٥ ، ٨٥٦ ، ١٠١٦

عقرون:

٥٤٣ ، ٥٦٢ ، ٥٧٤ ، ٦٢٢ ، ٨٠٨

٨٧٣ ، ٨٧٥ - ٨٧٦ ، ١٠٠٤

علي بن ابي طالب (رضى الله عنه) ١٣٣

عمان:

٤٨٠ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٧٠٨ ، ١٠٠٢

١٠١٠ ، ١٠١٥

(ص)

صادقيا:

٨٨٨ - ٨٨٩ ، ٨٩٥ ، ٨٩٧ - ٩٠٠ ، ٩٦٧

صفورة:

٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٣٥٧ ، ٤١٦

صموئيل:

٥٢٦ ، ٥٩٥ ، ٦٠٦ - ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥

٦٢٤ - ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ ، ٦٤٦ ، ٦٥٥

٦٥٧ ، ٦٧١ - ٦٦٢ ، ٧٣٤

صوبة:

٤٩٨ - ٤٩٩ ، ٦٢٠ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٨٣

٧٢١

صور:

١٠٩ ، ١٩٢ ، ٣٤٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٩٦

٦٠١ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٨٦ - ٦٨٧ ، ٧٠٥ - ٧٠٦

٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧٢٣ ، ٧٥١ ، ٧٦٢ ، ٨١٤ - ٨١٥

٨٢٠ ، ٨٣٣ ، ٨٦٣ ، ٨٦٥ ، ٨٨٩ ، ٨٩٥ ، ١٠٠١

صهيون:

٤٠ - ٤٢ ، ٤٦ ، ٦٩٦ ، ٧٣٤ ، ٧٣٦

٧٤٩ - ٧٥٠ ، ٧٥٤ - ٧٥٥ ، ٩١٣ ، ١٠٠١

صيدا:

٥٣٦ ، ٦٠١ ، ٧٠٩ ، ٧٥١ ، ٨٨٣ ، ٨٩٥

٩٤٦

(ظ)

طالبوت: ٥٨٠ - ٥٨١ ، ٦٠٨

طهراقا: ٨٧٣ - ٨٧٤

طوب:

طية:

- عمري: فقحيا: ٨٤١.
- ٧٩٧، ٨٠٥، ٨١٠-٨١٥، ٨٢٧، ٨٢٩، فلسطين:
- ٨٢٣-٨٣١، ٩، ١٣، ٢٥، ٢٤، ٤٠-٤٩، ٧٢-٧٣،
- عمون: ٧٩، ٩٢، ١٠٨، ١٢٧-١٣٠، ١٥٠، ٢١٥-
- ١٥٩، ٣٨٦، ٤٩٩، ٥٠١، ٥١٢-٥١٣، ٢١٩، ٢١٧، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣٦-٢٣٧، ٢٥٠-
- ٥٧٥، ٥٨٩-٥٨٧، ٦١٢، ٦٢٠، ٦٤٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٨٢، ٢٢٥، ٢٢٨-٢٣٠،
- ٦٤٧-٦٤٩، ٨١٧، ٨٢٦، ٨٦٩، ٨٧٢، ٨٨٠، ٢٣٣-٢٣٥، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٣،
- ٨٩٥، ٩٠١، ٩٠٧، ٩٤٢، ١٠٠٢، ١٠١٠.
- عسوج: ٤٤١-٤٤٢، ٤٧٧، ٥٥٥.
- عيسى: (عليه السلام)
- ١٠، ١٣٧-١٣٨، ١٤٤، ١٨٩، ٢٧١، ٤٧٩-٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٢-٤٨٥، ٤٨٨، ٥٠٤،
- ١٠١٧، ٨٢٣، ٧٣٨، ٣٢٦، ٣١٥.
- (غ)
- غزة:
- ٢١٥-٢١٧، ٢١٩، ٤٧٧، ٥٢٣-٥٢٢، ٦٠١-٦٠٤، ٦١٤-٦١٥، ٦٢٣-٦٢٥، ٦٣٩-
- ٥٣٠، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٦٠، ٥٧٤، ٥٧٩، ٥٩٢-٦٤٠، ٦٤٤، ٦٥١، ٦٥٩، ٦٧٣، ٦٨٦، ٦٩٢،
- ٥٩٣، ٦٣٤، ٧٢٣، ٨٤٥، ٨٥٦، ٨٧٥-٨٧٦، ٦٩٠، ٩٩٢، ١٠٠٦، ١٠١٢.
- (ف)
- فاران: ٤٣٢، ٢٠.
- فارس:
- ٥٣٣، ٩١٩، ٩٢١، ٩٢٤، ٩٣٢-٩٣٣، ٨٩٥، ٩٠٣، ٩٠٨-٩٠٩، ٩١٣-٩١٤، ٩١٧،
- ٩٢٣-٩٢٧، ٩٢٩-٩٣١، ٩٣٣، ٩٣٨، ٩٤٠، ٨٤٥، ٨٤٧، ٨٥١-٨٥٣، ٨٥٨-٨٥٩، ٨٦٢،
- ٨٧٢-٨٧٣، ٨٧٧، ٨٨٠-٨٨١، ٨٨٣، ٨٩٣، ٩٧٦، ٩٧٩-٩٨٠.
- فاطمة بنت محمد: (رضي الله عنها) ٣٩٢.
- فدان آرام:
- ٧٢، ١٧٣-١٧٤، ١٧٦، ١٨١-١٨٣، ١٨٥، ١٩٠، ٤٩٠، ٤٩٦-٤٩٥.
- فقسح: ٨٤١-٨٤٤، ٨٦٩.
- ١٠٢٧-١٠٢٨، ١٠٣٠-١٠٣١، ١٠٣٣-١٠٣٥، ١٠١١-١٠١٣، ١٠١٦، ١٠٢١-١٠٢٣، ١٠٢٥-

٢٢٤-٢٢٣، ٢١٣، ٢١٠، ٢٨٨، ٢٣٩، ٢٣٦
 -٢٥٢، ٢٤٨-٢٤٧، ٢٤٣، ٢٣٩، ٢٢٤، ٢٢٨
 ، ٢٩٠-٢٨٩، ٢٨١-٢٨٠، ٢٧٨، ٢٥٨، ٢٥٣
 ، ٤٦٨-٤٦٧، ٤٥٩، ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٢-٤٣١
 ، ٥٢٨-٥٢٧، ٥١٩، ٤٨٤-٤٨١، ٤٧٨، ٤٧٦
 ، ٥٥٠-٥٤٩، ٥٤٣، ٥٣٦-٥٣٤، ٥٣١-٥٣٠
 ، ٥٧٤، ٥٦٦-٥٦٤، ٥٦١، ٥٥٦-٥٥٥، ٥٥٢
 ، ٩١٥، ٧٨٩، ٧٤٦، ٧٤٣، ٧٢٢-٧٢١، ٦٨٧
 . ٩٦١

كيروش الثاني:

٩٢٥-٩٢٢ ، ٩٢٠-٩١٩ ، ٩١٧
 . ٩٥٥، ٩٣٣، ٩٣١-٩٢٧

كيموش: ٨٣٠-٨٢٧، ٥١٣، ٥١١

_____ (ل) _____

لابان:

-٤٩٠، ٢٣٥، ١٨٤-١٨١، ٦٨، ٣٠
 . ٤٩١

لاخيش:

٨٧٤ ، ٨٦٧ ، ٢٨٧-٢٨٦ ، ٢٤٩
 . ٨٩٧-٨٩٥، ٨٨٨

لارسا: ٨٥، ٧٧.

لاوى:

٢٥٧ ، ٢٣٥ ، ٢٢٧ ، ١٩٤ ، ١٨٢
 . ٦٧٠، ٥٧٨، ٥٧١، ٢٨٤

لبنان:

٥٣٤ ، ٤٩٧ ، ٤٨٢ ، ٤٧٩ ، ٤٦٤
 ، ٧٦٤ ، ٧٦١ ، ٥٧٤ ، ٥٦٤ ، ٥٦٠ ، ٥٥٠
 . ١٠٠٤، ٨١٦، ٧٨٤، ٧٧٤-٧٧٣

فتويل: ٨٥٦، ٨٠٥.

فيثوم:

٢٧١، ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٥٣، ٢٤٨، ٢١٧
 . ٢٨٣، ٢٧٥

فينحاس: ٦٠٢، ٥٩٧-٥٩٦، ٢٢١.

_____ (ق) _____

قادش:

٣١١، ٢٥٦، ٢٥١-٢٥٠، ٢٢٧، ٢١٦
 ، ٥٦٥، ٥٦٢، ٥٣٦، ٥٢١، ٤٧٥، ٤٣٩، ٣١٤

. ٨٤٣، ٧٢٨، ٥٧٧

قايين: ٥٢٧، ٥٢٥.

قرقار:

قرقميش: ٨٨٣، ٨١٩، ٤٩٤، ٤٧٤.

قطسورة: ٥١٥، ١٩٩، ١٧٣.

قميز الثاني: ٩٧٩-٩٧٨، ٩٣٣.

قنا: ١٠١٤، ٤٢٢، ٢٠٨، ٢٢.

قتير:

٤٠١، ٣٩٨، ٣٧٦، ٣٧٢-٣٧١، ٣٣٩
 . ٤٠٦

_____ (ك) _____

كالب بن يفتة: ٥٢٨، ٤٣٧-٤١١، ٤٣٣.

كاموزا: ٣٤١، ٢٤٠.

كريت: ٨١٩، ٥٤٦، ٥٤٢-٥٣٧.

كتعان:

-٦٧، ٦٢، ٥٩، ٣٤، ٢٩، ١٩، ١٧، ٩
 ، ١٨٣-١٨١، ١٧٥-١٧٤، ٧٨-٧٧، ٧٢، ٦٨
 -٢٣٥، ٢٢٦، ٢١٦، ٢١٣، ٢١١، ١٩٤، ١٨٥

منسى:	لبغة:
٢٠٦ ، ٢٢٥-٢٢٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩-	لوط:
٥٨٠ ، ٥٨٤-٥٨٦ ، ٥٦٣ ، ٦١٢ ، ٧٧٥ ،	٥٧ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٧-٨٨ ، ٩٤ ، ٩٧-
٧٧٧-٧٧٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٥ ، ٨٧٧-٨٧٩ ، ٩٥٦ ،	٩٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥١٤-٥١٥ ، ٦٤٨ ، ٨٢٤ .
٩٦٣ .	ليسة: ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٤٩٠ ، ٧٩٥ .
معكة:	(م)
٤٩٩-٥٠٠ ، ٦٤٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٨ ،	محمد رسول الله -:
٨٠٨ ، ٨٤٣ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ .	٩-١٠ ، ٢٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٠٦ ، ٣١٧ ،
مفيوشث: ٦٣١ ، ٦٤٢ ، ٦٦٨ .	٣٢٦-٣٢٧ ، ٣٧٥ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ ، ٧٢٥ .
مكة: ٦٣-٦٥ ، ٨٩ ، ١٠٨ .	مارى: ٧٤ ، ٧٧ ، ٤٢٢ ، ٦٥٦ ، ٤٧٦ ، ٤٨٦ .
موسى: فى معظم الصفحات:	محاتيم: ١٨٦ ، ٦٣٨ ، ٨٥٦ .
مزاب:	مدنين:
٣١١ ، ٣٨٦ ، ٤٤١-٤٤٢ ، ٤٧٤ ،	١١١ ، ١٩٩ ، ٢١٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،
٥٠٩-٥١٤ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ ، ٥٣٠ ، ٥٧٥ ، ٦٢٠ ،	٣١٢-٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٤١٦ ،
٦٣٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨-٦٤٩ ، ٨٢٦-٨٢٧ ،	٥٠٢ ، ٥١٣-٥١٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤-٥٢٥ .
٨٢٩-٨٣١ ، ٨٣٤ ، ٨٦١ ، ٨٦٣ ، ٨٧٢ ، ٨٩٥ ،	مجلدو:
١٠٠٧ .	٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٧٩ ، ٥٦٣-٥٦٢ ، ٥٦٥ ،
ميشع: ٥١١ ، ٨٢٧ ، ٨٢٩-٨٣١ .	٥٧٨ ، ٦٧٣ ، ٦٨٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٩-٦٩٠ ، ٧٢٨ ،
ميديا: ٥٣٣ ، ٩١٩-٩٢٠ .	٧٦٢ ، ٧٦٦ ، ٧٧٤ ، ٨٣٢ ، ٨٥٧ ، ٨٦٤ ، ٨٨١ -
ميكال:	٨٨٤ .
٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٤٢ ، ٦٦٠-٦٦١ ،	مربتاح:
٧٥٤ .	٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥-٢٣٦ ، ٢٦٣ ،
ميزوبوتاميا:	٢٩٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٧٥-٣٨٢ ، ٣٩٢-٣٩٥ ،
٦٦-٦٧ ، ٦٩-٧٣ ، ٧٨ ، ١٧٥ ، ٣٣٥ ،	٤٢١ ، ٥٧١ ، ٩٧١ .
٣٣٨ ، ٤٩٠ ، ٥٣٥ ، ٦٥٢ ، ٩٢٨ .	مريم:
(ن)	١٠ ، ٥٧ ، ٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٦١ ، ٢٧١ ،
نابال: ٦٣٤ ، ٦١ .	٣١٤-٣١٥ ، ٣٩٢-٣٩٧ ، ٧٣٨-٧٣٧ .
نابلس: ٩٠ ، ٧٥١ ، ٨٠٤ ، ٩٦٠ ، ١٠٢٧ .	مصر: فى معظم الصفحات

نساداب: ٨٢٣، ٨٠٨-٨٠٧، ٥٢٧.	هارون:
ناحاش: ٦٤١، ٦١٣-٦١٢.	٢٨١-٢٧٩، ٢٧٧، ٢٦١، ٢٤٦، ٥٦
ناحور:	٢٨٨-٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠٢
٥٩، ٦٨-٦٧، ٧١، ٧٤-٧٣، ١٧٣-	٣١١-٣١٢، ٣١٥-٣١٤، ٣١٩، ٣٢١
١٧٤، ١٨٤، ٤٩٠، ٤٩٥.	٤١٣-٤١٤، ٤١٦، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٣-٤٣٤
نحميا:	٤٣٨-٤٤٠، ٦٠٢، ٦٨٠.
٧٣، ٥٠٣، ٥٩٣، ٧٤٠، ٧٥٦، ٩٢٦	هوشع:
٩٣٨-٩٥٦، ٩٥١	١٨٧، ٢٨٢، ٣١٣، ٤٣٣، ٤٣٦
نبوخذ نصر:	٥٤٩، ٦١٦-٦١٧، ٦٥٥، ٨٠٦، ٨٤٤-٨٤٧
٣٩، ٢٥٧، ٤٩٦، ٧٧٠، ٧٩٨، ٨٨٠	٨٤٩.
٨٨٥-٨٨٩، ٨٩٣-٨٩٥، ٨٩٨-٩٠١، ٩٠٤-	هيرودوت:
٩٠٥، ٩٠٨، ٩١٠-٩١١، ٩١٩، ٩٢٤، ٩٢٧	٦٢، ٤٧٨-٤٨٠، ٥٤١، ٦٨٩، ٧٤١
٩٢٩-٩٦٦.	٧٧٢، ٨٧٣، ٨٧٧، ٨٨٦، ٩٦٣.
نخاو: ٨٩٩، ٨٨٦-٨٨٢، ٨٨٠، ٨٧٨، ٤٩٦	هيرودوس: ٧٣٥، ١٠١٣-١٠٢١، ١٠٢٤.
نخن: ٦١٠، ٣٠٨.	هيروديا: ١٠١٩-١٠٢٠.
نفتالي:	(و) _____
١٨٢، ٢٠٢، ٤٩١، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٨٠	وادی إرنون: ٨٢٤، ٨٢٨.
٨٤٣، ٨٠٨.	وادی الأردن:
نفریتی: ٧٦.	٥٠٩-٥١٠، ٥٢٨، ٦١٣، ٦١٥
نمرود: ٨١٩-٨١٨، ٧٢٥، ٥٢٠، ٤٧٣، ٧٢	٨٠٣، ٨١٣، ٨٩٩.
نوب:	وادی البقاع: ٦٤٤، ٥٣١.
نوح:	وادی الجزيرة: ٤٨٥.
٣٠، ٥٦-٥٧، ٥٩، ٦٥، ٢٣٤، ٤٦٥-	وادی الحسا: ٥٠٩، ٥٠٥.
٤٦٧، ٤٦٩، ٥١٥-٥١٩، ٥٣٦، ٧٤١.	وادی الصرار: ٥٩٠.
نیرون: ١٠٢٣-١٠٢٢.	وادی العربیة:
(ه) _____	٥٠٥، ٥٠٧-٥٠٨، ٥١٥، ٥٢٤
هاجر: ٢١٦، ١٧٦-١٧٥، ٧٧، ٦٣، ٥٥.	٥٢٦، ٦٤٩، ٦٥٢، ٦٩٥، ٧٠٥، ٧١٥-٧١٧.
	وادی العریش: ٢١٦-٢١٧.

(ي)

وادی الرفائین: ٦٤٤، ٥٣١.	یوآب:
وادی الرمة: ٦٩٣.	یابیش جلعاد:
وادی الزرقاء: ٤٧٧، ٤٤١.	٦٧٢، ٦٤١-٦٤٠، ٦٢٤، ٦١٤-٦١٢.
وادی الملح: ٦٤٨.	یاهسو: ٨٦٤، ٨٠٩، ٧٩٧، ٥٢٧.
وادی النهرین: ٣٤٠، ٣٢٥.	یوق:
وادی النظرون: ٣٨٥.	٤٩١، ٤٧٧، ٤٤١، ١٩٠، ١٨٦، ٣٥.
وادی النيل:	٤٧٢، ٣٥٨، ٣٤٠، ٣٣٥، ٣٢٥، ٢٣٠.
وادی ایلون: ٥٥٠.	٨٠٥، ٦٣٨، ٦١٢، ٥٨٧، ٥٥٤، ٥١٢، ٥٠٩.
وادی بوضباع: ٦١٨.	٨٣٤.
وادی تثلیث: ٧١١.	یشرون: ٦٧١، ٥١٦، ٤١٦، ٣١٣، ٢٧٠، ٢٦٧.
وادی جبعون: ٦٤٤.	یساکر: ٨٠٨، ٧٩٥، ٥٨٦، ٥٧٧-٥٧٦، ١٨٢.
وادی جوشن: ٣٢٠.	یرعام الأول:
وادی دجلة: ٤٨٦.	٧٨٣، ٧٢٣، ٦٨٠، ٤٢٧، ٤٢٤، ١٠٩.
وادی رفائیم: ٦٤٥.	٧٨٥، ٧٩٤، ٧٩٧-٧٩٨، ٨٠٣-٨١٦، ٨٥٧-
وادی زارد: ٥٠٩، ٤٤١.	٩٦٤، ٨٨٤، ٨٦٠، ٨٥٨.
وادی سلوان: ٧٣٦، ٧٣٤.	یرعام الثاني: ٨٤١-٨٤٠، ٨٣٦.
وادی سوری: ٥٩٣، ٥٩٠.	یزرعیل:
وادی صبرعیم: ٦١٨.	٦١٧، ٥٨٢، ٥٧٨، ٥٦٣، ٥٢٢، ٤٩١.
وادی طمیلات: ٢٣٩، ٢١٧-٢١٤.	٦٢٣-٦٢٥، ٦٣٤، ٨٣٢، ٨٣٤، ٨٥٦.
وادی فوکیین: ٧٣٤.	یوشیا:
وادی فیران: ٤١٦.	٨٠٩، ٨٧٩، ٨٨١-٨٨٥، ٩٠٠، ٩٥٥.
وادی قدرون: ٧٧٧، ٧٤٩، ٧٣٦، ٧٣٤.	٩٦٤.
وادی مغارة: ٤١٨.	یشوع:
وادی مزاب: ٤٧٧.	٣٠، ٦٨، ١٧٤، ٢٤٢، ٣٤٣-٣٤٦.
وادی یابیش: ٦١٢.	٣٤٩-٣٥٠، ٣٦٧-٣٦٨، ٣٨٦، ٤٠٩، ٤١٦.
وادی یزرعیل: ٥٨٢، ٥٦٣، ٤٩١.	٤٥٩، ٥٢٩، ٥٤٩-٥٥٠، ٥٥٢-٥٦٧، ٥٦٩.
	٥٧١، ٥٧٣-٥٧٤، ٦٦٢، ٧٤٦، ٨٧٣.
	یعقوب:
	٣٠، ٣٤-٣٦، ٣٨، ٥١-٥٠، ٥٦، ٦١.

٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٧٨-٥٨٠، ٥٨٣، ٦٥٨،
٦٦٠، ٧٥٩-٧٦٠، ٧٦٧، ٧٦٩-٧٧٠، ٧٧٢،
٧٨٢، ٧٨٩، ٧٩٤، ٨٠٤، ٨٢٠-٨٢٣، ٨٢٧،
٨٢١، ٨٢٣، ٨٢٦-٨٢٧، ٨٤٢، ٨٥٩-٨٦٠،
٨٦٨-٨٦٩، ٨٧٧، ٨٧٩، ٨٨٦، ٨٩٣-٨٩٤،
٨٩٧، ٩٠٣-٩٠٤، ٩٠٦، ٩١١، ٩١٤-٩١٧،
٩٢٢، ٩٢٤-٩٢٥، ٩٢٩-٩٣٠، ٩٦٩-٩٧٣،
٩٧٩-٩٨١، ٩٩٢، ٩٩٧، ١٠٣٣.

يهوزام:

٥١٨، ٨١٥، ٨٢٢-٨٢٣، ٨٢٥

٨٣١-٨٣٢، ٨٦١-٨٦٤، ٨٦٦.

يهوشافط: ٧٣٦، ٨٣٥، ٨٦١-٨٦٢.

يهو ياقوم: ٨٨٥-٨٨٧.

يهو ياداع: ٨٦٦.

يهو شبة: ٦٦٦.

يهو ياكين:

٨٨٦-٨٨٩، ٨٩٤، ٩٠٠، ٩٠٥-٩٠٦.

٩٣١، ٩٣٥.

يوثام: ٥٨٥، ٨٦٩.

يوحنا المعمدان: (يحيى عليه السلام)

١٠١٩-١٠٢٠.

يوحنا المكابي: ٥٠٨.

يوحنا هيركانوس:

٩٥٩، ١٠٠٣-١٠٠٤، ١٠١٠، ١٠١٢.

يوسف: (عليه السلام)

٥٦٣، ٦٢٠، ٧٥٣، ٧٨٩، ٩١٠، ٩٦١.

يوسف النجار: ٧٣٧، ١٠١٧.

٦٣، ٦٨، ٧٣، ٨٣-٨٤، ١١٢، ١٢٣، ١٢٢،
١٣٤، ١٣٦، ١٤١-١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٦،
١٧٣-١٧٤، ١٧٦-١٩٤، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٣،
٢١١-٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٥،
٢٤٤

يفتاح: ١٥٩، ٥١٣، ٥٨٧-٥٨٩، ٦٢٧.

يهو آحاز: ٨٣٥-٨٣٦، ٨٦٣، ٨٨٤-٨٨٥.

يهو آش:

١٠٥، ٥٠٧، ٨٣٥-٨٣٦، ٨٦٦-٨٦٧.

يهوذا:

١٨، ٣٤، ٣٧-٣٩، ٥١، ١٠٥، ١١٠.

٢١٥، ٢١٧، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٢٦.

٣٤٦، ٤٧٧-٤٧٨، ٤٩٨، ٥٠٦-٥٠٧، ٥١١.

٥٢٦-٥٢٧، ٥٢٩-٥٣٠، ٥٤١، ٥٧٨، ٥٨٧.

٦٠٩، ٦١٣، ٦١٦، ٦٢٧، ٦٣٤، ٦٣٧-٦٣٨.

٦٤٠-٦٤١، ٦٤٣-٦٤٤، ٦٥١، ٦٦١، ٦٦٣-٦٦٤.

٦٦٤، ٦٦٧-٦٧١، ٦٨٤-٦٨٦، ٦٩٦، ٧١٩.

٧٢٤، ٧٣٠، ٧٤٦-٧٤٨، ٧٥٠، ٧٧٥، ٧٨١.

٧٨٥، ٧٨٧، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩٤، ٧٩٦-٧٩٧.

٨٠٤-٨٠٩، ٨١٢، ٨٣٥، ٨٢٩، ٨٣١-٨٣٢.

٨٣٤-٨٣٥، ٨٣٩، ٨٤١-٨٤٢، ٨٥٢، ٨٥٥-٨٥٦.

٨٥٦، ٨٥٩-٨٦١، ٨٦٢-٨٦٧، ٨٦٩-٨٧٢.

٨٧٤-٨٧٥، ٨٧٧، ٨٧٩، ٨٨١-٨٨٢، ٨٨٥-٨٨٦.

٨٩٣.

يهوه:

٣٥، ٣٩، ١٠٩، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٩.

٢٨٨، ٣١٢، ٣١٦-٣١٧، ٣٥٣-٣٥٤، ٣٥٨.

٣٦١، ٣٦٨، ٤٢٧، ٤٣١، ٥٢٧، ٥٤٩، ٥٥٦.

- ١٠٥٢ -

يوسف بن متى:

٥٢١، ٦٩٥، ٧٢٩، ٧٣٥، ٧٤٩، ٧٦٢،

٩٠٤، ٩٥٦-٩٥٨، ١٠٠٤، ١٠٠٦، ١٠٠٨،

١٠١٥، ١٠٢٣-١٠٢٤.

يونس: (عليه السلام) ٥١٥.

المراجع المختارة

أولا - المراجع العربية:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - صحيح البخارى، دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ.
- ٣ - صحيح مسلم، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١-١٩٧٢ م.
- ٤ - مسند الإمام أحمد، طبعة الحلبي، القاهرة.
- ٥ - الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، دار الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٧٠.
- ٦ - الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥١.
- ٧ - الكتاب المقدس، الأسفار القانونية التى حذفها البروتستانت، الإسكندرية ١٩٥٦.
- ٨ - أبكار البقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧.
- ٩ - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيباني)، الكامل فى التاريخ، الجزء الأول والثانى، بيروت ١٩٦٥.
- ١٠ - ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم)، مجموع فتاوى ابن تيمية (الأجزاء من ١ إلى ٣٥)، الرياض ١٣٨١-١٣٨٢ هـ.
- ١١ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، الفصل فى الملل والأهواء والنحل (خمسة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٤.
- ١٢ - ابن حيّان (محمد بن يوسف بن حيّان الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، القاهرة.
- ١٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١.
- ١٤ - ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد)، الطبقات الكبرى، الجزء الأول، دار التحرير، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٥ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، البداية والنهاية فى التاريخ، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٦.

- ١٦ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، قصص الأنبياء (جزءان)، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٧ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، السيرة النبوية (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٦-١٩٦٤.
- ١٨ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن أيوب)، سيرة النبي ﷺ (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٥٥.
- ١٩ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، القاهرة ١٣٢٥هـ.
- ٢٠ - الدكتور أحمد بدوي، في موكب الشمس، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٠.
- ٢١ - الدكتور أحمد شلبي، اليهودية، القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٢ - الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسنة، القاهرة ١٩٧٣.
- ٢٣ - الدكتور أحمد فخرى، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، الأدب المصري، القاهرة ١٩٥٨.
- ٢٤ - الدكتور أحمد فخرى، دراسات في العالم العربي، القاهرة ١٩٥٨.
- ٢٥ - الدكتور أحمد فخرى، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٦٣.
- ٢٦ - الدكتور أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١.
- ٢٧ - الأب إسحاق ساكا، معنى لتسميات للشعوب السامية، مجلة العربي، العدد ٩١، الكويت ١٩٦٦.
- ٢٨ - الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧.
- ٢٩ - الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩.
- ٣٠ - الدكتور إسماعيل راجي الفاروق، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، القاهرة ١٩٦٤.
- ٣١ - الشهرستاني (أبو الفتح محمد)، الملل والنحل (ثلاثة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٨.
- ٣٢ - الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، القاهرة.

٣٣ - البكرى (أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥١.

٣٤ - البلاذرى (أحمد بن يحيى)، فتوح البلدان، (ثلاثة أجزاء)، القاهرة ١٩٥٧.

٣٥ - البيضاوى (ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (جزءان)، القاهرة ١٩٦٨.

٣٦ - البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين)، دلائل النبوة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٠.

٣٧ - الدكتور التهامى نكرة، سيكولوجية القصة فى القرآن، تونس ١٩٧٤.

٣٨ - الزمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (المعروف بتفسير الكشف)، القاهرة ١٩٦٦.

٣٩ - الدكتور السيد يعقوب بكر، أوفير، من كتاب العرب والملاحة فى المحيط الهندى، القاهرة ١٩٥٨.

٤٠ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، طهران ١٣٧٧هـ.

٤١ - الطبرسى (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان فى تفسير القرآن، بيروت ١٩٦١.

٤٢ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آى القرآن (المعروف بتفسير الطبرى)، القاهرة ١٩٥٧-١٩٦٧.

٤٣ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى)، الجزء الأول والثانى، القاهرة ١٩٦٧.

٤٤ - الفخر الرازى (أبو عبد الله محمد بن عمر القرشى)، التفسير الكبير، القاهرة ١٩٣٨.

٤٥ - القاسمى (جمال الدين)، محاسن التأويل (المعروف بتفسير القاسمى)، القاهرة ١٩٥٧.

- ٤٦ - القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبي)، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٠.
- ٤٧ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول والثاني، بيروت ١٩٧٣.
- ٤٨ - المقدسي (المطهر بن طاهر)، كتاب البدء والتأريخ، الجزء الثالث والرابع، باريس ١٩٠٣-١٩٠٧.
- ٤٩ - النسفي (عبد الله بن أحمد)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (المعروف بتفسير النسفي)، القاهرة.
- ٥٠ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر)، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول والثاني، بيروت ١٩٦٠.
- ٥١ - الأب إميل أده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت ١٩٦٩.
- ٥٢ - أمين الريحاني، قلب لبنان، بيروت ١٩٥٨.
- ٥٣ - إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، القاهرة ١٩٢٤.
- ٥٤ - الدكتور باهور ليبب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة ١٩٤٧.
- ٥٥ - الدكتور بولس عياد عياد، الآراميون في مصر، القاهرة ١٩٧٥.
- ٥٦ - الدكتور ثروت أنيس الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين: الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، القاهرة.
- ٥٧ - جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٦.
- ٥٨ - الدكتور جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيًا، القاهرة ١٩٦٧.
- ٥٩ - الدكتور جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠.
- ٦٠ - الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء)، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١.
- ٦١ - حبيب سعيد، المدخل إلى الكتاب المقدس، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة.

- ٦٢ - حبيب سعيد، خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام، القاهرة.
- ٦٣ - حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون، يتكلمون، القاهرة.
- ٦٤ - الدكتور حسن ظاظا، القدس: مدينة الله - أم مدينة داود؟، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٦٥ - الدكتور حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٦٦ - الدكتور حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى، القاهرة ١٩٧١.
- ٦٧ - الدكتور حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١.
- ٦٨ - الدكتور حسن محمود، حضارة مصر والشرق القديم، العبرانيون، القاهرة.
- ٦٩ - حسين ذو الفقار صبرى، إنما الأمور بأصولها، المجلة العدد ١٥١، القاهرة ١٩٦٩.
- ٧٠ - حسين ذو الفقار صبرى، تورا اليهود، المجلة، العدد ١٥٧، القاهرة ١٩٧٠.
- ٧١ - حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى فى تورا اليهود، المجلة، العدد ١٦٣.
- ٧٢ - الدكتور خالد طه الدسوقي، الجالية اليهودية فى أسوان، القاهرة ١٩٧٤.
- ٧٣ - الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨.
- ٧٤ - الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث، بيروت ١٩٦٩.
- ٧٥ - الدكتور سليم حسن، مصر القديمة (الأجزاء ١-١٣)، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥٨.
- ٧٦ - الدكتور سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥.
- ٧٧ - سيد قطب، فى ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ١٩٦٧-١٩٧٠.
- ٧٨ - شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلىة، القاهرة ١٩٠٤.
- ٧٩ - الدكتور صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى، القاهرة ١٩٧٠.
- ٨٠ - طنطاوى جوهرى، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٤.
- ٨١ - طه باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول والثانى، بغداد ١٩٥٥.

- ٨٢ - عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، القاهرة.
- ٨٣ - عباس محمود العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة ١٩٦٠.
- ٨٤ - عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة ١٩٦٥.
- ٨٥ - عباس محمود العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨.
- ٨٦ - عباس محمود العقاد، مطلع النور، القاهرة ١٩٦٨.
- ٨٧ - عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة ١٩٧٠.
- ٨٨ - الدكتور عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦.
- ٨٩ - الدكتور عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦.
- ٩٠ - الدكتور عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤.
- ٩١ - عبد الرحيم فودة، في معاني القرآن، القاهرة.
- ٩٢ - الدكتور عبد الرحمن الأنصارى، لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربى الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد الأول، الرياض ١٩٧٥.
- ٩٣ - الدكتور عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، القاهرة ١٩٦٧.
- ٩٤ - الدكتور عبد الفتاح شحاتة، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٦٠.
- ٩٥ - عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، القاهرة ١٩٦٦.
- ٩٦ - الدكتور عبده الراجحي، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨.
- ٩٧ - الدكتور علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، القاهرة ١٩٦٤.
- ٩٨ - عصام الدين حفى ناصف، محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة ١٩٦٥.
- ٩٩ - الدكتور فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، القاهرة.
- ١٠٠ - الدكتور فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨.

- ١٠١ - كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، القاهرة ١٩٧٠.
- ١٠٢ - الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٨.
- ١٠٣ - محمد الصادق عرجون، معجزات الأنبياء بين العقل والدين، القاهرة ١٩٥٥.
- ١٠٤ - محمد العزب موسى، موسى في سيناء، الهلال، العدد ٦، القاهرة ١٩٧١.
- ١٠٥ - محمد بدر، الكنز في قواعد اللغة العبرية، القاهرة ١٩٣٦.
- ١٠٦ - الدكتور محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة (رسالة ماجستير)، الإسكندرية ١٩٦٦.
- ١٠٧ - الدكتور محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث (رسالة دكتوراة)، الإسكندرية ١٩٦٩.
- ١٠٨ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات فى تاريخ اليهود القديم (١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٣، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ١٠٩ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات فى تاريخ اليهود القديم (٢)، مجلة الأسطول، العدد ٦٤، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ١١٠ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات فى تاريخ اليهود القديم (٣)، مجلة الأسطول، العدد ٦٥، الإسكندرية ١٩٦٥.
- ١١١ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٦، الإسكندرية ١٩٧١.
- ١١٢ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢)، مجلة الأسطول، العدد ٦٧، الإسكندرية ١٩٧١.
- ١١٣ - الدكتور محمد بيومي مهران، النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨، الإسكندرية ١٩٧١.
- ١١٤ - الدكتور محمد بيومي مهران، أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩، الإسكندرية ١٩٧١.

١١٥ - الدكتور محمد بيومي مهران، التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠، الإسكندرية ١٩٧٢.

١١٦ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثاني، إسرائيل، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣.

١١٧ - الدكتور محمد بيومي مهران، الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي، مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤.

١١٨ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥.

١١٩ - الدكتور محمد بيومي مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض ١٩٧٦.

١٣٠ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

١٣١ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٧.

١٣٢ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، في بلاد العرب، (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٨.

١٣٣ - الدكتور محمد بيومي مهران، النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، الإسكندرية ١٩٧٨.

١٣٤ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسة حول الديانة العربية القديمة، القاهرة ١٩٧٨.

- ١٢٥ - الدكتور محمد حسين هيكل، حياة محمد ﷺ، القاهرة ١٩٧٠.
- ١٢٦ - محمد حسنى عبد الحميد، أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، القاهرة ١٩٤٧.
- ١٢٧ - محمد رجب البيومى، البيان القرآنى، القاهرة ١٩٧١.
- ١٢٨ - محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، القاهرة ١٩٣٦.
- ١٢٩ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥-١٩٧٣.
- ١٣٠ - الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة (١)، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٣١ - الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة (٢)، القاهرة ١٩٦٩.
- ١٣٢ - الدكتور محمد عبد اللطيف محمد علي، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية ١٩٧٧.
- ١٣٣ - الدكتور محمد عبد القادر، الساميون فى العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٣٤ - الدكتور محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤.
- ١٣٥ - محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩.
- ١٣٦ - محمد مبروك نافع، تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، القاهرة ١٩٥٢.
- ١٣٧ - محمود الشرقاوى، الأنبياء فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠.
- ١٣٨ - محمود شبت خطاب، أهداف إسرائيل التوسعية فى البلاد العربية، القاهرة ١٩٧٠.
- ١٣٩ - الدكتور مراد كامل، الكتب التاريخية فى العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٤٠ - الدكتور مراد كامل، النصوص الآرامية التى كشفت حديثاً فى مصر، مجلة أحاديث الثلاثاء بدار السلام، القاهرة ١٩٥٢.
- ١٤١ - الدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى، تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الإسلامى، القاهرة ١٩٤٩.

- ١٠٦٢ -

١٤٢ - الدكتور مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى،
القاهرة ١٩٦٦.

١٤٣ - الدكتور مصطفى كمال عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالة
والرومان، القاهرة ١٩٦٨.

١٤٤ - مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٦٥.

١٤٥ - منيس عبد النور، إبراهيم السائح الروحى، القاهرة.

١٤٦ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية
١٩٦٦.

١٤٧ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى، الإسكندرية
١٩٦٦.

١٤٨ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث،
الإسكندرية ١٩٦٦.

١٤٩ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس،
الإسكندرية ١٩٦٣.

١٥٠ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) معجم البلدان، (خمسة أجزاء)،
بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧.

١٥١ - قاموس الكتاب المقدس، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٤.

١٥٢ - قاموس الكتاب المقدس، الجزء الثانى، بيروت ١٩٦٧.

ثانياً - المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

١٥٣ - أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٢.

١٥٤ - أدلف أرممان، وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة ١٩٥٣.

١٥٥ - الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠.

١٥٦ - أندريه إيمار، وجانين أبواية، الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، بيروت ١٩٦٤.

١٥٧ - إيتين دريوتون، وجاك فاندييه، مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠.

١٥٨ - إيمانويل فليكوفسكى، أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، القاهرة ١٩٦٨.

١٥٩ - باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفى، القاهرة ١٩٧١.

١٦٠ - تيودور روينسون، تاريخ العالم، إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، القاهرة.

١٦١ - ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة الدكتور طه حسين، القاهرة.

١٦٢ - جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٦.

١٦٣ - جورج فضلو حوارنى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨.

١٦٤ - جوزيف لويس، الختان، ترجمة عصام الدين حنفى ناصف، القاهرة.

١٦٥ - جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتير، القاهرة ١٩٦٧.

- ١٦٦ - جوستاف لوفيفر، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمة الدكتور علي حافظ (الألف كتاب)، القاهرة.
- ١٦٧ - جون إلدر، الأحجار تتكلم، ترجمة الدكتور عزت زكي، القاهرة ١٩٦٠.
- ١٦٨ - جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل، الجزء الأول، ترجمة لبیب حبشی وشفیق فريد، ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار (الألف كتاب)، القاهرة ١٩٦٣.
- ١٦٩ - جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل، الجزء الثاني، ترجمة لبیب حبشی وشفیق فريد ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، القاهرة ١٩٦٧.
- ١٧٠ - جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٢.
- ١٧١ - جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الثاني، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٤.
- ١٧٢ - جيمس هنري برستد، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور حسن كمال، القاهرة ١٩٢٩.
- ١٧٣ - جيمس هنري برستد، فجر الضمير، ترجمة الدكتور سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦.
- ١٧٤ - جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوسن، القاهرة ١٩٦١.
- ١٧٥ - سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٧٦ - عاموس عبد المسيح، دراسة في عاموس، ترجمة حارث قريضة، القاهرة ١٩٦٦.
- ١٧٧ - ف.ب. ماير، موسى، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة.
- ١٧٨ - ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٤٩.

- ١٧٩ - ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٨٠ - ف.ب. ماير، حياة إبراهيم، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٨١ - ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٢ .
- ١٨٢ - ف.ب. ماير، حياة يوسف، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٨٣ - ف.ب. ماير، حياة يوسف، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٦٦ .
- ١٨٤ - ف.ب. ماير، حياة صموئيل، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٨٥ - فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨ .
- ١٨٦ - لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ .
- ١٨٧ - م.ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة الدكتور حسن ظاظا، بيروت، ١٩٦٧ .
- ١٨٨ - متى هنري، تفسير هوشع، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٩ .
- ١٨٩ - ه.ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٩٠ - ه.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء الثاني ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٩ .
- ١٩١ - هيرودوت، يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، وتقديم الدكتور أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٩٢ - و.ج. دي بورج، تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوسن، القاهرة ١٩٧١ .
- ١٩٣ - وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة الدكتور زكي إسكندر، والدكتور محمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١ .
- ١٩٤ - ول. ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١ .
- ١٩٥ - يوري أبقانوف، احذروا الصهيونية، ترجمة ماهر عسل، القاهرة ١٩٦٩ .
- ١٩٦ - يوسفوس، تاريخ يوسفوس، دار صادر، بيروت .
- ١٩٧ - دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٢ .

ثالثاً - المراجع الأجنبية:

198. Abramsky, (Samuel), Ancient Towns in Israel, Jerusalem, 1963.
199. Albright, (W.F.), The Role of the Canaanites in the History of Civilization, London, 1961.
200. Albright, (W.F.), from the Stone Age to Christianity, N.Y., 1957.
201. Albright, (W.F.), Akkadian Letters, in ANET, Princeton, 1966.
202. Albright, (W.F.), The Archaeology of Palestine, London, 1949.
203. Albright, (W.F.) King Jehoiachin in Exile, BA, V. 1942.
204. Albright, (W.F.), The Bible and The Ancient Near East, London, 1961.
205. Albright, (W.F.), The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963.
206. Albright, (W.F.), Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1963.
207. Albright, (W.F.), Historical Geography of Palestine , AASOR, 1923.
208. Albright, (W.F.), Recent Discoveries in Bible land, N.Y., 1955.
209. Albright, (W.F.), New Light on Early Recensions of the Hebrew Bible in BASOR, 140, 1955.
210. Altheim (F.) and Stiehl (R.), Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964-1968.
211. Barton, (G.A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.

212. Baron, (S.W.), A Social and Religions History of the Jews, N.Y.,
1967.
213. Bentwich (N.), Palestine, London, 1934.
214. Bonfante, (G.), Who Were the Philistines, in AJA, L, 1946.
215. Bowman, (R.A.), Arameans, Aramaic and the Bible, in JNES, 7,
1948.
216. Bowman (R.L.) and Albright (W.F.), Archaeological Discoveries in
Suth Arabia, Baltimore, 1958.
217. Box (G.H.), Judaism in the Greek Period, Oxford, 1953.
218. Brandies, (L.T.), on Zionism, N.Y., 1942.
219. Breasted, (J.H.), A History of Egypt, From the Earlies Tiems to Per-
sian CONquest, N.Y., 1946.
220. Breasted (J.H.), Ancient Records of Egypt, 5 vols., Chicago, 1906-
1907.
221. Breasted (J.H.), The Dawn of Conscience, N.Y., 1939.
222. Buber, (M.), Moses, Oxford, 1946.
223. Burney, (C.F.), Israel's Settlement in Canaan , London, 1918.
224. Burney (C.F.), The Book of Indges, London 1920.
225. Bright (j.), A History of Israel, Philadelphia, 1969.
226. Cameron, (G.G.), History of Early Iran, 1936.
227. Caatan, (H.), Palestine , The Arabs and Israel, London, 1969.

228. Caussin de Perceval, *Essai Sur L'Histoire de Arabes Avant L'Islamisme*, L' Paris, 1847.
229. Cerny, (J.) *Egypt From the Death of Ramesses III, to the End of the Twenty-First Dynsty*, Cambridge, 1965.
230. Cerny, (J.), *Greek Etymolgoy of the Name of Mosis*, ASAE, XLI, 1942.
231. Charles, (R.H.), *Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament*, 2 Vols., Oxford, 1913.
232. Chermont - Ganneau (C.S.), *La Stelede Mosa*, Paris, 1887.
233. Cohen, (ISrael), *A Short History of Zionism*, N.Y., 1951.
234. Cook (S.A.), *The Rise of Israel*, in CAH, II, Cmbridge 1931.
235. Cook, (S.A.), *Israel and the Neighbouring*, CAH, III, Cambridge, 1965.
236. Cook, (S.A), *The Fall and Rise of Judah*, CAH, III, Cambridge, 1965.
237. Cook, (S.A.), *Israel Before the Prophets*, CAH, III, Cambridge, 1965.
238. Cooke, (G.A.), *A Text-Book of North-Semitic Inscriptions*, Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.
239. Cowley, (A.E.), *Aramic Papyri of the Fifth Century, B.C.*, Oxford, 1923.
240. Culican (C.), *The Medes and Persians*, London, 1965.

241. Davies, (A.F.), *The Ten Commandment*, N.Y., 1965.
242. Dhorme, (E.), *La religion des Hebreux Nomsdes*, N.Y., Bruxelles, 1937.
243. Dimont, (M.), *Jews, God and History*, N.Y., 1956.
244. Dozy (R.), *Die Israeliten Zu Mekka*, 1864.
245. Driver, (G.R.), *Aramaic Documents of the Fifth Century B.C.*, Oxford, 1954.
246. Driver, (S.R.), *An Introduction to the Literature of the Old Testament*, Edinburgh, 1950.
247. Dupont - Sommer , (A.), *Les Arameens*, Paris, 1949.
248. Edgerton, (W.F.), and Wilson (J.A.), *Historical Records of Ramses III, The Texts in Medinet Habu*, 2 Vols., Chicago, 1935.
249. Elgood, (S.R.), *Later Dynasties of Egypt*, Oxford, 1951.
250. Eliade, (M.), *Traite d' Histoire des Religions*, Paris, 1964.
251. Eissfeldt, (O.), *The Hebrew Kingdom*, in CAH, II, Part2, Cambridge, 1975.
252. Epstein, (Rabbi Isidore), *Judaism, A Historical Presentation*, (Penguin Books), 1970.
253. Erman (A.), *The Literature of the Ancient Egyptians*, London, 1927.
254. Faulkner (R.O.), *The Wars of Sethos*, in JEA, 33, 1947.

255. Finegan, (Jack), Light from the Ancient Past, The Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton, 1969.
256. Freud, (Sigmund), Moses and Monotheism, Treanslated from the German, by: K. Jones, N.Y., 1939.
257. Frankfort (H.) and Others, Before Philosophy, (Pelican Books), 1949.
258. Foster (C.K.), A History of the Hebrew People, London.
259. Fried, The Jews of Arabia and the Rechabites in JQR, 1910-1911.
260. Gardiner, (A.H.), The Delta Residence of the Ramessides, in JEA, 5, 1918.
261. Gardiner, (A.H.), The Supposed Egyptian Equivalent of the Name of Goshen, in JEA, 5, 1918.
262. Gardiner (A.H.), The Geography of Exodus, in JEA, 10, 1924.
263. Gardiner, (A.H.), Tanis and P'Ra Musse, A Retraction in JEA, 19, 1933.
264. Gardiner (A.H.), Anient Egyptian Onomastica, 3 Vols., Oxford, 1917.
265. Gardiner, (A.H.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.
266. Gardiner, (A.H.), Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
267. Gardiner (A.H.), The Admonitions of Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

268. Garber, (P.L.), Reconstructing Solomon's Temple, in , BA, 14, 1951.
279. Garsting (J.), Joshua, Judges, The Foundations of the Bible History, London, 1931.
270. Chirshman, (R.), Iran, (Penguin Books), 1954.
271. Ginsberg, (H.L.), Aramaic Letters, in ANET, Princeton, 1966.
272. Glover (T.R.), The Ancient World, (Penguin Books), 1968.
273. Glueck (N.), The Other Side of the Jordan, New Haven, 1945.
274. Glueck, (N.), The Excavations of Solomon's Seaport, Ezion Geber, STAR, 1941.
275. Goitein, (S.D.), Jews and Arabes, N.Y., 1955.
276. Gray, (J.), Israel, in Near Eastern Mythology, N.Y., 1969.
277. Grohmann (A.), Arabien, Munchen, 1963.
278. Griffiths, (J.C.), The Egyptian Derivation of the Name Moses, in JNES, 12, 1953.
279. Guillaume, (A.), Prophecy and Divination among the Hebrews and othe Semites, London, 1935.
280. Gureny, (O.R.), The Hittites , (Penguin Books), 1969.
281. Hall, (H.R.), The Anceitn History of the Near East, London, 1963.
282. Halley (H.), The Bocket Bible Handbook.
283. Habachi, (L.), Khata 'na--Qantir, Important, in ASAE, L.N., 1953.

284. Hamza, (M), Excavation of the Department of Antiquities at Qantier,
in ASAE, 30, 1930.
285. Hastings (J.), A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936.
286. Hastings, (J.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh,
1908-1921.
287. Hayes, W.C., The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959.
288. Heaton, E.W., The Old Testament Prophets, Penguin Books, 1969.
289. Heos, Mores, Rome and Jerusalem, N.Y., 1945.
290. Hastzberg, (Arthr), The Zionist Idea, A Historical Analysis and re-
view, N.Y., 1959.
291. Hitti (P.K.), The Near East in History, Princeton, 1961.
292. Hornell, (J.) Sea Trade in Early Times, in , Antiquity, 15, 1941.
293. Horovity, (J.), Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islames Times, IC,
III, 1929.
294. Hatte (J.P.), The Date and Background of Zephaniah, in , JNES, 5,
1946.
295. Irwin, (W.A.), Poetic Structure in the Dialogue of Job, in JNES, 5,
1946.
296. Jacobson (T.) , Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia,
JNES, II, 1943.
297. Jack, (J.W.), The Date of the Exodus, Edinburgh, 1925.
298. Jack, (J.W.), Samaira in Akhab's Time, Edinburgh, 1929.

299. Judith Marquet Krause, les Fouilles de 'Ay, (et-tell), 1933-1935, 2 vols., 1949.
300. Kraeling (Emil, G.), Aram and Israel, N.Y., 1918.
301. Kraeling (Emil, G.), The Brooklyn Museum Aramaic Papyri , New Haven, 1963.
302. Kees, Hermann, Ancient Egypt, A Cultural Topography , London, 1961.
303. Keller (Werner), The Bible as History, Archaeology Confirms the Book of Books, Thirteenth Impression, in Great Britain, 1967.
304. Kenyon, (K.M.), Archaeology in the Holy land , London, 1970.
305. Kenyon, (K.M.), Excavations in Jerusalem, 1961, in PEO, 94, 1967.
306. Kenyon, (K.M.), Excavations in Jerusalem, 1902, in PEQ, 95, 1963.
307. Lods, (A.), Israel From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London., 1962.
308. Laessoe, (J.), People of Ancient Assyria, London, 1963.
309. Lie, (A.G.), The Inscriptions of Sargon, II, Part I, The Annals, 1929.
310. Luckenbill, (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.
311. Macalister (R.A.S.), The topography of Jerusalem, in CAH, III, Cambridge, 1965.

312. Malamat, (A.), The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950.
313. Margoliouth, (D.S.), The Relations Between Arabs and Israelities Prior to the Rise of Islam, London, 1924.
314. May, (H.G.), Three Hebrew Seals and the Status of Exiled Jehoia-kin, in AJSL, LVI, 1939.
315. Meek, (T.J.), The Code of Hammurabi, in ANET, Princeton, 1966.
316. Meek, (T.J.), Hebrew Origins, New York, 1950.
317. Mendenhall, (G.), Biblical History, in Transition in the Bible and the Ancient Near East.
318. Mailer, (B.), Two Hebrew Ostraca from Tel Qasile, in JNES, 10, 1951.
319. Mercer, (Samul, A.E.), The Tell El-Amarna Tablets, 2 Vols., Toron-to, 1939.
320. Milgrom, (J.), The Date of Jeremish in JNES, 14, 1955.
321. Montgomery, (J.A.), Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934.
322. Montet, (Pierre), L'Egypte et la Bible, Neuchatel, 1959.
323. Moritz, (B.), Arabien, Hanover, 1923.
324. Moss, (G.), Jews and Judaism in Palmyra PEFQ, 60, 1928.
325. Mowinckel, (S.), General Oriental and Specifica Israelite Elements in the Israelite Conception of the Sacral Kingdom, 1959.

326. Musil, (A.), The Northern Hegas, N.Y., 1926.
327. Myres, (J.L.), King Solomon's Temple and Other Bulaings and Works of Art, PEQ, 80, 1948.
328. Naville, (E.), The Geography, of the Exodus, JEA, 10, 1924.
329. Naville, (E.), Archaeology of the Old Testament, 1913.
330. Noth (Martin), The History of Israel, London,, 1965.
331. Oesterlay (W.O.E.), Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947.
332. Olmstead, Albert, History of the Presidn Empire, Chicago, 1970.
333. Olmstead, (Albert, T.), Western Asia in the Days of Sargon of Assyria, Chicago, 1908.
334. Olmstead, (Albert. T.), The Reforms of Josiah in its Seular Apsects, AHR, 20, 1915.
335. Oppenheim (A.L.), Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, Princeton, 1966.
336. Orr, The Problem of the Old Testament, Geneva, 1908.
337. Parker, (James), A History of the Jewish People, London, 1964.
338. Petrie, (W.M.F.), A History of Egypt, III, London, 1927.
339. Petrie, (W.M.F.), Egypt and Israel, London, 1925.
340. Pfeiffer, (R.H.), Introduction to the Old Testament, N.Y., 1941.
341. Philby, (J.B.), The Land of Midian, MEJ, 9, 1955.

342. Philby, (J.B.), *The Background of Islam*, Alexandria, 1947.
343. Renan, (Ernest), *Histoire du Peuple d'Israel*, Paris, 1887.
344. Renan (Ernest), *Histoire et Systeme Compare des Langues Seme-
tique*, Paris, 1855.
345. Ricciotti (G.), *The History of Israel*, Vol. I, Milwaukee, 1955.
346. Rodinson, (M.) *Israel and Arabs*, (Penguin Books), 1958.
347. Roger (R.W.), *Cuneiform Parallels to the Old Testament* , London,
1912.
348. Rostovizeff (M.) , *Social and Economic History of the Hellenistic
World*, Oxford, 1941.
349. Roth (Cecil), *A Short History of the Jewish People*, London, 1969.
350. Roux (G.), *Ancient Iraq*, (Penguin Books), 1966).
351. Rowe, (Alan), *The Topography and History of Bethshan, Pennsylva-
nia*, 1930.
352. Rowley, (H.H.), *The Aramaic of the Old Testament*, London, 1929.
353. Rowley, (H.H.), *From Joseph to Joshua*, London, 1950.
354. Rowely, (H.H.), *The Unity of the Bible* , Philadelphia, 1953.
355. Sachar, (A.L.), *A History of the Jews*, N.Y., 1945.
356. Saller, (S.J.), *The Memorial of Moses on Mount Nebo*, 2 Vols., Lon-
don, 1941.
357. Sayce, (A.H.), *The Egypt of the Hebrews and Herodotus*, London,
1896.

358. Sayce, (A.H.), and Cowley (A.E.), Aramaic Papyri Discovered at Assuan, London, 1906.
359. Sellin (Ernst), Mose und Seine Bedeutung für die Israelitisch - Jüdische Religionsgeschichte, Leipzig, 1922.
360. Simon, (J.), Jerusalem in the Old Testament, Leiden, 1952.
361. Smith (G.A.), Historical Geography of the Holy Land, N. Y., 1932.
362. Smith, (G.A.), and Others, The Legacy of Israel, Oxford, 1953.
363. Smith (J.W.D.), God and Man in Early Israel.
364. Smith (S.), Early History of Assyria to 1000B.C. London, 1928.
365. Sprengling (M.), The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931.
366. Steindorff (G.) and Seele (K.C.), When Egypt Ruled the East, Chicago, 1963.
367. Torrey, (C.C.), The Apocryphal Literature, New Haven, 1948.
368. Torrey, (C.C.), Pseudo - Ezekiel and Original Prophecy, New Haven, 1930.
369. Unger (Merril F.), Israel and The Aramaeans of Damascus, London, 1927.
370. Unger, (M.F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.
371. Unger, (M.F.), Archaeology and the Old Testament, Michigan, 1954.
372. Vandier, (J.), La Famine Dans L'Egypte Ancienne, le Caire, 1936.

373. Vincent (W.), *La Religion des Judeo - Arameen d'Elephantine*, 1937.
374. Wainwright, (G.A.) *Some Sea, People*, in JEA, 47, 1961.
375. Waterman, (L.), *The Treasures of Solomon's Private Chapel*, JNES, 6, 1947.
376. Weech, (E.H.), *Civilization of Near East*, London.
377. Wells, (H.G.), *A Short History of the World*, (Penguin Books), 1965.
378. Wells, (H.G.), *The Outline of History*, N.Y., 1956.
379. Weigall, (Arthur), *A History of the Pharaohs*, 2 Vols., London, 1931.
380. Wilson, (J.A.), *The Culture of Ancient Egypt*, Chicago, 1963.
381. Wilson, (J.A.), *The Instruction for King Meri-Ka-Re*, in ANET, Princeton, 1966.
382. Wilson, (J.A.), *The Eperu of the Egyptian Inscription*, AJSL, XLIX.
383. Wilson (J.A.), *The Tradition of Seven Lean Years in Egypt*, ANET, 1966.
384. Winckler (H.), *Musri, Meluhha, Main*, MVG, I, Berlin, 1898.
385. Woolley, (Sir Leonard), *Ur of the Chaldees*, (Pelican Books), 1938.
386. Woolley, (Sir Leonard), *The Beginnings of Civilization*, N.Y., 1965.
387. Woolley, (Sir Leonard), *Excavations at Ur*, London, 1963.

388. Wright, (G.E.), 1 Samuel 13, 19-22, in *Biblical Archaeologist*, 6, 1943.
389. Wright, (G.E.), *The Bible and the Ancient Near East*, N.Y., 1965.
390. Yadin, (Y.), *New Light on Solomon's Mejidjo*, BA, 23, 1960.
391. Yeivin (G.E.), *The Sepulchers of the Kings of the House of David*, in JNES, 7, 1948.
392. *Encyclopaedia Biblica*.
393. *Encyclopaedia Britannica*.
394. *Encyclopaedia of Islam*.
395. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*.
396. *The Jewish Encyclopaedia* , N.Y., 1903.
397. *Historical Atlas of the Holy Land*, N.Y., 1959.
408. *The Westminster Historical Atlas to the Bible*, Philadelphia, 1946.

اختصارات

Abbreviations

- AJA** : American Journal of Archaeology.
- AJSL** : American Journal of Semitic Languages and Literatures.
- ASAE** : Annales du Service des Antiquities de l'Egypte.
- ANET** : Ancient Near Easter Texts.
- BA** : The Biblical Archaeologist.
- BASOR** : Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
- CAH** : The Cambridge Ancient History.
- EB** : Encyclopaedia Biblica.
- EI** : Encyclopaedia of Islam.
- ERE** : Encyclopaedia of Religion and Ethics.
- IC** : Islamic Culture.
- ICC** : The International Critical Commentary.
- JA** : Journal Asiatique.
- JBR** : Journal of Bible and Religion.
- JE** : The Jewish Jewish Encyclopaedia.
- JEA** : The Journal of Egyptian Archaeology.
- JNES** : Journal of Near Eastern Studies.

- JQ** : Jews Quarterly Review.
- LEA** : The Literature of the Ancient Egyptian.
- PEQ** : Palestine Exploration Quarterly.
- UJE** : The Universal Jewish Encyclopaedia.

المؤلف فى سطور

دكتور

محمدر بيومى مهرلا

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

- ١ - ولد فى البصيلة - مركز إدفو - محافظة أسوان.
- ٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقنا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.
- ٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).
- ٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥ - عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.
- ٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.
- ٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.
- ١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧ م.

- ١١ - عين عضواً فى مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢ م.
- ١٢ - عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢ م.
- ١٣ - أغير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧ م.
- ١٤ - عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (١٩٨٧-١٩٨٨ م).
- ١٥ - اختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨-١٩٨٩ م).
- ١٦ - عين أستاذًا متفرغًا فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨ م.
- ١٧ - عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨ - عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.
- ١٩ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.
- ٢٢ - أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣ - أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢ م.
- ٢٤ - شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١ م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ فى عام (١٩٨٢/١٩٨٣ م).
- ٢٥ - عضو اتحاد المؤرخين العرب.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولا - التاريخ المصرى القديم:

- ١ - الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الإسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٤ - إخناتون: عصره ودعوته القاهرة ١٩٧٩

ثانيا - فى تاريخ اليهود القديم:

- ٥ - التوراة (١) - مجلة الأسطول - العدد ٦٣. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - التوراة (٢) - مجلة الأسطول - العدد ٦٤. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٧ - التوراة (٣) - مجلة الأسطول - العدد ٦٥. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٨ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١) - مجلة الأسطول - العدد ٦٦. الإسكندرية ١٩٧١
- ٩ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢) - مجلة الأسطول، العدد ٦٧. الإسكندرية ١٩٧١
- ١٠ - النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨. الإسكندرية ١٩٧١
- ١١ - أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩. الإسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠. الإسكندرية ١٩٧٢
- ١٣ - إسرائيل، الجزء الأول، التاريخ. الإسكندرية ١٩٧٨
- ١٤ - إسرائيل، الجزء الثانى، التاريخ. الإسكندرية ١٩٧٨

- ١٥ - إسرائيل، الجزء الثالث، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ١٦ - إسرائيل، الجزء الرابع، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ١٧ - النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل. الإسكندرية ١٩٧٩
- ثالثاً - فى تاريخ العرب القديم:
- ١٨ - الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى. الرياض ١٩٧٤
- ١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة. الرياض ١٩٧٦
- ٢٠ - مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة. الرياض ١٩٧٧
- ٢١ - الديانة العربية القديمة. الإسكندرية ١٩٧٨
- ٢٢ - العرب والفرس فى العصور القديمة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ٢٣ - الفكر الجاهلى. القاهرة ١٩٨٢
- رابعاً - فى تاريخ العراق القديم:
- ٢٤ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة. الرياض ١٩٧٦
- ٢٥ - قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة. الإسكندرية ١٩٧٩
- خامساً - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:
- ٢٦ - الجزء الأول - فى بلاد العرب. بيروت ١٩٨٨
- ٢٧ - الجزء الثانى - فى مصر. بيروت ١٩٨٨
- ٢٨ - الجزء الثالث - فى بلاد الشام. بيروت ١٩٨٨
- ٢٩ - الجزء الرابع - فى العراق. بيروت ١٩٨٨
- سادساً - سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم:
- ٣٠ - مصر - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣١ - مصر - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٢ - مصر - الجزء الثالث. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٩
- ٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٩

- ٣٥ - تاريخ العرب القديم (الجزء الأول). الإسكندرية ١٩٩٤
- ٣٦ - تاريخ العرب القديم (الجزء الثاني). الإسكندرية ١٩٩٤
- ٣٧ - تاريخ لبنان القديم ييسروت ١٩٩٤
- ٣٨ - الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٩ - بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٠ - تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤
- ٤١ - المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٢ - العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٣ - التاريخ والتأريخ الإسكندرية ١٩٩١
- سابعاً - سلسلة : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين:
- ٤٤ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول ييسروت ١٩٩٠
- ٤٥ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني ييسروت ١٩٩٠
- ٤٦ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث. ييسروت ١٩٩٠
- ٤٧ - السيدة فاطمة الزهراء ييسروت ١٩٩٠
- ٤٨ - الإمام على بن أبى طالب (الجزء الأول) ييسروت ١٩٩٠
- ٤٩ - الإمام علي بن أبى طالب (الجزء الثاني) ييسروت ١٩٩٠
- ٥٠ - الإمام الحسن بن علي ييسروت ١٩٩٠
- ٥١ - الإمام الحسين بن علي ييسروت ١٩٩٠
- ٥٢ - الإمام علي زين العابدين ييسروت ١٩٩٠
- ٥٣ - الإمام جعفر الصادق تحت الطبع
- ثامناً - معجم المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم:
- ٥٤ - الجزء الأول، مصر - الجزيرة العربية - بلاد الشام ييسروت ١٩٩٧
- ٥٥ - الجزء الثاني: العراق - المغرب - السودان ييسروت ١٩٩٧
- ٥٦ - دراسة حول التأريخ للأنبياء - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢

٥٧ - الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي -

الإسكندرية ١٩٩٣.

تاسعاً - سلسلة الإمامة وأهل البيت:

٥٨ - الإمامة

بيروت ١٩٩٥

٥٩ - الإمامة والإمام علي

بيروت ١٩٩٥

٦٠ - الإمامة وخلفاء الإمام علي

بيروت ١٩٩٥

فهرس الموضوعات

٤٥٧	إهداء
٤٥٩	تقديم

الباب الخامس

٤٦١	سكان فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي
٤٦٣	الفصل الأول: العناصر السامية
٤٧٤	١ - الأموريون
٤٧٧	٢ - الكنعانيون الفينيقيون
٤٨٤	٣ - الأراميون
٥٠٥	٤ - الأدوميون
٥٠٩	٥ - المؤابيون
٥١٢	٦ - العمونيون
٥١٣	٧ - المديانيون
٥١٦	٨ - اليبوسيون
٥١٧	٩ - العماليق
٥٢٤	١٠ - القينيون
٥٢٧	١١ - القنزيون
٥٢٩	١٢ - الفرزيون
٥٢٩	١٣ - اليرحيليون
٥٢٩	١٤ - العناقيون
٥٣٠	١٥ - الإيميون
٥٣٠	١٦ - الرفائيون
٥٣١	١٧ - الزمزيون
٥٣١	١٨ - الجرجاشيون

٥٣٣	الفصل الثاني: العناصر غير السامية
٥٣٣	١ - الحوريون
٥٣٥	٢ - الخيشيون
٥٣٧	٣ - الفلسطينيين
٥٤٥	٤ - الثيكر

الباب السادس

٥٤٧	الإسرائيليون والاستقرار في فلسطين
٥٤٩	الفصل الأول: يشوع ودخول كنعان
٥٤٩	١ - يشوع
٥٥٠	٢ - التخطيط لغزو كنعان
٥٥٥	٣ - سقوط أريحا
٥٥٦	٤ - سقوط عاي
٥٥٨	٥ - جبعون
٥٦١	٦ - الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين : بين الفتح والتسلسل
٥٦٩	القصل الثاني: عصر القضاة
٥٦٩	١ - السمات العامة لعصر القضاة
٥٧٥	٢ - قضاة إسرائيل

الباب السابع

٥٩٩	الملكية الإسرائيلية
٦٠١	الفصل الأول : قيام الملكية الإسرائيلية
٦٠٧	القصل الثاني : شاول
٦٠٧	١ - اختيار شاول ملكاً
٦١٢	٢ - شاول والعفونيون
٦١٤	٣ - تنويج شاول

٦١٧	٤ - شاول والفلسطينيون
٦٢٣	٥ - معركة جبل جلبوع ونهاية شاول
٦٢٥	٦ - شاول والملكية الإسرائيلية
٦٢٩	الفصل الثالث: داود
٦٢٩	١ - صورة داود فى التوراة
٦٣٢	٢ - داود فيما قبل الملكية
٦٣٦	٣ - اختيار داود ملكاً على يهوذا
٦٤٠	٤ - داود وتوحيد إسرائيل
٦٤٣	٥ - داود والفلسطينيون
٦٤٦	٦ - داود ومؤاب
٦٤٧	٧ - داود والعمونيون والأراميون
٦٤٨	٨ - داود وأدوم
٦٤٩	٩ - دولة داود ومدى اتساعها
٦٥٤	١٠ - الأدب العبرانى فى عهد داود
٦٥٤	١١ - التنظيمات الإدارية والمدنية والعسكرية فى عهد داود
٦٥٩	١٢ - وراثة العرش والخلافات العائلية
٦٦٢	١٣ - ثورة أبشالوم
٦٦٦	١٤ - ثورة شبع بن بكرى
٦٦٨	١٥ - التعداد العام ونتائجه
٦٦٩	١٦ - ثورة أدونيا
٦٧٠	١٧ - وفاة داود عليه السلام
٦٧٣	الفصل الرابع: سليمان
٦٧٣	١ - السياسة الداخلية
٦٧٨	٢ - السياسة الخارجية

٦٨١	٣ - التنظيمات العسكرية
٦٨٤	٤ - النشاط التجارى
٦٨٨	٥ - سليمان وملكة سبأ
٧٠٣	٦ - النشاط البحرى
٧١٣	٧ - النشاط الصناعى
٧١٧	٨ - مملكة إسرائيل فى عهد سليمان
٧٢٥	٩ - مبانى سليمان
٧٣١	الفصل الخامس : القدس
٧٣١	١ - موقع القدس وطوبغرافيتها
٧٣٥	٢ - مكانة القدس الدينية
٧٣٧	٣ - أسماء القدس
٧٤١	٤ - القدس فيما قبل عهد داود
٧٤٤	٥ - القدس على أيام داود
٧٥٣	٦ - القدس على أيام سليمان
٧٧٣	٧ - القدس فى عهد حزقيا ومنسى

الباب الثامن

عصر الانقسام

٧٧٧	الفصل الأول : الانقسام وأسبابه
٧٧٩	الفصل الثانى : إسرائيل
٧٩٩	١ - أسيرة يربعام
٧٩٩	٢ - أسيرة بعشا
٨٠٤	٣ - أسيرة عمرى
٨٠٦	٤ - أسيرة ياهو
٨٢٧	٥ - أخريات أيام إسرائيل
٨٣٥	

٨٤١	٦ - نهاية إسرائيل والسبي الآشوري
٨٥١	الفصل الثالث : يهوذا
٨٥١	١ - رجبعام
٨٥٥	٢ - أبيام
٨٥٦	٣ - أسا
٨٥٧	٤ - يهو شافط
٨٥٨	٥ - يهورام
٨٦٠	٦ - أخزيا
٨٦١	٧ - عثليا
٨٦٢	٨ - يهو آش
٨٦٣	٩ - أمصيا
٨٦٣	١٠ - عزيا
٨٦٥	١١ - يوئام
٨٦٥	١٢ - آحاز
٨٦٦	١٣ - حزقيا
٨٧٣	١٤ - منسى
٨٧٥	١٥ - آمون
٨٧٥	١٦ - يوشيا
٨٨٠	١٧ - يهو آحاز
٨٨١	١٨ - يهوياقيم
٨٨٣	١٩ - يهوياكين
٨٨٤	٢٠ - صدقيا

الباب التاسع

السبي والعودة

٨٨٧

٨٨٩ الفصل الأول : السبي البابلي

٨٨٩ ١ - سقوط يهوذا

٨٩٥ ٢ - السبي البابلي

٩٠٢ ٣ - الحياة فى السبي

٩١٥ الفصل الثانى : العودة من السبي

٩١٥ ١ - كيروش الثانى

٩٢٠ ٢ - العودة من السبي

٩٢٣ ٣ - إعادة بناء المعبد

٩٣٤ ٤ - نحميا

٩٤٢ ٥ - عزرا

٩٥٠ ٦ - السامريون

٩٥٧ الفصل الثالث : الجالية اليهودية فى مصر

٩٥٧ ١ - قيام الجالية اليهودية فى مصر

٩٦٥ ٢ - الجالية اليهودية فى أسوان

الباب العاشر

بنو إسرائيل فيما بين الثورة المكابية

ونهاية اليهود فى عام ١٣٥ م

٩٧٩

٩٨١ الفصل الأول : الثورة المكابية

٩٨١ ١ - فلسطين فيما قبل الثورة المكابية

٩٩١ ٢ - الثورة المكابية

٩٩٩ ٣ - الأسرة الحسمونية

١٠٠٦ ٤ - ظهور روما ونهاية الأسرة الحسمونية

١٠٠٩	الفصل الثاني : نهاية اليهود في فلسطين عام ١٣٥
١٠٠٩	١ - أسرة هيرودوس الأدومية
١٠١٧	٢ - ثورة أعوام ٦٦-٧٠ م وتدمير أورشليم
١٠٢٢	٣ - ثورة بار كوخبا
١٠٢٥	خاتمة
١٠٣٣	فهرس الأعلام
١٠٥٣	المراجع
١٠٨٩	الفهرس

